

مدارس علم النفس المعاصرة

تأليف
روبرت ودورت

ترجمه وفهد له عاتق عليه
الدكتور كمال دسوقي



مدارس علم النفس المعاصرة

الفه
روبرت ودورث

ترجمه وقدمله وعلق عليه
الدكتور كمال سوقي

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت، ص. ب. ٧٤٩

تقديم

لعلّ من حسنات الحركة الوضعية ، والنزعة التجريبية في العلم الحديث – إن كان للتطور التقدمي أن يوصف بالحسن أو القبح – أن ينظر إلى تاريخ بعض العلوم التجريبية وكأنه يأخذ منذ ذلك الحين فحسب نقطة تاريخه ، وأن ينظر إلى ما سبق ذلك من الدراسات في هذا العلم على أنه محاولات ميتافيزيقية نظرية عقيمة ؛ أولى بأن تضمها جدران المتاحف وذاكرات المؤرخين .

وأنت إذا نظرت إلى تاريخ علم النفس وجدته عريقاً ومحدثاً في الآن نفسه : عريقاً لأنه يرجع إلى معلم البشرية أرسطو – الذي دون له في كتابه عن النفس De Anima – بل إلى ما قبل ذلك في النفس الحية hylozoismus التي قال بها طاليس ، وكثيراً قبل ذلك في الأسفار والأشعار والمعتقدات الدينية ... ومحدثاً لأنك حين تريد أن تنظر إلى علم النفس بمعناه الأصح – أعني إلى علم النفس لا إلى مجرد النفس ، وإلى هذا العلم في مرحلته الوضعية – يجب أن تؤرخ له بأوائل الربع الأخير – أو أواخر السنوات السبعينية – من القرن الماضي ؛ أي منذ أخذ بدوره بحركة التجريب .

ولن ينهض بنا هذا عذراً حين نظهر على ما كان من انقسام علم النفس لأول عهده إلى شيع وأفراد ؛ فإن كثيراً من العلوم الأخرى قد مرت بهذا الدور – دور التجريب – أيسر مما مر علمنا هذا . ولكنك لا تلبث أن تُقرنا على أن اتساع ميدان الظواهر النفسية في الإنسان والحيوان ، والطفل والراشد ، والمريض والمجنون ؛ وتعدد الدوافع والغايات التي عساها أن تكون مبدأ أو غرضاً للسلوك الإنساني والحيواني في أولئك جميعاً ؛ ثم كثرة القوى النفسية التي يجب أن ننشد فيها مصدر هذه الدوافع والغايات ؛ وكثرة المناهج التي لا يستطيع هذا العلم إلا أن يأخذ بها جميعاً ؛ وفوق هذا كله هذا التراث التقالدي العتيق الذي ورثه علم النفس عن ماضيه الفلسفي الطويل ؛ كل ذلك من شأنه أن يجعل لهذا العلم في عهده الجديد بداية لا تخلو من تعثر ومحاوله ، وتفرق واختلاف .

وانقسمت المذاهب في علم النفس إذن إلى مدارس ، لكل منها منهجه وغايته وموضوعه من بين هذه المناهج والغايات والموضوعات ؛ تختلف في هذه وتتفق في تلك ، وقد تكون مختلفة في هذه جميعاً ، ولكنها لا تتفق فيها جميعاً . وتلك هي الميزة الأولى لهذا الكتاب - من بين غيره من الكتب في علم النفس - التي شفعت له بترجمتنا ؛ فهو وحده الذي استطاع أن يؤرخ لنا علم النفس الحديث من خلال مدارسه ، وأن يُعرِّفه في كل مدرسة منها بالخطوط العامة الرئيسية لمذاهبها ، وبأهم أعلامها وبأحثها .

وقلّ إذن أن تجد لهذا الكتاب نظيراً فيما يقع لك من كتب علم النفس . فكلها أو معظمها يحاول المؤلف فيه أن يتخذ لنفسه وجهة موضوعية ؛ يتناول فيها عرضاً لمبادئ علم النفس العام ، أو لواحدة من مسائله وموضوعاته ، أو لهذه جميعاً من وجهة نظر مدرسة بعينها . وحتى إذا كان الكتاب في تاريخ علم النفس ؛ لم يخل أن يكون إما عرضاً لتطور علم النفس تطوراً تاريخياً ؛ كتاريخ ميرفي وبورنج وبراون وفلوجل . . أو أن يكون مقالات يكتبها علماء كل مدرسة في موضوعات خاصة بمذهبهم كسيكولوجيات ١٩٢٥ ، وسيكولوجيات ١٩٣٠ . وكتاب العواطف والانفعالات Feelings and Emotions الذي اشترك في تحريره أربعة وثلاثون من أئمة علماء النفس . . . إلى غير ذلك من الموضوعات السيكولوجية مما تصدره مطبعة جامعة كلارك بإشراف الأساتذة مرتشيزون وبارتل وريمير وغيرهم ، وكذلك كتاب إليس Ellis الكبير في علم النفس الجشطالتي . . وأخيراً بتاريخ حياة علماء النفس في مختلف الأقطار جميعاً - بأفلامهم هم - في تاريخ يتضمن حياتهم ، وتعلمهم ، والجامعات التي درسوا فيها ، والدرجات التي حصلوا عليها ، والمناصب التي شغلوها ، والجماعات العلمية والسيكولوجية التي اشتركوا فيها ، والصحف التي ساهموا في تحريرها ، والبحوث والمقالات التي نشرها ، والكتب التي ألفوها أو نقروها أو راجعوها أو أعادوا نشرها . . . كما نجد في السجل السيكولوجي Psychological Register في مجلداته الثلاثة التي أصدرتها تباعاً مطبعة جامعة كلارك بإشراف الدكتور مرتشيزون ، وفي كتاب علم النفس بالتأريخ الشخصي Psychol. in Autobiography لنفس الناشر (١٩٢٨ وما بعدها) .

فكتابتنا هذا ينفرد من بين هذه الكتب جميعاً بنظرته إلى علم النفس الحديث من خلال مدارسه ومذاهبه . ويتميز فوق هذا بأنه يدع جانباً - فيما عدا الفصول الأولى منه - فترة الطفولة في كل من هذه المدارس والمذاهب ،

ولا ينظر إليها إلا إبان نموها ونضوجها . ثم يتميز فوق هذا كله بأنه ينظر إلى هذه المدارس جميعاً على أنها نشأت من أصل واحد هو علم النفس الارتباطى العقلى الاستبطانى القديم الذى استحدثه فونت لأول عهده بالتجربة ؛ نقول ينظر إلى هذه المدارس جميعاً على أنها نشأت من هذا العهد التجريبي الأول ، الذى يسميه « النظام القائم » established order ، والذى يحدد لهيئته بسنة ١٩١٢ .

وهو حين يجعل من هذه السنة حداً بين العهد القديم وظهور هذه المدارس فى تمام نضجها محق إلى حد كبير : فى هذه السنة نشأت الساوكية على يد وطسون ، ومذهب الحشطلت على يد فرتيمر وأصحابه ؛ وقبلها بتقابل نشأ المذهب النزوعى أو القصدى على يد مكوجل ، وبكثير التحليل النفسى على يد فرويد . فكأنه فى هذه السنة كانت أهم المدارس السيكولوجية قد ظهرت ونمت . والمهم هنا أن ودورث يصوّر لنا هذه المدارس لأول ظهورها — حوالى ذلك التاريخ — نائرة على « النظام القائم » إن فى منهجه ، أو موضوع علم النفس عنده ، أو تصوره لغاية هذا العلم ؛ بعضها يثور ثورة واحدة ، والبعض ثورة مزدوجة ، ولكنها لا بد — على أى حال — أن تظهر على المسرح بثورة على هذا النظام .

ويصرح ودورث أحياناً بسيكولوجية هذه الثورات ؛ فيرى أن لكل ناشئ رغبة فى الظهور المفاجئ ، وأنه لا يريد أن يأخذ عمله ونشاطه مجراها الطبيعى ؛ بل هو يتعجل المجد ولو على حساب غيره ، ولا بد له حينئذ من أشخاص قليلى الشأن — فى مذهبهم ثغرة أو نقص ، مع ما لدراستهم فى مجموعها من قيمة — كما كان موقف الحشطلتين (وخصوصاً كفكه) من السلوكيين (وخصوصاً ثورانديك) . إلا أن ودورث يهون من فعل هذه الثورات الموقوتة قائلاً : إنها تأتي حقاً بجديد ، ولكن ما تأتي به لا يلبث بعد حين أن يصبح هو الآخر « نظاماً قائماً » ، ويستهدف لكثير من الثورات قد يسلم منها بدوره وقد لا يسلم .

ودورث ؛ حين تناول هذه المدارس واحدة فواحدة ؛ لم يتحز — كما وعد فى مقدمته — إلى واحدة منها ، ولا هو حبيب فى هذه أو نقر من تلك ؛ ولكنه اتخذ موقف المؤرخ الأمين فى عرض فبكرة فى كل مدرسة ، والحديث عن أصحابها ومجهودهم ، ونقد آرائهم ، والدفاع عنهم — إثر هذا النقد — بحداثة السن ، وكون المجال ما زال مفتوحاً أمامهم ليثبتوا وجودهم . فهو من هذه الناحية مؤرخ حق ؛ وإن كنا لا نبرئه من التعاطف مع مدرسة بعينها ، والانسجام فى الحديث عنها ، كالسلوكية

والتحليل النفسى . وواجبنا هنا أن نتلمس له بعض العذر ؛ فهو كأمريكى - مهما كان استقلاله عن التبعية والانتساب لواحدة من هذه المدارس - لا بد أن يكون على علم أوسع بالسلوكية التي هي أمريكية ، والحال كذلك في التحليل النفسى ، الذى - وإن لم يكن أمريكياً - إلا أنه منذ أصبح عالمياً بعد قليل من شيوعه فى أوروبا ؛ قد تلقفته أمريكا ، وكثرت كتاباتها عنه ومزاولتها له ، واحتضانها لعلمائه وغيرهم من المشتغلين بعلم النفس . ومن هنا لا ندرى لم كان علمه هكذا قليلاً بالجنسيتين ، كما يظهر من كتابته عنهم ؛ مع أنهم قد رحلوا إلى أمريكا ، ودعوا لمذهبهم فيها ، ونشروا وحاضروا - كما سنرى - ربما لأن نشاطهم حينئذ لم يكن يعدو موضوعات محدودة ، ولأن الكتب العامة لمذهب الجشطلت قد تأخر ظهورها إلى حوالى ١٩٣٠ ، أو ربما لأنه لم يجد فى كتابه مجالاً لسرد تجاربهم والتوسع معهم أكثر مما فعل . أما مكيدوجل ، فهو - وإن أوجز الكتابة عنه - قد وفاه بعض حقه كفرد تقوم حوله مدرسة علم النفس الاجتماعى النزوعى المورى ؛ التي طغت عليها المذاهب الأخرى ، والتي عاد يُجددها ويوجه الانتباه إلى الناحية الاجتماعية منها خصوصاً جماعة من علماء النفس الاجتماعى الإنجليز بإشراف الدكتور كارل مانهم . ويعرض المؤلف فى آخر كتابه لعلماء النفس الذين لا تربطهم بهذه المدارس أية صلة ، والذين يسرون فى عرض الطريق - لا ينتحون منه جانباً كما يفعل علماء المدارس . وهويتحدث عنهم بجرارة وتحمس ، وإن كانت ظروف محاضراته - التي هى هذا الكتاب - لم تسع وفاءهم أى نحو من الوفاء . فلا هى شملتهم جميعاً ؛ بل اقتصرت على أبرز معاصريهم ، وحتى هذا القليل قد قنع فى الحديث عنه بالكلمة العامة أو الفكرة البارزة ، مع أنهم عنده الأغلبية فى العدد والإنتاج العلمى ، والمستقبل لهم فيما يرى ، بل هم « المنظور » لصورة علم النفس و« الميكل العام » لعلمائه . فلا علينا أن نجدده يجذ المستقنين من علماء النفس فى كتابه عن « مدارس » علم النفس ؛ لأنه منهم . ولا بأس كذلك فى أن يصنف هؤلاء حسباً يمثل كل منهم من أقطار ؛ فهو ربما تناولهم جميعاً حسب دراساتهم - وعلى نحو أوسع - فى كتابه « علم النفس التجريبي » الذى ظهر بعد .

قد يكون الحياء محبوباً ، وقد يفضله غير ودورث ممن يؤثرون الاستقلال . ولكن ينبغى أن نعرف للمدارس - مهما يكن من اختلافها وتنازعها - بكيبر أثرها فى تحديد الموضوعات العامة التي لا غنى لعلم النفس عنها ؛ قبل أن تأتى

مرحلة التخصص وتناول الموضوعات الجزئية منه على نحو فردي . وإذا كان هتورى أن مما يدل على حداثة علم النفس وجود هذه المدارس ، ويريد - كما نريد نحن - أن تزول هذه المدارس لتحل محلها دراسات فردية قاطعة كالتى ينتهى إليها علماء الطبيعة والعلوم الفيزيكية ؛ فإننا نرى أن هذا التكتل ضرورى لتحديد المسائل الرئيسية فى هذا العلم ، ونود ألا تزول حتى ينتهى صراعها إلى نتيجة شاملة يتحدد معها موضوع هذا العلم وغايته ومنهجه - قبل الانصراف إلى معالجة موضوعاته - بعد ألا يبقى منها إلا الأصلح .

وقد لا نحب أن يظل علم النفس يتدارسه جماعات ومدارس ، ولو أن ذلك نزوع إلى تقليد علم الطبيعة والفيزيقيين - مع إغفال الفرق الجوهرى بين موضوعية هذه الدراسات وذاتية مباحث علم النفس . ولكن يجب أن ننبه إلى أن مدارس علم النفس لا تزال فتية ناشطة ، وأنها - وإن لم يكن بقاؤها مرغوباً فيه إلى الأبد - قد ساعدت على تقدم علم النفس فى مراحل تجريبه الأولى . فوجودها متحقق فى الماضى القريب ، والحاضر المستمر ، وربما فى المستقبل البعيد أو غير البعيد ؛ يأخذ عنها علماء وسط الطريق أنفسهم . ولا نعلق على أثرهم فى علم النفس بأكثر من الإشارة لجماعة فونت فى ألمانيا ، و« كتل » فى أمريكا ، وفرويد وأتباعه أو معارضيه فى فرنسا وألمانيا . فكل جماعة من هذه ليست فى ذاتها مدرسة ، ولكن عملها الجماعى يتأثر الأستاذ ، أو تحضير الدرجات العلمية عليه ، أو حتى بمعارضته - على ترتيب ما ذكرنا - كان يؤدي فى كل جماعة من هذه إلى إنتاج خصب ، ونشاط وتنافس مستمر ، لا يعده عمل فردي . نقول هذا ونكرر معه أننا لا نرمى إلى تسوية بقاء المدارس فى علم النفس ؛ بل نريد مجرد إظهار قيمتها فى شئ من الإنصاف ضمن به عليها المؤلف ، وخصوصاً فى خاتمة كتابه .

فإذا كانت هذه المدارس تحاول كل منها أن تبرز ناحية خاصة فى موضوع العلم أو منهجه أو غايته ؛ فتلك حسنة من حسناتها ، لأن مدرسة واحدة أو فرداً واحداً لن يستطيع أن يجتذب انتباهنا ، ويقدم لنا دراسة كاملة وافية لهذه النواحي المتشعبة جميعاً . بل لا بد أن يعكف على جانب جانب منها ، ولا بد حينئذ أن يعارضه باحث ويؤيده باحث فى هذه المسألة ذاتها ، وهكذا فى بقية المسائل . ومن هنا تنشأ المدارس ، وستظل تنشأ ، وتزيد ولا تنقص . ولا ضير علينا فى هذا ؛ فلدينا حقائق العلم الثابتة التى نسميها « علم النفس العام » ؛ ندرسها كما تدرس العلوم

الطبيعية إلى حد كبير ، ولا بد أن يجيء ذلك اليوم الذى يتحدد فيه موضوع العلم وغايته ومناهجه على نحو يصبح تناولها معه لغواً وتكراراً . حيثئذ يُهجر هذا اللون من الدراسة ، ويفسح المجال لدراسة يقينية ثابتة مقررة تأخذ بخلاصة هذه الدراسة الطويلة . ونحن صائرون إلى هذا الطريق منذ الآن .

فلا نوغل أكثر من هذا فى مناقشة الحكم التقديرى لهذه المدارس ، فلسنا ندرى على وجه التحديد أهى خير لهذا العلم أم شر عليه . وحسبنا أن كلا منها تشغل ميداناً من ميادينها الواسعة الكثيرة . ولننظر إليها الآن كحقيقة واقعة ؛ حتى نرى الأصل التاريخى المباشر الذى انحدرت عنه هذه المدارس ، واتخذت منه إمكانياتها وحقائقها .

* * *

« فالنظام القائم » الذى قلنا إن هذه المدارس قد ثارت عليه وقامت على أنقاضه — ولا بد أن نذكر أنه ، قبل ثورتها عليه ، كان يسمى حينئذ علم النفس الحدِيث تمييزاً له عن سيكولوجيا العصور الوسطى وديكارت وليبنيس وغيرهما — يتميز هذا النظام القائم بأنه : ارتباطى يرى فى الأحساس الأولى عناصر يتكون منها بالتركيب والارتباط مدركات وصور ومشاعر ... الخ ، وأنه يتخذ موضوعاً لدراسته المملكات العقلية من تصور وتذكر وتخيل وإحساسات مختلفة ، وأن منهجه خصوصاً هو الاستبطان — أو التأمل الباطنى — أو النفوذ إلى باطن الشخص نفسه والإدلاء بما يشعر به — أى بخبرة الفرد — مع شئ من التجريب على فزيولوجيا العقل ؛ أو ما يسمى علم النفس التركيبى أو البنائى .

وبيان ذلك أنه نشأ سنة ١٨٧٩ أول معمل سيكولوجى عرفه العالم بالمعنى الإدارى أو التنفيذى الذى تحمله كلمة psychologisches Institut الألمانية ، التى دمج بها فلهلم فونت معمله الذى أنشأه — بعد أربع سنوات من توليه كرسي الفلسفة فى لپتسك — بسيطاً أول الأمر ، ثم متسعاً بعد قليل إلى إحدى عشرة حجرة فى مبنى مهالك من المدينة ، حلت محله مبان أحدث منذ سنة ١٨٩٧ . وعلى أى حال ، فإنه فى هذا المكان المتواضع من مدينة العلم والتجربة ؛ ولد علم النفس التجريبى ميلاده الحقيقى ، وشب على قدميه ليثبت وجوده الفعلى ؛ بعد أن لم يكن يعدو من قبل مجرد محاولات غير مقصودة ، فى أمكنة غير مخصصة ، على يد جيمس واشتمف قبل ذلك بقليل . وفى هذا المكان المتواضع أيضاً تخرج الرعيل الأول من أئمة علم النفس التجريبى — لا فى ألمانيا وحدها ؛ أمثال كيلبه Kùlpe ،

وليمَن Lehmann ، وميومَن Meumann ، وكراپيلين Kraepelin وغيرهم كثير - بل في أمريكا ذاتها ؛ أمثال استانلى هول ، وكتل ، واسكرپتشر Scripture ، وأنجل Angell ، وتتشنر Titchener ، ووارن Warren ، وتومر Witmer وغيرهم . وكَتَل نفسه ؛ قد تخرج عليه في كولومبيا أعلام علم النفس التجريبي الأمريكي - على النحو الذى سنرى في الحديث عن مؤلف هذا الكتاب ، وفي تعليقتنا على كَتَل في موضعه . والطريف في أمر كتل أنه قد استفاد من فونت شخصية علمية تجريبية منذ أن فرض نفسه مساعداً له في معمل ليهتسك ، فإن فونت يروى أن كتل جاءه يوماً وقال : « سيدى الأستاذ : إنك في حاجة إلى مساعد ، وإننى مساعدك » . وبهذه المرأة الأمريكية غير المألوفة ؛ عين كَتَل نفسه مساعداً لفونت ، فأتاح له ذلك دراسة مشكلة الفروق الفردية خصوصاً ، التى - لنجاحه وأتباعه فيها في أمريكا بعد - قد وصفها فونت بأنها دراسة أمريكية بحت ganz amerikanish . ويحدثنا ودورث نفسه عن نوع العمل الذى بدأ به معمل فونت ؛ وهو البحث في قياس أزمنة الرجوع في العمليات العقلية بوجه عام ، فيقول (علم النفس التجريبي ١٩٣٨ - ص ٣٠٣ وما بعدها) : « إن الفلكيين كانوا يبحثهم في المعادلة الشخصية personal equation أسبق من علماء النفس وهادين لهم في البحث عن زمن الرجوع والاستجابة . وفونت - الذى كان عالماً فيزيولوجياً في البدء - قد أدرك في سنة ١٨٦٠ إمكان قيام علم نفس فيزيولوجى كما سماه ؛ يبدأ - حيث انتهت الفيزيولوجيا حينئذ - في دراسات الأحساس والحركة العضلية والجهاز العصبى ، كما ينتهى إلى منهج أصح في دراسة العمليات العقلية . واتخذ الاستبطان منهجاً لعلم النفس أساسياً ، على أن يكمله التجريب لحل الظواهر المعقدة التى يأتى بها الاستبطان . فكان ذلك أظهر ما يكون لقياس الزمن ؛ وخصوصاً في استجابة التعرف cognitive reaction التى انتهى إليها فونت بعد معادلة الفلكيين وبحث دندرز Donders ... فلما افتتح معمله في ليهتسك (١٨٧٩) كان من برنامجه الأساسى البحث في تزمين العمليات العقلية (١٨٧٠ - ١٨٨٣) عن طريق البدء بالاستجابة البسيطة أولاً ، ثم تعقيد العملية خطوة كل حين حتى ننتهى إلى الوقت الذى تستغرقه كل عملية على حدة » .

ولن يعيننا هنا تتبع عمل فونت وتدرجه على نحو ما فعل ودورث وغيره من المؤرخين ؛ وحسبنا أن نشير إلى نوع العمل في بدايته ، وإلى الروح الموجه لهذا

المعمل الفسيّ النشيط إبان ميلاده . كما أن مجالنا هنا لن يتسع لذكر عمل فوننت وسرد كتاباته الكثيرة مجرد الذكر أو السرد ؛ فإنها أكبر من أن تستوعبها كتب خاصة . ويكفي أن نقول إن دراسات فوننت في لپيتسك وفي ألمانيا — منذ أنشأ أول معمل لعلم النفس — صارت تمثل الزعرة التقليدية لهذا العلم ، أي علم النفس الباطني للعناصر الحسية في ارتباطاتها ومركباتها . فهو علم نفس منهجه الاستبطان — مع نوع من التجربة كما قلنا ، وموضوعه خبرات الشعور أو مضموناته Inhalte حتى سميت سيكولوجيا فوننت بعلم نفس الخبرة أو المضمون Inhaltspsychologie . وهذا النوع من علم النفس الاستبطاني introspective ، التحليلي elementaristic ، الحسي sensationistic ، الارتباطي associationistic الذي قال به فوننت ؛ قد أصبح من السيطرة والاتساع في ألمانيا حتى إن علم النفس الوظيفي الجديد — المقابل له — لم يظهر في ألمانيا ، ولا في تلاميذ فوننت ؛ بل قال به برنتانو في النمسا .

نقول بلغ من نفوذ علم النفس التجريبي الذي قال به فوننت ؛ أن علم النفس الوظيفي — علم نفس الفعل — كما قال به لأول مرة برنتانو Brentano لم ينشأ إلا في جنوب ألمانيا وفي النمسا ؛ بينما ظل علم نفس الخبرة أو مضمون الفكر مسيطرا على القسم الشمالي ، مع أنه لا تعارض جوهرياً بين دراسة الخبرة ودراسة الفعل . ويقول بورنج E. Boring (تاريخ علم النفس التجريبي — ١٩٢٩ — ص ٤٤٨ تعليقات عامود ١) : إن تأثير الكنيسة الكاثوليكية في هذا القسم الجنوبي — الذي نشأت فيه سيكولوجيا الفعل — كبير ، وسلطان أرسطو — الذي عاد تقديمه إلى العالم الحديث برنتانو — كبير أيضاً ، والفعل يناسب الكنيسة أكثر من الخبرة (المضمون) لأنه أكثر نزوعاً للقول بالآلية ؛ وبالتالي للجبرية في علم النفس . فكأن اتجاه برنتانو إلى مشابعة الكنيسة — بتوجيه العلم التجريبي هذه الوجهة الجديدة — لاشتغاله أول أمره قسدياً ، ثم بعد هذا القسم عن نفوذ فوننت ؛ هما أهم العوامل التي هيأت لظهور سيكولوجيا الفعل .

وإذن ، ففي مقابل علم نفس الخبرة أو المضمون أو الارتباط Verbindungspsychologie الذي أكدته فوننت في الشمال ؛ ظهر ما يمكن أن يسمى علم نفس الفعل أو الوظيفة أو العمليات العقلية Vorgangpsychologie على يد برنتانو وأتباعه في النمسا وجنوب ألمانيا . ولا يذهب بنا الأمر إلى أن نتصور تمام التقابل بينهما ؛ خصوصاً وأن الألفاظ المعبرة عن كل من هذه المدارس لم تجد مرادفاتهما الصحيحة ، أو تتحدد التحديد

الكامل في اللغات الأخرى : فكلمة Inhalte بمعنى مضمون الخبرة ليس لها في الألمانية مقابل محدد كالذى لها في الإنجليزية بين content و act أو function. ويسمى جورج إلياس ميلر نظرية فونت باسم نظرية مركبات العقل في Komplextheorie في مقابل النظرية الجديدة Gestalttheorie ، وعيب هذه التسمية أن كلمة Komplex قد اتخذت عند مدرسة التحليل النفسى فيما بعد معنى العقدة النفسية المكتوبة . وكان تشرنق قد اقترح تسمية النظرية الأولى : علم النفس البنائى أو التركيبى structural psychol. فى مقابل علم نفس الفعل أو الوظيفى functional psychol. ؛ ولسوء الحظ كذلك حدث اشتراك لفظى ، حين سُمى مذهب الجشطلت Strukturpsychologie. تعريفاً له ، واضطرت الإنجليزية لعسر ترجمة هذا الاسم عندها أن تسمى هذا المذهب باسم Structural psychology ؛ فدل الاسم على الشئ ونقيضه ، وعانى علم النفس الجديد حاجته إلى تحديد اسمه ومصطلحاته ما لم يكن مذهب فونت فى حاجة إلى معاناته — لرسوخ نظرياته وتعالمه ، وتقاليده المحافظة — مما يؤكد ما قلنا من نفوذه وسلطانه .

وزاد فى حيرة علم النفس الجديد وتعثره لأول أمره هذه الحقيقة التاريخية العجيبة ؛ وهى أن سيكولوجيا الخبرة — لتقدمها فى مضمار التجريب — قد بدت وكأنها علم النفس التجريبى الحقيقى ؛ حتى كاد يظن أن سيكولوجيا الفعل غير قابلة للتجريب قبول سيكولوجيا الخبرة ، وأن مواد الفعل وحقائقه لا يمكن ضبطها ، وأنها بالتالى لا تخضع للعلية والبحث العلمى . ولكن هذا العلم الجديد سرعان ما تخلى عن جدله ونظرياته ليتناول موضوعاً من أخص موضوعات علم النفس التجريبى ، ونعنى به : مشكلة إدراك المكان ؛ فهى المشكلة التى تضع نفسها بسهولة تحت ملاحظات البحث التجريبى . وبينما كان عمل مدرسة الخبرة التجريبى ينصب فى معظمه على فيزيولوجيا الحواس ، والبحث فى الإحساس ، إلى غير ذلك مما أدى بها إليه هذا البحث ؛ سارت مدرسة الفعل فى التجريب على الإدراك ؛ لم تقصد — بخطة موضوعة أو تدبير سابق — أن تكون تجريبية أو فيزيولوجية ، أو معارضة للارتباطية . ولكنها ما إن وقفت على نظرية خاصة الصور Gestaltqualitäten فى إدراك المكان وفى الحركة الأسكروبيسكوبية خصوصاً ؛ حتى سارت فى الطريق إلى نهايته ، وعن هذه المدرسة خرجت مدرسة من أحدث مدارس اليوم قوة وأكثرها نشاطاً ؛ ونعنى بها سيكولوجيا الجشطلت Gestaltpsychologie .

فلا الحدود الجغرافية إذن ، ولا نقص المصطلحات العلمية ، ولا بُعد العمليات العقلية والوظائف عن التجريب ؛ هو الذى أخرج ظهور علم نفس الفعل كشق متمم لسيكولوجيا الخبرة فى ألمانيا فى أواخر القرن التاسع عشر ؛ بقدر ما كان نفوذ تعاليم فونت العامل الأكبر . والمهم إذن أنه فى ذلك الحين كانت سيكولوجيا الخبرة التى يمثلها فونت وأتباعه فى الشمال ، وسيكولوجيا الفعل التى يمثلها برنتانو وتلاميذه فى الجنوب ؛ بمثابة قرنى الإحراج فى أوروبا — كما يقول المؤرخون — وأن برنتانو ، الذى ظل فى فيينا (من ١٨٧٤ إلى ١٨٩٤) قد خرج أتباعاً مجددين أشهرهم إيرنفلس Ehrenfels ، ومينونج Meinong ، ولپس Lipps ، وكورنيليوس Cornelius وبنوسى Benussi . ويمكن أن نعد من بينهم اشتمف Stumpf لميله إلى جانب الفعل ، وكيلپه Külpe ، ومسر Messer لأثرهما فى المذهب فيما بعد — وإن كان كلاهما من الموقنين البارزين بين سيكولوجيتى الخبرة والفعل .

ومن أشهر أتباع هذه المدرسة ماخ E. Mach الذى جاء إلى فيينا عقب مغادرة برنتانولها ، وكان قد نشر فى براغ كتباً ذات أثر كبير فى علم النفس . أما مينونج فقد عاصر برنتانو فى فيينا معيداً Dozent وعاد إلى جامعة جراتس Graz (١٨٨٢) وأسس فيها أول معمل نمسوى لعلم النفس التجريبي سنة ١٨٩٤ ، وظل فيها حتى وفاته سنة ١٩٢٠ . وسيأتى ذكر كثير من هؤلاء الأتباع فى تعليقنا على النص — بشىء من التفصيل — أما مرجع هذه المدرسة الأهم فى الإنجليزية فهو تيتشر Titchener فى كتابه علم النفس التجريبي ، وفى مقالاته بمجلة علم النفس الأمريكية سنوات ١٩٢١ ، ١٩٢٢ ، ١٩٢٥ .

وأخذ هذه المدرسة بالمنهج التجريبي ، وميل أصحابها إلى الخروج عن المذهبية إلى المعامل والتجريب ؛ قد قرب الشقة بينها وبين نقيضها — علم نفس الخبرة — بعد أن كانا — كما قلنا من قبل — بمثابة قرنى الإحراج . كما أنه فتح أمامها مجال التقدم والتعبير عن تجاربها بمصطلحات الفعل أو الوظيفة ؛ مما بدد ظن الكثيرين حينئذ بأن الوظائف والفعل ليست بالتى يسهل العمل عليهما ، أو يتأدى فيها إلى حقائق ومادة صالحة . ونشيد هنا خصوصاً بمينونج الذى كان فى دراسته بمعمله تجريبياً أكثر منه مجرباً ، أعنى experimentalist أولى منه empiricist كبقية رفاقه ، وفيتاسيك Witasek وبنوسى Benussi اللذين عبرا تعبيراً جديداً عن حقائق الإدراك فى حدود الفعل ، وبيننا أنه بينما يعنى عالم نفس الخبرة بمضمون أحكام دراسته

وملاحظته ؛ فإن علم النفس الوظيفي يُعنى بالحكم ذاته كوظيفة أو فعل — أى بما يسمى Judging لا Judgements .

وعلى أساس هذا التقريب بين وجهتي النظر إلى حقائق بعينها من حيث هي خبرة ، أو من حيث وظيفة العقل فيها ، نظراً تجريبياً من كل جانب ؛ قامت نزعة التوفيق التي قلنا ، والتي حمل لواءها كيليه — وخصوصاً مسر Messer — وضما معهما هسرل Husserl . وكان غرض هذه الحركة — مادام لا فرق جوهرياً بين الخبرة والفعل — أن يزوج بهما في ميدان البحث السيكلووجي جنباً إلى جنب . وسواء أكان في محاولتها هذه شيء من التعسف بوضع حقائق الخبرة الثابتة إلى جانب حقائق الفعل الساذجة حينئذ ، أو لم يكن ؛ فإنه يعيننا هنا أن نرى أنه — إلى جانب أصحاب علم نفس الفعل الخالص أمثال برنتانو ومينونج — كان تمت جماعة موفقة تأخذ بوجهتي النظر ، وتتمثل في كيليه ومسر وهسرل وفيثاسيك .

وهذا الزواج بين الخبرة والفعل — الذي عقده أوجوست مسر — فيما سمي علم النفس الازدواجي bipartite psychol. ، لسنا ندري هل تأثر فيه بكيليه الذي كان يكبره بنحس سنوات ، واللذين اتحد ميلهما إلى نظرية المعرفة epistemology وعلم النفس منذ أن كانا زميلين في فرتسبورج ؛ أم أنه هو الذي جذب كيليه لهذا الرأي ؛ فتلك مشكلة لم يصل المؤرخون فيها إلى حل . ولكننا ندري أن مسر هذا قد أعجب بطريقة كيليه في النظر إلى علم النفس نظراً فلسفياً ، وأنه نتيجة لعمله معه في فيرتسبورج ظهر بحثه : بحوث سيكلووجية تجريبية في التفكير Experimentell- psychologische Untersuchungen Uber das Denken (١٩٠٦) الذي يعد من أهم دراسات فرتسبورج ، وأنه نشر عن عمله هذا كذلك كتابه الإدراك والتفكير Empfindung und Denken (١٩٠٨) الذي عرض فيه لموضوعات علم النفس التي تقع على الحدود بينه وبين نظرية المعرفة كالإدراك ، والمعنى والانتباه ، والتجريد ، والحكم ، والفكر ؛ كما حاول أن يبرز العناصر الحسية في الإدراك بمعزل عن العناصر العقلية فيه . وعبر مسر عن هذه النظرية أحسن ما عبر في كتابه Psychologie (١٩٢٠) . كما أن هذا الازدواج قد ظهر في «محاضرات» كيليه Vorlesungen منذ ١٩١٢ ، ومن قبل كان كتابه « Die Realisirung » مصادر وحي مسر ؛ ولكن مسر يعد أحسن معبر عن هذا الاتجاه .

وخلاصة هذا الاتجاه ؛ ما يقول به مسر من أن علم النفس — لا الإيستمولوجيا —

يعالج الخبرات المقصودة أو المنشودة intentional experiences : الاسم يرمز للمضمون والخبرة ، والصفة تدل على الفعل والوظيفة . حقاً إن مثل هذه الخبرة تتضمن حقائق الخبرة اليقينية الثابتة وحقائق الفعل الغامضة المهمة ؛ ولكن على علم النفس أن يتوسع بمجاله من الخبرات لينتقل إلى ميدان الفعل .

ويستطرد « مسر » في مذهب يميز فيه أنواعاً من الخبرة المنشودة ثلاثة ، هي : التعرف knowing الذى هو « الشعور بالأشياء » ، والتبصر feeling أى « الشعور بالموقف » ، والإرادة willing أو « الشعور بالعلة » . ولكل من هذه الثلاثة عناصر خبرة وعناصر فعل تدخل فيها – يناقشها « مسر » ، ولا يتسع مجالنا لتتبعها . وبهنا في هذه السيكولوجيا الازدواجية أنها لم تستطع أن تجعل من الخبرة والفعل شيئاً واحداً – كما كان يُظن – فلم يقتصر الفرق بينهما على مجرد جلاء الحقائق أو غموضها ؛ بل إنهما – كما يقول مسر نفسه – منفصلان في أحوال خاصة ؛ يمثل فيها حالة الخبرة بدون فعل : بهامش الشعور ، حيث الخبرات المجردة والمضمونات التى لا معنى لها ؛ ويمثل حالة الفعل إذا تعرى عن الخبرة : بالفكر بلاصورة imageless thought ، حين نتأمله .

وكيلبه نفسه – وإن كان من دعاة التوفيق – قد فرق بين الخبرة والفعل تفرقة دقيقة بوصفهما جانبيين من الحياة العقلية منفصلين . وسبب ذلك عنده انفصالهما أولاً في خبرتنا الشخصية ؛ فتمت خبرات بقليل من الفعل – كما في الأحلام ، أو في مجرد إعطاء شيء ما . وتمت فعل بقليل من المضمون – في مجرد الملاحظة العابرة أو التوقع ، حيث لا شيء . وثانياً : لأن كليهما يتغير في استتمال عن الآخر ، المضمون يتغير بدون الفعل – حين ندرك شيئاً حسياً ، وآخر ، وثالثاً ، مدركات مستمرة . والفعل بدون الخبرة – عندما ندرك ، ونعرف ، ونحكم على نفس الخبرة أو ذات المضمون . وهذه حجة برنتانو . وثالثاً : تختلف الخبرة والفعل في خصائصهما : الخبرات تتحلل في الشعور ، ولا كذلك الوظائف ؛ فالتحليل يغيرها . الخبرات يمكن ملاحظتها بالاستبطان ، بينما الوظائف بالاسترداد أو الاسترجاع retrospection الخبرات نسبياً ثابتة ، والوظائف نسبياً غير ثابتة أو جامدة ؛ بل فيها فعل وحركة ؛ ونتيجة لهذا فهذه جليلة واضحة ، وتلك مهمة غامضة unanschaulich . ورابعاً : ليس ثمة علاقة بين التغير الكيفي qualitative differences أو الكم والشدة intensity مع أنهما مشتركان في كليهما . وأخيراً ، فإن الخبرات والوظائف تختلف من حيث خضوعها لقوانين مختلفة : فبينما قوانين الخبرة هى الترابط ، والامتزاج ، والتقابل ،

والاستجابة للمؤثرات وأعضاء الحس ، والتلازم السيكولوجى بوجه عام ؛ إذا بقوانين الفعل تشمل أثر وجهة النظر Aufgabe ، وقوانين الميل المحدد ، وقوانين أخرى - يرى كيايه أن العمل التجريبي على الوظائف سوف يكشف عنها كما كشف عمل مدرسة فيرستبورج عن هذه .

لم يتم إذن زواج سيكولوجيا الخبرة وسيكولوجيا الفعل كما أراد الموفقون - رغم كل تقارب بينهما - وذلك بسبب ما فى طبيعة كل منهما من تعارض مع الآخر ؛ مع أنه الشق المتمم لصاحبه . على أن هذا الصراع لم يكن بلاجدوى ؛ فحسبنا إزالة الحواجز بين المذهبين ، وتقريب مسافة الخلف بينهما ؛ على أساس أن دراسة كليهما ضرورية لعلم النفس - الذى يشبه فى هذه المسألة بالذات علوماً أخرى كالاجتماع ، حيث لا يظهر البحث عن وظيفة الشيء فيه إلا متأخراً . أولاً يوجد الشيء ، ثم وجوده يبعث على البحث فى وظائفه أو الوظائف المؤدية إليه . ونحن هنا قد كسبنا بهذا الاتجاه الجديد مزايا كثيرة فى موضوع العلم ومنهجه ؛ سنتين أثرها فى المدارس التى تفرعت على علم النفس الوظيفى فى أمريكا وانجلترا وروسيا ؛ من دراسة لسلوك الحيوان ، واختبارات الذكاء ، وتجريب على ظاهرات العقل ، وخصوصاً ظهور مدرسة الجشطلت وغيرها من التيارات والمذاهب التى بدأت تهجر الاستبطان منهجاً ، وارتباط العناصر الحسية والعقلية موضوعاً ، وتحليل الخبرات العقلية غاية ؛ لتأخذ بدراسة الوظيفة والفعل السلوكى للعمليات العقلية على أساس تجريبي جديد .

وسيتضح لنا ميدان علم النفس البنائى والوظيفى ، والموضوعات التى توزعها كلاهما من البحث فى هذا العلم ؛ مما أدلى به چيمس رولند أنجل الأمريكى - فى خطابه الذى وجهه إلى هيئة علماء النفس الأمريكية إبان رياسته لها (١٩٠٦) باسم : ميدان علم النفس الوظيفى The province of functional psychol. - من تفرقة دقيقة شاملة لحدود كل منهما بقوله : إن علم النفس الوظيفى هو علم نفس العمليات العقلية فى مقابل علم نفس العناصر العقلية ، أى الوظيفة فى مقابل التركيب ، والإجابة عن السؤال كيف ولماذا ؟ بدلا من الإجابة عن السؤال ماذا (أى ؟ How and why ؟ بدلا من ؟ What) . ثم هو علم نفس فوائدهم الشعور الرئيسية ، الذى فيه يعنى العقل أولاً بالتوفيق بين البيئة ومطالب الكائن العضوى ؛ أى تكيف العقل بالبيئة الخيطة . وأخيراً فإن علم النفس الوظيفى هو السيكوفيزيقا ، أى علم نفس الكائن العضوى كله وروحه وبدنه .

وإلى جانب هذا الأساس التاريخي الضخم لعلم النفس ، كان تمة تيارات أخرى أثرت في علم النفس تأثيرها في غيره من العلوم ؛ إذ كان كل منها حدثاً من أحداث القرن التاسع عشر الهامة التي قلبت وجهة النظر - كل في ناحيتها - فلياً تاماً ونعني بها نظرية التطور والوراثة العقلية التي قال بها لامارك (١٨٠٩) ومبض بها إلى حد الثورة شارلز دارون (منذ ١٨٣٧) . والتنويم والتخدير في الطب العقلي ، الذي بدأه مسمر منذ ١٧٦٦ واستمر به أتباعه حتى انتهى إلى فرويد (١٨٨٠ وما بعدها) وتلاميذه من بعده . وأخيراً الحركة الوضعية في العلم التي نادى بها أوجست كونت (منذ ١٨٣٠) واستمر بها ديركاييم وغيره . ولكل من هذه الحركات تاريخ وفتاصيل لن نعرض لها إلا بالقدر الذي يلقي لنا أضواء كاشفة على الأساس التاريخي الذي نشأت عنه مدارس علم النفس .

لقد كانت فكرة التطور وأصل الأنواع عقيدة شائعة في القرن الثامن عشر ؛ تحدث بها العامة أنفسهم ، كما روى لهم الإنجيل والكتب المقدسة عن الطوفان الذي أغرق به نوح الأرض وما عليها ، ولم يبق في فلكه إلا على ما يحفظ كل نوع من أزواج . وساعدت الاكتشافات الجغرافية في ذلك الحين على زيادة ما كان يعرف من الأنواع ، مما يؤيد هذه الفكرة ، وتناول حل هذه المسألة - على طريقتهم الخاصة - كثير من الشعراء وعشاق الطبيعة ، أمثال : جيته (١٧٤٤ - ١٨٣٢) وإرازموس دارون (١٧٢١ - ١٨٠٢) بقولهم في النبات أنه يغير بعض أجزائه ، وأنه بهذا يخلق صوراً جديدة ، وفي الحيوان أن جمجمته وعظامه الفقرية من طبيعتها أن تتغير تغيراً جوهرياً... وذلك بكثير من تأمل الحياة في النبات والحيوان ؛ مما جعل العقيدة في التطور النوعي حقيقة حاول العلماء بحثها على أساس التسليم بها . وجاء لامارك (١٧٤٤ - ١٨٢٩) فتناول المسألة بالبحث العلمي ، وأصر على تحول صورة الحيوان من جراء محاولته التكيف بالبيئة المحيطة به ، وعلى توارث هذه الخصائص المعدلة التي يكتسبها الحيوان بجهوده هذه ؛ كحداولة الطيور آكلة الأسماك إطالة سيقانها لتتعمق صيدها - فيما لو بعد عن مدى ما تصل إليه أقدامها من الشاطئ . وفي هذا عارضه بشدة خصوصاً العلامة كيشيه Cuvier (١٧٦٩ - ١٨٣٢) قائلاً بثبات الأنواع fixity of species - لما كان يؤمن به من ترابط في أجزاء الحيوان correlation of parts - تلك النظرية التي ترى أن تكيف الأنواع للبيئة ، ونوع الحياة الذي تعيش ؛ ينعكس في علاقات بعضها بين استخدامهما لأعضائها ،

كحدة الأسنان وسرعة العدو في الحيوانات آكلة اللحوم ، أو حدة الأسنان وقوة عضلات الرقبة في حيوانات الصيد التي تحمل بفتحها فريستها . ومعرفتنا بهذه الخصائص المرتبطة تدلنا على أن صورة الحيوان كلها يمكن أن تنشأ عن عظمة واحدة بدائية لم تتحور أو تتعدل .

ولكن شارلز دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) هو الذى تدين له نظرية التطور بما انتهت إليه من تعديل وتصحيح وذبوع ، وما واجهت من ثورة واحتجاج . فقد أقام النظرية على تلك الحقيقة الواضحة ؛ وهى تنوع الأفراد في داخل النوع الحيوانى الواحد ، وقال بأن هذا التنوع التلقائى من شأنه وطبيعته أن يورث أحياناً . وبالاختيار من هذه المتغيرات التي تحدث في الأجيال - بمحض الصدفة chance - أى باختيار الأصلح ؛ يحدث - خلال أجيال عديدة - تغير في النوع كبير . وعلى هذا ؛ فتمتة انتخاب طبيعي عن طريق بقاء أصلح الحيوانات تكيفاً بالبيئة وملاءمة لحاجات الحياة . وهذا الانتخاب الطبيعي - مأخوذاً إلى جانب تغيير ظروف البيئة التدريجى - ربما هياً لظهور أنواع جديدة . واختلفت هذه النظرية عن نظرية لامارك في نقاط ثلاث رئيسية : (١) في قولها بأن هذا التنوع الوراثى يحدث بالصدفة ، أو من تلقاء نفسه ؛ لا بجهود الكائن ذاته للتكيف . (٢) وفي فهمها لهذا الانتخاب على أنه طبيعى ينشأ عن صراع البقاء بين الحيوانات ، مما تأثر فيه دارون بنظرية ملتوس Malthus الاقتصادية في تحديد ظروف الطبيعة للسكان . (٣) وفي أن إحلالها لصدفة التنوع والبقاء موضع مجاهدة التكيف ؛ قد مكنها من أن تجعل لظهور الأنواع الجديدة وقتاً أطول

وليس بين نظرتي دارون ولامارك بهذا خلاف جوهرى ؛ فكون التنوع يحدث تلقائياً أو بالصدفة لا يمنع أنه نوع من محاولة التكيف التي قال بها لامارك . ونحن نسمى صدفة ما يعجزنا رده إلى علة . فما الذى يمنع من تعليل نظرية دارون بتفسير لامارك ؟ وهذا ما قال به هربرت اسپنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) في توفيقه بين الرأيين ، وتكميله الواحدة بالأخرى من النظريتين - هذا فيما يتعلق بكيفية التنوع - أما الاعتقاد بوراثه الخصائص المكتسبة من هذا التنوع فقد عارضه فايزمن Weismann (١٨٣٤ - ١٩١٤) أشد معارضة ، وحاج لامارك في صحته حججاً عنيفاً - لم يقو هذا الأخير على رده - طالما أن مذهبه لا يجعل للتغير مدى واسعاً كما عند دارون ؛ وما دام أن جيلا واحداً لا يُظهر من التطور في النوع بالتكيف إلا تغييراً ضئيلاً جداً .

والمهم أن نظرية دارون هذه كانت حينئذ أكبر حدث علمي في القرن التاسع عشر — لا في بريطانيا وحدها — بل في العالم كله . فقد تأثرت بها أفكار العلماء في كافة فروع العلم ، وكانت « خميرة » عقلية لوجهات نظر جديدة في شتى مناحي البحث ؛ وخصوصاً في البيولوجيا وعلم النفس . بها بدأ علم النفس الإنجليزى الحديث — لما أثارت من مشكلات الوراثة العقلية ، والفروق الفردية ، ومنهج الإحصاء واختبارات الذكاء ؛ ولما فتحت من الميادين الجديدة وخصوصاً علم النفس الحيوانى — الذى أدت إليه هذه الصلة التطورية بين الإنسان والحيوان ، والاختلافات النوعية بين الحيوان ذاته — مما عكف عليه فى إنجلترا رومانس وهلريد مورجن ثم اسپيرمن ، وفى أمريكا هول (فى علم النفس التربوى) وثورانديك (فى علم النفس الحيوانى واختبار تلاميذ المدارس) وأخيراً كتل — وخصوصاً تلاميذه ، ومنهم ودورث مؤلف هذا الكتاب . وقد مهد هذا كله لظهور السلوكية الأمريكية على يد چرن وطسون ؛ الذى لولم يجدها مهياًة للظهور ما استطاع أن ينهض بها ، فإن أمريكا فى ذلك الحين كانت مسرحاً لاتجاهات فى دراسة علم النفس أربعة — كما يقول بورنج Boring (١) علم النفس الوظيفى الذى مستقرت مدرسته فى شيكاغو وأصبحت تعبر عن الناحية الإستمولوجية فى علم النفس الأمريكى (٢) ثم اختبارات الذكاء ؛ فى العلم النفسى العملى التى ذكرنا . (٣) وكذلك علم النفس الحيوانى الذى أدت إليه نظرية التطور أيضاً (٤) وأخيراً علم النفس الفيزيولوجى التجريبي من النوع الألماني الذى درسه كثير من الأمريكان على فونت وكيليه ، فالانجاء الأول بمثله ديوى وأنجل ، والثانى پترسن Joseph Peterson ، وكتل ، وإبنجهاوس ، وثورانديك ، وودورث ، والثالث — علم النفس الحيوانى — چاك لويب J. Loeb الألماني الأصل (١٨٥٩ — ١٩٢٤) الذى عمل منذ ١٨٩١ حتى وفاته فى جامعات شيكاغو وكاليفورنيا ونيويورك الأمريكية ، وجنجز Jennings ، وثورانديك ، ويركس ، ووطسون ، وفرانتس ، ولاشلى ، وواشيرن . أما علم النفس التجريبي فيمثله خصوصاً تتشر وتلاميذه ممن كانوا على صلة بأصحاب الاتجاهات الثلاثة الأولى .

إلا أن هذه الدراسات للإنسان والحيوان والطفل من حيث « خبرته » أو « فعله ووظيفته » أو « سلوكه » هى شق واحد من حياته العقلية ؛ لا بد أن يتممه شق آخر ، ولا بد أن يكمل جانبه الشعورى بأخر لا شعورى ، وحياته السوية بأخرى مرضية ، وسلوكه الواعى الظاهر بأخر لا واع باطن . وكان الفضل فى اكتشاف هذا الميدان الحصب

الجديد لظاهرة التنويم والتخدير . وكان أصحاب التحليل النفسى هم الذين بينوا مدى أهمية هذا الجانب الحصب من حياتنا العقلية فى الصحة والمرض والحياة اليومية بوجه عام . وساعد هذا الطب العقلى كذلك على تحليل الأحلام والزلزلات اللسانية والحركات اللا إرادية وجعلها فرعاً هاماً من علم النفس ، وعلى ربط طرائق التفكير عند البدائيين وتفكير اللاشعور .

ومع أن التنويم ظاهرة قديمة معروفة عند الصوفية وعلماء الطبيعة منذ العصور القديمة والوسطى ؛ فإن اختراع التنويم فى النصف الأول من القرن التاسع عشر — على يد فريدرش أنطن مسمر F. A. Mesmer (١٧٣٤ — ١٨١٥) — كان حدثاً لا يعدله فى خطره إلا اكتشاف المعادلة الشخصية personal equation . وكان مسمر طبيباً فى فيينا ، اختبر — بتأثير كتابات السابقين — أثر المغناطيس السحرى على الأشخاص ، ونشر فى ذلك كتابه : تأثير الكواكب De planetarum influxu (١٧٦٦) ، ثم تخلى عن المغناطيس وما يزال يؤمن بالمغناطيسية الحيوانية كقوة خفية من قوى الطبيعة ؛ وكتب بذلك إلى الأكاديميات العلمية (١٧٧٥) . وبعد ثلاث سنوات انتقل إلى باريس ، وزاول شفاء المرضى فى حلقات مغناطيسية بجهازه baquet بما يشبه الجلسات الروحية اليوم ، وكانت النتائج إيجابية — وإن لم تنزل الفكرة بعيدة عن قبول العلماء والمفكرين ؛ مما حملهم على اتهام مسمر بالدجل والشعوذة . ولكن أتباعاً مخلصين له أمثال إليوتسن J. Eliotson (١٧٩١ — ١٨٦٨) أستاذ الطب العملى فى يونيفرستى كوليج بلندن ، وكبير أطباء مستشفياتها — هذا الرجل الجرىء الحر الممتاز ، الذى استقال من الكلية والمستشفى احتجاجاً على محاولة مجلس الكلية تحريم مزاولة التنويم دون مناقشة وجهة نظره وأدلتته (١٨٣٨) — قد جعل يزاول التنويم كمخدر علاجى يحمل فى طيه إمكانيات علمية تثير بكثير من الكشف ؛ كما أنشأ مستشفى للعلاج بذلك فى لندن (١٨٤٩) — كانت بداية لإنشاء عيادات أخرى — « مسمر » فيها ألف مريض ومائتين ، وقام بمائتى عملية دون أن يشعر المرضى فى هذه أو تلك بألم ، وكانت مجلته Zoist ملتقى الأفكار الحرة الجريئة فى هذه الناحية التى دمغها بها : « صحيفة لفيزيولوجيا المخ والمسمرية والعمل عليهما لصالح الإنسان » — عاونه فيها جيمس إيزديل J. Esdaille الهندى (١٨٠٨ — ١٨٥٩) الذى تأثر بكتابات ، ونهض بمثل نهضته فى بلاده ، ثم انتقل إليه سنة ١٨٥١ وزاول معه المسمرية فى اسكتلندا حتى مات . وقد لاقى هؤلاء كذلك معارضة العلماء وكره

العلم كما لاقى أستاذهم ، حتى حين اتخذوا من التنويم عامل تخدير علاجي . فقد رأى أصحاب المهن الطبية أن نجاح التنويم وإقبال الناس عليه وعلى أصحابه يقلل من القيمة الأدبية للعمليات الطبية ، وأنه بالتالي غير أخلاقي ؛ بحجة أن الألم هبة حكيمة من الطبيعة ، وأن على المرضى أن يعانون الألم حين يقوم الأطباء بعملياتهم ؛ كما كانت تقول دائماً جمعية الجراحين الملكية بلندن في كل تقرير يقدم إليها عن المسمرية .

وفي مرحلة أخرى استطاع جيمس بريد J. Braid (١٧٩٥ - ١٨٦٠) أن يختصر الهوة التي بين العلوم الطبية والتنويم المغناطيسي المسمري - ولا نقول المسمري ، لأنه كان من بين عوامل نجاحه تجاهله - في غير حق - حتى مجرد اسم المسمرية التي صارت عنواناً لهذا النوع من التنويم ، فأسمى طريقته علم التنويم العصبي neurohypnology ، واختصرها بعد ذلك إلى neurypnology ، ثم عاد فأسقط صدر الكلمة وأبقى على مادتها التي منها اشتقت فيما بعد مادة « تنويم » ، وأعلن صاحبها أنه « يُنوم » لا « يمسمر » - وقد مهد هذا التغيير الظاهري لقبول التنويم وإساعته وإزالة الهوة بينه وبين العلوم والمهن الطبية . وانتهى بريد إلى أن هذا التنويم هو نوم عصبي nervous sleep يحدث بموازاة عضلات الجفون الرافعة عن طريق عملها المستمر خلال التحديق الثابت المتراخي . وبذا امتازت هذه النظرية بما تحمله من تواضع ، وذلك بالاتجاه نحو المريض بدلاً من تفخيم الطبيب بجعله قوة تأثير مغناطيسية ساحرة - كما عند سابقيه - مما هيأ كذلك لقبولها والانتقال بها من دورها الأول الغامض المليء بالخصومة والجدل الشخصي إلى دور علمي يجعل منها حقيقة . فقبل إن التنويم بمعناه الحقيقي يبدأ ببريد ، وأنه هو الذي وضح للعالم من حقيقة ما لم يستطع غيره ، وفسره بالإيجاء النفسى suggestion بعد أن كان مجرد تنويم عصبي ؛ حتى ذهب ديران دي جرو Durand de Gros (وهو فلفلس J.P. Philips كما يرمز إليه اسم قلمه) إلى تسمية هذه النظرية باسم البريدية Braidism أسوة بالمسمرية Mesmerism (١٨٦٠) .

وبعد بريد قلت القيمة العلاجية للتنويم كمخدر ، وبقى الأثير والكافور وفورم وبعدهما في هذه الناحية ؛ حتى جاء ليبيو Liébeault ليقيم في نانسي منذ ١٨٦٤ ، وليبنشي* مدرستها الشهيرة التي استعمل فيها التنويم من جديد لأغراض علاجية ، كما نبه شاركو Charcot في فرنسا إلى أهمية ظاهرة التنويم ، وأقام على آرائه هذه مدرسة

سالپتيرير Salpêtrière بباريس . كذلك قام بمثل هذه الدعوة في ألمانيا هايدنهاين Heidenhain وبراير Preyer ، فعادت الحياة إلى التنويم كحقيقة علمية مسلمة ، واختلفت الآراء حول تفسيرها : أما مدرسة نانسي فقد ذهبت مذهب بريد في القول بأن سر التنويم هو الإيحاء النفسى . وأما مدرسة سالپتيرير فقد ذهبت إلى أن هذه الظاهرة ذات طبيعة هستيرية ، وأنها أعراض شنوذ وانحراف . وسواء كان تفسير التنويم بأنه ظاهرة سوية أو مرضية ؛ فقد أصبح حقيقة علمية جديرة بالبحث . ثم وقف عليه فرويد ؛ متأثراً بشاركو وخصوصاً (١٨٨٥ - ١٨٨٦) وبطريقة بروير J. Breuer في التصريف abreaction الذى اكتشفه هذا سنة ١٨٨٠ ، والذى نشر نتائجه في بحثه فيه معه بين سنتي ١٨٩٣ ، ١٨٩٥ - نفس الوقت الذى ظهرت فيه نتائج بحوث پير چانيه في علاج المستريا بالتنويم ، والتنفيس العقلى mental catharsis الذى يستبعد مصادر الاضطراب العقلى .

وعلى أساس هذا التراث الضخم الذى توارثه فرويد عن الطب العقلى - كما أجملنا مراحل دراسته - استطاع أن يستخدم منهج التداعى الحر فى الهجوم على الاشعور لانتزاعه من الرقيب . ومهما قيل من أن هذا التداعى لم يكن حرّاً تماماً فى تصريف الرغبات المكبوتة ؛ فإن فرويد قد نجح فى الاستعانة به على الوقوف على أصل الداء وعلمته من تحليل أذوال المريض ، وأحلامه ، وزلات لسانه فى حالات هدوء واسترخاء عصبى ، ومتى أوقف المريض على ما يصطرع فى داخل نفسه من عوامل ؛ فقد سهّل إعادة تنظيمه وتركيبه النفسىين .

والحديث فى فرويد يطول ولا ينتهى . وحسبنا أن نشير هنا إلى تطور منهج التحليل على يديه : من مجرد التنويم مع شاركو ، إلى التنويم مقروناً بالتعبير فى صحبة بروير ، ثم بإسقاط التنويم - حين انفراد نفسه بعد - واستخدام التصريف التعبيرى ، أو التداعى الحر كما سماه ؛ ثم أخيراً تقوية المنهج بتحليل الأحلام ، والبدئية أو النكتة ، وزلات اللسان ؛ مما أصر فرويد على أهميته البالغة فى الوقوف على شخصية المريض والكشف عن خبيثة نفسه . ولكن فرويد قد أقام حول هذا المنهج فروضاً ومسلمات يفسره بها ؛ اختلف معه فى الأخذ بها لأول وهلة كثير من أتباعه - كما ستقف على شىء منها فى الفصل الخامس من هذا الكتاب وتعليقنا عليه . والمهم إذن أنه قد انحدر عن ميدان الطب العقلى ودراسة ظاهرة التنويم هذا اللون من الدراسة السيكلولوجية ؛ الذى يتخذ من الاشعور موضوعاً ، والتحليل

— لكل ما ذكرنا — منهجاً ، وإعادة تنظيم النفس الإنسانية السوية أو المنحرفة غاية ؛ وأنه قد تفرع على هذا اللون من الدراسة — الذى بلغ أوجه على يد فرويد — مدارس أخرى جانبية ، أصبحت على جانب كبير من الأهمية ، أحصمها بالذكر مدرسة علم النفس الفردى لأدلر ، وعلم النفس التحليلى لبونج .

وإلى جانب هذه المؤثرات الهامة — أوقل : الميادين الجديدة — فى علم النفس ؛ التى شغبت من موضوعه ، وعقدت مسائله ، وزادت أصحابه توزعاً وانقساماً ؛ كان ثمة جماعة من علماء الاجتماع لا ينفكون — منذ علمهم أوجست كونت فى أواخر الثلث الأول من هذا القرن — ينكرون على علم النفس وجوده ، ويقسمون موضوعاته ومسائله هذه الكثيرة نهياً بين البيولوجيا والاجتماع — على حد تصنيف كونت للعلوم فى لوحته المعروفة التى صدر بها مقدمة « فلسفته الوضعية » — ظناً منهم أن الإنسان كفرد لا وجود له ، وأنه ليس إلا مجموعة وظائف بيولوجية يتحكم فيها المجتمع . ومع أن تيار الوضعية positivisme قد كان موجة جارفة فى شتى فروع العلم والفلسفة فى أوروبا فى ذلك الحين بزعماء ديركرايم الفرنسى ؛ وخصوصاً أن كل اكتشاف فى العلم — كمنظريّة التطور فى البيولوجيا ، والتجريب فى علم النفس ... الخ — كان يؤيد هذا الاتجاه ؛ نقول — مع هذا كله — فإن علماء النفس لم يكونوا من القوة بحيث يحسنون إثبات وجودهم أو الدفاع عن علمهم ، وهم حينئذ — وما يزالون حتى اليوم — لم يفرغوا من تنظيماتهم الداخلية ، وحل مشاكلهم فيما بينهم ، ليواجهوا — كمنة واحدة — ما يهدد علمهم من خطر خارجى .

ولكن واحداً منهم قد تصدى لإثبات وجود هذا العلم وتقريره والدفاع عنه ، ومُحاجة علماء الاجتماع الذين ينكرونه ، ورميهم بالغفلة وسوء النية من ناحية ؛ والتنديد بإخوانه علماء النفس الذين يقفون بمدلول علمهم عند حدود جامدة ضيقة ، ولا يتوسعون به ليجعلوا منه أساساً للعلوم الاجتماعية كلها من أخلاق ، وسياسة ، واقتصاد ، وأنثروبولوجيا ، وقانون ، وفلسفة تاريخ وأديان ... يستطيع أصحاب هذه العلوم أن يرجعوا إليه ويجدوا فى حقائقه ما يحملهم على الإيمان بهذا العلم ، وعلى إقامة علومهم على أساس صحيح من تعرف قوى النفس الإنشائية — كما ينبغى أن تقوم — فلا يقعوا فيما يقعون فيه من أخطاء ، مردّها — فيما يرى — إلى إغفال هؤلاء عمداً لقيمة النفس ، ونقص المساعدات الواضحة المفيدة من جانب أولئك أصحاب هذا العلم النفسى — من ناحية أخرى . وتبين بسهولة بعد هذا من الفارس

الذى نعنى ، وما ميدانه : إنه وليم مكدوجل ، صاحب علم النفس الاجتماعى .
ويقول مؤلفنا فى وصف مهمة مكدوجل : « إنه قبل هذا العهد — عهد ظهور
« مقدمته إلى علم النفس الاجتماعى » — لم يقيم علم النفس بمحاولة جدية ليكون
فى خدمة العلوم الاجتماعية ، وإنما ترك لكل اجتماعى أو اقتصادى أو مؤرخ
أن يتخذ له علم نفس يختص هو باستعماله . فإذا كانت هذه السيكولوجيات مرتجلة
وغير ناضجة ؛ فذلك خطأ علماء النفس المختصين ، الذين لم يكلفوا أنفسهم
مشقة اعتبار كيف أنهم يمكن أن يزودوا هؤلاء بعلم نفس يلقى ضوءاً على المشاكل
الاجتماعية ؛ إذ كانت السيكولوجية العلمية من الانغماس فى دراسة العمليات العقلية
وفى تفاصيل الإحساس والذاكرة وتكون العادة ، حتى إنها نادراً ما مسّت مشاكل
الدوافع . على أن هذه العلوم ... ربما شاءت أن تعرف دافع السلوك الإنسانى . . .
ومن هنا كانت ثورة مكدوجل على النظام القائم ثورة مزدوجة : فهو قد اعترض
على علم النفس المهوش كما وجده فى العلوم الاجتماعية ، واعترض أيضاً على النزعة
العقلية التى كانت تسيطر وقتئذ على هذا العلم ، وعلى الإيمان بأن منهج الاستبطان
هو وحده المنهج الصحيح فى علم النفس » . وتشبث مكدوجل بدراسة القوى العقلية
والدوافع الإنسانية — من غرائز ، وعادات ، وانفعالات ، وأفعال منعكسة ؛ هى
أساس للسلوك الفطرى والمكتسب — مما يكون مذهبه المعروف بعلم النفس الحورمى
أو القصدى ، الذى ظل طويلاً يسيطر على ميدان علم النفس كله ، والذى كان له أتباع
ومعجبون — جماعات وأفراداً .

ومن هنا نقول دائماً إن مكدوجل كان ظاهرة فى علم النفس ليس من وجودها
بد ، وأنه قام بحركة رد الفعل التى لا بد منها لتثبيت دعائم هذا العلم الحديد ومطامنة
غلاء خصمه القوى الظافر . وقليل هم الذين يستطيعون أن يتصدوا لما تصدى له
مكدوجل ؛ فهو قد تحلف عن الجماعة ، وتخلّى عن مسابرة الركب ليواجه العدو
الآتى عليه من خلف يريد أن يقضى عليه . وبينما استمر الآخرون فى طريقهم
لا يحفلون هذا الخطر المحدق بهم ؛ كان هو يتكفل بحمايتهم ، ويكون خط الدفاع
عنهم ، ويتشبث بجعل علم النفس أساساً تقوم عليه العلوم الاجتماعية كلها ؛ كما
تشبثت هذه بأن تسابه كل وجود على الإطلاق .

تلك هى المؤثرات والاتجاهات التى كانت تتجاذب علم النفس فى أواخر
القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ملقياً بين يديه موضوعات جديدة من

الخبرة والفعل ، والشعور واللاشعور ، والدوافع والتصد ، والإحساس ، والإدراك ، والتخيل ، والتذكر ، والصور أو اللاصور ومناهج جديدة من الارتباط أو التداعى ، والتحليل ، والاستبطان ، والملاحظة الخارجية ، والإحصاء ، وتحليل الأحلام والرغبات وتصريف مكبوتها ... ومُدخاةً دائماً أغراضاً جديدة ، وتجارب متنوعة ، شغلت علماء النفس أفراداً ومدارس ؛ فاتخذ كل منها من بين هذه كلها ما يصلح له من منهج ، وما يلائم منهجه من موضوعات عكف على دراستها والتجريب عايتها . ولا نتوسع بك أكثر من هذا — فحسبنا هذا العرض الإجمالي لأساس مدارس علم النفس التاريخي — أما غرض كل مدرسة ومنهجها وأعلام باحثيها فسيأتيك بعد في حينه من هذا الكتاب .

* * *

وروبرت سشنز ودورث Robert Sessions Woodworth المولود في بلخرتون من أعمال ماساتشوستس Massachusetts بأمریکا في ١٧ أكتوبر ١٨٦٩ قد كان أول ثلاثة أشقاء من زوجة أبيه الثالثة ، وخامس أربعة أخوة وأخوات له من أبيه ؛ شب على فتي منهما وفتاة كبيرين ينازعهما ، كما كان ينفس على شقيقه الذي يصغره ثلاث سنوات ، وأقام عند كبرى إخوته في بوسطن الخمس السنوات التي لحق فيها بالمدرسة العليا من الثانية عشرة ، فكانت هي وزوجها له بمثابة والدين آخرين — كما يقول . يهدنا ذلك لنخلص منه — على طريقة أدار — إلى تحليل شخصيته من أسلوب حياته ومكانه من أسرته ؛ وإن كان هو قد قطع على كل دارس له يهذه السبيل حكمه ونتيجة درسه ، فوصف نفسه — على أساس ذلك — بأنه لم يكن يخاو من الخضوع والشعور بالانقص ، مع اندفاع لتقرير ذاته كان يظهر في فترات طويلة . وذلك فيما سرد لنا من تاريخ حياته في المجلد الثاني من تاريخ علم النفس بالتأريخ الشخصي A History of Psychology in Autobiography الذي نشره الدكتور كارل مرتشيزون ، وأصدرته مطبعة جامعة كلارك (١٩٣٢) ص ٣٥٩ — ٣٨٠ .

وينحدر أبوه — الذي ولد هو له في الخامسة والخمسين ، وتوفي ذلك عنه وهو في العشرين — من مزارعين أقاموا أجيالا كثيرة في نيوانجلند ، فيما عدا جده الأول لأبيه الذي كان مدرسا . أما أبوه نفسه فكان واعظاً كنسياً يضطره حكم عمله إلى التنقل في كنائس كثيرة ، لا هم له إلا دراساته في العبرية واليونانية والإلهيات ، وقرآته . في موضوعات أخرى مما حوته مكتبته التي كانت مصدر إلهام روبرت الصغير ؛ وإن

هو لم يستطع أن يقرأ منها إلا القليل . واستغراقه هذا في قراءته وتدينه وكتاباته لمواظبه قد جعله لا يختلط كثيراً بأبنائه ؛ إلا في نزواته الخلوية عصباً التي كان يصحبه فيها أحدهم . ومن ثم كانت له في نفس عالمنا هيبَةٌ ورهبةٌ لم تزالا حتى توفي ، وإن خفت عنه وطأتهما مع الزمن .

وأما أمه — التي أنجبتة في الثانية والثلاثين — فقد كانت من أسرة مزارعين ناجحين أيضاً ، أخذوا بنصيب من الحياة السياسية في المقاطعة التي ولد فيها روبرت . وكانت هي الأخرى على جانب من الثقافة كبير ، تخرجت فيما تسمى الآن كلية مونت هوليوك Mount Holyoke College ، ووضعت نواة ما سمي فيما بعد كلية ليك إيرى للبنات Lake Erie College في أوهيو ، واشتغلت مدرسة للرياضيات والفلسفة العقلية — مما تأثر به غلامنا ولا شك ، وهو أكبر أبنائها . ومع أن الأم كانت مخلصة ومضحية في خدمة بنينا الثلاثة ورعايتهم ؛ فإنها لم تكن عاطفية معهم إلى الحد الذي يشعر معه بهقمة أوديبوس تنصرف نحوها — على حد فرويد — بل هي بأن تتجه إلى مقاومة سلطان البلوغ وإلى الاستقلال والجرأة بإزاء والديه وإخوته أولى .

ومن هنا فإن بيئته يجب أن نشدها في جبرته أكثر مما نشدها في بيته — كما يصرح هو ؛ مع الأولاد والبنات الذين لابعوه ، والرجال الذين حادثوه في إيوا Iowa — حيث قضى معظم الست السنوات التالية لميلاده في ماساتشوستس ، وفي قرية كونكتيكت Connecticut وبوسطن الست السنوات التالية لهذه — لا مع إخوته وأخته وبنات أخته ؛ هذه التلة من الأصدقاء التي طالما سببت صحبته لها أذية والديه له ، والتي حملته ذات مرة على أن يأكل القدر ، وأن يكون له مثلهم — حتى في سن السابعة — عشيقة أو خلية ؛ يذكر هو أن رفاقه كانوا يأتون في ذلك أفعالا دونها ما يؤتى بين جدران المنازل ! ولعل هذا النوع من الحياة هو ما حدا به إلى أن يفكر — في الرابعة عشرة — في العودة إلى الريف ، ومعاودة فلاحه الأرض — مما تعود عليه من قبل — إلا أنه ما كاد يتخرج في المدرسة العليا ؛ حتى ألح على والديه أن يدرس فن الموسيقى الذي طالما أروع به . ولكنه اقتنع بسهولة باللحاق بالكلية حتى أتمها ، ونسى الموسيقى ، وخرج إلى مهنة التدريس . لقد كانت أسرته تريده لمثل عمل أبيه ، ولكنها لم تحمله على غير ما يريد حين رضى لنفسه أى نوع من التدريس يرتسم له فيه أفق المستقبل .

ويعيننا بعد هذا أن نتبع تطوره الروحي ، وكيف تم له الاتجاه إلى علم

النفس . لقد كان يسمع ويقرأ كلمة « فيزيكولوجيا pizicology » فلا يفهم منها أكثر مما يفهم المبتدئون من الطلاب في ذلك العلم . قرأ الإنجيل فكانت ميوله نظرية شبه لاهوتية ، ثم درس الفلسفة وتمنى لولمع فيها ، وقرأ خصوصاً « مقالات » بيكون Bacon's Essays فأعجب بها وكتب على غرارها في موضوعات العقل والساوك الإنساني . أما في المدرسة والكلية التي ذكرنا فقد اتجه بمعظمه إلى الآداب القديمة والرياضيات ، وشيء من التاريخ والأدب الحديث ، وقليل من العلوم الفيزيقية . فلما لحق بكلية أمهرست Amherst - ومحاضرات الفلسفة فيها يلقيها شاراز إدوارد جرمن Charles E. German الرجل الذي يُعجب به كل من سمعه يحاضر من تلاميذه ، والذي كان يعنى بحاجات هؤلاء وتوجيههم ، والذي ما إن سعى ودورث للتعرف إليه ، وراعته قلة معلوماته فيما كان يريد أن يكون بسبيله ؛ حتى ذهب معه بنفسه إلى المكتبة يدله فيها على الكتب التي يطالعها في عطلة الصيف تحقيقاً لرغبته في التفلسف - حتى كان هذا الاهتمام من جانب الأستاذ باعثاً لإثارة طلب العلم والفلسفة في نفس الشاب ، وحتى وجد فيهما منذ ذلك الحين تخصصه وميدانه الحقيقي .

وكان من أول ما يقدم به جرمن لدروسه في كل سنة الحديث في علم النفس ؛ يعرضه وسيلة للفلسفة وتشويقاً للطلاب ، لا غاية في ذاته . وكذلك فعل حين انتهى صيف ودورث في سبتمبر ١٨٩٠ . ولم يكن قد ظهر في الإنجليزية حتى ذلك الحين كتاب يعد متناً لعلم النفس - حتى مبادئ جيمس - وكان النص المعتمد في هذه الدراسة فيزيولوجيا العقل Mental physiology لكارپنتر Carpenter - الذي يرجع إلى ١٨٧٠ ، والذي يتناول موضوعات الإحساس والإدراك والذاكرة - وتبعاً لهذا المرجع وطريقة جرمن في دراسته ؛ لم يكن علم النفس لينفصل في ذهن طالبنا عن الفلسفة . فتخرج من الكلية عام ١٨٩١ (بدرجة اليسانس A. B.) بهذه الفكرة الفلسفية عن علم النفس ، وسيظل هكذا اثنتي عشرة سنة أخرى . ونصح له بعد تخرجه بالتدريس . فبعلم الرياضيات والعلوم سنتين في مدرسة ثانوية ، والرياضيات سنتين آخرين في كلية واشنطن . وفي هاتين وقوف نفسه بكاملها على تعمق الرياضيات ؛ حتى لقد ترجح - حين عاود الجامعة - جامعة هارفرد - بعد هذه السنوات بين الرياضيات وعلم النفس ، فقال به إلى هذا الأخير هذا التأثير المزدوج الذي تلقاه من وليم جيمس واستانلي هول . أما جيمس فقد أثر فيه

بكتابه الذى عُدَّ الأول من نوعه فى علم النفس ، وهو حينئذ حديث الظهور . وأما هول ؛ فإن روحه الجامعى ونظرته إلى الجامعة على أنها موطن العلم والبحث الدائنين ؛ قد أخذ الشاب بهذا الجوال العلمى الأكاديمى : سمعه يحاضر ، ويكرر - بين الحين والحين - قوله : عرفنا إذن ... وهنا نجد ... فأعجب بروحه كمحاضر ، وبقوله كباحث علمى أو مستكشف ؛ حتى ليذكر أنه عاد إلى حجرتة وعلق على مكتبه - من فرط حماسه - لوحة كتب عليها كلمة بحث INVESTIGATION - وإن كان بحثه فى ذلك الحين - كما يقول - فى الرياضة لا فى علم النفس . وإنما ظهر أثر هول فيه حين دخل جامعة هارفرد بعد سنة ؛ مصمماً على أن يترك الرياضة إلى علم النفس ، الذى لم يكن أكثر تميزاً عن الفلسفة فى ذهنه منه فى نظام الجامعة .

وتقاسمت ودورث إذن فى سنتيه الأوليين فى هارفرد الفلسفة وعلم النفس ؛ تتلمذ فيهما على جيمس ورويس Royce : هذا فى علم النفس العام ، والمرضى ؛ وذلك فى الفلسفة ، وخصوصاً المنطق . فكتب لهما أوراهاً فى إدراك الزمان perception of time - وإن لم ينشر فى ذلك شيئاً - كما بحث فى الفكر واللغة ، ولم يشأ أن يقبل فكرة مكس ميلر Max Müller فى أنه لا فكر بلا لغة ، وأن علم الفكر يجب أن يقوم فى أساسه على علم اللغة ؛ فقد كان يرى هو أن أفكاره كثيراً ما يعوزها اللفظ للتعبير عنها ، وكان يشعر أن تجربته الكافية فى الرياضيات تدله على أنه كثيراً ما يفكر فى أشكال ورموز وحدود - لا فى ألفاظ - أما العدد فليس حقاً ما قال به ميلر فيه من أنه لا يتم إلا فى كلام ؛ فإن تجربته قد هدته - فى هذا أيضاً - إلى أن يستطيع العد counting بتجميع إيقاعى لمجموعات أعداد تتجمع هى الأخرى ، حتى وصل إلى مائة . وقد عاود هذا الموضوع فيما بعد ، وكتب فى الفكر بلا صورة imageless thought (فى مجلة الفلسفة J. phil. ١٩٠٦) مجلد ٣ ص ٧٠١ - ٧٠٧) وقال بوجود أنواع أخرى من التفكير غير النوع اللفظى أو التعبيرى اللغوى .

هذا مع رويس . أما جيمس فقد طاب إليه أن يكتب فى الأحلام dreams فرجع إلى كتبه ، وأهاب بتجربته ، وبحث سرعة الأحلام مقارناً إياها بسرعة غفوة الصحو أو حلم اليقظة (نشر فى ذلك : ملاحظة فى سرعة الأحلام Note on the rapidity of dreams ، فى الصحيفة النفسية Psychol. Rev. ١٨٩٧ ص ٥٢٤ - ٥٢٦) . وانتهى فى تفسير الأحلام إلى افتراض وِدِّ فيما بعد لو نشره . إذ كان

يشبه من ناحية - ويخالف من أخرى - تفسير فرويد للأحلام الذي نشر بعد . فقد كان يرى أننا نحلم بأمور تعرض لنا في يومنا ، ولكنها تُعارض وتُحَوِّق ، فأبما رغبة أو ميل عرض لنا أثناء النهار ، ولم يصل إلى غايته ؛ فمن المحتمل أن يظهر في الأحلام ، وأن يصل فيها إلى غاية مُرضية لم يصل إليها نشاط القوى الأولى التي تختفي هنا تماماً . أما نوع الرغبات فلم يقصره باحثنا على الجنس ، بل هو أية رغبة كانت ؛ حتى مجرد الاستطلاع . وأما عقبات تحقق هذه الرغبات في النهار فلتكن أي عائق أو رقابة خلقية أو أدبية .

وبحث كذلك - فيما اشتغل به حينئذ - علاقة الجسم والنفس mind-body relation في دراسة علم الدوافع motiology - الذي استشار فيه زميله ثورندايك - وتتبع في ذلك عمل فرويد ومكدوجل فيما كان يظهر من كتاباتهما . والمهم أنه كاد يُختم سنته الثانية في هارفرد (١٨٩٧) وما يزال يترجح بين سيكولوجيا جيمس - المرضية خصوصاً - التي كانت في أوج دراستها ؛ وبين فلسفة رويس وستيانا المنطقية والحلقية . وإنما ظهرت حاجته إلى تحديد موقفه ؛ حين عرض عليه جيمس أن يعمل سنة في معمل الفيزيولوجيا إن كان يريد الميل إلى علم النفس . واستشار أستاذ الفلسفة في ذلك ، فنصح رويس أن يقبل . وتم تحوله نهائياً إلى علم النفس سنة ١٨٩٧ ، وإن لم تزل به بقية حنين إلى متابعة مودته للفلسفة .

إلا أنه سرعان ما تبين له أن ميدان علم النفس تخصص كاف ، وواد خصيب حسبه أن يشتغل به . فأصبحت الفلسفة عنده غير مرغوب فيها ، ودرس الفيزيولوجيا خمس سنوات : مع بودتش Bowditch وپورتر Porter في هارفرد (١٨٩٧ - ١٨٩٨) وجرهام لسك Graham Lusk في نيويورك (١٨٩٩ - ١٩٠٢) وشافر Schafer في ايدنبرج (١٩٠٠) وشرنجتون في ليقرپول (١٩٠٢ - ١٩٠٣) حيث كان معيداً أو مساعداً لهؤلاء في الفيزيولوجيا ؛ درس معهم القلب ، وحركات المعدة ، والتمثيل الكروبيديراتي ، والتوصيل الكهربائي في الأعصاب ، والتحديد الموضوعي للمخ ، والفعل المنعكس الخ .

وحتى ذلك الحين ؛ لم يكن ودورث قد استقر في علم النفس إلى الحد الذي ينسب معه أى صالة بالفلسفة ، فما إن أُتيح له أن يعمل سنة مع كتل في كولومبيا ، للتحضير للدكتوراه في الفلسفة (١٨٩٨ - ١٨٩٩) عملاً شاقاً متواصلاً في علم النفس الخالص ، حتى راعه في كتل تشبته بالتجارب الكمية على نحو موضوعي -

وخصوصاً في اختبارات الذكاء والفروق الفردية — حتى لقد عد كتل أستاذه الحقيقي ؛ الذي حدد له — بعد هذه الحيرة الطويلة في الاختيار — عمله السيكولوجي النهائي ، ومنحه ، الدفعة الأولى التي سبّرت في طريقه بالقصور الذاتي لا يتلأأ أو ينظر إلى وراء . فخرج من عنده بثاني درجة للدكتوراه خَرَّجها معمله (١٨٩٩) . وسيعود ودورث إلى معاونة كتل في هذا المعمل ، كما سيصبح خليفته في كرسيه بكلومبيا ، وخليفته في صلته بالتفكير السيكولوجي الأمريكي لعهدده .

وكتل — كما سنرى في تعليقنا عليه في الفصل الثالث — شخصية جديرة بالاعتبار . وشهرة هذا الرجل تأتي — في معظمها — من شخصيته هذه التي جمعت حوله كثيراً من الأتباع ، وخرّجت من معمله رسائل كثيرة للدكتوراه ، لتلاميذ أصبحوا فيما بعد قادة علم النفس الأمريكي . وهم — على ترتيب تخرجهم — ثورنديل (١٨٩٨) ، وودورث وفرانيس (١٨٩٩) ، وكلارك فيسلر (١٩٠٢) ، وديربورن (١٩٠٥) ، ولز (١٩٠٦) ، وبراون (١٩٠٦) ، وفينبرجر (١٩٠٨) . وهولنجورث (١٩٠٩) ، واسترنج (١٩١١) ، ثم بفنبرجر (١٩١٢) A. T. Poffenberger الذي دو مساعد ودورث وخليفته الآن ، كما كان هذا مساعد كتل وخليفته . وبهذا يقول المؤرخون إن جامعة كولومبيا قد أنتجت من رسائل الدكتوراه أكثر مما أنتجت أي جامعة أخرى ، وأنه كان من هؤلاء جميعاً قادة علم النفس البارزين ، وخلفاء كتل نفسه : ودورث وفينبرجر على الترتيب .

والذي كان يشتغل به هؤلاء جميعاً تحت قيادة كتل في كولومبيا — أكبر جامعة في ذلك الحين في أمريكا — هو اختبارات الذكاء . وأزمة الرجوع ، والمنهج الإحصائي وما ينشأ عنه من أحكام موضوعية ليست ترجع إلى الاستبطان ؛ أي — في كلمة واحدة — سيكولوجيا القدرات العقلية الإنسانية . التي تدفعها الرغبة إلى تعرّف إلى أي حد يحسن الناس سلوكهم في هذا الموقف أو ذاك ؛ بتحليل هذه القدرات إلى علل الشعور ، أولى من تحليلها إلى العلل الفيزيولوجية ، ومحاولة وصف الطبيعة الإنسانية من حيث درجات اختلاف العقلية وفروقها — أي ما كان يسعى له جالتون تماماً . وهي — كما ترى — من صميم علم النفس الوظيفي ، وإن هي لم تأخذ رسمياً هذا الاسم . وإنما كان لهذه الدراسة أهميتها في ذلك الحين ؛ لأنها كانت تمثل النزعة الأمريكية في دراسة علم النفس ، مما كان مهدداً لظهور السلوكية في أمريكا فيما بعد .

وبلغ من أثر كتل في تلاميذه أن تعهدوا بنشر أشتات بحوثه في المجلد الذي أصدره سنة منهم (١٩١٤) في محفوظات علم النفس Arch. psychol عدد ٣٠ باسم بحوث جيمس ماك كين كتل السيكولوجية The psychological Researches of James McKeen Cattell . وفيه تناول هنمون V.A.C. Henmon زمن الرجوع ، وتناول ديربورن : القراءة والإدراك ، وولز : الارتباط ، وودورث : السيكوفيزيقا ، وهولنجورث : منهج ترتيب الجدارة Method of order of merit ، وثورندايك : الفروق الفردية . ومن هنا اتخذ كل منهم نقطة بدئه : فقام ثورندايك بالعمل التجريبي على الحيوانات ، وأصبح رائد أمريكا الممتاز في اختبارات الذكاء ، وأستاذاً في كلية المعلمين بكولومبيا . وأصبح ودورث خليفة أستاذه — كما ذكرنا — في كل شيء . واشتهر فرانتس S.I. Franz بعمله في تحديد مواضع الوظائف الخفية . وأصبح فاسلر أنثروبولوجياً ممتازاً ، ورائد معمل علم النفس في ييل Yale . وصار ديربورن عالم النفس التربوي المعروف في هارفرد ، وولز بطل المقاييس النفسية psychometrics في مستشفى بوسطن السيكوباتية ، وبراون أكبر عالم تجريبي في جامعة كاليفورنيا . وهولنجورث — في كلية برنارد — مؤلف كتب هامة في موضوعات كثيرة من علم النفس . واسترنج عالم النفس الصناعي المعروف .. إلى آخر ما ذكر كتل في قائمة علماء النفس الأمريكيين البارزين (من خمسين عالماً) بحسب منهجه في ترتيب الجدارة . ومنذ ١٩٠٢ ومطلع ١٩٠٣ ؛ صار ودورث مساعد شرنجتون في ليقرپول ، واتجه حينئذ إلى أن يجعل سيكولوجياه دراسة لفيزيولوجيا المخ دون غيرها . وكان شرنجتون أشد ما يكون رعاية له وتشجيعاً على متابعة هذه الدراسة . ولكن كتل ما لبث أن استدعاه إلى جامعة كولومبيا للعمل في علم النفس التجريبي والفيزيولوجي ، ولم يكن له — في غير حاجة إلى كبير تدبر — إلا أن يستجيب لهذه الدعوة التي هي أولى باستعداده ومستقبله . وهكذا عاد — بعد اثنتي عشرة سنة كاماة من تخرجه في كلية أمهرست ، وبعد تدريس الرياضيات والفلسفة والفيزيولوجيا — ليستقر معيداً ، فأستاذاً مساعداً ، فأستاذاً لعلم النفس في كولومبيا ؛ لا يبرحها إلا في أسفار وغيبات قصيرة — منها سنة ١٩١٢ التي قضها في معمل كيايه في بون Bonn — وقد جاوز الأربعين ؛ لأنه — كما يقول — يعد كيايه أباً له في علم النفس . واستطاع ودورث — وهو عائد من انجلترا (١٩٠٣) ليعمل في قسم علم النفس بكولومبيا — أن يقترن بفتاة . وصارا في كولومبيا زوجاً من جملة أزواج اصطحبوا

في الجامعة وفي الإقامة سنوات بمستعمرة مونروز Montrose Colony في الغابات بعيداً عن النهر بنحو أربعين ميلاً : هم أسرة ثورندايك ، وود بروج Woodbridge وكپل Keppel ، وباجستر كولنس Bagster-Collinse . وهناك عاش أولاده الأربعة بين عشرين طفلاً لهذه الأسرات الصديقة حياة صحة ونعمة ونضارة ، ويقول هو : « إن عينه كانت لا تغفل عن رقابتهم ، وأنه قد استفاد منهم وإن لم يحاول دراستهم أو تطبيق علم النفس عليهم ، كما لم يحاول توجيههم أو السير بهم إلى النواحي العلمية التي هو أولى الناس بالافتناع بها ؛ بل تركهم وشأنهم يتجهون إلى تفضيل النواحي العملية » . ولم يلبث علمنا حتى تملك أرضاً واسعة أشرف — بسابق تهيؤه واستعداده — على زراعتها وشق طرقها وقطع أخشابها ورعاية بساينها ؛ يقضى في ذلك معظم وقته متمتعاً بهذه الحياة الخاوية التي أحبها ، فأصبح — لولعه بالغابات والجبال والبحر والسهول — سائقاً ممتازاً ؛ يحظى من هذه الهواية بمتعة القيادة وجمال الرحلة والطبيعة حظاً مزدوجاً ؛ حتى لكم تمنى أن يكون جيولوجياً أو أثرولوجياً حتى يكون لهواياته هذه مسوغ من عمله ، أو أن يجد من وقته ما يسمح له بالجمع بين هوايات الرحلة والأسرة والموسيقى والقراءة والجامعة التي كانت تتوزع ؛ وبين ميله الرئيسي الأول إلى البحث السيكولوجي

وتنوعت محاضرات ودورث في علم النفس في موضوعها بين حين وحين ؛ سواء في محاضراته التمهيدية العامة التي كان يتولاها أحياناً ، ومحاضراته في علم النفس الفيزيولوجي ذاته ، كما حاضر في علم النفس المرضى سنوات ، وفي علم النفس الاجتماعي سنوات أخرى طويلة ، وكان يعرض بين حين وآخر لموضوعات اختبارات الذكاء ، والإحصاء ، ومناهج علم النفس ومشكلاته وتاريخه ونظريته وتطبيقه . أما ما كان يتدارسه مع حلقة تلاميذه seminar دراسة خاصة فهو موضوعات الحركة ، والبصر ، والذاكرة ، والتفكير ، والدوافع . وانتهى أخيراً إلى أن يقصر محاضراته على علم النفس التجريبي ، وإلى نظرة لمدارس علم النفس المعاصرة وما تعرض له هذه من مسائل ؛ تلك التي تمخض عنها أحدث كتابين هامين له : مدارس علم النفس المعاصرة Contemporary Schools of Psychology (١٩٣١) وعلم النفس التجريبي Experimental Psychology (١٩٣٨) .

وقد تبع الأستاذ ودورث في دراسته مع خاصة تلاميذه للدراسات العليا ما كان يتبعه أستاذه كتل مع حلقة أتباعه لهذا الغرض . فإن أثر كتل فيه كان من القوة

بحيث وصفه بقوله: « إنه لا يوجد رئيس أدق من كتل ، أو مثله في شخصه أو في شئون الإدارة والعمل والدقة العلمية ». فقد كان من عادة كتل أن يتقدم له كل طالب دكتوراه بأفكار بحثه ، وتقدمُ دراساته من فترة إلى أخرى ، وبما انتهى إليه عمله وبحثه ؛ ليناقشه زملاؤه الطلاب كما يناقشه الأساتذة ، وكان نقد كتل لأخطأهم حاسماً ورفيقاً في الآن نفسه ، إذ كان لا يثق بنتيجة أى بحث يخلو من هفوة محتملة ، أو يغفل ما وصل إليه الباحثون من قبل . ويقول ودورث في هذا السبيل : إنه يذكر طالباً ظهر من مناقشته موضوعه أنه أجوف ، وأن دراسته له تافهة ؛ فاخترني من بينهم منذ ذلك اليوم . ويقول إن كتل كان يتبع في تخيير موضوعات رسائل تلاميذه نفس طريقة فونت أستاذه ؛ فهو يتوقع من الطالب أن يعرض هو مشكلة يريد التجريب عليها ، وبعد أن ترسم الخطة العملية التي ينفذ منها إلى معالجة الموضوع ، كان عليه أن يعتمد في السير فيه على مجهوده وحده . ويقول كذلك إنه سار على هذه الخطة ، فاعترضتها حاجة كثير من التلاميذ إلى توجيه وإرشاد لم يكن بد من أن يبذله ؛ خصوصاً بعد أن توسعت هيئة التدريس ، ولزم تقسيم الميدان ، وتخصيص كل أستاذ وتلاميذه في البحث في موضوعات خاصة يهيئون أنفسهم لها — على طريقة العميد وديردج Woodbridge ، ورئيس قسم علم النفس بعدلثد پفنبرجر Poffenberger خصوصاً — مما أمكن معه لمُ الجهودات الشثتية .

على أن ودورث يرى أن توزع الطالب بين موضوعات كثيرة من علم النفس ليس من ذنبه ؛ فإنه هو نفسه قد توزعته موضوعات كثيرة — كانت تبدو طريقة كمسائل للبحث — ولم يزل يضاف إليها غيرها مما يجد في نوعه ، ويستهوى طلاب البحث والدراسة . فمن ذلك ماسبق أن ذكره : عملية التفكير thinking process وإدراك المكان time perception وانتقال التدريب transfer of training وضبط الحركة motor control والدوافع motivation مما لم يزل يعاود تناوله — وتلاميذه معه . وقد أدت به دراسة ضبط الحركة إلى بحث مسألة ما إذا كانت صور الإحساس الحركي kinaesthetic images أساسية كسوابق مباشرة للحركة الإرادية ؛ التي اضطرت في دراستها إلى اطراح تقاليد الجماعة ليهيب بالاستبطن — خجلا من نفسه — وظل يستعين بهذه الطريقة على تأمل صور الإدراك والتفكير ؛ مما أدى به إلى مشكلة الفكر بلا صورة imageless thought ، وذلك في ١٩٠٦ — ١٩٠٨ . وتبدو لنا مشكلة الفكر بلا صورة وكأنها غير ذات قيمة ؛ وذلك لما

ثأر حولها من الجدل والخصومة التي أدت بها إلى أن تأخذ مكانها الآن في درجة دنيا من النظرية السيكلوجية . وكان ودورث من الذين أسهموا فيها بنصيب وافر ، إذ كان لا يشك في وجود هذه الصور اعتقاداً منه بأن لديه هو نفسه صوراً سمعية كثيرة للكلام وموسيقى وأصوات ؛ اعتقاداً جعله لا يبدو وجيهاً في موقفه لو أنه سأل زملاءه الذين يقولون بمثل ذلك في الصور البصرية حججهم ودليلهم . لقد كان يتعجب لجرأة القائلين بأن الصور لا وجود لها ، ويعجب بمن يفترضونها حركات عضلية أو إحساسات بمنهات محيطية حاضرة ؛ وإن كانت هذه الفروض لا تسلم عنده من الترجيح بين الاحتمال وعدمه ، وبالتالي هي غير مقررة . فالعمليات التي نسميها الصور الذهنية موجودة ومتوافرة ؛ لا شك في ذلك . ولكن نقطة الخلاف حول مشكلة الفكر بلا صورة ؛ كانت — وما تزال — أن هذه العمليات التصورية غالباً ماتخفي تماماً في اللحظة التي يتقدم فيها الفكر بنشاطه ، وأنه — بالتالي — لا بد أنه توجد عمليات تفكير ليست عمليات تصور . والوصول إلى نتيجة كهذه في مثل هذه المشكلة يعده ودورث جوهرياً وذا أهمية في علم النفس الدينايكي والفيزيولوجي . إن مشكلة الصورة الذهنية ليست إلا جزءاً يسيراً في مشكلة التفكير كلها ، ولكنه يود ألا يخطيء الظن في أن سلسلة دراسات التفكير — التي كانت تصدر من معمله بين الحين والحين — قد ساعدت على فهم أوضح لهذه العملية المتعة ، هذا ولو أن هذه العملية الخفية المتلوية يكشف لنا الاستبطان عنها الشيء الكثير ؛ فإنه يلزم أن نجد لها مناهج موضوعية تدرس بها في المعمل .

والمؤلف يعرض في مطلع الفصل الثلاثين في كتابه الأخير : علم النفس التجريبي (١٩٣٨) مراحل مشكلة الفكر بلا صورة ، وموقفه منها — بعد أن يعرض لدراسة بيلر وتشنر خصوصاً (ص ص ٧٨٦ — ٧٨٩) . ومؤدى رأيه — كما قلنا — أن الفكر بلا صورة لم يعد أكثر خفاء وغدوضاً من إدراك الحقائق اليومية (ص ٧٨٩) وأن ما هو بلا صورة ليس فكراً أولى من أن يكون تذكراً recall ، فإن الحقائق العادية جداً : كمكان مبنى ما وأسلوبه ، أو محتويات جيب المرء ؛ تُتذكر بغير صور ، وأن أي نوع من حقيقة شاهداها نتذكره في كثير من الأحوال مجرداً من الخلفية الحسية للتجربة الأصلية ؛ ومن بينها — لأول وهلة — الصور اللفظية (ص ٧٨٧) .

وكان في الذاكرة memory وفي التحور transfer تجارب أكثر موضوعية وخصباً في دراسة ودورث . فالذاكرة تعين عليها رؤية العلاقات في مادة الشيء الذي نتذكره

— كما قرر « ميلر » من قبل . وتجربة فيها عنصر المعونة هذا — أو قل الذاكرة المعانة aided memory — يمكن أن تكون موضوع دراسة موضوعية لتفكير العلاقات relational thinking ؛ كما يسميه . يعنى أنه إذا كان الفكر بلا صورة لم يقيم عليه الدليل موضوعياً ؛ لأنه شخصى لا سبيل إلى إدراكه إلا بالاستبطان — كما فعل هو نفسه — فإن الذاكرة كانت تكون استبطانية في دراستها كذلك لولم تكن لها هذه الخاصة التي تنتقل بها من الذاتية إلى الموضوعية كوضع للدرس ؛ وهى : إمداد الفكر بعلاقات واضحة في مادة الشيء الذى يراه ، ثم التجربة على مدى تذكر هذه العلاقات ، كما ترى في كتابه (١٩٣٨) الذى عرض فيه للذاكرة في الفصل الثانى (ص ص ٥ — ٤٩) والفصلين التاليين (٥٠ — ٩١) . والمهم أنه يتصل بدراسة الذاكرة عنده مسألة حل الإشكالات problem solution الذى يقوم في أساسه على الاستفادة بسابق التجربة والخبرة ؛ مما يتطلب تحويل transfer ما اكتسبناه من قبل ، ليصلح حلاً للموقف الجديد . ومن هنا فإن تجارب الذاكرة والتحول كثيراً ما اجتذبت وقامت حولها كثير من الدراسات في معمله ، كما جرب عليها وتناولها في مواضع كثيرة من كتابه المذكور لا حصر لها ، وخصوصاً في الفصل الثامن (ص ص ١٧٦ — ٢٠٧) .

والدوافع motivation كانت تبدوله هى الأخرى دائماً موضع دراسة جدير بان يوضع إلى جانب الفعل performance . يعنى أنه لا يلزمنا أن نعرف ما يستطيع الفرد أن يفعله ، وكيف يفعله فحسب ؛ بقدر ما يلزمنا أن نبحث ما ينتهى به إلى أن يفعل شيئاً أولى من شىء آخر ، وأن يوجه لهذا الفعل نشاطاً كبيراً . فدراسة الدوافع تلزمنا إذن لفهم حرية الاختيار فى الساوك ونشاطه المتنوع . وكانت محاولة مؤلفنا فى هذا السبيل — فى كتبه — هى البحث عن صيغة تنتزل بالدوافع لتجعلها وسط الفعل ، بدلا من تركها سابحة فى محيط متعال — كما يقول . والشىء الوحيد لمثل هذه الصيغة هو تخليص عقلية المحرب المدقق من كل ما عسى أن يشعر به من ضعف فى الدخول على هذا الموضوع . وهنا يرى ودورث أن نظرة منصفة إلى الدراسات التى خرجت من معمله ؛ تدل على أنه ؛ وإن لم يقيم بنفسه بكثير من هذه البحوث ؛ قد لعب دوراً غير قليل فى القدرة على التوجيه لموضوعات الدوافع كالرجح والانعكاس والتذكر والاكتساب والمران وغيرها — مما عالجها فى رسائل تلاميذه ، وعرض له فى كثير من كتبه .

وأما السيكوفيزيقا ، فقد جذب انتباهه إليها لأول وهلة أستاذه كتل ، وكانت مناهجها تقدم بطبعها ميداناً للكشف أوسع ، وعملاً أخصب . ولكنه لما تجمعت لديه النتائج التي سيعممها ؛ راعه تفرق مناهجها ، وحاجتها بالتالى إلى المقارنة ، ومع هذا فإن علم النفس هنا على صلة بعلوم أكثر تقدماً كالفيزيقا والكيمياء والفلك — يود المرء لو يتابعها ، ويأخذ بنصيبه فى تنظيم المسألة شيئاً . وقد آتت هذه الرغبة من مؤلفنا ثمرتها فى نتائج عمله ، وفى كثير من كتاباته — كما عرض لهذا الفن بتوسع شامل فى الفصلين السادس عشر والسابع عشر من كتابه : علم النفس التجريبي ص ص ٣٩٢ — ٤٤٩ ؛ إن فى مناهجه أو نتائجه .

واتجه كذلك — فى فترات من حياته كانت تستهويه فيها الرياضيات — إلى أن يقضى أياماً سعيدة يحاول أن يستخرج نماذج لإحصائية نافعة ، وتكوين مجموعات ورسوم رياضية . ويقول هو إنه ما إن لحق الرياضيون المختصون بالموكب ؛ حتى كان طبيعياً أن يتخلف من غير أن يفقد لذته فى ذلك ، وكان لهذا أثره فيما وصل إليه من صبغ رياضية فى اختبارات الذكاء وغيرها — مما تناوله غيره مرة منذ ١٩٠٤ وهو يحاول تصميمات وتعديلات لهذه الاختبارات ، وخصوصاً ما وصل إليه مع ولز F. L. Wells فى اختبارات الارتباط The Association Tests الذى نشرته الصحيفة السيكولوجية Psychol. Rev. فى بحث مستقل رقم ٥٧ (١٩١١) فى ٨٥ صفحة — كما كان لهذا الاتجاه أثره كذلك فيما انتهى إليه باسم : القائمة العصبية النفسية - Psychoneurotic Inventory أو ثبت المعلومات الشخصية Personal Data Sheet — التى سنعود إليها فيما بعد — وفى بحوث تلاميذه الكثيرين فى اختبارات الذكاء بإشرافه الفعلى أو غير الفعلى من جملة جهودهم فى هذه الناحية من البحث . ولكن توزيع العمل أخيراً فى قسم علم النفس بكولومبيا — حيث كان يعمل — قد جعله لا يختص بالاختبارات اختصاصاً عملياً . وإن كان لديه — كما يقول (١٩٣٢) ، ولم أرها تظهر بعد) — تخطيط أو تخطيطان لاختبارات يود لو أبرزهما .

ذلك هو النوع من علم النفس الديناميكي Dynamic Psychology بمعناه الأوسع الذى نهض به — وكان له أكبر الأثر فى علم النفس الأمريكى فى حينه وفيما بعد — الأستاذ روبرت ودورث — كما كتب عنه فى سيكولوجيات ١٩٢٥ (١٩٢٦ ص ص ١١١ — ١٢٥) وسيكولوجيات ١٩٣٠ (ص ص ٣٢٧ — ٣٣٦) وفى كتابه المسمى

بهذا الاسم Dynamic Psychol. الذي نشرته مطبعة جامعة كولومبيا في نيويورك (١٩١٨) في ٢١٠ صفحة .

وتلك هي أبرز موضوعات علم النفس الذي اجتذب ودورث ، والتي كان له فيها نتائج ظاهرة الجدة والطرافة ، عدا بحوثه القيمة في علم النفس الحيواني - الفرع من علم النفس الذي تحمس له مؤلفنا وعمل فيه - وكذلك في علم نفس الطفل ، مما كان له فيه جولات موفقة تقدمت بكل فرع منها إلى الأمام ، وعدا بحوث وأوراق أخرى ذات بال - كتبها ولم ينشرها - وإنما حفظت في محاضر جلسات الجمعيات التي كان يتقدم بها إليها ، وعدا نشاطه في الهيئات المختلفة التي كانت تهيئها له الجامعة أو تهيئه لها شخصيته . وأولها مؤتمر World Fair في سانت لويس (١٩٠٤) الذي جمع فيه ممثلو أجناس كثيرة لاختبارها بالمقاييس النفسية والأثرولوجية ، واختبر فيه ودورث وكبير مساعديه برورنر F.G. Brunner وغيرهما الجري وسرعته ، والقوى العضلية ، والكفاية العقلية ، والسمع ، والبصر ، والذكاء ، والعقل ، والفعل بوجه عام ؛ في أحد عشر مائة فرد ك نماذج نوعية مختلفة ؛ فقدم المساعد في ذلك رسالة ، والأستاذ تقريراً باسم : الفروق النوعية في الخطوط العقلية Racial Differences in Mental Traits في مجلة Science (١٩١٥) ص ص ١٧١ - ١٨٦ . وكذلك اشتغاله أثناء الحرب العظمى بالدراسة في اختبارات الجيش ؛ بعد أن لم يتمكن من استجابة دعوة زملائه وبقى في الجامعة ، وبحثه خصوصاً بتكليف هيئة علماء النفس Amer.psychol.Assoc. عن مقياس للثبات الانفعالي emotional stability حيث كون - بالرجوع إلى كل ما سبق من دراسات عصاب الحرب في الجيوش ، والوقوف على مئات من أعراضه ؛ قائمة أسئلة questionnaire تطبق على مجموعة أشخاص في وقت واحد ، ويجاب عنها بنعم أو لا فحسب ، وما زال يطبقه ويعدله ويجربه بعد اختصاره على ألف حالة بأحد المعسكرات ، ويحاضر الأطباء العسكريين في كيفية استعماله ؛ حتى انتهت الحرب ولم يطبق على نطاق واسع يتبين معه مدى نجاحه في الكشف عن أعراض العصاب النفسى . وقد ساعده في هذا المنهج - قائمة المعلومات الشخصية Personal Data Sheet - الأستاذ بنبرجر قبل ذهابه إلى الجيش ، وبورنج في مطابقة نتائجه بالنماذج هناك ، واستخدم هولنجورث المنهج في حالات إصابة بالصدمة الحمية shell-shock بنجاح مرض ، كما استخدمه آخرون في صيغته أو في صيغ أخرى .

هذا عدا اشتراكه ورياسته أو مساعدته لهيئة تقدم العلم الأمريكية Amer. Assoc. for the Advan. of Science (١٩٠٨، ١٩٢٤) وقسم الأنثروبولوجيا وعلم النفس في لجنة البحث القومى National Research Council (١٩٢٤-١٩٢٧) ولجنة بحث العلم الاجتماعى Social Science Research Council منذ ١٩٢٥ حتى ١٩٣١ حيث كان رئيساً ، ثم أكاديمية العلوم الأهلية National Acad. of Science ، ورياسة هيئة علماء النفس الأمريكين (١٩١٤) التي لم يتخلف عن اجتماعاتها السنوية منذ ١٨٩٨ إلا نادراً ؛ مما أتاح له - كما يقول - أن يكون على صلة بأئمة علماء هذه العلوم ، والتعاون على حل مشكلاتها المشتركة ، عدا تضامن العلماء ومودتهم .

وبحوث ودورث ومقالاته كثيرة ، ولكن أهم كتبه بحسب صدورها ؛ بعد كتابين صغيرين له في إدراك الحركة The Perception of Movement وفي الصحة الشخصية Personal Hygiene الذى عبر عن سنواته الفيزيولوجية ؛ أهمها الكتاب الذى اشترك مع لاد في مراجعته : مبادئ علم النفس الفيزيولوجى Principles of Physiological Psychol. نشر هذه الطبعة المعدلة لكتاب لاد (جورج ترمبول) G.T. Ladd هذا ؛ بالاشتراك مع ودورث ؛ سكرينر في نيويورك (١٩١١) في حجم كبير يبلغ ٧٠٤ صفحة عدا المقدمة . وفيه اضطلع لاد بالأجزاء الفلسفية ، واختص مؤلفنا بتشريح الأعصاب وفيزيولوجيتها والتجريب عليها . ثم ظهر (سنة ١٩٠٣) كتابه عن الحركة (بالفرنسية) Le Mouvement نشره دوان Doin في باريس في ٤٢١ صفحة . وكتابه المدرسى Psychology الذى أصدرته في نيويورك مطبعة جامعة كولومبيا (١٩٠٨) في ٢٩ صفحة ؛ هو أحد جملة كتب مدرسية وجامعية كتبها في علم النفس - سندكرها بتاريخها . أما كتابه : علم النفس الديناميكي Dynamic Psychol. الذى أشرنا إليه ، فقد كتبه رد فعل لتشنر ووطنس ومكدوجل ، وحاول أن يستقل به في موقفه عن جميعهم ، وأن يجعل منه مجالاً للجهود سيكولوجية ذات جودة ، كما حاول أن يبين فيه أن دراسة الدوافع لها موضعها الخاص من علم النفس ، مهما يكن من رغبة جعل هذا العلم وضعياً .

وكتابه : العناية بالجسم Care of the body نشره في نيويورك مكالان وشركاه (١٩١٣) في ٣٥٤ صفحة . ثم كتابه علم النفس ، دراسة الحياة العقلية ؛ Psychology a Study of Mental Life نشره هولت في نيويورك (١٩٢١) في ٥٨٠ صفحة ، وظهرت طبعته المنقحة (١٩٢٩) في ٥٩٠ عدا المقدمة ، كما ظهرت طبعته الرابعة عند هنرى هولت وشركاه في نيويورك أيضاً (١٩٤٠) في ٦٣٩ صفحة . وفي هذا الكتاب

تناول المؤلف غرض علم النفس ومنهجه ، ودراسة الفرد في بيئته ، وفروق القدرات الفردية تبعاً لهذا ، والذكاء والشخصية والعوامل الفيزيولوجية والاجتماعية كمؤثرة فيها . ثم الوراثة والبيئة ونمو الجهاز العصبي والتعلم والتذكر والدافع والعاطفة والانفعال والملاحظة ثم حاسة البصر والحواس الأخرى ، والتفكير والتخيل والتطبيقات الشخصية personal applications وذيله بأسئلة وتمريبات وفهارس . ولهذا الكتاب في أمريكا قيمة كبيرة ، فهو نص معتمد تقريباً كمرجع للدراسات الجامعية الأولى في علم النفس العام ، مشهور بترتيبه وأسلوبه السهل القراءة ، وهذه الطبعة قد روجعت ونقحت كثيراً . ويقدم الناشر مع هذا الكتاب دليل معمل Laboratory Manual بقصد استعماله مع هذا النص ، ألفه سميث C. M. Smith باسم (الطبعة الثالثة ١٩٣٤ في ٧٥ صفحة) .

ويقول ودورث إنه كان يكتب - ويعاود كتابة - هذه المتون الأولية في علم النفس ؛ شأن متون سائر العلماء في هذا العلم ؛ ويحاول أن يجعل منها مساهمة علمية - بتوضيح أفكاره هو - مع مراعاة نواحي التقدم عند غيره ، وعلاقات الموضوعات والدراسات بعضها ببعض . وكان لا بد بعد ذلك من كتاب يتناول تقسيم علم النفس إلى مدارس المختلفة - وفي هذا أخرج كتابه الذي بين يدينا : مدارس علم النفس المعاصرة . Contemporary Schools of Psychol نشرته شركة الطباعة رونالد في نيويورك (١٩٣١) في ٢٣٢ صفحة ، وظهرت طبعته السابعة في أمريكا (١٩٤٤) والثامنة في إنجلترا ١٩٤٦ ، وفيه نشر محاضراته التي قلنا إنه كان يحاضر فيها زمناً في كولومبيا . وقد كان لهذا الكتاب - على إيجازه وسهولته - قيمة كبيرة من حيث فكرته وحسن عرضه وتفرده في نوعه ؛ كما أشرنا إلى ذلك في بدء حديثنا هذا .

وبعد هذا يأتي كتابه الكبير الذي وعد به سنة ١٩٣٠ قائلاً إنه يعمل منذ خمسة عشر عاماً - بكبير من الأمل - في كتاب عام في علم النفس التجريبي ، سوف يفرغ قريباً .

ومع هذا فإن كتابه هذا Experimental Psychology لم يصدر إلا ١٩٣٨ ، نشره في نيويورك هيري هولت وشركاه (في ٨٩٩ صفحة ، ٢٤ لوحة) إذ فيه دراسة ميدان علم النفس التجريبي كله في كثير من موضوعاته التي استقر حولها الرأي إلى نتيجة بحث مُرضية ، وهي التذكر ، والاسترجاع ، والمنعكس الشرطي ، والتعلم بالمثاهة ، والمران وتحول الاكتساب ، والاقتصاد في التعلم والتذكر ، والشعور ، والتعبير عن الانفعالات ،

والتغيرات الجسمية فيها ، والمنعكس الحلقاني أو الاستجابة الجلدية الحلقانية ، وزمن الرجح ، والارتباط ، والحمال التجريبي ، والسيكوفيزيقا : مناهجها ونتائجها ، والحساسية الجلدية ، والشتم والذوق ، والسمع ، وحاسة البصر ، وحركات العين ، وإدراك اللون ، والصوره ، والمكان ، والانتباه ، والقراءة ، وسلوك حل المشكلات ثم التفكير ... في ثلاثين فصلا ، وقائمة مراجع كبيرة لأهم الكتب في علم النفس التجريبي . وقد كانت مهمته في هذا الكتاب - كما يقول - أن يهضم كل تراث علم النفس التجريبي في هذه الموضوعات ، مقدراً كل ما سبق من دراساتها ، وموفقاً بين ما وصل إليه كل من بحثوا فيها . ولهذا الكتاب - على تفرق موضوعاته وترتيبها على نحو موسوعي - طريقته العلمية ، وتلخيصه الدقيق لمسائل علم النفس الخاصة من حيث هي مشاكل ، وبيانها لكيفية التعرض لهذه المسائل عند العلماء ، والنتائج التي انتهوا إليها ، فضلاً عن سهولة أسلوبه وتحرره من الاصطلاحات التي لا ضرورة لها ؛ كل هذه المزايا تجعله في متناول غير المختصين فضلاً عن المختصين . كما أن هذا الكتاب يؤخذ نصاً معتمداً للدراسات التجريبية المتقدمة ، أى لطلاب الدراسات الخاصة في علم النفس .

وفي ١٩٣٩ أصدرت مطبعة جامعة كولومبيا في نيويورك ، ضمن نشراتها السيكولوجية *Psychological Issues* أوراق مختارة من ودورث *Collected Papers from Woodworth* مع قائمة كتاباته (في ٤٢١ صفحة ، ٢٣ رسماً) وفيه بدأ بتاريخ حياته - على نحو ما أرخها في تاريخ مرتشيزون ج ٢ ، ١٩٣٢ ؛ الذي اعتمدنا عليه هنا أول ما اعتمدنا - ثم عرض لمشاكل أسباب الحركة الإرادية ومشكلة الفكر بالصوره وإدراك المكان والشعور بالربط ، كما عرض فيه للسلوكية وعلم النفس الجشطلتي وعلم النفس المرضى والطب العقلي ، ثم إلى آليات العقل ، وفرويد والفرويدية ، وعلم نفس الفروق *differential psychol.* وإلى موضوعات أخرى كثيرة ، أهمها طرق تدريس الفلسفة اليوم ، وتدريس علم النفس .. الخ . وأهم ما في هذا الكتاب أنه يجمع أهم ما للمؤلف من آراء ونظريات في ميدان علم النفس ، فيه خلاصة خمسة وعشرين بحثاً ومقالة كان قد نشرها فيما بين ١٨٩٧ ، ١٩٣٧ في مختلف الصحف والمجلات العلمية الأمريكية وغيرها - بنفس عنواناتها غالباً - (تجد قائمة لها حتى ١٩٣٢ في سجل مرتشيزون ج ٣ ص ٥٦٤ - ٥٦٥) - وفي هذا الكتاب كذلك ثبت الكامل لكل كتابات ودورث حتى ١٩٣٨ بترتيبها التاريخي ؛ فهو خلاصة مذهبه كله

وفي سنة ١٩٤٤ أصدر ودورث مع الأستاذة ماري شيهان Mary R. Sheehan :
 دروس أولية في علم النفس First Course in psychology . نشره في نيويورك
 هنري هولت وشركاه أيضاً (في ٤٤٥ صفحة ، ٢٠ رسماً) ومن بين موضوعاته : كيف
 نفهم الناس ونحسن التكيف بالبيئة ، والتعلم والتذكر والنسيان ، والقراءة والاستذكار
 طريقتيها ومزاولتهما ، والتفكير والرغبات والدوافع والغايات purposes ، وضبط
 الانفعال في الحياة اليومية ، وشخصية الفرد : وصفها وقياسها ، والذكاء والقدرات
 العقلية وأثر الوراثة والبيئة فيهما . وهو بالجملة كتاب مبسط في علم النفس العملي
 والتطبيقي يصلح منهجاً أولياً للمبتدئين والمتقدمين من الدارسين على السواء ؛ لم
 يتعرض فيه مؤلفاه لأي دراسة فيزيولوجية أو طبية ، بل سارا فيه على المشاهدات
 والملاحظات العامة للسلوك والإدراك والذكاء وعواملها في الحياة اليومية . وهو ذو متعة
 للقارئ العام والخاص ، يلحق بكل فصل منه تلخيص وتقرينات .

ولا بد أن نذكر من بين كتابات ودورث القصيرة الهامة : مذكرته التي تقدم
 بها إلى هيئة مناهج البحث في الروابط الصناعية Committee on Methods of Research
 in Industrial Relations باسم : تصميمات الكشف عن الحقيقة في علم النفس
 Fact finding devices in psychol. نشرها پرسن Person في نيويورك (١٩٢٦) في
 ست صفحات ، وجدول الكشف عن ال (س د) في توزيع السن العقلي
 Table for finding the S.D. of the mental age distribution نشر في نيويورك
 (١٩٢٧) ؛ وكذلك : كيف توحد وتصنف الانفعالات How emotions are
 identified and classified في الفصل الثامن عشر من موسوعة العواطف والانفعالات
 Feelings and Emotions التي نشرتها مطبعتا جامعة كلارك وجامعة أكسفورد
 بإشراف الدكتور ريمرت (١٩٢٨) ص ص ٢٢٢ - ٢٢٧ ؛ وأخيراً مقاله في علم
 النفس Psychology في « ربع قرن من الدراسة A quarter century of learning »
 الذي أصدرته مطبعة جامعة شيكاغو (١٩٣١) ص ص ١٢٩ - ١٤٦ . هذا
 فضلاً عما سبق أن أشرنا إليه في سيكولوجيات ١٩٢٥ ، ١٩٣٠ وتاريخ علم النفس
 بالتأريخ ج ٢ (١٩٣٢) .

وبعد — فلعلك قد تعرفت إلى الكتاب الذي بين يديك — موضوعه ومؤلفه —
 بما يجعلك أقدر على السير فيه على هدى وبصيرة .
 لقد كتبنا هذا الكتاب عناء في ترجمته أي عناء فليس تعريبه بالسهولة التي

تبدو في قراءته ؛ خصوصاً لمن يريد أن يلتزم النص — كما حاولنا أن نفعل —
 فالأسلوب الأمريكي — على خلاف الإنجليزى بتقاليده المرعية وبساطته المفضّلة —
 ملتبس مركب كثير الاعتراض ، لا يخلو من لفظة عامية أو تشبيه شعبي كان يعسر
 فهمه على الإنجليز أنفسهم ؛ حين رجعت إليهم في كثير منها .

وقد أبحنا لأنفسنا أبسط حقوق المترجم : التقديم والتأخير ، وتبسيط الجملة
 العربية بإدخال علامات تنقيط لا توجد في الأصل ؛ تسهلاً للفهم ؛ مع منتهى
 الدقة في المحافظة على النص — قدر الطاقة — حتى لقد وضعنا أى كلمة نزيدها
 عليه بين أقواس خاصة ، وكثيراً ما أوردنا الكلمة أو الاصطلاح الأمريكى بلغته
 إلى جانب الترجمة — مع يقيننا بأن ذلك يثير ذهن القارئ في كثير من الأحوال —
 وقد هيأنا له ذلك عن قصد ، ودون تهرب ، ليكون له رأيه في قبولها أو تعديها ؛
 سواء منها المصطلح المقرر أو اللفظة المستحدثة .

ولما كان الكتاب تاريخياً . ومعبراً عن رأى صاحبه في كثير من المواضيع ؛ فقد
 كان علينا أن نروده بتعليقات متتابعة ، نندارك فيها ما فات أسلوب المحاضرة لدى
 المؤلف من ذكر مراجع علماء النفس وكتبهم وقيمة دراساتهم . فلما اتسع التعليق
 رأينا أن نورده بعد كل فصل بأرقام خاصة هنا وهناك .

وما أشق أمانة الترجمة على من عانى تجربتها ! فليكن للمترجمين من سعة أفقك
 وحسن ظنك ما لا تكبر معه هفوة محتملة أو سقطه غير مقصودة أو وجهة نظر
 أو قول مخالفة .

وعلى المترجم أن يثبت هنا أوفر الشكر وأجزله لحضرة الأستاذ الجليل الدكتور
 يوسف مراد ، لقاء عونه الصادق . ورعايته المحلصة لمراحل إظهار هذا الكتاب
 وغيره من آثار جماعة علم النفس التكاملية .

كمال دسوقي

القاهرة في يونيو ١٩٤٨

مدارس علم النفس المعاصرة

عنوان الكتاب في الأصل

Contemporary Schools of Psychology

نشره لأول مرة في نيويورك ١٩٣١

The Ronald Press Company

وظهرت طبعته السابعة الأمريكية عند

نفس الناشر الأمريكي بنيويورك ١٩٤٤ ، والثامنة الإنجليزية

عند شركة ميثون The Methuen Co. بلندن (١٩٤٦)

تصدير

في هذا العصر من التفكير التقدمي - الذي لا شك في أنه من بين فترات التنوير المتكررة التي اجتازها العالم، أو قل هو أعظم هذه الفترات - يؤدي تقدم العلم وتزايد الصلة العامة به دوراً كبيراً . وهذا الضوء الجديد ينبعث من العلوم الطبيعية والبيولوجية والطبية من ناحية ، ولكن جزءاً غير قليل منه انما يأتي من العلوم التي تدرس السلوك الإنساني - فحيث يكون الظلام مخيماً أكثر ، يستطيع التنوير أن يظهر كثيراً . وأبحاث الذكاء والدوافع والوراثة والبيئة توضح شيئاً فشيئاً ما كان قبل موضع خلاف في الرأي . وفوق هذا الفجر المتباطيء للمعرفة السيكولوجية ؛ نحن نواجه لمعاً باهرة من التحليل النفسي والسلوكية وغيرها من مدارس علم النفس ، ومنها ما هو معروف بعض الشيء لدى المعنيين بها من القراء . والضوء الذي يشع عن هذه المدارس الرئيسية - وإن لم يزل بعد بعيداً عن الثبات والاستقرار - فهو يلقي لمحات كاشفة على ما هو غير معروف .

ولم يحن الوقت بعد لما يشبه القطع بصدق تعاليم هذه المدارس العديدة أو كذبها . والذي ينشد النتائج الأخيرة فحسب ؛ يجب أن ينتظر عشرات السنين "حتى يظفر بالإجابة" . فأما حين يريد المرء أن يأخذ بنصيب في حركة الزمن إلى الأمام ، وأن يتمشى مع التفكير قدماً ؛ فسوف يجد أن مدارس اليوم جديرة بحق أن يأخذ عنها .

ويحاول هذا الكتاب أن يلقي نظرة موضوعية على علم النفس المعاصر بالقدر الذي يتعلق بمدارسه وما تضيء به للإنسانية من أنظار . وهو لا يريد أن يقدم آراء المؤلف الخاصة في أية صورة مذهبية ، وإن لم يتمتع عن شروح شخصية هنا وهناك... ثم هو لا يهدف إلى نقد شامل للمدارس المختلفة ولا إلى تقديرها حتى يتأدى للقارئ إلى واحدة منها ، ويبعد به عن الأخرى . وإنما غرضه أن يقدم صورة لهذه المدارس لا محاباة فيها ، حتى ينهياً للقارئ أن يقف على المعالم الرئيسية لكل منها في غير توسع مُربك ؛ ولكن بالقدر من التجسيم الذي يعطى لونها لهذه الصورة .

وقد نشأ الكتاب عن طائفة من المحاضرات عنوانها : « نظرة في علم النفس المعاصر » أقيمت سنوات عدة في جمهور المستمعين من طلاب الجامعة وغيرهم من المعنيين بعلم النفس . ويتوجه المؤلف بالشكر إلى كثير من الطلاب والزملاء الذين أدلوا بانتقادات مفيدة في كثير من مراحل هذه العملية الطويلة لإخراج هذا الكتاب .

ر . س . ودورث

جامعة كولومبيا

٢٥ مارس ١٩٣١

الفصل الأول

ما وراء خلافتنا الجارية

أريد في هذه الفصول أن أنظر إلى القرن العشرين كله بالقدر الذى هو به معاصر لما نهدف له من أغراض .

فقد كانت هذه السنوات نشيطة إلى حد كبير فى الدوائر السيكولوجية . وتزايد عدد العلماء النفسيين عشرة أضعاف ، كما بلغ عدد البحوث هذه النسبة ، ونشأت صلات أوثق بالعلوم الأخرى - البيولوجية والاجتماعية - ثم بالنواحي العملية التى يمكن أن يطبق فيها علم النفس : كالتربية ، والطب ، والقانون ، والمعاملات التجارية والصناعية . وليس غرضى أن أعرض النمو التدريجى للمعرفة السيكولوجية ، ولا أن أظهر لك علماء النفس يعملون فى معاملهم وحجرات درسهم بالفعل ؛ كما أننى لن أضع بين يديك النتائج القوية التى وصلوا إليها ، ولا المسائل التى حلت بما يرضى عنها الكافة . وإنما غرضى أن أقدم لك مسائل ذات قيمة جوهرية لم تحل ، أى مسائل لا يزال يقوم حولها نقاش عنيف ، ”وأعرض لك“ شكوكاً فيما إذا كان علم النفس يسير على هدى من الأمر ، ومحاولات من جانب هذا القائد أو ذاك لتوجيه الكل بعض وجهة جديدة .

إن الثلاثين سنة الماضية قد أوجدت حركات جديدة فى علم النفس إلى درجة ملحوظة ، كان من نتيجتها أنا نرى الآن تلك الظاهرة العجيبة : ”ظاهرة“ اختلاف المدارس الواحدة عن الأخرى اختلافاً جوهرياً فى فكرتها عن علم النفس ماذا يجب أن يعمل ، وكيف ينبغي أن يقوم بهذا العمل . هذه المدارس تذكرنا بمدارس الفلسفة ، ويندر أن تقارن فى هذا العصر الحاضر بالعلوم الطبيعية الأخرى . ربما كان وجودها فى علم النفس المعاصر مؤذناً بشباب هذا العلم ، وبكثرة عدد الإمكانيات التى لم نقف عليها والتى ينبغي أن نفضحها ، كما هو مؤذن بانفصالنا به حديثاً عن منزل الأبوة المشترك ؛ ”وأعنى به“ الفلسفة . أما أهمية كل منها فيضعب القول بها حتى يتاح لها وقت للنمو أطول . وحتى يتم لها ذلك ؛ لا شك أنها ممتعة لمن شاء أن

يقف على أفكار خصبة . إنها مدارس متعاصرة في حداثة ظهورها جميعاً وإن لم تبد على إحداها حتى الآن علائم موت مبكر .

وقبل أن نوجه انتباهنا إلى واحدة بعد أخرى من هذه المدارس الجديدة؛ لا بأس في أن نعرض بإيجاز لعلم النفس السابق على عهدنا هذا المعاصر . فقد بدأت كل مدرسة وكأما هي ثورة على هذا النظام القائم established order فلن يمكن فهمها دون إلمام بأساسها التاريخي . يجب أن نعرف شيئاً عن النظام القائم في سنة ١٩٠٠ الذى ثارت عليه المدارس الحاضرة، ولكي نفهم هذا الوضع القائم؛ علينا أن نذكر أنه هو نفسه كان جديداً وثورياً في وقت من الأوقات . فكل مدرسة — مهما تبدت جديدة أول الأمر — قابلة لأن تصبح « نظاماً قائماً » إن هي لاقت نجاحاً، ولأن تقوم ضدها يوماً ما ثورات جديدة . والحق أننا نشهد من قبل ثورات على بعض المدارس الحديثة كالسلوكية ومدرسة التحليل النفسى بحجة أنها تقليدية ، فكذلك بالمثل ؛ النظام القائم في سنة ١٩٠٠ قد سلم من ثورة عاجلة . ومن قبل في مستهل الحركة العلمية الحديثة في القرن السابع عشر نجد رجالا كديكارت وهوبز ينددون بعلم النفس التقليدى لعهدهم . وهكذا يقدمون لنا مبادئ ما نسميه علم النفس الحديث تمييزاً له عن القديم والمتوسط .

ولا أستطيع بالدقة أن أذكر خصائص ما قبل علم النفس الحديث في كلمات عدة . فالذين يعنون بدراسته يؤكدون لنا أن الكثير منه له بحق طابع محدث . وقد وقفنا حديثاً — المرة بعد المرة — على أنظار موفقة في علم النفس منذ عهد أفلاطون وأرسطو حتى الآن . ولكن علم النفس ما قبل الحديث — كما بدا لعلماء النفس المتقدمين الذين يمكن تسميتهم محدثين — قد عانى من كثرة التعقيد وكثرة الملكات التى لا ترد إلى أصل واحد ، ومن قلة الصلة كذلك بعالم الطبيعة ، فالإحساس ، والتخيل ، والذاكرة ، والفكر ، والرغبة ، والحركة الجسمية ؛ كانت تبدو ألواناً من النشاط كثيرة مختلفة ، كل منها يختلف في أساسه عن عمليات الطبيعة الفيزيقية ؛ التى بدت هى الأخرى في أشكال متميزة كثيرة .

طلائع جريئة لعلم النفس الحديث :

ومع أننا لا نزال نعد علم النفس حدثاً من العلوم ، فليس لنا أن نفترض أن جيلنا هو أول من حاول الأخذ بعلم العقل في مصاف علم الطبيعة . فما إن تزعم الفلك

والطبيعات أول الحركة العلمية الحديثة ، حتى لحق بالموكب علماء النفس في ذلك الحين . ففي مستهل القرن السابع عشر أحدث جليليو وغيره من الفيزيقيين ثورة في الطبيعات بإظهار أن كثيراً من عملياتها - وربما كلها - يمكن أن تفسر بمعني الحركة والقصور الذاتي . وهارفي عند ما كشف دورة الدم ، قد بدأ يشرح العمليات الفيزيولوجية بمصطلحات فيزيقية . وبدون تباطؤ حاول ديكارت (١) أن يطبق الطبيعات على إدراك الحيوان وسلوك الإنسان . أما السلوك فقد أقامه على ما نسميه الآن بالفعل المنعكس ؛ وأما الفعل المنعكس فقد فهمه على أنه تحرك سائل معين في الأعصاب من أعضاء الحس إلى المخ ، ومنه مرة أخرى إلى العضلات . وعلى هذا فالقوة الطبيعية أو الحركة التي نهبت عضو الحس قد حركت في داخل الجسم عملية فيزيقية تنتهي بحركة عضلية . أما الروح فقد جعل لها ديكارت مكاناً المخ ، وجعل لها أن تتدخل في حالات خاصة بين الحركات الداخلة في الأعصاب والخارجة منها . غير أنه ليس للحيوان روح - فيما حسب - وكل سلوكه إنما يقوم بحركة فيزيقية بحتة . "ومن هنا" كانت روح الإنسان عنده ، بما لها من ملكة تفكير ، غير فيزيقية . وتقدم هوبز (٢) أكثر ، حيث كانت العمليات العقلية عنده - كالعمليات الجسمية سواء بسواء - مردهما إلى الحركة . فالحركة الخارجية تقع على أعضاء الحس فتتصل بالأعصاب والمخ والقلب . والحركة الداخلية - عند ما تبدأ - تستمر بحكم القصور الذاتي inertia على هيئة ذكريات وأفكار . فرد العمليات العقلية إلى أساس عام من الحركة ، وبهذا جعلها في صف واحد مع العمليات الفيزيقية . لا شك أن ثورة هوبز على سيكولوجيا الملكات كانت حاسمة ، ولكنها كانت تخطيطية في تفاصيلها ؛ حتى بقي على السيكولوجيا الإنجليزية في القرن التالي أن تهض بهذه المهمة في تنمية هذا التخطيط كما فعلت في «علم النفس الارتباطي Association psychology» (٣) .

وقد حاول الارتباطيون - وهم علماء النفس التقدميون في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر - أن يردوا كل العمليات العقلية إلى عملية الارتباط وحدها ، فتخلوا عن فكرة هوبز غير الكافية عن ثبوت الذكريات بالقصور الذاتي وحاولوا أن يفسروها بربط العملية أو «الفكرة» مع الأخرى . فإذا ارتبطت عمليتان في خبرة شخص ؛ وكانت إحداها قد أثارها بعد سبب خارجي ؛ فإنها بدورها لا بد أن تثير الأخرى بحكم هذا الربط أو التداعي . وقد وجد الارتباطيون من السهل أن

يبينوا كيف أن تتابع الأفكار في حلم اليقظة يمكن أن يستدعى بارتباطات مكونة من قبل بين الأفكار التي تظهر تباعاً . وأبعد من هذا ، فهم يبينون أن رؤية الشيء إذا ارتبطت في الخبرة الشخصية بإحساسه ، يمكن أن تؤخذ دليلاً على وجود الشيء . كما يبينوا كيف أنه بدلالات كهذه يمكن معرفة حجم الأشياء وبعدها . وذهبوا إلى أن كثيراً من المخاوف والكراهات إنما تتأصل في الطفولة من ترابط أشياء أو أشخاص غير ضارة بأشياء أخرى تنير بطبعها الخوف أو الكره . وبمثل هذه الطرق ردوا : الاستدلال ، والإبداع ، والعقيدة ، والفعل ، إلى عملية الارتباط عنها ، ودرسوا قوانين الترابط آمليين أن يردوها إلى قانون واحد ، وقالوا إن الارتباطات تختلف في قوتها تبعاً لتواتر وحدة ووضوح التجارب الشخصية التي فيها تكونت وتجددت . وقد زاد تأثير الارتباطيين حتى سيطر على النظام القائم في سيكولوجيا القرن التاسع عشر المبكر ، وإن اختلفوا كثيراً في وجهة نظرهم فيما يتعلق بطبيعة الارتباط الفيزيقية ، وإن اختلفوا كثيراً أيضاً في تطبيقات نظريتهم على الأخلاقيات والاقتصاديات والعلوم الاجتماعية عامة ، وبالرغم من الاعتراضات الكثيرة التي أثارها على نظريتهم في كلها أو في أجزاء منها المعاصرون لهم .

سيكولوجيا القرن التاسع عشر الجديدة :

ولكن ما إن ظهر أثر الطبيعيات في عهد جليليو مباشرة في علم النفس ، حتى أشعر بوجودهما علمان نشئا حديثاً في مستهل القرن التاسع عشر . فالنتائج العجيبة التي تأدت إليها الكيمياء قد أدت إلى فكرة كيمياء العقل *mental chemistry* التي تحلل مركبات العقل إلى عناصرها . وقد استعان بعض الارتباطيين بهذه الفكرة فيبنوا لماذا تبدو كثير من الإحساسات كاللون البني والإحساس بالحشن والأملس ، وبالرطب والجفاف ، وبنغمة الكمان ، وبما نسميه طعم البرتقالة – الذي هو إلى حد كبير شم . . . ” لماذا تبدو هذه الإحساسات “ بسيطة وموحدة بينما هي ترجع بالتحقيق إلى مؤثرات مركبة . كما أن مركب الماء يبدو بسيطاً وواحداً في عناصره الكيميائية : الأوكسجين والهيدروجين . وامتدت لفظة الارتباط حتى شملت كل أنواع المركبات ، مع أنه يجب الاعتراف بأنها في توسعها ذلك قد فقدت من قيمتها التفسيرية كثيراً . ومهما يكن من أمر ، فإنه في ذلك الحين قويت فكرة علم نفس تحليلي يسترشد بالكيمياء ، ويستخرج العناصر والمركبات في ميدان الذهن .

وكان تأثير الفيزيولوجيا أبعد بكثير من أثر الكيمياء ، لأن علم النفس يمت إلى الفيزيولوجيا بصلة أكر - إن في مشكلاته أو ما يمكن أن يكون له من مناهج . ففي مطلع القرن التاسع عشر ، عند ما بدأت الفيزيولوجيا تصطنع التجربة بجد ؛ جرت وراءها نحو التقدم هذا العلم الشقيق . وعن معمل الفيزيولوجيا نشأ معمل علم النفس ، وإن كان فونت^(٤) لم يؤسس في ليدتسك أول معمل حقيقي لعلم النفس حتى سنة ١٨٧٩ . وسرعان ما كثرت المعامل ، وقامت السيكولوجيا الجديدة - كما كانت سنة ١٩٠٠ - سيكولوجيا تجريبية . وإنما كانت ثورتها على علم النفس السابق عليها من حيث منهجه ومستواه العلمى أكثر منها على نظريته . فبينما قنع عالم النفس السابق بأن يستعين على البرهنة بالذاكرة وخبرته الشخصية العامة مع ما فيها من عدم الثقة ، إذا بعلم النفس الجديد يصر على أن تقوم حقائقه على ملاحظات مسجلة ومحددة . وقد أضيف إلى تجارب الحواس والحركة العضلية تجارب أخرى عن الذاكرة والتعلم أكثر دقة ، وقوى الأمل في أن يغزو هذا المنهج الجديد يوماً ما كل مسائل علم النفس .

ونحن لم نعرض بعد المدى الكامل لسيكولوجيا سنة ١٩٠٠ . وربما كان تخطيطنا للقرن التاسع عشر ناقصاً جداً إذا نحن أغفلنا ذكر تأثير علمين آخرين نهضوا سريعاً في ذلك الحين : فالبيولوجيا العامة وخصوصاً نظرية التطور Theory of Evolution قد أثارا منذ سنة ١٨٦٠ مجموعة كاملة من المشاكل كانت غريبة على علم النفس القديم وعلى الفيزيولوجيا والكيمياء والطبيعات أيضاً . أما التطور فقد أثار مشكلتي الارتقاء والتنوع . فبدأ يظهر في الكتابات النفسية حتى نهاية القرن التاسع عشر - وبتأثير دارون وجالتون^(٥) إلى حد كبير - : الارتقاء العقلى في الفرد وفي الجنس وتأثره بالوراثة والبيئة ، وعلم نفس الطفل ، وعلم النفس الحيوانى ، والفروق بين الأفراد وبين الأجناس ، وأمثال هذه الموضوعات مما قرب علم النفس من علم الحيوان (الزولوجيا) وعلم الإنسان البدائى (الأنثروپولوجيا) . وقد وضع أول الأمر في هذه الدراسة تصميم اختبارات لقياس الأفراد ، ثم ضمت إلى نوع التجارب التى تجرى في المعمل على أنها جزء من جملة مناهج الباحث النفسى .

والأثر الذى يستدعى الملاحظة أخيراً إنما جاء عن علم الطب العقلى psychiatry . وتاريخ الطب العقلى في القرن التاسع عشر يتطلب دراسة أوسع . ويكفى أن نقول إن علاج المجنون insane والمرضى بحالات عصابية neurotic وضعاف العقول

feeble-minded قد تقدم أثناء هذا القرن من حالة لاعلمية بحث إلى أخرى تبشر إلى حد كبير . فقد بدأ الطب العقلي بتصنيف نماذج السلوك الشاذ ، وتقدم منها إلى دراسة تاريخ حياة الشواذ من الناس . وفي طول هذا القرن انقسم أطباء العقل إلى معسكرين : النفسيين psychists والجسميين somatists . هؤلاء يبحثون عن الأسباب في دائرة العقل ، وأولئك يضعون نوحاً من إصابة أو اضطراب في المخ وراء كل شذوذ في السلوك . وقد ظهر اضطراب المخ فعلاً في بعض الحالات الشاذة ولم يمكن إثباته في بعضها الآخر . وفيما لم يمكن إثباته منها بالمناهج التي بين أيديهم ؛ افترض الجسميون وجوده في صورة خفية . وبالجملة كان الجسميون هم الفريق الغالب بين جماعة الطب العقلي ، وكان لهم أعظم الأثر في علم النفس آنئذ .

تلك هي المؤثرات الخارجية التي أشعرت بنفسها سيكولوجيا القرن التاسع عشر؛ مثيرةً مشاكلاً جديدة ومؤديةً إلى تقدم مناهج في البحث جديدة تميل إلى أن تفصل علم النفس عن قديم صلته بالفلسفة ، وتجعله في مصاف العلوم الطبيعية . على أن هذا الانفصال لم يحدث مرة واحدة . فيجب أن نذكر أن علم النفس قد كتب فيه الفلاسفة منذ أكثر من ألقى سنة ، وأن الفلاسفة هم الذين كانوا يعلمونه طوال القرن التاسع عشر . فإني أول ما اتصلت بعلم النفس حوالي سنة ١٨٩٠ كان ما يزال مرتبطاً بالفلسفة ، وكان يُعلّمه فيلسوف على أنه قسم كامل من دراسات الفلسفة . بل إن أكبر علماء النفس اليوم أمثال فونت ووليم جيمس كانوا أيضاً فلاسفة . إن جيمس^(٦) بعد أن كتب كتابه الكبير « مبادئ علم النفس » قد حول معظم كهمته إلى الفلسفة فصار أحسن ما يعرف به اليوم أنه شارح البراجماتزم القوي الظاهر ، وأنت واجدٌ حتى في « سيكولوجياها » كثيراً من المناقشات التي تعتبر اليوم خاصة بالفلسفة أكثر منها بعلم النفس . ويمكن أن نقول إن الفلاسفة كان لهم اليد العليا في ذلك الحين . وإنهم عالجوا علم النفس على أنه قسم تابع لموضوعهم . ولكن علماء النفس التجريبيين — أو الجدد — لم يكونوا يقبلوا هذا الوضع بسهولة ، فكانوا يقوون صيحات علم النفس بالاستقلال . وابتداء من سنة ١٨٩٠ نجحوا في الحصول على امتيازات وأقسام لعلم النفس أنشأتها الجامعات . وكانوا ينشئون الصحف والجمعيات النفسية ، ولعلمهم لم يكونوا في حاجة إلى الحط من شأن الفلسفة في شيء ، بل أن يعلنوا ببساطة أن علم النفس — وإن كان لا يزال علماً حادثاً — قد نما إلى درجة تسمح له بمبارحة حظيرة الأسرة على غرار العلوم الأكبر منه سنّاً . وإنما

لزمه الانفصال لكي ينهض بمصطلحاته الخاصة، وليوثق علاقاته الخاصة، وليصوغ مدركاته، ويتجهج على مشكلاته التي تظهر من دراسة الإنسان، وتؤذن بالتأدي إلى فهم أحسن لوسائل الإنسان العجيبة، وربما بدا ذلك للفيلسوف تافهاً ولا معنى له.

وقد كنا نتكلم حتى الآن عن مهمة علماء النفس في أواخر القرن التاسع عشر أكثر من كلامنا على نظرياتهم وصيغهم. فهم عندما حاولوا أن يقدموا تعريفاً صورياً لموضوعهم، وأن يحددوا ميدانه؛ كان خليقاً بهم أن يصلوا إلى القول بأن السيكولوجيا هي علم الشعور science of consciousness. ويبدأ جيمس فيقرر أن علم النفس هو علم الحياة العقلية سواء في ظواهرها وفي شروطها. فالظواهر هي كالأشياء التي نسميها إحساسات، ورغبات، ومعارف، وتفكيرات، وإرادات وما شابهها*. وفي سنة ١٨٩٢ قال فونت إن علم النفس إنما يكشف عما نسميه تجربة داخلية — أعني إحساسنا وشعورنا، تفكيرنا وإرادتنا — في مقابل أشياء التجربة الخارجية+. وقد كان ينظر إلى الشعور أحياناً على أنه عالم داخلي متميز عن عالم الطبيعة في خارج. وأحياناً أخرى قالوا — استناداً إلى الحقيقة البينة في أن حقائق أى علم إنما يقف عليها الملاحظون "أنفسهم"؛ وهي في المقام الأول خبراتهم الواعية — قالوا إن علم النفس يعرض لنفس هذا النوع من الحقائق شأن كل علم آخر؛ ولكن لينتفع بهذه الحقائق على طريقته الخاصة في دراسة الشعور ذاته، لا في دراسة الموضوعات التي يشعر بها الملاحظ. ولكن من أية ناحية نظرنا إلى المسألة؛ فإن علم النفس قد حُدَّ بتعريفه على أنه دراسة الشعور. "وأنه دراسة" الفرد كمجرب، ووفقاً لهذا التعريف كان المنهج الأول للملاحظة النفسية إنما هو الاستبطان — أى ما يدلى به الفرد متعلقاً بخبرته الواعية أو الشعورية، والعمل التجريبي كما قال فونت لم يكن يقصد به في شيء أن يذهب بالاستبطان؛ بل لعله كان إلى تقديم أكبر التسهيلات إلى الاستبطان الكامل الدقيق أقرب. وفي المعمل تنزل علم النفس شيئاً ما ليتحدد بهذا التعريف الصوري. فالشخص موضوع التجربة لم يكن يعمل دائماً على أنه المجرب، بل غالباً على أنه القائم بها. والمسألة بعدُ هي في إظهار: بأية سرعة يستجيب، وبأية دقة أمكنه أن يدرك، وإلى أى حد من الكمال أمكنه أن

(*) وليم جيمس: مبادئ علم النفس — هنري هولت وشركاه ١٨٩٠ مجلد ١، ص ١.

(+) فاهلم فونت: محاضرات في علم النفس الإنساني والحيواني — ترجمة كريتون وتنشر

شركة مكملان ١٨٩٤ ص ١ وبقيّة الجملة: (التي هي موضوع العلم الطبيعي).

يسترجع المادة التي أودعها ذاكرته ؛ لأنه لم يطلب إليه الإدلاء بتجربته وقت التنفيذ ، بلي أن يقوم بدوره فحسب ؛ أما كيف أحسن القيام به فذلك ما لاحظته صاحب التجربة . وأيضاً في دراسة الأحاسيس والانفعالات ، جرت العادة بأن يُحصَر الشخصُ في آلات التسجيل التي سوف تضع تخطيطاً لنفسه أو نبضه . فمن الناحية النظرية ، هذه الطرائق الموضوعية كانت تُبرَّر في معمل علم النفس بأنها تلقي ضوءاً — عن طريق غير مباشر — على الإحساسات والخبرات الأخرى الواعية ، ولكن — كما دلت البحوث — ظهر أن لذة ”هذه التجارب“ إنما توجد في مجرد القيام بها . فإن الشخص موضوع التجربة إذا أدلى ببعض استبطاناته العرضية فعلا ، فإن هذه كانت تلقي ضوءاً على ما قام به أكثر منها على أي شيء آخر حوله . فكانت السيكولوجيا تجد عملها ، وكيف تقوم به ؛ في عملية اكتشاف ميدانها أكثر مما تجده في الكتابات النظرية والتعريف الصوري .

ولدينا إذن صورة لعلماء النفس فيما بين ١٨٩٠ ، ١٩٠٠ — طائفة حية جريئة — قليلٌ عديدها — ولكنها سرعان ما نُعنى نفسها من الجليل الناشئ مستبشرة بأسلوبها الناهض الجديد في التجاريب والاختبارات ، واجدةً ميادين جديدة تكشفها سنة بعد سنة ، مبتدئةً بدراسة الطفل ، والحيوان ، والشخص الشاذ ، كالبالغ الراشد سواء بسواء ؛ متصلة من نواحي مختلفة بالذين يعملون في العلوم الأخرى ، وأكثر استعداداً لأن تتحلل من الفلسفة وتشرع في بناء خاص بها . فمن الناحية النظرية ساهم علماء النفس سنة ١٩٠٠ في تعريف علم النفس بأنه علم الشعور ؛ أما من الناحية العملية فقد كانوا يدرسون الفعل performance كما يدرسون الخبرة الشخصية experience . ونظرياً هم كانوا أصحاب سيكولوجيا تحليلية على غرار الكيمياء ، ذات إحساسات أولية وصور ومشاعر ، وذات أفكار مركبة وانفعالات تتكون من هذه العناصر بصيغ مختلفة ؛ أما عملياً فهم لم يراعوا غالباً هذه الخطوة . وأيضاً من الناحية النظرية كانوا في الأكثر ارتباطيين ؛ لكن في غير إيمان كبير ، فقد ولى من قبل تُظهر الارتباطية . ونظرياً كذلك تحمسوا لعلم نفس فيزيولوجي ؛ فأما عملياً فقد انحنوا بشدة أمام المخ ثم استأنفوا سيرهم ، إذ كانت العمليات الخفية بعدُ أغمض من أن تعطى فكرة أوسع عن العمليات العقلية .

السيكولوجيات الجديدة في القرن العشرين :

على نحو من ذلك كان الوضع القائم لسنة ١٩٠٤ الذى ثارت له المدارس المعاصرة . وقد نعجب ماذا كان فيه داعياً لهذه الثورات الكثيرة العنيفة . إنه لم يكن حسن الإنشاء ولا حسن النظام بحيث يُتعب أو يعترض الناشئين الجدد من علماء النفس في ذلك العهد . لقد كان ناقصاً في كثير من النواحي — بحق — ولم يكن ينهض تماماً بما يتطلبه المنهج العلمى ، وفوق هذا كانت نظريته وتطبيقه أبعد من أن يُدركا . ولكننا كعلماء نفسيين يجب أن نعرف أن المسألة لم تكن مناعة هذا النظام القديم ؛ وإنما كانت : هل شئ فيه عرضة للنقد ؟ فإن كل شاب مقبل على الميدان ويريد أن يجعل له اسماً كان يبحث فيما حوله عن مغمز يحمل عليه ؛ فإنه لو أخذ سمته في هدوء وقيل الأشياء على ما هى عليه فلن يلتفت إليه أحد ؛ فهو يتلمس المثالب ، وهو أكثر حبا لها كلما كانت أكبر . وبرع ناشئة علماء النفس المحدثين في هذا الدور من القرن ” الماضى ” في تصيد الهينات . فتمزقت بينهم إرباً سيكولوجيا القرن التاسع عشر القديمة المسكينة ” تمزقاً ” لطيفاً . ونشأت مدارس تعارضت مع بعضها البعض تماماً كما تعارضت مع علم النفس القديم . ونجم عن ذلك فترة نشيطة جداً ذات نظام لم يقرر بعد .

وأنتم جميعاً على صلة ببعض المدارس التى ظهرت : فالسلوكية Behaviorism مثلاً يعرفها كل شخص على أنها حركة رئيسية في علم النفس . ولو أننى سألت كل واحد منكم أن يذكر بالضبط ما معنى السلوكية ، وعلى أى نحو كانت ثورتها على النظام القائم لسنة ١٩٠٠ ؛ فربما حصلت على إجابات مختلفة . والواقع أنها مهمة مغرية أكثر منها سهلة أن نكشف عن الطبيعة الحقة للسلوكية . ولعلكم جميعاً تقولون في حق إن السلوكيين يحملون بقوة على علم النفس كعلم لدراسة الشعور ، وعلى الاستبطان كمنهج يستخدم في دراسة الإنسان .

ولكن كان هناك علماء نفس آخرون ، وخصوصاً أصحاب الطب العقلى psychiatrists مختلفين تماماً عن السلوكيين في أساس تفكيرهم وطريقتهم ؛ قد أفرّوهم إلى هذا الحد في أنهم لم ينظروا قط إلى دراسة الشعور على أنها تكون غرض علم النفس الأول والأخير ، فإن الذين كانوا يعرضون للعقلية الشاذة وللأفراد المنحرفين كانوا يميلون حتى قبل سنة ١٩٠٠ — وكان ميلهم منذ ذلك الحين أكبر بكثير — إلى

الإصرار على أن أكبر ميدان لعلم النفس إنما هو اللاشعور . وهنا نلمح أصل هذه المدرسة الأخرى الجديدة التي يعرفها كل إنسان ؛ وأعني بها مدرسة التحليل النفسى psychoanalysis . وربما كان كل امرئ متأثراً شيئاً بالتحليل النفسى ، فيقول إنه يخصّ نفسه بمركبات اللاشعور وسيكولوجيا الجنس . وفيما وراء ذلك ربما لا تلتقى أفكارنا المختلفة جميعاً .

وبينا أصبحت أسماء « السلوكية » و « التحليل النفسى » حظاً عاماً « مشتركاً » ، وبينما تعلن كلتا المدرستين أنها هي « السيكولوجيا الجديدة » للعصر الحديث ؛ إذا بمدارس أخرى أقل حظاً من الشهرة نظرت إليها من ناحية الأخوة في علم النفس على أنها شبيهة الأهمية ، وإحداها هي مدرسة القصد purposivist school التي ليست منافية تماماً للتحليل النفسى ، وإن هي نشأت عن محاولة خلق سيكولوجيا اجتماعية ذات بال أولى منها عن محاولة علاج الأفراد المنحرفين . وأنت ترى من اسم هذه المدرسة أنها تؤكد الأهمية الرئيسية للقصد والمحاولة والبحث عن الهدف . وقد ثارت على الانتحاء بالعقل ناحية واحدة في القرن التاسع عشر . وأثارت — وما تزال تحتفظ بحيويتها — مسألة ما إذا كان الاستبطان أو غيره من مناهج السلوكيين وأفكارهم البسيطة يؤدي يوماً إلى تفهم السلوك الإنساني .

وقد رفضت المدارس الثلاث التي ذكرنا فكرة علم النفس على أنه جوهرياً علم دراسة الشعور ، على خلاف بينها في طريقة رفض هذه الفكرة: أما التحليل فقد مجد اللاشعور ، وأما مدرسة القصد فقالوا بأن الشعور جزء فحسب من ميدان علم النفس ، وحاول السلوكيون أن يُبعدوا الشعور برّمته عن علم النفس . وليس ينبغي أن نفترض أن علماء النفس القائلين بالشعور قد نالوا كل ما هنالك من عقوبة ، لقد لا قوا كثيراً من النزاع معهم ، وكرد فعل لذلك راحوا يعيدون تنظيم منهجهم الاستبطاني ويوضحون إدراكهم لما كانوا بسبيله من الأمر ، وكان من نتيجة ذلك أن تظهر فيما بين الاستبطانيين مدرسة جديدة — جديدة في جزء منها على الأقل — تأخذ اسم الوجودية existentialism ، وإلى جانب تشبها بالاستبطان الخالص الدقيق تصرّت هذه المدرسة على أنه لا علم النفس القديم ولا المدارس الجديدة فيه بكافٍ من الناحية الوجودية أو الحقيقية لأن يتأدى بعلم النفس إلى هدف علم أسمى كالطبيعيات والكيمياء . إنما يعنى التحليل النفسى وأصحاب القصد والسلوكية بجعل علم النفس عملياً بهذه الطريقة أو الأخرى . إنهم يريدون أن يجعلوه أكثر إنسانية . وليس شك في أنه

يجب أن نفترض أن علم النفس ينبغي أن يكون إنسانياً . ولكن ، هل ذلك هو خط التقدم العلمى ؟ كيف وصلت الطبيعيات والكيمياء إلى مستواها ذلك الرفيع من النهوض ، وكيف اكتسبت فنون الهندسة العملية القائمة على هذه العلوم سيطرتها هذه العجيبة على قوى الطبيعة ؟ ليس بالتصاقها إلى الحاجات الإنسانية ؛ ولكن بتتبع الظواهر التي بدت أول الأمر ولا فائدة للإنسان فيها . فإذا فتحت كتاباً ما في الفيزيكا فلسّت تتوقع أن تجد فصلا عن عجلة اليد ، وآخر عن مضخات الماء ، ولا حتى عن الراديو ؛ مع أن هذه الأشياء الإنسانية النافعة يمكن الاستشهاد بها على مبادئ أساسية . فلو أمكن أن يغفل علم النفس مضخاته وعجلاته ويصرف همه كله إلى مواد حقيقته الأولى به ؛ إذن لاستطاع على التو أن يفر مما هو واضح ، ويكشف مبادئ جوهرية تشبه في إدهاشها وثوريتها الكهرباء أو أشعة إكس ، ذلك هو الأمل الذي تصبو إليه الوجودية .

لقد ذكرتُ أربعمائة من المدارس المعاصرة ستعرض لنا في دراسة أوسع . والواحدة . الباقية قد أصبحت حديثاً موضع النظر العام بعض الشيء ، وإن كان اسمها ربما اختلط أكثر من أن يتضح ، وهذه هي مدرسة الجشطالت في علم النفس school of Gestalt Psychology ذات أصل ألماني ، وتسمى أحيانا بمذهب الصيغة Configurationism إذا احتجنا إلى تسمية انجليزية أحسن . وأخشى ألا أستطيع أن أعطيك فكرة أولى واضحة عن هذه المدرسة ، وإن كانت مدرسة ذات أهمية لا تنكر وربما كان بيدها مفتاح المستقبل . وأستطيع أن أقول عنها الآن إن ثورتها كانت موجهة إلى مثالية الكيمياء العقلية في القرن التاسع عشر . ويظهرنا علماء النفس الجشطالتيون على أن مثل هذه المثالية لا تعدو أن تكون سرايا will-o-the-wisp فهم يعتقدون أن تحليل خبراتنا أو أفعالنا لن يذهب بنا قط بعيداً . إنما يجب أن نأخذ الفعل أو الخبرة ككل ؛ وندرسه في موضعه بدلا من أن نحاول تحليله . أما الاستبطانيون فكالسلوكيين ما يزالون — في نظر الجشطالتيين — يهيمنون على وجوههم في ارتباطية القرون الماضية العتيقة .

ومع كل هذه الحركات المتشعبة المستمرة ، كان من المنتظر ألا يظهر علم النفس المعاصر أى توافق كان ، ولكن ما هو عجيب حقاً أن علماء النفس اليوم ما يزالون يحظون بالاجتماع ومناقشة مسائل علم النفس ، وما يزالون يعامل أحدهم الآخر باحترام . فالعلم لم يتجزأ ، وإنما أصبح — إن صح وجوده — أكثر توحداً . وسوف نود أن نوجه

الانتباه إلى هذه الوحدة من خلال هذه الكثرة المختلفة من المدارس . فالاحترام المتبادل فيما بين علماء النفس يعكس هذا النشاط الواضح الذي يُظهره أعضاء المدارس كلها في التقدم المطرد لهذا العلم . فبعض هذه المدارس يُعنى بجعل علم النفس علمياً وبعضها الآخر يجعله إنسانياً ووافياً أكثر مما هو . ولعلنا نحب أن نراه علمياً ووافياً معاً . فعلماء النفس مجتمعون على الأمل في إمكان بلوغ هذه النتائج .

وسبب آخر لوحدة علم النفس المستمرة يوجد في هذه الحقيقة ، وهي أن الأقلية فحسب من علماء النفس هم الذين أصبحوا يتعصبون بقوة لإحدى هذه المدارس . ربما جنح البعض إلى مدرسة ، وجنح الآخرون إلى أخرى . ولكن على العموم يتقدم علماء النفس في العالم في سبيلهم وسط الطريق .

وبعد — فقد كان في سيكولوجيا سنة ١٩٠٠ كثير لم تقم له ثورة ، وكثير من نتائج الأبحاث السابقة لا تزال موضع تقدير ، أضافت إليها الأبحاث الجديدة خلال الثلاثين سنة الماضية نتائج أخرى جديدة لا علاقة لها بأية مدرسة من المدارس . لقد كان علماء النفس سنة ١٩٠٠ بسبيلهم — وسبيلهم هي سبيلنا — غير أننا نبدو أكثر بعداً في التقدم فحسب ، ومع ذلك أنا لا أقول إن هذه المدارس هي مجرد تزيين لعلم النفس المعاصر ، ولا إنها قد قامت لمجرد تسليتنا خلال هذه السنوات الشاقة ؛ فإنها تعين على توسيع وجهة نظرنا وتوضيحها ، وكل منها تظهر عناصر حيوية من المحتمل أن تظل فيها . ووجود كثرة مختلفة منها شيء حسن . ولعل واحدة منها ليس لها نظرة كاملة لما قُدِّر لعلم النفس أن ينتهي إليه . فواحدة تعرض لنا أملاً مغريباً ، وأخرى تعرض لنا آخر ، وفي غير تطلع إلى هذه السنة اللطيفة التي تؤلف يديها جميعاً في مفهوم كامل لعلم النفس : ماذا ينبغي أن يكون ، وماذا يجب أن يفعل ؛ فلعلنا نأمل في أن نُمسك بما تهبأ كل منها إلى وضعه في عقولنا من عرض موضوعي . وفي هذا الأمل ، سنجعل لكل منها فرصة تقص فيها قصتها ، قبل أن نلقى آخر الأمر لمحة وجيزة على هذا الهيكل الضخم لعلماء النفس الذين يسرون قدماً في وسط الطريق .

تعليقات

على الفصل الأول

والتي حلها بما نسميه نظرية التفاعل interaction ؛ بمعنى أن يؤثر الفكر في الجسم ، والجسم في الفكر ، مع بقاء الروح أداة تدبير ، بغيرها يكون الجسم آلياً .

وقد شارك ديكارت في سيكولوجيا الانفعالات في كتابه : انفعالات النفس Passions de l'âme (١٦٥٠). وله أقوال رئيسية في إدراك المكان البصرى لا تزال معتمدة إلى اليوم ، كما لا تزال آراؤه في ثنائية الجسم والنفس ، وفي تفاعلها ، وفي أن المخ موضع الفكر ، وفي تحديد موضع كل جزء من أجزائه ، وموضعه هو من الجسم كله ... الخ ؛ لا تزال تؤثر في علم النفس حتى اليوم .

راجع في ديكارت كعالم نفسى : تاريخ علم النفس التجريبي لبورنج E. Boring ص ص ١٥٨-١٦٤ وتاريخ علم النفس لبرت Brett ج ٢ ص ص ١٩٦-٢١٧ وتاريخ دسوار Dessoir وكلم Klemm . وفي مناقشة سيكولوجيا ديكارت ، راجع خصوصاً راند Rand علماء النفس الكلاسيك Classical Psychologists ص ص ١٦٨-١٩٠ . (٢) هوبز : أما توماس هوبز

(١) ديكارت : يعد ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) البداية الحقيقية لعلم النفس الحديث ، حين نقسم تاريخ علم النفس بالمعنى الأوسع إلى قديم ومتوسط وحديث . وإذا كان ديكارت قد تعلق لأول عهده بالفلسفة والرياضيات ثم بالعلوم حين كتب في البصريات والآثار العلوية ؛ فإنه قد كتب وجرب في الفيزيولوجيا - حيث كانت معلوماته في الفيزيولوجيا أوسع ما في زمانه . وإلى جانب قوله بأنه ليس للحيوانات أرواح ؛ قد شارك هو في نظرية الإحساس ، وفي نظرية الإدراك المكاني البصرى . فهو بمعنى ، عالم نفس فزيولوجى ، كان دافعه الأقوى تطبيق الفيزيقا على الفيزيولوجيا ؛ فالجسم الإنسانى عنده آلة ، ولكنه آلة تسيطر عليها النفس وتديرها الروح . وفيزيولوجيا ديكارت إذن ميكانيكية في جملتها ، لا تختلف عن فزيولوجيا اليوم ؛ إلا في أن علماءنا اليوم يأخذون منه الجسم ويرفضون النفس ؛ حيث تقوم سيكولوجيا ديكارت على ثنائية الروح والجسد ، تلك الثنائية التي ما تزال تؤثر في التفكير السيكولوجى حتى اليوم

دافيد هيوم D. Hume : مقال في الطبيعة الإنسانية A Treatise on Human Nature (١٧٣٩ - ١٧٤٠) ودافيد هارتلي D. Hartley في كتابه ملاحظات عن الإنسان : شكله ، واجبه ، وأمانيه : Observations on Man: his frame, duty and expectations. - وخصوصاً المقدمة - فإنه يعد مؤسس علم النفس الارتباطي . ومن الارتباطيين الانجليز أيضاً راجع أبراهام تـتكر A. Tucker (١٧٠٥ - ١٧٧٤) في كتابه Light of Nature pursued (١٧٦٨) ، وپريستلي J. Priestley في مقالاته التي أضافها لنشرته! « ملاحظات » هارتلي المذكورة خاصة بملاحظاته هو (١٧٧٥) وپريستلي - تلميذ هارتلي - هو الكيميائي الذي اكتشف الأوكسيجين . وأرشيبالد أليسون A. Alison (١٧٥٧ - ١٨٣٩) مقالات عن طبيعة الذوق ومبادئه Essays on the Nature and Principles of Taste (١٧٩٠) وإرازموس دارون E. Darwin (١٧٣١ - ١٨٠٢) في كتابه : Zoonomia (١٧٩٤) ، وراجع عموماً وارن Warren في مرجعه المذكور .

ومن الارتباطيين الاسكتلنديين راجع توماس ريد Thomas Reid (١٧١٠ - ١٧٩٦) في كتابه : بحث في العقل الإنساني على مبادئ

Th. Hobbes (١٦٧٩ - ١٥٨٨) فهو فيلسوف سياسي معاصر لديكارت ، وأول ممثل للمدرسة الإنجليزية في علم النفس التي حاولت أن ترجع مضمون الفكر إلى الخبرة الحسية - sense experience في مقابل الأفكار الباطنة innate ideas التي قال بها ديكارت والمدرسة العقلية ، كما شارك هوبز في تحديد النظرية الارتباطية بحسبانها قائمة على اتساق coherence الأفكار الماضية - تحديداً ناقصاً لا يخلو من غموض . وهو معروف خصوصاً بفلسفته السياسية ، وإنما يأتي ذكره في علم النفس لمجرد كونه تاريخياً أول ممثل للمدرسة الإنجليزية التي سيرأسها بعده لوك J. Locke بعيداً عن التأثر به . وأهم أعمال هوبز السيكولوجية هي كتابه : الطبيعة الإنسانية De Homine أو Human Nature (١٦٥٠) ، وكتابه : « التنين Leviathan أو مادة الثروة العامة وصورتها وقوتها ، كنسية ومدنية (١٦٥١) . راجع في تاريخ حياته قاموس بولدوين J.M. Baldwin ص ٤٧٢ ، وفي سيكولوجياه راند : علماء النفس الكلاسيك ، ص ص ١٤٧ - ١٦٧ ، وتاريخ علم النفس لبرت ، ج ٢ ص ص ٢١٩ - ٢٢٢ ، ووارن : تاريخ علم النفس الارتباطي ص ص ٣٣ - ٣٦ .

(٣) الارتباطية : Associationism راجع في النظرية الارتباطية

: (١٧٥٤ - ١٨٣٦) de Tracy
عناصر علم التفكير
d'idéologie (١٨٠١ - ١٨١٥) وكبانييس
: (١٧٥٧ - ١٨٠٨) Cabanis
العلاقة بين الجسم والنفس لدى الإنسان
Rapports du Physique et du Mor-
al de l'Homme (١٠٨٢) . ومين
دو بيران (١٧٦٦ -
١٨٢٤) : مقال في أساس علم النفس
Essai sur les Fondements de Psy-
chologie (١٨١٢) .

راجع أيضاً وارن ، وبرت ودسوار .

(٤) فلهلم فونت Wilhelm Wundt

يمكن أن يعد فونت أكبر عالم في
تاريخ علم النفس ؛ إذ فيما قبله كان
يوجد علم نفس ، ولكن لم يوجد علماء
نفس بالمعنى الصحيح . ولد فونت
في بادن ١٨٣٢ ، وعاش منذ حداثة
حياة أقرب ما تكون إلى العلم وأبعد
ما تكون عن اللهو ، وتتلמד على
فريدريش ميلر F. Müller فكان له
أكبر الأثر في توجيهه وفي سنة ١٨٥١
لحق بجامعة تيبينجن Tübingen ، ثم لحق
بعده بجامعة هيدلبرج حيث ظل ثلاثة
أعوام ونصف العام . وفي هذه الأثناء
وقف نفسه على دراسة الفيزيولوجيا ،
ومات أبوه حينئذ ، فاضطر إلى أن
يتحول لدراسة الطب ليكسب حياته
بنفسه .

واهتم فونت - أول ما اهتم وهو في
هيدلبرج - بالتشريح والفزيولوجيا

الذوق العام Inquiry into Human
Mind on Principles of Common
Sense (١٧٦٤) ودوجالد استيوارت
: (١٧٥٣ - ١٨٢٨) Dugald Stuart
عناصر فلسفة العقل الإنساني
Elements of the Philosophy of
Human Mind (١٧٩٢ وما بعدها)
وتوماس براون Th. Brown (١٧٧٨ -
١٨٢٠) : محاضرات في فلسفة
العقل الإنساني Lectures on the
Philos. of Human Mind (١٨٢٠) .
راجع أيضاً كتابات السير وليم هاملتون
وبرت ورائد ووارن وغيرهم .

ومن الفرنسيين راجع مالبرانش :

بحث عن الحقيقة Recherche de
la vérité (١٦٧٤) ، ودي كوندياك
E. B. de Condillac (١٧١٥ -
١٧٨٠) : مقال في الإحساسات
Traité des Sensations (١٧٥٤)
وراجعه في راند : علماء النفس
الكلاسيك : (ص ص ٣٤١ -
٣٦٠) ، ودو لا متری J. O. de
La Mettrie (١٧٠٩ - ١٧٥١)
في كتابه الشهير : الإنسان الآلة
L'homme machine (١٧٤٨) ويونيه
C. Bonnet مقال تحليلي في ملكات
النفس Essai analytique sur les
Facultés de l'âme (١٧٦٠) .
وهائسيوس Helvétius (١٧١٥ -
١٧٧١) : في النفس De L'esprit
، ودي تراسي Destutt (١٧٥٨)

وإنما شغل المنصب كيني Kühne ، وظل ثونت حتى ١٨٧٤ حينما شغل كرسى الفلسفة الاستقرائية فى جامعة زيورخ . وقد جمع محاضراته التى ألقاها فى هيدلبرج فى كتابين ، وهما : متن فى فيزيولوجيا الإنسان Lehrbuch der Physiologie des Menschen والثانى مختصر فى الفيزيقا الطبية Handbuch der medicinischen Physik ١٨٧٣ ، ١٨٧٦ .

وقد شعر ثونت منذ البدء بالحاجة الملحة لتبيين أن علم النفس علم بمعنى الكلمة ، وبممكن اعتباره كتابه الأقوال Beiträge بداية لعلم النفس التجريبي ، فهو يشمل كثيراً منه ، كما أنه يضع الأساس الصورى لهذا العلم ، فهو بحق أول كتاب لفونت فى أخذه بعلم النفس التجريبي - كما أعلن هو نفسه ذلك - به مواد جديدة فى هذا الباب ، ويكشف أكثر من هذا عن بدء تحول فونت من الفزيولوجيا إلى علم النفس التجريبي ، وفى مجال الإدراك . وفيه ناقش المؤلف أن كل سيكولوجيا يجب أن تبدأ بالاستبطان-Selbstbeobachtung وأن هناك وسيلتين مديتين : التجربة Experiment والتاريخ الطبيعى للنوع الإنسانى Geschichte . ولم تكن مادة هذا الكتاب واضحة أو محددة فى القسم الأول منه الذى أصدره ثونت سنة ١٨٥٨ ؛ فلما أعاده سنة ١٨٦٢ ، استفاد فى مقدمته

وعولم الطبيعة والكيمياء والطب التجريبي ، وكان من نتيجة ذلك اكتشافه أن البول يحتوى على كلوريد الصوديوم (١٨٥٣) . ثم وجه اهتمامه بعد ذلك إلى دراسات يوهانس ميلر فى الفزيولوجيا ، وأصبح بعد ذلك مساعداً بإحدى العيادات الطبية فى جامعة هيدلبرج ، وبذلك اكتسب كثيراً من الخبرة والمران فى فن الطب ولكنه اكتشف مع ذلك كله أنه بعيد كل البعد عن أن يجعل من الطب مهنته . وفى عام ١٨٥٦ لحق بمعهد يوهانس ميلر الفزيولوجى - وذلك قبل أن يموت ميلر بعامين - حيث درس عليه علم الفزيولوجيا ، وفى هذا العام حصل على الدكتوراه فى الطب من هيدلبرج ، وعين محاضراً فى الفزيولوجيا ، فشغل ذلك المنصب من ١٨٥٧ إلى ١٨٦٤ .

وفى سنة ١٨٥٨ ظهر كتابه الأول : نظرية فى الحركات العضلية : Lehre von der Muskelbewegungen . ومنذ ذلك الحين أخذ ينمو اتجاهه لعلم النفس ، وفى سنة ١٨٥٨ نشر القسم الأول من كتابه : أقوال فى نظرية الإدراك الحسى Beiträge zur Theorie der Sinneswahrnehmung وفى السنوات السبع عشرة التى أمضاها فى هيدلبرج (١٨٥٧-١٨٧٤) تحول ثونت من الفزيولوجيا إلى السيكولوجيا تماماً ، وفى ١٨٧١ - حينما نزع هلمهولتس إلى برلين - كان خلفه الطبيعى هو ثونت ، ولكنه لم يعين ،

بالنظريات والمنطق ، وحيث رعت هذه المناصب في ألمانيا معاملة علم النفس الناشئة ، فلم تخلص سنوات أربع حتى أسس فوننت أول معمل تجريبي بالمعنى الصحيح ، وجعل يتوسع به ويدرس وتلاميذه من الألمان ثم الأمريكان والأوربيين فيه ، وأنشأ له مجلة لنشر أبحاثه ، واستمر هو ينشر الكتب العلمية الضخمة - خصوصاً بعد أن قام له كتل بدور الكاتب على الآلة منذ ١٨٨٣ ، كما يقولون - فظهر حينئذ كتابه في المنطق Logik (١٨٨٠-١٨٨٣) الذي أعيد طبعه أربع مرات حتى (١٩١٩) - Ethik (١٩٢١) وكتابه الأخلاق (١٨٨٦) وطبعته الرابعة المنقحة (١٩١٢) وكتابه مذهب في الفلسفة System der Philos. (١٨٨٩) الطبعة الرابعة له (١٩١٩) وأصول علم النفس Grundriss der Psychologie (١٨٩٦) أعيد طبعه تسع مرات حتى (١٩١١)، وترجمه إلى الإنجليزية جِصَّ C.H. Judd (١٨٩٦) وكتابه : علم النفس الجمعي Völkerpsychologie ظهر مجلده الأول سنة (١٩٠٠) والثاني (١٩٠٥) ثم أعيد نشرهما في أربع مجلدات (١٩٠٨) ، زيدت إلى عشر مجلدات منذ (١٩١٤) وكتابه المدخل إلى الفلسفة. Einleitung in die Philos. (١٩٠١) ، ثم كتابه المرشد في علم النفس Einführung in die Psychol. (٥)

بمحاضراته عن كتاب العناصر Elemente لفخسر ، وبكتاب : السيكولوجيا كعلم Psychol. als Wissenschaft الذي نشره هربارت سنة ١٨٥٨ .

ومنذ ذلك الحين اشتغل فوننت في هيدلبرج مع الفلكيين بالمعادلة الشخصية ، فتحدث إلى هيئة علماء الطبيعة Naturforscherversammlung في اشباير Speyer عن التفسير النفسي الفيزيولوجي للمعادلة الشخصية سنة ١٨٦١ ، ثم حاضر فيها في السنة التالية ١٨٦٢ ، ونشرها بعد سنة أخرى في كتابه Vorlesungen über die Menschen-und Thierseele وظل ذلك عنوان محاضراته حتى استبدل به منذ ١٨٦٧ اسم علم النفس الفيزيولوجي ، وانتهى بإخراج كتابه Grundzüge der physiologische Psychologie الذي ظهر جزؤه الأول في هيدلبرج (١٨٧٣) وجزؤه الثاني (١٨٧٤) . ويعدُّ هذا الكتاب خلاصة نشاط فوننت في هيدلبرج وتمام تحوله من الفيزيولوجيا إلى علم النفس ، أعنى علم النفس في استقلاله وعهده الجديد .

وبعد هيدلبرج لم يلبث فوننت في زيورخ لإقامة واحدة (١٨٧٤-١٨٧٥) حتى استجاب لدعوة كرسي الفلسفة في لپتسك ، حيث كان على صاحب هذا المنصب أن يُعنى

مؤرخ الفلسفة الألماني الكبير فقد تحدث عنه في كتابه : الفلاسفة المحدثون Moderne Philosophen (١٩٠٥) ص ٣ - ٣٧ من الترجمة الإنجليزية (١٩١٥). وفي مجلة علم النفس الأمريكية مجلد ٣٢ (١٩٢١) تحدث تتشتر مرة عن معارضة فونت للمذهب برنتانو (ص ١٠٨ - ١٢٠) ومرة أخرى عن حياة فونت بوصفها تحقيقاً للخطة التي رسمها في كتابه Beitrage (ص ص ١٦١ - ١٧٨) .

ولن يسعنا هنا أن نتوسع في فونت أكثر من هذا ؛ وحسبنا أن يرجع القارئ إلى أهم كتب فونت التي ذكرنا - وإلى هذه الشروح تكملة لها - وإذا تبينا أن المؤرخين قد أحصوا أهم ما كتب عن فونت من كتب - باستثناء جميع المقالات ؛ وهي كثيرة جداً ؛ وبالالاقتصار على أحدث طبعات هذه الكتب - فوقفوا على ثلاثة عشر ألف صفحة ؛ إذا تبينا هذا سهل علينا أن نكتفي في فونت بهذه اللمحة العابرة ، وحسبنا أن نذكر - كما بدأنا - أنه الأب التاريخي لعلم النفس التجريبي (٥) دارون وجالتون : كان

طبيعياً وقد هزت العالم نظرية أصل الأنواع Origine of Species لتشارلز دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) حتى عدت أكبر فتح علمي في القرن الماضي بأسره ؛ أن تؤثر في فكرة علم النفس

(١٩١١) ترجمه إلى الإنجليزية بنتر Pintner (١٩١٢) .

وآثار فونت الكاملة قد جمعها ابنته إيلونور Eleonore Wundt بعنوان Wilhelm Wundts Werk (١٩٢٧) تحت رقم ٢٨ في نشرات : معهد أبحاث علم النفس Forschungsinstitut für Psychol. أو حاضر أبوها ، منذ ١٨٥٧ حتى آخر محاضرة له في ١٩١٧ ، وفيها نجد ٤٩١ عنواناً ، من أقل كتاباته (صفحة واحدة) حتى أكبرها (٢٣٥٣ صفحة : علم النفس الفيزيولوجي) ويقدر المؤرخون ما كتبه فونت في ٦٨ سنة (من ١٨٥٣ حتى ١٩٢٠) بحوالى ٥٣٧٣٥ صفحة فتوسط حجم النشرة الواحدة إذن ١١٠ صفحة ، وبمعدل حوالى سبع نشرات في العام أو أكثر ؛ أى أنه كان يكتب أو يراجع طول حياته العلمية (٢٤٨٣٦ يوماً في ٦٨ سنة) أكثر من صفحتين يومياً .

ولعله لم يكتب في أحد من الفلاسفة أو علماء النفس مقدار ما كتب في فونت الفلسفي والسيكولوجي ، ومن أهم ما كتب فيه : فونت : فلسفته وسيكولوجياه Wundt: seine Philos. und Psychol. لكينج E. König (١٩٠١) وكتاب فلسفة فلهم فونت وسيكولوجياه لأيزلر R. Eisler (١٩٠٢) أما هيرالد هيفدنج H. Höfding

النفس ، بينما هو قد توزعت أوجهات أخرى خصص علم النفس منها خمسة عشر عاماً فقط ؛ فضلاً عن الفرق الشاسع بين إنتاج كل . ومن هنا لم يترك جالتون أثراً كبيراً في أتباعه له ، وأغفل علم النفس التجريبي عمله — كما يقول بيرسن — فيما عدا نظريته في التلازم

Theory of Correlation

وأهم كتبه : العبقريّة الوراثية Hereditary Genius الذي ظهر سنة ١٨٦٩ وهو في السابعة والأربعين وبعد ذلك بأربعة عشر عاماً (أى سنة ١٨٨٣) ظهر كتابه الشهير : بحوث في ملكة الإنسان وتقدمها Inquiries into Human Faculty and its Development الذي عدّ فتحاً لعلم النفس الفردي العالمي ولاختبارات الذكاء .

ويشتهر جالتون — فوق بحثه في الوراثة العقلية التي ألهمه إياها دارون — بالمنهج الإحصائي statistical method الذي استفاده من العالم البلجيكي أدولف كيتليت A. Quetelet (١٧٩٦-١٨٧٤) — فقد أخذ عنه جالتون استخدام قانون للخطأ الطبيعي Normal law of error وطبقه على قياس الكفاية العقلية إيماناً منه بأن القياس الكمي هو من شأن العلم الكامل فأنشأ مقياساً للنبوغ ، من درجات تبدأ من « ا » إلى « ز » ثم إلى « س » التي تمثل كل الدرجات بعد « ز » فأصبح هذا

وموضوعه ، بما استحدثت من فروق بين أفراد النوع الواحد ، أرجعها دارون إلى الجانب الوراثي ، وباختيار ما هو أصلح منها يمكن أن يحدث تغيراً ارتقائياً خلال أجيال عديدة ، أى الانتخاب الطبيعي ببقاء ما هو أصلح ملائمةً للبيئة ومطالب الحياة ، وهذا الانتخاب — مع تغير ظروف البيئة المحيطة — يتيح دائماً فرصة ظهور أنواع جديدة . وقد خالفه في بعض أجزاء هذه النظرية العلامة لامارك ، وهربرت اسپنسر . تناول أثر مذهب التطور في علم النفس ، وأشار إلى مراجع أخرى لإدوين بورنج E. Boring في كتابه : تاريخ علم النفس التجريبي ؛ في حديثه عن دارون وجالتون ورومانس Romanes وخصوصاً عن اسپنسر ص ص ٢٣١ — ٢٣٤ .

أما السير فرنسيس جالتون (١٨٢٢ — ١٩١١) فهو صاحب علم نفس جديد في بريطانيا ، علم نفس تجريبي عني خصوصاً بمشكلة فروق النوع الإنساني في الفرد ؛ حتى ليجعل منه كارل بيرسن K. Pearson فونت بريطانيا British Wundt ؛ وأنه — لولا أن اختار علماء النفس الناشئون لسوء الحظ زعامة ألمانية — لوجب أن يكون جالتون أباً لعلم النفس البريطاني . والحق أنه لا وجه لمقارنته بفونت ، الذي ظل ستين عاماً لا يشتغل إلا بعلم

معزل عن تأمل العلل والتفكير العقلي . وبعد هذه الرحلة عاد إلى كمبردج فألمانيا - سنة في هذه سنة ونصف في تلك - لإتمام دراسته الطبية ، ولكن ضعف صحته كان يعترضه دائماً .

فلما عاد إلى أمريكا حصل على درجته سنة ١٨٦٩ ، وعين في هارفرد محاضراً سنة ١٨٧٢ ، فاستطاع بعض الشيء أن يفصل بين الفلسفة وتدريس الفيزيولوجيا ، واتجه إلى علم النفس الفزيولوجي لقربه من الفلسفة - فيما حسب - فساعد نجاحه في العمل على تقدم صحته ، وعين سنة ١٨٧٦ أستاذاً مساعداً في الفزيولوجيا . وفي سنة ١٨٧٨ اتفق مع الناشر على نشر كتابه : مبادئ علم النفس Principles of Psychology ، وعرف منذ ذلك الحين بنزعه الفلسفية ، فعين أستاذاً مساعداً للفلسفة ثم أستاذاً لها (١٨٨٥) . ثم عدل لقبه بعد ذلك إلى أستاذ علم النفس سنة ١٨٨٩ حينما ظهر فيما بعد « مبادئ علم النفس » وتحوله إلى علم النفس تماماً ؛ حتى إنه ختم كتابه بهذا بقوله أن ليس ثمة ما يمكن أن يسمى علم النفس ، وأن علم النفس ما يزال في مرحلة قبل-علمية . كان يؤمن بالمعمل ، ولكنه لا يستطيع أن يخضع نفسه « لروتينه » - كما يقول هو - فأدى به ذلك إلى تحول لقبه مرة أخرى إلى أستاذ الفلسفة (١٨٩٧) وأسند معمل

المنهج من بين الطرق الرئيسية في قياس الذكاء - قبل منهج اسپيرمن - وطبقه جالتون في دراسته لعلماء انجلترا English Men of Science (١٨٧٤) وفي الوراثة الطبيعية Natural Heredity (١٨٨٩) وعلى نظريته في التلازم التي وضع بيرسن صيغتها الرياضية . ويعتد بيرسن أهم مرجع لأستاذه جالتون في كتابه : حياة فرانسس جالتون وكتابات وأعماله Life, Letters and Labours of Francis Galton (مجلده الأول ١٩١٤ والثاني ١٩٢٤) .

راجع تاريخ بورنج (٤٦٧-٤٨٤) مراجع وحواشي (ص ص ٤٨٨-٤٩٢) (٦) وليم جيمس William James (١٨٤٢-١٩١٠) شخصية بارزة في تاريخ علم النفس التجريبي - وإن لم يكن هو تجريبياً ، ولكن لأنه كان رائد علم النفس الحديث في أمريكا ، فكان يشرح وينقد علم النفس الجديد في ألمانيا . لحق في سن التاسعة عشرة بمدرسة لاورنس العلمية في جامعة هارفرد ، فدرس بها الكيمياء على يد شارلز إليوت Ch. W. Eliot ، وبعد سنتين دخل مدرسة الطب في هارفرد ورحل في سن الثالثة والعشرين مع لويس أجاسيز في رحلة لدراسة الطبيعة في الأمازون ، وشارك بقليل في هذه الرحلة ، ولكنه اكتشف في البرازيل أنه فيلسوف ، لأنه لم يستطع - كصاحبه - أن يقوم بالمشاهدات في

والمنطق ، فقال بالمعرفة cognition إلى جانب قوله بالوظيفة function (المبادئ ج ١ ص ص ٢٢٤-٢٩٠ ، ١٤٠ وما بعدها).

ولحيمس من الناحية الفيزيولوجية نظريته الهامة في الانفعال . التي صاغها لأول مرة سنة ١٨٨٤ (Mind : ٩ ص ص ١٨٨ - ٢٠٥) . وفي السنة التالية قال لانجى C. Lange الدانمركي يمثلها في بحثه Om Sindsbevoegelser (١٨٨٥ وترجمته الألمانية : Ueber Gemütsbewegungen ١٨٨٧) ؛ فأعاد حيمس نشر مقال ١٨٨٤ والفصل من « المبادئ » (١٨٩٠) الذي عرض فيه هذه النظرية (ج ٢ ص ص ٤٤٢ - ٤٨٥) مع أول ترجمة إنجليزية لبحث لانجى باسم لانجى وحيمس : الانفعالات The Emotions (في Psycho' Classics : الكتاب الأول ١٩٢٢) .

راجع في حياة حيمس وكتبه : كتاب هنرى حيمس The Letters of W. James وكتاب إميل بوترو E. Boutroux وليم حيمس ١٩١١ (ترجمته الإنجليزية ١٩١٢) وفي مناقشة نظرية حيمس - لانجى : تتشنر Titchener مجلة علم النفس الأمريكية مجلد ٢٥ ، ١٩١٤ ص ص ٤٢٧-٤٤٧ ، وكتب حيمس : المبادئ (١٨٩٠) والختصر (١٨٩٢) والأحاديث (١٨٩٩) .

هارفرد إلى مينشتربرج M. Münsterberg . ومنذ ذلك الحين قوى اتجاهه الفلسفي بعيداً عن علم النفس - وإن هو لم يقلع عنه - فقد أعاد نشر « مبادئه » مختصرة (١٨٩٢) كما نشر : أحاديث للمعلمين Talks to Teachers (١٨٩٢) ثم : أنواع من التجربة الدينية Varieties of Religious Experience (١٩٠١ - ١٩٠٢) . واستقال من عمله في هارفرد سنة ١٩٠٧ ، فبدأت تظهر أروع كتبه في الفلسفة . فظهر « البراجماتزم » في هذه السنة . وظهر كتاباه : عالم متكثّر A pluralistic Universe ومعنى الحق Meaning of Truth سنة ١٩٠٩ . ثم اشتد التعارض بين قوة عقله واعتلال بدنه ، فمات في السنة التالية عن ٦٨ عاماً وتقاليد وشخصية وآثار عظيمة ، وعن قوة في التفكير وثروة من الإنتاج لا تتركها مدرسة كاملة .

وفضلاً عن شخصية حيمس التي وصفنا ومعارضته لعنصرية علم النفس الألماني elementarism خصوصاً في مسألة تداعى التفكير وفي التثبث بالتحليل كنهج علمى ضرورى ؛ فقد أسهم بكثير في نظرية الشعور ؛ قائلاً إن الشعور مستمر كالمجرى goes on as a stream وأنه شخصى personal ومتغير changing وأنه أخيراً 'تخيّر' selective . ولم يفصل حيمس - بتأثير الفلسفة - بين قوانين العقل

الفصل الثانى

سيكولوجيا الاستبطان والمدرسة الوجودية

الاستبطان introspection كمنهج للملاحظة فى علم النفس ليس ملكاً لمدرسة بعينها، كما أن المنهج الخارجى ليس ملكاً لأية مدرسة كذلك . ويظهر ذلك من هذه الحقيقة ؛ وهى أن كثيراً من علماء النفس قد استخدموا كلا المنهجين ؛ وغالباً ما كان استخدامهم لكليهما فى بحث بعينه . لقد أنكر السلوكيون قيمة الاستبطان – ولكن ليس من بين أصحاب التأمل الباطنى من أنكر قيمة المناهج الخارجية فى دراسة السلوك ، أو قيمة دراسة السلوك كخط جانبى لعلم النفس . ومن ثم – نحن لا نستطيع أن نتحدث عن مدرسة التأمل الباطنى كما لو كان علماء النفس جميعاً الذين استخدموا الاستبطان فى مهمتهم يكونون جسماً واحداً يؤلف بينهم فيه إخلاصهم لهذا المنهج من الدراسة ؛ لاولن نستطيع أن نتحدث عن سيكولوجيا القرن التاسع عشر على أنها فى جملتها استبطانية ، وعن الطرائق الخارجية على أنها ظهرت فى أيامنا هذه ؛ لأن الطرائق الخارجية قد استعملت منذ بداية علم النفس التجريبي : فى دراسة زمن الرجوع ، وحدوث الإدراك، وأخيراً فى تجارب الذاكرة والتعلم . وما نجد بالفعل فى نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى إنما هو توسعة للميدان الذى قامت فيه بجد محاولات الاستبطان ؛ مع نقد إنشائى لهذا المنهج ، وصوغ لما يهدف إليه علم النفس الباطنى أكثر دقة . وأنا أربط علم النفس الوجودى الذى ظهر على هذا النحو خصوصاً بتعاليم المرحوم الأستاذ إدوارد برادفورد تششر القوية .

وأحسب أنا مجمعون – مهما تكن ميولنا إلى أية مدرسة – على أن مهمة علم النفس أن يدرس الفرد ؛ وأن حقائقه تقوم على ملاحظات أفعال الفرد . فإذا كان الفرد كائناً حياً له القدرة على أن يقدم تقريراً ؛ فلنا أن نطلب إليه أن يلاحظ ويقرر بعض أفعاله هو ، أو ما يحدث له أو فيه . ولو أطلقنا على الفرد موضوع الدرس « الذات » subject ؛ فلنا أن نسمى الملاحظات التى يدلى بها على هذا النحو : ملاحظات ذاتية Subjective observations ؛ مستخدمين اللفظة المقابلة : موضوعي

أو خارجي objective للملاحظات التي يجربها عليه شخص آخر . فالاستبطان ملاحظة ذاتية ، وفي بعض الأحيان تُسمى الملاحظات التي يدلى بها الشخص ذاته استبطانية introspective . وأحياناً أخرى تقصر هذه التسمية على نماذج بعينها من الملاحظة الذاتية أكثر تركيباً أو أكثر تهدياً ؛ كما سأوضح ذلك فيما بعد .

فإذا وضعنا نُصَبَ أذهاننا أن التأمل الباطني قد كان أخيراً حثيث الخُطى ؛ إذ يُصر السلوكيون على أن طرائق الملاحظة الخارجية وحدها هي التي تؤدي إلى أية صحة علمية ؛ فسنجد متعة مزدوجة في استعراضنا سريعاً نماذج العمل السيكولوجي الذي يُتوصّل إليه بفضل الملاحظة الذاتية ، وسنرى أى شئ من المحسوس يريد السلوكيون أن يُبعدوا عن علم النفس ؛ وسنكون بذلك صائرين إلى المدرسة الوجودية .

نماذج لعلم النفس الاستبطاني :

ومن الغريب - فيما يبدو - أن علم النفس قد تعلم استخدام المنهج الذاتي في الملاحظة - لاعتن الفلسفة - بل عن الفيزيكا والفيزيولوجيا . استخدمته الفيزيكا في دراسة الضوء والصوت ، والفيزيولوجيا في دراسة أعضاء الحس . ويجب ألا يغيب عن البال أن الضوء والصوت ليسا حقائق موضوعية مطلقة ؛ لأن الضوء ليس مجرد إشعاع - بل هو إشعاع مرئي ، والصوت ليس مجرد ذبذبة اهتزاز - بل هو اهتزاز مسموع . وكثير من الذبذبات ليس مسموعاً ، وكثير من الإشعاع ليس مرئياً . فاهـزج لوناً أحمر خالصاً وآخر أصفر خالصاً ، ولن يكون لديك موضوعياً أكثر من هذا المزيج ؛ ولكن الملاحظ الذي تضع هذا المركب تحت بصره يرى لوناً برتقالياً . ومزيج الأصوات يعطى نتائج مغايرة تماماً ؛ لأن الأذن نوع من آلة تسجيل مختلف تماماً عن العين . وقد أولع الفيزيقيون بهذه الظواهر الذاتية منذ عهد نيوتن فما بعد . ومع تقدم الفيزيولوجيا السريع في القرن التاسع عشر المبكر ؛ بدأ بعض الفيزيولوجيين يجربون وظائف أعضاء الحس . فكيف يجربون عمل هذه الأعضاء ؟ الطريق الواضح أن ينهبوا عضو الحس ثم يطلبوا إلى الفرد أن يسجل التأثير الذي حدث له . والإحساس الذي حصل عليه . وهذا الضرب من المنهج الذاتي للحصول على "هذه" الحقائق يمكن أن يسمى طريقة التأثير Method of impression ؛ هو ذاتي لأن الشخص الذي يقع عليه أو فيه التأثير يلاحظه ويسجله . وفي العادة

كان الفيزيولوجي يجرب على نفسه أولاً ؛ فيجرب تنبيهاً معيناً على أحد أعضاء حسه ، ويُدون التأثير الذي لقي . ولكي يتحقق من ملاحظاته كان له أشخاص آخرون يقومون بنفس التجربة كموضوعات ، فإذا سجل كل واحد عين التأثير عن نفس المنبه ؛ قَبِل الأمر على أنه حقيقة قائمة تدل على وظيفة هذا العضو من الحس . وكم من نتائج مقبولة حَصَلها بطريقة التأثير تلك طوال القرن التاسع عشر الفيزيقيون والفيزيولوجيون ، وأخيراً علماء النفس .

ومشكلة عامة في دراسة الحواس هي التحليل ، والبحث عن الإحساسات الأولية . فمثلاً حاسة الجلد تعطينا عدداً من التنبهات : الشكل ، والحجم ، والنتقل ، وتركيب الأشياء من حرارة وبرودة ، ورطوبة وجفاف ، وخشونة وصلابة . . . عدد لا نهاية له من الحقائق ، ولكن المحتمل ألا يكون الحس قد قدم لنا بالضبط كل هذه الحقائق ؛ وإنما قدم مُعْطيات أولية معينة استُخدمت في الدلالة على هذه الحقائق . فكانت المشكلة في اكتشاف هذه المعطيات الأولى . وعلى مر الزمن ظهر أن ثمة خصوصاً أربعة إحساسات أولية بالجلد : الدفء والبرودة والألم والضغط ؛ وكل ما عداها من التنبهات خليط من هذه الأربعة تقريباً . وهذا التحليل إنما توصلوا إليه بتفحص الجلد بمختلف التنبهات ؛ والعثور على بقعات صغيرة حساسة بالدفء ، وأخرى بالبرودة وهكذا (٥) .

وبنفس الطريقة تقريباً حُلَّت حاسة الذوق (٤) . فبطريقتنا العادية في التفكير يوجد عدد لا نهاية له من الطعوم المختلفة . ونحن نعلم في الواقع أن برداً يصيب الأنف يقلل هذه الكثرة المختلفة إلى حد كبير . وتُظهرنا التجربة على أن الأنف إذا ظل بمعزل ، فإن عدد الطعوم الحقيقية يهبط إلى أربعة : الحلو ، والحامض ، والمر ، والملح . والطعوم الكثيرة التي نفكر فيها عادة هي مزاج من هذه "الأربعة" مع الرائحة والملمس وأحاسيس الحرارة . ففي حالة شراب الليمون ؛ تعيننا على تحليل هذا الخليط معرفتنا بتركيب المنبه . فنحن نعلم أن المنبه يشمل الحلو والحامض والبارد ، ونعلم أن الليمونة أكثر من مجرد حامض ، وأن الخلل أو حامض الكبريتيك لا يمكن أن تغني في الحلول محلها . إن لها فوق هذا رائحة خاصة ؛ وعلى هذا فشراب الليمون يجمع تنبيه أربعة إحساسات أولية . ومذاق شراب الليمون مزاج من هذه الأربعة . وحين نسميه مزاجاً ؛ فإنما نغني أنه — على الرغم من تركيبه — فإنه يبدو أن يكون تأثيراً موحداً unitary impression .

ولا شك أن حاسة البصر^(١) تقدم عدداً لا نهاية له من التأثيرات، ولها خاصة بسطها في المكان وإعطاءها الشكل والموضع . ويُبين التحليل إحساسات أولية ستة: الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأخضر والأزرق ؛ مع جملة مركبات كثيرة منها . وتختلف حاسة السمع^(٢) في أنه ليس لديها عدد قليل من العناصر ، لأن كل نغمة في الظاهر — مرتفعة أو منخفضة أو متوسطة — هي في أوليتها ككل نغمة أخرى ” في نفس درجتها وإن كانت من نوع آخر “ . فهنا توجد آلاف من العناصر الأولية ولكن هناك أيضاً مركبات كثيرة العدد . وتحليل المركبات الصوتية قد كان من أعجب ما وصل إليه هذا النوع من الدراسة . فالخصائص المميزة المختلفة للآلات المختلفة قد رُئى أنها تقوم على صلات مختلفة بين النغمات الفرعية والنغمة الأصلية التي تحدث في أى وقت . وبنفس الطريقة أيضاً — الحروف الساكنة والمتحركة هي مركبات نغمات الفم المساعدة والنغمة الأصلية التي تخرج عن الحبال الصوتية . وفي السنوات الأخيرة اشتغل مهندسو « التليفون » و« الراديو » اشتغالا واسعاً في ميدان الإحساس السمعي هذا . كما اشتغل مهندسو الضوء في ميدان الإبصار . وكانت خطتهم أن يراقبوا المنبه أولاً على ضوء معارفهم في الفيزياء ، وثانياً — أن يستعينوا بالثقات من الملاحظين وأن يهتوا الظروف الملائمة للملاحظة السهلة الدقيقة ما أمكن ؛ ثم أن يطبقوا منبهاتهم المضبوطة ، ويجعلوا ثقات ملاحظتهم يُدلون بما يقع عليهم من تأثيرات . وعليهم أن يعتمدوا على طريقة التنبيه ، لأنهم ليسوا مختصين فقط بفيزياء الضوء أو الصوت ؛ بل بالآثار الواقعة على الكائن الحي الذي يرى أو يسمع . وحاسة الشم^(٣) قد استعصت طويلاً على التحليل ، ولكن بعض التقدم قد حدث أخيراً . فإن هنجنج*^(٤) Henning قد جمع طائفة كبيرة من مواد الشم وقدمها لاشخاص تجربته بتعليمات لهذا الغرض : تناس كل ما تعرف عن مصادر الشموم المختلفة ، وقارن فقط هذه الشموم ؛ مبيناً وجوه الشبه فيها حتى تستطيع أن تؤلف بينها في نظام أو نسق . وكانت هذه التعليمات لازمة ؛ لأن الأشخاص ربما تحولوا — بدونها — إلى محاولة التوحيد بين الشموم التي عاد بهم السعي لها إلى ما كانوا يعرفون من قبل ، إلى تصنيفهم العادي الساذج الشائع للشموم ؛ فلم يعملوا لأى تقدم . فلما لصق الملاحظون بالمشابهات والفروق بين الشموم المعطاة ذاتها دون إهابة باعتبارات أخرى غريبة ؛ تبينوا شموماً رئيسية معينة تشبه العناصر إلى حد كبير ، وشموماً أخرى

بدت مركبات " لها " . وتعرض التجربة زبدة الملاحظة الذاتية للمرء في وصف دقيق لتجربته ، يحاول " فيه " أن يقول ما هو ثمة موجود - لا ما يقترح أن يكون - جاهداً في أن يظل مع الظواهر التي يراد تقريرها ؛ فيصفها مقرونة ببعضها البعض .

ومثال آخر لاستخدام طريقة التنبيه في دراسة الحواس . إذا أنت صوّبت النظر إلى بقعة ملونة عشرين أو ثلاثين ثانية ، ثم حولت عنها نظرك إلى مستوى رمادي بسيط ؛ فإنك ترى بقعة لون مُكَمَّلَة لون البقعة الأصلية : بنفسجية للأخضر ، وزرقاء للأصفر... إلى آخر ذلك . هذه الصورة البعدية السالبة negative after-image هي إحساس ذاتي . لأنه ليس ثمة نقطة خارجية على المستوى « الساده »* . وتُظهر الصورة البعدية الطريقة المعقدة التي تستجيب بها العين والمخ إلى الضوء . وهي ظاهرة جِدُّ هامة في إبصار اللون من الناحية الفيزيولوجية والسيكولوجية . بل هي مهمة من الناحية العملية أيضاً ، ما دام المرء ينبغي أن يأخذ بنتائج الصورة البعدية في موازاة الألوان ومقارنتها . ومن اليسير أن تبين الصورة البعدية لأي شخص بإجراء التجربة عليه - ولكن بطبيعة الحال أنت لا ترى الصورة البعدية لأي أحد قط ؛ بل صورتك أنت - والدليل على هذه الحقيقة التي أجمعوا على قبولها إذن يقوم بكماله على منهج التأثير ؛ أي على الملاحظة الذاتية . ومن المحير كيف يستطيع أحد - بإزاء هذا الموقف - أن ينكر كل صحة للملاحظة الذاتية .

لا تختلف الملاحظة الذاتية جوهرياً عن الموضوعية :

ما زلنا نعد طريقة التأثير لوناً من ألوان الملاحظة الذاتية ما دام الشخص يقرر التأثير الذي يتلقاه بنفسه . وتبقى بعد هذا مسألة ما إذا كانت الملاحظة الذاتية حقاً شيئاً آخر مختلفاً عن الملاحظة العادية للحقائق الخارجية . فطريقة التأثير يُجَدِّدها علماء النفس الاستبطانيون الذين ينظرون إليها وكأنها الحال النموذجية للملاحظة السيكولوجية البسيطة ، ويكرهها السلوكيون على أنها ملطخة بالصبغة الذاتية . أما للشخص نفسه الذي يجري الملاحظة ؛ فهي تبدو موضوعية كملاحظة حقيقة موضوعية أو خارجية . تُلقي أمام عينيه صَوِّدًا ، فيقرر : « إنه أخضر » ، وتضع في فمه مادة ؛

* فارسي معرب بمعنى بسيط plain وامله يؤدي معنى اللون أكثر مما تؤديه كلمة بسيط

فيقرر: « إنها حامضة ». وتحدث نغمة خافتة فيقول: « الآن أسمعها، والآن لا ». فهي تبدو له نفس النوع من الملاحظة الذي يُجرىه دائماً على الأشياء ؛ إلا أنه ربما كان أكثر معاناة للتجربة . وحتى في حالة الصورة البعدية هو قابل لأن يقول : « إنى أرى على الحائط بقعة بنفسجية . إنها تتحرك عند ما أحرك عيني . إنها الآن تتلاشى » . وربما استطاع أن يُقنع نفسه أن هذه الصورة البعدية شيء « في عينيه » أكثر منه على الحائط حقيقة ؛ ولكن الملاحظة تبدو موضوعية كأية ملاحظة أخرى . وثمة فارق واحد : هو 'ينحى' جانباً عند ملاحظة هذه الصورة البعدية مسألة ما إذا كان هناك في الخارج بقعة بنفسجية حقاً ، ويدلى بما 'تنبئ' به عيناه فقط ؛ بينما هو في حياته الجارية 'يعنى' بما هو 'ثمة' واقعي في الخارج ، ويتعود أن يصرف النظر والاعتبار عن الصور البعدية التي تقدمها له عيناه دون انقطاع . فنهج التأثير يتطلب من الملاحظ أن يدع جانباً اشتغاله بالدلالة العملية لتأثيراته حتى يستطيع أن يقرر التأثيرات ذاتها . ولكن مطلباً شبيهاً " بهذا " يلزم في كل تجربة 'تعانى' : فالعادة أنه في الملاحظة الساذجة أو اليسيرة ، نحن نحصل على تأثير مركب يصلح لأن يكون إشارة عابرة لبعض حقيقة موضوعية ؛ ولا حاجة بنا إلى ملاحظة التأثير بعناية لأن الحقيقة الموضوعية 'مشار' إليها فيه بوضوح . فأما إذا كان التأثير ضعيفاً أو غامضاً ، وكان من المهم أن نستيقن من الحقيقة الموضوعية ؛ فإننا 'مسوقون' إلى ملاحظة التأثير نفسه حتى نستوثق مما نرى حقيقة أو نسمع . فنحن نسأل : « هل توجد هناك هذه البقعة الضئيلة على الماء أم أن عينيَّ تخدعاني؟ » و« هل أسمع هذا الصوت الخافت المتراحي أم أنني أتخيله؟ » ؛ ونظل عن الجواب في توقف حتى نستطيع أن نتأكد من 'مشيرينا' .

فإذا كان منهج التأثير غير صحيح من أساسه ؛ فإنه يبدو أن كل ملاحظة علمية غير صحيحة ؛ لأنه يتطلب من الملاحظ من الناحية العملية ما تتطلبه تلك تماماً . فلنفرض أن لدى كيميائي ما أنواعاً كثيرة من الماء يريد أن يفحصها لكي يحدد أيها فيه حديد ، وأنه يضيف إلى كل نوع منها مخبراً ينتج بقعة لون زرقاء في الماء تحتوى حديداً . ولنفرض أنه يقول في نفسه : لو أن لي مساعداً له عينان جيدتان أستطيع أن أثق بدقة ملاحظته ؛ إذن أوقرت على نفسي من نظام العمل كثيراً . فيعلن . وتتقدم لهذا العمل فتاة صغيرة . فيأتي بطائفة من أنابيب اختبار فيها محلول الحديد ، وأخرى ليس فيها ، ويدون أيها هذه وأيها تلك ، ثم يضعها أمام الفتاة مبيناً أن مهمتها أن

تفحص كل أنبوبة اختبار جيداً حتى تتأكد هل تظهر في إحداها بقعة زرقاء أم لا . ثم لنفرض أنه وجدها دقيقة جداً فاستخدمها ، وجعل يضع بين يديها أنواعه هذه المجهولة ، ويعتمد عليها في إثبات أيها فيه هذه الزرقة وأيها ليس فيه . فهو قد اختبر الفتاة أولاً ؛ ثم هو الآن يختبر أنواعه . ولكن مهمة الفتاة هي هي بعينها خلال ذلك : هي تدلى بتأثيراتها ؛ ولكن دورها أثناء ذلك موضوعي خارجي . فالكيميائي قد استخدم نفس العملية أولاً لاختبار ملاحظه من الناحية النفسية ، ثم لاختبار أنواعه من الماء من الناحية الكيميائية . وكانت الملاحظات هي بعينها : إلا أنها أُجريت أول الأمر لغرض سيكولوجي ، ثم بعد لغرض كيميائي ؛ في الحالة الأولى استخدم الكيميائي أنواعاً معلومة ليعرف شيئاً عن شخص مجهول ، وأخيراً استعان بهذا الشخص المعروف حينئذ بملاحظته ليكتشف شيئاً عن عناصر غير معلومة .

والملاحظ الإنساني ما أشبهه بآلة تسجيل حساسة ، كالترموتر مثلاً . فانت حينما تختبر ترمومتراً جديداً ؛ تجربته في درجات حرارة معلومة لترى هل يسجل في غير خطأ درجات الحرارة هذه . فإذا استوثقت من دقته تجربته في درجات حرارة مجهولة ؛ وأخذت تقبل ما يسجله على أنه صحيح في حقيقته الخارجية . وفي التجربة السيكولوجية يعمد الباحث إلى معرفة المؤثر الذي طبقه على موضوعه ؛ وبذلك يمكنه أن يستفيد من إجابة الشخص له من حيث أنها تبين شيئاً عن هذا الموضوع نفسه والعمليات التي تجري فيه . أما في التجربة الكيميائية أو الفيزيائية ؛ فإن الباحث يعرف ملاحظه ويثق به ، ويأخذ إجابته دليلاً على حقيقة موضوعية مجهولة . وعلى هذا فمنهج التأثير والملاحظة العلمية الصحيحة لا يختلفان من حيث هما ملاحظة ، ولكن فقط فيما يسبقهما وما يتلوها . هما عند الملاحظ شيء واحد ، وإنما يختلفان عند الباحث لأنه يبدأ "في كليهما" من موضع مختلف ، ويقصد وجهة مختلفة .

وضوابط طريقة التأثير هي بعينها ضوابط الملاحظة العلمية بصفة عامة . وهي إجماع ملاحظين مختلفين ، وإتفاق الحقائق التي يدلون بها . والواقع أن الأفراد يختلفون كثيراً حتى لا نستطيع أن نتوقع إجماع الملاحظين عموماً في تجربة سيكولوجية . فإن نسبة كبيرة من الناس سيرون في اللون الناصع تماماً أخضر في زرقة ، وبنفسجياً ميلاً إلى الحمرة ، ورمادياً أذكى ؛ ثم يقررون أنها واحدة جميعاً . ومثل هذا الفرد الذي ذكرنا له حساسة لون عجيبة ، فنحن نختبره بطرق مختلفة ؛ ونقرر أنه أعى اللون

colour-blind — أعمى الأخضر والأحمر . وفي العمل الكيميائي يجب أن نقطع بعدم صلاحيته للقيام بملاحظات اللون . أما في علم النفس فنحن نسرّ بالعثور عليه ؛ لأن حالات شدوذه هذه تُلقي ضوءاً على عمليات رؤية الألوان . وبشبه ذلك تماماً ما إذا وجد كيميائي أن آلة من آلاته تسجل خطأ ؛ وبدلاً من مجرد إلقائها بعيداً يعكف على دراستها ابتغاء الوقوف على شيء من الوظائف الداخلية لهذه الآلة . فالعالم النفسى بحكم وظيفته يدرس نوعاً بعينه من الآلات .

وقد قلنا في الفصل السابق شيئاً عن الخبرة والفعل كموضوع لعلم النفس . ومنهج التأثر يمكن أن يُنظر إليه من كلتا الزاويتين "الخبرة experience والفعل performance" فالحساسات الأولى : السمع ، والأبصار ، والحامض . . الخ هي حقائق الخبرة . وكيمياء العقل تنظر إليها على أنها العناصر التي تتركب منها الخبرة . والمركبات والصور البعدية أيضاً حقائق خبرة ، ولكن الشخص في تلقى التأثيرات والإخبار بها فاعل performer كما هو ذو خبرة experiencer . وما دام المحرب يعرف المنبه الذي استخدمه ، وأيضاً يعرف — أو ربما يعرف — الاستجابة الحقة لهذا المؤثر أو المنبه ؛ فقد يستطيع أن يزيد على ملاحظة الموضوع ملاحظة من عنده ، وهي : إلى أى حد كانت علاقة استجابة الموضوع للمنبه صحيحة . وملاحظة المحرب لهذه الإصابة أو الخطأ تدخل تحت عنوان الملاحظة الخارجية . فكأن أعمى اللون يخلط الرمادى والأخضر المزرق والبنفسجى المحمر ؛ حقيقة خارجية ، ولو سألته لم يفعل هذا أجابك لأنها تبدوله مشتبهة . ولا يعنى السلوكى — أو ما عدا الملاحظ الخارجى — كيف تبدو هذه للشخص ؛ وإنما يعنيه فقط ما يقول الشخص أو يفعل خاصاً بها . فلو أن الكيميائى الذى قلنا إنه اختبر الفتاة كان سلوكياً ؛ لقال : « إنه لا يعينى أن ترى الأزرق أولاً تراه ؛ ما دامت تذكر اللون الأزرق في مواضعه وليس غير » وقد يستطرد قائلاً : « أنا لا أعترف بأن ثمة شيئاً كالبصر في معزل عن الاستجابة اللفظية أو الاستجابات الآلية الأخرى ، كما لا أعترف أن ترمومترى يحس بالحرارة التي يسجلها . وكل ما أعترف به في الحالين ؛ استجابة آلية تتعلق بالمؤثر . » هذا حسن ووجيه ، ولكن أحياناً ما يختبر الكيميائى بنفسه أنايب اختباره ويقرر : « أزرق » أو « لا أزرق » ، وربما اعترف بأنه قال هذا لأنه هكذا رآه . وعنده أن من التعصب إنكار مشابهة نتائج الملاحظ الآخر لنتائجه هو من هذه الناحية — أو بوجه أعم — من التعصب عند السلوكيين إنكار أن طريقة التأثير تُقدّم نتائج الخبرة

الحقيقية . ربما كانوا لا يريدون أن يعلّوا على هذا النحو ، وسوف تجدهم مع هذا يتحاشون بإيمان استخدام كلمات : « يرى » ، و « يسمع » ؛ مستبدلين بها قولهم « استجابة الضوء أو السمع » .

تقدم أوسع لطريقة الاستبطان :

ربما نستطيع الآن أن نبين كيف اصطنع منهج التأثير في دراسة الأحاسيس والمفاضلات الاستاتيكية (الخاصة بعلم الجمال) : يُسأل الشخص عما إذا كان الشيء المعطى باعثاً على السرور ، أو: أىّ شيئين معينين أكثر إدخالاً للسرور . وقد نستطيع التحدث عن وجوه استعمال أخرى كثيرة لهذا المنهج العام . إلا أنه ربما كان أدنى إلى غرضنا أن ننقل إلى تطور منهج التأثير إلى شيء آخر أكثر تعقيداً يمكن أن نخصه باسم الاستبطان .

عند ما تتلقى تنبهاً ؛ فإن خبرتك في مجموعها أغنى من مجرد التأثير المباشر الذي تلقيته عن المنبه . وطريقة التأثير تدعوك فحسب إلى أن تدلى بالأثر المباشر ؛ بينما طريقة الاستبطان الواسعة تريدك أن تدلى بخبرتك كلها في هذه اللحظة ، أو أقصى ما تستطيع منها . في تجربة العمل ، الشخص منصرف إلى مهمته ، فلن يكون ثمة من الأفكار الغريبة ما يخبر عنه . ولكن مهما يكن انصرافه إلى هذا المنبه المقدم له ؛ فإن خبرته أكثر من مجرد تأثير هذا المنبه ، ومن الممكن تماماً أن صورة كاملة لخبرته الراهنة قد تلقى ضوءاً على العملية التي يمر بها في ملاحظة المنبه .

هب أن منبهين أعطيا إلى الشخص ليقارن بينهما ، أليس تقرير كامل لخبرته ربما ألقى ضوءاً على الطريقة التي يحقق بها الشخص غرضه - أعني على عملية المقارنة ؟ في التجربة الكلاسيكية لرفع الأثقال ، كان الشخص أولاً يرفع ثقلاً ، ثم آخر مختلفاً عن الأول قليلاً ، ثم يحكم أيهما أثقل . فكيف له ذلك ؟ إن الإحساس الذي يستقبله من الثقل الأول يزول بإلقاء هذا الثقل أرضاً ، ومع ذلك فهو يقارن الثقل الثاني به . وقد أعد السيكولوجيون القدماء جواباً لذلك في القول بالصور images ؛ فقالوا إن الشخص يحتفظ بصورة الإحساس بالثقل الأول بعد إلقائه ، وفي وسعه أن يضع هذه الصورة إلى جانب الإحساس الذي يستقبله عن الثقل الثاني . فلماذا لا نجعله يصف خبرته ، ونرى ما إذا كانت هذه الخطة المنطقية الواضحة صحيحة ؟ لقد أجريت التجربة ، فلم تثبت صحة هذا التصميم . وغالباً ما كان يقرر الشخص

موضوع التجربة، أنه لم يتذكر، ولم يستطع أن يتذكر، كيف أحسّ الثقل الأول بعد أن ألقى به . وبدا فعلاً أنه ينسى الثقل الأول ، ويحس استعداداً تاماً للثاني فقط ، ومتى رفع الثاني إذن أثر فيه بالثقل أو بالخفة . فإذا بدا الثقل الثاني تحت هذه الظروف خفيفاً ؛ قال إنه أخف من الأول ، أما إذا بدا ثقيلًا ؛ حكم بأنه أثقل من الأول . ولو أنك كمجرب لا حظت يدي الشخص ؛ لرأيت - أحياناً على الأقل - أن الثقل الذي بدا خفيفاً قد ارتفع بيسر ، بينما ارتفع الثقل الآخر - الذي بدا ثقيلًا - بشيء من البطء . فظهر إذن أنه في رفع الثقل الأول كانت يد الشخص منهية لهذا الثقل ، حتى إن الرفع الثاني كان من القوة بما يكفي لملاءمة هذا الثقل الأول . فإذا كان الثقل الثاني أخف ؛ ارتفع بسهولة وسرعة وبدا خفيفاً ، أما إذا كان الثقل الثاني أثقل ؛ أبطأ وبدا ثقيلًا . فبان أن العملية تقوم على تهيئة العضلات أكثر منها على الصور العقلية . والاستبطان - مؤيداً بالملاحظة الخارجية - قد أدى إلى اكتشاف خطير .

وإدخال هذا النوع من التجربة يعزى إلى الأستاذ ج . إ . ميلر G.E. Müller بجامعة جنتنجن أكثر منه إلى أي سيكولوجي آخر . وميلر - المولود في سنة ١٨٥٠ - كان أحد علماء النفس الألمان القلائل الذين - دون أن يكونوا من تلاميذ فونت ، وربما كانوا من خصومه - قد أسسوا المعامل غير طويل بعد فونت . وفكرة هذه المجموعة من التنظيمات - أو ما يسمونه في الألمانية Einstellung التي استخدمها ميلر حوالي ١٨٩٠ - قد برزت ، وما تزال تبدو ذات قيمة كبيرة .

وتقدم ميلر يطبق منهجه الاستبطاني الحديد على دراسة الذاكرة . ودراسة الذاكرة كان قد بدأها بقوة حينئذ إبنجهاوس Ebbinghaus (١٨٥٠ - ١٩٠٩) أحد التجريبيين المبكرين الذين اعتزلوا فونت . وتجارب إبنجهاوس^(٧) القديمة الآن على منحنى النسيان وكثير من مسائل الذاكرة الأخرى هي تجارب موضوعية خالصة ؛ بمعنى أنه أعطى تسجيلات تبين كم من الزمن يلزم لتعلم درس معين ؛ أو كم من الزمن يلزم لإعادته بعد حين ؛ من غير أن يكون بينها حقائق باطنية . وكان إبنجهاوس قد نشر نتائجه في حدود علم النفس الارتباطي . أما ميلر^(٨) ، فقد خامره الشك فيما يبدو حول هذا التفسير ، فأهاب بأشخاصه ألا يتذكروا أو يسترجعوا فحسب ؛ بل أن يدلوا بتجربة تذكرهم واسترجاعهم . وكان لدى الأشخاص قدر كبير من

الخبرة يقررونه ، فبدا أنهم نشطون جداً أثناء عملية التذكر ، ونشطون بطرق مختلفة . كما بدا أنهم بعيدون جداً عن تلقي المادة بطريقة سلبية . وتركها ترابط بعملية أوتوماتيكية . والمادة التي لاصلة بينها : كقوائم الأعداد ، أو مقاطع الكلمات التي لا معنى لها — التي تعتزبها معامل علم النفس — قد سمعوها في صورة إيقاعية ، وأروها كما لو كانت مجمعة في أزواج وما شابهها . فدونوا وجوه الشبه ووجوه الخلاف في المادة ، وحشدوا المعاني التي تربط مختلف الكلمات المفردة معا . فكانت المجموعات والروابط والمعاني مفاتيح عملية تذكير قوي ، تلك كانت بيئته تقارير الاستبطان .

وأحد موضوعات ميلر في تجاربه الأخيرة — لأنه ظل يدرس الذاكرة عشرين أو ثلاثين عاماً — كان الدكتور «س» في قسم الرياضيات بالجامعة . وكان الدكتور «س» نادرة في الحساب له ذاكرة عجيبة في الأعداد ، وكان مدى ذاكرته واسعاً — وما نسميه مدى الذاكرة للأعداد هو أطول قائمة لأعداد مكان واحد يمكن إعادتها مباشرة بالضبط بعد قراءة أو سماع القائمة مرة واحدة — ولن تجد عناء في قائمة من ستة أعداد كالاتية :

٧ ٢ ٩ ٦ ٣ ٨

ولهذا فإن مدى ذاكرتك للأعداد يجب أن يكون على الأقل ستة ، والعكس حين

تقرأ هذه القائمة :

٩ ٥ ٧ ٢ ٠ ٦ ٣ ٨ ٩ ٤

(تقرأها) مرة ، ثم تحاول أن تعيدها من الذاكرة ، فستوافق على أنها فوق طاقتك . فالحد العادي للشباب المتقف هو سبعة أو ثمانية أو تسعة أعداد . ولكن الدكتور «س» في اختبارات كهذه كان يردد قوائم من أربعين إلى خمسين عدداً بعد قراءة واحدة . وحاول ميلر — كسيكولوجي — أن يكشف كيف تتم هذه الأعجوبة . فأظهرت الاختبارات الموضوعية في مادة أخرى أن ذاكرة الدكتور «س» ليست رائعة إلا في الأعداد ، كما دلت نتائج الاستبطان على أنه كان دائماً يصنف الأعداد بأخذها وكأنها أعداد ثلاثية المكان ، ثم ربطها بعد في أعداد سداسية المكان . فكان كل عدد ثلاثي المكان كصديق قديم للدكتور «س» . درسها جميعاً ، وتعرف خصائص كل منها ، وعرف الأعداد الأولى حتى الألف ، كما عرف كل المربعات والمكعبات والأعداد الأخرى كلها بخصائص حسابية طريفة على نحو ما تعرف أنت العدد ٣٦٥ من صلته بالسنة . فمثلا العدد ٧٣٨ سرعان ما يسترعى انتباهه فيه أنه يزيد ٩ على

مكعب العدد ٩ فيقول : « طبعاً إنه لن ينسى » . وتاريخ الدكتور « س » تاريخ طريف . كان يتخيل طفلاً أرقام البيوت في الشارع ، وقضى طفولته كلها يلعب بالأعداد ويشغل بها ؛ حتى كشف لنفسه كثيراً من الصلات التي تربط بينها . وعلى هذا فتذكر قائمة أعداد كانت عنده بعد نضجه عملية أخرى تختلف عنها عند الكثيرين منا . ومع هذا ، فأكثر الناس في تذكركم — كما وجد ميلر — يستعينون فعلاً بهذه العلاقات والمجموعات والمعاني كما هي عندهم مهياً للاستعمال . فالتذكر عملية إمساك قوى ، بل إن « الإسفنج البشري » ليس قط قابلاً سلبياً The "human sponge" is anything but a passive absorber . وعلى هذا النحو ، توصل ميلر — بمزج الدراسات الباطنية والخارجية عن الذاكرة — إلى نتائج جد خطيرة .

عمليات الفكر كما يراها التأمل الباطني :

وبدلاً من أن نفهم الاستبطان وكأنه المنهج الأصلي القديم في علم النفس ؛ ينبغي — فيما يبدو لي — أن نعرف أن مقدمات الاستبطان المنهجية إنما توجد فيما قام به ميلر وتلاميذه من عمل ، بدأ حوالي ١٨٩٠ . وتنتشر E. B. Titchener — لتطلعه دائماً إلى أى تقدم من هذا النوع — قد أدخل المنهج في معمله في كورنل Cornell لدراسة عمليات المقارنة حوالي سنة ١٩٠٠ . وفي نفس الوقت تقريباً تشبث تلقائياً بالمنهج عينه عالم نفس كبير ، اسمه معروف لديكم جميعاً في نواحي أخرى ؛ ألفرد بنيه Alfred Binet في باريس (١٨٥٧ — ١٩١١) في محاولته دراسة عملية التفكير . وكان بنيه قد كتب في أول أيامه كتاباً عن سيكولوجية التفكير — على الطريقة القديمة ، ودون أن يتكلف إدخال أية أفكار جديدة — وإنما استند إلى المنطق ونظرية الارتباط في وضع خطة هذه العملية . وفي ذلك الحين كان يعتقد أن التفكير لا بد وأن يكون لعباً بالصور أو تلاعباً بالصور manipulation of images . وفي سنة ١٩٠٠ تناول المسألة مرة أخرى ، ولكنه أقام نتائجه — هذه المرة — على عمليات تفكير حقيقية أدلت بها ابنتاه ، البالغتان ثلاثة عشر وأربعة عشر من العمر . لقد أعطاهما مسائل للحل ، وطلب إليهما أن تصفا عملياتهما أو خيراتهما أثناء الحل . وربما سألهما : كيف فكرتما في هذا الشيء ؟ هل رأيتهما ؟ أو قلتما اسمه في نفسيكما ؟ فأحياناً ما أدلى موضوعاً تجربته بصور ، ولكن في عدد غريب من الحالات أنكرتا وجود الصور . واضطر بنيه — والحالة هذه — أن يقر (٦)

رأيه في أن التفكير يقوم بالضرورة في تكوين الصور. وبدا له أن التفكير يستمر في حدود لم يجد لها اسماً خيراً من «أفكار» pensées. فالخبرة التي لك عند ما تفكر في شيء تقوم في مجرد تفكيرك فيه. والحق أنك أحياناً ما تراه «بعين فكرك»، وأحياناً ما تذكر له اسماً. ولكن كل ما تستطيع أن تقوله غالباً؛ أنك تفكر فيه. وهذا يمكن أن يُعدّ نتيجة سلبية خالصة، ولكنه قد قضى على الأقل على الخيوط الواهية للتخطيط القديم.

وفي استقلال عن بنيه — ولكن ربما بتأثير عمل ميلر — بدأ فريق من علماء النفس الألمان في نفس الوقت تقريباً دراسة مشابهة لعمليات التفكير. وتجمع هذا الفريق حول كيليه Külppe (١٨٦٢-١٩١٥) (١٠) تلميذ فونت، الأستاذ في فير تسبورج، وأخيراً في بون. ففي أكثر من عشر سنوات — وحتى الحرب العالمية — وقف هو وتلاميذه جهودهم على هذه المشكلة العامة.

فأولاً مارب Marbe (١١)، زميل أصغر لكيليه (ولد ١٨٦٩، وهو الآن خليفة كيليه في فير تسبورج)، حاول أن يصف عملية الحكم. فعرّفه بأنه أية استجابة للموضوع يمكن أن تُنعت بالصدق أو الكذب. أي: الحكم هو إجابة صحيحة أو خاطئة عن سؤال. ذلك هو الحكم كفعل، ولكن مارب أراد أن يعرف ما هو الحكم كخبرة. وكانت طريقته أن يسأل موضوع تجربته سؤالاً، فإذا أجاب الشخص طلب إليه أن يذكر الخبرة التي توصل بها لهذا الجواب. واستخدم أسئلة بسيطة ليحصل على عملياتٍ للحكم سريعة ميسورة، ولكن ما انتهى إليه في مسألته الرئيسية كان سلبياً بعض الشيء، فكثيراً ما قرر الأشخاص أن الإجابة جاءت بطريقة آلية، وأن ليس ثمة تجربة يُدلي بها. فإن كان لديهم ما يحكونه؛ فهو يختلف كثيراً من حالة إلى أخرى؛ حتى اضطر مارب إلى أن ينتهي إلى أن ليس ثمة خبرة مميزة واحدة للحكم

إنما خرجت من هذه التجربة نتيجة إيجابية ممتعة: فكثيراً ما قرر الأشخاص معاناة التردد، والشك، والثقة في البحث عن إجابتهم والاقتراب منها. فلما حاولوا أن يصفوا هذه الخبرات في مقولات الفكر، والإحساس، والتصور، والشعور؛ تبين أن من المستحيل أن يفعلوا ذلك. وانتهى مارب إلى أنه قد وقف على نوع من التجربة جديد على علم النفس، أطلق عليه الاسم الرائع: Bewusstseinslage

أى «هَيْئَةُ الشعور» lay of consciousness وأحسن تعبير لها بالإنجليزية يبدو أنه :
وجهة شعورية . conscious attitude .

فلما أن تكررت تجربة مارب على يد بيلر Bühler (ولد سنة ١٨٧٩ وهو الآن أستاذ في فينا) بعد سنوات قليلة — مع فارق : وهو أن مسائل معقدة قد أدخلت على الموضوع بدلا من البسيطة جداً — كان هناك خبرة أكثر تستحق التقدير . وفي عدة تجارب ناجحة ، أكد بيلر تأكيداً تاماً وجهات مارب الشعورية ، وأفكار بنيه اللاصورية imageless thoughts كأحسن ما يمكن أن تسمى به في الإنجليزية .

وسأذكر اثنين من بين أعضاء طائفة كيليه : آخ Ach و واط Watt اللذين قاما بتجربة زمن الرجوع reaction time مُستخدِمين طريقة الاستبطان الجديدة ؛ وأعنى بها مطالبة الشخص بعد كل استجابة أن يصف تجربته . أما آخ Ach (المولود في سنة ١٨٧١ ، والآن خليفة ميلر في جيننجن) فقد درس الرجوع البسيط ، وهو تجربة مألوفة ، تجري في ساحة البطولة في كل مرة عند ما يبدأ سباق الجري : فثمة علامة مُعدة ، ينحني لها المتسابقون للقفز إلى الأمام ، ثم بإطلاق مسدس أو أى منبه آخر يقفزون فعلا إلى الأمام بأقل ما في وسعهم من بطء . أما في المعمل ؛ فإن حركة الأصبع تحل محل وثبة الجسم كله إلى الإمام ، وقد يكون التنبه ضوءاً أو صوتاً ، وينتهي السباق عند ما يكون العقل قد بدأ حقيقة . لأن ما يقاس بأجزاء الألف من الثانية به هو الزمن الذي ينقضي بين المنبه وأول حركة . تجربة موضوعية خالصة إلى حد كبير ؛ ولكن علماء النفس قد تأملوا بطبيعة الحال ما يجري من العمليات بين المنبه والاستجابة ، وفوّنت قد قال : إن « من الواضح » أن هناك إدراك المنبه تصحبه إرادة الحركة . وقد سأل آخ أشخاصه — بعد استجابتهم مباشرة — أن يتذكروا ويسجلوا خبرة استجابتهم . وتدل معلوماته على أن إرادة الحركة ، ومحاولتها ، والتصميم على التحرك بكل سرعة ممكنة ؛ كل ذلك يأتي قبل المنبه ، وأنه جزء من التمهيد للمنبه . فإذا حصل هذا التمهيد ، استدعى المنبه استجابته بطريقة آلية ؛ حتى لم يكن هناك عادة خبرة تذكر عن فترة الرجوع ذاتها . فالذي وجد هو خبرة التأهب قبل المنبه ، وربما وجدت خبرة مختلفة في نوعها بعد الاستجابة : أما في أثناء زمن الاستجابة ذاته — الذي لا يستغرق في العادة أكثر من خمس ثانية — فلم يكن ثمة خبرة يمكن أن نقف عليها .

ويمكن أن نعتقد بصحة مثل ذلك في حالة الذي يجرى بالعلامة . فإشارة الاستعداد يصبح منحنيًا ومتشوقًا ، وتنتبه إرادته حتى نهايتها قبل أن يطلق المسدس - في غير حاجة إلى تذييلها بعد الطلقة . ولو حدث لتخلف المتسابق عند البدء .

أما واط Watt (١٨٧٩ - ١٩٢٥) ؛ تلميذ اسكتلندي في معمل كيليه ، والأستاذ بجللاسجوفيا بعد) فقد درس نوعاً من الاستجابة أكثر تعقيداً ؛ هو ما نسميه الرجوع الارتباطي associative reaction . فالتنبيه كلمة تعرض على الفحوص ، والاستجابة كلمة يقولها هو . وفي ارتباط مضبوط - كالذي استخدمه واط - كان على كلمة الاستجابة أن تقوم في علاقة معلومة مع كلمة التنبيه . ربما لزم أن تكون مرادفاً ، أو نقيضاً ، أو جزءاً من الشيء الكلي المذكور ، أو كلاً الذي ذكر جزء منه ؛ في درجة أعلى ، أو أدنى ، أو درجة ترابط ... إلخ . وبدلاً من مجرد إشارة استعداد ، يعين المحرب لموضوع تجربته مهمته قائلاً : اذكر عكس كذا ، أو : اذكر جزءاً من كذا ... إلخ ، ثم بعد فترة قصيرة يقدم المحرب كلمة التنبيه الحقيقية مثل : شمال ، أو : منزل . وإجابة الفحوص يجب أن يحكمها كلا كلمة التنبيه والعمل المعطى . فلو أنني نطقت كلمة « عال » كنتنبيه ، دون أن أعين عملاً خاصاً ؛ فستكون حرراً في أن تقفز في أى جهة شئت ، وفقاً للحدوث النسبي ، والخبرة ، وقوة ارتباطاتك . ربما ظن بعضكم : « كرة عالية » - وإن كنت لا أمل ذلك - وربما كان أحسن : « كنيسة عالية » أو « ضوء عال » أو « سماء » أو « جبل » أو « طائرة » . أما إذا مهدت لكم بتعيين « الأضداد » كعمل ؛ فسوف تجيبون جميعاً في غير تردد « منخفض » ، فالتمهيد يعمل بكل كفاية في هذه الأحوال .

وقد بحث واط عن الخبرة التي تحدث خلال هذه الاستجابات الارتباطية ، ووجد - مرة أخرى - أن الخبرة التي كان يدق بها عن فترة التمهيد أوسع منها عن الرجوع الحقيقي . فإذا كان الشخص جديداً على هذا النوع من التجريب ؛ فإن إعدادة لإعطاء صنف مقابل أو صنف أعلى يمكن أن يكون هو الخبرة . هو قد يمر على حالات من النوع المطلوب ، أو هو قد يبرزها لنفسه . فإذا نجح في إعداد نفسه بدرجة كافية قبل أن تصدر كلمة التنبيه ، وإذا لم تكن كلمة التنبيه صعبة جداً ؛ فاستجابته ستكون آلية تقريباً . فما إن يتعود على هذه الأعمال حتى يصبح استعدادة نفسه أكثر آلية وأقل خبرة .

وقد أقر آخ وواط أهمية الاستعداد للاستجابة . ويمكن أن نسميه — متذكّرين
اكتشاف ميلر المماثل Einstellung — استعداداً ، أو تلاؤماً ، أو تهيؤاً . فإذا مثلنا
لمرور الوقت بخط أفقي يمتد من اليسار إلى اليمين ، وإذا وضعنا على هذا الخط
علامة س للدلالة على إشارة الاستعداد ، وعلامة م للدلالة على المنبه ، وعلامة ج
للدلالة على الاستجابة ؛ فإن الزمن س م يسمى فترة الرجوع السابقة ، والزمن م ج
الفترة الأساسية . الفترة السابقة هي زمن التأهب ، والفترة الأساسية هي وقت التنفيذ .
وما بينه آخ وواط هو أن معظم الجهود والتجربة الحية — ومعظم الفعل الحقيقي
لا شك — إنما يحدث في الفترة السابقة . ونستطيع أن نفكر في الكائن العضوي
وكأنه يأخذ أهبتة لشيء أولى منه في حالة حياد وسلب .

س

م

ج

الفترة السابقة

الفترة الأساسية

ومع أن المنبهات أحياناً ما تفتجأ الكائن العضوي حين تدغمه في حالة لا تأهب ؛
فإن معظم الاستجابات مأخوذ لها أهبتها . لأن الكائن العضوي متلائم من قبل مع
الموقف ، ومشارك بمعنى ما في المنبهات التي يستجيب لها . وحقيقة التأهب أو الوضع
هذه حقيقة لها الأهمية الأولى في فهم السلوك . ولا شك أن هذا اللون من الحقائق
هو أقوى ما قدمت جماعة كيليه من الباحثين .

وما توصلوا إليه غير ذلك ، أن أخذت حالات الشعور بوجه عام على أنها تُقدم
حقيقة واقعة من الخبرة ، وإن لم تكن بالضرورة حقيقة أولية . ومن الممكن أن
يكون الشعور بالتردد أو حالة التردد — مثلاً — شعوراً بحالة جسمية ، يمكن أن
تنحل إلى إحساسات بالتوازن ، والتعدد العضلي ، ثم الحركة . وقد أثبت العمل
الاستبطاني بعد أن هذه ربما كانت الحالة .

والفكر بلا صورة imageless thought — ثالث اكتشافات جماعة كيليه
الكبرى — قد لقي أكبر شك وانتقاد . هو — كحقيقة غامضة للخبرة — كان يؤكد
غالباً ؛ أما إذا نُظر إليه كمجرد نتيجة سلبية ، فله قيمة — على الأقل — في إظهار
أن التفكير لا يقوم في اللعب أو التلاعب بالصور . فالأشياء التي نفكر فيها ليست

بالضرورة مصورة أو مسماة ، وقد يكون الفكر واضحاً تماماً ومحددأ بأغراض الصور فقط . ولكن أتباع « الفكر بلا صورة » لم يقنعوا بأخذ نتائجهم سلبية خالصة ، أو كمجرد تصحيح هادئ للمذهب المأخوذ به من قبل في الكيمياء العقلية — بأحاسيسه الأولية وصوره ومشاعره — وإنما أصر بعضهم على أنه قد اكتشف عنصراً جديداً — أو أكثر من هذا — صنفأ كاملاً جديداً من العناصر — عناصر الفكر أو عناصر الصلة relation elements . ومثل هذا الادعاء كان من الضروري أن يوقظ أصحاب المذهب القديم ، وأن يثير بحدة مسألة ما إذا كان المنهج الاستبطاني الجديد صحيحاً ؛ وما إذا كان يسمح — بدرجة كافية — بنتائج أساسية لما وصل إليه . وكان هذا النقاش عنيفأ حوالى ١٩١٠ ، وكان له علاقة بالظهور المحدود لبعض مدارسنا المعاصرة . فأخذت المدرسة الوجودية شكلاً محددأ ؛ برّد الفعل الذى قامت به ضد « الفكر بلا صورة » . وتشكك كثير من أصحاب وسط الطريق ، ومالوا إلى اعتبار الاستبطان مجرد نوع ساذج من الملاحظة ؛ جيد — إلى حدود — ولكن لا يتوسع به ولا يُركن إليه في تحليل دقيق . وكرد فعل لذلك ألغى السلوكيون الاستبطان من أساسه . وقال علماء النفس الجشططتيون إن الصعوبة في محاولة استخدام الاستبطان كأداة للتحليل ، واقتروا التخلي عن الكيمياء العقلية أصلاً ، والعناصر الحسية وعناصر الفكر كذلك . لقد كانت الخصومة حول الفكر بلا صورة مفرق طرق في نظرية علم النفس * .

المدرسة الوجودية في علم النفس الاستبطاني :

لقد كنت أتكلم الآن ، وكأن النزعة الوجودية ظهرت حوالى ١٩١٠ ، بينما يرجع تاريخها في الواقع إلى ما قبل ذلك ؛ أى إلى فونت وماخ وأفيناريوس (١٤) Avenarius في القرن التاسع عشر . فقد أصر هؤلاء النظريون — في محاولة التمييز بين علم النفس

(*) أنا نفسى قدقت بدراسات شبيهة في استقلال عن أتباع كلبه — وإن كانت في نفس الوقت معهم غالباً — وتوصلت إلى نفس نتائجهم . لقد وجدت الدليل على الفكر بلا صورة imageless thought وظللت دائماً مقتنعا بأنه حقيقة — وإن كنت أستطيع الآن أن أقول لعلماء النفس الجشططتيين إن الحديث عن عنصر الفكر "thought element" لم يعمل لأى مقصد حسن وعمدى أن فكرة « الفكر بلا صورة » ليست معدومة ولكنها فقط نائمة في أيماننا هذه — وهى فيما يبدو لى مهمة لديناميكا التفكير كما هى مهمة لوصف خبرات التفكير . (المؤلف . هامش)

والفيزيقا — وكلاهما مشتبه من حيث هو يقوم على معطيات الحس التي يقف عليها الملاحظون من الناس — أصرروا على القضية التي تقول بأن الفيزيقا تنظر بعين الاعتبار إلى الدلالة الخارجية للخبرة الحسية ؛ بينما علم النفس يعتبر الخبرة وكأنها متعلقة بالفرد المحرب . وصيغة خاصة أخرى كانت تقول إن الفيزيقا تأخذ الخبرات الشخصية دليلاً على الحقائق التي تختفي وراءها ؛ بينما علم النفس يقدر الخبرات فقط لذاتها . وصيغة ثالثة ، هي أن الفيزيقا تربط حقائق الخبرة بعضها إلى بعض ؛ بينما علم النفس يربطها بالشخص المختبر . وعلى أي حال ، فقد كان علم النفس هو علم خبرة الفرد *The science of the individual's experience* . ولما كان الهدف الأساسي للعلم هو الوصف ؛ فقد اتخذ علم النفس هدفاً له وصف خبرة الفرد . وكان يرمى إلى تحليل الخبرات ومقارنتها وتصنيفها وترتيبها في نظام دقيق . فكانت الخبرات تدرس وكأنها موجودات *existences* ، وكأنها حقائق تستحق الوصف والتحليل والتصنيف على حسابها الخاص . وبعبارة أخرى ، إن علم النفس الوجودي كان يجد متعته في الفرد كصاحب خبرة *experiencer* وليس كقائم بفعل *performer* . وكانت خبراته ذات متعة لعالم النفس — لا لما يمكن أن تلقى من ضوء على ما يقوم به من فعل ؛ على نحو ما استعان ميلر بحقائق الاستبطان في إيضاح عملية التذكر — بل على أنها الموضوع الأساسي للدرس .

لقد كان منهج البدء في علم النفس هو منهج التأثير *meth. of impression* الذي بدا أنه يكشف عن الخبرات الأولية للفرد . أما منهج الاستبطان فكان ينظر إليه في شيء من الأمل أن يصف خبرات أكثر تعقيداً . وكانت المسألة الوحيدة ما إذا كان منهج الاستبطان يمكن أن يُعول عليه في إعطاء صورة صحيحة للخبرات الشخصية .

وقد حُدد لعلم النفس الوجودي ذاك بصورة رسمية بأواخر القرن التاسع عشر . إلا أنه كخطة عمل منظم في العمل يمكن أن يؤرخ له بعمل أتباع كيليه ، ورد فعل هذا العمل من جانب تيتشر *Titchener* وغيره . فإن فونت — مع أنه عالم نفسى استبطاني مشهود له — لم يكن يحب استبطان الصورة الذي أخذ به معمل كيليه ، فقال إنه غير علمي — أو على الأقل — ليس جديراً بأن يوضع إلى جانب النموذج الأسمى للملاحظة العلمية . فن الناحية المثالية ، الملاحظ العلمي في أهبة وتناول للحقيقة الجزئية التي عليه أن يلاحظها ؛ وعينه في المقراب *telescope* مستعدة لتسجيل اللحظة

الدقيقة حين يعبرُ النجم خطَّه الرقيق hair line . ولا يثق العلم بالملاحظات العارضة — التي تبين علم النفس في الواقع أنه لا يمكن الركون إليها ، فمنهج التأثير في مساواة مع الملاحظة العلمية الأخرى ما دام انتباه الشخص موجهاً منذ البدء إلى المادة عينها التي يجب ملاحظتها . فأنت في تجاربك على التفكير لا تستطيع إلى حد ما أن تخبر مقدماً عما تبحث عنه ؛ فإن العملية متغيرة ولا يمكن الإخبار عنها ، ولا تستطيع أن تُعَيِّن أى طريق سوف ينطلق فيه الفكر ، كما لا تستطيع جيداً أن تضع لموضوع تجربتك مشكلة تذكّر أين توجد كلكتنا ؛ وتسأله مقدماً أن يلاحظ ما إذا كان يرى صورة خريطة الهند وهو يكتشف إجابته ، وللسبب عينه لا تستطيع أن تكرر ملاحظة ما — لأن عملية الفكر لا يمكن تكرارها — والمفكر لا يستطيع أن يبحث عن إجابة هي من قبل في ذهنه . وانتهى فونت إلى أن الدراسة الاستبطانية لعملية التفكير في المعمل تبشر قليلاً بنتائج علمية . والصعوبة جوهرية هي أنه بينما كان للملاحظ في منهج التأثير — كما في معظم الملاحظة العلمية — مهمة خاصة هي الملاحظة ؛ فإن له في الاستبطان مهمة مزدوجة ، إذ يجب عليه أن يفكر ويحكم ، ويتذكر ، ثم يدور ويلاحظ خبرته فيما يقوم به من عمل . يجب عليه أن يفعل شيئاً حتى يكون لديه شيء يتأمله في باطنه . وجواب بيلر Bühler على هذا النقد هو أنه في الحقيقة والواقع كان الشخص يبدو أن لديه صعوبة قليلة ، وأن ملاحظات أشخاص مختلفين قد أجمعت إلى درجة كافية على تقرير شيء من الثقة . وتنتشر (1876-1927) Titchener (١٣) — تلميذ فونت وداعيته في أمريكا — كان قبل كل شيء استبطانياً متحمساً ، وبالتالي قوى الأمل في كل جديد من المحاولة لبسط استخدام الاستبطان في علم النفس . ولكنه لم يستطع أن يقبل « الفكر بلا صورة » ، ووضع يده على صعوبة خطيرة في المنهج ؛ مأخوذاً على أنه منهج وصف الخبرة . فالشخص عندما يدلي بما جرى في ذهنه أثناء عملية حل مشكلة ؛ فهو عرضة لأن يستخدم تعبيرات مثل : « ثم إنى فكرت في » كذا وكذا من الأشياء ، أو « ثم تذكرت أن » كذا وكذا هي الحال ؛ فأصر تيتشنر على أن إعطاء ما يفكر فيه الشخص ليس معناه وصف خبرة الشخص أثناء التفكير . فنحن في الحياة العادية نستخدم اللغة للدلالة على الأشياء والمواقف الخارجية أكثر مما نستخدمها للتعبير عن أحاسيسنا وأفكارنا وخبراتنا . نحن ننظر ونقول : « أنا أرى أنها تنجلي » أكثر من قولنا : « إن ميدان بصرى في معظمه بقع رمادية ، ولكن

بمساحات قليلة زرقاء متقطعة » . وطريقتنا في الدلالة على الأشياء من التأصل بحيث لا نستطيع بسهولة أن نتخلى عنها حين نحاول أن نصف خبراتنا في تجربة باطنية . فإن عادتنا اللغوية توقعنا في خطأ التقرير ، الذى يمكن أن نطلق عليه خطأ الدلالة الخارجية error of objective reference . فنحن نقرر ما تدل عليه أفكارنا بدلا من أن نصف مضمونها . وخطأ الدلالة الخارجية هذا هو في أساسه نفس ما سماه تشنر خطأ المنبه stimulus error في تجارب أكثر بساطة عن طريق منهج التأثير . فلنفرض أنك ترفع أبقالا ؛ وأنت تقول عن واحدة منها : إنها تحس كوزن ثقيل ؛ أو هب أنك تشم روائح وتقول عن واحدة منها : لا بد أن تكون هذه « نعناعاً » peppermint ؛ فإنك تتحدث عن أشياء تحكم بوجودها ، ولكنك لا تصف الخبرة الخاصة التى تكسبها منها . والوسيلة الوحيدة لتجنب خطأ الدلالة الخارجية هذا ؛ هو المران الطويل تحت نقد عالم نفس باطنى متشدد . وأوفق شخص لتجربة الاستبطان هو ملاحظ جدّ متمرن ، وقليل في الواقع الملاحظون الذين تبلغ تقاريرهم درجة تشنر في دقة وصف الخبرة — على حد ما نشر من كتابات علماء النفس الباطنيين .

ولنلاحظ هنا أن التأملات الباطنة العادية التى يستطيع أن يقوم بها أى واحد منا، مثل : « هذا قد أذكرنى ذاك ، وذاك قد تأدى بي إلى الإجابة المطاوعة » تظهر (هذه التأملات الباطنة العادية) شيئاً مما يجرى في عملية التفكير ؛ حتى ولو لم تكن مؤدية إلى تحليل دقيق للخبرة الشخصية . فهى تعين على دراسة أداء التفكير إن لم تُعنى على تحليل خبرة التفكير .

ومن عجب أن يوجد أن الاستبطان يخدم سيكولوجيا الفعل psychol. of performance أكثر مما يخدم سيكولوجيا الخبرة psychol. of experience . وعلم النفس الوجودى — كما نغنى به تشنر — لا يعنى بالفعل ، وإنما يعنى فقط بالخبرة . ودون إنكار لأهمية دراسة الفعل ؛ هو يترك للآخرين هذه الدراسة ، اعتقاداً منه أن تقدم علم النفس الخالص إنما يقوم في قصر انتباهه على وصف الخبرة الشخصية . ويحاول علم النفس الوجودى أن يتناسى المعانى والقيم وكل ما يشير إلى شىء فيما وراء الخبرة التى توصف ، ويعتقد تشنر أن علم النفس الوجودى هو النموذج وحده الذى يستطيع أن يحتل مكانه كعلم خالص إلى جانب الفيزيقا وعلم الحياة ؛ التى هى الأخرى — فى ميادينها الخاصة — تعنى قبل كل شىء برؤية ما فيها .

وعلم النفس الوجودى فى الوقت الحاضر ، هو مثال أو برنامج للبحث أولى منه أى شىء يشبه أن يكون هيكلًا كاملاً للمعرفة . وبين يديه نتائج منهج التأثير ، منظورا إليها ، إلى حد ما — لا لما تلقى من ضوء على الحواس وعلى آلية الحس — بل فقط كأشكال أولى للخبرة الشخصية . هو يبدأ عمله من الحس ؛ محاولا توحيد العناصر الحسية التى ترابط فى مجموع خبرات معقدة . فإذا بدت مناقشاته بعض الشىء خافية esoteric ، فجواب الوجودى هو أن ذلك صحيح أيضاً فيما يتعلق بذات العمل فى الفيزيقا أو أى علم آخر يصرف النظر عن المعانى الشائعة والقيم العملية حتى يتوصل إلى نواح ملتصقة بالحقائق الواقعية للطبيعة . بيد أنه يبدو أن يكون ضرباً من التعسف حتى لأكثر الوجوديين ضميراً أن يظل فى عزلة عن الفرد كفاعل performer . ولعله يستريح غالباً إلى الاعتراف بسيكولوجيا الفعل إلى جواره مباشرة ، وكأنها على أقل تقدير — لون من الدراسة وثيق الصلة (بدراسته) . وهكذا — بينما يهزأ السلوكى بعلم النفس الوجودى ولا يعترف له لحظة بصحة دعواه فى أن يكون علماً بحق — إذا بالوجودى لا يجد ما يقوله عن السلوكية أسوأ من أنها ليست من علم النفس فى شىء ؛ وإنما هى بالأحرى قطعة من الفيزيولوجيا .

تعليقات

على الفصل الثاني

١٠٨٨-١٢١٤ من الترجمة الإنجليزية
وكتاب تورتوال C.T. Tourtual : حواس
الإنسان Die Sinne des Menschen
(١٨٢٧) . والكتاب الذى أظهره
تريثيرانوس G.R. Treviranus باسم
أقوال فى تشريح وفيزيولوجيا أعضاء
الحس فى الإنسان والحيوان Beiträge
zur Anatomie und Phys. der Sinnes-
werkzeuge des Menschen und der
Thiere (١٨٢٨) الكراسية الأولى
كلها فى العين ، ويبدو أن تريثيرانوس
لم ينشر غيرها . والقاموس الفزيولوجى
لشجنر R.Wagner : Handwörterbuch
der Phys (١٨٤٦) ج ٣ قسم ٩ ص ص
٢٦٤ - ٣٥١ . ثم خصوصاً كتاب
يوهانس ميلر J. Müller : فى
المقارنة بين فزيولوجيا حاسة البصر فى
الإنسان والحيوان مع بحث حركات
العين ، وفى النظر الإنسانى
Vergleichen den Physio. des Ges-
ichtssinnes des Menschen und der
Tiere nebst einem Versuch über
die Bewegungen der Augen und
über den menschlichen Blick
(١٨٢٦) فى ٤٦٢ صفحة .
ومن أهمها أيضاً كتاب هلمهولتس

(١) البصر : من أهم ما كتب
فى دراسة حاسة البصر كتاب البصريات
Optiks لنيوتن (١٧٠٤) فهو أول
دراسة علمية لهذه الحاسة ، ثم كتاب
بل Ch. Bell : تشريح الجسم
الإنسانى Anatomy of the Human
Body (١٨٠٣) ج ٣ ص ص
٢٢٤ - ٣٧٢ (والكتاب كله فى أربع
مجلدات ليجون وتشارلز بل يشغل الكلام
عن البصر منه الموضوع الذى ذكرنا)
واشتينبوخ J. G. Steinbuch :
قول فى سيكولوجيا الحواس Beitrag
zur Psychol. der Sinne (١٨١١)
ص ص ١٤٠ - ٢٧٠ ، وكتاب
پوركينى J. E. Purkinje ملاحظات
وبحوث فى سيكولوجيا الحواس . Beoba-
chtungen und Versuche zur Psy-
chol. der Sinne (١٨١٩-١٨٢٥)
فى مجلدين . وكتاب بورو C.A. Burrow
أقوال فى فزيولوجيا وفيزيقا العين الإنسانية
Beiträge zur Physio. und Physik des
menschlichen Auges (١٨٤١) . وكتاب
ميلر Müller : مختصر فى فزيولوجيا
الإنسان Handbuch der Physio. des
Menschen (١٨٣٨) ج ٢ الكتاب
الخامس ، القسم التاسع ص ص

فقد كتب تشريحاً مقارناً للأذن أسماه :
 في أذن وسمع الإنسان والحيوان De aure
 et auditu hominis et animalum
 (١٨٢٠) ، كما كتب : فيزيقا الصوت
 Physics of Sound (١٨٢٥) . كما
 كتب هلمهولتس كتاباً في إحساسات
 النغم الصوتي Sensations of the Tone
 (ترجمة انجليزية منذ ١٨٧٥ وما
 بعدها) . راجع أيضاً شيفر ص ص
 ١١٤٩ - ١٢٣٦ وناجل ص ص
 ٤٧٦ - ٤٨٨ وأوجدن R.M. Ogden
 السمع Hearing (١٩٢٤) .
 (٣) في الشم : راجع : بل ؛
 المرجع المذكور ص ص ٤٥٤ - ٤٥٧
 وميلر : كتاب ٥ قسم ٣ ص ص
 ١٣١٢ - ١٣١٨ (الترجمة الإنجليزية)
 وقاموس فجنر ج ٢ (١٨٤٤) ص
 ص ٩١٦ - ٩٢٦ . وهيكرافت
 Haycraft في مجموعة شيفر (ص ص
 ١٢٤٦ - ١٢٥٨) وناجل (ص ص
 ٥٨٩ - ٦٢٠) .
 (٤) في الذوق : كتاب بل
 المذكور (ص ص ٤٥٨ - ٤٧١)
 واشتينبوخ (٣٠٠ - ٣٠٣) ، وميلر :
 الكتاب الخامس ، القسم الرابع ،
 الترجمة الإنجليزية ص ص ١٣١٨ -
 ١٣٢٥ ، وقاموس فجنر ج ٣ قسم ٩
 (١٨٤٦) ١ ، ٢ وفي مجموعة شيفر
 (هيكرافت ص ص ١٢٣٧ - ١٢٤٥)
 وفي ناجل : (ناجل ٦٢١ - ٦٤٦) .
 (٥) وفي اللمس : نفس

Helmholtz : مختصر في البصريات
 Handbuch der physiologischen Optik
 الطبعة الثالثة من الترجمة
 الإنجليزية (١٩٢٤ - ١٩٢٥) . راجع أيضاً
 مقالة ريفترز W.H.R. Rivers في شيفر
 Schäfer ص ص (١٠٢٦ - ١١٤٨)
 واشنك Schnek وناجل Nagel وثون
 كريس Von kries واتست D. Zoth في
 ناجل ؛ الأول في مجموعته : متن في
 الفزيولوجيا Text-book of physiology
 ج ٢ (١٩٠٠) والثاني في ص ص ٣٠ -
 ٤٧٥ من كتاب مختصر فزيولوجيا الإنسان
 Handbuch der Phys. der Menschen
 (١٩٠٥) .

ومن الكتب الحديثة كتاب پارستز
 J.H. Parsons : مدخل لدراسة إحصار
 الضوء Introduction to the Study
 of Colour Vision (١٩١٥) وكتاب
 ترولانند L. T. Troland : الحالة
 الحاضرة لعلم البصريات The present
 Status of Visual Science وفيه فكرة
 واضحة ممتازة عن الدراسات البصرية
 السابقة .

(٢) في السمع : راجع : بل
 J & Ch. Bell ص ص ٢٧٣ -
 ٤٥٣ ، واشتينبوخ : ٢٧٠ - ٣٠٠ ،
 وميلر : المختصر ٥ قسم ٢ ص ص
 ١٢١٥ - ١٣١١ الترجمة الإنجليزية .
 وقاموس فجنر ج ٤ (١٨٥٣) ص ص
 ٣١١ - ٥٤٠ . أما فيبر E.H. Weber
 الذى اهتم بالسمع عندما كان في ليبستك

نفس (١٩١٥) . إلا أن أهميته
السيكولوجية ترجع لدراساته في حاسة
الشم Der Geruch فقد نشر عنها في مجلة
علم النفس الألمانية Zsch. f. Psychol.
أعداد ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ أربع
مقالات (١٩١٥ - ١٩١٦) وفي هذا
العام نفسه أخرج كتاباً عن الشم ،
فكان أهم كتاب ظهر في هذا اللون من
الدراسة منذ اتسفارديماكر Zwaarde-
maker حتى ظن زمنياً أن تصنيفه
للشموم الذي أورده فيه يُعد فتحاً
لدراسة واسعة في هذا الميدان ، وإن
لم يتحقق هذا الظن كله ، لأن نظريته
كانت في أساسها تقريبية ، كما
أظهرت دراسات دودج Rey. Dodge
وجريفيث G. R. Griffith فيما بعده .
إلا أنه عاد منذ ١٩٢٤ إلى نشر بحوث
أخرى عن حاسة الشم ، فنشر في برلين
(١٩٢٥) كتابه الكبير : سيكولوجيا اليوم
Psychol. der Gegenwart كما نشر
بحوثاً واختبارات في دراسة الشخصية :
Experimentelle و Charakter-tests
Charakterstudien بمختلف المجالات
العلمية في ألمانيا وباريس ١٩٢٦ -
١٩٢٧ .

(٧) إبنجهاوس (هِرْمَن)

H. Ebbinghaus (١٨٥٠ - ١٩٠٩)
ولد لتاجر في بارمن قرب بون
التي لحق بجامعة وهو في السابعة عشرة
لدراسة التاريخ والفيلولوجيا ، ثم
هجراها - كعادة الطلاب الألمان في

المراجع : بل : ص ص ٤٧٢ -
٤٨٠ واشتينبوخ ص ص ٥٣ - ١٤٠
وميلر : كتاب ٥ فصل ٥ (ص ص
١٣٢٤ - ١٣٣٢ من الترجمة الإنجليزية) ،
وخصوصاً كتاب فيبر E.H. Weber
اللمس : دراسات تشريحية وفزيولوجية
De tactu: annotationes anatomica
et physiologica (١٨٣٤) ، ومقالته :
اللمس والحساسية العامة Der Tastsinn
und das Gemeingefühl في قاموس
فجر الثالث (١٨٤٦) ص ص ٤٨١ -
٥٨٨ ، وقد طبعت هذه المقالة على
حدة سنة ١٨٥١ وما بعدها .

(٦) هيننج (هانس كارل

فرديناند) H.K.F. Henning ولد في
اشتراسبورج في فبراير ١٨٨٥ ،
واختلف إلى جامعتي فرايبورج ،
واشتراسبورج ، ثم زيورخ وبرلين ،
حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة
سنة ١٩١٠ وعين معيداً لعلم نفس
الحواس في برلين ، فساعداً في جامعة
فراנקفورت (١٩١٤ - ١٩١٦)
فمعيداً (١٩١٦ - ١٩٢٢) حيث
صار أستاذاً مساعداً سنة ١٩٢٢ . وفي
هذه السنة عين أستاذاً لعلم النفس
والفلسفة والتربية في مدرسة الفنون
العليا ، حيث صار مديراً لمعهد مدرسة
الفنون العليا السيكلوجي .

وقد كتب منذ ١٩١٢ في تحليل نظرية
المعرفة ، وفي فلسفة كانت وجيته ،
وارنست ماخ كفيلسوف وفيزيقي وعالم

وبالاستعانة بمنهجى التعلم-Erlernungs-
Ersparnismethode والبواقي methode
فى قياس الذاكرة التجريبي .

وفى سنة ١٨٨٠ عَينَ معيداً فى برلين
وراح يُعيد تجاربه فى الذاكرة ليتحقق
منها؛ ونشر حينئذ كتابه المذكور (سنة
١٨٨٥) وفيه دراسات للتعلم والاكتساب
والنسيان وعلاقتها بالزمن ، ومنحني
النسيان المعروف . وهى دراسة مثال
فى الوضوح والدقة وحسن العرض العلمى
حتى إنه لشهرته بهذا الكتاب عين سنة
١٨٨٦ أستاذاً مساعداً فى برلين ،
فترك دراسة الذاكرة ليستمر بها «میلر»
وغيره .

واتجه نشاطه بعد ذلك إلى ميادين
أخرى : فأنشأ مجلة لعلم نفس
وفيزيولوجيا الحواس (١٨٩٠)
مع أرتور كنيج Arthur König
واستعان بهلمهولتس ، ولپس Lipps
وفون كريس Von Kries وميلر
واشتمف وغيرهم فى توجيه هذه المجلة
وجهةً خارجة على فونت . ولإبنيهاوس
نظرية فى إبصار اللون ، كما نشر سنة
١٨٩٧ فى برسلو (التي ظل فيها حتى
١٩٠٥) منهجاً جديداً لاختبار قدرة
الأطفال العقلية وتوزيع ساعات
العمل للتلاميذ ؛ وهى ما يسمى الآن
Ebbinghaus Completion Test ولعله
أثر به بعض الأثر (عن طريق نشرته
الفرنسية الموجزة له) فى أفكار بنيه .
كما أنه نشر سنة ١٨٩٧ الجزء الأول

الهجرة والتنقل — إلى هَلَّى ثم إلى
برلين (١٨٦٧ — ١٨٧٠) . ولما عاد
من الحرب البروسية الفرنسية — التى
اشترك فيها كما اشترك ميلر — حصل
سنة ١٨٧٣ على الدكتوراه فى الفلسفة
فى رسالة له عن فلسفة فون هارتمن
فى اللاشعور .

ورحل بعد ذلك فى دراسات حرة
إلى برلين ثم إلى فرنسا وانجلترا — حيث
وقف فى باريس على كتاب فيختر
فى العناصر Elemente الذى استرعى
نظره فيه ما أحرزه علم النفس التجريبي
من تقدم فى دراسة الحواس بفضل
منهج فيختر . وعلى منهج هذا الكتاب
— دون الاتصال بمؤلفه — شرع يدرس
مشكلة قياس الذاكرة ؛ كما يدل على
اتجاهه هذا فى ذلك الحين كتابه :
Ueber das Gedächtniss فى الذاكرة
الذى بين فى الفصل الأول منه الشروط
التي يجب تحقيقها لقياس الذاكرة ،
ومنها كثرة التكرار كشرط أساسى
للارتباط ؛ مبيناً أن هذا التكرار ذاته
يمكن أن يعين على قياس الذاكرة .
وفيه يظهر تأثره بمنهج فيختر وبالارتباطيين
الإنجليز ، وإن كانت له فيه
جدته وأصالته . وهو — فيما يبدو —
مخترع مقاطع الكلام التى
لا معنى لها nonsense syllables
جمع منها حوالى ٢٣٠٠ مقطعاً مثل :
zat ، bok ، sid ... إلخ فى قوائم للتعلم ،
وهذه القوائم ، وبالشعر ؛ بدأ بنفسه

كما سار بدراسة البصر والذاكرة بعد هرنج Hering وإبنجهاوس — أخذها فنقدتها وصححها ووسعها وتقدم بها .

ويعد ميلر إحدى الخطوات الرئيسية في علم النفس التجريبي منذ بدأه فخر (١٨٦٠) فقد نشر رسالته في الدكتوراه عن الانتباه الحسي - Zur Theorie der sinnlichen Aufmerksamkeit

في ١٣٦ صفحة (١٨٧٣) في نفس السنة التي نشر فيها اشتمف نظريته في إدراك المكان ، وكلاهما بحث تجريبي ولكن بحث ميلر كان أطرف وأدق وأشمل . وكان ميلر منذ تعرف بفخر في لپتسك لا يزال على صلة به ، فاتجها إلى البحث في منهج السيكوفيزيقا ؛ وكان من نتيجة ذلك رسالة ميلر لإجازة التدريس Habilitationsschrift — كما تسميها جامعات ألمانيا في مقابل كلمة agrégation الفرنسية — واسمها : Zur Grundlegung der Psychophysik (نشرت في برلين ١٨٧٨) فجعلت هذه الرسالة — ومقالة أخرى طبق فيها منهج حالات الخطأ والصواب Methode der richtigen und falschen Fälle (سجلات جمعية الفزيولوجيا ١٩ — ١٨٧٩ ص ١٩١ — ٢٣٥) — نقول جعلتنا من ميلر منهجياً في علم النفس .

ومن أهم ما كتب ميلر غير هذا

من « خطوط علم النفس الرئيسية » Grundzüge der Psychologie ونشر قسّمه الثاني سنة ١٩٠٢ وأعاد طبعهما سنة ١٩٠٥ ؛ ولم يتم الكتاب لما لاقاه من النجاح المنقطع النظير . إلا أن أهم ما يذكر به إبنجهاوس آراؤه في الذاكرة ومنهجه في قياسها ؛ مع وضوح كتابته ، ودقة عرضه ، وأثر شخصيته في معاصريه .

(٨) ميلر (جورج إلياس)

G. Elias Müller ولد في جريما Grimma بسكسونيا في ٢٠ يوليو ١٨٥٠ ، واختلف إلى جامعة لپتسك (١٨٦٨ — ١٨٦٩) ثم جامعة برلين (١٨٦٩ — ١٨٧٠) ثم عاد إلى لپتسك فجتجنج حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٨٧٢ — ٧٣ واشتغل معيداً في جتنجنج (٧٦ — ٨٠) وظل بها — منذ ١٨٨١ ، بعد أن قضى هذه السنة أستاذاً في تسرنوقنس Czernowitz — أستاذاً لعلم النفس حتى ١٩٢٢ حيث اعتزل العمل .

لم يترك ميلر إذن جامعة جتنجنج إلا سنة واحدة (١٨٨٠) فكان له فيها معمل ممتاز يشبه معمل فونت في لپتسك ، حتى قال عنه أحد زواره من الأمريكان : إنه أحسن معمل للبحث في ألمانيا كماها ، وربما لم يسبقه إلا معمل لپتسك . وقد أصبح «ميلر» بعد «فخر» صاحب السيكوفيزيقا ،

منهج التنبهات الثابتة Meth. of Constant Stimuli السيكوفيزيقي الذي ندين فيه إلى فخنر (١٨٦٠) وميلر (١٨٧٩) واسپيرمن (١٩٠٨) وأوربن (١٩٠٩). فبدلاً من قياس الاستجابات مفردة؛ نصنفها ونحدد تكرار حدوث كل صنف منها في كل خطوة من المنبه، وبتقسيم مرات التكرار كلها على عدد المرات التي حصلنا فيها على الاستجابة الجزئية نحصل على الاطراد أو الحدوث النسبي relative frequency لأنواع مختلفة من الاستجابة للمنبه. فإذا قلنا إن الاطراد النسبي ٣٨٪ دل ذلك على حدوث الاستجابة في ٣٨ مرة من مائة لمنبه بعينه (ودورث: علم النفس التجريبي ص ص ٤٠٠ - ٤٠٢). وهذه إحدى طرق الحصر computation - حصر متوسط أو نسبة مئوية - كالحصر الحسابي عند اسپيرمن arithmetical comput. والجمع العددي summation عند السيكوفيزيقيين.

ومقالات بنيه في السنة السيكولوجية Ann. psy. (خصوصاً في المجلد الأول ١٨٩٤ ص ص ١ - ٢٣ مع هنري V. Henri والمجلد ١٤-١٩٠٨ ص ص ١ - ٩٤ مع سيمون Th. Simon) تبين دقته وتحرره من الفلسفة في دراسته للذكاء التي اصطبغت دائماً بصبغة التجريب.

نظرية في التوتر العضلي Theorie der Muskelkontraktion نشرت بمجلة العلوم في جتنجن (١٨٨٩)، ومع شومَن Schumann: أقوال تجريبية في أبحاث الذاكرة Experimentelle Beiträge zur Untersuchungen des Gedächtnisses في مجلة علم النفس الألمانية ١٨٩٣ عدد ٦ ص ١٩٢. وله في مجلة علم النفس الألمانية هذه مقالات عدة عن سيكوفيزيقا الإدراك البصري - Gesichtsempfindungen (١٧٩٧) ونظرية في الذاكرة - مع پلِتسكِر A. Pilzecker Farben-إدراك اللون - (١٩٠٠) وفي إدراك اللون - Farbenempfindungen (١٩٣٠) والتمييز بين أنواع من العمى اللوني Verschieden Typen der Farbenblindheit جتنجن (١٩٢٤) إلى غير ذلك من البحوث الهامة في علم النفس التجريبي تجد عرضاً لها في سجل مرتشيزون الثالث ص ص ٨٥١ - ٨٥٢ وفي تاريخ بورنج ص ص ٣٧٢ - ٣٧٣ A. Binet (٩) بنيه (ألفرد) (١٨٥٧ - ١٩١١) أعظم عالم نفس تجريبي في فرنسا. بدأ مع بوني H. Beaunis أول معمل سيكولوجي فرنسي، وأنشأ أول مجلة فرنسية في علم النفس. كان كثير الإنتاج في دقة وعناية، وله أهمية ظاهرة في اختبارات الذكاء؛ ففي سنة ١٩٠٨ انتهى بنيه إلى منهج ملائم لقياسه، وهذا المنهج يشبه - في أساسه -

لا إلى كنيجز برج Königsberg — أقرب جامعة له — بل إلى لبيتسك — لدراسة التاريخ — وهناك التقى بثونت الذى حوله إلى الفلسفة أولاً . ثم إلى علم النفس التجريبي ثانياً ؛ وفعمله فى ذلك الحين طفل له من السن عامان بعد ميلاده فى لبيتسك . إلا أن كيلبه عاد بعد سنة ليدرس التاريخ فى برلين ، وتركها بعد سنة أخرى إلى ميلر فى جيتنجن . وظل معه ثلاث سنوات ، بدأ فيها يعد رسالة فى الشعور feeling على غرار دراسة ميلر واشتمف النظرية للانتباه وإدراك المكان . وتأرجح مرة أخرى بين علم النفس والتاريخ ، فذهب إلى دُربات Dorpat يدرس عليه التاريخ ؛ وعاد بعدئذ إلى قونت مرة أخرى فى لبيتسك سنة ١٨٨٦ ؛ وظل معه ثمانى سنوات .

وفى ١٨٨٧ حصل على درجته فى الدكتوراه فى نظرية فى الإدراك الحسى Zur Theorie der sinnlichen Gefühle وبعد ذلك بسنة صار معيداً . ثم قدم لإجازة التدريس Habilitation دراسة نظرية أخرى : نظرية الإرادة فى الفلسفة الحديثة Die Lehre von Willen in der neueren Philosophie ، وأصبح منذ ذلك الحين مساعداً ثانياً لثونت — بعد كتل Cattell الذى عاد بنفسه — كما عين نفسه من قبل — إلى أمريكا (نشرت رسالته هذه فى : « د.اسات فلسفية » فى مجلدة واحدة) .

ذكره پترسن Joseph Peterson ثلاثاً وثلاثين مقالة كتبها وحده ، وإحدى وعشرين كتبها بالاشتراك مع غيره من العلماء . (راجع كتابه الأفكار والاختبارات الأولى للدكاء - Early Conceptions and Tests of Intelligence ١٩٢٥ ص ص ١١٧ - ٢١٤) وراجع ما كتبه عنه كلاپارد فى سجلات علم النفس Arch. de psy. مجلد ١١ (١٩١١) ص ص ٣٧٦-٣٨٨ وأيضاً السنة السيكولوجية ١٨ (١٩١٢) ص ص ١ - ١٤ لسيمون Th. Simon وخصوصاً كتابيه : سيكولوجيا كبار العدادين Psychol. des grands calculateurs (١٨٩٤) والدراسة التجريبية للدكاء L'etude expérimentale de l'intelligence (١٩٠٣) .

(١٠) كيلبه (أوزفلد) O. Külpe (١٨٦٢ - ١٩١٥) هو - كإبنجهاس - من أئمة علم النفس الحديد ، وإن كان هو - كما كان قونت قبله - عالم نفس فيلسوف ، بمعنى أن سيكولوجياه متأثرة بالفلسفة ؛ كما يشبه قونت مرة أخرى فى محاولة إخضاع الفكر وسائر العمليات العقلية لقوانين المنهج التجريبي .

ولد كيلبه فى كانداو Candau بولاية بلاتونيا - التى هى حينئذ من أعمال روسيا - بالقرب من بروسيا الشرقية ، فكانت أسرته كلها ألمانية فى تفكيرها واتجاهها ، وذهب سنة ١٨٨١ -

(١٩٠٧ ، ١٩١٠ ، ١٩١٣ ، ١٩١٥) وترجمه إلى الإنجليزية بلزبرى وتشنر ١٨٩٧ ، ١٩٠١ ، كما ترجمه إلى العربية الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى ١٩٣٨ ، كما أن كيليه نشر : فلسفة اليوم في ألمانيا Die philosophie der Gegenwart in Deutschland (١٩٠٦) الذى وصل إلى ست طبعات وترجمة إنجليزية (١٩١٣) .

وقد نشر قائمة من ستين عنواناً من كتابات كيليه بويمكر C. Baumker في سنوية أكاديمية العلوم Jahrbuch d. bayer. Akad. d. Wiss (١٩١٦) ص ص ٧٣ - ١٠٢ (جمعها كارل بيلر K. Bühler . كما نشر زميل لكيليه قائمة كتاباته كلها في سنوية جامعة لودفيج مكسميليان بميونخ (١٩٢٧) - ولكن هذه المراجع يصعب الحصول عليها - ونجد في مجلة علم النفس الأمريكية (٢٧ - ١٩١٦ ص ٢٩٦) أسماء ست كتب وإحدى عشرة مقالة له . كما نجد في تاريخ علم النفس التجريبي لبورنج (١٩٢٩ - ص ص ٤٢٥ - ٤٢٦) سبعة وعشرين كتاباً ومقالة ظهرت بين سنتي ١٨٨٧ (وهى رسالته فى الدكتوراه - التى تحوى نشرتها المستقلة فيما بعد تاريخ حياة المؤلف) حتى آخر كتاب له سنة ١٩١٥ - الأخلاق والحرب Die Ethik und der Krieg - بل حتى محاضراته فى علم النفس Vorlesungen

وشارك كيليه حينئذ فى دراسة مشاكل علم النفس القائمة لعهدده ؛ ومنها زمن الرجوع فى الحركات اليدوية فى رسالة هامة له بعنوان Ueber die Gleichzeitigkeit und Ungleichzeitigkeit von Bewegungen (دراسات فلسفية ٦ . ٧ - ١٨٩١) كما كان يفكر وهو فى لبيتسك فى كتابة كتاب فى علم النفس التجريبي أكثر وضوحاً وبساطة من كتابات فونت التى كانت تزداد تعقيداً ؛ فنشر سنة ١٨٩٣ كتابه : تصميم علم النفس Grundriss der Psychologie الذى ترجمه تشنر إلى الإنجليزية (١٨٩٥) ونشر على منواله كتاباً ؛ وفيه عرف كيليه علم النفس - على الطريقة الثوتية - بأنه علم حقائق الخبرة of experience وقال باعتماد حقائق الخبرة هذه على الأفراد المختبرين (المجربين) .

وبعد هذا الكتاب عين كيليه أستاذاً مساعداً فى لبيتسك ، ولم ينفى العام حتى نال كرسى الأستاذية فى فيرتسبورج ؛ فترأس مدرسة «الفكر بلا صورة» Imageless Thought ؛ وصار التفكير - إلى جانب التاريخ وعلم الجمال - أهم شاغل له ، فنشر حينئذ كتابه الرائع المدخل إلى الفلسفة Einleitung in die Philosophie (١٨٩٥) الذى طبع سبع مرات حتى وفاة صاحبه (١٨٩٥ ، ١٨٩٨ ، ١٩٠٣ ،

من المقالات في «دراسات فلسفية»،
ومجلات الفلسفة وعلم النفس الأمريكية
والفرنسية والألمانية. راجع في كيليه
وهسرل كتاب شريدر H. Schröder:
نظرية التفكيرين كيليه وهسرل
Die Theorie des Denkens bei Külpe
und Husserl (١٩٢٤).

(١١) مارب (كارل) K. Marbe
ولد في باريس في ١١ أغسطس ١٨٦٩
ولحق بجامعة فرايبورج وبرلين وبون
وليبتسك - حيث قضى خمس سنوات
حصل بعدها على الدكتوراه في الفلسفة
من بون (١٨٩٣) - وفيما بين
(١٨٩٦-١٩٠٥) عين معيداً للفلسفة في
جامعة فير تسبورج. ثم صار أستاذاً
مساعداً فأستاذاً سنة ١٨٠٩ ثم مديراً
بالداخلية Geheimer Regierungsrat
وأخيراً صار أستاذاً في أكاديمية
فرنكفورت (١٩٠٥-١٩٠٩). وله حتى
١٩٢٩ تسعة وأربعون مؤلفاً ومقالة في السنة
السيكولوجية Ann. psy. ومجلة علم النفس
الألمانية Zch. f. Psych. وغيرها؛ تجد
تصنيفها الكامل حتى ١٩٣٢ في
سجل مرتشيزون الثالث ص ص
٨٤٥ - ٨٤٦.

(١٢) بيلر (كارل) Karl Bühler
ولد في مكسهايم Meckesheim في
بادن Baden في ٢٧ مايو ١٨٧٩.
لحق بجامعة فرايبورج (١٨٩٩ -
١٩٠٣) حيث نال الدكتوراه في الطب،
ولحق بجامعة اشتراسبورج ١٩٠٣ -

über Psychologie (١٩٢٠) التي
نشرها له كارل بيلر، وأعاد
نشرها سنة ١٩٢٢ متضمنة مقال
كيليه عن: في سيكولوجيا الفكر
الحديثة Ueber die moderne Psy-
cho. des Denkens (شهرية العلم والفن
والعمل الدولية Inter. Monatschr. f.
Wiss. Kun. u. Techn. ص ٦ ص ص
١٠٦٩-١١١٠س ١٩١٢). وأهم ما في
قائمة بورنج غير ما ذكرنا: أي الأخلاق
اليوم أحسن؟ Welche Moral ist
heutzutage die beste (١٩٠٠) ومقاله
في نشرة مؤتمر علم النفس التجريبي
الأول (١٩٠٤) عن: بحث في
التجريد Versuche über Abstraktion
ص ص ٥٦ - ٦٨ وكتابه عن
عثمانويل كانت (١٩٠٧) الذي أعيد
نشره سنة ١٩٠٨، ١٩١٢ ومقالاته في
سيكولوجيا نظرية الحس Gefühlslehre
في مؤتمر الفلسفة الدولي الثالث ١٩٠٨
وفي مؤتمر علم النفس الدولي الرابع ١٩٠٩
وكتابه نظرية المعرفة والعلم الطبيعي
Erkenntnistheorie and Natur-
wissenschaft (١٩١٠). وكتابه
الضخم: التحقيق: قول في أساس
العلوم الواقعية Die Realisierung:
ein Beitrag zur Grundlegung der Real-
wissenschaften في ثلاث مجلدات نشرها
بعد موته مسر Messer (١٩٢٠-١٩٢٣)
وعلم النفس والطب Psychologie und
Midizin (١٩١٢) - وكثير غير هذه

أشبهه بميلر...

ولد من أسرة عريقة في جنوب إنجلترا كان يفخر بها ، ولكن قلة مواردها في أيامه جعلته يعتمد على مقدرته في الحصول على المنح المدرسية لتعليمه — فكان دائماً يستأجر بها — وبعد كلية ملفرن ذهب إلى أكسفورد (١٨٨٥) حيث ظل خمس سنوات درس الفلسفة في الأربع الأولى منها ، وترجم الطبعة الثالثة لعلم النفس الفزيولوجي لثونت Physiologis- che Psychol. — ولم ينشرها — بل حملها معه إلى ليطسك في السنة التالية ليدرس على ثونت نفسه . وتأثير ثونت القوي حصل على الدكتوراه بعد سنتين من صحبته ، ولم يذهب بعدئذ إلى أكسفورد — إذ لم يكن ثمة لعلم النفس الفزيولوجي نشاط كبير — وإنما عاد إلى كورنل Cornell في أمريكا فتولى المعمل الذي كان قد فتحه منذ عام فرانك انجل F. Angell . ثم تركه ليروح إلى جامعة استانفورد الجديدة — وقضى بقية حياته (٣٥ سنة) في كورنل هذه .

وأخذ تتشرف نفسه في السنوات الأولى ببحث قوى علم النفس الجديد فنجح في فصله تماماً عن الفلسفة ، وفي الإكثار من الكتابات الإنجليزية فيه ، فترجم وأصحابه كتب ثونت وكيليه ، وكتب هو كتابيه : مختصر في علم النفس Outline of Psychol.

(١٩٠٤) حيث نال الدكتوراه في الفلسفة : ثم بجامعة برلين وبون (١٩٠٤) — (١٩٠٥) . عين معيداً بجامعة ميونخ (١٩١٣-١٩١٨) فأستاذاً بمدرسة الفنون العليا في درسدن (١٩١٨) — (١٩٢٢) فأستاذاً بجامعة فينا منذ سنة ١٩٢٢ . وتولى رئاسة تحرير : أبحاث سيكولوجية Psycholo- gischen Monographien وبحوث المؤتمر Congressberichtes . ومساعدة تحرير مجلة علم النفس الألمانية ، ومجلة علم النفس العام الإنجليزية (١٩٢٨) وله كتب ومقالات كثيرة تجدها في سجل مرتشيزون الثالث (١٩٣٢) ص ص ٥٨٧ — ٥٨٨

(١٣) تتشرف (إدوارد برادفورد) Ed. B. Titchener (١٨٧٦ — ١٩٢٧) إنجليزي مثل النزعة الألمانية في أمريكا . اتصل بكيليه في ليطسك وكانت بينهما موازاة ومشابهة في أن كليهما من أتباع ثونت ، وأنه ترك ليطسك في أوائل السنوات التسعينية ليستمر بدراسات ليطسك في معامل جديدة . ترجم هو كتاب كيليه : التصميم Grundriss بعد ظهوره بستين (١٨٩٥) وكتب مثله كتاباً . وكلاهما في مطلع القرن الجديد قد كَوّن له مدرسة من أتباعه بنشر مؤلفات تلاميذه على طريقتهم الخاصة في التفكير ولكن تشرف يختلف عنه وعن ثونت في تركه كل أثر فلسفي ، فهو بهذا

الفعل performance لا الخبرة
الشعورية experience . ومن هنا كانت
أهمية تتشر كنهجى فى تاريخ علم النفس .
وأهم مرجع للقارئ عن تتشر هو
مجلة علم النفس الأمريكية Amer.
J. of psychol. التى طالما كتب فيها : فى

حياته بورنج مجلد ٣٨ - ١٩٢٧ ص ص
٤٨٩ - ٥٠٦ . ومايرز C.S. Myers
مجلة علم النفس البريطانية ١٨ (١٩٢٨)
ص ص ٤٦٠ - ٤٦٣ ؛ وفى حياته فى
لييتسك - أنجل F. Angell مجلة علم
النفس التكوينى الأمريكية ١ -
١٩٢٨ ص ص ١٩٥ - ١٩٨ .

وفى تصنيف كتبه الكامل راجع
فوستر W. S. Foster : دراسات فى
علم النفس Studies in psychol
تتشر التذكارى Titchener Comme-
morative Volume (١٩١٧) ص
ص ٣٢٣ - ٣٣٧ ؛ حتى ١٩١٧ ،
ودلنباخ K. M. Dallenbach فى مجلة
علم النفس الأمريكية ٤٠ - ١٩٢٨
ص ص ١٢٠ - ١٢٥ حتى وفاة
تتشر .

وفى قائمة أسماء تلاميذه الذين حضرُوا
عليه لدرجة الدكتوراه : دلنباخ أيضاً
K.M. Dallenbach فى مجلة علم النفس
الأمريكية مجلد ٣٨ - ١٩٢٧ ص
٥٠٦ . راجع أيضاً : بورنج :
تاريخ علم النفس التجريبي ص ص
٤٠٢ - ٤١٨ ، ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(١٤) أفنايوس (رتشرد)

(١٨٩٦) ومبادئ علم النفس Primer
of psychol. (١٨٩٨) ثم أنشأ
معملًا عمل فيه بنفسه وتلاميذه الذين
اتسعت دائرتهم ، فشملت بلزبرى
واشبرن وبنتل وغيرهم ؛ وأصدر أكثر
من ثلاثين بحثاً .

وأعظم ما كتب تتشر : علم النفس
التجريبي. Experimental psychol. الذى
رمى فيه إلى إنشاء العلم الجديد
وإثبات قيمته العلمية ، ودروس
التمرينات drill courses - كما
سأها - اللازمة كأساس للبحث فيه .
ولما فرغ منه اتجه لمسائل الشعور
والانتباه ، والتفكير ، فظهرت آراؤه فيها
فى كتابيه : سيكولوجيا الشعور والانتباه
Psychology of Feeling and Atten-
tion ١٩٠٨ وعلم النفس التجريبي لعمليات
التفكير Exacri. psychol. of Thought
processes (١٩٠٩) . وفى هذه السنة
نشر كتابه متن فى علم النفس
Text-book of psychol. الذى ضمنه كل
سيكولوجيا التجريبية .

وقد مثل تتشر فى أمريكا علم النفس
الاستيطانى الخالص الدقيق . فرفض
الحيوانات والأطفال والمرضى
كموضوعات لدراسة علم النفس -
لأنها لا تستطيع أن تستبطن ، أى
لا يعول عليها فى الإدلاء بنجراتها
فى ملاحظات - وهذا ما يعنيه هو
بالاستيطان كنهج ، مما جعله يرفض
السلوكية واختبارات الذكاء التى تعالج

صحته ومات بعده بقليل .
 راجع كتابه . وفي تاريخ حياته راجع
 هـرالدهيفدينج H. Höffding : الفلاسفة
 المحدثون Moderne Philosophen
 (١٩٠٥) صص ١١٧-١٢٧ (١٣٠-
 ١٤٠ الترجمة الإنجليزية) ودى لاكروا
 Delacroix مجلة الميتافيزيقا والأخلاق
 Rev. de Mét. et de Mor. السنة الخامسة
 (١٨٩٧) صص ٧٦٤ - ٧٧٩ والسنة
 السادسة (١٨٩٨) صص ٦١-١٠٢

R. Avenarius (١٨٤٣-١٨٩٦)
 أستاذ الفلسفة فى زيورخ (١٨٧٧-
 ١٨٩٦) وكان على نقيض ماخ فى
 طريقته وتعقيده، وإن تشابهت نظريتهما
 أخيراً : كلاهما حاول أن يتخلى عن
 الميتافيزيقا ويصبغ دراسته بالصبغة
 العلمية . وأهم كتبه : نقد الخبرة
 المجردة Kritik der reinen Erfahrung
 (ظهر فى مجلدين ١٨٨٨ - ١٨٩٠)
 الذى كلفه كثيراً من العناء ، فاعتلت

الفصل الثالث

السلوكية

لعل من الأجدى أن نركز دراستنا للسلوكية^(١) حول جون ب . وطسون ، تاركين الذين سبقوه حتى نرى ماذا يعنى بهذا اللفظ الحديد الذى استحدثه . فالسلوكية بالحدِّ ؛ يجب أن تكون فى تعاليمه ؛ أو قُلْ فى أصول تعاليمه ؛ ويكون من علماء النفس الآخرين جديراً باسم السلوكى من كان معه فى اتفاق . وبِقَدْر ما يتمتع كل عِلْمِ نفسى ببعض استقلال فى الفكر ؛ فإن عدد السلوكيين الخُلص وغير الخُلص محدود . ولكن هناك كثيرين يقتفون إلى حد كبير أثر وطسون ، وكثيرين تأثرت وجهات نظرهم به كثيراً . وفوق هذا فإن السلوكية قد تجاوزت حدود علم النفس إلى علم الاجتماع وإلى غيره ، وكانت تبدو أحياناً بما يشبه العقيدة أو الموجة الشعبية ، وكان ذلك نتيجة أن عالم النفس ذاته ليس لديه عن السلوكية - فى كل ما يتفرع عليها - علم خاص .

سلوكية وطسون :

ولد وطسون^(٢) سنة ١٨٧٨ ، وبدأ دراساته النفسية فى جامعة شيكاغو ؛ واستمر بها فى جونز هوبكنز Johns Hopkins ؛ عاملاً يحدِّد فى الحيوان ، وأخيراً فى سيكولوجيا الطفل . وكانت الثورة على النظام القائم فى علم النفس تحدثم فى نفسه طويلاً ، حتى يقول فى سنة ١٩١٢ : * « لقد انتهى السلوكيون إلى أنه لا يمكن بعد أن يقنعوا بالعمل فى اللامحسوسات والأشياء الغامضة . وقد صمموا على إحدى اثنتين : إما أن يتخلوا عن علم النفس أو يُجِبلوه علماً طبيعياً » . وقد توصل إلى ذلك قووت وغيره من التجريبيين فى محاولتهم أن يجعلوا علم النفس علماً يرتفع فى نظر وطسون إلى إحلال كلمة « شعور consciousness » محل « الروح soul » فى فلسفة العصور الوسطى ، بمجرد وضع لامحسوس موضع الآخر . وفى كتابه

* ج ب . وطسون : السلوكية . (روتدج ١٩٢٤) ص ٦٠

المسمى : السلوك : مقدمة إلى علم النفس المقارن - الذى نشر سنة ١٩١٤ -
حدد وطسون غرضه كالآتى :

« علم النفس كما يراه السلوكى هو شعبة تجريبية موضوعية خالصة من العلم الطبيعى . وهدفه النظرى هو التنبؤ بالسلوك وضبطه . وليس الاستبطان جزءاً رئيسياً من مناهجه ، ولا القيمة العلمية لحقائقه تقوم على استعدادها لأن تعبر عن نفسها بألفاظ الشعور ... ولعله لا بد قد حان الوقت الذى يَطْرَح فيه علم النفس كل إشارة إلى الشعور ، إذ لم تعد به حاجة بعد إلى أن يخدع نفسه فى حُساب أنه يجعل الحالات العقلية موضوعاً لملاحظته . . . من الممكن أن نكتب فى علم النفس ، وأن نعرفه بما عرفه به بلزبرى Pillsbury^(٣) من أنه «علم السلوك science of behavior فلا نرجع القهقرى فى التعريف ، ولا نعود قط إلى استخدام ألفاظ : الشعور ، والحالات العقلية ، والذهن ، والمضمون ، والإرادة ، والصور وما شابهها... فإن من الممكن أن تؤديها ألفاظ : المنبه والاستجابة ، وكلمات : تكون العادة ، وتكامل العادة ، وما أشبهها ... فى الأصل كانت الرغبة فى مثل هذا العمل كله لاكتساب معرفة دقيقة بالتكيفات ؛ والمنبهات التى تثيرها وغاية ذلك أن نتعلم الطرائق العامة والخاصة التى يمكن أن يُضَبَط بها السلوك ... فإذا سار علم النفس على هذه الخطة المقترحة ؛ فإن علم التربية ، والفيزيقي ، والقانوني ، ورجل الأعمال يمكن أن ينتفعوا بحقائقه فى ناحية عملية ، بالقدر الذى يمكن أن تحصل به من الناحية التجريبية والذين يتاح لهم أن يطبقوا مبادئ علم النفس من الناحية العملية لن تكون بهم حاجة إلى الشكوى كما يفعلون فى هذه الآونة .

« فالذى يُقَوِّى أملنا فى أن يكون موقف السلوكى موقفاً حصيناً ، هو أن فروع علم النفس هذه ؛ التى قد نشأت فى جزء منها عن الأب - علم النفس التجريبي - والتي هى تبعاً لهذا أقل اعتماداً على الاستبطان ؛ هى اليوم فى أزهر حالة . فالبيداجوجيا التجريبية ، وسيكولوجيا المخدرات psychol. of drugs ، وعلم النفس للإعلان psy. of advertising ، وعلم النفس القضائي legal psychol. ، وعلم نفس الاختبارات psychol. of tests ، وعلم نفس تشخيص الأمراض psychopathology ؛ كل أولئك نشء قوى ... وكل ما يوجد فى هذه العلوم المنظمة من خطأ ؛ هو أن مادتها ما تزال تعرض فى مصطلح الاستبطان ، بينما عرضها فى ألفاظ ذات دلالات خارجية لا بد أن يكون ذا قيمة أكبر .. فإذا فعلنا ذلك ؛ فإن

العمل . . على الكائن الإنسانى سوف يمكن أن يُقرَن مباشرة بالعمل على الحيوانات .»

وكما تستطيع أن تحكّم مما اقتبسنا فى الفقرة السابقة ، لم تقفز السلوكية — على نحو ما فعلت مينرغا — كاملة النعمن رأس جويبتر ، وإنما نشأت بالتدريج فى باطن علم النفس . أو بصورة أخرى ، يمكن أن نقول : إن ظهور السلوكية فى سنة ١٩١٢ — ١٤ كان له علله المهيّئة والمباشرة ؛ على نحو ما يميز الطبيب العقلى فى تتبع أصل إصابة بالجنون . أما المهيّئة فكانت البحوث فى دراسة السلوك التى عرضت منذ طويل فى مناهج موضوعية ، وكانت تعرض بنسب متزايدة . وأما العلل المباشرة أو المثيرة فكانت الموقف الغامض لعلم النفس الموضوعى ذاك تحت التعريف المأخوذ به فى علم النفس ، والوصمات التى ألحقها به الاستبطنيون ، ومضايقات أخرى شبيهة كانت تكتنف فى ذلك الحين عالم النفس الحيوانى ، وعالم النفس فى الاختبارات ، وعالم النفس التجريبي الذى كان همه الفعل أكثر منه الخبرة . وسنستطيع أن نفهم الظاهرة المسماة بالسلوكية فهماً أحسن إذا نحن شئنا أن نرجع قليلاً فيما قبل سنة ١٩١٢ ، ورأينا ما كان يُتخذ لظهورها من " أسباب التهيؤ " والاستعداد .

فتعريف علم النفس بأنه علم الشعور — دون الخروج عن حدود الشعور — لم يقبله بإخلاص علماء النفس الأمريكيون ، وإن رضوا بهذا التعريف على وجه صورى . لقد لصقوا فعلاً بالتقليد القديم ، وما زالوا يجدون لذة فى فاعليات العقل وفى أفعال الفرد ووظائفه أكثر من خبراته بصفة خاصة . وأساطين علم النفس الأمريكى الثلاثة حوالى سنة ١٩١٠ كانوا : وليم جيمس فى هارفرد ، وجورج ترمبول لاد G. Trumbull Ladd فى ييل Yale ، ج استانلى هول G. Stanley Hall فى جامعة كلارك . كتب لاد^(٤) عن الآليات السيكولوجية فى الحياة العقلية ، وكتب هول^(٥) عن نشوئها فى الطفل وفى الجنس ، أما جيمس فنظر إليه على أنه أبو علم النفس المعروف حينئذ « بعلم النفس الوظيفى Functional psychology » . وفى ذلك الحين قامت خصومة كبيرة بين علم النفس الوظيفى Functional والتركيبى structural الذى يرمى إلى وصف الشعور وتحليله ؛ فى حين أن الأول يرمى إلى إظهار الدور الذى يقوم به الشعور فى حياة الفرد . فكان علم النفس الوظيفى يبحث فى كشف أى مطالب الكائن العضوى يصادف الإدراك الحسى ، والصور العقلية ، والانفعال ، والتفكير . وحاول أن يتنبأ

— بما أخذ به من وجهة نظر تطورية — في أى درجة من درجات تقدم الجنس أصبحت الحاجة إلى كل عملية عقلية من المساس بدرجة تكفى لأن تؤدي إلى ظهور هذه العملية الخاصة . وبطريقة عامة ، قالوا إن العمليات العقلية العليا تصادف حاجة إلى تحكم في البيئة أوسع وأقهر . ومن هنا كان علم النفس الوظيفي يرمى إلى أن يجعل لعلم النفس مكاناً في ميدان البيولوجيا العام .

وقد كان علم النفس الوظيفي قوياً ومعنياً به خصوصاً في جامعة شيكاغو ، على يد جون ديوى John Dewey^(٦) (المولود في سنة ١٨٥٩) وأنجل J. R. Angell (المولود في سنة ١٨٦٩) ، والأخير* تلميذ جيمس ؛ وهذا النوع من علم النفس هو الذى تدرّب عليه وطسّون في شيكاغو . فكان يبدو له — إلى حد ما — أنه يسير فقط إلى منتصف الطريق ، ثم هو يظل توفيقاً غير منسجم بين علم النفس التركيبي وعلم البيولوجيا بالمعنى الصحيح . وهو يقول⁺ :

« لقد شهدت الخمس عشرة سنة الأخيرة نشوء ما يسمى علم النفس الوظيفي... ويعبر عنه في ألفاظ يبدو أنها تشبث بالدلالة البيولوجية لعمليات الشعور أكثر مما تصر على تحليل الحالات الشعورية إلى عناصر يمكن عزلها بطريقة الاستبطان . والفارق بين علم النفس الوظيفي وعلم النفس التركيبي — كما أوضح الحالة من قبل الوظيفيون functionalists " هو فارق " لا يمكن تعقله . فالألفاظ : إحساس ، وإدراك ، وعاطفة ، وانفعال ، وإرادة يستخدمها الوظيفيون بالقدر الذى يستخدمها به التركيبون » .

وإلى جانب محاولة الوظيفيين هذه لمراجعة تعريف علم النفس بموازاته بالبيولوجيا ؛ كان هناك قدر كبير من العمل التجريبي لأولئك الذين وجدوا متعة فيما كنت أسميه سيكولوجيا الفعل psychol. of performance . وإلى مثل ذلك يشير وطسّون في المكتبة الأولى التى ذكرنا من قبل ، عند ما يتحدث عن علم النفس التجريبي وسيكولوجيا الاختبارات ... إلى غير ذلك . ومنه يُظن أن كلِّ مثل هذا العمل الموضوعى حديث جداً ، وأنه أيضاً قد أُفسد في جزء منه بالاستبطان . وترجع

* وجهة النظر الوظيفية يمثلها خير تمثيل أنجل Angell في كتابه : علم النفس : دراسة مهيّدة لتركيب الوعي الإنسانى ووظيفته Psychology: An Introductory Study of the Structure and Function of Human Consciousness. (Henry Holt & Co. 1904)

الاختبارات الموضوعية تماماً والمتحررة من الاستبطان إلى جالتون Galton في حوالي ١٨٨٠ . فقد نشطت الدراسات الموضوعية لعملية التفكير في السنوات التسعينية . وربما يُورَّخ لها قبل ذلك بدراسة إبنجهاوس المشهورة للذاكرة في ١٨٨٥ دراسة موضوعية خالصة . ولكن حتى جالتون وإبنجهاوس ليسا أهلاً لأن يُعدَّ مؤسسين لعلم النفس الموضوعي ، لأننا ما زلنا نجد قبلاً بواكير الموضوعية الخالصة في العمل في زمن الرجوع ؛ وكثيرٌ من العمل في الإدراك الحسي — الذي أجرى ببساطة منهج التأثير — يمكن تماماً أن يعد دراسة موضوعية لدقة ملاحظة الفرد . وإذن فالمنهج الموضوعي قد استخدم منذ البواكير الأولى لعلم النفس التجريبي ، ومبلغ البحث الذي أُجرى بهذه الطريقة حتى سنة ١٩٠٠ أو ١٩١٢ كان كبيراً جداً في الواقع . وكما رأينا من قبل ، لم يكن علم النفس يُحد من الناحية العملية بدراسة الخبرة الشخصية ؛ فقد كان لدراسة الفعل الكفة الراجعة ، وحتى علماء النفس الذين أهابوا كثيراً بالاستبطان — أمثال ميلر وكيبله — قد استخدموه عن سعة لما كان يلقي من ضوء على الفعل .

النزوع ما قبل السلوكي إلى تعريف موضوعي لعلم النفس :

وسيكولوجيا الفعل — على ما كان لها من نشاط في المعامل — قلما أصبحت دقيقة من حيث التعريف فيما أعلم ؛ حتى خطاب كتل Cattell في سانت لويز سنة ١٩٠٤ . وكتل^(٨) (المولود في سنة ١٨٦٠) ، كان تلميذا لاستانلي هول Stanley Hall ، ولكن خصوصاً لفونت الذي عمل في معمله سنوات عدة ، ثم أخيراً عمل مع جالتون وقتاً ما وأصبح مغرماً بتنمية اختبارات قياس فعل الفرد في أوسع وجهات ممكنة . وبدأ كتل معاملة علم النفس في بنسلفانيا وكولومبيا . أما عن مؤتمر سانت لويز العالمي سنة ١٩٠٤ فكان معاهدة للفنون والعلوم ، قدّم كل فرع من فروع المعرفة فيه أحد أعلامه البارزين ، متعهداً أن يقدم لموضوعه تعريفاً ؛ وطلب إلى كتل أن يعرف علم النفس . وسأقتبس شيئاً من خطابه * :

« تحدثنا كتبنا التمهيدية في الواقع أن علم النفس هو علم العقل science of mind وأن العقل والمادة هما أكثر أشياء العالم تغيراً واختلافاً ... والفرقة بين العقل والمادة هي

* ج . ماك . كتل ، في شهرية العلوم الشعبية Popular Science Monthly ، مجلد ٦٦ ، ١٩٠٤ ، ص ١٧٦ — ١٨٦ .

إحدى الكلمات الأخيرة لفلسفة لم توجد بعد ، أولى من أن تكون مسألة
خبرية شائعة يمكن أن يقوم عليها تعريف مبدئي ...

«وأكثر من هذا ؛ لا أومن أن علم النفس يمكن أن يُحدَّد بدراسة الشعور في
مجموعه، بالقدر الذي يمكن به عزله عن العالم الطبيعي... أنا أعجب بنتائج مدرسة
هربارت^(٩) Herbartian school ، وبالدفقة المتزايدة أبدأً في التحليل الاستبطاني
منذ لوك^(١٠) Locke حتى وارد Ward^(١٠). فكل ذلك يَعِدُ فصلاً مهماً في علم النفس
الحديث ؛ وإن كانت النتائج العلمية الإيجابية قليلة في مجموعها إذا قورنت بالعمل
التجريبي الموضوعي الذي تم في الخمسين سنة الماضية . ليس ثمة تعارض بين
التحليل الباطني والتجربة الخارجية، بل على العكس من ذلك ؛ ينبغي - وفعلاً -
هما متعاونان باستمرار . ولكن الفكرة الشائعة نوعاً ما ؛ عن أنه لا علم نفس خارج
الاستبطان ؛ يرفضها الدليل القاطع لما توصلوا إليه من حقيقة .

«ويدولى أن معظم الأبحاث التي قمت بها أو «التي أجريت» في معمل هي تقريباً
بعيدة عن الاستبطان بعد العمل في الطبيعيات أو علم الحيوان (الزولوجيا) . فزمن
العمليات العقلية ، ودقة الإدراك والحركة ، ومدى الشعور ، والتعب والمران ،
والمصاحبات الحركية في الفكر ، والذاكرة ، وتداعى المعانى ، وإدراك المكان ،
ورؤية الألوان ، والميول ، والأحكام، والفروق الفردية ، وسلوك الحيوان والأطفال ؛
هذه وغيرها من الموضوعات قد كشفت عنها دون التجاء إلى أدنى استبطان من جانب
الشخص موضوع التجربة أو إجراء ذلك على نفسى أثناء مجرى التجارب ...
«ومن الصعب حقاً أن ننفذ بمثل ذلك إلى شعور الحيوانات الدنيا والبدئيين
والأطفال ، وإن كانت دراسة سلوكهم قد خضعت من قبل كثيراً وتبشر «بموضوع»
أكبر كثيراً ...

«وإذا أنا لم أومن بأن علم النفس يؤثر في السلوك ويمكن أن يطبق في وجوه نافعة ؛
إذن لاعتبرت مهمتى أدنى إلى مهمة لاعب الشطرنج المحترف أو مبتلع السيف
sword swallower منها إلى المهندس أو عالم الطبيعة . . . ولا أستطيع أن أعلل
لم لا يمكن أن ينتهى تطبيق المعرفة المنظمة على ضبط الطبيعة الإنسانية خلال القرن
الحالى إلى نتائج مساوية لتطبيقات العلم الطبيعي على العالم المادى في القرن
التاسع عشر» .

ولو أن وطسون قد وقف على هذا التصريح ؛ فربما اعتبره من كثر من التوافق

بحيث يرضيه ، ما دام هو قد اهتم — ليس فقط بترقية علم النفس الموضوعي — بل باستبعاد كل شيء آخر . وهو لنفس هذا السبب ، لم يعلق أهمية على آراء مكدوجل McDougall وپلزبرى Pillsbury في السنوات القليلة التالية ؛ فيما يتعلق بتعريف علم النفس بأنه علم السلوك . وسأقتبس من هؤلاء الكتاب في شيء من التطويل ، رغبة في إبراز حقيقة أساس علم النفس الذي ظهرت عنه السلوكية سنة ١٩١٢ .

وسيظهر لنا وليم مكدوجل فيما بعد على أنه رائد مدرسة القصد . فهو في كتابه الصغير عن علم النفس الفيزيولوجي* Physiological Psychology ؛ الذي نشر في سنة ١٩٠٥ ؛ يناقش تعريف علم النفس كالآتي :

« إن أحسن وأشمل ما يمكن أن يُعرف به علم النفس ؛ أنه العلم الوضعي لسلوك الكائنات الحية ... وبوجه أعم يُحد علم النفس بأنه علم العقل ؛ أو علم العمليات العقلية أو النفسية ، أو "علم" الشعور ، أو خبرة الفرد الشخصية . ومثل هذه التعريفات غامضة ، وبغير كبير تدقيق هي ليست شاملة بدرجة كافية . إنها تعبر عن أغراض علم النفس الذي يعتمد على الاستبطان وحده ، وعلى ملاحظة خبرته الخاصة وتحليلها ، والذي يهمل إلى حد كبير مظاهر الحياة النفسية التي يضعها بين يديه سلوك إخوانه من الكائنات fellow-creatures ... فتعريف علم النفس بأنه علم الخبرة أو الشعور معناه إذن أن نستبعد دراسة هذه العوامل اللاشعورية ؛ بينما التعريف الذي ذكرت آنفاً يُدخل كل هذه في محيط علم النفس من غير أن يستبعد دراسة أي جزء من الخبرة أو عنصر من الشعور ، لأن كل خبرة فهي تؤثر في السلوك » .

ويتابع مكدوجل حديثه في مقدمته إلى علم النفس الاجتماعي† Introduction to Social Psychol. ؛ الكتاب الذي قفز فجأة إلى المجد في سنة ١٩٠٨ ، وظلت له فائدته الجلي سنوات كثيرة ، يقول :

« يجب أن يقلع علماء النفس عن الرضاء بهذا الإدراك الجامد الضيق لعلمهم على أنه علم الشعور ، يجب أن يعلنوا عن غرضه في جرأة : أنه العلم الوضعي للعقل في كل وجوهه وأحواله الوظيفية ، أو — كما أفضل أن يقولوا — إنه العلم الوضعي

* نشره ج . م . دنت وأولاده . J. M. Dent & Sons.

† نشره ميثون وشركاه Methuen & Co. وجون لوس وشركاه John. W. Luce & Co.

للتدبُّر conduct أو السلوك behavior . يجب ألا ينظر علم النفس إلى الوصف الاستبطاني لحجى الشعور على أنه كل مهمته ، بل كجزء أولى من عمله فقط . فإن مثل هذا الوصف الاستبطاني ، أو هذه « السيكولوجيا المجردة » لا يمكن أن تنشئ علماء ، أو على الأقل لا يمكن أن ترتفع إلى مستوى علم تفسيرى ؛ ولا يمكن أن تكون هى نفسها ذات أثر كبير فى العلوم الاجتماعية . فالأساس الذى يتطلبه كل منها هو علم نفس فيزيولوجى مقارن يعتمد كثيراً على المناهج الخارجية ، وملاحظة سلوك الناس والحيوان بمختلف أنواعهم وفى كل ظروفهم الممكنة من صحة ومرض ... ولحسن الحظ هذا الإدراك الأكثر خصوبة لعلم النفس قد بدأ يتكشف .

أما بلزبرى W.B. Pillsbury (المولود فى سنة ١٨٧٢) فهو تلميذ تشرنر ، نشر فى سنة ١٩١١ كتابه « أصول علم النفس » Essentials of Psychol.* الذى سرعان ما أصبح إلى حد كبير أمثل مُتُون علم النفس فى كليات أمريكا . وربما كان تعريفه مقبولاً لدى الكثيرين من علماء النفس اليوم :

« حدِّ علم النفس بأنه « علم الشعور » ، أو بأنه « علم الخبرة منظوراً إليها من الناحية الذاتية » . ولكل من هذه التعريفات مزاياه ، وإن لم يسلم أحدها من اعتراض ... إن العقل يُعرف من أفعال الإنسان . ويمكن أن يُحد علم النفس بطريقة مُرضية أكثر بأنه علم السلوك الإنسانى .

« من الممكن أن يعالج الإنسان بالموضوعية التى تعالج بها أية ظاهرة طبيعية . ومن الممكن أن ينظر إليه من حيث ما يفعل فحسب . وغاية علمنا هذا أن يفهم الفعل الإنسانى منظوراً إليه من هذه الناحية . أما غايته من الناحية العملية فهو أن يحدد علامَ تثوقف المقدرة الإنسانية human capacity ، وأن يكشف فى ضوء هذه المعرفة عن وسائل تنمية كفاية الإنسان man's efficiency .

« وحتى لو نظرنا إلى فهم السلوك الإنسانى على أنه الغاية القصوى لعلم النفس ؛ فإن الشعور يجب أن يظل مضطرباً بدور مهم فى هذا العلم . ونعنى بالشعور انتباه الإنسان لأفعاله الخاصة وما يسبقها ... فالشعور لأول وهلة عامل مهم فى فهم السلوك وموضوع ممتع للبحث فى ذاته ... وفى الدور الحاضر من تقدم علم النفس ، يبدو من الخير أن نجعل الشعور تابعاً للسلوك . فعلم النفس هو علم السلوك ...

والسلوك إنما يُدرَس خلال شعور الفرد وبملاحظة خارجية .
 فالرأى « الذى يقول » باعتبار علم النفس علم السلوك الإنسانى يبدو أنه كان يأخذ طريقه رأساً عندما ظهرت السلوكية على المسرح . وكلمة : سلوك behavior كانت تبدو عريضة . بحيث تسمح بشمول مهمة علم النفس الباطنى كما تشمل مهمة الذين يعملون موضوعياً . أليس البصر أو السمع أو التخيل أو الشهوة طريقاً للسلوك ؟ فأن تسلك معناه أن تفعل بطريقة ما ، ولا شك أن البصر وبقيّة ما ذكرنا هى فاعليات الكائن العضوى . فلا تعارض بين السلوك والشعور كما لو كان على الحيوان ألا يشعر حتى يتبها له أن يسلك . ليس من شك فى أن السلوك أدنى إلى الفعل منه إلى الخبرة بما هى عليه ، ولكن الوجودى نفسه يقول إنه يدرس الخبرة « فى اعتمادها على الفرد » ، وذلك يشبه قولنا « كجزء من سلوك الفرد » .
 أما عند وطسون فإن السلوك والشعور متناقبان ، وحين يُعرّف علم النفس بأنه علم السلوك فإنه يريد أن يطرد ويستبعد من أساسه كل استبطان ، وكل رجوع إلى الشعور - وكما تصوّر ؛ كل علم النفس بما انتهى إليه حتى سنة ١٩١٢ .
 ولكى نرى لم نظر إلى المسألة على هذا الوضع ؛ يلزمنا أن نذكر أنه قد كان متخصصاً فى علم النفس الحيوانى ، ويلزمنا مرة أخرى أن نرجع إلى الوراثة سنوات قليلة لتتبع نشوء هذه الدراسة .

ثورندايك والنمو السريع لعلم النفس الحيوانى :

مع أن سلوك الحيوان قد كان موضع عناية كبيرة من البيولوجيين منذ عهد دارون Ch. Darwin ؛ فإنه يمكن بغير تردد أن نعزو إلى ثورندايك Thorndike (١١) إدخاله فى معمل علم النفس . وثورندايك (المولود فى سنة ١٨٧٤) مع أنه كان تلميذاً معترفاً به من كل من جيمس وكتل - فإنه يعد هو نفسه صاحب فكرة التجريب على غريزة الحيوان والتعلم . فقد بينَ مثلاً أن الفرخ الحديث الفقس إذا وضع فوق صندوق منخفض ، يقفز إلى الأرض بغير تردد ؛ فإذا وضع فوق صندوق يرتفع بضع بوصات فإنه يتردد ؛ أما إذا وضع فوق صندوق ارتفاعه قدم فإنه لا يقفز مطلقاً . وهكذا استجاب الفرخ للارتفاع - ثالث الأبعاد - دون أن تكون له فرصة تعلم هذه الاستجابة . وكجهاز لدراسة تعلم الحيوان : استخدم ثورندايك التواهات mazes ، وأقفاص الجساع trick-cages ، والمحسّيرات puzzle-boxes .

فإذا انتزع واحداً من بين الأفراخ ووضعه في منزل صغير ، جاعلاً له طريقاً ملتوية واحدة للهرب ؛ فإن الفرخ يدور حول نفسه في الداخل - مردداً بصره ، ذاهباً هنا وهناك - وأخيراً يخرج وينضم إلى الأفراخ . فإذا أعيد وضعه في المنزل ، فإنه يتقدم درجات في الهروب بسرعة أكبر ؛ حتى يندفع مرة واحدة إلى الطريق المفتوح بعد محاولات قليلة . والقطة الصغيرة الجائعة إذا وضعت في قفص بجانبه من الخارج طعام ، سوف تدفع وتشمس وتعض كل ما تصل إليه ؛ حتى تنتهي قريباً أو بعد أمد إلى المزلاج الذي يفتح به الباب . فإذا تكررت وضعها مرة ومرة ، استطاعت أن تلغى بالتدريج هذه الحركات غير المجدية ، وأن تعالج المزلاج في نشاط وثقة .

وابتداء من سنة ١٨٩٦ - وما بعدها بسنوات قليلة حتى استغرق كل مجهوداته علم النفس التربوي - طبق ثورندايك مناهجه على الأفراخ ، والأسماك ، والكلاب ، والقطط ، وأخيراً على القردة ؛ وأخذ بهذا النوع الجديد من العمل السيكولوجي مباشرة كثير من معاملي أمريكا الرئيسية ، تخصص فيها يركس Yerkes^(١٣) ووطنس وغيرهما . فظهر أن الحيوان موضوعٌ جدٌ مفيد في تجارب التعلم ، وأن النتائج قد أُلقت ضوءاً على تعلم الإنسان كما أُلقت على تعلم الحيوان .

وفي تفسير نتائجه توصل ثورندايك إلى الإمكانيات الآتية : قد تستعمل الحيوانات أفكاراً - سواء في الاستدلال أو في مجرد التداعي - أو هي قد تتعلم تعلماً أعمى بالمحاولة والخطأ . وأيقن أن التفكير يتحكم فيه تدرج تعلم الحيوانات . وقد أظهرت منحنيات التعلم learning curves تقدماً تدريجياً وإن كان غير منتظم ، وإن لم يكن ما يدل على انتقال مفاجيء من عدم معرفة الإجابة إلى معرفتها . على أن الحيوان لو أنه قد تفهم المشكلة ؛ إذن لوصل إلى الحل في وقت قصير ، ولعرف بعد ذلك الإجابة ، ولأصاب القصد بسرعة دائماً . وانتهى ثورندايك إلى أن حيواناته لا تتعلم بالتفكير . ولم يكن يستطيع أن يحدد تماماً ما إذا كانت تستعين بالأفكار ، ولكنه كان يميل إلى عدم اعتقاد ذلك . أما التعلم بالتقليد فقد استبعده بدليل تجريبي محدد : فإنه لا القطط ولا القردة قد أفادت كثيراً من لعبة يقوم بها أمامها حيوان مارسها من قبل . ولم يبق لثورندايك من مميزات إلا المحاولة والخطأ trial and error . فالحيوانات لا تتعلم بالملاحظة watching ، ولا بالإمعان considering ، بل بالفعل doing . فهي تصل إلى الموقف بعد مجموعة من الاستجابات الحركية ، وبعد عملية عمياء متدرجة كانت تستبعد الاستجابات الخاطئة وتقوى الاستجابة الموقفة

وتلصق تماماً بالموقف . فالمحاولة والخطأ هما منهج تعلم الحيوان . والكائنات الإنسانية بطبيعة الحال تستخدم الأفكار ، ولكن ثورندايك قد أثبت أن المحاولة والخطأ ليسا وقفاً على الحيوان فى شىء . فمهارة الحركة - كما فى لعبة التنس - قد حَسِبَ أنها تكتسب ؛ لا بالإمعان العقلى ولا بالفطنة ؛ وإنما بفعل جركى مختلف ، مع أطراح الخاطى وأخذ الموفق من الاستجابات المختلفة الكثيرة . وفوق هذا ، فإنه اعتقد أن التعلم الحام* brute learning أساس لارتقاء الأفكار والاستبدال . وإنما كان الإنسان عالياً على الحيوان أصلاً لأن له قدرة أكبر على المعرفة الحام . فهو يتعلم بسرعة ويتعلم استجابات كثيرة فيكسب بذلك أساساً للتفكير .

وقد رأى ثورندايك فى التعلم عملية إنشاء روابط أو علاقات فى الجهاز العصبي بين الأعصاب الداخلة التى يثيرها المنبه ، والأعصاب الحركية التى تنبه العضلات فتعطى بذلك استجابة الحركة . واعتقد أن قوانين آلية التعلم هذه يمكن أن ترد إلى اثنين : قانون المران law of exercise بمعنى أن الروابط تقوى بالاستعمال ، وتضعف بالإغفال المتواصل ؛ وقانون الأثر law of effect أى أن هذه الروابط تقوى أو تكسب ميزة على غيرها تؤدى إلى صدور مُرض عن الموقف (١٢) . فعندما ينتهى نشاط آلية عقل ما إلى السرور والرضا عن الحيوان "صاحب هذا العقل" فإن هذه الآلية تقوى بذلك . أما إذا أحدث فعل آلية عقل آخر عدم ارتياح للحيوان ؛ فإن هذه الآلية إذن تضعف . وإذا نحن فهمنا فزيولوجية الرضا وعدم الارتياح من الناحية الداخلية ؛ فسوف نرى كيف أنها تقوى أو تضعف آليات العقل التى كانت نشيطة منذ قليل ، وأنها تبعاً لذلك تتأثر خصوصاً بهذه الظروف الفيزيولوجية . نحن نعلم قليلاً عن فيزيولوجيا الرضا والقلق satisfaction and discomfort ، ولكن قانون الأثر يلزمنا بصفة مطلقة كتقريب أولى للقانون النهائى الذى سيفسر لماذا تستبعد الاستجابات الخاطئة ، وتلصق بالموقف تماماً الاستجابة الموقفة فى تعلم «المحاولة والخطأ» .

وأنا لم أحاول أن أبين كم من نظريات ثورندايك كانت له أصالة بحق . ففى خطوطه الرئيسية كان على وفاق مع النظرية الارتباطية . ولكن ثورندايك قد تحدث عن علاقات تقوم بين المنبه والاستجابة الحركية أولى منها بين فكرة وفكرة ؛ وأبلغ

* فارسى يؤدى المعنى بالمقصود بكلمة brute فى الإنجليزية والفرنسية .

أهمية من هذا ؛ أن كان له دليله التجريبي الذي يؤيد وجهات نظره . وقد بدا للكثيرين في سنة ١٩٠٠ مجدداً خطيراً ، سواء في فكرته عن سلوك الحيوان وفي تصوره لعقلية الإنسان . وبمرور الزمن ، حاول علماء النفس الحيوانية الذين جاءوا بعده أن يخطوا في التجديد خطوة أحسن ، وحاولوا خصوصاً أن يُيسّطوا نظرية التعلم بالتخلص من قانون الأثر .

وبحوث ثورندايك الخاصة في علم النفس التربوي كانت موضوعية في منهجها كبحوته في علم النفس الحيواني ؛ وقد مال به تفكيره أكثر وأكثر إلى أن يُصرّ على السلوك وكأنه — على أقل تقدير — من أكبر الموضوعات في دراسة علم النفس . ولكي نستوثق من ذلك ؛ ها هو يُعرّف علم النفس في سنة ١٩٠٥ بحدود أولية للشعور : « يتركب العالم من حقائق طبيعية وعقلية... وعلم النفس .. يعرض لهذا الأخير .. وما دامت غالبية أفعال الإنسان مرتبطة بالأفكار والأحاسيس ارتباطاً مباشراً ؛ فإن علم النفس يعالج — ليس فقط الحالات العقلية — بل أيضاً أفعال الإنسان وتبايره* أو تعرّفاته .

وفي سنة ١٩١١ ، يقف على مناقشة القيم النسبية «لدراسة الشعور ودراسة السلوك» فصلاً خاصاً ، ويُقبل في شجاعة على علم نفس للسلوك :
إن ما قاله علماء النفس خاصاً بالطبيعة الإنسانية ينقسم إلى نوعين : أقوال عن الشعور ... وأقوال عن السلوك ...

وعلى العموم ، فإن العمل السيكولوجي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر قد أكد دراسة الشعور .. وكان هناك ميل إلى محاولة جارفة — إن لم تكن متعصبة — لجعل علم الطبيعة الإنسانية مرادفاً لعلم الحقائق التي يُظهرها التأمل الباطني ... والدراسات التي يعاد طبعها في هذا الكتاب (يعنى دراساته الأصلية في تعلم الحيوان والغريزة) قد أوجدت في مؤلفها احتراماً متزايداً لعلم النفس كعلم للسلوك ... وعلم النفس يمكن أن يكون — على الأقل في جزء منه — في استقلال عن الاستبطان بشبه العلوم الطبيعية . والسلوك يشمل الشعور والفعل ، أحوال العقل وما بينها من علاقات* .

* ثورندايك : عناصر علم النفس (روندلبرج سنة ١٩٠٥) ص ص ١ — ١٠ .

* ثورندايك : ذكاء الحيوان : دراسات تجريبية . (مكملان ١٩١١) ص ص ١ — ٥ ، ١٥ .

لم جاءت السلوكية ثورة ولم تجيء تقدماً سلمياً :

من كل ما قد قلنا يتضح بدرجة كافية أن السلوكية قد تقدم لها - سواء في تجارب المعامل ، وفي محاولات التعريف الجديدة التي قام بها أقطاب علم النفس الكثيرون في السنوات العشر الأولى من القرن - وكان من هذه الأسباب المهيمنة لظهور السلوكية خصوصاً ؛ هذا التقدم السريع الممتع لعلم النفس الحيواني على أن « العلة المباشرة » إنما كانت النزوع الجامح إلى علم النفس الحيواني من جانب كبار علماء النفس هؤلاء في ذلك الحين ؛ الذين كانوا على يقين تام بأن علم النفس هو - وينبغي منطقياً أن يكون - دراسة الخبرة الشعورية conscious experience ولا شيء غيرها . ومن هذه المقدمة الكبرى استدلوا منطقياً على أن حقائق السلوك ليست من علم النفس بأية حال إلا إذا تُرجم لها بمصطلح الشعور الحيواني . والآن فن المعروف - منذ أيام ديكارت - أنك لا تستطيع أن تثبت للحيوان شعوراً . أفنترض أن كل الحيوانات - حتى أدناها - لها شعور بما تسلك ، أم نقصر الشعور على الحيوانات التي تتعلم أو الحيوانات التي لها جهاز عصبي ، أم بأي معيار نرسم هذا الخط ؟ الواقع أن الانتقال من السلوك إلى الشعور في الحيوانات كان استدلالاً بالتمثيل وخطوة في الظلام . وقد أكد تشنر وغيره أن مثل هذه الاستدلالات يمكن أن تُرسم رسماً صحيحاً مع ما يؤخذ لها من حيلة ، وأنه بهذا يمكن أن يلي التجريب على الحيوانات ضوءاً على علم النفس . ولكن لما كانت هذه الخطوة في الظلام ضرورية لكي تجعل لحقائق السلوك أي استخدام سيكولوجي ؛ فإن علم النفس الحيواني كان بحق جزءاً غير مباشر ولا أهمية له نسبياً في علمنا .

وفي هذه الأثناء كان علماء النفس الحيوانية يقفون على نتائج موضوعية لمسائل كالغريزة والتعلم ، فكروها أن يُقال لهم إنه لزمهم أن يلجأوا إلى مماثلات مريبة dubious analogies لكي يستخرجوا مما توصلوا إليه علم النفس . وربما عانى بعضهم هذه القالة من جانب عالم النفس المتعصب ، وإن لم يعانها وطسون في سكون - لأنه أكثرهم جرأة . والواقع أنه أجاب قائلاً : « أروني نتائج الاستبطان الذي تشيدون به والذي يستطيع أن يقوى على مقارنته بنتائج تجربة الحيوان الموضوعية » ، ومن غير أن ينتظر جواباً ؛ تقدم ليقول إن علماء النفس الحيواني هم - في واقع الأمر - الطائفة الوحيدة الذين يقومون حقاً بمجهود علمي في

علم النفس ، وإن علم النفس البشرى يجب أن ينحونحوهم : فيتخلى عن الاستبطان ويقف نفسه برمتها على دراسة السلوك دراسة موضوعية . وقد أشار إلى زلة "الاستبطان" في مشكلة الفكر بلا صورة وفي أشياء أخرى جديدة مما توصل إليه - وما يزال يجادل فيه - علماء الاستبطان ، وانتهى إلى أن علم النفس كاد يظل جماعة جدل ومناظرة - وليس علماً - حتى زال منهج الاستبطان .

واعترض وطسون على التأمل الباطني لم يكن يتخذ له أساساً اختلافات هذا النوع من الملاحظة بصفة خاصة - كما أشار إلى ذلك ثونت وتشنر - وإنما بدا له أن المُستبطن يدعى أنه يلاحظ شيئاً غير مادي وفي خارج حدود الظواهر الطبيعية . والحق أن ثونت وتشنر قد أنكرا بشدة ما يشبه هذا الادعاء ، فيما قالوا به من أن حقائق الملاحظة الغفل هي بعينها للفيزيقا كما هي لعلم النفس ، ولكن الاستبطان - كما رآه وطسون - كان مختلطاً كله بالشعور كمجرد بديل لفظي للنفس . وقد اعترف - بعد قليل* - أن المرء يمكن أن يلاحظ سلوكه الخاص ، ثم يقرر مثلاً : إني أكتب ، أو : إن وجهي محمر .. إلخ ، ولم يستبعد استخدام منهج هذا التعبير اللفظي في التجريب على الحواس . وكل ما هنا لك إذن ، أن التعبير اللفظي يجب ألا يفهم على أنه إظهار للشعور . فالشعور نفسه هو لا يعترض عليه بشدة إلا « بالمعنى السيكولوجي psychological sense + إنما كان فحسب الشعور الذي يدعى علم النفس أنه يلاحظه بالاستبطان هو ما قام عليه الاعتراض .

أنكر وطسون وجود الشعور « بمعنى سيكولوجي » فذهب معه الحس والحساسية ، والصور ، التي اعتبرت طويلاً وكأنها عناصر الخبرة الشعورية . وكلمة إحساس sensation هو يستبعدها بشيء من الحذر في عرضه للحواس ، مستغنياً عنها بهذه الخبرات أمثال : « استجابة الضوء » ، أو « استجابة السمع » ، أو « استجابة الشم » . بل هو يدخل الصورة البعدية في عرضه لها . فيقول^x :

إن من أمتع مجموعات الظواهر التي نصادفها في فيزيولوجيا الحواس في مجموعها ؛ تلك التي تبدو في الآثار البعدية after-effects لتنبه الضوء ذي اللون الواحد . فإنه بعد أن تتأثر العين وقتاً ما بضوء ذي لون واحد monochromatic light ثم يبعد

* علم النفس من وجهة نظر السلوكي (ج. ب. لينكوت وشركاه ، ١٩١٩) ص ٣٩ .

+ السلوك : ١٩١٤ ص ٢٧ .

x علم النفس كما يراه السلوكي : ١٩١٩ ص ٦١ .

عنها ، فإن الشخص سوف يدلى بأحد شيئين : قد يستجيب الشخص كما لو كان متأثراً من جديد بالضوء الأصلي ، وهو ما يسمى « الصورة البعدية الإيجابية positive after-image » ؛ أو كما لو كان متأثراً بضوء . . . « هو استمرار أو » تكملة للضوء الأصلي ، وهذه هي « الصورة البعدية السالبة negative after-image » ويمكن أن نصور ذلك بما نحصل عليه بطريقة التقرير اللفظي . فإذا نهينا . . . بالأزرق ونظر الشخص بعدُ إلى ستار رمادي : « فسيقول أنا أرى لوناً أصفر » . وهكذا كان في وسع السلوكي أن يدخل في علم النفس لديه كل نتائج منهج التأثير مطبقة على الحواس .

وقد كان وطسون يتطلع خصوصاً إلى إبطال دعاوى صور الذاكرة والأحاسيس منظوراً إليها على أنها حقائق* فحاول أن يبين* أن ما يسمى صور الذاكرة — التي يؤمن بها كثير من الناس — تتركب في جزء منها من تأثيرات (أو إحساسات) حركية عامة ؛ وفي جزء آخر من استجابات لفظية من جانب الشخص ، وأن الاحساسات بالسرور والابتئاس هي في جزء منها مؤثرات حسية من الأعضاء التناسلية أو المناطق الشبقية الأخرى erogenous zones ؛ وفي جزء آخر حركات تقرب أو تجنب ناشئة . فلا الصورة ولا الحس « تنشأ مركزياً » ، أعني أن يكون لها أصلها في المخ فتميز بذلك عن سلوك استجابة المنبه . وكل سلوك فهو حسي حركي ، يتركب من وحدات استجابة منبه ، بدأ كل منها مع تنبيه عضو حس ما وانتهى باستجابة عضلية أو غددية . ويعمل الجهاز العصبي في دورات كاملة . على أن المخ يجب أن لا يُتَشَبَّثَ به أو يُتخذَ إلهاً . فقد وقع علماء النفس في إعادة صرف كبير انتباه إلى المخ . ولكن السلوكي يرى أنهم حين يفعلون هذا فإنهم يعزلونه عن بقية الجسم ويجعلونه بديلاً آخر للروح . لقد افترضوا المخ أن يكون عضو التذكر والتفكير ، ولذلك جعلوا هذه العمليات « المركزية » الخالصة متميزة عن السلوك الحسي الحركي ، يُتوصل إليها بالاستبطان وحده وليس بالمناهج الموضوعية لدراسة السلوك .

وإذن فالسلوك — كما يقول وطسون مستطرداً — لم يكن دائماً يلاحظ بسهولة من خارج . ولم يكن دائماً « مفتوحاً أو ظاهراً explicit » ؛ بل ربما كان « داخلياً وباطناً implicit » . وإنما كان السلوك الحشوي باطنياً لأنه مختبئ هكذا في الداخل .

وكان الكلام الداخلي ، المركَّب - فيما حَسِبَ - من حركات نطق صغيرة ، ظاهراً ؛ لأن الحركات كانت من الدقة بحيث تلاحظها العين أو الأذن المجردة . فكان لُحْطُ التَّقدم في دراسة السلوك الظاهر - بما له من أهمية بالغة - هو ضبط أجهزة تسجيلنا . وَتَرَكَّبَ السلوكُ حينئذ من استجابات غريزية أو غير مكتسبة ؛ ومن عادات أو استجابات مكتسبة ؛ وكلا الاستجابات المكتسبة وغير المكتسبة وَجَبَ أن تكون ظاهرة أو باطنة . وكان قسط كبير من مهمة علم النفس السلوكي أن يتتبع تقدم الفرد في عاداته الظاهرة والباطنة ؛ والمعرفه المحصَّلة بهذه الطريقة قد أمكن أن تستخدم في ضبط السلوك الإنساني وتحسينه .

فالمذهب السلوكي في سنة ١٩١٢ - ١٤ كان « حركة ناشئة » ؛ كما كان وطسون شاباً ناشئاً ، وكان أتباعه غالباً من الجيل الناشئ . وقد شعروا بأن وطسون يحدث تغييراً في محيط علم النفس ؛ بالقضاء على خفيايه القديمة ، وشكوكه ، ومركباته ، ومصاعبه التي ورثها عن الفلسفة ؛ والتي لم يستطع علماء النفس الأقدمون منها فكاًكاً . إلا أنهم في حماسهم قد بالغوا في الثورة . وأنا أذكر طالباً جاء من قِبَل أحد السلوكيين إلى كولومبيا - إلى معمل كتل إذا شئتم - وقال إنه يعرف أن معملنا موقوف كله على الاستبطان وأنه بالتالي لن يفيد في شيء ، ولكنه يفكر في أن يعمل في معمل الزولوجيا ، وأنه يرغب في أن يتاح له الانتفاع بما عندنا في تركيب أجهزته . على أن الثورة الحقيقية في أبحاث علم النفس كانت ضئيلة ؛ فالعمل الموضوعي مستمر ، والعمل الباطني مستمر " أيضاً " . وقبل أن نتتبع التقدم الأوسع لمذهب السلوكية في أمريكا ، وقبل أن نذكر أبرز المساعدين أيضاً على هذا التقدم ؛ يجب أن نعود ثانية إلى اعتبار أحداث هامة في روسيا ، يندُر أنها عُرِفَت في أمريكا قبل سنة ١٩١٢ ، ولكنها أثبتت فيما بعدُ كبيرَ أهميتها في المذهب السلوكي

الموضوعية الروسية والمنعكس الشرطي :

لقد قامت السلوكية في أمريكا احتجاجاً أكثر منها اكتشافاً . والعمل الروسي - الذي نَقِبل على اعتباره الآن - قد بدأ بِكشْفِ الفعل المنعكس الشرطي ، فكان هذا الكشف عوناً وراحة أكثر لعلمائنا السلوكيين ، مما كانت أية نتيجة من نتائجهم

ففي حوالي ١٩٠٥ ، أكتُشِفَ الفعل المنعكس الشرطي في نفس الوقت تقريباً

في معملين فيما كان يعرف حينئذ باسم سانت بطرسبرج* . ولا حاجة بنا إلى الدخول في مسألة الأسبقية بين المكتشفين : بإفلوف Pavlov وبخترف Bechterev ؛ الأول فيزيولوجي ، والآخر متخصص في الأعصاب neurologist . وقد تنافسا كلاهما في هذا العمل ودفع كل منهما الآخر إلى نشاط قوى . ولما كان لدينا كثير نقوله عن بإفلوف (١٤) فلنبداً أولاً ببخترف .

فقد كان بخترف (١٥) (١٨٥٧ - ١٩٢٧) يعمل بنشاط كبير منذ حوالي ١٨٨٠ في تحليل الجهاز العصبي وأمراضه ، وفي الأفعال المنعكسة ، وفي الأمراض العصبية والعقلية . وأدت به دراساته إلى فكرة ما سماه الأفعال المنعكسة المترابطة ، نفس الشيء الذي سماه بإفلوف الأفعال المنعكسة الشرطية . وقد عمل بخترف خصوصاً في المنعكس الحركي ، أما بإفلوف ففي المنعكس الغددي أو الباطني . والذي لاحظته بخترف شيء يشبه هذا : إذا لامست البرودة الجلد حدث انقباض في التنفس ، فهذا فعل منعكس طبيعي . فإذا استخدم منبه آخر ليس له في ذاته أثر ظاهر على التنفس ، وتكرر استخدامه مع "المنبه" البارد على الجلد ؛ فإن هذا المنبه الآخر سيكون له في الحال نفس النتيجة ، وهذا إذن منعكس معلوم أو مرتبط . وعمل بخترف وتلاميذه بكل مثابرة في المشكلة على هذا الأساس : عملوا في الأشخاص الإنسانية والموضوعات الحيوانية سواء بسواء ، وعملوا في موضوعات عقليتها مضطربة على أمل أن يلقوا ضوءاً على العُصاب neuroses والذهان psychoses وأن يبدؤوا اتجاهاً موضوعياً إلى الطب العقلي . وكتب بخترف في اكتشافاته ونظرياته كتباً : بأسماء علم النفس الموضوعي Objective Psychology ، وعلم الانعكاس Reflexol . ومن غير أن يناقش مشروعية علم النفس الاستبطاني رأى أن ينظر إلى أي حد يمكنه أن يسير على أساس موضوعي خالص ؛ متخذاً من المنعكس فكرته الأساسية ، واعتقد أنه يستطيع أن يغطي موضوع علم النفس تغطية تامة دون أن يلجأ إلى أية ألفاظ كالإحساس ، أو الشعور ، أو الفكر . وكتابه في «علم النفس الموضوعي» قد نشر بالروسية أولاً في سنة ١٩٠٧ ، ثم ترجم إلى الألمانية سنة ١٩١٣ .

أما بإفلوف (المولود في سنة ١٨٤٩) فقد بدأ يدرس للرهبنة، ولكنه انحرف عنها إلى الطب ، ومنه إلى الفيزيولوجيا . وظل سنوات طويلة يعمل في فيزيولوجيا * اكتشفه أيضاً في نفس الوقت وفي استقلال؛ توتماير (١٦) E.B. Twitmyer في جامعة بنسلفانيا .

المضم *physiol. of digestion* وقام بعدة تجارب جِدًا ناجحة ومفيدة . وبعد سنة ١٩٠٠ مباشرة — بينما كان يعمل في هذا الموضوع — لاحظ حقيقة غريبة في سلوك الكلب الذى كان اتخذه موضوعاً . وقد كان أعد جهازاً لجمع لعاب الكلب مباشرة من إحدى الغدد اللعابية Salivary glands وكان يعطى الحيوان طعاماً لإثارة مجرى اللعاب ، فلاحظ أن اللعاب بدأ يسيل من كلب متمرّن قبل أن يوضع الطعام في فمه بالفعل ؛ سال لمجرد رؤية الطبق الذى فيه الطعام ، أو لمجرد اقتراب الخادم الذى تعود إحضار الطعام ، وحتى لمجرد خطوات الخادم في الحجرة المجاورة . فإذا كان الطعام في الفم من غير شك منبهاً طبيعياً لمسيل اللعاب بفعل منعكس ؛ فمن الصعب أن تكون رؤية الشخص أو صوت خطواته منبهاً طبيعياً لهذه الاستجابة ، بل لا بد أن تكون ارتبطت بالاستجابة في مجرى التجربة الطويل ؛ حتى استخدمت كعلامة مبدئية . ورأى بافلوف أن القدرة على تعرف مثل هذه العلامات لا بد أن تكون مهمة جداً في تقدم التكيف الحيوانى للفرد مع بيئته الخاصة . ورأى أيضاً أنه قد طرق سبيلاً تؤدّن بالتأدى إلى دراسة تجريبية لعمليات العقل العليا . فتقدم ليوجه نشاط معمله هذه الوجهة . وفي غضون خمس وعشرين سنة خرجت من معمله مئات الرسائل للدكتوراه في كثير مما يتفرع على هذه المسألة . فوضع تسمية المنعكس الشرطى لتدل على الفعل المنعكس الذى ارتبطت فيه الاستجابة ببديل للمنبه الطبيعى .

وكانت الخطوة الأولى أن يكتشف كيف يمكن المنعكس أن يكون مشروطاً . فأجرى تجاربه ليرى ما إذا كان من الممكن أن يربط استجابة اللعاب بصوت إزّيز buzzer أو مترونوم metronome . وجعل المترونوم يدق مدة دقيقة ، ثم وضع طعاماً في فم الكلب ؛ وانتظر خمس عشرة دقيقة ، ثم بدأ "يدق" المترونوم مرة أخرى ، وبعد دقيقة أطعم الكلب مرة ثانية . فما إن تكررت هذه العملية عدة مرات ؛ حتى بدأ اللعاب يسيل قبل نهاية الدقيقة ، متقدماً تنبيه الطعام ؛ بحيث إذا ألغى في ذلك الحين منبه الطعام ؛ فإن سيلاً من اللعاب يمكن مع هذا أن يوجد . فإذا ما سارت التجربة على هذا النحو : يدق المترونوم مدة دقيقة ، ثم لا يقدم طعاماً في نهاية هذا الوقت ؛ فإن سيل اللعاب يقل مرة بعد أخرى ، وبعد محاولات قليلة يختفى الفعل المنعكس الذى كان موجوداً . ولتعرض الآن أن الفعل المنعكس قد تكون ، وأن التجربة قد توقفت حينئذ

حتى اليوم التالي . ففي المحاولة الأولى لم يَلقَ المترو نوم أية استجابة ؛ ولكن عدد المحاولات (مترو نوم مصحوب دائماً بالطعام) اللازمة لتكوين المنعكس في اليوم التالي كانت أقل منها في اليوم الأول . وإذا ما تكررت تجربة الشرط دون انقطاع يوماً بعد يوم ؛ فإنه يأتي سريعاً الوقت الذي يستقر فيه المنعكس الشرطي يوماً بعد يوم . فإذا بدأت عملية الإزالة (مترو نوم بلا طعام) على هذا المنعكس الذي تم تركيبه ؛ فإن التلاشي لا يكون سريعاً ، إنما يكون موقوتاً فحسب ؛ إذ أن الاستجابة المشروطة قد تظهر فجأة في اليوم التالي . أما إذا تكررت حدوث عملية الإزالة في عدة أيام ، فإنها تستأصل أخيراً المنعكس الشرطي .

فعمليات تكوين المنعكس الشرطي وإزالته كانت وثيقة التوازي، حتى إن بافلوف انتهى إلى أن آليات العقل واحدة بعينها ؛ إلا أنها في حالة تَشْرُطٍ استجابةً إيجابية ، وفي الأخرى استجابة سالبة أو مانعة .

ومن بين أنواع التجربة الأخرى الكثيرة التي عولجت في معمل بافلوف ، سأذكر أكثرها تعقيداً ومشقة في التمايز differentiation ؛ وهي ترمي إلى تكوين منعكس شرطي إيجابي لمنبه ما مع عدم الاستجابة إلى منبه آخر مشابه . فقد كان همه أن يرى إلى أي حد يستطيع أن يدفع الحيوان في وجهة تمييز واضح . فوجد أن التمييز يمكن أن يقوم بين النغمتين ” اللتين يحدثهما ” صوت شوكتين يختلف بأقل من نصف نغمة في السلم الموسيقي . فكانت العملية كما يلي : استخدم أولاً نغمة واحدة ، لِنَقْلٍ ج متوسطة . مُتبعاً إياها دائماً منبه الطعام . وحينما حدثت الاستجابة الإيجابية للنغمة ج المتوسطة ؛ بدأ يحدث صوتاً آخر في نغمة أعلى . ولأول إحداث صوت هذه النغمة الجديدة ؛ يسيل اللعاب كما كان قبلاً ، وينتقل المنعكس إلى هذا المنبه المشابه . ولكن النغمة العالية ليست مصحوبة بطعام . فحينما تحدث النغمة الأخفض يأتي الطعام ؛ أما حينما تحدث النغمة الأعلى فليس ثمة طعام . وبتكرار هذه العملية إلى درجة كافية ، يستطيع أن يتزع الاستجابة اللعابية إلى النغمة الأعلى ، تاركاً إياها في صلة مع النغمة الأخفض . وهنا يبدأ المشهد الثالث للتجربة ، ويقوم في تقريب النغمة الأعلى يوماً فيوماً من من النغمة الأخفض ، مع العناية بعدم إثارة التمايز الذي قد تَكُونُ قبلاً . وربما استغرق شهوراً تقريب النغمتين درجة واحدة في كل منهما مع عدم إثارة التمايز — وإن قام ادعاء بالوصول إلى ذلك في بعض الحيوانات . فإذا كانت المحاولة بحيث

تُحتمل الحيوانَ فوق طاقته ؛ فربما فقد كل استجابة شرطية كونها من قبل ، وأصبح بالفعل كلباً في حالة عَصائية — هكذا يقول المحربون .

ربما قيل إن مثل هذه النتائج يُعوزها التأييد في معمل آخر غير الذي حُصّلت فيه أولاً . وفي مثل هذا العمل مخاطر ؛ أخصها ما يحدث اتفاقاً من أن الحيوان يستجيب للمجرب وحركاته وتعبيراته اللاشعورية ، لا للتنبيه الذي يستخدمه المحرب بقصد منه . وبإزاء هذا الخطر ، رَسَم بافلوف خطأً للمعمل خاص بالمنعكس الشرطي — مع استعدادات كافية لجعل المحرب في معزل عن الكلب بصره وسمعه ، ولإبعاد المناظر والأصوات المثيرة الآتية من خارج . وقد شيدت له الحكومة الروسية حديثاً هذا المعمل ، وهو يشغل الآن بإعادة تجاربه السابقة فيما تهيأ له من آلات ثم من احتياطات . أما تكوين المنعكس الشرطي وإزالته . فقد توافر على تأكيدهما مجربون آخرون .

ومن كل هذا ينتج⁺ أن بافلوف — مدفوعاً بتخيل قوى — قد توصل إلى نظرية في وظائف المخ . فإن له — فيما يُعتقد — وظيفتين شاملتين : فن الناحية الحسية ؛ هو يتركب من محلات تتزعزع المنبهات الجزئية من مجموعة الحركات الفيزيقية التي تطرأ باستمرار على الكائن العضوي ، وهو يشبه في هذه الوظيفة جهاز الاستقبال في « الراديو » . ومن الناحية الحركية ؛ تتركب مهمة العقل من المنعكسات الشرطية . فالسلوك المكتسب كله — حتى سلوك الإنسان المعقد — مكون من أفعال منعكسة شرطية . وهذا الإشراف* Conditioning وظيفة للحاء الشوكي cerebrum ؛ تظهر بإصابات هذا الجزء من المخ ، حيث يصبح من المستحيل أن نشرط الحيوان . والنوم أيضاً يمنع الإشراف ، إذ أن هذه العملية تعتمد على نشاط اللحاء الشوكي .

وبافلوف إذن يسمى عمله فيزيولوجيا المخ . وهو لا يدّعي أن يكون هوسيكولوجياً . والواقع أن هذا هو آخر ما يقول به . وهو — في محاضراته عن نتائجه هذه — يبوح من حين لآخر بتعبير كالأتي :

+ المنعكس الشرطي لبافلوف ، ترجمة أنرب G.V.Anrep، Conditioned Reflexes, trans. by G.V.Anrep، مطبعة جامعة كسفورد ١٩٢٧ . ومحاضرات عن المنعكس الشرطي ترجمة جانت - Lectures on Conditioned Reflexes trans by W.H. Gantt (شركة الناشرين الدولية : ١٩٢٨)

* أشرط فلان نفسه لأمر كذا . أي علمها له وأعدّها — (راجع الصحاح ، مادة شرط)

« ونتيجة لهذا ، يجب أن يُعدَّ من بين الحقائق التي لا جدال فيها ؛ أن فيزيولوجيا أسمى جزء من الجهاز العصبي للحيوانات العليا ؛ لا يمكنه أن يُدرس بنجاح إلا إذا نبذنا ادعاءات علم النفس الباطنة » .

وعند ما سأل زملاءه النفسيين أى نوع من التصورات يستخدمون في تفسير أفعاله المنعكسة الشرطية ؛ اقترحوا الرغبة desire . والتوقع expectation والخيبة disappointment وما شابهها ؛ ولكنه وجد أنه لا يستطيع أن يستخدم هذه للتنبؤ بما عسى أن يحدث ، ولإيجاد صور جديدة للتجربة . فلما أن استخدم تصوراته الفيزيولوجية : التعزيز أو التدعيم reinforcement . والمنع أو الكف inhibition وما شابهها ؛ تقدم بكل خصوبة . وهكذا انتهى إلى أن مفتاح فهمنا للسلوك إنما يوجد برمته في الفيزيولوجيا . والحق أنه لما تعرف على تجاريب ثورندايك في تعلم الحيوان ، أكبرها على أنها ملائمة لمحور دراسته الخاص .

ومن الغريب أن نسجل - فيما يتعلق بمعارضته بوجه عام لعلم النفس - أن عمل بافلوف قد أحدث متعة لعلماء النفس أكثر مما أحدث للفيزيولوجيين . فقد كتب إليه واحد من خيرة أصدقائه من الفيزيولوجيين ؛ أنه يأمل لو استطاع أن يسقط عمل الفعل المنعكس ويعود أدراجه إلى الفيزيولوجيا الخالصة . وعلى العكس من ذلك استقبل علماء النفس المنعكس الشرطي بصدر رحب ؛ ووجد فيه السلوكيون خصوصاً منة كبيرة .

تقدم وطسون الأخير :

وتدرجياً فحسب أشعر المنعكس الشرطي بنفسه السلوكيين في أمريكا . ففي سنة ١٩١٤ ، يذكر وطسون مناهج بافلوف بوصفها مفيدة للتجريب على الحيوان ، وإن كانت أدنى من المناهج الأخرى . وسرعان ما تأثر هو بالموضوعية التامة لهذا النوع من التجريب في المنعكس الشرطي - على نحو ما قام به بخترف وبافلوف على السواء - فاقترح أنها يجب أن تحل محل طريقة التقرير اللفظي التي كانت في الأحسن تقرب بعض الشيء من الاستبطان . وفي سنة ١٩١٩ ، يجعل لها مركزاً محترماً في قائمة مناهج السيكلوجية التي تُستخدم سواء على الموضوعات البشرية والحيوانية ، كما يُستخدم أيضاً فكرة الفعل المنعكس في مناقشاته للانفعالات ؛ مشيراً إلى أن استجابات الخوف التي نرى في الظلام ، وفي ساحة القبور ليلاً ، وفي البرق ،

وفي مواقف أخرى كثيرة محددة ؛ ربما تتبع صنف الإجابة الشرطية للانفعال* .
وفي سنة ١٩٢٤ ، انتهى إلى أن يفترض أن المنعكس الشرطي بيده مفتاح كل
تكون للعادة ؛ بما في ذلك تكامل الحركات البسيطة في أفعال مكتسبة مركبة ،
ولكنه ليس مقتنعاً تماماً بهذا الأمر* . وفي هذه الأثناء رأى سميث S. Smith (١٧)
وجوتري E. Guthrie (١٨) — في كتاب له ميول سلوكية مقررة + — أن يعتبر كل
تعلم وكأنه قائم على منعكس شرطي .

وسوف تذكر أن ثورندايك قد اعتقد من الضروري — لكي يقول بتعلم المحاولة
والخطأ — أن يصوغ قانون الأثر . فالاستجابات الموفقة لموقف ما — بمصادفها رضا
من الحيوان — كانت تثبت بالتدرج ، بينما غير الموفقة كان يطردها ألم الإخفاق .
ومع أن الرضا والألم يمكن أن يُظنَّ بهما أنهما حالات فيزيولوجية ، ومع أن وطسون
نفسه قد اقترح كيف يمكن أن تُدرك في حدود سلوكية* ؛ فإن قانون الأثر قد
بدا من تسميته أنه يفترض حالات واعية للشعور في الحيوان ، وأكثر من هذا أنه
يسمح لها أن تعمل كعوامل عليّة في السلوك . ولهذا فقد حاول السلوكيون أن يُعيدوا
قانون الأثر . برّده إلى قانون المِران exercise ، أو بوسيلة أخرى . وقد علق وطسون
تقته أولاً على قوانين التواتر frequency وإلحْدَة recency اللذين أخذ بهما
طويلاً . ويمكن اعتبارهما قوانين فرعية لقانون المِران . وقد بين أن الحيوان
— حين يتعلم أن يجرى متاهة maze — مضطر إلى أن يأخذ الطريق الصحيح
مرة على الأقل في كل محاولة ، قبل أن يستطيع الهروب . في الوقت الذي يمكن
أن يقفز فيه أيّ دَرَب خاص مسدود blind alley في عدة محاولات . وعلى
هذا ؛ فإن الاستجابة الموفقة سوف تتطلب تدريجياً مبلغاً من التواتر أكثر مما تتطلب
الاستجابات غير الموفقة . ولكي يجيب عن هذا — ذكّر ثورندايك أن الاستجابة
غير الموفقة كانت تُكرّر غالباً عدة مرات خلال نفس المحاولة ، وربما كان لها
بهذا الاعتبار مقدار من تواتر الوقوع لصالحها ؛ وإلى أن يأتي الوقت الذي تكون
الموفقة قد تثبت فيه تماماً . وهكذا كان هذا الدور في النزال مؤدياً فيما يبدو إلى التعادل

* علم النفس من وجهة نظر السلوكي — ١٩١٩ ص ٢١٣

* السلوكية : ١٩٢٤ ص ٢٤ ، ٢٥ ، ١٦٣ ، ١٦٦ — ١٦٩

S. Smith & E.R. Guthrie: General . أيلتون ١٩١١ .

+ سميث وجوتري: علم النفس العام في حدود السلوك Psychology in Terms of Behavior

* انظر فيلا ص (٥٨)

وأخيراً عندما وُضع المنعكس الشرطي موضع التقدير ، فإنه اتَّخِذَ سلاحاً كافياً ضد قانون الأثر . إلا أنه يجب الاعتراف أن تعلم المحاولة والخطأ يقدم صعوبة مشكلة لما يتطلبه أكثر من مجرد الحل اللفظي ؛ ويُجرى عليه السيكولوجيون عامة كثيراً من العمل المتنوع ، في معزل تماماً عن أن يُحمَل به على مزايا السلوكية .

وقد استهزئ بالسلوكية في فجرها الأول بوصفها «سيكولوجيا تحرك العضلات» ؛ وكأنها شيء ليس أكثر أو أقل من قطعة من الفيزيولوجيا . وقد عارض وطسون بحماسة — وبندجاح فيما اعتقد — بأن قال إن السلوكي — وإن كان يعنيه السلوك الحركي — فإنه يأخذه على أنه نشاط الفرد بكيئته ؛ بينما الفيزيولوجيا تعني خصوصاً بمختلف الأعضاء المكوّنة للفرد . وليس شك في أنه قد ظهر أن ميدان السلوكية يشبه أن يكون أكثر تحديداً من ميدان علم النفس ؛ ما دامت قد استبعدت الإحساس ، والإدراك ، والذاكرة ، والتفكير ، والانفعال ، والرغبة . وقد ساعد إدخال منهج التقرير اللفظي — مع العناية باستخدام الألفاظ — على الإحساس ، وربما في الإدراك ، مع أنه يجب أن نقول إن السلوكيين قد أهملوا الموضوع الأخير البالغ الأهمية .

ويبدو أن الذاكرة قد سببت للسلوكيين متاعب أكثر مما ينبغي . فحتى في سنة ١٩٢٤ نجد وطسون يبدأ الجدل حول الذاكرة قائلاً إن «السلوكي لا يستعمل مطلقاً لفظة الذاكرة . إنه يعتقد أن ليس لها محل في علم نفس موضوعي» . ثم في مناقشته لحفظ المهارات والحقائق retention of skill and of facts ؛ يذهب إلى استخدام الكلمة في حرية على سبيل الاقتباس ، وأخيراً يذهب إلى القول بأن «الذاكرة في عرف السلوكي هي أي عرض للتنظيم اليدوي ، واللفظي ، والحشوي ، موضوعةً فيما قبل وقت الاختبار . فالشعور بالألفة ، أو «بالحرارة والقرب warmth and intimacy» ؛ التي هي — فيما عرض جيمس — تعتمد اعتماداً وثيقاً على التذكر الحقيقي ، إنما تعني مجرد إثارة الاستجابات الحشوية (الانفعالية) القديمة من جديد* .

والسلوك الباطن قد وفر على التفكير والانفعال . فالتفكير قد أمكن أن يُدرَج في السلوك ؛ بافتراض أنه يتركب من استجابات كلامية باطنة أو حديث صوتي .

* السلوكية — ١٩٢٤ من ١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢١٢ . والطبعة المنقحة ١٩٣٠ (الناشر W.W. Norton & Co) لا يبدو فيها تغيير كبير في أظنار وطسون في الذاكرة ، أو في الأمور الأخرى التي اخترنا فيها الطبعة الأولى مرجعاً لحديثنا .

والانفعال ؛ بافتراض أنه يتركب من استجابات حشوية باطنة . وهكذا ، بينما أُدمج الإحساس والتذكر في السلوك وحده بالتحدث عنهما في لغة السلوك ؛ فإن التفكير والانفعال قد تطلبا فروضاً محدودة هي قابلة للاعتراض التجريبي .

وافترض وطسون فيما يتعلق بالتفكير هو - بوجه عام - أنه يجب أن يكون فعلاً حركياً حسيّاً من نوع ما ، وأنه ظاهر ؛ ما دام من المُعرّف به أن أفكار المرء لا تكشف عنها غالباً الحركات المرئية ولا الكلام المسموع . فالتفكير سلوك باطن يُستبدل بفعل يدوي صريح (ظاهر) . لأنه يصبح من المتعين علينا أن نسمى الأشياء والأفعال . والطفل غالباً ما يعبر عما يفعل على نحو ما يفعله فعلاً ، وخطوتان بعد هذه المرحلة تؤديان بالطفل إلى مرحلة يكون حديثه فيها إلى نفسه ؛ أولاً : غير مسموع ، وثانياً : يحدث عندما لا يكون متحركاً بالفعل ؛ بل فحسب - كما نقول - يفكر في أن يفعل ذلك . فالحديث الصوتي يُستبدل غالباً بالفعل الحقيقي في عملية حل مسألة عملية ، مع الاقتصاد الناتج في الوقت والمجهود . فبدلاً من نقل البيانو بالفعل إلى موضع جديد من الغرفة ، لنرى كيف يبدو هناك ؛ نقول في نفسنا : « هب أتى نقلت البيانو هناك » ؛ ثم نستمر : « ولكنه قد يطغى على النافذة . ذلك لا يمكن أن يكون » . لقد بدا من المحتمل لو طسون إذن ؛ أن السلوك الجزئي الباطن الذي استبدل بفعل حركي حقيقي يتركب في مُعظمه من حركات كلامية .

وهذا الفرض يمكن أن يتضح أكثر إذا نحن عارضناه بفرض أوسع قدّمه هلنجورث* H. Hollingworth (١٩) فهو يُعرّف الفكر بأنه : أن تستخدم في حل المسألة بديلات أو رموز الأشياء الحقيقية والعمليات التي تدخل في المسألة . والرمز غالباً ما يكون كلمة ، وأحياناً هو رمز رياضي ، وأحياناً أخرى هو تخطيط يصور الموقف ؛ وأحياناً ثلاثة هو صورة عقلية ، ثم أحياناً أيضاً هو شيء حقيقي مأخوذ لتمثيل الشيء الذي نفكر فيه . فالقائد حين يفكر في عملية ، أو حين يتتبع معركة في تقدمها ؛ ربما قام بتفكيره على خريطة ذات أعلام من الدبابيس مثبتة في الخريطة تشير إلى مختلف الكتائب في مواضعها . وهو يستطيع أن يحرك كتل رجاله برموزه هذه على الخريطة ، فيحكم بذلك بالنتيجة المنتظرة . هو ربما تحدث إلى نفسه بالطبع أثناء دراسته هذه على

* H. L. Hollingworth : سيكولوجية التفكير ، أبلتون وشركاه ١٩٢٦ ص ٤ - ١١

الخريطة ، إلا أن من المقطوع به أن الخريطة والرموز الطبيعية الأخرى تلعب دوراً في عملية تفكيره .

ومن هنا يمكن أن نضيف افتراض أن التفكير هو استبدال الأشياء والأفعال الرمزية بأخرى حقيقية ومهمة ؛ من غير أن نحصر أنفسنا في الحركات الباطنة كرموز لنا . أو من الممكن أن نقول بافتراض أن التفكير يقوم في الحركات الباطنة ، دون أن نحصرها في حركات كلامية . يريد واطسون أن يشمل في افتراضه اللغة الحركية إلى جانب اللغة الكلامية ، وأن يشمل فيه التحدث باليدين في حالة الصم من الناس ، ولا مانع لديه جوهرياً من شمول حركات أخرى باطنة ؛ طالما هي تبدو محتملة ، ولكنه يعلق ثقته في الأكثر على الحركات الباطنة لأعضاء الكلام .

ويَفَجُّونا في هذا الفرض أنه معقول ، مادام الكثير منا يمكن أن يشهد أننا نتحدث إلى أنفسنا قليلاً أو كثيراً أثناء التفكير . نحن غالباً متبهون لكلامنا الداخلي الخاص ؛ ومعقولة هذا الفرض تقوم في هذه الملاحظة العامة ، التي هي بكل وضوح استبطانية . وقد بينت مارجريت فلوى واشرن^(٢٠) وهي من كبار المؤيدين للنظرية الحركية العامة للتفكير وإن لم تكن هي نفسها سلوكية بحال — بينت قبح إقامة فرض يُراد أن يكون دعامة للسلوكية على أساس من الاستبطان^{*} فنحن غالباً ما نرى بالفعل حركات الشفتين ونسمع همس الكلمات في شخص آخر يفكر ، ولكن خبرتنا الخاصة بالحديث الداخلي هي ما يجعل الفرض من اليسير أن نأخذ به . فافتراض أن التفكير حديث صامت لما كان متمشياً — على هذا النحو — مع خبرة الكثيرين منا ... ليس جديداً في شيء ، ولكنه تقدم مرة أخرى في غير ما صلة بالسلوكية . وما تريده السلوكية هو أن هذا الحديث الداخلي يجب أن يتركب من حركات فعلية — ولو صغيرة — لأعضاء الكلام . وهنا بحق نتجاوز الاستبطان . ويبدو الكلام الداخلي أن يكون مشعوراً به — لدى بعض الأفراد — في الفم والحلق وأعضاء التنفس كما لو كانت الحركات الفعلية تحدث هناك ؛ بينما هي تبدو لآخرين سمعية أكثر منها حركية . أما الاستبطان فيمكن بالتأكيد ألا يُعتمد عليه في إخبارنا عما إذا كان الكلام الداخلي يشمل أو لا يشمل دائماً حركات كلامية . واطسون — مع أنه قد جعل فرضه هذا من اقتراح الاستبطان — لم يشأ أن يختبره بهذه الوسيلة ، وإنما ذهب إلى تطبيق أجهزة تسجيل دقيقة على أعضاء الكلام ، على أمل أن

يؤمن الدليل الموضوعي للحركات الكلامية أثناء التفكير . وكانت الحنجرة larynx عنده أكثر الأعضاء احتمالاً لأن تسجل ، وربما جاء بعدها اللسان .

وقد حاول كثير من الباحثين أن يقيموا الدليل على هذا الفرض أو ضده ؛ بتسجيل حركات الحنجرة واللسان أثناء التفكير . هم يجدون الحركات قسماً من الزمن ، وليست كل الزمن . وحتى في الكلام الداخلى المحدد - عندما يستعيد الشخص لنفسه جملة - فإن حركات أعضاء الكلام هذه خفيفة وغير منتظمة ، ولا تكشف عن طابع يشبه طابع الكلام الصوتى لنفس الجملة⁺ . فالنتائج حتى اليوم هي هكذا سلبية ، ولكن الأجهزة المستعملة ما تزال غير متقنة تماماً ، وربما فشلت في تسجيل الانقباضات العضلية الدقيقة ؛ حتى لا يمكن أن يقال إن الفرض قد نُقِض . ومن الممكن في الواقع أن الحنجرة ليست أحسن موضع يُبحث فيه عن حركات الكلام الباطنة . فالحنجرة - التي تُحدث « الصوت » - ساكنة في الكلام اللاصوتى كالهمس مثلاً whispering . والآن فإذا كان همس درجة وسطى بين الكلام المرتفع والكلام الصامت ؛ فلماذا يجب أن نتوقع من الحنجرة - وهي لا تعمل أثناء الهمس - أن تقفز إلى الفعل مرة أخرى في الكلام الصامت؟ فأشد احتمالاً أن نبحث عن موضع الحركات في الحديث الصامت في التنفس respiration ؛ ويوجد بالفعل دليل قوى في إطالة الزفير وعدم انتظامه أثناء الكلام الداخلى النشيط* وهذا الطريق لم يُنتهج بدرجة كافية حتى الآن .

على أن السلوكية لن تقوم أو تسقط بمصير هذا الفرض الواحد . فحتى لو وُجدت دائماً الحركات الكلامية ؛ فستبقى مسألة ماذا يكفل حدوثها ، وهل فعل المخ ؛ الذى كفل حدوثها ؛ لم يكن أذى إلى صميم العملية منه إلى الحركات الناتجة . ومن ناحية أخرى ، إذا كان ينبغي أن يبرهن على أن الحركات الكلامية لا تحدث يقيناً في كل تفكير ؛ فستبقى حركات وامتدادات عضلية أخرى يمكن أن تقوم عملية الحركة الحسية التى تريدها السلوكية لكل فعل باطنى .

وفى هذا الصدد أحب أيضاً أن أقول لك - فى كلمات قليلة - بعض الأسباب

+ تورسن A.m. Thorson : علاقة حركات اللسان بالكلام الداخلى مجلة علم النفس التجريبي ١٩٢٥
 مجلد ٨ ص ٣٢ / ١ The Relation of Tongue Movements to Internal Speech.
 * مورجن J, J. B.Morgan فى مقاله The Overcoming of Distraction and other سجلات علم النفس رقم ١٩١٦/٣٥ Resistance^s

التي من أجلها لا أقبلُ شخصياً المعادلة : التفكير = الكلام . أولاً أنى غالباً ما أجد صعوبة في العثور على الكلمة اللازمة للتعبير عن معنى موجود في « عقلي » حيث أجدني متحيراً — غير قليل مرة — حتى في كلمة عادية . وسبب آخر أنك لا تستطيع بالتأكيد أن تُدير المعادلة وتقول : الكلام = التفكير ؛ إذ تستطيع أن تُلقي من محفوظاتك قطعة معروفة في غير شيء من المعنى ؛ وبالتفكير في شيء آخر مختلف تماماً . وأخيراً فمن المؤكد أن التفكير يبدو في درجة من القرابة إلى الإبصار تشبه قرابته من الحركة اليدوية *manipulating* . هو يبدو أنه يقوم في رؤية النقطة ، وفي ملاحظة العلاقات . وعادات وطسون الكلامية *speech habits* المُستبدلة بالفعل الحركي الحقيقي تُخفي في إظهار كيف أن التفكير يذهب بك إلى ما وراء عاداتك السابقة . فلماذا يجب أن يؤدي ارتباط الكلمات : (هب أني نقلت البيانو هناك) إلى الاستمرار : (ولكنه قد يطغى على النافذة) ؛ كما لو كانت المسألة عادة كلام ؛ فشيء آخر أكثر من الكلمات يجب أن يكون له بالتحقيق وجود في الميدان ، وهذا الشيء يقوم بصورة ما في رؤية النقطة .

واعترضى الرئيسى على السلوكية — كما يمكن أن ترى — هو أنها تحرك بنجفة مع كثير من التشبث بالرؤية أو « الإبصار » *seeing* . وحتى لو سلمنا — ابتغاء المهادنة — أن كل إبصار يؤدي إلى استجابات حركية باطنة ، أليس الإبصار أهم جزء في استجابة الحركة الحسية كتمهيد لفعل ظاهر عملي ؟ لنذكر الشخص الذي يقرر في تجربة حسية : (أنا أرى لوناً أصفر) ؛ أليس أهم جزء في استجابته كلها ؛ « أهمها » لنفسه حقيقة كونه يرى اللون الأصفر ؟ قد يكون زلّ لسانه فقال أصفر حيث رأى الأخضر ، ثم يستمر مستخدماً ملاحظته وفقاً لما رأى لا وفقاً لما قال به . وتوجد مئات من الأشكال تحدث فيها هذه الصعوبة .

آراء وطسون في الانفعال والغريزة :

ولنعُد إلى نظرية الانفعال . وما يفترض وطسون هو أن الانفعال بوجه عام يقوم « في تغيرات عميقة لآلية الجسم في مجموعها ، ولكن خصوصاً للجهازين الحشوي والغُددي *visceral and glandular systems* » ؛ بينما كلُّ انفعال على حدة هو نموذج جزئي لهذه التغيرات * . « وفي غير تعارض مع حقيقة أنه في كل استجابة

* « علم النفس كما يراه السلوكيون » ١٩١٩ ص ١٩٥

انفعالية توجد عوامل ظاهرة مثل حركة العينين والذراعين والقدمين والحدع ؛ فإن العاملين الحشوى والغددى هما الغالبان «+ . وهذا الفرض يتبع على طول الخط نظرية جيمس لانجى James-Lange theory (٢١) ، والحق أن وطسون يأخذ عن لانجى باستحسان بينما يَصَبُّ اللوم على جيمس فى اعتباره مركب الإحساسات ناشئاً عن التغيرات الجسمية ، وكأنها مهمة من الناحية السيكلولوجية ؛ ولاعتماده جزئياً على الحججة الاستبطانية فى نظريته . ولكى نجعل من جيمس وطسوناً "آخر" ؛ فلنَمَحُ الإحساسات أو الشعور من الانفعال الكلى ، تاركين التغيرات الجسمية التى حاول جيمس كثيراً أن يجعل لها السيطرة .

ومع أنه من المتعذر أن تدخُل فى الأحشاء لنفحص هذا الفرض مباشرة ، فإنه توجد بعض قرائن خارجية يمكن دراستها كالنبض وضغط الدم . وقد كان هناك نشاط كبير فى العشر السنوات الماضية لدراسة كل أنواع التعبير الانفعالى من دورية (دموية) ، وتنفسية ، ووجعية ، وصوتية ؛ ولكن من بين النتائج المؤيسة تعذرُ النماذج الواضحة للاستجابة أو التعبير الانفعالى المتصلة بالمواقف المفزعة أو الملائمة التى وُضِعَ الشخصُ فيها ، أو بتقريره اللفظى عن الانفعال الذى * عاناه . فمن المحتمل إذن ألا يمكن تمييز انفعالين وكأنهما مجرد نموذجين حشويين ؛ من غير أن نقيم وزناً للسلوك غير الحشوى ، بل للمواقف التى يظهران فيها . ولعلنا نذكر أن كَنَن Cannon + قد عثر على نموذج حشوى متميز قوامه لإسراع دقات القلب ، وتقبُّض الشرايين ، وضغط الدم المرتفع ، وتوقف حركة المعدة ؛ مما يقوم على فعل القسم السميتاوى من الجهاز العصبى المُستَقَل وعلى إفرازات الغدد الأدرينالية adrenal glands ؛ ولكن هذا النموذج للعمليات الداخلية قد ظهر فى الخوف والغضب وفى الحالات المثيرة التى لم تكن خوفاً أو غضباً . والفرق بين الخوف والغضب يوجد فيما يبدو خارج المحيط الحشوى . ربما وُجد فى المواقف المختلفة التى تثير الانفعالين ، وفى الاستجابات الظاهرة المختلفة ، أو فى تركيب الاستجابات الظاهرة المختلفة والتهيو لها .

وغير هذا الفرض الخاص لإدخال الانفعال فى المذهب السلوكى ؛ فإن وطسون

+ « السلوكية » ١٩٢٤ ص ١٢٠ .

* لانديس C. Landis — مجلة علم النفس المقارن ١٩٢٤ . مجلد ٤ صص ٤٤٧ — ٥٠١

+ كَنَن W. B. Cannon التغيرات الجسمية فى الألم والجوع والخوف والغضب Badily changes

inhunger الطبعة الثانية — أيلتون ١٩٢٩

قد قام بمجهودات هامة في دراسة الانفعالات في الأطفال. فهو يرى ثلاثة نماذج متميزة في السلوك الانفعالي في كل طفل صغير ؛ يسميها الخوف ، والغضب ، والحُب ؛ ويصفها - بطبيعة الحال - في عبارات الموقف والاستجابة الظاهرة أكثر منها في حدود السلوك الخشوي الباطن . ولما كان لا يجد غيرها في حديثي الولادة من الأطفال ؛ فإنه يعتبر هذه الثلاثة وكأنها النماذج الانفعالية الأصلية ، وما عداها من العادات التي تتكون كعادات صُنعية manual ؛ فهي بعملية الاكتساب . فكانت المنبهات الطبيعية أو الأصلية للخوف هي الأصوات المرتفعة أو فقد المعونة (الانزلاق أو الوقوع) ؛ وللغضب تقييد حرية الطفل في الحركة ؛ وللحُب الرتّب والمداعبة . وقد وجد - بالتجربة - أن من الممكن أن نشرط طفلاً من أحد عشر شهراً باستخدام صوت قضيب من الصلب يدق على مقربة من الطفل خلفه في اللحظة التي يُطالعه فيها فأرأيض ؛ كانت استجابته له إيجابية منتظمة حتى ذلك الوقت . فالصوت المرتفع يُؤذّن ببدء المنعكس ، وأحياناً البكاء الخفيف وعلامات الخوف أو القلق الأخرى ؛ وبتكرار الصوت المرتفع كلما طالع الطفل الفأر ، كان الحجب سرعان ما يحكم باستجابة خوف شرطية للحيوان . وفوق هذا ، فإن هذا الحرف المشروط ظل قائماً . وبوجه عام ، تبين أن من الصعب إزالة المخاوف المشروطة بعد أن تتكون . ومن المحتمل أن استجابات الغضب والحُب المشروطة يمكن أن تنشأ بنفس الطريقة . والتجربة بهذا تظّهر كيف أن كثيراً من المخاوف والكراهات والعواطف يمكن أن تنشأ في الأطفال بطريقة لا عقلية* .

فلو أن معرفتك بالسلوكية كانت مأخوذة كلها عن كتابات وطسون الأخيرة ، فإنك سوف تهمني بالتواني - حتى هذه اللحظة الأخيرة - عن ذكر ما يدولك سلوكياً على جانب كبير من التمييز ؛ وأعني به : رفضه للغريزة ولكل آثار العقل الوراثية ، وتأكيده أن كل طفل سوى - في بيئته ومران صالحين - يمكن أن يكون منه أي نوع من الأخصائى شئنا : طيب ، محامى ، فنان ، تاجر كبير ، نعم ؛ وأيضاً متسول أو لص ؛ يَغضُّ النظر عن مواهبه واتجاهاته ، وميوله وكفايته ، وحرقة أسلافه وعنصرهم+ . وليس هذا الانتصار المتطرف للبيئة - extreme environ mentalism مرتبطاً من الناحية المنطقية بالمذهب السلوكى ، ولا صلة له مطلقاً

* السلوكية : ١٩٢٤ - ص ١٢٠

+ السلوكية : ١٩٢٤ ص ٨٢

بتفضيل علم النفس الموضوعي أو نبذ الاستبطان والشعور . فحينما كتب وطسون — في سنة ١٩١٤ — عن سلوك الحيوان خصوصاً ؛ كان عليه أن يقول كثيراً عن الغريزة . وفي سنة ١٩١٩ — وهو ينقد قائمة الغرائز الإنسانية كما عرضها چيمس وثورندايك — ما يزال يُعرِّف عدداً من الغرائز الإنسانية ، ويؤكد الأهمية الجوهرية للنشاط الغريزي كأساس للاكتساب . فهل أدرك وطسون تدريجياً فقط ما معنى السلوكية ؟ أم هل لدينا هنا مجرد تقدم تفكيره في موضوع بعينه ؟ إن السلوكي لا يستطيع أن يرتبط بقية حياته بمهمة التوسع المستمر بالمعاني العقلية للسلوكية . ومن أجل هذا أقول : من الممكن أن تكون سلوكياً وترفض هذه الفكرة الحزئية لوطسون ، أو من الممكن أن تقبلها ولولم تكن سلوكياً ، فهي ليست مسألة بين مدرسة وأخرى ؛ إنما هي مسألة حقيقة أو برهان . وما زال البرهان يأتي من الباحثين الذين يعملون ؛ لا كسلوكيين أو لاسلوكيين ؛ بل كطلاب لهذه المسائل المهمة المعقدة . وستظهر مشكلة الغريزة مرة أخرى في عرضنا لمدرسة القصد purposivist School . ومسألة الأهمية المقارنة للوراثة والبيئة في إحداث فروق بين الناس هي مسألة لا تتلاءم خصوصاً مع فكرتنا في عرض مدارس علم النفس . فمن ناحية ، موقف وطسون المناصر بقوة للبيئة هو موقف منطقي لمن يقول بالسلوكية . ويعترف وطسون أن ما انتهى إليه يتجاوز حد البرهان ؛ ولكنه يعتقد « من ناحية أخرى » أن من الحق حينئذ أن يتجاوز حد البرهان في هذا الجانب من المسألة ؛ لا لشيء إلا لأن الذين يقولون بالرأى المخالف أو الوراثي قد فعلوا نفس الشيء « آلافاً كثيرة من السنوات » . وهذه الرغبة في انتزاع الناس من تسليمهم بارتياح إلى الأفكار التقليدية ؛ ربما كانت أهم ما يميز سلوكية وطسون أكثر من أية فكرة خاصة له عن الاكتساب أو التفكير أو الانفعال أو الغريزة .

بعض مشاهير السلوكية الآخرين :

في اعتبارنا للسلوكية في أمريكا لم نعرض حتى الآن إلا إلى وطسون ؛ بوصفه سلوكياً بالتحديد . وقليل آخرون يجب أن نذكرهم — ولو لمجرد تصحيح الفكرة الخاطئة : أن السلوكية هي طائفة من شخص واحد one-man party . في سنة ١٩١١ كتب ماكس ماير Max Meyer (٢٣) ؛ في جامعة مسوري ، عن

(القوانين الأساسية لسلوك الإنسان^{*}) ؛ فكان قريباً من السلوكية، وهو يُعدّ الآن سلوكياً . ولد ماير في ١٨٧٣ ، وكان تلميذاً لعالم النفس الألماني الكبير كارل اشتumpf Karl Stumpf (٢٤) في برلين ؛ الذي كان - كما قلنا من قبل في ميلر - أحد صغار المعاصرين لفونت الذين أنشئوا في استقلال عنه معاملاً لعلم النفس في الأيام الأولى . وتخصص اشتumpf في سيكولوجيا السمع وفي الموسيقى ، فكان ماير مُتمماً خصباً لهذا اللون من الدراسة ؛ الذي لا يمكن بحال ما أن يُعد سلوكياً . ولكن ماير أصبح يعنى كثيراً بألية الأذن وبالمخ ، وانتهى إلى الظن بأن علم النفس الحقيقي الأوحده كعلم يجب أن يقوم على معرفة قوانين الفعل العصبي . وما يفعله هو - في كتاب سنة ١٩١١ - هو أن يضع قوانين وأشكالاً من الفعل العصبي يمكن أن تفسر حقائق الحياة الشعورية والسلوك :

« في مجرى عشرات السنوات القليلة الماضية ؛ ساد الاقتناع بأن علماً ذاتياً ، علماً يقوم على الاستبطان - من أجل قدرته المحدودة على التعميم - يستحق بصعوبة اسم العلم . ولكي يعالج هذا النقص الذي كُشِف ؛ أُدخِلت في العلوم العقلية مناهج موضوعية كذلك التي تُستخدم في العلوم الطبيعية لتكون مكملة للمنهج الذاتي في التأمل الباطني ...

وليست دراسة شعور الفرد « أوتركيب المخ » - بل دراسة القوانين العصبية لسلوك - هي التي ستهيئ لنا أن نفهم دلالة الفعل الإنساني للحياة الإنسانية في الفرد وفي الجماعة . وإنما توجد القيمة العلمية لعلم النفس الباطني في مجرد كونه يُعيننا على كشف قوانين الوظيفة العصبية » .

فكأن ماير إذن يعتقد أن الاستبطان يمكن أن تكون له فائدة لعلم النفس ؛ على أن تكون الاستعانة به ليلقى ضوءاً على الفعل ، لا ليصف الخبرة الشخصية كما هي .

وقد أحب أن أوجه انتباهك خصوصاً إلى عنوان كتاب آخر لماير : علم نفس الآخر The Psychology of the Other One⁺ - الذي نُشر في سنة ١٩٢١ ، واتخذ على أنه متن تمهيدى introductory text-book . ويبدو العنوان

* ماكس ماير Max Meyer : القوانين الأساسية لسلوك الإنسان بادجر (R. G. Badger)

١٩١١ - ص ٤ - ٢٣٩

+ نشره لوكاس بروس Lucas Bros

لأول وهلة غريباً لكتاب عام في علم النفس ، وربما اعتقدت أنه يعرض بالدرس لموضوع خاص ؛ ولكن العنوان يُجسّم وجهة نظر المؤلف : فالموضوع الخاص بالدراسة في علم النفس هو « الشخص الآخر » ؛ وهو الفرد الذي ينبغي ملاحظته . فالمؤلف بهذا يدفع الطالب بعيداً عن هذا التصور التقليدي لعلم النفس أنه أولاً وقبل كل شيء دراسة الشخص نفسه the study of oneself ؛ بل هو ينبغي أن يكون أولاً دراسة الآخرين . وهناك عدة أسباب من أجلها كانت هذه وجهة نظر طيبة : فأنت في شخصك معنىً بأفعالك الخاصة ، ومن المحتمل أن تتحرف في ملاحظتك . وأيضاً ؛ فإن دراسة الآخرين من الناس تحمل على اصطناع المناهج الموضوعية (الخارجية) .

فدراسة « الشخص الآخر » في الواقع لا تستبعد التأمل الباطني ؛ لأنك ربما طلبت إلى هذا الشخص الآخر أن يكون موضوع تجربتك ، وجعلته يستبطن لك . وبيار - الذي ذكرنا من قبل أنه أحد جماعة كيليه الذين درسوا عمليات الفكر بالمناهج الباطنية - قد قرر أنها هنا ملائمة ؛ فقال إن الباحث في تجربته عن التفكير يجب أن يعرف أن عليه أن يدرس عمليات تفكير الآخرين أكثر من دراسة عملياته هو . فالجرب ينظم الموقف ، ويهيئ المنبهات ، ويحدد لموضوع التجربة مهمته ؛ ثم بعد هذا - كما يقرر بيار - يكف الجرب عن أن يرى بعينه هو ، ويبدأ يرى بعيني موضوعه . والشخص موضوع التجربة يقوم بالملاحظة ويسجلها ، ولا شأن له بأكثر من هذا . لا شأن له بافتراض أن الجرب يختبر ، ولا في أى الوجوه تستخدم ملاحظاته ؛ إنما هو يقدم فقط الحقائق الغفل raw data التي يعمل عليها الجرب . فإذا فحص الجرب افتراضه بملاحظات عن نفسه ؛ فإن ملاحظته ربما تأثرت بالفكرة السابقة إنما هو يجعل موضوعه - ما استطاع - في جهل بما ترمى إليه التجربة ؛ حتى يضمن معلومات نزيهة . وذلك في الواقع هو أمثل طريق للعمل في العمل بوساطة منهج الاستبطان ، وبمنهج التأثير ، وبالمناهج الخارجية كذلك . فهنا - كما في أى موضع آخر - كان عمل الباحثين على تقدم التعريف النظري .

فبالنظرية والحد كان ثورياً بعض الشيء أن يفهم علم النفس على أنه دراسة الآخر . فلدينا العالم النفسى « م » يقول إن مهمته هي أن يدرس الخبرة . هذا حسن ، وطبيعى أنه يفكر في الخبرة كما هي لديه ، وكما هي متركزة في نفسه . ولكن

لنفرض أن عالماً بيولوجياً — قد تعود دراسة الكائنات العضوية — انقلب عالم نفس ، وارتد عن وجهة نظره البيولوجية ، وأنه يضع نفسه لدراسة الكائن « ن » ؛ كائناً آخر غير نفسه . فهو يدرس أفعال « ن » هذا ، وربما أراد أن يدرس خبراته . فإذا استطاع أن يتصل مع « ن » عن طريق اللغة ؛ فقد يجعله يقرر خبراته ، وقد يقبلها على أنها تقارير صادقة لخبرات « ن » . وبهذا يصبح الموقف السيكولوجي على حقيقته : لا أن « م » يواجه الكون ، بل أن « م » يدرس شخصاً هو « ن » هو الذى يواجه الكون . ووجهة النظر هذه قد أخذ بها السلوكى بالضرورة ، وما زال يأخذ بها أيضاً أصحاب التأمل الباطنى .

ومن بين تلاميذ ماير؛ فايس A.P. Weiss^(٢٥)، بجامعة ولاية أوهايو ، (ولد سنة ١٨٧٩) . وهو مجرب نشيط، ودارس لسيكولوجيا الطفل يجب أيضاً أن يذكر بين أقطاب السلوكيين . وكتابه « أساس نظرى للسلوك الإنسانى »* (١٩٢٥) ؛ يحاول أن يبين الطريق الذى يستطيع به علم النفس أن يأخذ مكانه بين العلوم الطبيعية . وهو بحث علماء النفس أن يتخلوا عن بعض ادعاءات تبعدهم عن حظيرة العلم . وأخص ادعاء يذكره : هو أن علم النفس يتوصل — عن طريق الاستبطان — إلى طائفة من الحقائق أو الكائنات ليست مادية؛ ولا يمكن بالتالى أن يتعرض لها العالم الفيزيقي والكيميائي والبيولوجي . ويقترح أن علم النفس يجب أن يسلم بأنه لا توجد كائنات عليا فوق ما نعرفنا به الفيزيقا . قد لا تكون الفيزيقا فى الوقت الحاضر بلغت تحليلها النهائى ، ولكن — بالقدر الذى وصات إليه — يبدو أن الإلكترون والبروتون هما الموجودات الأساسية . وعلم النفس يجب أن يعترف — كما يقول فايس — بالإلكترون والبروتون بوصفهما كائنته الأساسية ؛ من غير أن يدعى أن له طائفة أخرى من الكائنات خاصة به . حقاً إنك فى المعمل السيكولوجي أو المرضى clinic لا تستخدم مصطلحات الفيزيقيين ، ولا تقرب كثيراً من الإلكترونات والبروتونات ؛ ولكن ذلك لا يفعله أيضاً البيولوجي، وحتى الكيميائي — الذى يعنى " غالباً " بالذرات وكأنها غاياته النهائية ultimates . على أننا نستطيع جميعاً أن نخلع قبعتنا للألكترونات والبروتونات ، ونعترف بصفة نهائية أن كل العمليات الكيميائية والبيولوجية ؛ بما فيها الذى نعرفه عادة باسم العمليات العقلية . — ولم يكن فايس ليستعمل قطعاً كلمة « عقلية »، ولكننا سنفعل ذلك فى غفلة منه لكى

نُوحَد فقط بين العمليات التي نتحدث عنها - يمكن أن نعرف أن كل هذه العمليات تقوم بصفة نهائية في تحرك الإلكترونات والبروتونات ، وفوق هذا أن هذه هي الفيزيكا في صورتها النهائية ؛ وحينئذ فإن علم النفس - ونحن متفقون هنا مع فايس - لن يدعى أن له عالماً خاصاً به يدرسه ، وإنما يأخذ بوجهة النظر القائلة إن ظواهره ظواهر طبيعية قابلة لنفس هذا التحليل النهائى كغيرها من الظواهر .

ويتقدم فايس ليبيّن ما تستطيع أن تفعل بعلم النفس من غير أن تفترض أية حقائق منفصلة عن الحقائق الفيزيقية . وهنا يجد أن من بين الحقائق البيّنة جداً في الكائن الإنسانى أنه يوجد في محيط اجتماعى . فسلك فرد ما يفعل فعل المنبه في إثارة سلوك فرد آخر . وارتقاء الفرد يهيمن عليه إلى حد كبير الموقف الاجتماعى الذى يرتقى فيه . وإذن فالسلوك الإنسانى سلوك اجتماعى . ومع هذا فقد يكون من التحيز في تأكيد هذه الحقيقة أن نستبعد حقيقة أخرى ؛ هي أن كل سلوك هو نشاط بيولوجى . فالإنسان حين يصبح اجتماعياً ؛ لن يصبح أقل من ذلك بيولوجية . وكل عملياته بيولوجية كما لو كان حيواناً منعزلاً . ولكى يُصنّف كلا الجانبين يضع فايس كلمة بيواجتماعى biosocial ليصف بها السلوك الإنسانى . فيدان علم النفس هو العمليات البيواجتماعية ، ووجهة نظر علم النفس هي البيواجتماع . ويبدو أنها كلمة صالحة لأن يستخدمها علم النفس ، مشيراً - كما تفعل هي - إلى الصلات الوثيقة التي يجب أن يجعلها علم النفس بين العلوم البيولوجية من ناحية ؛ والعلوم الاجتماعية من ناحية أخرى . وأحياناً ما ينشأ الجدل حول وجوب إدراج علم النفس مع العلوم البيولوجية أو العلوم الاجتماعية . إنه في الواقع بيواجتماعى ، وموضعه الوسط بين العلوم التي تدرّس الإنسان والكائنات الحية الأخرى إنما يمكن له أن يحتلّ مركزاً مهماً في العلم ككل - مركزاً أهم بكثير مما يمكن أن يصل إليه بادعائه أن يكون له عالم منفصل خاص به يدرّسه .

على أنه بينما تختلف سلوكية فايس عن سلوكية وطسون بعض الشيء - فيما تشبث به كل منهما - فليس ثمة تعارض حقيقى . ومن الناحية الأخرى ، ليس ثمة تعارض أيضاً بين تصور فايس لعلم النفس وبين استخدام المنهج الباطنى في المعمل . لأن الموضوع في تجربة لكى يصف الصورة البعدية after-image ؛ والمجرب لكى يقبل هذا الوصف على أنه يبين أن الموضوع قد رأى بحق ما يصف رؤيته ؛ ليس يلزمهما في شيء أن نكون نختبر عالماً مختلفاً - في معمل علم النفس

— عن العالم الذى يلاحظه الفيزيولوجى والبيولوجى . فالصورة البعدية عملية بيولوجية تحدث فى جهاز إبصار الشخص الموضوع . والشخص وحده يستطيع أن يلاحظها ؛ لأنها عملية تحدث فقط نتيجة تأثير ملائم بالضوء . وأنت — كمجرب يراقب هذا الشخص — لا تستطيع أن ترى هذه الصورة البعدية لمجرد أن جهاز إبصارك الخاص لا يستقبل هذا المؤثر اللازم . ولو أننا استطعنا أن نجد للصورة البعدية مكاناً فى عالم العمليات الطبيعية العام ؛ فلن يكون ثمة ما يمنع من أن نجد مكاناً لصورة الذاكرة أيضاً memory-image ، ولضرس الأسنان toothache ، أو أى شعور بالابتهاج أو الابتئاس . فما يبدو أنه قد حدث لأصحاب السلوكية ، هو أنهم بعد أن تدخلوا فى فلسفة أحدثت تشككاً متيافيزيقياً فى هذه الأمور ؛ قد أخفقوا فى أن يفكروا فى المسألة على أساس من علم طبيعى شامل ، وإنما قفزوا فى رد فعل قوى متطرف . وإذ علموا أن الاستبطان يقال إنه يكشف عن عالم آخر ؛ أجابوا بقولهم « سحقاً للاستبطان ! away with introspection » . وذلك رد فعل لفلسفة معينة لا لعمل حقيقى فى المعمل استخدم فيه منهج الاستبطان .

وسلوكى بارز آخر ؛ هو والتر هنتر Walter S. Hunter^(٢٦) بجامعة كلارك . (ولد فى سنة ١٨٨٩) ، وكان تلميذاً لأنجل J. R. Angell ، وأيضاً هارفى كار Harvey A. Carr^(٢٧) بجامعة شيكاغو . (وكان — الذى ولد فى سنة ١٨٧٣ — وإن استحق أن يُشاد بذكره بين علماء نفس الحيوان ، لا يمكن أن يدرج فى قائمة السلوكيين . هو قد كان يدرس السلوك ، ولكنه لم يكن سلوكياً ؛ ويوجد من هذا النوع كثير) . وقد صك هنتر اسماً جديداً لعلم السلوك الإنسانى* . فهو يسميه الأنثروپونوميا anthroponomy ؛ ومعناه علم الإنسان . فكلمة « سيكولوجيا » — كما يعتقد — لا يمكن أن تستخدم بالتحديد لدراسة السلوك ؛ لأنها بالاشتقاق تعنى دراسة ما هو نفسى the psychic . وقد يردُّ بأنَّ الكلمات يمكن أن تتغير معانيها بتغير الأزمان — وأن الفيزيقا والفيزيولوجيا يجب أن يكونا بالاشتقاق علماً واحداً — وأنه إذا رجعنا بعيداً إلى الأصل اللغوى لكلمة سيكولوجيا ؛ فنسجد معناها اللفظى « علم النفس science of breathing » . فما يريد هنتر حقيقة

* راجع هذه المقالة فى مجموعات : سيكولوجيات ١٩٢٥ (مطبعة جامعة كلارك) وسيكولوجيات ١٩٣٠ (مطبعة جامعة كلارك) وكتاب : السلوك الإنسانى (مطبعة جامعة شيكاغو ١٩٢٨)

هو لاشك اسم واحد لـ « علم السلوك » ؛ على أن كثيراً منا لن يُقرُّوا تخليهِ عن اسم « سيكولوجيا » للوجوديين وكأنه خاص بهم . وسأقتبس شيئاً مما يقوله هنتر كتنبه لفكرك ، وفي غير محاولة لمناقشة المسائل المقترحة :

« علم النفس — إن دلت الكلمة على شيء — معناه دراسة العوامل النفسية ؛ أو العمليات ، أو الحالات . وبالقدر الذي يُحدُّ به علم النفس على أنه علم الخبرة المباشرة ؛ فإن هذه الخبرة المباشرة يُنظر إليها وكأنها شيء عقلي ...

«ولو أننا سألنا سيكولوجياً معاصراً ماذا يعنى بكلمة شعور أو خبرة ؛ فإنه سيجيب بذكر أشياء كالحلو ، والأحمر ... والورد .. والألحان ... وأحب أن أقول إن الشعور أو الخبرة عند العالم السيكولوجي هي مجرد اسم يُطبقه على ما يسميه الناس بيئة الإنسان environment of man .

«ويحاول عالم النفس أن يفهم الطبيعة الإنسانية بتسمية هذه البيئات الداخلية والخارجية عقلية mental ، ثم بالتقدم لدراسة وتحليل هذه البيئات ... ومنهج علم النفس لدراسة الإنسان هو بهذا منهج غير مباشر ؛ بمعنى أن النتائج المتعلقة بطبيعة الإنسان إنما تُستخلص من دراسة ظاهرية للبيئات الإنسانية . ومثل هذا المنهج كان من الناحية النظرية جديراً بالمحاكمة منذ خمسين عاماً . وفشله كمنهج لتحليل الطبيعة الإنسانية قد أدى إلى ظهور الأنثروپونوميا (علم الإنسان السلوكي) .

والمنهج العام للأنثروپونوميا هو منهج الملاحظة المباشرة والتجربة ؛ متخذاً من السلوك العضوي الإنساني مادة لموضوعه ... ووجوه السلوك الإنساني — التي هي بوجه أخص ما يعنى به علم الإنسان — هي السلوك اللغوي ، والتعلم (الاكتساب) ، وتبادل التنبيه والاستجابة ، والتنبؤ بالسلوك على أساس أفعال نموذجية .. ويوجه علم الإنسان همه إلى وجوه أخرى كثيرة من السلوك الإنساني . فهو يدرس النواحي التكوينية من السلوك الإنساني عن طريق سلوك الحيوان والطفل . وهو يعنى في جِدِّ بالسلوك الشاذ وبوظيفة عضو الحس .

وإلى جانب آرائه في الأسس النظرية للسلوك ؛ فإن هنتر مشهور بأنظاره الهامة في العلم نفسه — مهما يكن من أمر تسميته — خصوصاً في كشفه للرجع التخلفي delayed reaction في الحيوان والطفل .

السلوك والمخ كما درسهما فرانتس ولاشلى :

ودون أن نتوسع في تعداد كبار السلوكيين إلى هذا الحد الكبير ؛ فإنه يجب حتماً ألا نغفل لاشلى Lashley^(٢٨) الذى هو من أكثرهم إنتاجاً . ولد في سنة ١٨٩٠ ، وكان لاشلى الابن السيكولوجى أو السلوكى لوطنس ؛ وإن كان دائماً رجلاً ذا رأى مستقل . وهذه بعض مقتبسات تبين نزعتة السلوكية* . فهو يعلن نفسه معارضاً للذاتية ، ولأى ادعاء بأن الاستبطان يُظهر حالة واحدة للوجود ليست تُحد بالفاظ موضوعية . « إن الذى يقول بالذاتية يدعى عالماً من الأشياء اللامادية كموضوع لدراسته » . والقائل بالذاتية — فى هذا الصدد — لا يمكن أن يكون عالِم النفس الوجودى ، الذى يبدأ بأن يقول إن حقائق الفيزيقا والسيكولوجيا الغفل هي هي بعينها . « والسلوكى ينكر الإحساسات والصور وكل الظواهر الأخرى التى يدعى الذاتى أنه يكشف عنها بالاستبطان » . ذلك هو موقف السلوكى المألوف ؛ ولكن لاشلى يستطرد ليبين أن كل مكتشفات التأمل الباطنى — ما كان منها صحيحاً — يمكن أن يُعبّر عنه بالفاظ موضوعية ، وأن لها بذلك موضعها فى علم النفس السلوكى . وفى غير أن يحاول تقدير أدائه لهذه المهمة ؛ وأن يحكم ما إذا كان قد أنصف كل مكتشفات التأمل الباطنى الحقيقية ؛ أو أن يقرر هل نجح تماماً فى التعبير عنها جميعاً بالفاظ موضوعية . ؛ فإننا نستطيع أن نعرف أن ما انتهى إليه مفيد من ناحيتين : فهو قد أظهر أن الذاتية لا لزوم لها إطلاقاً فى علم النفس ، ولكنه قد بين أيضاً أن السلوكية — بعد كل هذا — لا اعتراض لها جوهرية على الاستبطان . فالسلوكيون يمكن أن يكونوا ناقدين له وحذرين فى استخدامه ، لما فيه — كمنهج للملاحظة — من صعوبات ومهاوى لا شك فيها ؛ ولكن اعتراضهم عليه لن يمكن أن يكون جوهرية إذا استطاعوا أن يعبروا عن نتائج الاستبطان بالفاظ موضوعية ، ويصطنعوها فى علم النفس الخاص بهم .

وما يعنى لاشلى ووطنسون وغيرهما من السلوكيين حين ينكرون الأحاسيس والصور ؛ هو أكثر — فيما أرى — مما أستطيع أن أفهم . ولنأخذ الصور . فإذا هم فاعلون بشخص يقول : « عند ما أقرأ ما كتبت ؛ أستطيع أن أسمع بالضبط نغمة

* لاشلى K. S. Lashley : التفسير السلوكى للشعور ؛ مجلة علم النفس (١٩٢٣) مجلد ٣٠

صوتك» ، أو مع آخر يقول : « عند ما أسمع صوتك في التلفون ؛ أستطيع أن أرى وجهك » ، أو مع ثالث يحكى حلماً رأى وسمع فيه أشياء معينة ؟ هل يعنون أن هؤلاء الناس بكل بساطة يكذبون ، أم أنهم يتبعون تقليدا يرقى إلى وهم لا طائل تحته ؟ الظاهر أنهم ليسوا مستهترين إلى هذا الحد ، ولكنهم يعنون أكثر أن الصورة ليست " في حقيقتها " ما يُظن بها أن تكون ، أى ليست بصرية أو سمعية (إلا بالقدر الذى يمكن أن تلعب المنبهات البصرية أو السمعية الحاضرة دوراً فيها فعلاً) ، وإنما هى فى الواقع نوع من نشاط حركى باطن على نحو الكلام الباطن inner speech . ومثل هذه الفكرة ستكون فرضاً جيداً بالاعتبار لتفسير الصورة ، ولكنها ينبغي أن تُسلم بحقيقة الصورة - وإلا لما كان هناك شيء لكى تفسره . وبمثل هذه الطريقة ، افتراض وطسون أن التفكير كلام دون الصوت subvocal speech جدير بالاعتبار ، ولكنه لا يذهب بعيداً بحقيقة التفكير فى شيء . لا أستطيع بالضببط أن أتبين أين يختبئ اليوم شبح الذاتية . ويبدولى أنى لم أره يرفع رأسه فى الدوائر السيكلوجية هذه الثلاثين سنة أو أكثر . على أنه لا بد أن يكون فى مكان ما ، لأنه ؛ ألسنا نرى السلوكيين يُوالون هجماتهم على الميدان ويتبارزون فيه ؟ .

ولكنه لن يكون من العدل أن يترك لاشلى الفكرة التى كثيراً ما اشتغل بالفصال من أجلها . لقد قام بعمل كثير ، وقدم آراء قيمة فى علم النفس الحيوانى الفيزيولوجى . وأكثر شهرةً عمله فى تحديد موضع الوظائف العليا للحاء فى المخ . فان نتائجها السالبة قد انتزعت انتباه الفيزيولوجيين والسيكلوجيين على السواء .

وقصة تحديد المراكز فى المخ brain localisation تبدأ بجول Gall (٢٩) عالم طبيعة العقل phrenologist حوالى ١٨٠٠ . كان جول عالم تشريح ذا روح علمى ، راعه الحجم الشاذ لرؤوس بعض الأفراد الذين كانت صفاتهم العقلية غريبة أيضاً ؛ فأدرك فكرة أن هذا النمو غير المتعادل لأجزاء مختلفة من المخ هو المسئول عن هذه الصفات الغريبة ، وعن حجم الجمجمة . وظن من الممكن أن يوضح بالرسم سطح المخ فى عدد كبير من المستويات أحدها للمحبة friendliness ، وآخر للاشتياق acquisitiveness ، وثالث للتهيب reverence ، ورابع للبداهة wit ، ثم للغة والعدد . هذا المذهب الفيزيولوجى لتحديد المواضع لم يكن يقوم على أية دراسة فيزيولوجية مباشرة للمخ . وفى حوالى ١٨٢٥ ، بدأ الفيزيولوجيون يُجرّون

التجارب على مُخ الحيوان ، فلم يستطيعوا أن يجدوا شيئاً يقرب من رسم جول للأعضاء المحددة الموضع . وأعلن فلورنس Flourens — (٣٠) رائد فيزيولوجيا المخ في ذلك الحين — أن المخ يعمل ككل . وفي حوالى ١٨٧٠ : هياً العمل الدقيق المتواصل للفيزيولوجيين أن يبدؤوا بإظهار مناطق معينة كانت تتعلق بالتحديد بوظائف معينة . ولكن هذه الوظائف لم تكن تشبه وظائف قائمة جول . وقد قام فيما قبل ١٩٠٠ الدليل المحدد على أن كل حاسة من الحواس العليا لها منطقة من اللحاء تحيط بوصفها ؛ تبين ذلك من ربط المناهج التشريحية والفيزيولوجية بدراسة إصابات المخ في الإنسان . فشبكية العين مثلاً مرتبطة بخيوط عصبية بمنطقة صغيرة نسبياً من الفص الخلفى occipital lobe في مؤخرة المخ ، وتحطيم هذه المنطقه تحطيم تاماً في الإنسان يجعل الفرد أعمى . وفوق هذه المناطق الحسية ؛ حُددت المناطق الحركية أيضاً . فهى من الناحية التشريحية لها بالعضلات صلات مباشرة أكثر ، وتحطيمها في الإنسان يؤدي إلى شلل الحركة motor paralysis . والحرب العالمية — بقذائفها الكثيرة وجراحها الدامية ، وبتأثيرها في نقط صغيرة محددة من اللحاء — قد أتاحت فرصة واسعة لاختبار هذه النتائج ، فزاد ذلك في تأكيدها . على أن كل المناطق الحسية والحركية معاً لا تُكوّن من لحاء الإنسان إلا جزءاً صغيراً . وفي التركيب الميكروسكوبى يظهر أن بقية اللحاء ليست على نسق واحد ، وعلى فرض احتمال أن اختلاف التركيب يعنى اختلاف الوظيفة ؛ فقد اعتقد أن التحديد الموضوعى الأكثر — تحديد مواضع الوظائف العليا — قد يكون ممكناً . ومتى دُرست الوظائف العليا بالإشارة إلى تحديدها الموضوعى ؛ فقد آن أن يرتبط علماء النفس بالفيزيولوجيين في دراستهم . وفرانتس (٣١) الذى جمع بين العلمين في شخصه قد نهض بهذه المهمة . وكان فرانتس (المولود في ١٨٧٤) تلميذ كليل ، ومساعدته الرئيسى سنوات كثيرة في معمل كولومبيا ؛ حيث اشتغل ثورندايك في سنة منها بدراساته في تعلم الحيوان . ووقف فرانتس بعد عدة سنوات على الفيزيولوجيا ، وبعد ١٩٠٠ بقليل ؛ توصل إلى منهج في دراسة التحديد الموضوعى للوظائف العليا عن طريق ربط مناهج ثورندايك في تمرين واختبار الحيوان بالمنهج الفيزيولوجى في استئصال أجزاء المخ . فمثلاً لرؤية ما إذا كانت الفصوص الأمامية frontal lobes لقط من شأنها اكتساب استجابة الهروب من قفص بتحريك زر ؛ كان يُعلم الحركة للحيوان أولاً ، ثم يستأصل الفصوص الجبهية (الأمامية) ، ويترك للحيوان وقتاً يستجمع

فيه من صدمة العملية ، ثم يختبر الحيوان ليرى ما إذا كانت الحركة باقية . فإذا لم يكن ؛ تقدم فأعطى الحيوان فرصة تعلم الحركة من جديد . وقد أظهرت نتائج اختباراته على الفصوص الأمامية أن فقد هذا الجزء من المخ يؤدي إلى ضياع الحركات التي اكتسبت ، ولكنه لا يمنع الحيوان من إعادة اكتساب نفس الحركات بنفس السهولة تقريباً التي تعلمها بها قبل الإصابة . وقد أتبع فرانتس هذا الاكتشاف الخصب في سنوات كثيرة بنتائج قيمة ؛ من بينها نتائج ذات قيمة علمية في إعادة تعليم المصابين بالشلل الحركي والتعبيري اللفظي من الناس* paralyse and aphasic patients

وعلى هذا النحو من الدراسة بدأ لاشلي بوصفه معاوناً لفرانتس . فأظهرها في سنة ١٩١٧ نتائج تطبيق منهج التمرين والاستئصال على حيوان المعمل المحبوب — الفأر الأبيض — وهو حيوان صالح جدا لتعلم التجارب ، وإن كان في الواقع أكثر بُعداً عن الإنسان في نمو المخ من القط أو القرد . وتبع لاشلي هذا النحو من الدراسة بكل جد وبتنتائج مذهشة ، وإن كانت مُحْيِيَةً بعض الشيء . فليس شك في أن نتائجه — شأنها شأن نتائج فرانتس — مُحْيِيَةٌ لِمَنْ من يتوقع أن يجد فيها مركزاً صغيراً واضح التحديد لكل فعل مكتسب . فبينما فقد أي جزء كبير من اللحاء يعطل تعلم الفأر ؛ فإنه يبدو في القط أن لا كبير فرق بين أي جزء من اللحاء ننتزع وأي جزء نترك له ليتعلم به . فظاهر أنه يتعلم المتاهة maze بأحد الجزئين تعلمه بالآخر . وكلما كان مبلغ اللحاء المستأصل أكبر ؛ كانت عرقلة تعلمه أكثر . والواقع أن الحركات اليسيرة تكتسب بسرعة أكبر حتى ولو لم يبق من اللحاء إلا نصفه ، أما الحركات الصعبة فهي مستحيلة الاكتساب غالباً إذا تركنا هذا القليل من اللحاء. ولاشلي يُلخِّص ما انتهى إليه في مبدئين* :

مبدأ القوة المتعادلة principle of equipotentiality : أى جزء من اللحاء له من القوة ما لغيره في قدرته على المشاركة في أي نوع من الفعل المكتسب . وليست المناطق الحسية والحركية داخلية في هذا التقرير .

* فرانتس S.I. Franz : مجلة الفيزيولوجيا الأمريكية (١٩٠٢) مجلد ٨ ، ص ١ — ٢٢ ؛ سجلات علم النفس Archives of Psychol. : رقم ٢ ، ١٩٠٧ ؛ وأوراق أخرى كثيرة متأخرة .

* (١٩٢٩) لاشلي K.S. Lashley آليات المخ والذكاء Brain Mechanisms and Intelligene

مبدأ الفعل الكلى mass action : فاللحاء يفعل ككلى ؛ حتى أنه كلما كان اللحاء وجوده أكثر ؛ كان أكبر أثراً فى فعله وكان الحيوان أسرع تعلماً .

ودراسة الوظيفة اللحاءية تؤخذ على أنها معقدة وشاقة ، ولا نستطيع أن نأمل أن يكون لاشلى قد قال فيها الكلمة الأخيرة . فأن يكون « اللحاء يعمل ككلى » لا يمكن أن تؤخذ بحرفيتها ، بل بمعنى أنه يعمل فى نماذج واسعة الانتشار أو أنظمة ديناميكية ؛ لا فى مراكز يحدد موضعها بدقة . وكما بين لاشلى ؛ تميل نتائجها كلى الميل لأن تكون ضد قبول دورة المنعكس البسيط وكأنها الوحدة التى تتركب منها وظيفة المخ . ومن هنا فإننا لا نستطيع أن نعتقد أننا بتغليب فكرة الفعل المنعكس على فكرة المنعكس البسيط قد وضعنا مفتاح كلى سلوك مكتسب . ونتيجة أخرى للاشلى ، تُعين - بتتبع عمل وطسون - على تقوية هذه النتيجة : فالجربى خلال المتاهة يمكن أن يُظن به أنه سلسلة خطوات أو دورات ، فيسهل إذن أن يؤخذ وكأنه سلسلة أفعال منعكسة . وقد بين وطسون أن الفيران التى تمرنت على المتاهة يمكن أيضاً أن تظل تجرى فيها جريباً صحيحاً ؛ حتى ولو جردت بالفعل من البصر والشم والسمع أو معظم اللمس ، وحتى ولو نُزعت منها هذه الحواس جميعاً . وانتهى إلى أن الاحساس الذى يتبقى - وهو الإحساس العضلى - يجب أن يعطى الإشارات الحسية التى تُمكن الحيوان من تتبع الطريق الذى تعلمه ، وتبعاً لهذا أمكنه تفسير جربى المتاهة بسلسلة من المنعكسات ، كلى حركة تعطى فى الحاسة العضلية تنبيهاً للحركة التالية لها فى الترتيب . إلا أن لاشلى قد وصل إلى إزالة الحاسة العضلية أيضاً ؛ بقطع الطريق المؤدية إليها فى الحبل الشوكى ، فظلت الفيران تجرى المتاهة جريباً صحيحاً . وقد أقام الدليل أيضاً على أن الفأر - فى التعود على المتاهة - قد اكتسب نوعاً من توجيه عام أو اتجاه فى طريق الخروج ؛ حتى أن جربى المتاهة هذا لم يكن مجرد سلسلة منعكسات . وليس شك فى أن مكتشفات لاشلى الحديثة هذه قد كانت مزعجة بعض الشئ لكثير من السلوكيين الذين أحبوا المنعكس ، والمنعكس الشرطى ، وسلسلة الانعكاس ؛ لأنها بدت مؤدية إلى تفسير بسيط للسلوك وإزالة « الغموض » . ومع هذا فأنا لا أفهم أن السلوكية معلقة على فرض أو تفسير ؛ إلى درجة تجعلها تهتز بخطورة عندما يتحتم على هذا التفسير الخاص أن يتخلى لآخر أكثر منه كفاية . فإن السلوكية هى روح أو اتجاه أكثر منها نظرية ثابتة . ووجه ممتع فى هذه المكتشفات الحديثة : هو أنها تُقرب معاً السلوكيين وعلماء

النفس الجشطاليتين - الذين سنعرض لهم في الفصل التالي - أكثر مما كان يُظنُّ يوماً من الأيام .

مدلول السلوكية :

وأنا مُهَيَّأٌ للاعتقاد بأن الخمسين سنةً التاريخية منذ الآن - إذ تُطلُّ على الثلاثين سنة الأولى لهذا القرن - ستُعلِّقُ دلالة كبيرة على الحركة التي نسميها الآن بالسلوكية . ولكنني أعترف أُنِي في حيرة من أن أتبين بالضبط أين يوجد موضع دلالتها . فقد كانت ذات جاذبية قوية للجيل الناشئ من علماء النفس ، ولبعض من ليسوا ناشئين ، وإنما كانت ذات جذب أقوى في خارج صفوف علماء النفس . فما هي إذن طبيعة هذه الجاذبية ، وما عناصر هذه الحيوية ؟

بدأت السلوكية أول الأمر وكأنها إصلاح منهجي ، تَحُثُّ على استخدام المناهج الموضوعية وتُبطل استخدام الاستبطان . ولا نستطيع أن نعزو إليها فضل إدخال المنهج الموضوعي في علم النفس ؛ لأن هذا المنهج قد كان مستعملاً قبل طويلاً . وهي لم تُدخل التجريب على الحيوان في علم النفس ؛ اللهم إلا إذا نحن اتبعنا في الواقع علماء النفس الأوربيين الذين - بنظرهم غير بعيد إلى ما نعمل في أمريكا - يَعُدُّون ثورندايك السلوكيَّ الأول . وحين تفعل هذا فإنما نُورِخ للسلوكية بسنة ١٨٩٨ بدلاً من ١٩١٢ ، ونقل الجدل حول « قانون الأثر effect law » ، ونوسع طائفة السلوكية إلى حد كبير ؛ وذلك هو ما يحتمل أن تفعل بنا الخمسون سنة التاريخية من الآن . وإن صح ذلك فربما شملت أيضاً بافلوف وبخترف ، فأمكن إذن أن نقرن السلوكية باكتشاف منهج المنعكس الشرطي في التجريب . وفيما عدا هذا ، ربما كان من الصعب أن نقرن السلوكية باكتشاف أى منهج موضوعي خاص آخر . ولن نستطيع أن نعزو إلى السلوكية فضل الحمل على استبعاد الاستبطان من علم النفس ، لأن علماء النفس الباطنيين قد استمروا في عملهم - وبعضه عمل مهم جداً - ولا دليل على أن التأمل الباطني في سبيل الاستبعاد . وقد رأينا السلوكيين يقولون به تحت اسم « التقرير اللفظي verbal report » ، ويبيِّنون أن ما توصل إليه يمكن أن يُردَّ إلى علم نفس موضوعي . وقد رأينا أن استخدام الاستبطان كمنهج للبحث لا يؤدي بالباحث إلى أية ذاتية ، وأنه يتفق مع تصور علم النفس « علماً طبيعياً » بالمعنى الصحيح .

وقد كان للسلوكية أثر في الحدود والتصورات التي استخدمها علماء النفس أكبر منه في مناهج تحصيلهم لحقائقهم . ومن قبل كان علماء النفس الذين يدرسون الفعل بحق أهلاً لأن يُجمعوا على القول بأنهم يدرسون نوعاً من « تحويل الشعور » modification of consciousness ، وهو تعبير قبيح من وجهة نظر الوجودى قُبْحَه من أية وجهة أخرى ؛ ما دام قد وضح له تماماً الفرق بين وصف الفعل ووصف الخبرة كما هي . فقسم كبير من العمل السيكلوجى يقوم فى دراسة الفعل ، وقد أدى السلوكيون خدمة إلى علم النفس بَحْمَلِنَا على أن نتحدث بألفاظ الفعل عندما يكون ذلك هو ما نعى .

على أننا لا نستطيع أن نفترض أن الناس خارج صفوف علم النفس سيسمعون لأنفسهم بأن تُعنى بمشاكل علماء النفس الاصطلاحية فى الحدود والتصورات والمناهج . فلم يجب أن ينزعج الجمهور حين يعلم أن الاستبطان كان يُجرى فى معامل نفسية معينة ، أو أن علماء نفس معينين يدعون أن لديهم شعوراً ، وأن لهم إحساسات وصوراً ، ومشاعر ، وإرادات ؟ وما الذى يحمل العامة على أن يمجّدوا الفارس المغوار الذى تقدم لإزالة هذه الأوهام ؟ ولكن هذا الجزء من العامة الذى انتظم فى محاضرات الكلية فى علم النفس هو الذى سيرحب بحق بهذه التبسيطات التى يبدو أن السلوكية قد جاءت بها . فبعض من هذه التبسيطات كان لفظياً خالصاً ، وبعض آخر من « الخفايا » التى استُبعدت بضربة يد قد ظلت فى صورة مسائل لم تُحلّ ؛ ولكن تبسيطات أخرى كانت موفقة ، لأن السلوكية لاشك قد مهدت لها السبيل لتنحية بعض المسائل غير النفسية الموروثة عن الفلسفة .

ولكن مدلول السلوكية يذهب إلى أبعد من حدود علم النفس ، ويمتد إلى علم الاجتماع . ولدىّ هنا إعلان عن « نوع جديد من نص اجتماعى » يوصف بأنه — فى توافق وصراحة — سلوكى . وأن المؤلفين يضعون أعينهم على مسائل محسوسة فى الحياة الأمريكية ويناقشونها على أساس مادة يمكن التحقق منها . فإذا كانت سلوكيتنا قد هيأت بحق لعلماء الاجتماع أن يتناولوا مسائل محسوسة على طريقة العلم الطبيعى ؛ فإنه يكون للسلوكية إذن فضل كبير .

على أن مدلول السلوكية يجب أن يتجاوز ذلك أيضاً . ولدىّ هنا ملاحظات عن كتاب وطسون المُعْتَوَن بالسلوكية Behaviorism — الذى ليس بالتأكيد أهم كتبه العلمية من وجهة نظر العالم النفسى ؛ وإن أكثر من ادعاء ذلك فعلاً .

وهذا ما تقوله عنه النيشن Nation في لندن :

ويعلن كتابه الجديد أنه يقدم علمَ مناهج جديداً ؛ لا مجرد هيكل نظرية سيكولوجية فحسب ؛ بل مذهباً سيُحدث في نظره ثورة في الأخلاقيات ، والدين ، والتحليل النفسى ؛ وبالجملة في كل العلوم العقلية والأدبية .

فإذا رجعنا إلى الكتاب بهذه الملحوظة في أذهاننا ؛ فإننا نجد وطسون يقول إن السلوكية علم طبيعي يتخذ ميداناً له كل السلوك والتكيف الإنسانى - الذى يدرسه بمناهج تجريبية - موقفاً بين موضوع ضبط سلوك الإنسان وبين مكتشفات هذا العلم . وهو يقول إن اطراد نجاح دُنُو علميه الطبيعي ذاك من المشاكل الإنسانية سوف يودى بالفلسفة إلى أن تختفى وتصبح تاريخاً للعلم ، وأنه يواجه نمو الأخلاق التجريبية لتحل محل الأخلاق القديمة الجبرية والنظرية القائمة على أساس الدين ، وأنه سيزيل تدريجياً التحليل النفسى ويستبدله بدراسات علمية لنمو الطفل وبهذا يضبط ذلك النمو ؛ كما أنه سيقضى على إصابات المرض النفسى التى تعالج الآن فى الحياة الجنسية . وهو يعرض مذهبه فى هذا القدر من الكلمات الذى استخدمتُ فى ذكره تقريباً . فهو خطة أو (بروجرام) أكثر منه مذهباً ، وأمل أكثر منه خطة .

على أنه كان من المهم لرجل كسب أذنَ الرأى العام بوصفه ممثل العلم أن يصوغ فى أسلوب قوى أمله هذا . وقد قالت صحيفة النيويورك تيمس عن الكتاب : « إنه يمثل عهداً من تاريخ الإنسان العقلى » .

وهذا وجهه من التيمس . فلنسمع الآن ما تقوله التريبيون Tribune : « ربما كان هذا الكتاب أهم ما كتب . إن المرء ليقف لحظة فى عَمَى من فرط الأمل » . والإشارة هنا ربما كانت إلى ما يبدو أنه أكثر روعة مما قال به وطسون فى هذا هذا الكتاب ، « أعنى » تقريره أنه يستطيع أن يأخذ أى طفل سليم صحيح التكوين ، ويجعل منه أى شىء تريد ؛ على أن يكون له مطلق السيطرة على بيئة الطفل . وهذا أيضاً كان خطة فحسب كما اعترف هو فى كتابه بعد قليل ؛ قائلاً إن هذا التقرير الحاسم قد قصد به أن يكون إثارة ، وأن دافعه الحقيقى هو أن يطالب إلى العامة أن يُعنوا بالبحث الواسع جداً اللازم لتنشئة الطفل . وقد كان ثمة على حق ؛ فما أحوجنا إلى مثل هذا البحث ، وقد يكون له هذه النتائج التى تنبأ بها . على أنك

الآن إذا وضعت تحت رعايته عدداً من الأطفال الأصحاء ؛ وطلبت أن يجعل من كل فنناً كبيراً ، أو رجل أعمال كبيراً ، أو زعيماً شعبياً كبيراً ؛ فأنا على يقين أنه سيتحير تماماً كيف يتقدم . فلا هو ولا غيره يملكون الآن المعرفة العلمية المطلوبة . وعلى أى حال ربما كان ذلك هو الأمل الذى أعمى المحرر

إنما كانت المميزات الأدبية للحركة السلوكية – أكثر من نتائجها العلمية – هى التى جعلت لها هذا الأثر العام القائم . ” أعنى “شجاعتها ، وحريتها ، وصلابتها ، وثقتها اللامحدودة بقدرة العلم على أن يُعنى بشئون الإنسان . وكما أخبرنى أحد تلاميذى – وهو يمثل الجيل الناشئ منذ الحرب – أن السلوكية تبدو لكثيرين أملاً جديداً وتوجيهاً جديداً حين أصبحت علامات الإرشاد القديمة old guide posts لا ثقة بها ولا أمل فيها . فمن المعتقد أن تحل هذه محل العقيدة .

تعليقات

على الفصل الثالث

فقد رفضها الجشططيون رفضاً قاطعاً ؛ سواء في تحليل الظاهرة أو العمليات الجسمية -- وتلك أبرز خصائصهم -- بينما رفض السلوكيون عنصرية عناصر الشعور ؛ كالأحاسيس والصور والمشاعر ؛ إلى جانب رفضهم للشعور ذاته . وأخيراً ؛ بينما نبذ الجشططيون الارتباط نبذاً تاماً ؛ إذا السلوكية تأخذ به في الجهاز العصبي ؛ نظراً لقولها بالانعكاس الشرطي ، وضرورة تجزئة عناصر قوس الانعكاس reflex arc .

وأول ما ظهرت السلوكية اتخذت اسماً لها : « علم النفس الموضوعي » objective psychol. بمعنى أنها ترفض منذ البدء الشعور موضوعاً ، والاستبطان منهجاً . وقد بين لنا ديسرنز C.M. Diserns تاريخ الموضوعية في علم النفس منذ اليونان حتى اليوم ؛ وأقفاً طويلاً عند ثنائية ديكارت وآلية الحيوان عنده ، وعند المادية والوضعية في فرنسا وألمانيا ؛ ومبيناً كيف أن ظهور اللاشعور وما تحت الشعور -- والقول بوجودهما -- قد حطم من سيطرة الاستبطان (راجع مقالته في العدد ٣٢ من مجلة علم النفس

(١) السلوكية : تمتاز السلوكية - كما يمتاز مذهب الجشطط في علم النفس - بمعارضتها لعلم النفس التقليدي الذي ما يزال قائماً حتى العشر سنوات الأولى من هذا القرن ؛ والذي أهم خصائصه : ١ - أنه تجريبي ، ٢ - وأنه يأخذ منهجاً له الاستبطان ، ٣ - وأن دراسته تنحو نحواً مذهبياً كالفلسفة ، ٤ - وأنه يبحث عن العناصر والأجزاء ؛ ٥ - وأنه أخيراً ارتباطي .

ويختلف موقف كل من المدرستين الجديتين إزاء كل خاصة من هذه الخصائص : كلتاهما لا يسعها إلا أن تبقى على النزعة التجريبية في دراستها . أما الاستبطان فقد رفضته السلوكية رفضاً باتاً - ولعل ذلك أهم ما يميزها عن الجشططيين الذين أخذوا بالاستبطان في صورة معدلة ظاهرية . وبينما بقي في هذه المدرسة شيء من المذهبية في علم النفس يقربه عندها من الفلسفة ؛ إذا السلوكية تنأى بنفسها عن التقيّد بالمذهب ، وإن هي لم تتخلص من بعض المسائل التي فرضت عليها فرضاً . أما العنصرية elementarism - أي التحليل -

وصحيفة علم النفس العام ، وأسبوعية التربية ؛ واشترك في كثير من الجمعيات وأكاديميات العلوم والفنون .

وتجد تصنيفاً كاملاً لمؤلفات وطسون ومقالاته - حتى سنة ١٩٢٩ - في سجل علم النفس لمرتشيزون (ج ٢ ص ٢٦٨ - ٢٧٠) ، وتاريخ علم النفس التجريبي لبورنج (ص ص ٥٨٢ - ٥٨٧ ، ص ٥٩٤) .

(٣) پلزبرى (ولتر باورز) :

Walter Bowers Pillsbury - ولد في بيرلنجتون في ٢١ يوليو ١٨٧٢ ، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة كورنل سنة ١٨٩٦ ، وعين بها أستاذاً مساعداً (١٨٩٥-٩٧) . ثم عين بجامعة متشيجان Michiagan - التي درس بها قبل كورنل - معيداً ، فأستاذاً مساعداً ، فديراً لمعمل علم النفس ، فأستاذاً (١٩٠٠ - ١٩١٠) وتولى مساعدة تحرير مجلة علم النفس الاجتماعي سنة ١٩٣٠ . كان عضواً في هيئة علماء النفس الأمريكية - التي صار رئيساً لها منذ ١٩١٠ - وكذلك في كثير من الجمعيات والأكاديميات الأمريكية والفرنسية لعلم النفس .

راجع ثبت كتبه ومقالاته في المجلد الثاني من « سجل علم النفس » ص ١٧٨ - ١٧٩

(٤) لاد (جورج ترمبول) :

George Trumbull Ladd (١٨٤٢ - ١٩٢١) : تخرج في مدرسة أندوفر

Psychol. Rev. سنة ١٩٢٥ ص ص (١٢١ - ١٥٢) .

وأهم ظاهرة في تاريخ السلوكية ؛ المجهود الذى بذله علماء النفس الروس وما زالوا يبذلونه حتى اليوم - وخصوصاً بافلوف وبخترف (وسنفضل القول عنهما في مواضعهما) - إلا أن وطسون يُعد بحق منسئ السلوكية العلمية في أمريكا سنة ١٩١٣ .

(٢) وطسون (جون برودس)

J. Broadus Watson : ولد في جرينفل في ٩ يناير ١٨٧٨ ، ولحق بجامعة شيكاغو منذ ١٩٠٠ حتى حصل على الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٠٣ وعين فيها مساعداً لعلم النفس التجريبي حتى ١٩٠٤ ، حيث صار أستاذاً مساعداً سنة ١٩٠٨ . ثم اشتغل في جامعة جونز هوبكنز أستاذاً لعلم النفس التجريبي والمقارن ومديراً لمعمل علم النفس (١٩٠٨ - ١٩٢٠) - فيما عدا سنة ١٩١٧ حيث لحق بسلاح الإشارة من قسم الطيران بالجيش الأمريكي . وأخيراً اشتغل محاضراً فوكيلا لمدرسة البحوث الاجتماعية بنيويورك ؛ حيث كان يحاضر في « بحوث في السلوك Behavior Monographs » . وتولى (منذ ١٩١١ حتى ١٩١٧) تحرير مجلة سلوك الحيوان Journal of Animal Behav. ، ومجلة علم النفس التجريبي ؛ ومساعدة تحرير مجلة بحوث في علم النفس التكويني ،

السالبة contents التي درسها قونت .
 فالعقل عنده ذات أو نفس self
 لها وجودها . وهذه النفس الفاعلة أو
 الشعور الشخصي — كما يسميه جيمس
 — ينتمى به إلى أن يجعل مهمة الشعور
 حل المشكلات . فالعقل يُحدِّدُ إذن من
 حيث استخدامه ، ومن هذه الناحية
 الفيزيولوجية أو البيولوجية نظر إلى العقل
 من حيث مهمته على أنه فاعلية الذات
 activity of the self . ومهمة العقل
 عنده هي التكيف adaptation ، وما
 دامت هذه مهمة العقل ؛ فإن الجسم
 يصبح غائياً teleological ، ويصبح
 علم النفس عملياً .

على هذا النحو من اليسر تقدم لاد
 وتلميذه وخليفته 'سكرپتشر Scripture
 بعلم النفس الوظيفي .

(٥) هول (ج . استانلى) :

Granville Stanley Hall (١٨٤٤ —
 ١٩٢٦) ولد في أشفيلد ، ودرس
 في مدرسة القرية ، وتغلب — بتأييد
 أمه — على إصرار أبيه أن يساعده في
 الفلاحة ؛ فلحق بالتعليم في إحدى
 المدارس . ثم انضم لكلية ويلمز (١٨٦٣ —
 ١٨٦٧) ، وظهر عليه — بعد حين —
 الامتياز في الفلسفة ، خصوصاً فلسفة
 جون استيوارت ميل ونظرية التطور .
 وفي نيويورك نصح له هنرى وارد بيتشر
 H. W. Beecher — لكى يُخلَّصه
 من فلسفته وتدينه — أن يدرس الفلسفة
 في ألمانيا . فسافر إليها — ولا مال له —

الدينية (١٨٦٩) ثم قضى عشر
 سنوات في الوزارة في ميدل وست
 Middle West عين بعدها أستاذاً
 للفلسفة العقلية والخلقية في كلية
 بودوين Bowdoin College (١٨٧٩ —
 ١٨٨١) . ومنذ ذلك الحين بدأ
 بدراسة العلاقات بين الجهاز العصبي
 والظواهر العقلية — كما كان على
 أستاذ الفلسفة العقلية حتى ذلك الحين
 أن يفعل . ومن بودوين انتقل لاد إلى
 ييل Yale ، وظل فيها يعمل — في
 نفس منصبه — في دراسة علم النفس
 الفيزيولوجي — كما يقول — في معمل
 له كان يساعده فيه ثاتشر Thatcher
 الفيزيولوجي . وأخرج لاد محاضراته
 في علم النفس الفيزيولوجي (١٨٨٧)
 Elements of Physiological Psycho-
 logy الذى قوبل بحماسة .
 فنشر لاد مختصراً له في سنة ١٨٩١
 ونقحه ؛ بما يجعل منه مرجعاً هاماً ؛
 ودورث سنة ١٩١١ . وفي ١٨٩٤ نشر
 كتابه Primer of Psychology ، وكتابه
 الآخر الوصفي الكبير : علم النفس :
 Psychology الذى ظهر مختصراً
 بعد أربع سنوات . وبهذه
 الكتب والمحاضرات والعمل في
 معمل ييل ، كان لاد يُسهم في
 النهوض بعلم النفس الجديد الذى يدرس
 العقل من الناحية الوظيفية كعضو نافع

وقد درس العقل من حيث وظيفته
 الإيجابية في مقابل محتوياته أو خبراته

كلية جونز هوبكنز الناشئة ، وصار أستاذاً فيها (١٨٨٤) ذائع الصيت . وتخرج عليه علماء اشتهروا فيما بعد أمثال : ديوى وكتل وسانفورد وبرنهام وچاسترو وغيرهم . كما أسس هول أول معمل سيكولوجى فى أمريكا ، وأول مجلة علم نفس فى الإنجليزية - بعد Mind - (١٨٨٧) . وفى السنة التالية قَبِلَ منصب أول مدير لجامعة كلارك الجديدة ، فوجهها إلى البحث لا إلى الدرس ، وقام بجولة فى جميع بلاد أوروبا لزيارة جامعاتها . ونهض بهيئة التربية وعلم النفس ومعاملهما .

راجع فى تاريخ حياة هول ما كتبه ولسون L.N. Wilson سنة ١٩١٤ باسم : ج . استانلى هول ، يكمله العدد السادس من المجلد السابع (١٩٢٥) من منشورات مكتبة جامعة كلارك Publi. of Clark Univ. Libr. وفيه مقتطفات من كتابات كثير من علماء النفس عن هول ، وقائمة بواحد وثمانين شخصاً أخذوا درجة الدكتوراه على يد هول فى كلارك ، وأسماء كتب وبحوث هول . كما يحسن مراجعة ما كتبه هول بعنوان : حياة واعترافات عالم نفس Life and Confessions of a Psychologist (١٩٢٣) الذى أثبت فيه لأول مرة تاريخ المصاعب الداخلية التى واجهته فى إنشاء جامعة كلارك حين كان أول مدير لها . وأيضاً مقال نُشر فى مجلة

(١٨٦٨ - ١٨٧١) ودرس فى بون وبرلين ، وعاد منهما كما خرج . فاشتغل فى بلاده واعظاً فى كنيسة ، ثم مدرساً فى كلية أنتيوخ Antioch فى أوهايو (١٨٧٢ - ١٨٧٦) للإنجليزية واللغات الحديثة والفلسفة ، وكان يجذبه أثناء اشتغاله بالفلسفة ميله إلى علم نفس فونت الفيزيولوجى الموجه لعلم النفس الحديث . وما إن اقتنع بأن الفلسفة غير عملية ؛ حتى أراد أن يعود تَوَّأً إلى ألمانيا ليدرس مع فونت . وبعد سنة قضاها فى أنتيوخ كان فى طريقه إلى ألمانيا - فاعترضه فى هارفرد الرئيس إليوت Eliot ، وعرض عليه منصب تدريس لم يستطع - لحاجته - أن يرفضه . ففضى فى هارفرد سنتين يتعلم الفلسفة وعلم النفس مع وليم جيمس ، حتى حصل (سنة ١٨٧٨) على الدكتوراه فى رسالة عن « الإدراك العضلى للمكان » .

وبعدئذ ذهب هول إلى ألمانيا - كما كان يعترزم - والتقى فى برلين بفون كريس von Kries وكرونكر Kronecker ، ثم انتقل إلى ليبتيك ؛ حيث أقام مع فخر ، واشتغل فى معمل لدفع ، وأصبح أول تلميذ أمريكى لفونت حين أسس معمله . فلما عاد إلى أمريكا طلب إليه الرئيس إليوت فى هارفرد أن يأتى دروساً فى مشاكل التربية أيام السبت لاقت نجاحاً وإعجاباً . ثم حاضر فى

وفي ١٨٩٤ أخذ ديوى كرسى الفلسفة في جامعة شيكاغو عشر سنين أيضاً ، يساعده ميد G.H. Mead ومور A.W. Moore . وفي هذه السنة عينها جاء شيكاغو جيمس أنجل (وستحدث عنه فيما بعد) مساعداً لعلم النفس ومديراً لمعمله الذى أنشئ منذ سنة واحدة . ولتقارب هؤلاء جميعاً في السن ، ومنزلة ديوى بينهم ؛ قامت منهم مدرسة ذات وجهة نظر مادية -- هى الوظيفية -- خرجت أول رسالة لها تتضمن نقد ديوى لفكرة قوس الانعكاس في علم النفس reflex arc (١٨٩٦) التى حمل فيها على العنصرية elementarism وتحليل قوس الانعكاس إلى منبه واستجابة ، كما اعترض على تحليل الأفعال الكلية إلى أقواس انعكاس ، وفي أزمانها على فصل الروابط الكلية للأفعال من ماضيها ومستقبلها ؛ فإنه في علم النفس يجب أن نبحث الكليات totalities . وهو بهذا يقول بمذهب الحشظلت قبله بعشرين سنة ، ويناهض الثنائية الأفلاطونية التى تفصل النفس عن الجسم . وهو بهذا يشبه جيمس والحركة الأمريكية كلها في علم النفس حتى كتل .

والذى أتى به ديوى في علم النفس هو الروابط coördinations . فالإحساس والاستجابة لقيمة لها عنده كعناصر ، ولعله يقبل قوس الانعكاس على أنه

علم النفس الأمريكية Am. J. of Psy. (مجلد ٣٦ سنة ١٩٢٥ ص ١ - ٥٢) عن : أثر جرانثيل استانلى هول السيكولوجى والتربوى .

وفي مؤلفات هول وكتاباته راجع : ولسن (المرجع المذكور ص ص : ١١٩ - ١٤٤) وفيه عنوان ٣٩٩ بحثاً حتى ١٩١٤ . وحياة واعتراقات هول نفسها تذكر ٤٣٩ عنواناً حتى ١٩٢٢ (ص ص ٥٩٧ - ٦١٦) . وكذلك نشرات مكتبة جامعة كلارك المذكورة (ص ص ١٩ - ١٣٥) على أن أهم أثر لهول هو فى أتباعه ونشاط تلاميذه ورسائل الدكتوراه التى خرجها من معمله وجامعته .

(٦) ديوى (جون) J. Dewey (١٨٥٩) : رائد مدرسة علم النفس الوظيفى فى شيكاغو ، لنيه هول فى هوبكنز ١٨٨٢ ، فلما حصل على درجة بعد سنتين ؛ تقلب فى مناصب تدريس الفلسفة فى ميشيجان Michiagan عشر سنين حتى ١٨٩٤ . وفى سنة ١٨٩٦ ظهر كتابه Psychology الذى وضع فيه نصاً جديداً لعلم النفس -- وما يزال حدثاً -- وكان من الوضوح بحيث طبع ثلاث مرات فى خمس سنوات ومع أن كتب لاد وچيمس وبولدوين قد فاقته -- للاتجاه الفلسفى الذى يتشبه به ديوى -- فإنه قد أخذ أهميته من سببه على هؤلاء فى الكتابة فى علم النفس بالإنجليزية .

النفس بمعناه الصحيح ؛ لنزوعه الفلسفي والعملي الذي ذكرنا - فقد كان له في حياته أكبر الأثر في الحياة العقلية والنفسية في أمريكا .

(٧) أنجل (جيمس رولاند) J.R. Angell ولد في بير لنجتون (في ٨ مايو ١٨٦٩) ولحق بجامعة متشيجان (١٨٩٠-١٨٩١) ثم بجامعة هارفرد في السنة التالية ، وعين في جامعة شيكاغو من سنة ١٨٩٤ حتى ١٩٠١ أستاذاً مساعداً ومديراً لمعمل علم النفس ، حيث صار فيها سنة (١٩٠٥) أستاذاً ورئيساً للتسم ، ثم عميداً ، ثم مديراً للجامعة بيل Yale سنة ١٩٢١ .

وقد شارك أنجل ديوى في نشاطه وتفكيره : ففي الوقت الذي كان فيه ديوى يناقش فكرة قوس الانعكاس ، كان أنجل وصديقه الفيلسوف مور Moore ينشران رسالة عن دراسة تجريبية لها في زمن الرجوع ؛ كان لها أهمية كبيرة . وشارك أنجل بعد ذلك بعامين أيضاً (١٨٩٨) في إبراز علم النفس الوظيفي func. psychol. في مقابل علم النفس البنائي structur. psy. الذي تعهده تتشتر بعد جيمس ؛ فبين فيه الفرق بين المورفولوجيا التي تبحث عن التركيب أو البناء "the is" والفيزيولوجيا التي تبحث عن الوظيفة ، أى عن ال "is-for" وساعده على هذا ازدياد أهمية علم التربية ، واختبارات

رابطة أولية في مرحلة ما ، فهو ليس إحساساً يتبعه تفكير تتبعه حركة ؛ بل هو قوس متكامل : الاستجابة للإحساس - والإحساس بالاستجابة . وهذا عنده هو «الطريقة العملية الساذجة لتصوير هذه العملية» . إذ أن سر الوحدة فيما بين المنبه والاستجابة يقوم عنده في وظيفة الفعل . والرابطة ليست إلا تنظيماً للموسيلة فيما يتعلق بغاية . ومن هنا كان التصاق جزئها وتلازمهما في الزمان ، ومن هنا أيضاً كانت الوظيفة هي الوظيفة البيولوجية ، وكان مصدر الفعل هو الغاية ، والرابطة هي التكيف ؛ وكان علم النفس الوظيفي هو دراسة الكائن العضوي في عمله دراسة سيكولوجية .

ويتضح هذا الاتجاه العملي - الذي يشبه مذهب دارون - في أخريات حياة ديوى نفسها - من حيث اتجاهه إلى دراسة التربية كتطبيق لعلم النفس - منذ ألقى خطابه في هيئة علماء النفس الأمريكية سنة ١٩٠٠ عن «علم النفس والتطبيق الاجتماعي Psychol. and Social Practice» فإنه - بعد ذلك بستين - قد عُين مديراً لمدرسة التربية في جامعة شيكاغو وفي ١٩٠٤ نَصَّبته كلية المعلمين في كولومبيا أستاذاً للفلسفة ؛ كأعظم فيلسوف سيكولوجي يعالج مشاكل التربية في أمريكا في ذلك الحين وهو - وإن قلَّ أثره أخيراً في علم

سيكولوجيا الكائن الجسمى النفسى كله ، وهو — بهذا المجال الواسع الذى يشمل كل فعل نفسى مكتسب تقريباً — لا يدع مجالاً للشعور .

ومع أن أنجل ناقش هذه المعانى الثلاثة لعلم النفس الوظيفى ولم يتخير واحداً منها ؛ فإن بحثه هذا قد ظل إنجيل علم النفس الوظيفى — الذى قدم للسلوكية ، ثم اختفى حين قويت هذه . ولم يكن أنجل يريد أن يجعل من وجهة النظر الوظيفية فى علم النفس نوعاً خاصاً مستقلاً منه كما يظهر فيما نشره سنة ١٩١٢ باسم :
Fصول من علم النفس الحديث
Chapters from Modern Psychol.

(٨) كَتَل (جيمس ماك كين) :
J. Mckeen Cattell : ولد فى سنة ١٨٦٠ ، وبعد دراسات حرة فى كلية لافايت سافر للدراسة سنتين (١٨٨٠ — ١٨٨٢) حيث وجهه لوتسه Latze فى جتنجن ثم فونت فى ليپتسك إلى المواهب الإنسانية . وعاد إلى هوبكنز فى أمريكا وتلمذ سنة على استانلى هول الذى كان قائماً إذ ذاك على علم النفس . وعاد بعدها إلى ليپتسك حيث طالب إلى فونت أن يكون مساعداً له ، وقضى معه سنوات ثلاثاً كانت خصبة للإنتاج ، وكان ينشر مقالاته فى مجلة «دراسات فلسفية Brain Mind Philosophische Studien كلها عن زمن الرجوع والفوارق الفردية individual

بنيه فى الذكاء ، وعلم النفس الحيوانى ؛ كما يظهر فى رسالة أنجل التى نشرها سنة ١٩٠٣ عن « العلاقات بين علم النفس البنائى والوظيفى » بين الفلسفة
The Relations of Structural and
“ Functional Psycho. to Philos.

وفى ١٩٠٤ ظهر كتابه
Psychology مصوراً وجهة النظر الوظيفية فى علم النفس بوجه عام . فلقى نجاحاً كبيراً فى الأوساط الجامعية والمدرسية حتى طبع للمرة الرابعة سنة ١٩٠٨ . على أن أهم ما استطاع أنجل أن يعبر فيه عن علم النفس الوظيفى ... رسالته التى تقدم بها إلى هيئة علماء النفس الأمريكية سنة ١٩٠٦ وعنوانها
The Province of Funct. Psychol.
وتتلخص فى فكرٍ ثلاث :

١ — علم النفس الوظيفى هو علم العمليات العقلية فى مقابل علم العناصر العقلية ؛ أى الفعل بدلا من التركيب ، والسؤال : كيف ، ولماذا (How ? Why ?) بدلا من مجرد السؤال ب : ماذا (What?) .

٢ — وبعبارة أخرى ؛ علم النفس الوظيفى هو علم نفس الفوائد الأساسية fundamental utilities للشعور التى يعنى فيها العقل خصوصاً بالتوسط بين البيئة وحاجات الكائن العضوى ؛ فالفعل النفسى إذن تكيف .

٣ — وعلم النفس الوظيفى — بالمعنى الأوسع — هو السيكوفيزيقا . أى

للقياسات البدنية والعقلية لطلبة كولومبيا
كما نشر حتى سنة ١٩٠٦ ست مقالات
عن زمن الرجوع ، والفوارق الفردية ،
والاختبارات ؛ وأنشأ مع بولدوين مجلة
علم النفس ، وظل محرراً لها منذ ١٨٩٤
حتى أخذها بولدوين سنة ١٩٠٤ .
وقد عيّني - منذ مطلع هذا القرن -
بنبوغ رجال العلم بصفة خاصة ،
ونشر دراسات إحصائية لمقاييس
وشروط هذا النبوغ . وساعده على ذلك
وثيق صلته بالهيئات العلمية والصحف
وتحريره مجلة « رجال العلم الأمريكيون
« American Men of Science

وقد أُبعد عن جامعة كولومبيا في سنة
١٩١٧ لميوله السلمية - في وقت كانت
أمريكا تدخل فيه الحرب العظمى -
فلم يمنعه ذلك من التعبير عن آرائه في
شيء من الصراحة . وتولى كتل أخيراً
رياسة كثير من الجمعيات التي كانت
تبيع خدماتها وآراءها السيكولوجية لدور
الصناعة والعمل ، ويستشيرها الجمهور ،
حتى أصبح أكبر عالم نفسي في
أمريكا ، وانتُخب رئيساً للمؤتمر الدولي
التاسع لعلم النفس ١٩٢٩ ، وُعدَّ
مناظراً لقونْت في زمن الرجوع .

وقد جمع تلاميذه (سنة ١٩١٤) .
أشتات بحوثه في موضوعات ستة :
عن زمن الرجوع ، وعن الترابط الحر
والارتباط المقيد (مقالاته في سنتي
١٨٨٧ ، ١٨٨٩) ، وفي موضوع
الإدراك والقراءة ، الذي بين فيه الزمن

differences وحصل على الدكتوراه مع
قونْت سنة ١٨٨٦

وفي سنة ١٨٨٧ عيّن محاضراً في علم
النفس بجامعة پنسلفانيا ، ثم في السنة
التالية بجامعة كمبردج حيث اتصل
لأول مرة بجالتون - وجمع بينهما تشابه
آرائهما في مشكلة الفوارق الفردية وإن
كانا قد انتهيا إليها كلٌّ على حدة .
ومنذ سنة ٨٨ حتى ٩١ تولى كتل معمل
علم النفس كأستاذ له في جامعة
پنسلفانيا . وأهم إنتاجه في هذه الفترة
رسالته مع فلرتون G.S. Fullerton
« في إدراك الفوارق الدقيقة On the

« Perception of Small Differences
سنة ١٨٩٢ . وتدل هذه الرسالة
التالية لها في العام التالي عن « أخطاء
الملاحظة Errors of Observation »
على استعانة كتل بالطريقة الإحصائية ،
ومبلغ حمله على المناهج المتواضع عليها
في السيكوفيزيقا ، وثورته على مكانة
علم النفس الاستبطاني ، وتقديره دائماً
لاحتمال الخطأ أو الهفوة المحتملة
probable error التي قام يؤكدنها
في علم النفس الفردي - في مقابل علم
النفس العام .

ومن پنسلفانيا رحل كتل إلى كولومبيا
وأسس بها معملاً آخر قام عليه من سنة
١٨٩١ حتى ١٩١٧ ؛ وما زالت يه
ميوله الأولى في علم النفس - وإن كان
الآن أقل تعبيراً عنها . ففي سنة ١٨٩٦
نشر مع فاراند L. Farrand دراسته

الذي تأخذه رؤية الأشياء والأشكال والألوان والحروف والحمل والنطق بها ؛ قائلاً إن الزمن الذي يلزم لكل منها يقل عند ما يزيد عدد الأشياء المعروضة منها زيادة قليلة . وفي السيكوفيزيقا له مع جالتون قانون الخطأ الذي ذكرنا ، ومع فلزتون قانون جذر تربيعي في وصف خطأ الملاحظة لا الإحساس كما في قانون فيبر Weber ، واكتشافه منهج ترتيب الجدارة method of order of merit أو الموضوع النسبي — وكلها تقوم على مسألة الفوارق الفردية — وأخيراً دراسته للعلماء الأمريكيين ؛ التي يريدهم فيها « أن يأخذوا بالمناهج العلمية ليحددوا الظروف التي تأخذ بالتقدم العلمي أو تعوقه » .

وكان لكتل أثر كبير في علم النفس الأمريكي ، لكثرة من تخرج عليه من التلاميذ في جامعة كولومبيا بدرجة الدكتوراه في علم النفس .

(٩) هربارت (يوحنا فريدرش)
 J. F. Herbart : (١٧٧٦ — ١٨٤١)
 كان فيلسوفاً ، وكان أباً للتربية الحديثة التي أقامها على علم النفس . وهو يشغل مكاناً هاماً في علم النفس ؛ وإن كان قد اتخذ أساساً للبيداجوجيا . وكتابه في علم النفس هما أهم كتاباته ؛ كان لها أثر كبير في علم النفس التجريبي مع أنه أنكر فيهما قيمة التجربة كما أنه بفضلها توثقت صلة التربية بعلم النفس ، وزاد تأثير كل منهما في الآخر .

قضى منذ طفولته حياة رقيقة — كطبيعته — اختلف فيها إلى الهمنازيوم في أولدنبرج — بلده — منذ الثانية عشرة ؛ فكان لكانت E. Kant عليه أثر عميق جعله يرحل في الثامنة عشرة إلى فينا ليدرس الفلسفة على فيخته Fichte . ومن هنا كان ميله أول الأمر إلى المنطق والفلسفة كچون استيوارت مل وإن هو لم يقبل كل تعاليم فيخته . وكانت فرصة تحوله من الفلسفة إلى التربية حين صار مدرساً خاصاً لأبناء الحاكم في أنترلاكن . وبعد سنتين — وهو في الثالثة والعشرين — رحل إلى برمن وقضى هناك ثلاث سنوات ، ولم يترك سويسرا حتى زار المصلح التربوي الشهير پستالوتزي J. H. Pestalozzi ، ومن برن انتقل إلى جتنجن وظل فيها سبع سنوات (١٨٠٢ — ١٨٠٩) حصل فيها على الدكتوراه ، وصار معيداً بجامعة . وهناك عارض فلسفة كانت ونهض بفلسفته هو ونظريته في التربية ، ونشر كتباً كثيرة . ولم تظهر مواهب هربارت إلا حين دعي ليشغل كرسي كانت في كيتجزبرج — بعد وفاته — وهو في الثالثة والثلاثين ، وقضى هناك أربعة وعشرين عاماً كانت أخصب فترة في حياته وقَّعها على إتمام مذهبه في علم النفس ومعالجة مشاكل التربية العملية . وفي سنة ١٨١٦ نشر كتابه يمتن في علم النفس Lehrbuch zur Psychologie

(١٨٧٥) ، فمحاضراً (١٨٨١)
 فأستاذاً لفلسفة الأخلاق (١٨٨٧) .
 وإنما أثر فيه من الناحية السيكولوجية
 برنتانو ؛ فأنشأ في سيكولوجيا الفعل مذهباً
 عن العلاقة بين الذات الفاعلة والموضوع ،
 وعبر عن آرائه السيكولوجية هذه في
 مادة « علم النفس Psychology » من
 الطبعة التاسعة والحادية عشرة لدائرة
 المعارف البريطانية (١٨٨٦ ، ١٩١١)
 وفي كتابه : مبادئ سيكولوجية
 Psychological Principles (١٩١٨)
 الذي يقول إنه قضى في إعداده أربعين
 سنة . وهو يقسم موضوع علم النفس
 إلى = المعرفة cognition التي هي
 حدوث التأثيرات في المحيط الحسي ،
 والجهد أو العزم conation الذي
 هو حصول الأشياء الحركية ، والشعور
 feeling - وهو ليس حصولاً
 كهلذين ؛ لأنه ليس خبرة Erlebnis
 بل هو حد وسط بينهما .

ومنه نرى أن وارد قد كان في المقام
 الأول فيلسوفاً ، وأن اهتمامه بعلم النفس
 قد كان فلسفياً على الطريقة الإنجليزية .
 ومن أجل هذا كان أثره كبيراً ، وُعد
 أكبر عالم نفسي في بريطانيا بعد بين
 Bain . وليس معنى هذا أنه كان
 ينكر التجريب في علم النفس ؛ فإنه
 قد درس - غير كمبردج - في برلين
 وجنتنجن ، وعاصر هذه الحركة واحترمها
 حتى لقد حاول أن ينشئ معملًا في
 كمبردج بعد عودته إليها : فهو مثل

وفي ١٨٢٤ - ٢٥ كتابه : علم النفس
 كعلم Psychol. als Wissenschaft .
 كما كتب في « الميتافيزيقا » ، التي لم
 تكن لعهد منفصلة تماماً عن علم النفس .
 واتسعت شهرته وكثر أتباعه في ألمانيا
 فعاد في ١٨٣٣ أستاذاً للفلسفة في
 جنتنجن . وظل حتى مات سنة
 ١٨٤١ ، وخلفه في كرسيه هرمن
 لوتسه R.H. Lotze ثم يوهانس ميلر
 J. Müller .

ولمؤلفات هربارت طبعتان ؛ أكثرهما
 شيوعاً طبعة هارتنشتين G. Hartenstein
 ترجم سميث M.K. Smith كتابه
 Lehrbuch إلى الإنجليزية ، ولم
 يُترجم الكتاب الآخر « علم النفس
 كعلم » . كما أن هربارت قد نشر ؛
 قبل وفاته بسنة : بحوث سيكولوجية
 Psychologische Untersuchungen .
 راجع في كتابات هربارت ما كتبه راند
 في قاموس الفلسفة وعلم النفس لبولدوين
 ج ٣ سنة ١٩٠٥ (ص ص ٢٥٣ -
 ٢٥٧) .

(١٠) وارد (جيمس) J. Ward
 (١٨٤٣ - ١٩٢٥) تلقى دراساته
 الفلسفية في كمبردج وبرلين وجنتنجن -
 حيث عاصر لوتسه - بعد أن رحل
 اشتيف وميلر ؛ الذي عاد فيما بعد
 معيداً ؛ إلا أن تأثير هذه الحركة
 الجديدة في علم النفس لم يكن
 فيه كبيراً . وعين زميلاً بكلية
 الثالث Trinity College بكمبردج

والذى انتهى إليه ثورندايك أن هذه الحيوانات لا تُظهِر في تعلمها أى دليل على الاستبصار أو الاستدلال ، وإنما هى تتعلم بتراكيب وارتباطات عارضة فى مجرى خبرتها، أى ماسماه ه لويدي مورجن C. Lloyd Morgan — فيما بعد — بالمحاولة والخطأ trial and error ؛ إذ لم يَقمْ لديه دليل على أن الحيوانات تتعلم بالملاحظة أو تستفيد من رؤية سلوك بعضها البعض ؛ فقال بأنه ينقصها الصور الحرة free images ، والذاكرة — أى الرجوع بوعى إلى الخيلة — إلا ما كان منها بصورة بسيطة فى الارتباطات .

واهتمام ثورندايك بعلم النفس الحيوانى يشغل فترة دراسته فى هارفرد ، ومع كتل فى كولومبيا — حيث استقر فيما بعد . وتعد دراسته هذه مرحلة انتقال من دراسة ذكاء الحيوان

Animal Intelligence إلى دراسة الحياة العقلية فى القردة The Mental Life of Monkeys (وهما عنوانا بحثين نشرهما فى مجلة psychol. Monog. سنتى ١٨٩٨ ، ١٩٠١) كانا تمهيداً لدراسة وظائف التفكير ومسائل التربية فى الأطفال) . وكان قد نشر عن سلوك الحيوان فى سنة ١٨٩٩ بحثاً ثلاثاً - نشرت فى سنة ١٩١١ كتاباً عنوانه : ذكاء الحيوان

. Animal Intelligence

راجع بقية كتبه وبحوثه ومختصر

برنتاتو الذى أراد أن ينشئ معملاً فى فينا ، وان لم يكن أحدهما مهيناً بطبعه للبحث التجريبي .

راجع فى تاريخ حياته مقال سورلى

W.R. Sorley فى مجلة Mind

(مجلد ٣٤ سنة ١٩٢٥ ص ص ٢٧٣

— ٢٧٩) . وفى كتاباته مقالة تنشر

وفوستر فى مجلة علم النفس الأمريكية

(مجلد ٢٣ سنة ١٩١٢ ص ص ٤٥٧

— ٤٦٠) التى أعيد طبعها وتنقيحها

وإضافة ما زاد عليها حتى وفاة وارد

فى مجلة Monist (مجلد ٣٦ ،

١٩٢٦ ؛ ص ص ١٧٠ — ١٧٦)

ومنها نرى أن علم النفس قد سيطر

على تفكير وارد حتى ١٨٨٠ ، ثم قل

اهتمامه به فيما بعد . وأهم ما كتبت عن

وارد مقالة استوت G.F. Stout فى

ال Monist (مجلد ٣٦ ، ١٩٢٦) .

(١١) ثورندايك (إدوارد لى) Ed.

Lee. Thorndike : ولد فى سنة

١٨٧٤ ، وهو أول من أدخل نماذج

معينة من الحيوانات العليا فى المعمل

وقام بالتجربة عليها بأجهزة خاصة .

كما أنه مخترع التواهة أو الخيرة

puzzle - box التى استخدمها مع

القطط والكلاب ؛ وظل يجرب على

الفراريج كيف تتعلم الخروج من مازق

ومتاهات بسيطة mazes يركبها من

الكتب قائمة ، فهو قد كان يدرس

ذكاء الحيوان دراسة تجريبية بدأت فى هارفرد ، وانتهت فى معمل كتل بكولومبيا .

منه في العربي : علة ومعلول أو مؤثر وأثر (cause, effect) إذ لا يُتصور المؤثر إلا سابقاً على الأثر . والحق أن ثورندايك لا يعنى أن اللذة تُثبت فقط آثار الارتباطات السابقة الموجودة ، وما زال هذا النقد يُعوزه البرهنة ؛ ما دامت هذه الآثار الارتباطية لا يمكن ملاحظتها مباشرة إلا عن طريق التخيل المرتد ، وما دام لا يمكن اختبار تخيل الحيوان - ولا اختباره بدقة في الإنسان بالاستبطان - راجع غير دراسة ثورندايك آفة الذكر (علم النفس التربوي ١٩١٣) ؛ كتاب سلوك الحيوان Ani. Behav. لمورجن L. Morgan (١٩٠٠) (١٣) يركيس (روبرت) R.M. Yerkes (المولود سنة ١٨٧٦) قد شغل عدة مناصب في هارفرد (من ١٨٩٩ إلى ١٩١٧) صار فيها أستاذاً مساعداً ، ثم اشتغل في تنظيم وإدارة اختبارات الذكاء في الجيش الأمريكي للولايات المتحدة خلال اشتراكها في الحرب العظمى (١٩١٧ - ١٩١٩) . واستمر بعد ذلك نشاطه في هيئة البحث القومي National Research Council بواشنطن حتى ١٩٢٤ . ومنذ ذلك الحين صار أستاذاً لعلم النفس في ييل Yale ، فكان عاِلم النفس المقارن بكل معنى الكلمة . اشتغل أول أمره في هارفرد بذكاء الحيوان ، وفي ييل بالحيوانات الشبيهة بالإنسان .

تاريخ حياته ومدى نشاطه في واشبرن M.F. Washburn وفي سجل علم النفس (ج ٢ ص ص ٢٤٠ - ٢٤٤) .

(١٢) قانون الأثر law of effect :

لما أنكر ثورندايك الصور الخيالية على الحيوان في تعلمه بالمحاولة والخطأ ؛ بقي عليه أن يُبين كيف يتأني لمحاولات الارتباط الصحيحة أن تُثبت ، وللخاطئة أن تزول . ولكي يفسر هذه الحقيقة اصطنع نظريته المعروفة بالأثر effect الذي يرتدّ بالسرور عند تكوين هذه الارتباطات - وهي ما سمي فيما بعد بقانون الأثر المرتد retroactive effect . ولذة الظفر بتكوينها تأتي بطبيعة الحال بعد أن تكون الارتباطات الصحيحة قد تكونت فعلا وعند ما تصبح الأفعال المؤدية لهذا الظفر عنده غير مشعور بها ؛ لأن الحيوان - كما قدمنا - تنقصه - عند ثورندايك - الحيلة الضرورية . فهو يقول إذن إن السرور له رد فعل مباشر في تثبيت الارتباطات السابقة ، وعلى هذا يقوم قانونه في التعلم ؛ وكلاهما في بحثه في « علم النفس التربوي Educational Psychology » سنة ١٩١٣ . ووجه الاعتراض على نظرية الأثر هذه : أن رد الفعل بالسرور - في تثبيت ارتباطات ماضية أو سابقة - يُحِبُّ دائماً ظنَّ المرء (وهذا أوضح في المصطلح الإنجليزي

والشيمبانزي سبق بها كيلر ، فإنه كان قد فكر قبل الحرب العظمى في إنشاء مركز لدراسة القردة الشبيهة بالإنسان— وهو مشروع ظل معلقاً سنوات طويلة . وله في ذلك بحوث عن : الحياة العقلية للقردة Mental life of Monkeys and Apes Behav. monog. (بحوث في السلوك . ١٢ ، ١٩١٦) ؛ بعد أن أثار الاهتمام بدراستها بحث كيلر الذي نشره سنة ١٩١٥ من مقر دراسته للقردة في تريف Tenerife باسم : اختبار ذكاء القردة الشبيهة بالإنسان Intelligenzprüfung an Menschenaffen وقد وجه يركس علم النفس المقارن في عهده بما يجعل منه مرادفاً لعلم النفس الحيواني ، فأعلن في سنة ١٩١٣ أن هذا اللفظ يستخدم بمعناه الصحيح حين يراد به دراسة الفروق بين الحيوانات — بما فيها الإنسان — وبين النبات ؛ بين الأطفال والبالغين ؛ بين الشواذ والعاديين — مما انتهى به إلى مقياسه للذكاء المسمى Point Scale ، وإلى تجاربه في الذكاء بالجيش الأمريكي كما قدمنا ؛ ثم إلى نوع من علم نفس الأجناس racial psychol. راجع في تعريفه لعلم النفس المقارن (مجلة الفلسفة J. Philos. ١٠ ١٩١٣ ص ٥٨٠ — ٥٨٢) وفي قياس الذكاء راجع له مع برجز J. W. Bridges وهاردوك R. S. Hardwick بحث : A Point

بدأ إذن بدراسة علم النفس الحيواني في سنة ١٩٠٠ ؛ وهنا يمكن أن يعد رائد الحركة الأمريكية في علم النفس الحيواني : لوفرة إنتاجه ، وثباته في الميدان ، وأثره في تنظيم هذا الاتجاه . وأجرى تجاربه — منذ ذلك الحين — على أنواع الحيوان على نحو تطوري ؛ من السرطانات المائية crabs إلى السلاحف ، فالضفادع ، فالقار ، الراقص dancing mouse فالقار الكبير rat ، فالديدان ، والغراب ، والحنلة ، والخنزير ، والقرد ؛ وأخيراً القردة الشبيهة بالإنسان . وساهم يركس في دراسة المناهج ؛ فبحث مع وطسون في مناهج دراسة البصر في الحيوانات (١٩١١) وخصوصاً منهج الخيرة أو الاختيار المتعدد multiple choice الذي استعمله هاملتون G.V. Hamilton لأول مرة حين كان معه في هارفرد — وهو اختبار للذكاء يرمي إلى بيان كيف أنه من العسير أن يتعلم الحيوان أو الإنسان قانوناً للاختيار في استجابة غامضة ، وأن يستخدم « مفتاحاً » للموقف . راجع في منهج دراسة البصر في الحيوان : يركس ووطسون (بحوث في السلوك Behav. Monog. ١ — ١٩١١ رقم ٢) وفي منهج الاختيار المتعدد راجع هاملتون (مجلة سلوك الحيوان J.A nimal Behav. ١ — ١٩١١ — ص ٣٣ — ٦٦) .

وليركس دراسات هامة على القردة

أم أنه تصريح فيزيولوجي يؤمن أن علم النفس ليس — في أبعد ما يمكن أن يكون علمياً — شيئاً آخر غير الفيزيولوجيا ؛ فإننا نراه يقول في سنة ١٩٠٤ : « إن فيزيولوجيا الأجزاء العليا من الجهاز العصبي المركزي في الحيوانات العليا لا يمكن أن تدرس بنجاح إلا إذا تخلى المرء تماماً عن تصورات السيكلوجيا اللامحددة ، ووقف على أساس موضوعي خالص » وما يزال يردد هذا الرأي في قوة وإصرار — ست مرات — حتى سنة ١٩١٣ . وهو هنا — كما يقول بورنج (تاريخ علم النفس التجريبي ص ٥٨١) — لا يعبر عن عدم ثقته بمنهج علم النفس لعظيم ثقته بمنهج الفيزيولوجيا ؛ بل هو يقدم منهج المنعكس الشرطي الحديد على أنه يحل المشاكل التي كان يُظن بها أنها مشاكل نفسية ، فلم تصل حينئذ إلى حل سليم — في الحيوانات على الأقل . ومنهجه هذا هو طريقة تبين إلى أي المنبهات الحسية يمكن أن يستجيب الحيوان مع تبين الفروق . ويمكن أن يُستخدم في الكشف عما يدركه الحيوان بعد استئصال أجزاء مختلفة من مخه ، كما في اختبار استعداده العادي . وهو يفتح — كما كان ينه بافلوف دائماً — ميداناً كاملاً للفيزيولوجيا يعالج المسائل التي كان يُظن من قبل أنها سيكلوجية راجع في آثار بافلوف ما كتبه

Scale of Measuring Ability
(سنة ١٩١٥) .

وفي يركس بوجه عام — حياته ومؤلفاته — راجع واشبرن (١٩٢٦) وسجل مرتشيزون (ج ٢ ص ص ٢٩١ — ٩٣) .

(١٤) بافلوف Ivan Petrovitch Pavlov (المولود في ١٨٤٩) له أثره الهام في قيام السلوكية ، وآثاره التي معظمها بالروسية ، وقليل منها مقالات مبعثرة بالفرنسية والألمانية قد تُرجمت جميعها إلى الانجليزية . في سنة ١٩٢٧ ظهر كتابه : الأفعال المنعكسة الشرطية Conditioned Reflexes ، وهو بحث في النشاط الفيزيولوجي للحاء الشوكي كما يظهر من الجملة المكتملة لعنوان هذا الكتاب . وفي السنة التالية (١٩٢٨) كتابه الآخر : محاضرات في الأفعال المنعكسة الشرطية Lectures on Conditioned Reflexes ، وهو يحوي إحدى وأربعين محاضرة رتبها ترتيباً زمنياً منذ ١٩٠٣ حتى ١٩٢٨ ، مع مختصر تاريخي .

ومنذ أعلن بافلوف سنة ١٩٠٣ عن المنعكس الشرطي للعباب ؛ لم يزل يتكلم عن منهجه الحديد في الكشف عن الذكاء والظواهر العقلية الأخرى في الحيوان على أنها نفسية psychic ، وعن مسيل اللعب بالإشراف على أنه إفرازات نفسية psychic secretions . ولسنا ندرى أهو بهذا يُعرض بعلم النفس

(١٩٠٢) ، ومنذ سنة ١٨٩٧ اشتغل بهذه الجامعة معيداً فأستاذاً مساعداً فأستاذاً لعلم النفس ثم مساعداً لمدير معمل علم النفس وعيادته . وكان عضواً في هيئة علماء النفس الأمريكية ، وجماعة تقدم العلم الأمريكية وغيرها . (سجل علم النفس لمرتشيزون - ج ٢ ص ٢٥٥ عمود ١) .

(١٧) سميث (ستيفنسن) S. Smith (وهو غير مرغبت كيفر سميث الألمانية ، وفرانكلين أوريون سميث بجامعة مونتانا) ولد في فيلادلفيا سنة ١٨٨٣ ، ولحق بجامعة بنسلفانيا فنال درجة الدكتوراه في الفلسفة (سنة ١٩٠٩) . اشتغل أستاذاً لعلم النفس في كلية همدن سدني Hampden Sidney (من ١٩٠٦ حتى ١٩١١) ثم انتقل إلى جامعة واشنطن حيث صار أستاذاً مساعداً (١٩١٣) فأستاذاً ومديراً لمعمل علم النفس (منذ سنة ١٩١٥) . وهو عضو هيئة علماء النفس الأمريكية .

وله غير الكتاب الذي أخرجه مع جوتري - المذكور في قول ودورث - علم النفس العام في مصطلح السلوكي (نيويورك ١٩٢١) وبحث في مجلة علم النفس المرضي والاجتماعي J. Abn. & Soc. Psychol. (سنة ١٩٢٢) بعنوان Exhibitionism ، وفي مجلة علم النفس Psychol. Rev. (سنة ١٩٢٧) بحث عن التعرف

يركس ومرجولس S. Morgulis في صحيفة علم النفس Psychol. Bull. (عدد ٦ سنة ١٩٠٩ ، ص ص ٢٥٧ - ٢٧٣) . وفي تمهيده بعلم النفس الموضوعي لظهور السلوكية : راجع دسرنز C.M. Diserns (مجلة علم النفس Psychol. Rev. مجلد ٣٢ سنة ١٩٢٥ ص ص ١٢١-١٥٢) . (١٥) بخترف Vladimir. M. Bekhterev ترجع أهميته إلى أنه - قبل باقلوف ومعه - قد عمل على اكتشاف المنعكس الشرطي ؛ محولاً بذلك علم النفس وجهة موضوعية . وبينما كان علماء النفس الأمريكيون أكثر بطئاً في إدراك القيمة الكبيرة التي لهذا المنهج الذي قدم لهم منذ ١٩٠٩ ؛ فإنه وصاحبه (الروسيين) قد مهذا بدراستهما أكبر التمهيد لظهور السلوكية كتطبيق لعلم النفس الموضوعي . ولا يجد المؤرخون مايقولونه في بخترف أكثر من هذا ، فإن مقالاته المتناثرة ، وكتابه في علم النفس الموضوعي ؛ معظمها بالروسية والألمانية وقليل منها بالفرنسية . (راجع مقال دسرنز المشار إليه في باقلوف) .

(١٦) تويتاير (إدوين بيركت) Edwin Burket Twitmyr ولد في McElhattan بفيلاذلفيا بالولايات المتحدة في سبتمبر ١٨٧٣ ، وحصل على إجازة الفلسفة من كلية لافايت (سنة ١٨٩٦) وعلى الدكتوراه في الفلسفة من جامعة بنسلفانيا (سنة

(ص ص ٦٧٣ - ٦٨١) وفي مجلة علم النفس المرضى والاجتماعى (سنة ١٩٢٧ ، مجلد ٢٢) قياس الانطواء والانيساط Measuring Introversion and Extroversion (ص ص ٨٢ - ٨٨) انظر (سجل مرتشيزون > ٢ ص ٩٧) .

(١٩) هولنجورث (هارى ليشى)
H.L. Hollingworth - المولود سنة ١٨٨٠ - درس بجامعة نبراسكا حتى ١٩٠٦ ، ثم انتقل إلى جامعة كولومبيا فحصل منها على الدكتوراه فى الفلسفة (سنة ١٩٠٩) واشتغل مدرساً بها وبكلية برنارد (١٩١٠ - ١٩١٤) ، ثم صار أستاذاً مساعداً (١٩١٥ - ١٩٢١) فأستاذاً للتربية (سنة ١٩٢٢) . وكان مساعداً لتحرير مجلة علم النفس التجبىقى J. of Applied Psychol. ولمجلة علم النفس العام J. of General Psych. (١٩٢٨) كما كان عضواً بهيئة علماء النفس الأمريكية (تولى رياستها سنة ١٩٢٧) .

وله بحوث ودراسات كثيرة فى علم النفس التجربى والعملى عن الحكم judgement والإدراك ، والتعلم practice وعن : علم النفس ، والطب ، والأثر النفسى للكحول (مجلة علم النفس المرضى والاجتماعى ، ١٩٢٣ ج ١٨ ص ص ٢٠٤ - ٢٣٧) وفى الفكر وعلاقاته الرمزية ... مما تجد عرضاً له حتى سنة ١٩٢٩ فى سجل مرتشيزون

والتذكر Recognition and Recall (مجلد ٢٤ ص ص ٢٨ - ٣٣) وفى العدد الأول من مجلة الطب البريطانية Brit. Med. J. بحث فى حالة تورم فى المخ بدون أعراض A Case of Tumour of the Brain without Symptom (راجع سجل مرتشيزون ج ٢ ص ٢٢٠) .

(١٨) جوترى (إدوين راي)
Edwin Ray Guthrie - وهو بقسم علم النفس بجامعة واشنطن أيضاً - ولد بعد صاحبه بثلاث سنوات (١٨٨٦) ، ولحق بجامعة نبراسكا (١٩٠٧ - ١٩١٠) ولكنه حصل على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة پنسلفانيا سنة ١٩١٢ ، وظل بها حتى سنة ١٩١٤ زميلاً University Fellow ثم انتقل معيداً بجامعة واشنطن (١٩١٤ - ١٩١٩) وظل بها حتى صار أستاذاً لعلم النفس فى سنة ١٩٢٨ .

وكان هو الآخر عضواً فى هيئة علماء النفس الأمريكية ، والجمعية الأمريكية للفلسفة .

وله مع سميث كتاب « علم النفس العام » المذكور ، و : الأستعراض Exhibitionism (فى مجلة علم النفس المرضى والاجتماعى) . وله (فى مجلة الفلسفة ج ٢١ سنة ١٩٢٤) بحث عن الغرض والآلية فى علم النفس Purpose and Mechanism in Psychol.

مشاركتها في حركة علم النفس الحيواني ،
الذي - وإن لم يكن عملها قد اقتصر
عليه - فقد دفع بها إلى ميدانه نجاح
كتابها : عقل الحيوان The Animal
Mind ؛ بل لأنها كانت - كما
يقول بورنج Boring (تاريخ علم
النفس التجريبي ص ٥٦٠) -
سكرتيرة وموسوعة لهذه الحركة . وكتابها
الذي أشرنا إليه ، والذي ظهر سنة
١٩٠٨ وروجع سنتي ١٩١٧ ،
١٩٢٦ هو كتاب جامع لكل بحث
في هذا الموضوع . وإذا كان لا بد
لأى حركة من كتاب أو متن يعبر
عنها لكي تبلغ شبابها ؛ فإن كتاب
واشبرن يقدم هذا النوع الواعي من
الدراسة لتاريخ هذه الحركة .

وتجد ثبثاً كاملاً لبحوث وكتب
واشبرن حتى ١٩٢٩ بسجل مرتشيزون
(ج ٢ ص ص ٢٦٥ - ٢٦٨) .

(٢١) نظرية جيمس - لانجى James
Lange theory - في سنة ١٨٨٤
صاغ جيمس لأول مرة نظرية له في
الانفعال ؛ قام حولها نقاش وبحث
واسعان ، وأصبحت فيما بعد أشهر
نظريات جيمس السيكلوجية . فقد
قال بأن ثمة تكيفات منعكسة داخلية
في الجهاز العصبي للاستجابات
الانفعالية ؛ تكيفات تؤدي بطريقة
آلية إلى تغيرات جسمية معظمها في
الأحشاء والعضلات ، وأن بعض هذه
التغيرات يمكن أن يحس ؛ وأن إدراك

(ج ٢ ص ص ١٠٨ - ١٠٩) .
(٢٠) واشبرن (مرغريت فلوى)
M.F. Washburn : ولدت بنيويورك
في يوليو ١٨٧١ ، وحصلت على درجتي
الـ A.B. والـ A.M. من كلية فاسر
Vasser (سنتي ١٨٩١ ، ١٨٩٣)
ثم حصلت على الدكتوراه في الفلسفة
من جامعة كورنل (سنة ١٨٩٤) .
اشتغلت أستاذاً للفلسفة ومحاضرة في علم
النفس بكلية ولز Wells College
وجامعة كورنل وغيرهما حتى سنة ١٩٠٣
حيث عينت أستاذاً مساعداً للفلسفة
مع القيام بعلم النفس في كلية فاسر
Vasser ؛ ثم في سنة ١٩٠٨
أصبحت أستاذاً لعلم النفس في هذه
الكلية .

وقد اشتركت وساعدت في تحرير
مجلات كثيرة : منها مجلة علم النفس
المقارن ، ومجلة علم النفس الأمريكية
Ameri. J. of Psychol. والصحيفة
النفسية Psycholo. Bulletin ، ومجلة
سلوك الحيوان J. of Animal Behav. ،
والمجلة النفسية Psychol. Review
وغيرها . كما كانت عضواً مهيبة علماء
النفس الأمريكية - التي رأسها سنة
١٩٢١ - والجمعية الأمريكية لتقدم
العلم (كانت نائبة الرئيس ومنظمة
لقسم ١ منذ ١٩٢٦) ؛ وفي لجنة
البحث القومي ، قسم الأنثروپولوجيا
وعلم النفس .
ولا ترجع أهمية واشبرن إلى مجرد

مما يتعارض مع مألوف ما نعرف . وفي مقالة له (سنة ١٨٩٤) ألمّ جيمس بهذه الاعتراضات قائلاً : إن المنبه للتغيرات الجسمية ليس شيئاً بسيطاً ، بل هو موقف بأكمله total situation فنحن قد نجري من الدُّب ، ولكننا لانجري منه إذا كان مقيداً ، أو إذا كنا صائدين نُحسِن الرمي . وميّز — في المقام الثاني — بين الانفعال ، وما سماه قوة الشعور feeling-tone ؛ مُعرِّفاً الانفعال بأنه : نوع من إصابة يشمل هذه التغيرات الجسمية .

وقد حدّت هذه التعديلات من شمول النظرية وبساطتها ، ولكنها جعلتها لا شك أقرب إلى الحقيقة . راجع في هذه النظرية : مبادئ علم النفس لجيمس (١٨٩٠) ج ٢ ص ص ٤٤٢ — ٤٥٥ ، ومجلد ٩ من مجلة Mind (١٨٨٤) ص ص ١٨٨ — ٢٠٥ . أما رده على مُعترضيه فتجده في العدد الأول من مجلة علم النفس Psychol. Rev. (سنة ١٨٩٤) ص ص ٥١٦ — ٥٢٩ ، كما تجده في مقالاته ونشراته المجموعة Collected Essays and Reviews (سنة ١٩٢٠) . أما ورقة لانجى المسماة Om Sindsbevoegelser (١٨٨٥) فقد تُرجمت إلى الألمانية Ueber Gemütsbewegungen (في الانفعالات) ١٨٨٧ .

(٢٢) كَنَن (ولتر برادفورد) W. B.

هذه التغيرات هو الانفعال emotion . وفكرته أن الشيء في علاقته بعضو الحس يثير إدراكاً للشيء عن طريق المركز اللحائي المختص ، وأن هذا الإدراك الحسى هو « فكرة الشيء مفهوماً فحسب idea of object- simply-apprehended » ، وأن هذه الفكرة تيارات منعكسة تمر في طرق معينة ، وتغير حالة العضلات والجلد والأحشاء ؛ وأن إدراك هذه التغيرات هو « فكرة الشيء مشعوراً به على نحو انفعالى — idea of object emotionally-felt » .

وفي السنة التالية وضع لانجى C. Lange في كوينهاجن نظرية قوية الشبه بهذه ، غير أنها أقل عمقاً ، وأكثر تأكيداً للتغيرات العصبية المحركة للأوعية الدموية vasomotor changes فأعاد جيمس في « مبادئه Principles » (١٨٩٠) نشر هذه النظرية ، مقياً اعتباراً لفكرة لانجى ، ومُدخِلاً عليها تغييرات وتحسينات . ولم تسلّم هذه النظرية من النقد ؛ فقد نشأ معظمه — كما يقول بورنج (تاريخ علم النفس التجريبي ص ٥٠٣) — من التبسيط أكثر مما ينبغي ، الناتج عن أسلوب جيمس التصويرى ؛ مما جعله يُظهر الانفعال على أنه نتيجة — وليس علة — للتغيرات الجسمية . وذلك كما لو قلنا : « نحن نشعر بالحزن لأننا نبكى ، وبالحوف لأننا نرتعد » ؛

چيمس - لانجى غير صحيحة ؛ فقد
فسر بعض علماء النفس نتائج كنى
على عكس ذلك ؛ قائلين إنها تتناول
طبيعة الانفعال ككل ، وكما هو ،
وإنها تعجز عن بيان وجوه الفرق بين
الانفعالات .

وتقف على أثر كنى - معظمه -
في كتابه : تغيرات الجسم في الألم
والخوف والغضب Bodily Changes
in Pain, Hunger, Fear and Rage
(١٩١٥) متضمناً أحدث آرائه (في
الطبعة الثانية منه سنة ١٩٢٩) ، كما
تجد ثبت مقالاته وبحوثه - حتى سنة
١٩٢٩ - في سجل مرتشيزون ج ٢
ص ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢٣) ماير (مكس فريدرش) M. F.
Meyer : ولد في داننستك
بألمانيا (في يونيو ١٨٧٣) ، ولحق
بجامعة برلين (من ١٨٩٢ حتى
١٨٩٨) حيث حصل على الدكتوراه
في الفلسفة سنة ١٨٩٦ ، ومنذ سنة
١٩٠٠ صار أستاذاً لعلم النفس بجامعة
ميسورى بكولومبيا . وكان عضواً وزميلاً
لهيئة علماء النفس الأمريكية ، والجمعية
الأمريكية لتقدم العلم . وقد أورد
مرتشيزون في سجله الثانى (١٩٢٩)
قائمة كتبه وبحوثه بالألمانية والإنجليزية
(ص ص ١٥٨ - ١٥٩) .

(٢٤) اشتَمف (كارل) Karl Stumpf :
المولود سنة ١٨٤٨ في قرية من مقاطعة
بشاريا قريبة من فيرتسبورج ، اشتغل

Cannon : ولد في أكتوبر ١٨٧١
ولحق بجامعة هارفرد فحصل منها على
الـ A.B. والـ A.M. في سنتى ١٨٩٦ ،
١٨٩٧ . وفي ذلك الحين لحق بمدرسة
الطب بهارفرد ، وحصل منها على
الدكتوراه في الطب سنة ١٩٠٠ .

اشتغل بجامعة هارفرد مدرساً
للزولوجيا حتى ١٩٠٢ ، فمدرساً
للفيزيولوجيا حتى ١٩٠٦ حيث صار
أستاذاً مساعداً للفيزيولوجيا واشترك
في كثير من الجمعيات والهيئات العلمية
بأمريكا وباريس ولندن وپولونيا
وبيونس آيريس .

وقد تولى هو - بعد چيمس ولانجى -
دراسة الانفعال دراسة تجريبية في
المعمل الفيزيولوجى ، ووصف بعض
هذه التغيرات الجسمية بأن الجهاز
العصبى السمپتاوى يُنبئه في الانفعال ،
فيثير كثيراً من التغيرات الانفعالية التى
تهيئ الكائن العضوى لفعل عنيف
كالمقاتلة أو الحرب . كما بين أن
تنبيه الجهاز العصبى السمپتاوى يطلق
الأدرينين adrenin في مجرى الدم
وأن كثرة الأدرينين نفسها تميل إلى
إحداث هذه التغيرات . وقد أيد كنى
أيضاً فكرة قوة الشعور feeling-tone
الناشئة عن تهيج التلاموس كعامل
أساسى في الانفعال . وكان ما انتهى
إليه كنى ؛ أن كل الانفعالات
متشابهة من حيث التغيرات الجسمية
الناشئة عنها . وبهذا تصبح نظرية

وأبوته وجدته لأمه بالطب الشرعى ، فكان لهذا الأخير فى تربية اشتمف كبير الأثر بعد أن اعتزل الخدمة : علمه اللاتينية ، والطب والعلم الطبيعى قد أحبهما لكثرة من كانوا يترددون على الدار من الأطباء ، وكان يحسن الموسيقى على خمس آلات موسيقية أو أكثر ، قبل أن يختلف إلى الحمنازيوم فى الحادية عشرة .

وفى السابعة عشرة لحق بجامعة فيرتسبورج ، ولم يحصل على درجته فى الموسيقى ؛ بل اتجه إلى علم الجمال الذى انتهى به إلى الفلسفة ، متأثراً بشخصية برنتانو ولوتسه — الذى أحاله إليه برنتانو فى جتنجن ليحصل على درجته معه سنة ١٨٦٨ ، وليعود ثانية إلى برنتانو فى فيرتسبورج يشارك فى أفكاره الدينية عن المسيحية الجديدة وليعود مرة أخرى — بعد انغماسه فى هذه التالوجيا والفلسفة المدرسية — إلى جتنجن للحصول على إجازة التدريس برسالة له فى « البدنيات الرياضية » عين بها معيداً Dozent فى جتنجن ثلاث سنوات . وأتيح له أن يتعرف جيداً بلوتسه وثير وفخر ، وبدأ منذ سنة ١٨٧٢ يدرس فكرة أصل إدراك المكان ، فأصدر فيها كتابه الأول فى علم النفس « فى الأصل السيكولوجى للإدراك المكانى Ueber den psychologischen Ursprung der Raumvorstellung » فى ربيع ١٨٧٣ ، قال فيه إن اللون

والامتداد كلاهما جزء أول مكون للإحساس البصرى . وفى هذه السنة حصل اشتمف على كرسي الفلسفة خلفاً لبرنتانو المستقيل ، وبتأيده هو ولوتسه ؛ ف قضى هنا ست سنوات تعرضت حياته بعدها لتغيرات جغرافية كثيرة — كما يقول بورنج (تاريخ علم النفس التجريبي ٣٥٣) — فقد قضى خمس سنوات فى براغ ، وخمساً فى هلى Halle ، وخمساً فى ميونخ ، وأخيراً ذهب إلى برلين (١٨٩٤) . وصاحب تنقلاته هذه تحوله إلى علم النفس وإن لم يُزايِله سلطان الفلسفة ، بل هو يخدم الفلسفة بعلم النفس كما يفعل برنتانو ومِل . وعاوده غرامه بالموسيقى ، فكتب عن سيكولوجيا النغم الموسيقى Tonpsychologie (بدأ عمله فيه سنة ١٨٧٥ فى فيرتسبورج ، وظهر مجلده الأول سنة ١٨٨٣ فى براغ ، ومجلده الثانى سنة ١٨٩٠ فى ميونخ) وبتعيينه فى برلين — هذا المركز العلمى والموسيقى الممتاز — تفجرت مواهبه وزاد نشاطه فى الثلاثين سنة التالية أضعاف أضعاف ما كان عليه فى الثلاثين سنة الماضية ؛ فأصبح معمله معهداً كبيراً ، وترأس مع لپس Lipps مؤتمر علم النفس الدولى فى ميونخ سنة ١٨٩٦ . وفى سنة ١٩٠٠ كان أحد مؤسسى جمعية برلين لسيكولوجيا الطفل Verein für Kinderpsychologie ، وهم بكتابة مجلد ثالث فى « سيكولوجيا

أبوته وجدته لأمه بالطب الشرعى ، فكان لهذا الأخير فى تربية اشتمف كبير الأثر بعد أن اعتزل الخدمة : علمه اللاتينية ، والطب والعلم الطبيعى قد أحبهما لكثرة من كانوا يترددون على الدار من الأطباء ، وكان يحسن الموسيقى على خمس آلات موسيقية أو أكثر ، قبل أن يختلف إلى الحمنازيوم فى الحادية عشرة .

وفى السابعة عشرة لحق بجامعة فيرتسبورج ، ولم يحصل على درجته فى الموسيقى ؛ بل اتجه إلى علم الجمال الذى انتهى به إلى الفلسفة ، متأثراً بشخصية برنتانو ولوتسه — الذى أحاله إليه برنتانو فى جتنجن ليحصل على درجته معه سنة ١٨٦٨ ، وليعود ثانية إلى برنتانو فى فيرتسبورج يشارك فى أفكاره الدينية عن المسيحية الجديدة وليعود مرة أخرى — بعد انغماسه فى هذه التالوجيا والفلسفة المدرسية — إلى جتنجن للحصول على إجازة التدريس برسالة له فى « البدنيات الرياضية » عين بها معيداً Dozent فى جتنجن ثلاث سنوات . وأتيح له أن يتعرف جيداً بلوتسه وثير وفخر ، وبدأ منذ سنة ١٨٧٢ يدرس فكرة أصل إدراك المكان ، فأصدر فيها كتابه الأول فى علم النفس « فى الأصل السيكولوجى للإدراك المكانى Ueber den psychologischen Ursprung der Raumvorstellung » فى ربيع ١٨٧٣ ، قال فيه إن اللون

— تاريخ نشرها ومصادرها — راجع بورنج : تاريخ علم النفس التجريبي ٣٧٠ — ٣٧١ .

(٢٥) فايس (ألبرت پول) A.P. Weiss : ولد بقرية من مقاطعة سلينزيا بألمانيا (في سبتمبر ١٨٧٩) ولحق بجامعة ميسوري فحصل على درجة A. B. سنة ١٩٠٩ ، ودرجة A. M. سنة ١٩١٢ ، والدكتوراه في الفلسفة ١٩١٦ ، وعين مدرساً بجامعة ولاية أوهايو (١٩١٢ — ١٩١٥) فأستاذاً مساعداً (١٩١٦ — ١٩١٨) فاستاذاً لعلم النفس (منذ سنة ١٩١٨) . وتولى مساعداً تحرير مجلة علم النفس العام (منذ ١٩٢٨) . كما كان عضواً في هيئة علماء النفس الأمريكية ، والجمعية الأمريكية لتقدم العلم ، وفي المجمع اللغوي الأمريكي Am. Linguistic Society .

وقد أسهم فايس مبكراً في المذهب السلوكي ، وعارض به علم النفس الوظيفي والبنائي (الركيبي) . وتجدت مقالاته وبحوثه الهامة في السلوكية في سجل مرتشيزون (ج ٢ ص ٢٧٣) .

(٢٦) هنتر (ولتر صمويل) W.S. Hunter : ولد في مارس ١٨٨٩ ، ولحق بكلية الهندسة بتكساس Texas (من ١٩٠٥ إلى ١٩٠٨) ثم حصل على الـ A.B. من جامعة تكساس (سنة ١٩١٠) وعلى الدكتوراه في الفلسفة من جامعة شيكاغو (سنة ١٩١٢)

النغم » ولكنه كتب بدلا منه : « أقوال في علم الأصوات والموسيقى Beitrage zur Akustik und Musikwissenschaft » منذ ١٨٩٨ وما بعدها .

وبتأمل كتابات اشتَمف (سجل علم النفس لمرتشيزون ج ٢ ص ص ٤٧٣ — ٤٧٦) نجد أن معظمها في سيكولوجيا النغم والموسيقى . في هذا الميدان المحدود من علم النفس قصر نشاطه ، ولا يدين له علم النفس العام بإنتاجه بقدر ما يدين له بشخصيته التي استمدها في الأغلب من مركزه العلمي ، وإن كان ذلك لا يجرد من قدرته ونشاطه .

كتب اشتَمف بنفسه تاريخ حياته ، وكتبه في اشتمت : فلسفة الحاضر كما يقدمها أصحابها : R. Schmidt. Die Philosophie der Gegenwart — (جزء ٥ — ١٩٢٤ — ص ص ٢٠٥ — ٢٦٥) ، كما كتب في نظرية الانفعال والشعور — التي أدى به إليها غرامه بالموسيقى — ثلاث مقالات في مجلة علم النفس Zsch. f. Psychol. سنة ١٨٩٩ (عدد ٢١ ص ص ٤٧ — ٩٩) وسنة ١٩٠٧ (عدد ٤٤ ص ص ١ — ٤٩) ، وسنة ١٩١٦ (عدد ٧٥ ص ص ١ — ٣٨) نقدها وعلق عليها في مجلة علم النفس الأمريكية : تنشر (عدد ٢٨ سنة ١٩١٧ ص ص ٢٦٣ — ٢٧٧) . وفي بقية آثار اشتَمف

فأستاذاً (سنة ١٩٢٦) . وتولى
(١٩٢٨) مساعدة تحرير مجلة علم
النفس العام ، كما رأس هيئة علماء
النفس الأمريكية (١٩٢٦) .

راجع قائمة بجهته ومؤلفاته في سجل
مرتشيزون (ج ٢ ص ص ٣٨ - ٣٩) .

(٢٨) لاشلي (كارل اسنيسر) K. S.

Lashley : ولد سنة ١٨٩٠ وحصل
على الـ A. B. من جامعة وست
فرجينيا (سنة ١٩١٠) وعلى الـ S. M.
من جامعة بتسبورج (سنة ١٩١١)
ثم على الدكتوراه في الفلسفة من
جامعة جونز هوبكنز (سنة ١٩١٤)
وظل بها حتى ١٩١٧ .

اشتغل مدرساً بجامعة منسوتا
Minnesota ، فأستاذاً مساعداً
فأستاذاً (١٩٢٤ - ١٩٢٦) وبعد أن
اشتغل بالبحث في الشئون الصحية
والسلوكية ببلايه عاد مدرساً في جامعة
شيكاغو (سنة ١٩٢٥) حيث صار أستاذاً
لعلم النفس (سنة ١٩٢٩) . وتولى
مساعدة تحرير مجلة علم النفس المقارن
ومجلة علم النفس التكويني (١٩٢٤)
وبحوث في علم النفس التكويني
Gen. Psychol. Mon. (١٩٢٦)
كما رأس هيئة علماء النفس الأمريكية
(١٩٢٩) واشترك في كثير غيرها من
الجمعيات العلمية .

وتجد ثبت بجهته ومقالاته في سجل
مرتشيزون (ج ٢ ص ص ١٣٧ -
(١٣٨) .

وصار مدرساً للفلسفة في جامعة تكساس
(حتى ١٩١٤) فأستاذاً مساعداً لعلم
النفس (حتى سنة ١٩١٦) فأستاذاً
في جامعة كنساس Kansas (حتى
١٩٢٥) ثم انتقل إلى جامعة كلارك
وظل بها . وكان هنتر عضواً بهيئة علماء
النفس الأمريكية ، كما كان زميلاً
لجمعية تقدم العلم الأمريكية .

وتولى مساعدة تحرير مجلة سلوك
الحيوان J. of Animal. Beh.
Psychol. Bulletin علم النفس
ومجلة علم النفس المقارن ، وبحوث
سيكولوجية Psychol. Monog. ،
وأبوعية التربية Pedagog. Semin. ،
وبحوث علم النفس التكويني ؛ وغيرها
وكان هنتر أحد الذين استهوتهم
تعاليم السلوكية فأقبلوا عليها ، فكانت
له بحوث طيبة في الفكر والشعور
والمعرفة ؛ تجد قائمة لها (حتى سنة
١٩٢٩) بسجل مرتشيزون (ج ٢
ص ص ١١٤ - ١١٥) .

(٢٧) كار (هارثي) H.A. Carr :
ولد في مورس (في أبريل ١٨٧٣)
ولحق بجامعة كولورادو فحصل منها
على درجتي الـ B. S. ، M. S. (سنتي ١٩٠١ ، ١٩٠٢) ثم بجامعة
شيكاغو حيث حصل على الدكتوراه
في الفلسفة (١٩٠٥) . وبعد أن
اشتغل مدرساً بمعهد برات Pratt
Institute عين أستاذاً مساعداً
بجامعة شيكاغو (١٩١٦ - ١٩٢٣)

(١٩١٩-) هو : تشریح وفیزیولوجیا الجهاز العصبی بوجه عام . وخصوصاً المخ Anatomiet Physiologie du Système Nerveux en Général et du Cerveau en Particulier مع ملاحظات عن إمكان معرفة استعدادات عقلية وخلقية كثيرة للإتسان والحیوان من أشكال رعوسها . وفيما بين ١٨٢٢ - ١٨٢٥ أعاد جول نشر هذا الكتاب مُنقَّحاً باسم : في وظائف المخ Sur Les Fonctions du Cerveau .

وهذا الكتاب علمی من الطراز الأول ، يبحث الجزء الأول منه (١٨١٠) في الجهاز العصبی بوجه عام وفي الأعصاب الهامة والحبل الشوكی والمخيخ والحواس الخمس ، والثلاثة الأخرى تبحث في فيزيولوجيا المخ وفي أخص خصائص علم القوى العقلية ؛ وإن كان هذا الاسم لم يُنشئه جول - بل استعمله لأول مرة تلميذه اسپرتسايم (١٧٧٦ - ١٨٣٢) . ويعترف لجول خصوصه وناقده بما قدم لعلم القوى العقلية من حسنات ؛ حتى كاد يُختار هو واسپرتسايم (سنة ١٨٠٨) أعضاء في الجمع الفرنسي Institut de France لسولا أن السياسة كانت تمنع إذ ذاك انتخاب الأجانب .

(٣٠) فلورنس (پير) P. Flourens
أهم شخصية في تقدم فيزيولوجيا المخ بعيداً عن تيارتي النزعة التقليدية

(٢٩) جول (فرانتس جوزيف) F. J. Gall : (١٧٥٨-١٨٢٨) كان عالماً بالتشريح ، شغل نفسه خصوصاً بالمخ والرأس ؛ حتى إنه كان يلاحظ ما يقوم من العلاقات بين الخصائص العقلية لبعض زملائه في المدرسة وأشكال رعوسهم ، وبين عيونهم وذاكراتهم . وما زال يتوسع بدراسته هذه لأصدقائه حين كبر - مستعيناً بـ بروز الرأس الذي يتخذ منه علم القوى العقلية علامةً لدراساته . وبدأ يحاضر في نظريته الجديدة في الفراسة physiognomy بقينا حيث اتصل به اسپرتسايم Spurzheim تلميذاً (سنة ١٨٠٠) . ولاقته هذه النظرية إقبالا رغم ما أمرت به الحكومة - بناء على إرادة الكنيسة - من وقف هذه المحاضرات (سنة ١٨٠٢) . وقام هو ومساعدته اسپرتسايم بجولة محاضرات في ألمانيا ، انتهت منها إلى باريس (١٨٠٧) وبدءا ينشران معاً ، ولكنهما اتفقا على أن يفترقا (١٨١٣) فبقى جول في باريس يحاضر ويكتب ويبحث ؛ بينما راح اسپرتسايم يُبشر بالمذهب الحديد في فرنسا وانجلترا وأخيراً أميركا .

وأول ما ظهر من الكتب في علم القوى العقلية (علم مراكز القوى العقلية في الدماغ phrenology) باسم جول ومساعدته اسپرتسايم - في المجلدين الأولين منه (فيما بين ١٩١٠

(٣١) فرانتس (شِيرْدَ أَيْقُورِي) (Sh. Ivory Franz) : (المولود سنة ١٨٧٤) إليه يرجع الفضل في التقدم الهائل الذي ناله علم النفس الحيواني بإدخال منهجي التمييز الباحث - investigating discrimination والتعلم في الحيوان، ومنهج الاستئصال extirpation في دراسة وظائف المستويات المختلفة للمُخِّخ - هذا النوع الحديد الحصب من الدراسة كما يصنفه بورنج (تاريخ علم النفس التجريبي ص ٥٥٩) - بدأ فرانتس عمله سنة ١٩٠٢، وفي خلال الخمس عشرة سنة التالية نشر ست رسائل هامة عدا المقالات الكثيرة. وقد استطاع بتجاربه أن يقول بعلاقات بين الفصوص الأمامية frontal lobes وبين تحصيل (اكتساب) العادات واعتقالها (إيقافها) : وبين الفصوص الخلفية أو القفائية occipital lobes والوظائف البصرية. وهذه العلاقات كانت مقبولة بطبيعة الحال من الناحية الإكلينيكية؛ فقد كانت هذه المناطق الخفية معروفة باسم المستويات البصرية ومستويات الارتباط.

وقد كان لنتائج فرانتس - إلى جانب هذا - مدلول سلبي لا يقل أهمية : فقد اتضح أن المستويات أو المراكز الخفية لم تحدد تحديداً كاملاً، بل وحتى مواضعها التقريبية قد بدا أنها خاضعة للتغير؛ وأن تحطيم مركز منها قد يتبعه القضاء على اكتساب

ونظريات علماء القوى العقلية. فاق رولاندو وغيره من نظرائه بدقته ووضوح بحثه وصدق نتائجه، ولا يزال يُعد حتى اليوم قد أسهم بجزء في مادة هذا العلم ومنهجه يمكن قبوله على أنه حق. احتضنه كيشيه Cuvier السكرتير الدائم لمعهد باريس؛ الذي كان يعهد إليه بدراسة بحوث العلماء وتقديرها، فجعله يحاضر في فيزيولوجيا الحواس حيث لاقى نجاحاً. فجميعت بحوثه الهامة في المخ، وقدمها كيشيه إلى أكاديمية العلوم (سنة ١٨٢٢)، (١٨٢٣) ثم طبعت مع مقدمة تمهيدية لها؛ فكان منها كتابة الأول الأهم (١٨٢٤) كما طبع له كتاب آخر صغير يشمل بعض مقالات (سنة ١٨٢٥) .. وفي سنة ١٨٢٨، انتخب عضواً في الأكاديمية؛ ولم يلبث بعد وفاة كيشيه أن حل محله سكرتيراً دائماً (سنة ١٨٣٣) ثم ألحق بتدريس التشريح المقارن في متحف Jardin du Roi - منصب خُلق خصيصاً له. كما أنه انتخب (سنة ١٨٤٠) لأكاديمية فرنسا بعد فكتور هيجو، فكان ينشر ويشغل بالسياسة. وفي سنة ١٨٤٢ أعاد نشر كتاب ١٨٢٤ وكتب في : فحص علم القوى العقلية Examen de la phrenologie. وعُين في سنة ١٨٥٥ أستاذاً للتاريخ الطبيعي في الكوليج دي فرانس، وتوفي بعد ١٢ سنة.

الجديد - كما سمي فرانتس نظريته في
التحديد الموضوعي الدقيق .
ومن هنا بدأت الأنظار تتطلع من
جديد إلى فلورنس ، الذي رفض أن
يأخذ بأي تحديد موضوعي لوظيفة أى
جزء من أجزاء المخ ؛ قائلاً إن كل
جزء - إلى جانب أن له فعلاً خاصاً
محدداً - فإن له أيضاً فعلاً عاماً في
المخ ككل .

سابق ، ولكنه لا يتدخل في وظيفته .
فتحطيم جزء من الغدد الأمامية قد
يؤدى إلى فقدان بعض العادات -
وخصوصاً ما كانت منها حديثه التكوين ؛
ولكن ذلك لا يمنع اكتسابها من جديد .
وقد كانت هذه النتيجة مفزعة لعلماء
الفيزيولوجيا النفسيين الذين رحبوا
منذ فريتش G. Fritsch وهتسك
E. Hitzig بعلم القوى العقلية

الفصل الرابع

سيكولوجيا الجشطالت أو الشكالية

في الوقت الذي كانت فيه السلوكية تَظْهَرُ في أمريكا ، بدأت طائفة صغيرة من علماء النفس المحدثين في ألمانيا لونهاً من التفكير ؛ هو ثورة على تصوّراتهم لغاية علم النفس ومنهجه ؛ وعن ذلك نشأت واحدة من أشدّ مدارس اليوم قوة . ومع أن لها من السنّ ما للسلوكية ، فإن هذه المدرسة لم تُعرَف إلا بالتدريج في الولايات المتحدة* ، « ولهذا » تبدو لنا أصغرَ المدارس .

وقد استخدَمت هذه الطائفة كلمة « جِشَطَلت » صِيحَةً لها ، فسُميت مدرسة الجشطالت (١) . و« جشطلت » كلمة ألمانية عامة معناها شكل shape أو صورة form . وغالباً ما تؤدي هذا المعنى كلمة صِيغَة pattern ، لأن استعمال علم النفس كلمة configuration قد قُصِدَ به مُرادفًا بالإنجليزية . وعلماء النفس الجشطالتيون يُسمّون أحياناً بفلاسفة الشكل أو الصيغة configurationists .

جوهرية سيكولوجيا الجشطالت :

وأول ما ينبغي أن نفهم خاصاً بهذه المدرسة الجديدة ؛ أنها — كغيرها من المدارس — قد بدأت ثورةً على النظام القائم . اصطدمت بعلم النفس التقليدي لعهدنا ، وشكّت عصاً الطاعة خصوصاً على فونت ؛ وبوجه عام على المدرسة الارتباطية associationism ؛ هذا المذهب في علم النفس الذي انحدر عن القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والذي سيطر بتوسع — وليس بطريقة كاملة — على نظرية علم النفس في القرن التاسع عشر .

وقد كان للارتباطية ميزان رئيسيان : فهي كانت ترمي إلى التحليل ، وتُبعَى خصوصاً بالجانب العقلي من الحياة . وقد انتهت إلى أن تعتقد في نفسها نوعاً من الكيمياء العقلية ، يبحث عن العمليات أو الخبرات الأولى وقوانين ارتباطها . وبتوجيه همّها غالباً إلى الجانب العقلي من الحياة ؛ فإنها كانت تنشد أبسط عمليات المعرفة ،

* في الأصل بقول المؤلف الأمريكي on this side of the water فترجمنا لها بالولايات المتحدة

أو أبسط الخبرات التي تُعطي أية معرفة . وأخذت بالإحساسات البسيطة على أنها العمليات الأولية التي منها تتركب الخبرات والأفكار المركبة .

وقد ثارت السلوكية والجشطلتية كلاهما على وجهة النظر هذه بعينها في علم النفس ، ولكنهما ثارتا في اختلاف كبير : فالسلوكية قد ثارت على الأساس العقلي لعلم النفس القديم ، وأصرت على أن الحيوان أو الإنسان يجب أن يُؤخذ بوصفه كائناً مُتحرراً أو سالِكاً ؛ أما سيكولوجيا الجشطلت فقد ثارت على التحليل كشكالة أساسية في علم النفس . فحيث قالت السلوكية : « يجب أن نُحلل السلوك لا الخبرة » ؛ قال علماء النفس الجشطلتيون : « إننا لن نتقدم في علم النفس بعدُ بتحليل أيّ من السلوك أو الخبرة » . والسلوكية قد أطرحت العبارة القديمة « تداعي المعاني » في سبيل « تداعي المنبه والاستجابة الحركية » ؛ بينما اعتقدت سيكولوجيا الجشطلت أن فكرة التداعي بأسرها فكرة مُضللة . كلاهما قد رفض الإحساسات وعلى الأقل الإحساسات الأولى ؛ ولكن لأسباب مختلفة ؛ السلوكية لأن الإحساس ليس استجابة حركية . وعلم النفس الجشطلتي لأن الإحساس يُفترض أن يكون عنصراً أو ذرة للخبرة . وقد أحببت السلوكية المنعكس بحسبانه العنصر السيكولوجي ، وحبذت فكرة الأفعال المنعكسة الشرطية أو المرتبطة ؛ لأنها تُظهر إلى أي حد من التركيب يتكون السلوك من أفعال منعكسة أولية ؛ أما الجشطلتية فعارضت المنعكس البسيط كما عارضت الإحساس البسيط . وكرهت السلوكية الاستبطان لأنه تصدّى لإظهار الخبرة بدلا من السلوك ؛ بينما سيكولوجيا الجشطلت لم يكن لها اعتراض على الاستبطان بالمعنى الواسع ، وإنما اعترضت بجد على هذا النوع التحليلي من الاستبطان الذي نهض به الوجوديون وكأنه وحده الميَّهج الصالح لاستخراج حقائق علم النفس . كانت الوجودية تبدو للسلوكيين مُلطخة بالذاتية – وغالباً بالخيالية – وتبدو لعلماء النفس الجشطلتيين مُصطنعة « أو غير طبيعية » .

ولكى أُبين لك المذهب الذي ثار عليه علماء النفس الجشطلتيون خصوصاً ؛ دعتي أرجعُ بك إلى طريقة فونت في تحديد مهمة علم النفس . فهو يبدأ بأن يقول إن الخبرة تأتي في مركبات أو أخلاط – لا في عناصر . فكل خبرة . وكل فكرة ، وكل انفعال وكل انتباه إلى فعل ؛ هو مركَّب . وإذن فهمة علم النفس أولاً هي أن يُحلل هذه العمليات المركبة إلى عناصرها ، ثم أن يدرس بعدُ كيف ترتبط العناصر والقوانين التي يتمُّ بها هذا الارتباط . وُحد العناصر أولاً ، ثم تقدّم إلى مُركبات أكبر

فأكبر ؛ وهذا ما سماه علماء النفس الجسطلتيون « سيكولوجيا الطوب والمونة »
 brick and mortar psychology مع التشبث « بالطوب » لأن الصعوبة إنما هي في إيجاد
 « المونة » . ومن قبيل كانت مشكلة « المونة » مشكلة خطيرة لدى الارتباطيين .
 فبعضهم رأى أن لا مشكلة ، ولكن بعضاً آخر بدا أنه قنع بمجرد كلمة « تداعى
 أو ترابط associations » كجواب لهذا السؤال : « ما الذى يُمسك العناصر
 معاً ؟ » . وقد أشار خصوم الارتباطية إلى إفلاسها في هذا الصدد ، وحاولوا قبول
 العقل أو الروح أو الأنا على أنها الفاعل الذى يقوم بالربط . وقد بينَ جيمس أن
 الصعوبة هنا إنما نشأت من افتراض العناصر أو الذرات التى لا وجود لها في الخبرة .
 إذ الخبرة — كما هو مسلم به — تأتى في صور مركبة . فإذا كانت العناصر لا حقيقة
 لها ، وغير طبيعية ، لم نَحْتَجْ إلى شيء حقيقى يُمسك بها معاً . ومن ثم ناقش جيمس
 مسألة التحليل التركيبى كلها في علم النفس وكأنها مسألة مصنوعة manufactured
 وليست حقيقية .

وسيعين صدى الماضى على إظهار أن لعلم النفس الجسطلتى بعض أساس
 تاريخى . فأكثر أهمية إذن هذا النقاش الجدلئ للمشكلة القديمة عن الكل والأجزاء
 أو « الكثرة والوحدة » الذى كان تقديمه لعلم نفس فكرة « خاصة الصورة » أو خاصة
 الصيغة — وبالألمانية Gestaltqualität . ودراسة فون إيرنفلس Von Ehrenfels (٢)
 حول هذا الموضوع في سنة ١٨٩٠ قد كان لها تأثير في علم النفس . فخاصة
 الصورة هي صفة يملكها الكل ليست مملوكة لواحد من الأجزاء المكوّنة للكل . فاللحن
 مثلاً يتألف من درجات من السلم . ولكنه لا يوجد في هذه الدرجات إذا أخذت
 بمفردها ؛ بل عندما ترتب في تتابع أو صيغة معينة . وكثير من الألحان يمكن أن
 تتركب من أنغام بعينها . وقصع الدرجات معاً بطريقة ما ؛ فإن نغمة معينة تحدث .
 ثم قصع الدرجات نفسها معاً بطريقة أخرى فسيكون لديك نغمة مختلفة كل الاختلاف .
 وأكثر من هذا ؛ فإنك تستطيع أن تنتقل إلى مفتاح آخر ، وحينئذ فحين تأخذ
 مجموعة جديدة من الدرجات لتعمل بها — وبترتيب هذه المجموعة الثانية من الدرجات
 ترتيباً مناسباً — فإنك تحصل على نفس النغمة في المفتاح الأول . ففي لغة الموسيقى
 تستطيع أن تنقل نغمة من مفتاح إلى آخر . وذلك يُغيّر الدرجات أو « العناصر »
 ولكنه لا يُغيّر النغمة . وأنت حين تعرف نغمة ؛ فليست الدرجات هي التي تعرفها .
 ولكن النغمة ذاتها . فللحن إذن « خاصة صورة » خاصة به . وهناك أمثلة أخرى

كثيرة . فالنموذج من النقط له شكل أو تصميم لا يوجد في النقط ، ويظل هو بعينه وإن تغيّر لون النقط . ومن هذه العناصر بعينها يمكن أن تُستخرج أشكال وصورٌ ونماذجٌ مختلفة ، كما أن نفس الشكل يمكن أن يؤلف من عناصرٍ مختلفة . وخصائص هذه الأنواع من الكل واضحٌ أنها تستحق الدراسة السيكولوجية كما استحقها خصائص العناصر .

ومنذ ١٨٩٠ فصاعداً رأى علماء النفس أن هناك صعوبة في تنسيق خصائص الصورة ليكون منها هيكلٌ علمٍ نفس . وبُذلت الجهود لكي تجعل لها مكاناً بين العناصر ؛ كما كان بعض علماء النفس القائلين « بالفكر بلا صورة » يذهبون إلى القول بعناصر التفكير . على أن مدرسة الجشطات التي بدأت سنة ١٩١٢ قد أكدت أن التمايز الكلي في العناصر والمركبات مُضللٌ في علم النفس . وقد أكدوا من بعد أن خصائص الكل المنظم تضع المشكلة الأجدَر حينئذٍ « بدراسة » علم النفس . قد ينبغي أن ننسى المسألة القديمة الخاصة بالعناصر ، ونُدرس الكل المنظم كما يبدو في الخبرة وفي الفعل . فتحت أيّ ظروف يظهر شكل معين ؟ هذا هو السؤال الحقيقي الذي قالوا به . وهو سؤال يلزم أن يُردّد باستمرار في كل فصل ومسألة في علم النفس .

سيكولوجيا الجشطات تؤكد الكل المنظم :

لو أن علماء النفس الجشطلتيين قد عللوا أنفسهم باعتبارات نظرية كالتى رأينا من قبل ؛ لما استطاعت مدرستهم أن تُظهر هذه الحيوية الكبيرة التى تظهرها . لقد كانوا تجريبيين إلى حد ما ، واستطاعوا أن يأخذوا مبدأهم الموجه في العمل ، وأن يمتقنوا أثره في العثور على تجارب حديدة ومفيدة . لقد درسوا المشاكل جديدها وقديمها - وخصوصاً القديم - ولكنهم أقبلوا عليها من ركن جديد ، ووصلوا إلى نتائج تستوقف انتباه علماء النفس جميعاً .

وعلی أستطيع أن أعطيك فكرة أولية عن طريقتهم في الإقبال عليها ؛ بذكر حملتهم على مسألة جید محسوسة - وإن لم تكن أساسية كثيراً - تلك هى مسألة التعبير الوجهى facial expression للانفعال والشخصية . فإن علماء النفس الآخرين قد نزعوا - في غير تردد - نحو دراسة تحليلية لهذه المسألة . تناولوا كل شكل على حدة ؛ مُعتبرين ما يتخذ من أوضاع مختلفة ، محاولين أن يكشفوا عما يعبر عنه كل منها . فارتفاع الحاجبين ، وانخفاض الحاجبين ، واتساع الحدة ، إغماض العين نصفياً ،

إبراز الشفتين ، ضم الشفتين ؛ كل هذه التفاصيل ربما تدل على حالة انفعالية بسيطة نسبياً ، وبصمّتها إلى بعضها البعض نحصل على تعبير لحالة انفعالية مركبة+ . ويعرض عالم النفس الجشطلتي إلى هذه المسألة بفكرة أن الوجه يجب أن يؤخذ ككل . وبالطبع هو - لكي يُحصّل نتيجة ما - يجب أن يعتبر شيئاً آخر إلى جانب مجرد الوجه في مجموعته . فعليه أن يقيم وزناً للأجزاء بطريقة ما ، ولكنه ينظر إليها في صلتها بالمجموع* . فهو يجد أن التعبير الظاهري لجزء ما يمكن أن يتغير - في صورة ما - عندما تتغير بقية الوجه في غير تغيير خارجي لهذا الجزء الخاص . أو - إذا كان الجزء الأعلى من الوجه ؛ بما فيه العينان ؛ يُعرض أولاً ، ثم تكون بقية الوجه غير مغطاة أيضاً - فإنه يبدو أن العينين ذاتهما تُغيّران تعبيرهما^x . وفي أثناء اشتغاله بظلال الأشخاص silhouettes ؛ وجد أن مجرد تغيير طفيف لجزء من «البروفيل» ربما بدأ أنه يغيّر خطّ الوجه كله ، ويُعطى لكل شخصية مخالفة ؛ بينما تغييرات أخرى ربما كانت كبيرة في ذاتها ، ولكنها تحدث قليل اختلاف في التعبير الكلي . ولو أن دققاً بعينها أدخلت في صورتين مع ما بينهما من اختلاف ، فإنها قد تبدو مختلفة في الشكل اختلافها في التعبير . فمن الواضح أن شكل الوجه يوجد في الوجه ككل ، وتعبير الوجه كذلك .

وبنفس الطريقة يُصرّ عالم النفس الجشطلتي على أننا لا نحصل على صورة صحيحة لشخصية المرء بإحصاء خطوط الشخصية المختلفة ، وإعطاء الفرد معياراً أو مقياساً لكل خط ؛ وأخيراً بوضع معاييره جنباً إلى جنب في لوحة أو جدول . فإن مثل هذه اللوحة تفشل في إظهار أى هذه الخطوط هو الرئيسي المتحكم في شخصية الفرد ، وأياً ذو أهمية ثانوية في حالته ؛ فلا تُظهر دور كل خط أو وظيفته على حدة في الشخصية بأكملها . والشخصية ليست مجرد مجموع خطوط ، بل كل منظم - أو صيغة .

+ بورنج وتشنر E.G. Boring & E.B. Titchener مجلة علم النفس الأمريكية (١٩٢٣)
مجلد ٣٤ ص ٤٧١ / ٤٨٥

* أرنهيم R. Arnheim بحث سيكولوجي Psychologische Forschung (١٩٢٨) مجلد (١١) ص ١ - ١٢٣

x مما هو جدير بالذكر أن هذه الحقيقة ذاتها قد كشف عنها عالم نفس ليس من سلالة مدرسة الجشطلت : ك. دنلب K. Dunlap : بحوث في علم النفس التكويني Genetic Psychology Monographs (مطبعة جامعة كلارك ، ٩٢٧ ، جزء ٢ - ص ١٧٩ - ٢٣٣)

والمجموع الخرد — أو المجموع الخالص — هو هذا الذى يكون كل صنف فيه فى استقلال عن غيره . ويقوم كوحدة فى تركيب المجموع . فنحن فى الحساب لدينا مجموعات خالصة ولكنها مجردة . وليس بمثل هذه السهولة فى الواقع يتركب المجموع حقيقياً من أصناف منفصلة فيما هو حسى . فمجموع موائد حجرة الطعام كلها فى شقة بيت هو مجموع مجرد لكل الأغراض والمقاصد . ولو أنك وصفت كلاً منها على حدة ودونت الوصف فى قائمة ، فإنك تكون فعلت ما هو ضرورى ، ولا حاجة بك إلى أن تستمر فى اعتبار كيف أن مجموع هذه الموائد يؤثر فى خصائص كل واحدة . ولكن من الأسهل — حتى فى الطبيعة اللاعضوية — أن تجد أمثلة لكليات منظمة ؛ أكثر مما تجد لكليات هى مجرد مجموعات أجزائها . فالجموعة الشمسية solar system مثلاً هى كل منظم ، أو صيغة فيزيقية ؛ ما دامت حركة كل جرم (كوكب) فيها تتأثر بوجود كل ما عداه ، ولأعطيك مثلاً أو مثلين آخرين للصيغة الفيزيقية .

فن أمثلة ذلك العجلة حين تدور ؛ لأن حركة كل جزء فيها تتوقف على شكل الكل . ولكى نزيد الأمر وضوحاً ؛ لننشئ عجلة من الخشب — من نوع ما — يجعل اثنتى عشرة عصاة فى مركزها تتفرع منه، وتثبيت كرة خشبية فى الطرف الخارجى لكل عصاة ؛ حتى تتركب حافة العجلة من اثنتى عشرة كرة . ومثل هذه العجلة ستدور — ولكن فى قفز jerkily . ولما كنا قد ركبنا العجلة هنا من قلب وفروع وكرات ؛ فربما حسبنا من المنطق أن نقول إن حركة الكل تقوم فى حركة كل جزء من هذه . ولكننا حينما نلاحظ حركة واحدة من هذه الكرات ؛ فإننا نجدتها تعبر عن سلسلة من دورات أعلى وأسفل — أو منحنيات دورية — يدفعها إلى هذه الحركة العجيبة صلتها بالعجلة ؛ والشكل المستدير لهذه العجلة فى مجموعها . فكل كرة لا تدور أو تندفع كما لو كانت وحدة منفصلة .

ورغوة الصابون مثل طيب . فإذا خدشت جزءاً صغيراً تحطم التركيب كله . وفى الكهرباء أمثلة كثيرة ؛ حيث القوة المحركة (الدينامو) والأسلاك المتفرعة عنه ، والأضواء أو المحركات كلها فى دائرة ؛ تتشابك مع بعضها البعض ، وتغيير أى موضع فى الدائرة يغير من التيار فى كل نقطة .

والكائن العضوى الإنسانى أو الحيوانى هو لا شك صيغة . هو كل منظم ، وليس مجرد مجموع أجزاء وأعضاء . فى دورة الدم ، وفى الجهاز العصبى تترابط

أجزاء الشكل كلها . والحق أن بعض الأجزاء أقوى ترابطاً من غيره ؛ حتى أن الكائن العضوى يسلك كوحدة مركبة أكثر منه وحدة بسيطة . ولكن لعل كل واحد ربما أقر مبدئياً أن الكائن العضوى يفعل ككل ، وأن سلوكه لا يقوم فى مجرد مجموع منعكسات . فإن شرنجتون Sherrington^(٣) — أحد كبار الباحثين فى الأفعال المنعكسة — قد قال بأن المنعكس البسيط تجر يدُ مرض ؛ ووقف جهوده فى معظمها على إثبات « الفعل التكاملى للجهاز العصبى » ، وياقوف قد درس توقف المنعكس الشرطى على الآخر ، ويصر وطسون على أننا نفكر بكل بدننا ؛ وإن كانت أعضاء الكلام تلعب الدور المؤدى « لهذا التفكير المُعَبَّر عنه » ، ولاشلى قد انتهى إلى أن المخ يعمل ككل . وينبغى أن أذكر هنا دراسات كوجيل^(٤) Coghill* الحديثة عن تقدم السلوك فى صغار الضفادع tadpoles ؛ فهو قد لاحظ بعناية كل الاستجابات المبكرة لهذه الكائنات الصغيرة وارتقاء أجهزتها العصبية . فأول استجابة تقوم بها ؛ هى أن تنثى جسبها بعيداً عن المنبه — وهى استجابة تجنب بسيطة . فإذا نما الجهاز العصبى يصبح هذا الانثناء مزدوجاً ، وينتهى إلى حركة الالتواء فى السباحة . ولا ينتقل الحيوان مطلقاً إلى درجة تكون فيها الحركات منفصلة غير مرتبطة ؛ يربطها هو فيما بعد فى أفعال أكبر ؛ ولكن حركاته منذ البدء حركات متكاملة للجسم العضوى كله . وإنما يكون الارتقاء من حركة بسيطة للجسم كله إلى أخرى أكثر تركيباً للجسم كله " أيضاً " .

وهكذا نجد كثيراً من الذين يدرسون السلوك على وفاق فى هذه المسألة . إلا أنه لا شك أن علماء النفس الجشطلتيين قد أصروا بكل قوة على الكلية المنظمة للسلوك ، وأنهم قاموا بأكبر تطبيق لهذه الفكرة كمبدأ موجه فى البحث .

دراسات جشطلتية للإدراك الحسى :

وعند الاقتضاء أقدم لك بعض علماء النفس الذين يُكوّنون هذه الطائفة . فإنها وإن كانت كلاً منظماً ؛ إلا أنها تركب مع هذا من أفراد . فكان زعماؤها الثلاثة : مكس فرتيمر Max Wertheimer وكورت كففكه Kurt Koffka وفولفجانج كيلر Wolfgang Köhler .

فى سنة ١٩١٢ كان علماء النفس الشبان هؤلاء يعملون معاً فى أكاديمية

* كوجيل G. E. Coghill : التمرج ومشاكل السلوك (شركة مكملان ١٩٢٩) .

— والآن جامعة — فرنكفورت . أما فرتيمر (المولود في ١٨٨٠)^(٥) فكان أكبرهم ، ولعله أن يكون الروح الموجّه في المبدأ ؛ وكان من قبلُ قد اضطلع بجزء مشهور من العمل في استخدام اختبار الارتباط الحر للكشف عن المعرفة الخفية . والاستخدام الكشفي لهذا الاختبار أحياناً ما كان يستعان به على اختبار الأشخاص المشبوهين في جريمة ما . وأما كنفكه (المولود في ١٨٨٦)^(٦) فقد قام بعمل هام في التصور والتفكير . وأما كيلر^(٧) (المولود في ١٨٨٧) فكان تلميذاً لاشتمف Stumpf في برلين ، وقد تخصص — بتأثير منه — في مسائل النغم والاستماع . وكيار وفرتيمر هما الآن في جامعة برلين — التي أصبحت أكبر مركز لعلم النفس الجشطاتي — بينما كنفكه هو الآن في أمريكا كأستاذ للبحث في كلية سميث . ويوجد عدد لا بأس به من علماء النفس المحدثين الألمان أتباعاً لهذه المدرسة ، كما يوجد أتباع عديدين آخرون في أمريكا ، أذكر منهم أوجدن R. M. Ogden^(٨) وهو يليار R.H. Wheeler^(٩) .

وإذن ففي فرنكفورت ، في سنة ١٩١٢ ، كان فرتيمر يقوم ببعض التجارب على رؤية الحركة ، وكان كنفكه وكيلر يقومان له بدور الأشخاص ” موضوعات التجربة “ ؛ والمشكلة يمكن أن تعد مشكلة في علم نفس صور الحركة . ولعله ليس معلوماً لديكم أن صور الحركة قد بدأت أصولها منذ مائة سنة تقريباً . وأنه قد اخترعها عالم نفسى — أو على الأقل عالم فيزيولوجى — كان أحد السابقين إلى علم النفس التجريبي : ” وأعني به “ پلاتو Plateau^(١٠) . وهو فيزيولوجى باجيكى ، ابتكر طريقة بسيطة لعرض مجموعة من الرسوم في تتابع سريع ، بحيث تُرى كل واحدة منها في مجرد لحظة عابرة . فأما إذا كانت الرسوم تُعرض حيواناً في مَشاهد متتابعة لحركة ما ؛ فإن الملاحظ — حين يرى تتابعاً سريعاً لهذه الصور الساكنة — كان يحصل له تأثير بالحيوان متحركاً . والذي حدث حينئذ في قَن الصور المتحركة هو اختراع التصوير . وتقدم آلة التقاط الصور المتحركة وجهاز إلقائها .

ولكن أصول المسألة تظل كما كانت في عهد پلاتو . فآلة التقاط صورة الحركة تأخذ سلسلةً من الصور الخاطفة snapshots : كل منها — مأخوذة على حدة — هي منظر ثابت . وجهازُ الإلقاء مُرتَّب بحيث يعرض هذه الصور الخاطفة كمجموعة من المناظر الثابتة — في غير ما حركة للصورة على الشاشة . وجهاز الإلقاء هذا ؛ يقطع الضوء أثناء حركة الشريط من منظر إلى الذى يليه ؛ لأنه إذا سُمح للصورة أن تتحرك فعلا على الشاشة ؛ فإن النظارة سيشاهدون بقعة بدلا من أن

يروا حركة الأشياء المصورة . فإذا رأيت ما يُعرض فيزيقياً على الشاشة ؛ فسوف ترى مجموعةً من المناظر الثابتة تفصل بينها فتراتٌ قصيرة من الظلام . وعلى أى حال ؛ لن تستطيع أن ترى ما يُعرض فيزيقياً . فأولاً : أنت لا تستطيع أن ترى فترات الظلام ، لأن الإحساس البصرى يستمر أكثر من المنبه الفيزيقي ويظل حتى العرض التالى ؛ على ألا تكون الفترة طويلة جداً ، فإذا كانت طويلة أكثر مما ينبغى فإنك تحصل على بعض تلاًؤ. وثانياً : أنت لا تستطيع أن ترى سلسلة المشاهد الثابتة ، لأن محك — بهذه الطريقة أو تلك — يستجيب إلى هذا النوع من المنبه برؤية الحركة خلال مجموعة المواقف ؛ وليس "خلال" المواقف ذاتها كل على حدة . وأنت تعلم أنه فى مراقبة شخص يمشى أو يجرى فعلاً ؛ أنت لا ترى — ولا تستطيع أن ترى — النقط المتتابعة التى يمر فيها ، لأنك إذا أخذت صورة خاطفة له أثناء حركته ؛ فإنك تجد غالباً أن الصورة تبين ما يشبه أن يكون موقفاً غريباً جداً . وقلما تستطيع أن تُصدّق أنه قد افترض هذا الوضع فى مجرى حركته ؛ ومع هذا فإن المصورة لم تكذب . فإذا وضعت هذه الصورة الخاطفة فى سلسلة من المناظر المتعاقبة ، وعرضت المجموعة على الشاشة ؛ فإن حركة الشخص ستبدو طبيعية تماماً . والحقيقة إذن هى أنك لا تستطيع أن تستخرج المواقف المتعاقبة — لا من الحركة المستمرة ، ولا من سلسلة من المناظر الثابتة تمثل هذه المواقف فى تعاقب سريع — فأنت مضطرٌّ بحكم تركيبك العضوى أن ترى الحركة وكأنها كلٌّ مستمر ؛ لا كمجموعة من المواقف المتعاقبة .

ولدينا هنا إذن مشكلة هامة وواقعية جداً فى ديناميكا النشاط العقلى . وليس من حلّها أن نشير إلى تنابع الصور الساكنة كأجزاء أو عناصر للتجربة الكلية فيما يتعلق برؤية الحركة ؛ لأن هذه العناصر لا تكون الحركة التى تتطاب تفسيراً .

وفى معالجة هذه المشكلة * اقتنع فرنيمر أن محاولة التقدم بتحليل الخبرة الكلية لرؤية الحركة إلى عناصرها لم تكن تؤدى إلى شىء — شأنها شأن المواقف المتعاقبة . وبدا له أن خطأ التقدم هو أن يدرُس الشروط التى تحتها تبدو أو لا تبدو الحركة . فبسط « الصور » إلى الحد الذى يبين فقط خطأً طويلاً أولاً ، ثم خطأً مشابهاً أبعد قليلاً إلى اليمين أو اليسار ؛ خطان الواحد بعد الآخر ، بينهما مسافة فراغ . وجعل يُنوّع طول المسافة الفراغ . فإذا كان طولها ثانية ؛ رأى الملاحظ مجرد خط ثابت ، ثم الخط

الآخر الثابت ؛ وفقاً للحقيقة الفيزيقية تماماً . ثم تقدم فأنقص المسافة الفراغ فيما بين طرفي الخطين . اقتطعها إلى خمس ثانية ، وما زال الملاحظ يرى أولاً خطأ ثابتاً ثم الآخر . فاقطع المسافة مرة أخرى ، فبدأ الملاحظ يرى منظر الحركة فيما بين الخط الأول والثاني . فلما قلل المسافة إلى $\frac{1}{3}$ أو $\frac{1}{6}$ ، من الثانية ؛ رأى الملاحظ حركة واضحة من النقطة الأولى إلى الثانية ، وبدأ أن خطأ مفرداً يتحرك بينهما . فاما ظلت المسافة تقل ؛ أصبحت الحركة أقل وضوحاً . وفي فترة $\frac{1}{10}$ من الثانية لم تبق أية حركة ظاهرة ، وإنما بدأ الخطان ساكنين جنباً إلى جنب .

ونوع فرتيمر التجربة بطرق كثيرة : فإذا عرض خطأ أفقياً يصحبه خط طولي ؛ ظهر ثمة — في الفترة المحددة — خط يتذبذب خلال ٩٠ . وبتصورات مناسبة استطاع أن يحصل على خطين يبدو أنهما يتحركان في اتجاهات متعارضة في نفس الوقت . وتلك كانت نتيجة هامة لأنها حددت تفسير حركة العين . فلما لم تستطع العينان أن تتابعاً في نفس الوقت حركتين في اتجاهين متعارضين ؛ اقترح فرتيمر تفسيراً يفترض — بمعنى عام — أن عمل المخ في الاستجابة لمنبهين متتابعين يقوم في تغير مستمر ؛ بمعنى أن المخ لم يقف أولاً على موقف ثم على موقف ثان — كل بذاته — ثم يتقدم فيركبهما في إدراك للحركة ؛ ولكن عندما وصل الموقفان إلى مسافة ملائمة ، ظهرت الاستجابة للموقف الأول بحركة تدريجية في الاستجابة للموقف الثاني . فالحركة لم تستنبط ، وإنما تحس فعلاً ؛ لأن عملية الإدراك الأولى للمخ كانت عملية حركة أو انتقال .

وإذا نحن عينا بالإحساس أى استجابة أولى من المخ لتنبه أعضاء الحس ؛ فإننا نرى أن الحركة متضمنة في الإحساس — حسبما يرى فرتيمر . وقد ذهب علماء النفس الحشطلتيون إلى القول بأن كثيراً من خبرتنا — التي يُظن أنها قامت على الإحساس عن طريق عمليات عقلية عليا — هي متضمنة فعلاً في الإحساس . ولنتظر الحجم الظاهر للأشياء التي نرى . فإنه إذا بعد عنك شخص من مسافة عشرة أقدام إلى مسافة عشرين قدماً ؛ فإن صورته البصرية على الشكبية تقل إلى نصف أبعادها الأولى . ومع هذا فهو يبدو كبيراً كما كان من قبل . والتفسير العادي كان يقول إننا قد تعلمنا أن نفس حجم الصورة على الشكبية فيما يتعاقب ببعد الشيء ؛ حتى أن الثبوت الظاهري لحجم الشيء نفسه في أبعاد مختلفة من العين ليس مسألة إحساس ، وإنما هو تفسير أعلى مكتسب . وفي هذا يشك علماء النفس

الجشطلتيون . فإنهم يصرون على أن عملية المخ الحسية هي جزء لا يَعدلهُ جزء من الموقف كله ، وهي بهذا خاضعة لتأثير بُعد الشيء ؛ وأن استجابة المخ الأولى فى هذا المجال الكلى هي التى تجعل للحجج ثبوته . وثمة حالات كثيرة مشابهة تبدو فيها لأنفسنا — فى سداجة — أننا نرى الأشياء كما هي عليه من الناحية الموضوعية ؛ وتُظهر فيزيولوجيا العين فيها أننا لا نستطيع حقيقةً أن نراها كما هي ، إذا كانت رؤيتنا تتعلق تماماً بالتنبيه الواقع على العين . ونتيجة لهذا ؛ قد تعود علماء النفس أن يقولوا إننا لا نرى فى الواقع هذه الحقائق ، ولكننا نستنبطها ، أو نصل إليها بعملية ربط تقوم على سابق الخبرة . وفى مثل هذه الأحوال كلها ، يأمل علماء النفس الجشطلتيون أن يُبينوا أن الرؤية — بمعنى استجابة المخ الأولى للموقف — تعطى الحقائق مباشرة . هم يرون إذن أن استجابة المخ الأولى لا تقوم فحسب على التنبيه الذى تتلقى الشبكية ؛ بل أيضاً على عوامل المجال الكلى الأخرى . وكل تنبيه يصل إلى المخ يصير إلى نظام تفاعلى ديناميكى ، يتوقف أثره هناك على النشاط الكلى الموجود حينئذ فى المخ .

وكان الارتباطيون قد نظروا إلى كل جزء من التنبيه يصل من أعضاء الحس وكأنه وحدة منفصلة ، وإلى كل الوحدات وكأنها متجمعة فى داخل نشاط المخ الكلى من هذه الوحدة الجزئية . هذه الجزئيات كانت الأجزاء القصوى أو العناصر للعملية الكلية ؛ وبتجميعها تتحدد العملية الكلية . أما علماء النفس الجشطلتيون فيرون أن العملية الكلية تُوجه استجابة المخ لأجزاء التنبيه المنفصلة .

وربما ازدَدنا وضوحاً فى هذا الصدد إذا نحن أدخلنا مسألة كم هو الفطرى وكم المكتسب فى إدراك الأشياء . وكانت الارتباطية قد رفضت الأفكار الباطنة وكل معرفة فطرية للأشياء . فقد رأت أن أعضاء الحس تقدم بالطبيعة المواد الخام فحسب ، وكل معرفة أو استخدام لهذه المواد يجب أن يحصل بالخبرة والاكتساب . فالمواد الخام من العين مثلاً تتركب من أجزاء صغيرة من نقط من الضوء ، والظل ، واللون ؛ وهو مجال يمكن أن يكون موحداً أو متنوعاً ، ولكنه فى مجموعه غير منتظم . فما يبدو أننا نراه يتركب فى الواقع من أشكال وأشياء فى المكان ، إلا أن ذلك — كما أخبرنا علماء النفس عادة — إنما هو لأننا تعودنا أن نفسر الكثرة من النقط الملونة . لقد تعلمنا أن نعرف الأشياء بتناولها حين رؤيتها ، ثم ربطنا المظهر البصرى للشيء بما تنقل لنا أيدينا عنه . لقد رأينا أشياء كثيرة مستديرة ، وانتهينا إلى معرفة مجموعات

معينة من النقط البصرية وكأنها تُبَيَّن دائرة . فلو استطعنا لحظةً أن ندع جانباً كل ما تعلمنا ، وأن نرى مجال البصر كما تُظهره العينان بالضبط ؛ إذن لرأينا مجرد قِطْع (موزايك) من نَقَط متنوعة ، خِلاوً من المعنى ، والموضوع ، والشكل . وانفكرة . تلك هي النظرة الارتباطية التقليدية للمسألة .

ولكى نفهم وجهة نظر الجشطتيين يلزم أن نقوم بتفرقة . فإن تنظيم المجال البصرى يودى لنا شيئين مختلفين : فهو يعطينا أشكالاً أو رسوماً بصرية دون اعتبار لدلالاتها كأشياء ، ثم هو يعطينا أشياء وأشجاراً وُحُباً وأشخاصاً معروفة . وهنا فعندما نرى شيئاً ؛ نحن نعرف شيئاً آخر أكثر من شكله البصرى ومظهره . نحن نعرف أكثر مما تُظهر لنا العينان مباشرة . فالشجرة — والظل تحتها — تبدو رطبية ؛ أعنى أنها تُشعر كيف يُحسُّ الجلد حين يَرُقْد تحت هذه الشجرة . ومن غير شك لقد كان علينا أن نتعلم أن المظهر البصرى يدل على نقطة رطبية ؛ وبنفس الطريقة قد كان علينا أن نحصل كلَّ الدلالات الموضوعية للنماذج البصرية التى نرى . فأما أن علينا أن نتعلم رؤية الأشكال والنماذج ذاتها فتلك مسألة أخرى تماماً . وليس شك أيضاً أننا نتعلم معرفة هذه الأشكال بدقة أكثر بالدراسة عليها . إلا أنه تبقى مسألة ما إذا كان علينا أن نتعلم رؤية الأشكال ككتل متلاصقة من الضوء بارزة فوق خَلْفَيْتِها . فالنظرية الارتباطية الخالصة تقول إنه كان علينا أن نتعلم حتى هذا ، أما سيكولوجيا الجشطت فلا تظن ذلك .

هَب أننا حين نفتح أعيننا فى مناسبة معينة لا نجد أمامنا إلا بقعة خضراء فوق خلفية رمادية ؛ فنحن فى غير تردد نأخذ البقعة الخضراء على أنها كل متماسك ، على أنها شكل غامض يبرز فوق خلفيته . قلماً نستطيع أن نُرغم أنفسنا على أن نأخذ نصفَ البقعة الخضراء مع جزء من الرمادى المجاور على أنهما وحدة ، وأقل منه أن نقطع جزءاً من البقعة الخضراء مع أجزاء بعيدة من الرمادى ونجعل منها وحدة مرتبطة . إلا أن نظرية الارتباط — مأخوذة كما هى بدقة — تقول أن ليس شىء فى عملية الإبصار الطبيعية يودى بنا إلى أن نأخذ البقعات المصاوبة على أنها وحدات فى سبيل أى ربط آخر لنقط من أجزاء بعيدة فى المجال . لقد تعودنا أن نرى الأشكال المتجاورة كوحدة ؛ لأن الصور البصرية المتجاورة تدل غالباً على أشياء ذات أهمية عملية . فإذا كان علينا أن نتعلم هذا الدرس ؛ فقد تعلمناه جيداً بالتأكيد ، إذ من المستحيل تقريباً أن نرى مجالاً غريباً ولا معنى له على أى نحو آخر . ولهذا

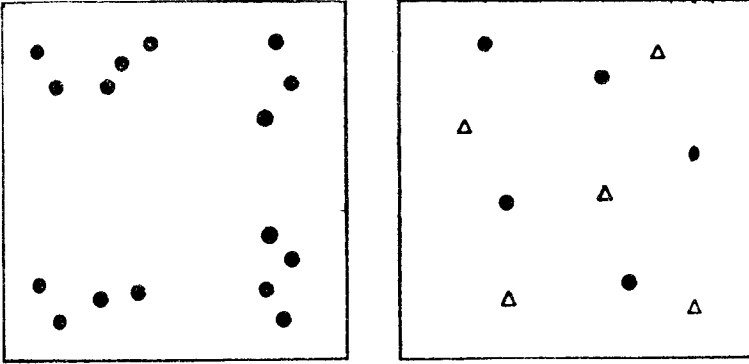
يقوم الدليل لأول وهلة على رأى الجشطت ؛ الذى هو : أنه ليس علينا أن نتعود أن نرى البقعة المتلاصقة كوحدة ؛ لأن استجابة المخ الأولى لمجال ذى تأثير متجانس هى نظام ديناميكى ، وليست تجميعاً لنقطة حية كل على حدة* .

الشكل والخلفية فى سيكولوجيا الجشطت :

وهذه التفرقة بين الشكل والخلفية تُعدُّ لدى علماء النفس الجشططيين مُطلَقة الجوهرية فى عملية الإبصار . فمن المؤكد أن شكلاً ما يُرى إذا قدّم له المجال أى إمكان للرؤية . فالشكل مختلط على نحو رمزى ، ولكنه على أى حال يبدو أن له صيغة وتخطيطاً بينما تبدو الخلفية فراغاً غير محدود . والشكل أجدر بأن يجذب الانتباه من الخلفية . عند ما يفتح الطفل عينيه أول الأمر على العالم ، فبينما هو على التأكيد لا يرى عالماً من الأشياء على نحو ما يرى ويعرف الكبار ؛ قد لا يرى — على عكس ذلك — مجرد كثرة مختلطة من النقاط ، أو « خليطاً كبيراً مضيئاً وصاحباً » كما ظن جيمس . فلو كان ثمة كتلة مختلطة واضحة اللون فى مجال بصره ، كوجه ينحنى فوق سريره ؛ فربما برز ذلك له على أنه شكل « متميز » من الخلفية العامة . ليس مفروضاً أن الطفل يرى الوجه بدقة ، ولا أن تكون له أية فكرة عما هى هذه البقعة ؛ ولكن على الأقل — كما يعتقد علماء النفس الجشططيون — هو يُفرد الوجه كوحدة بصرية مرتبطة ؛ وبهذا يأخذ بدءاً هاماً نحو الوصول إلى معرفة الوجه . فإذا لم يكن أسهل عليه أن يرى الوجه المرتبط كوحدة من أن يجمع نقطاً كثيرة فى المجال كله ؛ فتقدمه فى معرفة الأشياء تحت بصره قد يكون أبطأ بكثير مما هو عليه بالفعل . والصورة والخلفية ليستا قاصرتين على حاسة البصر . فدقة الطلبة الإيقاعية أو سير قارب بخارى تبرز كصورة فوق خلفية عامة من أصوات أقل تميزاً . وشيء يتحرك فوق الجلد يبرز من كتلة الإحساسات الجلدية العامة . فالحقائق يعترف بها كل شخص مسلماً بها ؛ إلا أن دلالتها السيكولوجية قد أغفلت حتى بينها إدجر روبن+ (المولود سنة ١٨٨٦) وهو الآن أستاذ فى جامعة كوينهاجن (١١) . وقد أصرت سيكولوجيا الجشطت على هذه التفرقة بين الصورة والخلفية بوصفها مبدءاً أساسياً فى تنظيم الخبرة والسلوك .

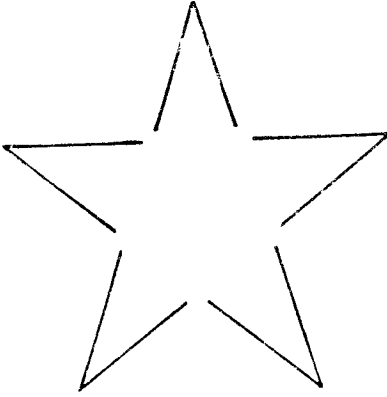
* كيلر : سيكولوجيا الجشطت — بونى وليفريت : ١٩٢٩ . ف ٥

+ ل . روبن : الأشكال البصرية المدركة جيدندال ١٩٢١ .



ويحاول علماء النفس الجشططليون - استمراراً في هذا اللون العام من الدراسة ، وبتركيز جهودهم في معظمها حول مادة الإبصار - يحاولون أن يكشفوا تحت أى شروط يبرز جزء من المجال ككل منفصل عن الكتلة للعامة للمنبهات الموجودة . ويمكن أن نعرّ على عوامل هامة كثيرة من ملاحظة مجموعات من النقاط مبعثرة في غير نظام فوق مجال ؛ فإن هذه النقاط تُرى وكأنها واقعة في مجموعات ، والمسألة هي : تحت أى الشروط يسهل تكوين مجموعة . فشرط وجيه منها أن تكون النقاط قريبة بعضها من بعض ، فالنقط المتجاورة على استعداد لأن تقع في نفس المجموعة . وشرط ملائم آخر هو تشابه النقط ؛ فإذا اشتمل المجال على نقط من شكلين أو بالأحرى ذات لونين ، فهذه المتشابهة منها أكثر قبولاً لأن تُرى وكأنها تُكوّن مجموعة . وشرط وجيه ثالث هو أن تكون النقط شكلاً مُتمماً ، وخصوصاً إذا كان شكلاً منتظم الصورة (التركيب)*

ويُعَلِّب علماء النفس الجشططليون الشكل المُتمم وخاصته على غيره " من الشروط " الجديرة بالذكر . فلو أن شكلاً رُيِمَ بفجوة أو فجوات صغيرة فيه ؛ فإن هذه الفجوات قابلة لأن تُملأ عند إبصار هذا الشكل ، أو - إذا هي لم تملأ - تُعدّ غير ذات أهمية . والواقع أنها أحياناً ما تأخذ العين وتبرز بوصفها أهم شيء في الشكل . وعلى العموم فالميل الطبيعي يبدو أنه إلى ولاء الفجوات " أنزع " . وبدلاً من أن يفسروا هذا الميل بأنه نتيجة خبرة أشياء كلية كثيرة ؛ يعتقد علماء النفس الجشططليون أنه يمثل ديناميكا العقل الباطنية في تلاحق كتلة من المنبهات عن طريق العين . هم يعتقدون في عملية المخ أنها تميل إلى أن تنتشر خلال الفجوة ،



ومع الفجوة توجد حالة امتدادات غير متعادلة ؛ ولكنَّ سدَّ الفجوة هو الذى يؤدي إلى التعادل . فعملية الاستقبال في المخ تنجذب نحو شرط التعادل ، أو التوازن ، أو الامتداد الأقل ؛ كما تفعل الأجهزة الفيزيائية المستمرة الأخرى تماماً — قطرات الماء ، رغوة الصابون ، أو شبكات الكهرباء. والمخ لا يستجيب باستعداد وإخلاص متساويين لكل الأشكال ؛

بل هو يستجيب إلى «كل» شكل ككل . وعلى هذا فرؤية الأشكال لا تُكتسب ، بل هي ضمنية في طبيعة النشاط الذهني .

وملء الفجوات في الأشكال يساوقه الميل إلى تجاوز الأمور الشاذة " غير المنتظمة " ، وبالجملة رؤية ما يبدو للعين على أنه « حسن » أو « مفعم بالدلالة » ما أمكن . والشكل الناقص — في النظرية الجشططية — يدل على امتدادات المخ غير المتوازنة ؛ بينما الشكل الحسن يُعنى به التعادل . ومن ثم فاستجابة المخ لما يقدم له تنجذب نحو تكميل الشكل وتنظيمه وإحكامه .

ويجب ألا ننسى — في اعتبارنا عملية رؤية الأشكال والأشياء — حركات العين ؛ حركات النظر إلى الشيء في اتجاه مستقيم ، ومحاولة بأورته . فهذه الحركات تعطي أشكالاً أحسن مما يمكن أن نحصل عليه في النظر المُضَيَّب . وميلنا المكتسب بالعادة هو بحيث يُوجّه ويُأور العينين حتى يُؤمّن أحسن وأوضح شكل . وبهذا ؛ فإن النشاط الحركي في الإبصار يُنظر إليه على أنه جزء هام جداً من عملية الإدراك . « إن الإحساس والحركة البصريين لا يمكن أن يُعدّا قطعتين منفصلتين من جهاز ؛ ما داما في كثير من أنواع الفعل يُكوّنان عضواً واحداً — أعني نظاماً فيزيقياً قد تستجيب في داخله أجزاء عضوية منفصلة لأجزاء أخرى . وبالتالي فإن ما يحدث في نقطة ما في الجهاز العضوي ليس قط منفصلاً أو لا تأثير له على ما يحدث في أى جزء آخر من الجهاز* » .

* كلفك : نمو العقل The Growth of the Mind هار كورت وبريس وشركاهما - ١٩٢٥ ص ٨٠

ومع أن علماء النفس الجشطلتيين يقفون — على هذا النحو — كثيراً من جهودهم على دراسة الإدراك الحسى ؛ فليس ذلك لأنهم ينظرون إلى وجوه النشاط الحركى على أنها تقع خارج ميدان علم النفس . لقد بدا لهم أن دراسة العمليات الحسية تمهد أحسن التمهيد للاقترب من آليات السلوك بوجه عام . وهم على يقين أيضاً من أن السلوك لا يمكن أن يفهم أقل درجة من الفهم دون أن نعمل حساباً للعمليات الإدراكية . وأنت تذكر أن « هنتر » السلوكى قد حاول أن يخرج بدراسة ما سماه « البيئة المحيطة » من دراسة السلوك . فإن علوماً أخرى — كما أصر هو — تقف وقفاً على دراسة « هذه » البيئة . ودارس السلوك يستطيع بحق أن يتركها لهم ، ويُركز جهوده في استجابات الكائن العضوى . وهنا فإذا كانت البيئة المحيطة هى التى تُعالج في دراسات الإدراك ؛ فهى على الأقل البيئة كما تؤثر في الفرد ، البيئة كما يأخذ بها الفرد . ويرى علماء النفس الجشطلتيون أن من القُبْح أن ندرس استجابات الكائن العضوى الحركية للبيئة ؛ من غير أن ننظر في : ما هى البيئة ، كما يفهمها الكائن . هم يرون أن النشاط الحركى يحدده النشاط الإدراكى ، أو بالأحرى أن كليهما إذا أُخذ وحده كان قطاعاً مُصطنعاً ؛ ما دام الكائن العضوى يفعل ككامل . فالإدراك الحسى مُنطَوٍ في النشاط الكلى للكائن ، والاستجابة الحركية منطوية في نفس هذا النشاط الكلى .

دراسات الجشطلتيين للسلوك :

تكره سيكولوجيا الجشطلت إدراك استجابة المنبه . وهى تعترض — أول ما تعترض — على فكرة أن السلوك يمكن بالتعيين أن يتحلل إلى وحدات استجابة تنبيه ، وهذا الاعتراض يتمشى مع اعتراضها العام على الذرية في علم النفس . هى ترفض فكرة « وجود » رابطة بين التنبيه والاستجابة سواء أكانت هبة من الطبيعة أم رياضة بالمران والخبرة . وهى تعترض على نظرية هربرت اسپنسر التى أخذ بها كثير من السلوكيين في أن الغريزة هى مجرد سلسلة من الأفعال المنعكسة ، وهى ترفض أيضاً النظرية المشابهة أن السلوك المكتسب يتركب من أفعال منعكسة تربطها ببعضها البعض عملية « تشريط » . وأكثر من هذا هى تحمل على الطريقة غير المحددة التى يستعمل بها كثير من علماء النفس كلمة « تنبيه » . فإن علم النفس ليتحدث عن شيء معقد كالتنبيه ، وعن الاستجابة الحركية التى يثيرها مباشرةً هذا التنبيه ،

”يتحدث عنهما“ دون مراعاة للتنظيم العضوى الذى يجب أن يحدث فى الإدراك الحسى قبل أن تتسبى رؤية كتلة المنبهات المنفصلة الآتية من الشيء كشيء مطلقاً . وعند الجشططيين أن الطفل لا يبدأ حياته بطائفة من الحركات المنعكسة منفصلة ؛ ثم تصبح بالتدريج شرطية ومرتبطة فى سلوك . وإنما يبدأ الطفل بسلوك من نوع متدفق وغير منظم تنظيمياً كافياً ، وتكيفه بالبيئة يضمن هذا التنظيم سواء فى الجانب الحسى والجانب الحركى ؛ وبانطواء هذين فى النشاط الكلى للكائن العضوى . وأكثر من هذا ؛ فإن هذا النشاط الكلى له منذ البدء - وفيما بعده - خاصة يمكن أن نسميها بالغرضية .

والأستاذ كورت لفن Kurt Lewin (ولد سنة ١٨٩٠) (١٢) فى جامعة برلين ، هو عضو مدرسة الجشططت الذى وقف نفسه خصوصاً على سيكولوجيا الفعل . واعتراضه على الارتباطات وروابط المنبه والاستجابة ليس - إلى حد كبير - أن مثل هذه الروابط لا وجود لها ؛ بقدر ما هو أنها لا تستتبع الفعل ، وأنها ليست السبب الكافى للفعل . وهو يصور فكرته تصويراً من الحياة اليومية يفسر على نحو نقدى* :

هب أننى وضعت خطاباً فى جيبي ؛ محملاً نفسى ضرورة إلقاءه فى صندوق الخطابات حين أمرٌ فى طريقى بواحد منها ؛ فأنا هنا قد أقيمت رابطة بين رؤية صندوق الخطابات - كمنبه - وبين استجابة لإخراج الخطاب وإرساله . ثم أرى صندوقاً وألقى بالخطاب فيه . سوف يذكر هذه الحالة الارتباطى أو عالم النفس ”الذى يقول“ باستجابة المنبه ، ”يذكرها“ - إلى حد ما - على أنها شاهد قوى لنظريته . إلا أنه تبعاً لعلم النفس الارتباطى هنا أيضاً يجب أن يُقويها التدريب على هذا الربط بين المنبه والاستجابة . وإذن ؛ فعندما أصل صندوق الخطابات الثانى ، فإن استجابة تحسُّس الخطاب فى جيبي ستكون أقوى ، وهذا الميل - على عكس ذلك - قد يكون لا أثر له إطلاقاً . فأنا عندما وضعت الخطاب فى الصندوق الأول قلت لنفسي « لقد انتهى » ، ومحوت رابطة المنبه والاستجابة . ويصيرُ ليقن على أن القوة الدافعة التى نشطت السلوك لم تكن الرابطة ، ولم يكن صندوق الخطابات كمنبه ؛ بل الميل الذى نشأ عندما وضعت الكتاب فى جيبي مع نية إصداره . وهذا

* ك لفن K. Lewin : القصد والإرادة والحاجة Vorsatz, Wille und Bedürfnis فى :

الميل قد زال عندما أصدرت الخطاب ، ولم يعد للرابطة بعد أى تأثير فى سلوكى . ولو أنه قد حدث أى تعقبت عامل البريد وسلمته الخطاب ؛ فإن هذا الفعل المغاير قد كان يُزيل هذا الميل أيضاً .

والسلوك فى مثل هذه الأحوال يمكن أن يوضع فى الصيغة « سد الفراغ » ؛ وبهذا يوضع إلى جانب الميل لرؤية الأشكال التامة . وربما كانت آليات العقل فى كلتا العمليتين هى نفسها إلى حد كبير . فعندما وضعت الخطاب فى جيبى قد تركت فى سلوكى فجوة " أو " فراغاً سدّ عندما صدرت الخطاب . وسد الفراغ قد أدى بهذا الجهاز الديناميكي الخاص إلى حالة من التعادل لا قدرة لها بعد على أن تؤثر فى سلوكى .

فعندما يتعهد فردٌ بعمل ، أو يبدأ فى فعل — حتى ولو كان مجرد عمل معين له بوصفه موضوعاً فى تجربة معمل — فإنه تنشأ فيه ميول لا تتحرر حتى يتم العمل . هذه الميول تتحول إلى « شبه حاجة » تحكى الحاجات العضوية ؛ وإن كانت موقوتة فحسب . فإذا عوق الشخص فى أثناء الفعل ، فإنه يشعر بالحاجة إلى معاودته حالما ينتهى التعويق . فإذا لم يُتَح له ذلك ، فإنه ياصق بذاكِرتِه ساعة أو ساعتين أكثر من الأفعال المشابهة التى أممها . فالعمل الذى تم يمكن أن ينسى ؛ بينما العمل المعوق ما يزال به ميل إلى « شبه حاجته » ، وفراغه لم يسدّ بعد . ومن ناحية أخرى ؛ إذا كان الشخص بإزاء عملٍ مِمْلٍ لا نهاية له محدّدة ، وتُترك لنفسه . فإن شبه حاجته سرعان ما تُشبع . فإذا كان القائم على التجربة قد علمه أن يُبقى عليها حتى يشعر أنه لن يستطيع أن يؤديها ، فربما استمر ساعة يرسم ساسلة لا نهاية لها من النقط والخطوط فوق قصاصات من الورق ؛ ولكنه حقيق جداً بأن يجد لنفسه أهدافاً وهو يأخذ طريقه . فنهاية الخط هدف ، ونهاية القصاصة هدف ؛ سوف يصل إليه قبل أن يستسلم . هو ينزع جهده فى وقت ما إلى السرعة ، وفى آخر لانظام . وهو ربما يربط نقاطه فى مجموعات ، وبهذا يُضفي على العمل الرتيب شيئاً من المعنى . وأخيراً يكون الفراغ فوق الامتلاء ، فيزول عنه الميل . ومع أن الشخص ما يزال يحثه القائم على التجربة بأدب أن يستمر إذا شاء ؛ فإنه ينفجر بإصرار أو حتى بثورة غضب* .

* هذه الدراسات عن نليد لمن : أوفسيانكينيا M. Ovsiankina : بحث سيكولوجى Psychologische Forschung ١٩٢٨ مجلد ١١ ص ٣٠٢ — ٣٧٩ ، وتلميذه نسيجارنك B. Zeigarnik : المرجع المذكور — ١٩٢٧ مجلد ٩ ص ١ — ٨٥ ، وتلميذه كارستن A. Karsten نفسى المرجع ١٩٢٨ مجلد ١٠ ص ١٤٢ — ٢٥٤ .

على أن أطرف ما في عمل مدرسة الجشططت بوجه عام هي دراسة « كيلر »
 للتعلم في القردة*. ففيما قبل الحرب العظمى ، أنشأ الألمان محطة لدراسة الحيوانات
 الشبيهة بالإنسان في تريف بجزر كناريا ، وأُرسل كيلر إلى هناك سنة ١٩١٣ ليقوم
 بدراسات نفسية على الشمبانزي . وكمواطن ألماني أُسِرَ هناك طيلة الحرب ، فتوافر
 لديه الوقت الكافي ليقوم بدراسة كاملة تقدّم هو في الواقع ليضطلع بها . والمشكلة
 التي وضعها لنفسه كانت : هل تُظهر أذكى الحيوانات هذه أيّ ذكاء حقيقي .
 وكان يعنى بالذكاء شيئاً أكثر من التعلم بالمحاولة والخطأ . إنما أراد به « الاستبصار »
 بمعنى رؤية ما يفعله المرء . وكان ثورندايك قد اقتنع من دراساته للقطط والكلاب
 وصغار القردة أن هذه الحيوانات تتعلم بالمحاولة والخطأ ، يعنى بدافع لتثبيت
 الاستجابات الصائبة وانتزاع الخائبة وفقاً لقانون الأثر law of effect — وهي
 عملية تعلم عمياء . ومع أن تجارب ثورندايك لم تمتد إلى القردة الشبيهة بالإنسان ؛
 فإن الفكرة العامة التي تمخض عنها عمله هي : أن التعلم بالمحاولة والخطأ — من غير
 أن يكون ثمة ما يسمى بتدبيراً أو استبصاراً — هو من الناحية العملية المنهج الخاص
 بتعلم الحيوان . وقد أدخل كيلر الشكوك على هذا الأمر ، وظن أن أساس ثورندايك
 الارتباطي قد أدى به إلى بناء زائف ، وإلى تفسيرات للنتائج خاطئة .

وقد استخدم ثورندايك المتاهات والمُحيرَات ، وهي مواقف غامضة ليست مهيأة
 لأن يكتشفها الحيوان . إنما أراد ثورندايك بهذا أن يُعطى للحيوان شيئاً يتعلمه ، فلو
 أنه ترك الطريق إلى الهدف مفتوحاً لا عقبة فيه ؛ فمن الطبيعي أن الحيوانات كانت
 تسلكه رأساً إلى الهدف ، ولم يكن ثمة شيء يُتعلم . وقد أقرّ كيلر ضرورة وجود
 عائق أبدأً ؛ فإن الحيوان يجب أن يضطر إلى أن يأخذ طريقاً ملتويّاً — حقيقياً أو
 ظاهريّاً — حتى يتأدى إلى هدفه . ولكن كيلر قد ناقش أن الحيوان يجب مع هذا
 أن يستطيع منذ البدء أن يطوف بالمجال كله ، حتى يستطيع — إذا كانت له قوة
 الاستبصار — أن يُحلّ المشكلة في غير حاجة إلى عماء المحاولة والخطأ . إن عناصر
 الموقف يجب أن تكون كلها بحيث تُرى . والمسألة هي ما إذا كان الحيوان يستطيع
 أن يُولفَ بينها ، وما إذا كان الحيوان يستطيع أن يرى صيغة الموقف .
 ولكي نبيّن ماذا يراد بكلمة « الاستبصار » يمكن أن نصف أبسط شاهد له .

فإذا أتينا بكلب في ساحة جديدة ذات سور طويل ، ووضعنا — حين يكون الكلب في منتصف السور — شيئاً من الطعام أمامه مباشرة ؛ ولكن في الناحية الأخرى من السور ؛ فإن الكلب غالباً ما يخترق السور من آخره مباشرة إلى الطعام كما وجد كيلر . فالكلب « هنا » يمكن أن يرى الطريق إلى الطعام ، وإن كان طريقاً غير مباشر . أما في المتاهة المعقدة — من ناحية أخرى — فإن على الحيوان أن يستكشف ، لأنه لا يستطيع أن يرى الطريق كله إلى الهدف . وقد كانت شمپانزية كيلر تحل بسهولة أية مشكلة تقوم فعلاً في طريق ملتو إلى الهدف ، حتى ولو لم يكن الطريق كله يُرى بوضوح .

فإذا كان الشمپانزى داخل قفصه ، ووضعت في خارج القفص — وإلى مسافة كبيرة لا يُوصَل إليها مباشرة — موزة معلقة في خيط ومتدلية إلى الأرض نحو القفص ؛ فإن الشمپانزى سوف يجذب الخيط مرة واحدة . ولكن إذا علقت خيوط كثيرة إلى الأرض ، وكلها تمتد في نفس اتجاه الموزة ؛ ولكن واحداً منها هو المشدود للموزة ؛ فإن الشمپانزى سوف يخطئ غالباً ويجذب خيطاً آخر أولاً . الرجل في مثل هذا الموقف لن يجد صعوبة في رؤية أى هذه الخيوط يتصل بالشيء ، وسوف يحصل على الموزة بسرعة . إلا أن الصورة البصرية كانت أعقد بعض الشيء من أن يقف الشمپانزى على صيغتها في الحال .

والعصا — يمسك بها مستقيمة في اليد — قد استخدمت كذلك وسيلة لتحريك موزة تقع أبعد من أن تصلها اليد وحدها . فلو كانت العصا موضوعة إلى خلف القفص ، ومع أن الحيوان قد يراها ويمسك بها عندما يبعد القفص ؛ إلا أنه ليس من المحتمل أن يستخدمها أول الأمر كحرك . وإخفاقه في الحالة الأخيرة يرجع — فيما يبدو — إلى عدم وجود صورة بصرية متماسكة للعصا والموزة . « فالفراغ » في المجال أكبر من أن يوصل في الحال . إلا أن كثرة استخدام العصى لاجتذاب الأشياء ” يؤدي إلى “ التغلب على هذه الصعوبة .

وبالمثل ، وجد الشمپانزية من الأسهل نوعاً أن يستعينوا بصندوق للوصول إلى الطعام الذي لا سبيل إليه بالوثب ، وأن يستحضروا الصندوق إلى الموضع الصحيح إذا لم يكن بعيداً جداً . إلا أن استخدام صندوقين ، ووضع أحدهما فوق الآخر للوصول إلى هدف ما يزال بعيداً ؛ كان مشكلة أكثر صعوبة ، وإن حلها عدد من الحيوانات . لقد أظهروا قليلاً من الاستبصار في مسألة تثبيت البناء ، وربما

ركبوا الصناديق في غير عنايةٍ الواحدَ فوق الآخر ؛ معتمدين إلى حد كبير على خفتهم أنفسهم في الوصول إلى الشيء قبل أن ينهار البناء .
والعمل الذي يستحق الإعجاب ؛ هو عمل أحد الشمپانزية — أذكى المجموعة المختبرة جميعاً — الذي عرف كيف يربط قطعتين من الخيزران في عصا كبيرة ، وبها كان يصل إلى أشياء بعيدة عن مُتناوَل كل قطعة على حدة . وقد جاء الحل بعد ساعة سلوكٍ بالمحاولة والخطأ . إلا أنه كان مفاجئاً عندما جاء ؛ مصحوباً بالنشاط بعد الغفلة . وبتذكره جدياً في اليوم التالي ؛ بما لا يدع في عقل الملاحظ أى شك في عبقرية الاستبصار . ولم يأتِ الحلُّ في الواقع نتيجة عملية تدبير — يمكن أن يُعبَّر عنها بقولنا : « قد أستطيع أن أصل إلى الموزة إذا كان عندي عصا أطول ، فكيف أستطيع أن أعمل عصا أطول من هذه التي عندي ؟ » — إلا أنه لم يظهر أيضاً كحدث في خلال السلوك الحركي الغريزي ؛ إنما يبدو أنه ظهر في مجال الإدراك الحسي ، وأنه يقوم حقيقةً في إِبصار مُركَّب أو صِيغةٍ للأشياء .

ضرورة الاستبصار للتعلم ؛ باعتبار علم النفس الجشطلتي :

لقد رأينا علماء النفس الجشطلتيين أشد ما يكونون رغبة في إزالة صفات السلوك القديمة — وإن لم تكن قديمة في الواقع — وأن يتركوا وراءهم أيضاً الطرق القديمة في وصف الخبرة الواعية . وهم هاهنا في صراع أكثر جوهرية مع النظريات المأخوذ بها من قبل في نظرية التعلم . فقد كان ميل النظرية السيكلوجية منذ أيام إبنجهاوس يتجه نحو تصور آلى للتعلم . والحق أنه يجب ألا نغفل نتائج ج . إ . ميلر التي بينت أهمية التجميع والتقريب والمعاني في تذكر الأعداد وما أشبهها . إلا أنه من ناحية أخرى فإن دراسة بافلوف ؛ والتحمس الذي استقبل به علماء النفس فكرة الشرطي المنعكس ؛ قد قوّيا الفكرة الارتباطية القديمة عن التعلم بوصفه مركباً من حلقات تقوم بين أفكار منفصلة ، أو — بتعبير أحدث — بين المنبهات والاستجابات . وعلم النفس الجشطلتي هو الخصم الرئيسي للارتباطية : ليس له ثقة في هذه الروابط الأولية — فطرية كانت أو مكتسبة — لا لأنه يكره آليات العقل أو ديناميكياته ؛ بل لأنه يعتقد أن العقل يعمل في صيغ كبيرة بطريق « سد الفراغات » ونحوها أولى " من أن يعمل في هذه الصيغ " بما تقوم به الطرق العصبية من ربط هذا المركز الصغير في المخ بذلك " الآخر " .

وكفكفه في نقاشه* لموضوع التعلم كله -- الذى يقوم إلى حد كبير على دراسات كيلر للقردة -- يبدو أنه ينتهى إلى أن كل تعلم فإنما يقوم على الاستبصار، وأنَّ تعلم ثورندايك المفروض بالمحاولة والخطأ هو محض غلطة. وأنت تذكر أن ثورندايك قد أشار إلى التقدم التدريجى الذى يظهر فى تعلم المنحنيات كدليل يُدحض به أى استبصار مفاجئ. و" هنا " يختبر كفكحه منحنيات ثورندايك من جديد، ويجد فى بعض منها سقوطاً مفاجئاً. وقد ظهرت هذه فى بدء تعلم المسائل التى كانت سهلة على الحيوانات. وبتأمل هذه الأمثلة من التعلم السريع؛ لاحظ ثورندايك أنه « بطبيعة الحال حيث يكون الفعل الناشئ عن الدافع بسيطاً جداً، وواضحاً جداً، ومعرفاً بكل جلاء؛ فإن تجربة واحدة قد تجعل الارتباط تاماً. ويكون لدينا انحدار فجائى فى منحنى الزمن -- من غير حاجة إلى أن نفترض الاستدلال العقلى+ ». فليس الاستدلال بالتأكيد؛ ولكن قد يكون أن ما هو « بسيط جداً، وواضح جداً، ومُعرّف بكل جلاء » لدى الحيوان مجالاً يرى فيه الحيوان ماذا ينبغى بالضبط أن يفعل. هو قد لا يعرف آليات مقبض الباب، إلا أنه ربما لاحظ أن الزرّ هو الشيء الذى يُضغَط، وهذا قد يكون استبصاراً من الدرجة الدنيا.

ويستطرد كفكّه أيضاً إلى أنه لا يوجد تعلم إلا عن طريق الاستبصار. فالاستبصار لا يوضع ببساطة إلى جانب المحاولة والخطأ كطريقة أخرى للتعلم؛ بل إنه يحل محله بالكلية. فبدأ المحاولة والخطأ -- كما يفهمه كفكّه -- يعنى فى المقام الأول أن لا شىء جديداً يمكن أن يُتعلم؛ ما دام سلوك المحاولة والخطأ يركب من استجابات غريزية، وكل ما يحصل بعملية التعلم هو استبعاد بعض هذه الاستجابات وتثبيت ما بقى منها. ولا يمكن كذلك أن يكون لسلوك المحاولة والخطأ أى غرض أو اتجاه، وعلى الحيوان فقط أن يحاول عبثاً. فالاستبصار والقصد لا يمكن أن يقوما بدور فى حركته، واستبعاد الحركات الخائبة وتثبيت الحركات الصائبة يجب أن يتقدما « دون أية مشاركة من جانب الحيوان. فليس للحيوان

* ك. ك. كفكّه: نمو العقل The Growth of the Mind -- هاركورت وبرىس وشركاهما

أدنى فكرة عن السبب الذى من أجله يتحول سلوكه ، والعملية كلها التى فيها تتبى الأفعال الصائبة وتستبعد تدريجياً غير الصائبة هى آلية محض . ذلك هو مبدأ المحاولة والخطأ* . فلا تصل الحيوانات إلى أن ترى أو تعرف كيف تصل إلى هدفها . إنما هى تتعلم بطريقة عمياء ، ولا تستطيع — وفقاً لمبدأ المحاولة والخطأ كما يفهمه كفك — حتى أن تلاحظ موضع الفتحة أو العصا التى تتشبث بها فى الاستجابة الصائبة . فهى لا تبصر الفتحة أو القضيبيط طريقاً أو وسيلة للخلاص .

ولست على يقين من أن كفك يريد أن ينسب كل هذه الأقوال إلى ثورندايك . إنما يبدو بالأحرى أنه يأخذ على ثورندايك مزلق قليلة غير مقصودة فيما "يتعلق" بطريقته الحية فى ملاحظة أفعال الحيوان . وقد كان على ثورندايك أن يوافق — من الناحية المنطقية — على كل الأقوال المتقدمة باعتبار كفك . والحقيقة أن ثورندايك يتحدث غالباً عن الحيوانات وكأنها تستجيب « للمنبهات الحسية » ، وهو بالتأكيد لا يفكر فيها على أنها تندفع فى عماء هنا وهناك كما لو كانت فى ذهول أو نوبة عمياء . ووصفه لها يجرى على النحو التالى :

عند ما توضع القطة فى صندوق فإنها تبدى علامات ظاهرة للقلق ولدافع الحرب من الحيس . هى تحاول أن تنسل^ت من أية فتحة ، هى تحدش وتعض القضبان أو الأسلاك ؛ وهى تُخرج أظافرها من أية فتحة . وتحدش أى شىء تصل إليه ؛ وتستمر فى محاولاتها عند ما تصادف شيئاً هشاً وغير مشدود ؛ وقد تخمش فى أشياء داخل الصندوق

والقطة التى تحدش كل ما فى الصندوق ربما تحدش فى صراعها الدافع الحيط أو الفتحة أو الزر لكىما تفتح الباب . وبالتدريج سوف تنتزع كل الدوافع الأخرى غير الصائبة ، وتثبت الدافع الجزئى المؤدى إلى الفعل الصائب بما ينتج عنه من غبطة ؛ حتى إزه — بعد عدة محاولات — ستصل القطة ؛ عند وضعها فى الصندوق ؛ إلى أن تحدش مباشرة الزر أو الفتحة بطريقة نهائية .

فما يقوله ثورندايك يتضمن بالتحقيق أن الحيوان كان يستجيب ؛ ليس فقط لموقف الحيس فى صندوق غريب ككل ؛ بل أيضاً لنواح جزئية من الموقف :

* ك . كفك : نمو العقل The Growth of the Mind (١٩٢٥) ص ١٥٥

+ ل . ل . ثورندايك : ذكاء الحيوان : دراسات تجريبية (١٩١١) ص ٣٥ - ٣٦

فتحات ، قضبان ، أى شئ هَشَّ وغير مشدود ، أزرار أو خيوط . . . وكانت استجاباتها توجَّهها المنبهات البصرية . وإلى حد ما لا بد أنها قد أبصرت ما كانت تخذشه أو تعضه . فأما إلى أى حد من الدقة أبصرته فتلك مسألة أخرى . وفي تجارب معينة : حركَ ثورندايك حبلَ السلك الذى كان يجب أن يُشدَّ إلى جزء آخر من القفص ، فتعلم الحيوان أن يستجيب له هناك بقليل من الإبطاء . و مرة أخرى استبدل الحبل بقضيب صغير يُجذب إلى أسفل ، واضعاً إياه حيث كان الحبل : فلم يجد الحيوان صعوبة في تحويل جهوده للحيلة الجديدة في الموضع القديم . وقد أخذ ثورندايك من هذه النتائج أنها تدل على أن الحيوان لم يلاحظ التغير الذى طرأ على الموقف ، « فهو يستجيب إلى تنبيه حسي غامض وغير محدد ؛ غير متميز ؛ بل غير مُدرَك بالمعنى الدقيق للكلمة . . . وبهذا فإن القَطَط قد تخذش موضع الحبل من غير أن يكون ثمة حبل »^{١١٩} .

وهذه النتيجة الأخيرة تبين أن القَطَط تلاحظ - بمعنى ما - الموضع الذى كان عليها أن تعالجه كما تخرج . وقد أظهرت تجارب أخرى أن الحيوانات تتعلم المواضع بسرعة ، كما أظهرت تجارب تعلم الإنسان أنه هو أيضاً يتعلم المواضع بسهولة أكثر من "تعلم" أكثر الأشياء . وهنا فإن « الاستبصار » مسألة نسبية . فإنه إذا كان عليك أن تخرج من قفص بإدارة زرِّ باب ، وتلاحظ ببساطة أين هو الشيء الذى يجب أن تدبره ؛ فهذا استبصار من الدرجة الدنيا . فأما إذا رأيت الزر على أنه عقبة يجب تنحيها جانباً حتى تدع الباب يفتح ؛ فذلك استبصار من نوع أعلى . فإذا فهمت آليات الشيء فذلك استبصار أكثر علواً أيضاً .

والاستبصار من الدرجة الدنيا ربما تركب من مجرد تركيز نشاط الحيوان في حل المشكلة ؛ تلك هى طريقة كفكه في قراءة الاستبصار في نتائج ثورندايك . فهو يكتب + :

بل إن تجارب ثورندايك يبدو أنها تبين أن الحيوان ليس فقط أنه يكتسب الخبرة بمواقف كلية غامضة معينة ، بل إنه في مجرى التعلم يصبح هذا الموقف الكلى منظماً . (فيصبح الحبل) . . . « شيئاً يُجذب » أو « شيئاً يُحرك » . . . وبهذا يصل إلى أن يشغل الموضع الرئيسى في مجال الظاهرة الكلى . . . وهنا ، فإذا أصبح الحبل

* ثورندايك : نفس المرجع ، ص ١١٩ .

+ كفكه : نفس المرجع ، ص ١٧٢ .

الشيء الرئيسي في المجال ؛ فذلك يدل على أنه لا هو ولا الحركات التي تؤدي به هي غير ذات مغزى للحيوان ؛ لأن الحيوان قد ربط - على نحو ما - ما يفعله بالحبل ، بالطعام في خارج القفص . فنظرية التعلم بغير معنى بتاتاً " هي نظرية " لا يمكن حتى القول بها . "

والذي يتشبه به علم النفس الجشطلتي هو العامل الإدراكي في التعلم . فالتعلم يعني فعل شيء جديد ، والجدّة لا يمكن أن تُفهم بتفحص الفعل الحركي وحده ؛ لأن الجدة تقوم في إعادة تنظيم المجال ، حتى تُعبّر الهوة فيما بين المجال كما هو و " بين " الهدف . و " هذه " الهوة تُعبّر برؤية المجال كصورة تشمل وتؤدي إلى الهدف .

على أن تجربة أخرى في تعلّم الحيوان يُظن أنها تؤيد فكرة الجشططات . فلنتجمل الحيوان أولاً يتمرن على أن يجد طعامه في هذا الواحد من الصندوقين المُعلّم بعلامة من درجة معينة من اللون الرمادي . ولنفرض أن الصندوقين موضوعان أمامه : ١ ، ب : أحدهما « ١ » مُعلّم برمادي خفيف ، والآخر « ب » بالرمادي المتوسط ، وبعد أن يتعلم الحيوان أن يذهب دائماً إلى « ب » ، يُبعد الصندوق « ١ » ويُستبدل به الصندوق « ج » مُعلّمًا بلون رمادي أدكن من « ب » . فهل يُبقي الحيوان على ربطه الثابت المفروض ، أو على استجابته الثابتة لـ « ب » ؟ الواقع أنه الآن يذهب إلى ج . فإنه ما يزال يذهب إلى أدكن الصندوقين ، وما تعلمه إذن ليس استجابة لرمادي جزئي بعينه ؛ بل هو قد تعود أن يستجيب لصورة الأدكن والأخف بأن يقصد الجانب الأدكن . فأما هل نستطيع أن نَعْم من السلوك بإزاء درجات الرمادي ، وننتهي إلى أن الحيوان يستجيب دائماً لتمام وصيغ أكثر منه إلى تنبيهات منفصلة ؛ فتلك مسألة لم تُدرَس دراسة كافية . ولكن على أساس هذه التجربة قد قام الجدل حول وجوب التخلي عن نظرية التعلم القديمة بأسرها ؛ خصوصاً وأن قوانين ثورندايك في التعلم قد انتهت إلى أن تُطرح الآن . وقد صاغ أحد أتباع مدرسة الجشططات الأمريكيين* المسألة على هذا النحو :

إن « قوانين » ثورندايك . . . تنشأ عن طائفة من الافتراضات ؛ من بينها أولاً: افتراض أن مثيراً واحداً معيناً سوف يُنتج دائماً وفي غير امتناع نفس الاستجابة .

* م . هـ . لويس : M, H. Lewis : مجلة علم النفس التجريبي ، ١٩٣٠ مجلد ١٣ ، صص

وثانياً : افتراض أن « قوانين » التعلم تعالج وحدات افتراضية من السلوك يشار إليها بالصيغة : م - س (منبه - استجابة) . والسلوك - مجزئاً على هذا النحو - يؤدي بنا من الناحية المنطقية إلى أن نبحث عن العناصر في موقف معين ، وأن ننظر إلى هذه العناصر - إذا كان لها وجود أو افتراض - وكأنها الجزئيات الأولى التي يجب أن نضيفها معاً حتى تنتج وتفسر التعلم .

ولو أنك تقرأ لثورندايك ، فقد لا تجد هذه « الافتراضات » مألوفة . فهى لا تتحدث كما يتحدث خصوصاً ثورندايك الذى قرأت ، ولا بد أنها صدرت عن شخص آخر بنفس الاسم : أعنى عن رجل لا قيمة له . أما ثورندايك الحقيقى فهو يتحدث دائماً عن « المنبه والاستجابة » ؛ بينما ثورندايك التافه - كما قيل بالضبط - فهو الذى يجزئ السلوك بالبحث دائماً عن العناصر فى المجال . أما ثورندايك الحقيقى فيقول * :

إن السلوك يمكن التنبؤ به . . . فنفس المجال سوف يُنتج - فى نفس الحيوان - نفس الاستجابة . . . ولو أن نفس المجال يُنتج فى مرتين استجابتين مختلفتين : فلا بد أن يكون الحيوان قد تغير .

وأقرب ما أستطيع أن أجده فى كتابات ثورندايك إلى فكرة التجزئ التى ينسبها إليه علماء النفس الجشططيون ؛ هى الآتية + :

كل تعلم فهو تحليلي . فأولاً : الرابطة التى تتكون لا تأتى بحال من مطلق الموقف كله أو " من " حالة الأفعال الراهنة ، وثانياً : فى داخل أية رابطة تتكون يوجد دائماً روابط أقل - من أجزاء المجال إلى أجزاء الاستجابة - لكل منها درجة معينة من الاستقلال ؛ حتى أنه إذا ظهر جزء من المجال فى مركب جديد ، فهذا الجزء من الاستجابة له ميل معين إلى أن يبدو بغير مصاحباته القديمة . . . فى الحيوانات الدنيا ، وفى الأطفال الصغار جداً ، تفعل المجالات أيضاً ككليات كبيرة ؛ ورابطة العلاقات التى نسميها « الرابطة » بين المجال واستجابته تفعل أيضاً كوحدة . . . وفى كل الناس - ما عدا الأغبياء - ينشأ المران الذى تكسبه الحياة الحديثة عن تكوين عدد كبير من الروابط من عناصر منفصلة لمواقف .

* ثورندايك : نفس المرجع ص ٢٤١ .

+ ل . ل . ثورندايك : علم النفس التربوي ، مجلد ٢ « سيكولوجيا التعلم » كلية المعلمين بجامعة كولومبيا ١٩١٣ ص ص - ٢٢ - ٣٥ .

فمثل هذا الرأي بعيد عن التجزىء ، وقد أريد به أن يكون أساساً لفهم كيف يصل الإنسان بالتمرين إلى أن يستجيب إلى مثل هذه النواحي المنعزلة من الموقف : كالعدد ، والحجم ، ودرجة الأصوات . كما يبدو أيضاً أنه يضع أساساً لمواجهة النقد المختلف ؛ بل المصادم ؛ الذى يقوم به كفكحه ، والذى اقتبسنا منذ صفحات : « وحتى تجاريب ثورندايك يبدو أنها تبين أن الحيوان لا يكتسب خبرة المواقف الغامضة الكلية فحسب ؛ بل إنه فى مجرى التعلم يصبح هذا المجال الكلى منظماً » . فعند ثورندايك أن الحيوان يمكن أن يتقدم قليلاً عن الارتباط الكلى الأول بالمجال كله ، وأن الإنسان يمكن أن يتقدم أكثر فى الاتجاه التحليلي . يقال إن الارتباط هو دائماً مركب — كما يحتمل أن يكون — ولكن لا يقال شئ عن كونه مركباً من عناصر جزئية .

إن المدارس الجديدة يلزمها رجال قليلو الشأن تهاجمهم . فالمدرسة الجديدة تثير مشكلة جديدة لم يحاول أحد من قبل أن يعالجها بنوع خاص . وتأخذ المدرسة الجديدة جانبها من المشكلة الجديدة ، وتحتاج إلى من يأخذ الجانب الآخر من المناقشة التى تثيرها . فهى تختار أكثر المصادر صحة ، وتتقدم فتضع على لسانه إجابة المسألة الجديدة . هو لم يكن قد قال بهذا الحل مباشرة ، لأن المسألة لم تكن قط قد "عرضت" أمامه ؛ إلا أن المدرسة الجديدة تقول إنه كان ينبغى بكل منطق أن يكون قد عرض هذا الحل ، ما دام متضمناً كافتراض خفي فيما قال به . وهكذا تستطيع المدرسة الجديدة أن تبدأ الجدل بالهجوم ، بدلا من أن تعرض بدوق مشكلتها الجديدة وموقفها الخاص منها . إنها كلها مجرد قطعة من علم النفس ، ولا يحتمل أن يعترض عالم نفس له مكانته على أن يكون رجلا قليل الشأن فى مناقشة من الدرجة الأولى .

نظرية التعلم أقل يقيناً من ذى قبل :

والموقف الراهن فيما يتعلق بعملية التعلم شائق من غير شك : فإن لدينا ما هو بحق جدل مستمر ذو ثلاثة وجوه ؛ لدينا طائفة من الحقائق ، كل منها يجب أن يُبرهن له بنظرية كافية ؛ ولدينا اختيار بين نظريات ، لا واحدة منها قد حاولت أن تُعنى بكل الحقائق . لدينا حقيقة التعلم بالمحاولة والخطأ — يقوم على تفسيرها قانون الأثر ، ولدينا حقيقة المنعكس الشرطى — تفسرها نظرية الشرط ، ولدينا حقيقة

التعلم بالاستبصار — مع نظرية الميل إلى سد الفراغ كتنفس لها .
 والمؤيدون لكل تفسير قد استطاعوا أن يكتشفوا حالة مُرضية توضح كل الحقائق
 على طريقته الخاصة. فاستطاع المؤيدون لقانون الأثر أن يشيروا إلى المناهج المستخدمة
 في إحداث المنعكس الشرطي وإزالته كدليل حسن على أن نتيجة الاستجابة هي
 التي تحدد ما إذا كانت تثبت أو تمحى . ومن حيث التعلم بالاستبصار ؛ قد
 استطاعوا أن يبينوا أن الفراغ يمكن أن يُسد بطرق مختلفة ، وأن المجال يمكن أن يُنظم
 بطرق كثيرة — وإن كانت طريقة واحدة هي التي تنجح في حل المشكلة ؛ بمعنى
 أنه يمكن أن يكون ثمة استبصارات خاطئة ووسائل مَبشِّرة تُخفي وتسقط تبعاً
 لهذا لحساب الاستبصار الذي يأتي حينئذ . وبالمثل ربما شك — وبالفعل يشك —
 علماء النفس الجشططيون فيما إذا كان لا يوجد على الأقل استبصار في أدنى درجاته
 حتى في أكثر المحاولات والخطأ عماءً . وفيما يتعلق بالمنعكس الشرطي قد يشكُّون فيما
 إذا كان الكلب لم يأخذ المترونوم — السابق للإحساس — على أنه إشارة (كما كان
 يسميها بافلوف غالباً) وهذا يكون له « انجذابات » عبر الفراغ بين المترونوم
 والإحساس . وأخيراً استطاع مؤيدو الشرط أن يقولوا إنه مهما يكن الموقف المعقد
 الذي يحدث فيه التعلم ؛ فإن التعلم الأساسي يقوم بالدقه في عملية الشرط . فلا
 فكرة الشرط ، ولا فكرة المحاولة والخطأ ؛ تقوم حقيقةً على التجزئ الذي يمقته
 علماء النفس الجشططيون إلى هذا الحد . ولعلنا نجد — عندما تصبح حقائقنا أكثر
 وأدق ، والصلات بينها أوثق — أن ما تقول به المدارس المختلفة كلها له مكانه في
 نظرية للتعلم شاملة .

وكما تجرى الأمور اليوم ، يمكن أن نجد بالتحقيق في علم النفس الجشططى
 زيادة قوية قيمة في مسائل علم النفس . فبينما الوجوديون مشغولون بالتحليل الحسى ،
 والسلوكيون بالأفعال الحركية ؛ تجعل طائفة الجشططت الأهمية لموضوع — كان
 يُسمى عادة الإدراك — أغفله السلوكيون ، وتناوله بخفة الوجوديون . من المحتمل أن
 يوجد كثير من الحق في إصرارهم على أنه إلى جانب الأحساس والاستجابات الحركية
 والروابط بينهما — إلى جانب هذه وفيها كلها " أيضاً " — توجد عملية التنظيم
 الديناميكي . أنا لم أقدم لك إلا مقدمة تخطيطية لمذهبهم السيكولوجى ، ولكنى أظن
 أنك توافق على أنهم قد أدخلوا وجهة نظر جديدة هي جديدة حقاً باهتمامك المستمر .

تعليقات

على الفصل الرابع

Gestaltpsychol. لولا أن تتشتر قد وضع هذا التعبير «علم النفس البنائي» مقابلاً لما سُمِّي علم النفس الوظيفي functional psychol. — الشيء الذى يثور عليه بشدة علم النفس الجشطلتي . وقد اقترح أخيراً استعمال كلمة «عضوى organic» ؛ ويبدو لأول وهلة بُعدها عن المقصود. ونحن فى ترجمتنا لهذه الكلمة نستعملها صفة واسما (جمعاً ومفرداً) على نحو ما كان كبلر يستعمل هذه الكلمة فى كتاباته الألمانية والإنجليزية. ومذهب الجشطلت — كالسلوكية — ثورة هى ردُّ فعل للسيكولوجيات القديمة ؛ هما فيها على النقيض من ناحية ، والوفاق من ناحية أخرى : فالجشطلت يأخذ بالوصف الظاهرى للخبرة الشعورية أو الاستبطان فى أوسع صور ؛ بينما تنكره السلوكية إنكاراً باتاً . الأول يدنو قليلاً أو كثيراً من الفلسفة أو المذهب système — كأثر للتقاليد الألمانية التى تربط بين الفلسفة وعلم النفس ؛ بينما السلوكية الأمريكية — والروسية من قبل — تنأى بنفسها عن المذهبية . وبينما تركز السلوكية اهتمامها بعلم النفس الحيوانى ؛ لا يتخلَّى علم النفس

(١) الجشطلت Gestalt :

لهذه الكلمة الألمانية — بمعنى الصورة أو الشكل — مرادفان انجلىزيان : اقترح أحدهما « configuration » تتشتر فى أمريكا (راجع هلسون H. Helson : مجلة علم النفس الأمريكية Amer. J. of Psychol. — جزءى ٣٦ ، ٣٧ — سنتى ١٩٢٥ ، ١٩٢٦) والآخر فى انجلترا « shape » (أورد هاسبيرمن فى مجلة علم النفس البريطانية Brit. J. of Psychol. : مجلد ١٥ ، سنة ١٩٢٥ ، ص ص ٢١١ — ٢٢٥) . ويمكن الاعتراض على هذه الأخيرة بأنها تدل على مجرد الخطوط الخارجية outline ، وأنه يَنْقُصُها ما فى كلمة form من معنى . ويُوَجَّهُ مثلُ هذا الاعتراض لكلمة configuration — ولكن بدرجة أقل — وكلاهما على أى حال لا تؤدى معنى الكلمة الأصلية ؛ وخير منهما اصطلاح structural psychol. الذى استعمله كفهك عند ما كتب بالإنجليزية لأول مرة سنة ١٩٢٢ . فإن كلمة Strukturpsychologie ترادف فى الألمانية تماماً كلمة

والصور والمشاعر وغيرها من الحالات الأولية . كما أنها ما تزال لاصقة بثنائية الجسم والعقل ؛ محاولة أن تخلق جسماً عنصرياً توازى به العنصرية التي بدأ أن العقل يتربك منها . وقد كانت هذه النظرة القديمة إلى العقل مثاراً نائرة الجشطلتية والسلوكية معاً ، وسيلهما إلى الوجود والتحقق .

وستتبن من خلال عَرَضنا لأهم شخصيات مذهب الجشطلت ؛ كيف أهم — وإن بدءوا مع السلوكيين من هذه النقطة سنتي ١٩١٢ ، ١٩١٣ — قد تفرقت بهم السبل ، وتشعبت بهم المذاهب .

(٢) فون إيرنفيلس (كرستيان) :
Christian von Ehrenfels : (المولود سنة ١٨٥٩) كان مع برنتانو في فينا ، ومع مينونج . Meinong في جراتس ، وعاد إلى فينا معيداً سنة ١٨٩٠ فأنشأ بحثاً جديداً يقول فيه بفكرة خاصة الصورة Gestaltqualität . فقد كان عليه أن يجيب عما إذا كان للصورة في الزمان والمكان صفة خاصة ؛ أم أنها هي ارتباط صفات وخواص . وقد قرّر هو الإجابة الأولى ؛ قائلاً إن المربع يمكن أن يتكون من أربعة خطوط هي الإحساسات التي توجد وراء هذا الإدراك ، وهي له بمثابة الأساس Grundlage . وفكرة التربيع لا تشمل واحداً من هذه الأساس Fundamente ؛ اللهم إلا

الجشطلتي عن هذا النوع من الدراسة ولكنه يُعنى في المقام الأول بالمسائل الإنسانية ، وخصوصاً مسألة الإدراك .

ومن الناحية الأخرى فإن السلوكية ومذهب الجشطلت لها هذا الطابع المشترك : وهو قيام كل منهما بالبحث التجريبي القيمّ الفعال ؛ وإن كان الباحثون التجريبيون في علم النفس اليوم لا يحبون أن ينتموا إلى هذه المدرسة أو تلك . إلا أن الإنصاف يقتضى أن نقول إن قليلاً من البحوث التجريبية هو الذي يمكن أن يقال عنه إنه لم يتأثر بخطوات كلتا المدرستين أو إحداهما ونستطيع بعد هذه المقارنة أن

نستخلص خصائص هذه المدرسة الجشطلت وهي : أنها أولاً تجريبية ؛ وأنها تُجرى تجاربها في الأغلب على الإنسان ؛ أو الحيوانات الشبيهة بالإنسان ، وأنها ستّ العقل بالشعور ، وجعلت من السلوك استدلالاً عن الشعور ؛ وأنها لم تسلّم من المذهبية والفلسفة ، حتى في طريقة إنكارها للفلسفة . ويجب فوق هذا أن نقرر أنها لم تتحرّر من سلطان السيكلوجيات القديمة التي نارت هي عليها ؛ فإذ زالت تؤكد الاستبطان — وإن تكن قد توسعت به عن نظريته التحليلية وما يزال بها أثرٌ من العنصرية والارتباط في قولها بالكل والأجزاء ، وما تزال تحاول وصف العقل mind الذي أحلته محلّ الشعور — برّبط الأحساس

الفعل ، وإن لم تكن ثمة علاقة ضرورية مباشرة بين « نصوص الصورة » والأفعال النفسية . والحق أن إيرنفلس - كما يقول بورنج (تاريخ علم النفس التجريبي ص ٤٣٥ - ٤٣٦) - قد ربطها في الوسط النموسى بالفعل قائلاً : إنه النشاط العقلى بالمقارنة أو الربط الذى يستخرج « خاصة الصورة » من الأساس Grundlage . ولا ينبغي مع هذا أن يفهم أن إيرنفلس يقول بأن « خاصة الصورة » تنشأ من الروابط بين الأساس ، أو أنه ينتهى إلى أن « خاصة الصورة » هى العلاقة قائمة مستقلة بين الأساس .

وكما أن إيرنفلس فى بحثه عن خاصة للصورة لا توجد للأساس - قد استلهم إرنست ماخ (فى كتابه القيم تحليل الإدراكات الحسية Analyse der Empfindungen الذى أصدره فى براغ سنة ١٨٨٦) ؛ فإنه قد أسلم هذه الدراسة من بعده إلى زميله مينونج Meinong الذى بقى بعده فى جراتس . وأهم ما جاء به هذا هو قوله بالمواد المتكوّنة fundierende Inhalte (وبالانجليزية founding contents) ، والمواد المتكوّنة fundierte Inhalte (وترجمتها founded contents) . الأولى عنده هى الأساس Fundamente عند إيرنفلس ، والثانية هى خاصة الصورة . والعلاقة بينهما نسبية وتصاعدية ،

إذا أخذت كلّها فى مجموعها . وتلك هى خاصة الصورة form-quality . واستمر إيرنفلس بمذهبه ، فميز فيه بين نوعين من خواص الصورة : الزمنية وغير الزمنية . فالأولى منها تشمل اللحن الموسيقى ، والضوئى ، وكل ما يتغير من الأحساس بالزمن . أما الأخرى فهى فى معظمها مكانية ؛ ولكنها تشمل أيضاً الأنغام المختلطة ، والألوان المتضاربة ، والطعوم ، والشموم ، وإدراك المكان .

وفى كل هذه الحالات يمكن أن يُبرهن على خاصة الصورة بالقابلية للتغير : فإذا كانت خصائص العناصر يمكن أن تتغير بدون تغيير الصورة ؛ فإنه يجب إذن أن يكون ثمة « خاصة صورة » مستقلة .

كما أن إيرنفلس بين أن وجوه العلاقة بين الأساس (ولا نقول العناصر ؛ لأنه يعنى بها Fundamente لا Elemente) وبين « خاصة الصورة » يمكن أن تحدث فى مستويات كثيرة ، وأن هناك أنواعاً من « خاصة الصورة » فى مستويات أرفع ؛ تتخذ أساساً لها ذات خاصة صورة أدنى - مما يفضّل فيه القول ، ولا يعيننا . ونظريته بهذا هى تحليل منطقي لإدراكات معينة ؛ تقوم على جدل - هو فى أساسه تجريبي نظري empirical - لا يعتمد على التجربة العملية ؛ مما هو منهج مألوف فى سيكولوجيا

إلى الدراما والأخلاق ونظرية القيم .
 إلا أن ما يُعرف به في تاريخ علم
 النفس هو أنه صاحب نظرية « خاصة
 الصورة » في مقاله : في خواص
 الصور Ueber Gestaltqualitäten
 (بمجلة المعرفة والفلسفة Vtljsch.
 f. Piss. philos. ، السنة ١٤
 (١٨٩٠) ص ص ٢٤٩ - ٢٩٢) .

(٣) شرنجتون (تشارلز) Ch. S.
 Sherrington : ولد سنة ١٨٥٧ ،
 وهو فيزيولوجي بريطاني مشهور بعمله
 سنة ٩٠ في رؤية اللون وخصوصاً في
 الضوء غير المستقيم flicker ، كما
 أنه قد أسهم بفصول الإحساس اللمسي
 والعضلي tactual and muscular sensi
 في كتاب شيفر Schaffer : متن في
 الفيزيولوجيا Text-book of Physiology
 (١٩٠٠) وأخيراً نشر كتابه الهام :
 الفعل التكاملي للجهاز العصبي
 Integrative Action of the Nervous
 System سنة ١٩٠٦ ، فلم يقتصر
 أثره على تجسيم هذه البحوث وإبرازها
 بل كان له أثر فعال في توجيه علم
 النفس في بريطانيا وأمريكا نحو
 الفيزيولوجيا . وقد أعطى في هذا
 الكتاب وصفاً لآليات الفعل العصبي
 من حيث علاقته بالكائن العضوي
 ككل ، وصوره تصويرياً يقوم في
 أساسه على الفيزيولوجيا ؛ مما كان الخط
 الفاصل - كما يقول فرانتس - بين علم
 النفس الفيزيولوجي وعلم النفس الحيواني .

كما أنه ينعت الأولى بالمواد الدنيا
 inferiora ، وينعت المادة
 المتكونة من هذه المواد الدنيا بالمادة
 العليا Superius . ويقول مينونج
 بمركبات لهذه المواد - هي الإدراكات -
 تقوم أولاً على عملية التكوين ذاتها التي
 تقوم على علاقات وروابط داخلية في
 الشيء المدرك ذاته ؛ مما لم يقل به
 إيرنفلس .

وهذه الخطوة الطيبة في نظرية
 « خاصة الصورة » قد أدخل عليها
 كوزنليوس في ميونخ - وكلهم فلاسفة
 أكثر منهم علماء نفس - تعديلين
 رئيسيين : أولهما قوله بأن خاصة
 الصورة ليست مادة متكونة ؛ بل
 صفة متكونة founded attribute .
 كما أنه نقي - في المقام الثاني -
 تكون هذه الصفات بفعل تكوين
 act of founding ، وأنها تنحل أو
 تزول بانتباه فاحص محلل . بل هي
 خبرات تلاحظ أو تُعطى لصفات
 مميزة لكليات لا توجد في أساسها .
 وهو تغيير لفظي لمينونج ، ولكنه تغيير
 موفق .

وقد عمل على هذه النظرية آخرون
 من تلاميذ مينونج وغيرهم مثل :
 شومان ، وينوتسي .

وفي سنة ١٨٩٦ صار إيرنفلس أستاذاً
 مساعداً في براغ ، فأستاذاً سنة ١٩٠٠ .
 وكان رجلاً ذا ميول أدبية وفنية ، تعدى
 أثره دراسته ميدان الفلسفة وعلم النفس

العلوم Sc. D. سنة ١٩٣١ .
 ومن أهم دراساته : نمو حركة
 السباحة في الكائنات المائية ، ودراساته
 التشريحية والفيزيولوجية لنمو الجهاز
 العصبي في الأمفيسيا - تسعة بحوث
 ضخمة نشرها في مجلة العلم العصبي
 المقارن J. Comp. Neur. فيما بين
 سنتي ١٩١٤ ، ١٩٣٠ من نواح
 مختلفة ذكر عناوينها مرتشيزون في
 سجله الثالث ص ٩٢ ، ونمو الوظائف
 العصبية وأثره في نمو السلوك - والسلوك
 هو يتناوله من نواحي الفردية والتكامل ،
 الغريزة والمنعكس الشرطي ، الحركة
 والنمو والتركيب . وأهم هذه كتابه
 الصغير : التشرح ومشكلة السلوك
 Anatomy and the Problem of
 Behavior (لندن ، مطبعة جامعة
 كمبردج ١٩٢٩) ، والأسس التركيبية
 لتكامل السلوك The Structural Basis
 of the Integration of Behavior
 (في مجلة العلم الطبيعي الأكاديمي
 Proc. Nat. Acad. Sci. ١٩٣٠ -
 ١٦ ص ص ٦٣٧ - ٦٤٣) .
 (٥) فِرْتِيمِر (مكس) M. Wertheimer
 ولد في براغ في ١٥ أبريل ١٨٨٠ ،
 وفيها بدأ أول نشاطه السيكلوجي مع
 مارتوس Martius ، ومنها ذهب
 إلى اشتمف في برلين ، فكيلبه في
 فرتسبورج حيث حصل على درجة
 الدكتوراه بالإجماع مع شكر اللجنة
 summa cum laude سنة ١٩٠٤ ،

(٤) كوجيل (جورج إلت) G.E. Coghill
 ولد في بوكو في مارس ١٨٧٢ ، ولحق
 بكلية شرتلف Shurtleff Coll. (١٨٩١ -
 ١٨٩٤) ثم بجامعة براون (١٨٩٤ -
 ١٨٩٦) فحصل منها على
 الدكتوراه في الفلسفة (١٩٠٢) -
 بعد أن قضى في جامعة مكسيكو
 الجديدة سنتي (١٨٩٨ - ١٩٠٠)
 وعين فيها أستاذاً مساعداً للبيولوجيا
 (١٨٩٩ - ١٩٠٠) . وبعده صار
 أستاذاً للبيولوجيا في جامعة الپاسفيك
 (١٩٠٢ - ١٩٠٦) فأستاذاً لها
 بجامعة ويلاميت Willamette
 (١٩٠٦ - ١٩٠٧) في كلية الآداب
 ولعلم الأنسجة (الهستولوجيا) وعلم
 الأجنة (الأمبريولوجيا) بكلية الطب ؛
 ثم أستاذاً لعلم الحيوان (الزولوجيا)
 في جامعة دنيسون (١٩٠٧-١٩١٣) .
 ومنذ ذلك الحين انتقل إلى جامعة
 كانساس وقضى بها حتى ١٩٢٥
 أستاذاً مساعداً ، فأستاذاً للتشرح
 ورئيساً للقسّم ، وسكرتيراً لمدرسة الطب .
 وفي سنة ١٩٢٥ انتقل أستاذاً للتشرح
 المقارن بمعهد وِستَر للتشرح والبيولوجيا
 Wistar Inst. of Anat & Biol. في جامعة
 بنسلفانيا بنفيلادلفيا ؛ كما صار منذ
 ١٩٢٦ عضواً بكثير من الجمعيات
 العلمية ، ومحاضراً في يونيفرسيتي كوليج
 بلندن (١٩٢٨) ومحوراً لكثير من
 الصحف العلمية الأمريكية والإنجليزية
 ومنحته جامعة بتسبرج الدكتوراه في

الظهور بحثُ فَرْتِيمِر الذي أسلفنا ، والذي كان احتجاجاً ثورياً صارخاً — له من السلبية والانتقاد بقدر ما يكون له من القدرة على تخليص علم النفس من قيوده في البحث — فضلاً عما كان له من نجاح في معالجة مشكلة رؤية الحركة ؛ التي ما زال علم النفس حتى ذلك الحين يتعثر فيها .

وفي هذا البحث استطاع فَرْتِيمِر أن يُعبر عن الحركة الفيزيقية في لغة عقلية ، قائلاً : إن الحركة هي تغيير المكان في الزمان ، مُستعيناً بالخلط أو الانتباه لاستخلاص طابع للحركة ، ومُشَبِّهاً لها «بخاصة الصورة» ؛ بمعنى أن الإحساسات تتغير من حيث الخاصة لا من حيث المكان . والحديد في فكر فَرْتِيمِر هنا ؛ هو إنكاره لصحة هذا التحليل الحسي لرؤية الحركة . فهو يرى أن الحركة تُدرك كما هي ؛ لأنها ظاهرة قابلة لأن تُعرَف ، ولأنها في ذاتها خِبرة . وحين يتساءل : لم-لا ننظر إلى الحركة ككل ؛ يستعين بمقتائق الحركة الإسترووبوسكوبية stroboscopic movement التي أُلْفِها في الصور المتحركة (الخيالة) والتي أوضح ودورث في هذا الفصل أمر نشأتها . والمهم أن فَرْتِيمِر قد انتهى منها إلي أن فكرة الإحساس كوحدة أو ذرة هي التي أدت إلى كل تعقيد في تناول مشكلة الحركة .

الحركة إذن ظاهرة أو خبرة ،

ثم عاد إلى برلين . وفي صيف ١٩١٠ عاد إلى فرنكفورت حيث اشتغل في أكاديمية العلوم الاجتماعية معيداً (١٩١٢ — ١٩١٤) ، ففي جامعة فرنكفورت معيداً (حتى سنة ١٩١٦) . وفي ذلك الحين كان قد وصل إليها شومان — مساعد ميلر واشتمف من بعده — كما كان هناك كيلر وكفكه تلميذاً اشتمف ؛ فكانا الملاحظين الرئيسيين لبحوث فَرْتِيمِر في رؤية الحركة ؛ تلك الدراسة الشاقة التي بدأت بها حركة الجشطلت . ومن هنا قِيلَ إنها نشأت حول سنة ١٩١٢ ؛ أنشأها فَرْتِيمِر بمعاونة ملاحظيه كيلر وكفكه ، وبمقتاليته : دراسات تجريبية في رؤية الحركات Experimentelle Studien über das Sehen von Bewegungen (مجلة علم النفس الألمانية : مجلد ٦١ سنة ١٩١٢ صص ١٦١—٢٦٥) التي أعيد نشرها في كتابه : ثلاث مقالات Drei Abhandlungen (١٩٢٥) وسنذكره بعد .

وبعدئذ عاد فَرْتِيمِر إلى برلين ، ثم دَعِيَ مرة أخرى إلى فرنكفورت ليشغل كرسي شومان المستقيل . إلا أن حركة الجشطلت الجديدة قد اتخذت برلين مركزاً لها بوجه عام ، وكانت إلى حد كبير أثراً من آثار اشتمف وتلاميذه — وإن كان هو لا يُعدّ واحداً من رجال هذه المدرسة . والذي هيأ لهذه المدرسة سبيلها إلى

وفي سنة ١٩٢٥ نُشرَ محاضرة له في أربع وعشرين صفحة بعنوان: في نظرية الجشطالت Ueber Gestalttheorie ، كما جمع في نفس السنة ثلاثَ مقالاتٍ له نشرها باسم ثلاث مقالات في مذهب الجشطالت Drei Abhandlungen zur Gestalt Theorie وكلها تكملة وإيضاح للخطوط الأولى التي تضمنها مقال ١٩١٢ راجع ثبت بحوث فرتيمر حتى سنة ١٩٢٧ في سجل مرتشيزون ج ٣ ص ٨٨٨ .

(٦) كفكه Kurt Koffka : ولد في برلين في ١٨ مارس ١٨٨٦ ، وذهب إلى جامعة برلين (١٩٠٣ - ١٩٠٤) فجامعة إيدنبوره (١٩٠٤ - ١٩٠٥) ثم عاد إلى جامعة برلين حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٠٨ . وفي هذه الأثناء التقى بفرتيمر في فرنكفورت وعمل معه في ملاحظة تجارب رؤية الحركة - على نحو ما ذكرنا من قبل . ثم انتقل هو ليعمل معيداً في جيسن (١٩١١ - ١٩١٨) فكان من نتائج دراساته التجريبية هناك رسائله التي نشرها بين ١٩١٣ ، ١٩١٩ بعنوان : أقوال في سيكولوجيا الجشطالت Beitrage zur Psychol. der Gestalt التي عرض فيها المراحل الأولى لهذه الحركة في علم النفس ؛ متناوِلاً بحوث السابقين على هذه الحركة في دراسة رؤية الحركة .

ولست هذا الإحساس أو هذه الأحساس المتتابعة (وهو لكي يتفادى أو يستبعد هذا الفهم القديم للحركة يُسمىها phi-phenomenon) وليس ثمة علاقة مساواة بين المنبه والظاهرة (ما دامت الحركة لا تنشأ عن المنبه - الذي هو هنا جهاز إلقاء الصور الثابتة - بل في الإدراك الكلي الذي يحدث وحده الحركة) . والتحليل الظني لا يفيد في إدراك الحركة ، وإنما ينبغي النظر إليها ككل ؛ كجشطالت ؛ لا كمجموعة أحساس . وهنا ترى في مقالة فرتيمر هذه - مقالة ١٩١٢ - ما يمكن أن يُعدَّ أساساً لمذهب الجشطالت كله ؛ وإن كان البحث قد اتخذ موضوعاً له رؤية الحركة كما ترى أن دراسة فرتيمر - وإن كانت في معظمها هداماً للتقاليد القائمة في إدراك الحركة في ذلك الحين فإنها قد تمخضت عن نتائج إيجابية قيّمة ؛ كانت أساساً لما لا تزال تأخذ به حتى اليوم على أنه التفسير الصحيح لإدراك الحركة .

وأهم ما نشره فرتيمر بعد هذا البحث : بحوث في نظرية الجشطالت Untersuchungen zur Lehre von der Gestalt ١٩٢١ (في : بحوث سيكولوجية. Psychol. Forsch. عدد ١ ص ص ٤٧ - ٥٨) وفيها ناقش المبادئ العامة لمذهبه الجديد ؛ ونشر مثلها في السنة التالية مقال كفكه

كان له الأثر الأول في توجيه الأنظار في أمريكا إلى هذا المذهب وإلى أهم الكتابات فيه (راجع الصحيفة النفسية Psychol. Bull. مجلد ١٩ سنة ١٩٢٢ ص ص ٥٣١ - ٥٨٥) .

وفي مطلع سنة ١٩٢٤ زار كفه وكيلر أمريكا - نزولا على دعوتها - وقاما بمجهود كبير في نشر مبادئ حركتهم الجديدة ؛ خصوصاً وقد دُعي كفه ليكون أستاذاً زائراً للتربية في جامعة كورنيل (١٩٢٤ - ١٩٢٥) ، وأستاذاً زائراً لعلم النفس في جامعة شيكاغو (١٩٢٥) ففي جامعة ونين Wisconsin (١٩٢٦ - ١٩٢٧) .

كما اختير عضواً دائماً في لجنة علم النفس الأمريكية Amer. Psychol. Commu. سنة ١٩٢٧ ؛ حيث صار أستاذاً في كلية سميث لكرسي وليم ألن نلسن . واستمر يكتب وينشر بالألمانية والإنجليزية والفرنسية في سيكولوجيا الصيغة ، ودراسة نمو العقل، والطفل، وفي منهج الاستبطان - استبطان الظاهرات لا استبطان التحليل الذي لا يصلح منهجاً لعلم النفس - مما تجد له تصنيفاً كاملاً حتى سنة ١٩٣٢ في سجل مرتشيزون ج ٣ ص ص ٢٨٥ - ٢٨٧ .

وأهم هذه الكتابات من الناحية التجريبية ، كتابه : في تحليل المواقف وقوانينها Analyse der Vorstellungen und ihrer Gesetze (ليبتسك ١٩١٢)

فذكر بحث كينكل F. Kenkel ، وقوانين رؤية الحركة التي قال بها كورني A. Korte ، ثم نشر نقده هو لرأى بنوسي Benussi - تلميذ مينونج الذي أشرنا إليه مع إيرنفلس - ثم انتهى إلى نظريته في رؤية الحركة . وقد نُشرت هذه البحوث لأول مرة في مجلة علم النفس الألمانية (Zsch. f. Psychol.) (أعداد ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٢) . وذلك هو ما أسهم به كفه وتلاميذه حينما كانت حركة علم النفس الجشطلتي في أول مراحل تكوينها .

وفي سنة ١٩٢١ - بعد أن صار أستاذاً لعلم النفس في جيسن (١٩١٨ - ١٩٢٧) نشر كتابه : أساس التطور النفسي Grundlegung der psychischen Entwicklung عرض فيه لمسألة نمو العقل منذ الطفولة - من وجهة النظر الجشطلتيية - واستطرد فيه إلى كثير من المبادئ الرئيسية لعلم النفس الجشطلتي .

واتجهت أنظار المدرسة إلى نشر مذهبها في الخارج - وخصوصاً في أمريكا - فبدأ الجشطلتيون يكتبون بالإنجليزية . وفي سنة ١٩٢٢ كتب كفه مقالاً عن : الإدراك ؛ مدخل إلى نظرية الجشطلت Perception: an Introduction to Gest. Theo. حاول فيه تقديم مبادئ الحركة الجديدة إلى علماء النفس الأمريكيين ؛ مما

من علماء الحشطلت وغيرهم ، كما عرض الكتاب لكثير من مبادئ الحشطلتين ونظريتهم .

وبعد الحرب العظمى نشر كيلر كتابه: الصور الفيزيقية في الراحة وفي حالة السكون Die physischen Gestalten in Ruhe und im stationären Zustand (١٩٢٠) الذي حاول فيه تطبيق النظرية الجديدة على البيولوجيا والفيزيقيا وأن يقدم وجوه الشبه بين الفيزيقا وعلم النفس ، وأن يعرض آراءه في علم النفس الفيزيولوجي . ويمثل هذا الكتاب مذهب الحشطلت في تمام نضجه كحركة شاملة ، كما أنه يحاول أن يثبت تعلق مذهبهم بمشاكل البيولوجيا والفيزيقا ؛ ويتوسع بهذا المذهب ليجعل منه نظرية العصر في علم النفس ، وليجعل أساساً للعلوم —

وإن لم يكن من المحقق تفسيرها به جميعاً . وليس شك في أن كتاب كيلر هذا قد أفاد علم النفس ؛ لأنه كان عرضاً لوجهات النظر القديمة التي على أنقاضها قام المذهب الجديد في الفيزيقا والكيمياء ، كما أن كيلر قد استطاع بعدئذ أن يحصل على كرسي علم النفس في برلين ١٩٢١ .

وفي سنة ١٩٢٢ صار كيلر مديراً لمعهد علم النفس في برلين ، كما صار من قبل مديراً لمعهد علم النفس بجامعة جتنجن — في نفس السنة قبل أن يعود إلى برلين . وفي هذا الحين نشر

وخصوصاً كتابه الهام في الإنجليزية : مبادئ علم النفس الحشطلتي Principles of Gestalt Psychology (١٩٣٥) ؛ عدا مقالاته الكثيرة في مختلف المجالات العلمية الألمانية والأمريكية .

(٧) كيلر (فولفجانج) W. Köhler :

ولد بعد كفكه بأقل من سنة (ينابر ١٨٨٧) وذهب إلى جامعة تبجنج (١٩٠٥ — ١٩٠٦) فجامعة بون في السنة التالية ، ثم جامعة برلين (١٩٠٧) حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة (١٩٠٩) . ثم عين في أكاديمية فرنكفورت مساعداً ، فمعيداً (١٩١٠ — ١٩١٣) . وفي هذه السنة ذهب إلى ترينيف ليعمل في سيكولوجيا القردة ، وليكون مديراً لمحطة ترينيف لدراسة القردة الشبيهة بالإنسان Tenerife Anthropoidenstation حتى ١٩٢٠ .

وفي هذه الأثناء نشر خلاصة دراسته في كتاب له عن اختبار ذكاء القردة Intelligenzprüfung der Menschenaffen سنة ١٩١٧ (ظهرت طبعته الثانية ١٩٢١ ، وترجمته الانجليزية سنة ١٩٢٥) وفيها يصور لنا عمله مع القردة ، والنتائج التي انتهى إليها : مطرحاً كل التعبيرات التي تواضع الباحثون على وصف ذكائها بها ، مدخلاً لفظة الاستبصار Einsicht لأول مرة ؛ فاتخذها بعده للتعبير عن هذا الموقف من السلوك الإدراكي كثير

في بحوث سيكولوجية Psychol. Forsch. ٦٠ ، ١٩٢٥ بمقالة Komplextheorie (und Gestalttheorie).

وبقية بحوث كيلر ومقالاته في تأييد مذهب الجشطلت والدفاع عنه تجدها حتى سنة ١٩٣٢ في سجل مرتشيزون ج ٣ ص ص ٨٢٧ - ٨٢٨ . وأهمها - فيما عدا المقالات الكثيرة بمجلة علم النفس ، وبحوث سيكولوجية ، وسائر المجلات العلمية ؛ وعدا ما ذكرنا من الكتب - ذكاء القردة Intelligence of Apes (في سيكولوجيات ١٩٢٥ ص ص ١٤٥ - ١٦١) ، ووجهة علم النفس الجشطلتي The Aspect of Gestalt Psychol (في سيكولوجيات ١٩٢٥ أيضاً ص ص ١٢٩ - ١٤٣) ، وكذلك بعض مهام علم النفس الجشطلتي Some Tasks of Gestalt Psychol (في سيكولوجيات ١٩٣٠ ص ص ١٤٣ - ١٦٠) ؛ عدا مقالتين بالفرنسية في مجلة علم النفس الفرنسية J. de Psychol. (١٩٣٠) ؛ إحداهما في القوى الدافعة للسلوك Les Forces Motrices du Comportement ، والأخرى في الإدراك الإنساني La Perception Humaine (مجلد ٢٧ ص ص ٣٦٧ - ٣٩٠ ، ص ص ٥ - ٣٠) .

(٨) أوجدن (روبرت موريس)
R. M. Ogden : ولد في

مقالة له في : سنوية الفيزيولوجيا الألمانية Jahresber. u.d. ges.Physio بعنوان مشاكل الصورة وبدايات نظرية جشطلتية Gestaltprobleme und Gestalttheorie Anfangs einer Gestalttheorie (١٩٢٢ ص ص ٥١٢ - ٥٣٩) وفيها عرض سهل واضح لبعض مبادئ الجشطلت عن طريق الأمثلة .

ولما رحل مع كلفه إلى أمريكا ، وعين أستاذاً زائراً بجامعة كلارك (سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٦) بدأ يكتب بالإنجليزية ليساهم مع صاحبه في نشر المذهب . وكان أهم ما نشره في ذلك الحين : مشكلة الصورة في الإدراك The Problem of Form in Perception (في مجلة علم النفس البريطانية مجلد ١٤ سنة ١٩٢٤ ص ص ٢٦٢ - ٢٦٨) التي ترجع أهميتها - مع إنجازها - إلى نظرها في روابط الإدراك وتغيرات المكان . ومقالاته في مجلة Ped. Sem. ج ٣٢ سنة (١٩٢٥) عن ذكاء القردة Intelligence of Apes صورة من علم النفس الجشطلتي ، وقد نُشِرت مرة أخرى في سيكولوجيات ١٩٢٥ وأخيراً كتابه علم النفس الجشطلتي Gestalt Psychology (١٩٢٩) الذي يعرض فكرة الاستبصار في أوج اكتمالها ، ويتجنب كثيراً من وجوه النقد التي كانت قد وُجِعت إلى النظرية في مبدئها . (وكان كيلر قد رد على اعتراض ج . ميلر

كتب في الإحساسات ، وهل هناك إحساسات ؟ (مجلة علم النفس الأمريكية : ١٩٢٢ ، ص ٣٣) والنشاط العقلى . والتربية ، والتعلم ، ونظرية الجشطت ...

وأهم كتبه : مقدمة إلى علم النفس العام Intro. to General Psychol. (نيويورك ١٩١٤) ، وكتابه في السمع Hearing (١٩٢٤) ، وعلم النفس والتربية. psychol. and Edu. (١٩٢٦) . وقد تبع أوجدن كيلر في الاعتراض على التحليل بمعناه القديم ، التحليل الذي ليس كما نعتّه كيلر تحليلاً تفاضلياً differential analysis — يفيد في الجمع التفاضلي ، وإن كان هو في ذاته غير حقيقي — بمعنى أن العناصر الظنية فيه تُفترض لأجل العمل فحسب ، ثم تعود فتختفي في النتيجة النهائية . وفي هذا يقول أوجدن : إن اعتراض الجشطتتين على التحليل ليس مُوجَّهاً إلى التحليل في ذاته ؛ بل إلى التحليل إلى عناصر حقيقية . وهذا عدا ترجمته لكثير من مُتون علم النفس الهامة

وفي مقالات أوجدن وبجوثه راجع مرتشيزون (ج ٣ ، ٣٥٩ — ٣٦٠) (٩) هويلر (ريموند هولدر) R.H. Wheeler : ولد في برلين سنة ١٨٩٢ ، ولحق بجامعة كلارك ، فحصل على الليسانس (A. B.) سنة ١٩١٢ ،

بنجهامتون في يوليو ١٨٧٧ ، ولحق بجامعة كورنل حتى ١٩٠١ ، ثم انتقل إلى فرتسبورج في هذه السنة ، فحصل منها على الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٠٣ . عين مساعداً لعلم النفس في جامعة مسوري Missouri (١٩٠٣ — ١٩٠٥) فأستاذاً مساعداً لعلم النفس في جامعة تنسي Tennessee (حتى ١٩٠٩) حيث صار أستاذاً لعلم النفس والفلسفة (حتى ١٩١٤) وبعده انتقل إلى جامعة كانساس Kansas أستاذاً لعلم النفس (١٩١٤ — ١٩١٦) فجامعة كورنل أستاذاً للتربية (بعد ١٩١٦) حيث صار منذ ١٩٢٣ عميداً لكلية الآداب والعلوم ، كما صار في هذه السنة محاضراً في التربية بجامعة هارفرد .

وقد ساعد في تحرير المجلة النفسية Psychol. Bull. منذ ١٩٠٩ ، وصحيفة علم النفس الأمريكية Am. J. of Psychol. منذ ١٩٢٦ . وكان عضواً وأمين سر ذبئة علماء النفس الأمريكية كما كان زميلاً للجمعية تقدم العلم الأمريكية Am. Assoc. for Adv. of Scie. .

ونشر أوجدن كثيراً من البحوث والمقالات بالإنجليزية والألمانية عن الذاكرة والتعلم ، والفكر بلا صورة ، والمعرفة والتعبير ، وعن سيكولوجيا السمع ، والصور البصرية والخيالية ، والصوت ، والشعور ، والذكاء كما

المهجم ، حتى أن الاسطوانات الملونة التي تستخدم فيه سُميت : اسطوانات مكسويل Maxwell's disks .

وإذا كان نيوتن أيضاً هو أول من وصّف دائرة الضوء التي تبقى في إحساسنا عند ما نُبعد جسماً مضيئاً عن أبصارنا ؛ فإن ميلر يذكر أن پلاتو قد حدّد الزمن هذه الدائرة الضوئية حوالي ثلث ثانية بعد توقف الجسم عن الإضاءة . ويقول بورنج (تاريخ علم النفس التجريبي ص ٦٠٠) : إن قانون پلاتو في امتزاج الضوء قانون أساسي وكذلك منهجه في الاسطوانات الدائرة التي شاع تسميتها باسطوانات مكسويل .

(١١) روبن (إدجر) Edgar Rubin : لعل روبن (١٨٨٦) هو الذي قدم للمذهب الحشطلت مصطلحاته التي ما زال يستعملها في التعبير عن إدراك الأشكال البصرية . وكان روبن قد جاء من كوبنهاجن سنة ١٩١٢ ليقيض سنتين مع ميلر للتخصير للدرجة الدكتوراه ، وهناك في جتنجن نشر كتابه المشهور — الذي أخذ فيما بعد على أنه جزء من صميم علم النفس الحشطلتي ؛ أيّاً كان اتجاه مؤلفه ؛ لأنه حلل فيه الإدراكات البصرية تحليلًا ظاهرياً إلى عناصر كالشكل والمخلفية والكتنور (المحيط) بدلا من أن يُدخل فيها التحليل الآخر الذي يحمل عليه الحشطلتيون إلى عناصر حسية حقيقية .

والمجستير (A. M.) سنة ١٩١٣ ، والدكتوراه في الفلسفة (Ph. D.) سنة ١٩١٥ . وانضم بعدئذ للجامعة أوريجون معيداً حتى ١٩١٧ ، فأستاذاً مساعداً حتى ١٩١٩ ، فأستاذاً لعلم النفس حتى ١٩٢٥ ؛ حيث انتقل إلى مثل منصبه في جامعة كانساس . وساعد في تحرير مجلة علم النفس العام (سنة ١٩٢٨) كما كان عضواً بهيئة علماء النفس الأمريكية . وله مقالات كثيرة في الظواهر البصرية ، والمعنى meaning ، ووصف الذكاء ، والاستبطان والسلوك ؛ وعنى خصوصاً في دراسة الإدراك بالاشترك الحسي synaesthesia ، وله فيه مع كتسفورث T. D. Cutsforth بحوث كثيرة في مجالات علمية مختلفة .

(راجع مرتشيزون ج ٣ ص ٥٤٠)

(١٠) پلاتو I. Plateau : ما زال علماء الفيزيولوجيا — بعد علماء الطبيعة ؛ ومنذ أنشأ نيوتن سنة ١٧٠٤ قانوني امتزاج الضوء الأولين اللذين وضع ثالثهما جراسمَن Grassmann (١٨٥٣) — يُعتون بدراسة إدراك اللون . وأول من قام بمحاولة دراسة امتزاج اللون عن طريق الاسطوانات الدائرة rotating disks هو موشنبروك P. Musschenbroek (١٧٦٠) . وجاء پلاتو سنة ١٨٥٣ فصاغ قانون هذا الامتزاج . إلا أن مكسويل Maxwell قد جاء بعده (١٨٥٧) فأكمل هذا

ومقالاته في سجل مرتشيزون الثالث
 ١٩٣٢ ص ص ٦٦٩ - ٦٧٠) .
 (١٢) لِئِن (كورت) Kurt Lewin :
 ولد في موجلنو Mogilno . سبتمبر
 سنة ١٨٩٠ ، ولحق بجامعة فرايبورج
 (١٩٠٨) ، فيونخ في السنة التالية ،
 فبرلين في التالية أيضاً ؛ حتى حصل
 على الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩١٤ ،
 وصار بها أستاذا مساعداً سنة ١٩٢٧ .
 راجع ثبت بحوثه ومقالاته حتى ١٩٢٩
 في سجل مرتشيزون ج ٣ ص ٨٣٦ .

أما هذا الكتاب فهو Synso-
 levede Figurer ظهر بالدايمركية سنة
 ١٩١٥ ، وترجم إلى الألمانية سنة ١٩٢١
 باسم : الأشكال البصرية المدركة
 Visuell Wahrgenommene Figuren
 في ٢٤٤ صفحة ؛ وسرعان ما أمدَّ
 علم النفس الجشطلتي بأفكار الشكل
 والخلفية والكتنور كمصطلحات ظاهرية
 لوصف الإدراك البصري للأشكال .
 وهذا أفاد رُوبن علم النفس الجشطلتي
 بما أنتجه في معمل ميلر ؛ وعن غير
 قصد منه (والثبت الكامل لبحوثه

الفصل الخامس

التحليل النفسى والمدارس الملحقة

نُقيل الآن على مدرسة من مدارس علم النفس ؛ ليست - كتلك التى درسنا - ناشئةً عن علم النفس ذاته ، ولا على الأقل فى داخل علم النفس الأكاديمى ؛ وإنما نشأت عن ممارسة الطب . وبالمعنى الواسع هى مدرسة الطب العقلى psychiatry ، ولكنها أقامت على ممارستها هذه بناءً شامخاً فى علم النفس ؛ حتى لَتَجْتَذِبُ الانتباه ، وتسترعى اهتمامَ كافة علماء النفس . ومن الممكن أن تُسمّى بعلم نفس سلوكى ؛ وإن كانت أبعد ما يمكن أن تكون عن المناهج السلوكية وأفكارها . وأحياناً ما تأخذ اسمَ « سيكولوجيا الأعماق » . depth psychol. من أجل تعلقها بما يحتفى فى عمائق اللاشعور من حياة الفرد . وقد سمّت نفسها أحياناً « سيكولوجيا الشعور أو العاطفة » feeling psychol. لتدل به على ثورتها على توكيد النزعة العقلية فى سيكولوجيا القرن التاسع عشر . ثم هى قلّما تستعين بعلم النفس التقليدى (الأكاديمى) فى المعمل ، أو بتجارب الحيوان ، أو اختبارات الذكاء ؛ التى شغلت علماء النفس إلى حد كبير ، فإن واحداً من مجالات الدرس هذه لا يصل إلى « الأعماق » ، ولا يعطى تقدماً عملياً أكثر فى فن الطب . فتورتها على علم النفس التقليدى إذن تقوم بالأكثر فى تجاهلها له .

فالتحليل النفسى - كحركة فى داخل الطب العقلى - كان ثورة على النزوع الجسمى somatic الغالب فى القرن التاسع عشر ، وتوثيقاً إلى حياة جديدة للنزوع النفسى psychic . فى الوقت ذاته الذى كاد فيه علم النفس يُصبح جسماً ؛ بدأ الطب العقلى جاداً فى أن يكون نفسياً . وإذ اقتنع أن إصابات المخ ليست توجد فى بعض أنواع من الأشخاص المنحرفين ؛ فإن الطب العقلى قد بدأ يَنشُدُ علل الانحراف فى حياة الفرد العقلية ، وفى عاداته الخاطئة فى التفكير والعقل ، وفى ضعف إرادته ، وفى قابليته للإيجاء ، وفى حاجته إلى التوازن الانفعالى . وتاريخ هذا التقدم مُشوّق ، ولكنه قصة بذاته . هو مرتبط بتاريخ النوم hypnotism ؛

الذى بإدخاله على الاتجاه العلمى والطبى فى سنة ١٧٨٠ على يد مِسْمِر Mesmer ومعرفته منذ ذلك الحين بأنه مِسْمَرى قد أدى إلى حياة متقلبة نحو قرن ؛ ولكونه متصلاً بكثير من الادعاء ، فقد رفضته رفضاً باتاً تقريباً المهنة الطبية حتى عهد المدارس المتناظرة المشهورة فى باريس ونانسى فى السنوات الستينية والسبعينية والثمانينية من أواخر القرن الماضى . وكان على رأس مدرسة باريس شاركو Charcot (١٨٢٥ - ١٨٩٣)^(٣) النيورولوجى المشهور لعهدِهِ . وهو شخصية رائعة وأستاذ كبير . فقد وجد شاركو أن الأفراد الذين يمكن أن يُنوموا نوماً عميقاً كانوا هدفاً لإصابات الهستيريا واستعان بهذه الحقيقة على فهم الهستيريا وعلاجها ، وأيضاً على بيان ما عسى أن تكون لعقله طبيعة التنويم ، وقد حسب أنها حالة باثولوجية (مَرَضِيَّة) خاصة فى الكائن العضوى . وفى وجهة النظر هذه عارضته مدرسة نانسى ؛ التى أذاعت أن التنويم الخفيف يمكن أن يجرى على كل الأشخاص العاديين تقريباً ، لكونه مجرد حالة سلبية قابلة لتحديث بالإيحاء . وقد استخدموه هم فى علاج الحالات العصبية . وكان النزاع بين هاتين المدرستين الفرنسيتين المتنافستين على أشده .

وكان لشاركو كثير من التلاميذ الذين صاروا أعلاماً فى دراسة الأمراض العصبية neuroses ففورتن پرنس فى بوستن (١٨٥٤-١٩٢٩) Morton Prince^(٤) of Bostom قد استخدم التنويم وما شابهه من العمليات فى علاج الشخصية المتكثرة أو المتحللة . وهو معروف لدى علماء النفس بفكرته عن الوعى المشترك co-conscious وبتجاربه فى الوعى المنقسم (الموزع أو الشتيت) split consciousness . وبيير چانيه Pierre Janet^(٥) فى باريس (ولد سنة ١٨٥٩) قد كان مولعاً أيضاً بأفعال العقل اللاشعورية . أو كما سماها هو - آليات العقل mental automatisms وفى السنوات التسعينية وما بعدها وقف نفسه بأسرها على دراسة الأمراض العصبية وعلاجها فتقدم بما اضطلع به شاركو من التنويم فى الهستيريا ، ووجد أن المصاب بالهستيريا قد استطاع - بفعل التنويم - أن يستعيد الأحداث التى لم يكن يستطيع أن يقف عليها فى حالة الصَّحو (اليقظة) . فالصدمة الانفعالية - إذ كانت قد نُسيت تماماً فى حالة الصَّحو - قد سهل تذكرها ، ووصفت وصفاً تاماً أثناء التنويم وأكثر من هذا ؛ فإنه إذا كانت الإيحاءات أثناء التنويم يقوم بها الطبيب نتيجة أن « هذا كله قد مرَّ وانتهى الآن » ؛ فإن أعراض الهستيريا المتصلة بالصدمة الانفعالية تختفى . واستمر چانيه فى دراسة أنواع أخرى من الأمراض العصبية

والمخاوف phobias ، والحصر النفسي obsession ؛ التي جمعها تحت الاسم الشامل : السيكاستايا psychasthenia التي عالجها بالتعليم من جديد reeducation وفكرته عن الأمراض العصبية هي أنها تُعزى إلى حالة توتر عقلي مخفض ، يمنع الشخص من أن يجد نشاطاً كافياً للإرادة والفعل يتغلب على عقبات الحياة. وبإعطاء هذه الحالة الأولية من التوتر غير الكافي (أو القوة الدافعة voltage كما يمكن أن نقول) فإن المخاوف ، والحصر ، والشلل — العصبية الجزئية ، وغيرها — تنشأ من الشعور العام بعدم الكفاية (النقص) . وعملُ چانية — الذي يُورِّخ له قبل التحليل النفسي بقليل — قد كان بسبيل أن يُحدِّث أثراً عظيماً ؛ سواء في علم النفس وفي فن الطب العقلي ؛ عندما طغت عليه أفكار فرويد الأكثر دراميةً (أسى) ، حتى ألقت به في الظل .

ذلك إذن هو الأساس الذي ظهر عليه التحليلُ النفسي . أساس عام من الطب العقلي الجسدي ، مع محاولات قوية نحو علم نفسِ للأمراض العصبية كان يُضطلع بها وقتئذ .

محاولات فرويد الأولى :

ولد زجموند فرويد Sigmund Freud سنة ١٨٥٦^(٦) فيما يسمى الآن تشيكوسلوفاكيا ، ولكنه عاش في فيينا منذ أيامه الأولى . ولما لحق بالجامعة درس الطب ، وولع خصوصاً بالناحية العلمية منه . وقد عمل سنواتٍ سبتاً في معمل الفيزيولوجيا ، فلما لم يجد في هذا العلم ما يعين مباشرة على كسب قوته صمم على أن يخوض فن الطب . وفي حوالى ١٨٨١ تحول عن معمل الفيزيولوجيا إلى المستشفى ، وما زال يواصل التخصص في الجهاز العصبي : تشريحه وأمراضه العضوية كالشلل وإصابات المخ . وفي ذلك الحين قليلٌ ما كان يُعرف في فيينا عن الأمراض العصبية ، وقلما كان يُحاول علاجها بالطب . وقد سُمع بشهرة شاركو عن بُعد . وفي سنة ١٨٨٥ رحل فرويد إلى باريس ودرس معه نحو سنة . وقد تأثر كثيراً باستخدام شاركو للنويم طريقةً لعلاج

* في قاموس شرف معناها : مرض يمتلك الإنسان obsessive neurasthenia (ص ٧٠٧) وهو مصطلح وضعه بيير چانيه لسكى يدل على مجموعة من الأمراض التي تتميز بالشعور بالتعب والإرهاق والشك والمخاوف المرضية . إلخ . ويؤثر بيير چانيه استعمال هذا اللفظ على نورستاينا لسكى يشير الى أهمية العوامل النفسية . ويمكن أن نسميها الحور النفسى ، وخير منها تسمية السيكاستاينا — على غرار النورستاينا التي شاع استعمالها في العربية كما هي .

المستريا ، كما أعجبه أيضاً سماعه بملاحظة شاركو أنه في كل أحوال الأمراض العصبية يوجد اضطراب في حياة الفرد الجنسية « دائماً أبداً » إذا تعمقت النظر . وتعجب فرويد : لئن صح ذلك فلم لا يستعين شاركو بهذه الحقيقة في نظريته وعلاجه ؟ ظل السؤال في ذهن فرويد ، وآتى أكله بعد .

وفي ١٨٨٦ عاد فرويد إلى فيينا ، وبدأ يعمل جاهداً في حالات الأمراض العصبية - وخصوصاً المستريا . واتخذ من التنويم طريقته الرئيسية للعلاج - ولكنه سرعان ما لاقى صعوبات فيها : إحداهما أن كثيراً من المصابين بالأمراض العصبية لم يمكن أن يُنوموا . وأخرى أنه - حتى لو نجح في تنويم المريض - فإنه لم يستطع دائماً أن يقدم له بوسائله علاجاً . ونجاحه هذا الثابت الذي كان يلاقيه قد أدى به إلى أن يقوم بحجة أخرى إلى فرنسا ، ليختبر في هذه المرة عمل مدرسة نانسي التي أعلنت أنها تُنوم بالفعل كل قادم عليها ، وأنها موفقة أكثر في إحياءاتها العلاجية بتأثير التنويم . وقد خيب ظنه بعض الشيء ما أنبأه به أحد علماء هذه المدرسة من أن نجاحهم ليس حسناً في شيء مع خاصة المرضى كما هو مع الفقراء منهم في معمل المدرس . فإن خاصة المرضى كانوا من شدة الذكاء ؛ أو الدهاء ؛ بحيث يفهمون كل قيمة للإحياءات العلاجية . وعاد فرويد إلى فيينا ، وظل يعمل في العلاج بالتنويم على خاصة المرضى - وبنجاح متوسط فحسب - آملاً في منهج آخر أحسن .

وهنا يشترك في القصة رجل لعل فرويد أخذ عنه أكثر مما أخذ عن شاركو أو مدرسة نانسي . ذلك هو يوسف بروير Joseph Breuer . (ولد سنة ١٨٤٢) وهو عالم من فيينا ، بدأ - كفرويد - فيزيولوجياً ، ثم تحول أخيراً إلى مهنة الطب وقد كان وصل إلى اكتشافات فيزيولوجية هامة ، وما تزال نظريته في القنوات الهلالية semicircular canals معمولاً بها . وكان فرويد وبروير صديقين قديمين ، فبدأ حينئذ يتعاونان في دراستهما للأمراض العصبية . وحدث أن بروير كان يستخرج طريقة جديدة للعلاج اقترحها عليه في الأصل أحد مرضاه . سيدة جاءتته تعاني من المستريا ، وكان بروير كعادته قد استخدم التنويم في علاجها ، فرأت أنه لو أتاح لها - فقط أثناء التنويم - أن تعبر عن مشاكلها الانفعالية ؛ فإنها تتحسن بعد . وبتأثير التنويم استطاعت أن تتذكر أيضاً الأحداث المنسية التي تتعلق بحياتها الانفعالية . وعندما أخبرت بها العالم المنوم ؛ شعرت بارتياح ، وقلت

بعد ذلك جِدَّة أعراض الهستيريا. ومن أجل هذا وصل بروير طريقة العلاج بالتعبير talking out treatment هذه فتحسنت آخر الأمر تحسناً كبيراً ، بما يقرب من الحياة العادية . وحرب بروير وفرويد هذه الطريقة الجديدة على آخرين من المرضى - في شيء من النجاح - ونشرا نتائجهما في ١٨٩٣ ، ١٨٩٥ . وإلى هذا الحد ؛ كانت الطريقة الجديدة تستخدم التنويم مرتبطاً بالتعبير . وفي نفس هذا الوقت عند بروير وفرويد تقريباً ؛ نشر چانيه بعض دراسات في الهستيريا ؛ بين فيها أن التنويم يمكن أن يستفاد منه في طرق ذاكرة المريض ، والكشف عن أصل الأعراض . فكانت طريقة چانيه بهذا هي بعينها طريقة بروير وفرويد - باستثناء أن الأخيرة تؤكد الأثر العلاجي لمجرد التعبير ؛ إذا استمر بدرجة كافية . وقد سموا طريقتهما الجديدة طريقة التنفيس العقلي mental catharsis ؛ لأنها تعمل على استبعاد مصادر الاضطراب من الجسم . واستخدموا أيضاً كلمة التصريف abreaction ؛ بمعنى أن تنفيس الاضطراب يهيء تعبيراً أو مصرفاً للانفعال المكبوت ، وبذلك يُزيله . فقد بدا أن الأحداث التي تسبب الحجل أو ما شابهه من اضطراب انفعالي إنما يجسسه الشخص بقوة ، فيصير بذلك لا مشعوراً به أو منسياً بقدر ما تختص به حالة الوعي ، ولكنه بفعل التنويم ينبعث من جديد وينفَس عنه . وبعد هذه البداية المبشرة بقليل ، أصبح بروير - لبعض علة لم يُبينها - غير راض عن هذه الطريقة الجديدة ، منصرفاً عنها ، تاركاً فرويد يستمر وحده فيها . وأخيراً اتضح سبب فشل بروير . فإن إحدى مرضاه من النساء - عندما أوشكت سلسلةُ علاجاتها الطويلة أن تنتهي - أعلنت أنها لا تستطيع مفارقتها ؛ لأنها قد وقعت بشدة في حبه . فهذا التنفيس الغير المنتظر قد صدَّ بروير ، فانتهى إلى أن هذه الطريقة الجديدة خطر على مزاولها، وأنها تجعل من الصعب عليه أن يُبقي على اتجاهه الطبي الخالص . وسرعان ما ارتطم فرويد بنفس المشكلة . ولكنه لم يضطرب لها بهذه السهولة وتبدَّر سيكولوجية الأمر ؛ انتهى إلى أنه ليست شخصيته الخاصة هي التي تجذب هؤلاء النسوة ، ولكنه يُؤخذ فقط بوصفه بديلاً substitute أو نائباً surrogate لموضوع حبهن الأصلي ؛ الحب منتقل إليه . فإذا هو استطاع من جانبه أن يعالجهن مع الإبقاء على اتجاه غير شخصي ؛ فربما استطاع حتى أن يستفيد بهذا التحول في العلاج . وكانت سنوات قبل أن تتم نظرية التحول الكاملة وطرائق توجيهها ، ولكنها في الحال شغلت مركزاً بارزاً في النظرية والعمل جميعاً .

وسرعان ما أسقط فرويد - حين انفرد لنفسه - « طريقة » التنويم ، واستمر بطريقة التعبير من دونها ؛ ولم يُبقِ من طريقة التنويم إلا على القدر الذي يجعل الشخص يفترض « لنفسه » موقف ارتخاء واستسلام . إلا أنه بدلا من أن يستمر في إحداث حالة نوم ، أو عمل أية إيجاءات ؛ كان فقط يطلب إلى الشخص أن يبسط - وهو على حاله من الارتخاء - متاعبه وماها من سبب ، وأن يقول كل ما يرد على ذهنه . وسمي هذه طريقة التداعي الحر meth. of free association وإن لم يكن التداعي المطلوب من الشخص حراً كل الحرية . وقد كشف نوع من مقياس للضبط بالتشديد على الشخص بوجوب لصوقه بأموره ومشاغله الخاصة ؛ فلم يكن له أن ينساق في حديث عام . على أن فكرة فرويد عن التداعي الحر كانت : أن الأعتة يجب أن ترفع ، والأبضغط الكبت أو الرقيب على أية ذكريات قد تعرض في ذهن المريض . « فإذا كان ماثيره لاقيمة له ؛ فقله هو بعينه . وإذا كان مُحرجاً ؛ دعه يظهر » . فالاسترخاء وهذا التداعي الحر هما بديل فرويد بالتنويم . ومع أنها كانت عملية أبطأ ؛ فإنها أجّدت مع أشخاص أكثر ، وأدت فيما حسب هو إلى تصريف كامل أكثر .

ومهما يكن من أمر ؛ فإن عملية تحليل صعوبة المريض هذه بالهجوم المباشر كانت بطيئة إلى حد لا سبيل إلى إنكاره . وكان فرويد يأخذ أهبته لهجوم جانبي على اللاشعور ينتزعه من الرقيب عليه ، وسرعان ما وجد أن أحلام المريض هي التي تتيح خطة الهجوم تلك . فالمرضى يُعيد حلماً « رآه » في الليلة السابقة ، وبتوجيه المحلل يدع عقله يلعب حراً على كل جزء من الحلم بطريقة التداعي الحر ، ويتبع - في غير تأنيب - كل جزئية من جزئيات الحلم ؛ على أمل أن توجد فيها ذكريات لها دلالتها ؛ فتتلاءم مع بعضها البعض ، وتظهر العقدة التي يعانى منها الشخص وتحليل الحلم - هذا الذى اكتشفه فرويد في السنوات التسعينية - ما يزال جزءاً مهماً من فن التحليل النفسى . وملاحظاته الواسعة ونظرياته فيما يختص بالأحلام قد أداها إلى العالم كتابه تفسير الأحلام The Interpretation of Dreams الذى نشر بالألمانية سنة ١٩٠٠ . وقد أظهر هذا الكتاب مؤلفه وكأنه من مشاهير الكتاب في علم النفس العام . أما أتباعه فقد تبدى لهم فجر علم نفس المستقبل العلمى الصحيح . وقد أتبع كتاب الأحلام « هذا » - بعد قليل - بتحليله المرضى النفسى الرائع للحياة اليومية (Psychopathology of Everyday Life) ظهرت طبعته الألمانية الأولى سنة ١٩٠١)

الذى يحلل فيه هفوات اللسان أو الذاكرة وكل الزلات ، وبين كيف أنه يمكن أن يستفاد فيها جميعاً بالكشف عن العقد اللاشعورية . أما البديهة « النكته » وعلاقتها باللاشعور "Wit in Relation to the Unconscious" (سنة ١٩٠٥) فقد أنضح فكرته فيما يتعلق بالدور الذى تقوم الرغبات المكبوتة فيما نُحِبُّ أن نسميه الحياة العادية أو السوية . فنذ حوالى ١٩٠٠ فصاعداً ، لم يكن يعنى بالتحليل النفسى مجرد فن لعلاج الأمراض العصبية ؛ بل نظريةً فى علم النفس حسنة التعريف . والرغبات المكبوتة والعقد التى كان يجدها فرويد فى تحليله لأعراض الأمراض العصبية والأحلام والهفوات والبديهة wit كان يغلب عليها أنها من طبيعة جنسية . فلم تتأكد فحسب ملاحظة شاركو الجدلية أن الاضطرابات الجنسية توجد فى كل حالات الأمراض العصبية ؛ ولكن فرويد قال بأن الرغبات الجنسية المكبوتة من أجل أنها تعارض ما يتطلب المجتمع — موجودة فى العاديين من الناس أيضاً ، وهى المسئولة عن غرابات السلوك التى لا يمكن لأول وهلة أن تكون لها صلة بالجنس . ولم يتلق العالم المترقب فى هدوء ما سيكولوجياه هذه : لأنها من ناحية تشبث بمسألة الجنس ، ولأنها — من ناحية أخرى — طبيعة كثيرة من نظرياتها أساسية ومغالطية . لقد تلقاها قليلون بحماس ، ورفضها الأكثرون بقوة . وبدت للبعض وكأنها أشبه بوحى مُنزل ؛ ولآخرين وكأنها علم شيطانى مزعوم . ويتقدم الأعوام وعشرات السنوات ؛ صفا الجو بعض الشيء ، وأصبح الأتباع والخصوم كلاهما أكثر نفاذاً وأصبح يُنظر الآن إلى علم النفس الفرويدى بوجه عام — كما يمكن أن نقول فى غير إسراف — وكأنه مساهمة ذات بال فى علمنا هذا الناشئ وإن لم يكن الحقيقة النهائية الشاملة . وفرويد نفسه — حتى إلى عهد متأخر — قد استمر يقدم ويحور آراءه ؛ وإن لم يجد من الضرورى أن يراجع الكثير من النتائج الكبرى التى وصل إليها فى أيامه الأولى .

وسرعان ما بدأ يتكون لفرويد — بعد سنة ١٩٠٠ — أتباع فيما بين مزاوى الدراسات العصبية ، حتى جمع حوله دائرة صغيرة فى فينا . وبدأ يتصل به معجبون من الدول الأخرى ؛ وخصوصاً فى السويد ، حتى كان من الممكن فى حوالى ١٩٠٨ أن يعقد مؤتمراً دولياً لأصحاب التحليل النفسى . على أن اتساع جماعة التحليل النفسى لم يتقدم فى غير نزاع داخلى : فالحللون السويسريون قد تقدموا فى خطوط مستقلة بعض الشيء ، وانفصلوا عن وثيق تبعيتهم لفرويد ؛ كما

انشق من بين جماعة فئنا بعض ذوى العقول الجريئة. والنتيجة الواضحة أنه منذ حوالي ١٩١٢ كان ثمة تحت مدرسة التحليل النفسي العامة مدارس فرعية عدة . فاسم التحليل النفسي يتعلق خصوصاً بفرويد ، ولكن — بطريقة عامة — « علم النفس التحليلي » ليونج و« علم النفس الفردى » لأدلر كانت أنواعاً من التحليل النفسي. وكلاهما منبج لعلاج الأمراض العصبية ونظرية في علم النفس . وعلى أى حال ، فإن فرويد يُصّر على أن يونج وأدلر يُعدّان أنفسهما خارج التحليل النفسي برفضهما الأهمية المطلقة لارغبات الجنسية في الأمراض العصبية وفي الحياة بوجه عام . وسنعود إلى يونج وأدلر بعد اعتبار أوفى لعمل فرويد الخاص .

خطوات أوسع في فن التحليل النفسي :

وقبل أن نحاول عرضاً متصلاً لنظرية فرويد النفسية ؛ يجب أن نشير إلى التقدّم الأوسع للعلاج بالتحليل النفسي . فإنه سرعان ما ظهرت بين المحللين النفسيين فكرة أن أشياء معينة هي رموز ثابتة لأشياء وعمليات جنسية محددة . فما إن يقص المريض حلمه بهذه الأشياء ؛ حتى يعرف المحلل مرة واحدة طبيعة العقدة الخفية وراءها . وباستخدام هذه الرموز الثابتة كان يقصد كثيراً من الوقت في عملية التحليل المطولة ؛ باستثناء هذا المبدأ الجوهرى في مذهب فرويد — وهو ؛ أن المريض يلزمه — ليس مجرد أن يعرف ما هي مشكلته — بل أن يستثير من جديد الخبرات التي هي سبب إشكاله في الأصل . وأن يرتفع بعقداته إلى مستوى الشعور. والرموز الثابتة إذن — وإن لعبت إلى حين دوراً بارزاً — اتخذت مكانها بعد في الصفوف الخلفية .

وفي اشتغاله بطرائقه الجديدة في التداعى الحر وتحليل الأحلام ؛ تقدم فرويد لعلاج كثير من الأفراد المصابين بأمراض عصبية علاجاً موفقاً إلى حد كبير . فتمكن من أن يثير تجارب سبق كتبها . وأن يزيل الشلل المستبرى ، وفقدان الحس anaesthesias ، والخواف العصبية ؛ والقيود بأنواعها المختلفة . ولكنه أحياناً ما حدث أن أحوالاً استبعدت بحسبانها قد شفيت ؛ تعود بعد زمن في أمراض مختلفة شيئاً . وتلك كانت التجربة « التي عاناها » كافة العلماء الذين تصدّوا لعلاج الأمراض العصبية . على أن فرويد — كالعهد به ، وبدلامن أن يرتد — ظل واثقاً بقيمة مناهجه ، وانتهى إلى أنه لم يتعمق بتحليله إلى درجة كافية ، واعتقد أنه قد اخترق الأغشية الخارجية

للأمراض العصبائية ؛ ولكنه لم يصل إلى لُبِّها . فكان من الخير إذن أن يعود راجعاً إلى حياة المريض . وكلما اتسعت خبرته ؛ حاول أن يرجع أبعد فأبعد في تحليله للفرد . وبعد أن كان أول الأمر يرضى بالكشف عن عقدة حديثة الوجود ؛ انتهى بعدُ إلى أن العقدة الحديثة إنما هي انبثاق عقدة أقدم ماتزال قائمة في لاشعور الشخص ، وربما أحدثت له مشقة أكبر .

وقد افترض بادئ الأمر أن العقدة الأصلية هي نتيجة صدمة انفعالية خاصة تلقاها المريض ؛ كما كان يظن بروير وشاركو . إذن فقد عاد يتفحص أكثر فأكثر ذكريات الشخص المنسية ؛ عله يجد الصدمة التي بدأت بها المعاناة . وكثير من النساء المصابات بالمستيريا - اللاتي استشرته - قد تأدى بتحليل أحلامهن إلى أن يستعدين صدماتهن الانفعالية منذ الطفولة . فذكرن عن الآباء أو الأعمام أو الأخوة الكبار مهاجمهم أو إغراءهم الجنسي لمن . وقد استطاع فرويد - مصطدماً هو نفسه بما يظهر من « نُدرة » وقوع مثل هذه الأشياء - أن يعترض بعض هذه القصص ؛ وتبين له أنها خيالية . وقد صدّته وقتاً ما بالفعل نتيجة تحليله الأحلام الواهمة « هذه » ولكنه سرعان ما رجع ؛ وتبين أن ماتذكره المريض إنما كان نوعاً من حلم اليقظة أو هواجس الطفولة أو مُقتبل الشباب ، وأن الصدمة الموهومة - وإن لم تكن حقيقة موضوعية - هي حقيقة لدى المريض ، وأن لها من الأهمية في تاريخ حياة المريض كما لو كانت حدثاً موضوعياً « حقاً » . وأكثر من هذا ؛ انتهى إلى أن الهاجس *phantasy* قد تجسّد من الشخص رغبة صبيانية ، « وأن » حلم اليقظة في الطفولة المتأخرة يدل على رغبة غير متحققة منذ الطفولة الأولى . فلو أنه استطاع أن يرجع بتحليله إلى رغبة الطفولة الأولى تلك ، إذن لتوصّل إلى محور مشكلات المراهق في حياته ، ولو أنه استطاع - بتحليل الأحلام - أن يحمل الشخص على إثارة الذكريات المفقودة لطفولته الأولى ؛ وأن يعيش على رغبات ذلك العهد ؛ فقد يأمل في علاج رئيسي لهذه الأمراض العصبائية .

هل نرجع بالتحليل إلى الطفولة الأولى ؟ ولكن هذا مستحيل من الناحية العملية إذا كان معناه أن على الفرد - بوصفه نتيجة لأي مقدار من تحليل الأحلام . الخ - أن يتذكر أحداث السنوات الأولى القليلة من حياته « كاملة » أي نحو من الكمال . وبرغم قول فرويد : إن شيئاً قد كان موضع خبرة لا ينسى قط نسياناً مطلقاً ، وأن

كل شيء سوف يعود إذا زالت العوائق زوالاً كافياً ؛ فإن الجهود الجبارة لا تنجح في إرجاع « شيء » أكثر من أشنات هذه الخبرة القديمة . ومهما يكن من أمر فقد يكون أن التذكير العقلي للأحداث القديمة ليس القصد الأساسي . فأما ما يُراد ؛ فقد يكون بالأحرى بعث الناحية الانفعالية للطفولة الأولى ، اجعل الفرد مرة أخرى طفلاً صغيراً — من حيث هو منفعل — فقد يكفي حتى مجرد التذكر الشئيت للأحداث الأولى في إحياء رغبات الطفل وميوله ، تلك — كما أفهمها — هي فكرة فرويد الناضجة عما يرمى إليه بالتحليل .

فإذا أثار الشخصُ على هذا النحو ميله الانفعالي القديم — دون أية إثارة كاملة للحوادث والأشياء ، والأشخاص ؛ التي لعبت دوراً في قصة حياته — فقد فتح البابُ على مصراعيه للتحويل transference . فيجد الشخص موضوعاً حاضراً لانفعالاته المثارة ؛ وهذا الموضوع هو المحلل . وبقدر ما كان أبو الطفل على الأقل موضوعاً حبه — أو حُبها . وكرهيته — أو كراهيتها ؛ بهذا القدر يصبح المحلل — كبديل الأب — موضوعاً للانفعال المتحول . وفي مراحل معينة من تقدم التحليل ؛ يُظهر الشخص حباً واندفاعاً مبالغاً فيه نحو المحلل ، بينما في مراحل أخرى قد يُظهر عدم اطمئنان ؛ بل كراهية . وكلا التحويل الإيجابي والسلبي يُظهر نواحي الميل السابق نحو الأب . فما إن يقترب التحليل من غايته ؛ حتى يكون التحويل الإيجابي كله إلى الماضي ، فلا يبقى للمريض إلا الاعتماد اعتماداً صيانياً على المحلل ما لم تتخذ خطوة أبعد ؛ تحدث « نتيجة » إجهاد المريض من تحوله . وفي أثناء التحويل تنتزع رغبات الطفل من اللاشعور وتُجرد من ملابسها الصيانية . فإنه يجب ألا يُسمح لها أن تظل مُستعصيةً على المحلل ، بل يجب أن يعان المريض على أن يجد لها مخرجاً في اتفاق مع أحوال حياة مراهقته « كما » يجب على المحلل أخيراً أن ينسحب من المسألة ، ويترك المريض يستطيع أن يؤدي دوره وحده .

وهكذا انتهت صعوبتا التحليل النفسي الكبيرتان إلى نجاحه بضرورة عبقرية ممتازة لرجل لم يكن عالماً نظرياً خصباً فحسب ؛ بل على صلة وثيقة أيضاً بحقائق عمله ، فالتداعي الحر الذي أمكن أن ينتج قليلاً نسبياً في استعادة حقيقية للأحداث القديمة ؛ قد أنتفع به في الاسترجاع الانفعالي . والتحول — الذي كان قد هدّد بتحطيم العملية كلها — قد أصبح الوسيلة الأولى للنجاح . وفرويد نفسه قد قدم

تخطيطاً موجزاً لتطور منهجه . ففي إحدى كتاباته المتأخرة* هو يميز مراحل ثلاثاً في تقدمه :

في البدء كانت محاولات الطبيب المحلل وفقاً على قراءة لاشعور المريض الذى لم يكن حريصاً عليه ، وإحداث التآليف بين عناصره ووصلها في الوقت المناسب ... ولما كان العمل العلاجي حتى الآن لم يتم ؛ فالهدف الثاني هو أن نحيل المريض على أن يقوم بالاستعادة عن طريق ذاكرته هو . وفي محاولته كان التشبث الأكبر إنما هو بمعوقات المريض ؛ والفن هنا يقوم في الكشف عن هذه ما أمكن بتوجيه انتباه المريض إليها ؛ و... تعليمه أن يترك عوائقه . ومع هذا فقد أصبح أكثر وضوحاً أن الغرض المنشود - « أعنى » إخراج اللاشعور إلى الشعور - لم يمكن الوصول إليه تماماً بهذه الطريقة أيضاً . فالمرضى لا يستطيع أن يستدعى كل ما هو دفين ؛ بل وحتى الجزء الرئيسى منه ... فهو بالأحرى مضطر إلى أن يدلى كخبرة جارية بما هو دفين ... وكقاعدة ؛ لا يستطيع الطبيب أن يُعنى المريض من هذا النوع من العلاج ، بل يجب أن يدعه يحيا في جزء معين من حياته المنسية .

ومن هذا الوصف لطريقة المحلل النفسى التقدير يبدو جلياً أن لا موضع فيها للهواية . فالحلل يلزمه - كما يحتج فرويد* - ستان على الأقل من الدراسة الواسعة والمران تحت الإشراف ؛ قبل أن يبدأ العمل لحسابه الخاص . والمدارس الطبية في الوقت الحاضر لاتقوم بشيء يستحق التقدير في هذا التمرين . هي تعلم موضوعات كثيرة لافائدة فيها للمحلل النفسى في عمله ، وتستبعد موضوعات معينة : كالانولوجيا وتاريخ الحضارات ، والميثولوجيا ، وسيكولوجيا الأديان ، والأمثال الشعبية والأدب ؛ إلى جانب سيكولوجيا اللاشعور - أو سيكولوجيا الأعماق - البالغة الأهمية . فهي تُمرن طالب الطب لا على التحليل النفسى ؛ بل ضده ؛ وذلك بجعله يكبر العلل الفيزيقية والخارجية فحسب للمرض . والمتخرج في الطب الذى يُفترض أنه قد تخصص في المشاركة في العلاج بالتحليل النفسى ؛ يوشك - على خطر - أن يكون مختلفاً . وبالتالي ؛ وفيما يتعلق بالحاجة الماسة إلى محللين

* ز. فرويد : ما وراء مبدأ اللذة Beyond the Pleasure Principle بوني وليغريت ١٩٢٢

ص ١٧ - ١٨

* ز. فرويد The Problem of Lay Analysis برنانو ، ١٩٢٧ ص ١٢٦ .

نفسيين مختصين ؛ يستطرد فرويد « قائلًا » إن قصر مزاولة التحليل النفسى على فن الطب ليس مما يمكن عمله من الناحية الاقتصادية. فالخطوة الأولى للميراث الواسع الذى للمحلل هى أن يخلل هو ذاته ؛ إذ الشخصُ وحده الذى قد تحرر من رغباته المكبوتة هو الذى يستطيع أن يعالج رغبات غيره ، وإلا فإن رغباته هو سوف تنمو أثناء التحليل ؛ وبدلاً من أن يكون التحول بكليته من المريض إلى المحلل ، فإنه سوف يأخذ الاتجاه الآخر كذلك ؛ فيكون لدينا موقف شخصى لا غير شخصى - ويأمل فرويد أن يكشف التحليل النفسى عن قيمة كبيرة لأول تناول لانحرافات الطفولة والشباب .

سيكولوجيا فرويد :

لقد كنا نتبع حتى الآن تقدم التحليل النفسى كنهج لعلاج الأمراض العصبية وبوصفه مدرسة أو حركة ؛ وتركنا فى الأساس نظريات فرويد النفسية . وليس من السهل تماماً أن نقدم تقريراً عن حقائق فرويد من غير أن نخلط فيها النظريات ؛ لأن الحقائق تُعرض عادة فى ثوب نظريات .

وفرويد نفسه قد قدم تقريراً مختصراً عن حقائقه الرئيسية* :

تحاول نظرية التحليل النفسى أن توضح خبرتين تنشآن بطريقة عجيبة وغير منتظرة خلال محاولة إرجاع أعراض المرض عند المصاب بمرض عصبانى إلى أصلها فى تاريخ حياته ؛ وأعنى بهما حقيقتى التحول transference والتعويق أو المقاومة resistance .

فأما حقيقة التحول فقد سبق عرضها بكفاية ؛ وإن كان يجب أن يُقال إن حقائقه فى الواقع هى الميول الانفعالية - الموجبة أو السالبة - نحو المحلل ؛ التى يكشف عنها المريض خلال مجرى التحليل . فـ « تحول » هذه الميول من موضوعاتها الأصلية إلى المحلل فيه عنصر كبير من النظرية . وأما حقيقة المقاومة فهى حقيقة بالتحديد ؛ بمعنى أن المريض يتجنب الصراحة التامة فى الإدلاء بخبراته إلى المحلل . فبعض الذكريات التى تظهر أثناء التحليل الحرهى « أتفه بكثير » من أن يذكرها ،

* ز. فرويد : تاريخ حركة التحليل النفسى - شركة النشر الأمراض العصبية والعقلية .

وبعضها الآخر « أحرى به » ألا يذكره . إلا أن المقاومة تذهب فيها وراء هذه الرقابة الواعية censorship ، لأن الذكّر التي تكون قد استرجعت تماماً وعرفها المريض ؛ غالباً ما تتردد بطريقة مريبة جداً . هو يدنو منها مرة أخرى ، ولكنه يتعد عنها لأنه لا يستطيع أن يسترجعها تماماً . إلا أنها عندما تبرز أخيراً بوضوح واكتمال ؛ فقد كان يجب أن تكون حاضرة في ذاكرة المريض طول الوقت . ولكي نستخلص أنها قد منعت بمقاومة لاشعورية أولى منها بنواحي نقص في الجهاز الارتباطي ؛ ففي هذا أيضاً عنصر نظرية . فسوف يرى إذن أن حقائق فرويد الأساسية أيضاً تختلط من قبل بالنظرية . فهي تفسيرات لحقائق سلوك المريض أثناء التحليل ؛ تفسيرات تلائم السلوك بوضوح — حتى أنها غالباً ما تُفهم على المحلل — ومع هذا فيمكن أن تكون هذه التفسيرات خاطئة أو مطابقة في جزء منها للحقائق فحسب .

وفي محيط النظرية ، وعلى مقربة جداً من الحقائق أيضاً ، يضع فرويد الكبت والغريزة الجنسية عند الطفل . فيكتب* :

إن نظرية الكبت هي العماد الرئيسي الذي يرتكز عليه صرح التحليل النفسى . إنه حقاً الجزء الرئيسي منه ، وليس هو ذاته شيئاً آخر غير التعبير النظرى عن خبرة يمكن أن تُعاد بلذة عندما يحلل المرء مريضاً بمرض عُصابى دون استعانة بمخدر . والمرء هنا يواجه مقاومة تعوق عمل التحليل بإحداث خيبة في الذاكرة حتى تتعطل ... مثل هذا الحاصل تماماً ... (مستخرج نظرى من عدة خبرات كثيرة) ... ولكن بعده بأيام كثيرة نظرية الطفولة الجنسية ... فقد لوحظ فقط أولاً أن نتيجة مرّات الكبت الحقيقية يجب أن يُرجع بها إلى الماضى ... وما تزال الآثار تؤدى في الطفولة والسنوات الأولى ... إلى إصابات جارية traumas ... وسرعان ما تبع ذلك الاعتقاد بأن هذه الإصابات تعمل على إخفاء وجوه النشاط الشّهوى auto-erotic في سنوات الطفولة الأولى ... والآن فإن حياة الطفل الجنسية كلها قد ظهرت من خلف هذه إصابات ... وبعد سنوات لاقت اكتشافاتى في معظمها نجاحاً عن طريق الملاحظة المباشرة وتحليل الأطفال في سنوات مبكرة جداً .

والكبت والطفولة الجنسية — وإن تحدّث عنهما هنا كمنظريات أولى منهما حقائق—

فإن فرويد لا ينظر إليهما على أنهما نظريتين في شيء ؛ فهما يبدوان له نظريتين تؤكدهما جدّ التأكيد خبرة المحلل اليومية مع مرضاه ، وهما مفروضان عليه من الناحية العملية . وهما — على أى حال — تفسيران يجدهما مُقنعين إلى حد كبير ؛ سواء في تفكيره هو وفي بسط الأمور لمرضاه . فلو وضعنا النظريتين معاً : لأصبنا بضربة واحدة* حقائق سيكولوجيا فرويد الرئيسية : الطفليّة الجنسيّة المكبوتة* repressed infantile sexuality فنحن نرى مباشرة أن الكلمات الثلاث لم يمكن أن تقلل إلى اثنتين بحال وأن الصّرح يقوم على أعمدة ثلاثة بدلا من اثنتين . فأهمية الكبّت ، وأهمية الرغبة الجنسيّة ، وأهمية مرحلة الطفولة ؛ هي الثلاثة الأشياء الرئيسيّة التي يؤكدها فرويد + . وقد كان علينا أن نذكرُ بعناية ماكرّره فرويد مراراً من أن نظريته هذه لاتدعى أنها تشمل الحياة العقلية كلها ، وأنها — على عكس ذلك — تهدف خصوصاً إلى تفسير كل ما كان على النظريات الأخرى أن تتركه غامضاً . فنظريته نظرية أحلام وهفوات lapses ، ولكنها خاصة بالأمراض العصائية . فالعصاب منشؤه الطفولة الجنسيّة المكبوتة ؛ تلك هي قضيته الرئيسيّة ؛ ومهما يكن من أمر فليست الطفولة الجنسيّة المكبوتة قاصرة على هؤلاء الأفراد الذين لديهم مرض عصابي في فترة من حياتهم ، ولكنها توجد في الجميع ، وهي عامل في حياة الجميع . فلو استطعنا أن نكتشف المناهج التي بها يحقق مفكر خِصب كفرويد آراءه ونظرياته لكانت قطعةً من علم النفس لها قيمتها . قد نستطيع أن نذهب قليلا في هذا السبيل فحسب ، فنحن نلاحظ أنه عندما بدأ دراسته للمصابين بأمراض عصابية قد كان لديه من قبلُ أساسٌ من العمل العلمي عشرَ سنين . وقد كان منذ صباه طالباً نابهاً طموحاً ، مع ميل عقلي ؛ بل علمي . ومع هذا فلا أقول فيما يتعلق بكتاباته كلها إن مزاجه هو بالضبط مزاج الرجل العلمي فهو يبدو ملاحظاً seer أكثر منه باحثاً ، وكذلك أيضاً مخترعٌ فروض خِصب أولى منه فاحصاً بطيئاً للفروض . ويبدو أنه قد تبع حكمة أخذها عن شاركو ؛ هي أن يُلقى بنفسه في الحقائق — خصوصاً الحقائق الحيّرة — على أمل أن يجيء الكشف . فإذا جاء الكشف فعلا — كما كان يحدث مبّوضوح مع فرويد غالباً — فإنه يجيء بقوة ويقين كبيرين ؛ ويبدو له وكأنه أكثر من فرض لاختبار أبعده . فما تقرأ كتب فرويد حتى تفجّأك كثرة

* أصبنا في قفصه بنق have in a nutshell

+ سنقدم صفة الجنسيّة على الطفلية دائماً

ما لو فكرت فيه لحظة لوجدته فروضاً فأنت تجد في صفحات معينة منها ما يكفي ليجعل طائفة من الباحثين في شغل واختبار لها سنة « كاملة ». ولكن فرويد يمر مسرعاً ويعطيك كثيراً غيرها على الصفحة التالية إن له لا شك لعقلاً خصباً .

إن فرويد يبدو أنه يحب المغالطة . أو هو — على الأقل — يحاول بمهارة أن يفر من الميدان . فلهذه مبادئ موجهة معينة تبعد بذهنه عن الوضوح . ومن بين هذه المبادئ الموجهة أن ما هو محذور لا بد أن يكون مرغوباً . فلو لم يرغب الناس في أن يفعلوا شيئاً ؛ لما قامت الموانع ضد هذا الشيء في قانون أو عادة . وما هو محذور أشدّ الحظر يجب أن يكون مرغوباً أقوى الرغبة . وما هو مُمنزِع ومُروّع يجب أن يكون « فيه كذلك » أو نسي رغبة . فقتل المرء والدّه حقيقة مفزعة خصوصاً . والتوانين قد وضعت ضدّ هذا السلوك عقوبات أكثر صرامة ؛ وإذن فيجب أن يكون ثمة رغبة أعم وأقوى خصوصاً لارتكاب هذه الجريمة الخاصة . والتحریم في العلاقات الجنسية بين الأقارب هو جريمة مفزعة جداً أيضاً ؛ فلماذا تبدو كذلك ؟ يؤدي بفرويد مبدؤه الموجه إلى أن يفترض أن الفرد يجب أن يتجنب الرغبات البالغة القوة للتحريم الذي يشددّ التركيز عليه بالاتهام وتهديدات العقاب القوية من جانب المجتمع . فالرغبات الأولية المكبوتة يمكن بهذا أن تُكشّف وأن تُتخذ بدءاً لسيكولوجيا الأعماق .

وفكرة موجهة أخرى هي أن ما يُخشى ربما كان مرغوباً ؛ لأن الخوف هو قناع للرغبة . فتجنب الألم والضرر المباشر شيء عقلي كاف ؛ إلا أن المخاوف التي نجدها في الحياة المدنيّة هي غالباً غريبة queer عندما تفكر فيها . ويصدق ذلك خصوصاً في حالات المخاوف المرضية عند المصابين بأمراض عصابية . فبدلاً من القول بأن هذه مخاوف شرطية — كما قد يقول السلوكي — يشكّ فرويد فيها كدعامة للرغبات المقبولة . وهذه الطريقة فإن التحمس . المتطرف لنفع شخص قد يُخفي رغبة لاشعورية في الإضرار به .

دعاوى فرويد الرئيسية : الدافع والعقد المستديمة :

ويبدو أن فروضاً رئيسية معينة من نوع مخالف هي التي تكمن وراء تفكير فرويد . كله . فإنه وإن كان يتحدث هو نفسه عن الكبت وكأنه العمود الرئيسي للتحليل النفسي ، أو ؛ في مواضع أخرى ؛ « أنه عمود » نظرية اللاشعور

(الناشئة عن الكبت) كأساس لسيكولوجيا الأعماق عنده إلا أن هذه الفروض تبدو مع ذلك أكثر جوهرية .

وأهم هذه الافتراضات هي أن كل سلوك له ما يدفع إليه . فإلى جانب الأفعال الإرادية التي تدفع إليها بوضوح الدوافع والرغبات ؛ فإن الحوادث التي تبدو لنا غير إرادية وعرضية بل وحتى غير متفهمة مع ميلنا هي الأخرى تُشبع رغبةً « فينا » . وتلك هي خصوصاً نظرتَه للأمراض العصبية . فإن مكدوجل* في تلخيص قيم له عن مدارس علم النفس المرضي يبين أن فرويد ؛ في تمايز عن سابقه ؛ يُقيم رأيه في الأمراض العصبية على الدوافع . فإن سابقه - وحتى معاصره چانيه - قد تحدثوا عن الأمراض العصبية وكأنها تعبير عن ضعف المريض . وتكلم چانيه عن « التوتر العقلي المخفوض "low mental tension" » وكأنه الضعف الرئيسي في المريض ؛ ضعف اختبره المريض على أنه « شعورٌ بالنقص » feeling of inadequacy وعنه نشأ الخوف المرضي phobia والحصر النفسي obsession الجزئيان كنوع من تفسير المريض لضعفه هو . إلا أن فرويد قد فسر الأمراض العصبية من حيث هي ترجع إلى الرغبات وكتبها . فلم تكن أعراض المرض العصبي عنده مجرد علامات ضعف ؛ بل كانت إشباعاً إيجابياً للرغبة . فإذا لم يُرد المريض « هذه » المخاوف أو الشلل شعورياً ؛ فلا بد أن يريدهما بطريق لاشعوري . فكل نشاط كان إشباعاً لرغبة ؛ مباشرة أو بطريق ملتوٍ شيئاً ما .

قد يبدو من النادر إمكان أن يكون العمى أو الشلل - حتى ولو كانا هستيريين أو وظيفيين ، وليسا راجعين إلى إصابة عضوية في المخ - مرغوباً فيهما ؛ أو أنهما يُشبعان رغبةً في المريض . وچانيه يصف هذه الحالات في اتفاق مع فكرته العامة في التوتر العقلي المخفوض على أنها شواهد على تحلل أو « انقسام الشعور » . فإن العينين أو الساقين - وقد ارتبطا في ذهن المريض بصدمة انفعالية ما ، لم يعد يقوى المريض على أن تتكامل مع مجرى وجوده الشخصي الرئيسي - تنفصلان وتختفيان عن رقابة المريض . أما تفسير فرويد فمُختلف تماماً : فالعمى والشلل قد يكونان وسيلة للهروب من موقف عسير ؛ إذ المريض ليس أهلاً للمسئوليات . إلا أن تفسير فرويد أقل وضوحاً من هذا . فثمة - على سبيل المثال - شابة لديها شلل هستيري في الساقين ، ومنذ سنة أو سنتين قد كانت تُمرّض أباهما

أثناء مرض طويل ؛ فكانت أمينة ومخلصة ، فتعدت أن ترفع أباه المَقَد ؛ مستخدمةً ساقها بكل ما يمكن ، وكانت حياتها في ذلك الحين معقدة لأنها قد أحبت شاباً معيناً وكانت على أهبة زواجه لولا هذا المرض « الذي لازم » أباه لسوء الحظ ؛ فلم تملك إلا أن ترغب - رغم إخلاصها -- في أن ينتهي هذا المرض على نحو أو آخر. ومثل هذه الرغبة - وإن كانت قوية لا تُقهر تقريباً - قد رَدَّها الخوفُ ، فهربت منها « الفتاة » عقلياً - أو بالأحرى كبتتْها . بيد أنها قد ظلت بقوتها في اللاشعور ، ووجدت إشباعها بطريقة عمياء في الشلل . وفرويد يسمي هذه العملية « ارتداد » الرغبة إلى عَرَض فيزيقي . وهو يتحدث عن الرغبة وكأن لها شحنة من الطاقة تبقى في الكائن رغم الكبت ، وتُضطر إلى أن تُشعرَ بنفسها بطريق ملتوية شيئاً ، مادام غير مُتاح لها التعبيرُ المباشر .

ولتتبع فرض الدوافع لفرويد في ميادين أخرى ، فهو مشكلة كتابه سيكوپاثولوجيا الحياة اليومية . فالباحثون السابقون قد صَنفوا زَلَّات اللسان أو القلم على أنها أخطاء حذف أو إبدال أو تغيير في الوضع .. إلخ ، وتحدثوا بصفة عامة عن أنواع من الترابط أو «التداعي» تنشأ عن « هذا » الحداع . ولكن فرويد يتساءل لم لا تحدث هذه السقطات دائماً إذن بدلاً من « أن تحدث » في مناسبات بعينها فحسب ؟ يبدو له أن سابقه قد عالجوا السقطة وكأنها بصفة جوهرية عَرَض أو حَدَث لاعلة له . وهو يُصر على أنه حتى في المحيط العقلي كلُّ حَدَثٍ له علة كافية . وهو يحلل أمثلة السقطات منفصلة ، فيجد - بما يُرضيه هو ويعجب له مريضه - أن كل سقطة إنما كانت إشباعَ رغبة .

وسأذكر شاهداً كان لفرويد نفسه فيه سقطة ذاكرة وجدَّ عناءً في تحليلها . ففي بدء عهده بالتحليل النفسي نسي اسمَ مريضة معينة كانت في رعايته ، ولم يستطع أن يتذكر الاسم مع كونه قد قام على علاج المريضة زمناً طويلاً . ومثلُ فقدان الذاكرة هذا قد بدا عجبياً . وهنا فقد حدث أن هذه المريضة قد أخطأ فرويد تشخيصها ؛ فعالجها من مرض عَصَابي حين كانت تعاني في الحقيقة من قُرحة في المعدة. وهذا النوع من الحالة هو الذي يُحِبُّ الطبيب أن يمجَّه من ذاكرته. وفرويد قد انتهى إلى أنه قد حَمَّ الأسم وكل شيء . ومن هذه الأمثلة - مُفسَّرة بطريقته الخاصة - انتهى فرويد إلى فكرة النسيان المدفوع motivated forgetting . وهو - وإن لم لم يُعَاطِر بنسبة النسيان كله إلى هذه العلة - قد ذهب إلى شيء منها في نظرية أن

لاشيء قد عُرِفَ مرةً يُنسى بأكمله أو يُستبعد من الجهاز ؛ وإن كان الكثير يمكن أن يكون مكتوباً ، ويُصبح من الناحية العملية لاسبيل إليه .

وفرويد يُظهر مهارة وجرأة أدبية في تحيّر عُنوانات كتبه . فـ « تفسير الأحلام »

— عنوان كتابه الأول الكبير — يُؤذِن أننا هنا بصدد كتاب أحلام الدكتور فرويد .

وهو يتناول المتعة القديمة التي لم تخمد بعد ؛ في تفسير الأحلام . ومن قديم قد

فسّر الحلم على أن له دلالة تنبؤ ؛ بينما فرويد يفسره بحسابه إثارة لماضى الفرد . وقد

فسر علماء النفس السابقون الأحلام بأنها مجرد تقاطر غير منتظم لتداعٍ لارقابة عليه فهم

لم يفسروا — على حد تفكير فرويد — لم لم يحلم الفرد بشيء أولى من شيء آخر —

لقد تركوا الكثير للصدفة ، ونظروا إلى الحلم فيما بقي وكأنه مجرد انسياق آلى للجهاز

الارتباطى . إلا أن فرويد يأخذ نقطة بدئه من أن الاطفال يحلمون غالباً بتملك

ما يريدون أن يكون لهم في حياة اليقظة . وأذكر أنى نفسى قد تعودت أن أحلم بعثورى

على براميل كاملة من « المطوات » jackknives . وكم خاب أملى عندما كنت أستيقظ

فأجد « المطوات » قد ذهبت ؛ وحتى حين أصبحت بالغاً ، قد حلمت أنى وجدت

« بنسا » وبالتنقيب فيما حوله وجدت ربع ريال ، فريالا ، وأخيراً بعض نقود

حقيقية . فلو أن أحد أتباع فرويد قد سمع بهذا الحلم ؛ لفسره بالتأكيد بالشك

في to my discredit . والحق أن أكثر أحلام البالغين ليست إشباعات رغبة

واضحة ، ولكنها مثل إشباع الرغبة تماماً — كما يقول فرويد — لولا أن الرغبات

المتضمنة تشبه أن تكون مكتوبة فالرغبة يُعبّر عنها رمزياً فحسب ، وتظهر في الحلم .

فالحلم الواضح هو إبراز لفكرة الحلم ورغباته الكامنة . والمضمون الكامن لا بد أنه

مفزع للفرد الواعى ، فإذا ما بدأ يظهر في الشعور ؛ فإنه يُقاوم ويُعاد مرة أخرى

إلى اللاشعور . أما في النوم فإنه يكون لدى المضمون الكامن فرصة أحسن بقليل ؛

إلا أنه ما يزال مراقباً ، ويُسمح له فحسب أن يُسرّى عن نفسه في خفاء — خفاء

تام جدا — عادة .

وأحسب أننا قد تتبعنا فرويد تتبعاً كافياً لأن نتأكد من قرصه الأساسى :

أن كل نشاط فهو مدفوع . all activity is motivated . فالدافع هو من الناحية

العملية علم النفس كله كما يراه هو . وكل ما فعله علماء النفس التجريبيون — بسبيل

اختبار آلية الحلم أو التفكير أو الذاكرة — يبدو له ذا أهمية يمكن إغفالها . إنه لا يجد

لواحدٍ منها فائدة ، فهي (هذه الدراسة) تسير من افتراض أن الأحداث العقلية

— كما يقول هو — تحدث بغير ما علل . ومثل هذا الاتهام طالما حيرنى من حيث أن علماء النفس التجريبيين كانوا يدرسون ؛ بصفة عامة ؛ العلة أو المعلول بحت . وأخيراً رأيتُ أن فرويد يعنى بالعلة — فى ميدان علم النفس — الرغبة ليس إلا . فهو يرى أن العلة — فى علم النفس — يجب أن تكون علة نفسية . والعلة النفسية يجب أن تكون رغبة أو دافعاً . فالقول بآلية ارتباطية ، أو بآلية للمخ ؛ فيه إسقاط لمجال العلية السيكلوجية ، وهو أحياناً ما يستخدم التعبير « فعل نفسى كامل full psychic act » . والحلم أو السقطة هو فعل نفسى كامل . فهو إذن كالفعل الإرادى فى جوهره ؛ أعنى أنه إشباع رغبة .

وأقول لك إذن إن افتراض فرويد للعلة النفسية الكلية ؛ افتراضه أن كل نشاط فهو مدفوع ؛ هو أكثر جوهرية فى سيكولوجياه من نظريته فى الكبت . وتتضح جوهريتها الأكثر عندما نتذكر كيف يصل هو إلى نظرية الكبت . فالكبت هو « التعبير النظرى عن حقيقة المقاومة » . وهذه الحقيقة ترتقى إلى حقيقة أن المريض تحت التحليل يبتعد عن ذكريات معينة وكأنه يخافها . وقد فسر علماء النفس إخفاق التذكر بوصفه راجعاً إلى التدخل فى آلية التداعى ، ولكن فرويد لن يقول بواحد من هذه التفسيرات — فإخفاق التذكر لا بد أن يكون له دافع ؛ يعنى المقاومة التى ترجع بدورها إلى كبت سابق .

والافتراض الرئيسى الآخر الذى أجد فى فرويد هو أن العلل والرغبات يجب أن يبحث عنها فى الماضى ؛ وأن السقطة أو الحلم لا يشع رغبة الساعة ، بل رغبة فى الماضى ؛ وأن المرض العصبى أصله إنما هو فى الماضى . وقد رأينا كيف أن فرويد — بسلك هذا السبيل — قد ارتد من الماضى القريب إلى أولى سنوات الطفولة ، وقد تقول إن كل شخص يفترض بالضرورة أن الحاضر يُفسره الماضى . ولكنى سأبين بإيجاز أن كلام يونج وأدلر يختلف مع فرويد فى هذه النقطة عينها . فافتراض فرويد عن الماضى أنه مسئول عن الحاضر يتجاوز الزعم بأن ما قد حدث يترك وراءه آثاراً . وهو يعنى شيئاً أكثر دقة من هذا ، هو يعنى أو يبدو على التحقيق أنه يفترض من البديهي أن المواقف الخاصة إذا حيرت مرة ؛ فإنها تبقى فى الفرد ، وتظهر من حين لآخر ؛ كمضنون خفى للأحلام أو بطرق أخرى . وبالأجلى هو يعنى أن الرغبات الخاصة إذا تشيطت مرة ، فإنها تظل باقية فى الفرد .

ولننظر فى هذا الشأن مسألة التحول . فالحقيقة هنا هى الميل الانفعالى الموجب

أو السالب للمريض نحو المحلل . أما في ذهن فرويد ؛ فهذه « حقيقة التحول » .
فالحقيقة كما يرى هو أن رغبات قديمة ؛ تاريخها منذ الطفولة ؛ قد بقيت ، وكونت
موضوعاً جديداً في شخص المحلل — الذي هو بديل الأب . فلنفرض الآن أننا نفسر
ميل الشخص الانفعالي نحو المحلل من دون أن نفترض بقاء هذه المواقف والرغبات
من الطفولة إلى حياة البلوغ . ففي هذه الحالة ؛ يمكن أن نقول إن الموقف الحالي العاجز
والقاصر للشخص هو أشبه بموقفه كطفل ، وأن موضع المحلل في هذا الموقف يشبه
أن يكون موقف الأب في موقف الطفل ، وأن التداوى الحر — بإثارة بعض ذكريات
الطفولة — قد أحيأ في الشخص بعض انفعاله الطفلي . وإذن فيمكن أن ننتمى إلى
أن موقف الشخص وحالته — لما كانا يشبهان موقفه وحالته حين كان طفلاً — فإنه
يستجيب للمحلل كما كان قد تعود حينئذ أن يستجيب لأبيه . ولن يكون ذلك
تحولاً بمعنى فرويد ، فليس ثمة تحول رغبة بعينها من شيء لآخر . وقد يكون تفسير
فرويد أحسن . ولكن النقطة هي أنه تفسير وأنه يقوم على افتراض أن رغبات الماضي
تستمر هي هي بعينها ، وأن الأشياء الجديدة التي تجدها من حين لآخر هي مجرد
أبدال تتحول إليها الرغبات . فما أتركه لحكمك إذن ؛ هو أولاً : أن التحول ليس
إحدى حقائق فرويد الأساسية ؛ بل أحد عمُد نظريته ، وثانياً أن عموده « هذا » قد
أقيم على افتراض ثبات المواقف والرغبات الخاصة .

افتراض فرويد للثنائية أو القطبية الفطرية في الفرد :

تحدثنا عن الثلاث الكلمات : « الطَّفَلِيَّةُ الجِنْسِيَّةُ المَكبُوتَةُ » وكأنها تُجسَّم
العُمَدُ الثلاثة لسيكولوجيا فرويد ، ووجدنا أن افتراض الدافع الكلي يدعم عمود
« الكبت » ، وافتراض الرغبات أو العقد الثابتة يدعم عمود « الطفولة » ؛ فهل ندع
لهذا الإغراء ونفتش عن شيء يكون أساساً لعمود « الجِنْسِيَّةُ » ؟ ربما كان ذلك
إسرافاً في التعلق بمذهب أو نظام . ولكن ثمة اقتراحاً بافتراض أساسي في عرض
الحياة الجِنْسِيَّةُ كما يراها فرويد . فهو ينظر إلى « مَصِّ الأَصْبَعِ » بحُبانة لونها من
ألوان التصريف الجِنْسِيُّ ؛ وكذلك طريقة الطفل في عَضِّ الأشياء وإدخالها في فمه ،
وكذلك اللدك أو الاحتكاك بالغير ، أو الضرب ، أو الرَبْت ؛ وحركات الدراعين
والساقين الإيقاعية التي يبدو أنها تُحدث لذة طفلية ، والتبرز والتبول ، والنظر إلى
الأشياء وإبرازها ، وتمزيق الأشياء إِرْباً والقذف بها ؛ وبالجملة أي نشاط يحدث

للطفل لذة حسية ونفسية . وفي مستوى أعلى يضع تحت التصريف الجنسي كل سلوك وصدقة وُدَيَّين ، وكذلك حُبَّ الفن والموسيقى . فأى شيء نقول - بصفة عامة - إننا نُحِبُّه أو نُحِبُّ أن نفعله ؛ واقعٌ تحت الدافع الجنسي . قد تقول : حسناً ؛ ذلك هو مجرد استعماله للكلمات ، فهو يستخدم كلمة جنسية بوصفها مرادفاً للحب بمعناه الأوسع . إلا أننا يجب أن نلاحظ - من ناحية أخرى - أن فرويد يعترض بقوة على أية محاولة لتجريد الشهوة أو الغريزة عنده من الجنسية . وهو يصر على أن الود أو المحبة affection جنسية خالصة ، وأن مص الطفل لإصبعه متأصل ؛ وإن كان لذة جنسية أولية . وهو يؤكد أن تصوُّره للجنسية دقيق بقدر ما هو واسع . ويبدو أنه لا يجد هنا أى تناقض . فما يؤخذ على أنه واضح وبيِّن بنفسه هكذا يمكن جيداً أن يُغطَّى فرضاً خفياً .

ومن الممكن تماماً أن يكون هذا الفرض الخفي هو فرض ازدواج أو قطبية في الحياة العقلية . ففي كثير من نظرياته ينجذب فرويد نحو تقسيم ثنائى . وأكثر أرواحه his dichotomy شيوعاً هو زوج الشعور واللاشعور ، والحق أنه يتحدث أيضاً عن ما قبل الشعور preconscious ، ولكن « ما قبل الشعور » يتصل عن كُتُب بالشعور . فهو ما يمكن تَهَيِّئته لِأَن يكون شعوراً ؛ وإن لم يكن بالفعل شعوراً في أية لحظة معينة . وليس ما قبل الشعور نقطة مُتَصِفِ الطريق في مقياس دائم يمتد من الشعور الأكثر إلى الشعور الأقل ، أو من أكثر إلى أقل ما يمكن أن يُوَصَلَ إليه في استرجاع الشعور . فاللاشعور هو ما قد كَبِت ، وما قبل الشعور لم يُكَبِت شأنه شأن ما هو الآن شعور . فأخذ ما قبل الشعور على أنه مجرد مرحلة وسطى بين الشعور الأكثر واللاشعور الأكثر معناه قلب فكرة فرويد بأسرها عن اللاشعور . فما يرى هنا هو استقطاب polarity وليس استمراراً continuum . ولكن ما علاقة القطبية بفكرة فرويد الواسعة الدقيقة العجيبة عن الجنسية ؟ يبدو لى أن من الممكن جداً أن فرويد - عندما واجه سلوك الطفل وشعوره بفرضه الأساسى في القطبية - كان حَظَّ التقسيم الذى صدمه هو خط بين ما يُفَعَل تلقائياً وبلذة مباشرة « من ناحية » وبين ما يُفَعَل ضرورةً وكوسيلة لغاية ، من الناحية الأخرى . وكل ما كان يُفَعَل بلذة قد تَبَيَّن له في جملته ؛ في جملته الحقيقية ، وليس كمجرد تصنيف مُرضٍ . فالشعور والنشاط الجنسيان للبالغ - إذ يبدو أنهما أوضح وأكمل مظهر للميل إلى الحب واللذة - هما الاسم الصحيح « لهذا » الميل كله .

فصَّ الطفل إصبعه إذن ليس مجرد أنه يُشبه النشاط الجنسي بمعنى غامض وسطحي؛ بل هو نشاط جنسى حقيقى من نوع غير ناضج. ومن الجلي أنه يخالف فروص فرويد الأساسية تماماً أن تتصور السلوك الإنسانى وكأنه كثرة مختلطة من أنواع من النشاط مختلفة، أو كأنه استمرار فى درجات نشاط واحد.

وقد يقوم الاعتراض على أن فرويد لم يُقدم أولاً اسماً أو تعريفاً للقطب المقابل للجنس. فى كتابه الأول - وإن تكلم كثيراً عن الكبت والمقاومة والرقابة والصراع والمهادنة؛ وكل منها تشمل قوة معارضة تكبت الشهوة - فإنه وجه قليلا من العناية لهذه القوة المقاتلة وقد تكلم أحياناً عن الأنا أو عن الميل إلى الأنا ego-tendency؛ فصَّح فجأة أنه يعرف عنه القليل. وكان على يقين من أن القليل هو الذى يمكن أن يعلم عنه حتى يأتى الوقت الذى يمكن فيه للتحليل النفسى أن يُحلل ويعالج اضطرابات الأنا. وهذه الاضطرابات - فيما حَسِب - إنما توجد بوفرة فى الجنون insanity، إلا أن المرضى بالجنون قد أثبتوا حتى حينئذ أنهم ليسوا موضوعات صالحة للتحليل؛ فكان على الأنا إذن أن يظل - مؤقتاً - أكثر بقليل من مجرد اسم للميل المقابل للشهوة.

وأياماً ما كان الأمر؛ فقد تكلم عن قطبية مبدأ اللذة ومبدأ الحقيقة. فالإنسان يتبع بالفطرة مبدأ اللذة. وهو ينشد اللذة المباشرة والتصريف المباشر الصحيح لرغباته. إلا أنه يجد نفسه فى مجابهة حقائق الطبيعة الخارجية وبيئته الاجتماعية؛ التى تعترض رغباته بشدة. فيتعود أن يتجنب اللذات التى تأتى بآلام أكثر، وأن يؤجل تصريف الرغبات فى سبيل تصريف أكل وأبعد. فهو فى أحلامه اليومية وفى اللاشعور يتبع مبدأ اللذة، ولكن حياته الواعية المنظمة خاضعة لمبدأ الحقيقة. وهذه الثنائية هى أولاً بين الفرد والبيئة المحيطة، إلا أن الفرد ينقل فى نفسه شيئاً من البيئة كما هى؛ وبذا يكون له فى داخله قوة أو عامل لتعويق دافع اللذة. إلا أن مبدأ الحقيقة - لوجوده فى داخل الفرد - هو فى خدمة الشهوة أولى منه حاشاً أولياً مضاداً - primal counter urge. وبالتالي فهو لم يصادف تماماً حاجة فرويد إلى قطبية رئيسية فى الفرد.

وحينئذ فإن قطبية الأنا والليدولم تكن تقوم بنفسها جيداً. فقد وجد أشخاص كانوا فى حب مع أنفسهم، وهذا الشذوذ للحياة الجنسية قد سُمى التركسية narcissism نسبة إلى الشاب الخرافى نركيسوس Narcissus الذى وقع فى حب صورته فى الغدير بل لقد بدأ أن ثمة نركسية أولية فى الطفل الصغير، تحدث قبل أن يستطيع بوضوح

أن يعرف الأشخاص والأشياء الخارجية كموضوعات لحبه وبمصدر لذاته . وعلى أى حال فإن الطفل عندما يصدّه أحد موضوعات حبه ؛ فإنه يميل إلى أن يرتد على نفسه ويوثق بين لذته والأنا الخاص به ، فإذا أمكن بهذا أن يكون الأنا موضوع حب ؛ فإنه يجب أن يتعلق فى جزء منه بمحيط الشهوة . وغرائز المحافظة على الذات - مفهومة أولاً على أنها فى مقابل الشهوة - يجب أخيراً أن توضع إلى جانبها ؛ ما دام يحاولان الإبقاء على موضوع الحب هذا الهام . قد يحتوى الأنا ميولاً أخرى لا توضع إلى جانب الشهوة ، إلا أن من الواضح أنه لا يمكن أن يُعد بعد كائناً أو ميلاً متماسكاً فى مقابل الشهوة .

وبتوسيعه على هذا النحو - بإدخال غرائز المحافظة على الذات - فإن الشهوة أو الدافع الجنسى قد سُمى أيضاً إيروس Eros أو دافع الحياة . وتبقى مسألة ما إذا كان يشمل الآن كلّ الدوافع أياً كانت ، أو ما إذا كان يمكن أن تُكتشف قطبية بينه وبين شىء آخر غيره . وقد أدت حقائق غامضة أخرى غير هذه بفرويد أن يُصاير على « غريزة الموت » باعتبارها القطب المقابل . ومن أمثلة هذه الحقيقة الميل إلى الانتحار الموجود فى بعض الأشخاص . وأخرى « حقيقة » تحمّل اسم « العادية sadism » . ترجع فى أصلها إلى الشذوذ الجنسى الذى يقوم فى ربط الفعل الجنسى باضطهاد الشخص المحبوب . وقد توسعت الكلمة على يد فرويد لتشمل كل مظاهر القسوة والهدم (التحطيم) . ثم تأثر فرويد أكثر بنغمة الكون والفساد فى كل الكائنات والأنسجة الحية ؛ ما عدا - فى الواقع - خلايا الجراثيم « الباقية بالقوة » potentially immortal التى تتعلق - مع هذا - بالإيروس . وعلاوة على هذا فإن فرويد - كقائل بالدوافع - لم يستطع أن يرى حقيقة أن الموت هو نهاية الحياة بمعنى أن الموت هدف لحائن فى داخل الفرد . وإطالة الراحة أو الرفقانا كانت تعبيراً عن غريزة الموت . والتحطيم والقسوة هما نفس الغريزة موجهة نحو أشخاص أو أشياء أخرى . وهكذا - بعد تجوال طويل ، وبمعاونة ما يُعرف أنه تفكير نظرى - انتهى فرويد أخيراً إلى قطبية مُرضية وجوهرية . وهو لا يقصد أن هذه القطبية النهائية سوف تُستبدل بكل القطبيات الأقل التى استخدمها فى تفسير الشواهد المحسوسة من السلوك الإنسانى . فتعارض الأنا واللذة ما يزال قائماً فى مجاله الخاص .

وجمل متفرقة قليلة من كتب فرويد الأخيرة يمكن أن تؤيد وتوضح ما أحاول أن أُخبرك به :

« وفي هذه النقطة تسنح فرصة إعادة النظر في التقدم التدريجي لنظريتنا في الليبدو ، فإن تحليل أمراض التحول العُصابية قد فرض علينا أن نلاحظ — في المقام الأول — التعارض بين « الغرائز الجنسية » التي تُوجّه نحو موضوع ما ؛ وغرائز أخرى تبيّناها تبيّناً ناقصاً ، ووصفناها مؤقتاً بأنها « غرائز الأنا ». ومن بين هذه الأخيرة ادعت هذه « الغرائز » التي تُعين على بقاء الذات في الفرد أنها أول ما عُرف ...

« وفي مجرى تقدّم أكثر تحرراً تبيّن — بملاحظة التحليل النفسى — كيف يرتد الليبدو بنظام عن الموضوع ويتجه إلى الأنا. فقد أخذ الأنا مكانه كأحد الموضوعات الجنسية، وعُرف مباشرة بأنه الأفضل من بينها ... ومن هنا أصبح التعارض الأصلي بين غرائز الأنا والغرائز الجنسية غير كافٍ ؛ فإن جزءاً من غرائز الأنا قد عُرف على أنه ليبدي (شهووى) .

« ونحن نغامر بالخطوة الأبعد في معرفة الغريزة الجنسية على أنها الشهوة (الإيروس) التي يقوم عليها كل شيء ... وموقفنا كان مؤقتاً مثنوياً منذ البدء، وهو اليوم أكثر حدة منه فيما قبل — مادامنا لم نعد نسمّى بعد كل هذه الميول المتعارضة غرائز ذاتية وجنسية ، بل غرائز حياة وغرائز موت * .

« وفي كتابات سنواتي الأخيرة ... قد أسلمت عِنائي إلى الميل إلى الفكر النظرى الذى احتفظتُ به طويلاً ... وقد ربطتُ غرائز المحافظة على البقاء وغرائز المحافظة على النوع تحت فكرة الليبدو ، وجعلتُ في مقابلها غريزةً للموت أو الفساد تعمل في صمت ... والصورة التي تُقدمها لنا الحياة هي نتيجة عمل الشهوة eros وغريزة الموت معاً وضدّ بعضهما البعض + .

« وأبعد فأبعد؛ نجد يتعقب الدوافع الغريزية أنها تُظهر نفسها وكأنها مُشتقات من الشهوة. فإذا لم تكن ... بسبب المكونات العصادية التي ألصقت نفسها بالشهوة ؛ فسوف نجد صعوبة في أن نبقي على وجهة نظرنا الثنائية الرئيسية . ولكن مادامنا لانستطيع الخلاص من وجهة النظر هذه ؛ فإننا مضطرون إلى أن ننتهي إلى أن غرائز الموت هي بطبيعتها صامتة ، وأن صحّح الحياة ينشأ في مُعظمه من الشهوة ومن الصراع ضد الشهوة × » .

* ز . فرويد : ما وراء مبدأ اللذة (١٩٢٠) ص ٦٤ — ٦٧ .

+ ز . فرويد : The Problem of Lay Analysis (١٩٢٧) ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

× ز . فرويد : الأنا والهو The Ego and the Id مطبعة هوجارت (١٩٢٧) ص ٦٦ .

آراء فرويد الأولى وآراؤه الأخيرة فى اللاشعور .

وبمثل هذه الطريقة اضطر فرويد إلى مراجعة قطبية الشعور واللاشعور . وقد بدا بوضوح أول الأمر أن الأنا هو الشعور ؛ وأن الجانب الشعورى من الحياة هو الذى يَكْبِتُ الرغبات التى لا يقبلها الأنا ويجعلها لاشعوراً بالمقاومة . إلا أنه وجد أن المرضى الذين يجرى عليهم التحليل غير شاعرين بمقاوماتهم هم . فمن الناحية الشعورية ؛ لم يكونوا يقاومون فى شىء التذکرَ الحُرَّ لخبراتهم الماضية ، فكانت المقاومة إذن لاشعورية ، وكان الكَبْتُ الأصيل من غير شك كذلك . وعلى هذا فإن الأنا — فى قيامه بالكَبْتِ والمقاومة — كان يَعْمَلُ بطريقة لاشعورية . والأنا إذن هو فى جزء منه شعور ، وفى جُزءٍ لاشعور . فى الجانب الشعورى ؛ هو على صلة بالبيئة التى يدركها بالحواس ، ويتناولها باستخدام العضلات . فألم الشعور ولذته تُبَيِّنَانِ أنه هو أيضاً على صلة بداخل الكائن العضوى والنفس ؛ مع أن هذا الداخل هو لاشعورى إلى حد كبير . والداخل اللاشعورى للنفس يتكون ديناميكياً من الغرائز ومن رغبات وخبرات مُضطربة قد كَبَتَناها . والتعارض هنا هو بين ما يمكن أن نسميه ظاهر النفس فى صِلَتِهِ بالبيئة ؛ وبين الداخل الذى لاصلة له مباشرة بالبيئة . وهذا الداخل يسميه فرويد الآن « هو » أو Id . والأنا هو فى صلة بالبيئة ، إلا أنه قد نشأ عن الهُوِّ ويظل متصلاً به هناك ؛ أعنى طالما كان الأنا لاشعورياً . ويشمل الهُوُّ القوى الغريزية الدافعة فى وجود الفرد ، « أى » كلا غرائز الحياة وغرائز الموت التى تأخذ صورة رغبات جزئية فى صراعها مع البيئة ؛ وبهذا تؤثر فى الحياة الشعورية . وعندما تُكَبِتُ هذه الرغبات الجزئية بواسطة الأنا ؛ فإنها ترتد إلى الهُوِّ ، « فيحاول الأنا أن يتوسط بين العالم والهُوِّ لكي يجعل الهُوِّ فى اتفاق مع رغبات العالم ، وأن يكيف العالم عن طريق النشاط العضلى برغبات الهُوِّ + » . ويجاهد الأنا مجاهدة عمياء فى سبيل الإشباع وفقاً لمبدأ اللذة ؛ إلا أن عليه أن يعمل خلال الأنا الذى قد عَرَفَ مبدأ الحقيقة . والأنا يكون أولاً ضعيفاً وناشئاً نشوئاً بسيطاً فقط ، وبالتالي فهو يقابل صعوبات كثيرة فى تنفيذ إرادات الهُوِّ . فهو يسعى وراء أشياء كثيرة تُنكرها البيئة . فعندما يكون على الأنا أن يتخلى عن موضوع حب ؛ فهو يحتفظ بصورة لهذا الشىء ، وهو يُقَرِّبُ الصورة من

قلبه مُوحداً بين نفسه وبين الشيء . وهكذا ينمو الأنا باصطناع خاصة الأشياء التي كان عليه أن يطرِّحها . فإذا تقدم الأنا بنجاح ، أصبح مُتوافقاً ومنظماً ومتكيفاً مع بيئته ، ويظل الهو بدائياً وغير منظم .

ومأساة الهو والأنا هذه تتعقد بشخص ثالث هو الأنا العلوي *super-ego* أو الأنا المثالي *ego-ideal* . ويرتبط الأنا العلوي ارتباطاً أولياً بما نسميه عادةً الضمير . والحلل النفسي مُضطرٌّ إلى إضافة هذا العامل إلى المُأساة « مدفوعاً » بأقصى معاني الجريمة التي يُظهرها كثيرٌ من مرضاه أثناء التحليل . ولأنا العلوي تصورات وموانع — « يجب أن » و « يجب ألا » فهو يحاول أن يفرضها على الأنا . وليست هذه تصورات نافعة مأخوذة من حقائق البيئة ، بل أوامر قَطيعية مأخوذة من العالم الداخلي ؛ من الهو ومناقضاته الداخلية ؛ بينما الأنا يجب أن يكون مفروضاً فيه أن ينمو إلى حد ما في كل الحيوانات عن طريق صراعها مع البيئة . والأنا العلوي خاص بالإنسان ، وينشأ نتيجة لهذا — عن طفولته الطويلة وعن التأخر الذي يجب أن تمر به شهوته *libido* قبل أن يستطيع الوصول إلى غرضه المعين في حياة البلوغ الجنسي . ومن المفروض أن يكون الأنا العلوي قد وُجدت أصوله في الإنسان البدائي ، وأن أصوله القديمة قد انتقلت إلى كل فرد بالوراثة . إلا أن الأنا العلوي ينشأ من جديد — في الأغلب — في كل طفل . هو ينشأ عن الدافع الجنسي المكبوت في الطفل الصغير . والجنسية في الطفل هي — عند فرويد — جنسية حقيقية إلى حد أنها تتطلب موضوعَ حُب من الجنس الآخر خصوصاً ، وهي تجد موضوعَ الحُب هذا في أحد الأبوين . ومن هنا تنشأ « عقدة أوديبوس *oedipus complex* » ، وهي أشهر أفكار فرويد . ويلزم أن تفهم قبل أن نُوغَلَ في توضيح أصل الأنا الأعلى .

فأوديبوس — البطل الأصم في الأساطير اليونانية ؛ كما سندكرون — قد نبذه أبوه ملك طيبة بشوكة في قدميه ؛ لأن الوحي قد تنبأ أن هذا الطفل سوف يقتل أباه ويتزوج من أمه . فأنقذه وتبناه ملكٌ من ملوك الدول المجاورة . فنشأ حتى الرجولة في جهل بأبوته الحقيقية وبحظه المقدَّر له . وفي ذات مرة عندما كان يزور الوحي علم أنه سوف يقتل أباه ويتزوج من أمه . ولكي يتجنب هذه المصيبة ظل بعيداً عن بيت مُتبنَّيه . ولكنه التقى في جَولانه بأبيه الحقيقي ، فتشاجر معه وقتله . واستمر في طريقه ، فوصل طيبة حيث حل مشكلة الإنسان الغامض *Sphinx* فحرر طيبة من محنة طويلة ، ونوَّدي به ملكاً ، وأعطى الملكة الأرملة ليتزوج بها . وبعد سنوات

— بعد أن وُلِدَ لهذا الزوج الآثم البريء أربعة أطفال — تكشفت له الحقيقة . وقضى أوديبوس المسكين — في يأس — على عينيه ، وعاش بعد ذلك في شقاء متصل .

ومن هذه الأسطورة أخذ فرويد مجرد الفكرة فحسب . فإن أوديبوس — عن غير قصد منه — قد قَتَلَ أباه وتَزَوَّجَ من أمه ؛ مرتكباً جرماً قتل الأب والزنى بالأُم معاً — اللذين هما لشدة هولهما يجب أن يكونا مرغوباً فيهما من الجميع . ونظر فرويد إلى الأسطورة على أنها تمثل عقدة يحملها كل إنسان ، تنشأ في حُبِّ الولد لأمه والحقد على أبيه في حُبِّ أمه . فشهوة الطفل الذكر التي تلصق نفسها بالأُم تجد ما يقوّيها لحظةً ، ولكن بالفِطام أو بإمكان مَوْلِدِ طفلٍ آخر ، أو بالعقاب والتهذيب ، فإن دور حبه الحقيقي الأول لا يصبح مُبَسَّراً تماماً . وفي هذه الأثناء يكون الطفل قد ارتبط بأبيه أيضاً كأنموذج أو مثل أعلى له يُقلده في كل شيء . فهو قد وَّحد بين نفسه وأبيه . إلا أنه يكشف ؛ لسوء حظّه ؛ أنه لا يستطيع أو لا يجب أن يفعل كما يفعل أبوه ، ولا يستطيع ولا يجب خصوصاً أن يُحِبَّ أمه كما يُحِبُّ أبوه فهو يجد في أبيه منافساً دَخِيلاً ، ويريدُه ألا يكون في طريقه نهائياً . فيصبح مثله المعبود أيضاً منافسه المكروه كما أنكره موضوع حبه المختار . فيضطرم صراعٌ خطير في نفسه ، ويصل غايته — كما يرى فرويد — حول السنة الرابعة أو الخامسة ؛ عندما تكون شهوة الطفل قد أصبحت مُركزة في أعضاء التناسل بعد أن تمر بدور الإشباع القمّي والأسنى . وهو الآن يواجه معارضةً حادة من كِلا أبويه تحول دون تقدّم أبعده في حياة حبه ؛ فكل المحاولات المتعلقة بالشهوة يُقابلها تهديداتٌ وحشية قليلة أو كثيراً للفرد الخاطئ . فلم يعد له شيء إلا أن يُدَعِنَ ويكبت . وهذا العمل الجريء إنما يفعله باتخاذ مثله الأعلى في نفسه . فهو يحمل تشخيصه بأبيه إلى حد أن يجعل في شخصه كِلا الفكرة الإيجابية « إنك ستكون مثل والدك » ، والنواهي « يجب ألا تقتل أباك أو تطمع في زوجته » ؛ وهذه القوانين التي يتخذها الولد هي محور الأنا الأعلى له .

تلك هي عقدة أوديبوس البسيطة وطريقة كبتها . إلا أن المسألة عادةً تتعدّد بازدياد الجنسية في الطفل ولداً كان أو بنتاً . فشهوة الولد قد تذهب إلى الأب كما إلى الأم ، وتكون الأم — إلى حد ما — المثال المكتشف أخيراً ليكون منافساً ، والمتخذ في النهاية بالتمسُّص في الذات ، والمعطى دوراً يؤديه في الأنا الأعلى . وربما كان تتمسُّص الولد لأمّه أكثر ؛ حتى ليأخذ خلقه طابعاً نساءياً . ونفس المسألة بكل تعقيداتها تقوم بأبدال مناسبة عند الفتاة ؛ وإن كانت قابلة لأن

تكون أقل تعقيداً وأسى . وبالتغلب الموفق على عقدة أوديپوس — في حوالى السنة الخامسة — يتوقف نمو الطفل الجنسي حتى المراهقة . وكَوْن الطفل سيواجه بنجاح رغبات الحب الناضج وظروفه ؛ فذلك يعتمد إلى حد كبير على تكيفه في طفولته بنجاح مع موقف أوديپوس .

ولئن كانت قصة أوديپوس عند الطفل تبدو خرافية كالأسطورة اليونانية القديمة ؛ فإنه ليمكن أن نَعُدّها صورة أو تخطيطاً لمصاعب الفرد في الحياة . وهي لا يمكن أن تُلَاحَظ مباشرة في الطفل ، وإن كان السلوك الذى يمكن أن يوضع في هذا التخطيط ملحوظا . ولفكرة أوديپوس عند المحلل النفسى قيمة عملية ؛ لأن قبول هذه الفكرة — في أغلب ما أظن — تساعد المريض بمرض عصابى على التغلب على المقاومات وعلى أن ينظر إلى نواحي صراعه نظرة هادئة . فإذا كان الصراع يمكن أن يُقدّم على أنه صراع يرجع إلى الطفولة ؛ فإن المريض يمكن أن يقترّب منه أكثر موضوعية ، ويعترف فرويد نفسه في كتبه الأخيرة أن الصورة الحقيقية أكثر غموضاً مما يُصوّرُها التخطيط . فهو يكتب * :

لدى المرء فكرة أن عقدة أوديپوس البسيطة هي أعم صورها ؛ إلا أنها بالأحرى تقدّم تبسيطاً أو تخطيطاً يكتفى بحق غالباً للأغراض العملية ... فليس للولد مجرد اتجاه تكافؤ الضد ambivalent نحو أبيه وموضوع علاقه عاطفية affectionate object-relation نحو أمه ؛ إلا أنه في نفس الوقت يسلك أيضاً كفتاة ، ويتخذ ميلاً نسوياً عاطفياً نحو أبيه ؛ وبالتالي عداوة وحقداً نحو أمه . وهذا العنصر المعقد الذى يأتى به ازدواج الناحية الجنسية هو الذى يجعل من الصعب أن نحصل على فكرة واضحة عن الحقائق ، ... بل إن من الممكن أن هذا التكافؤ ambivalence القائم في العلاقات مع الأبوين ينبغى أن يعزى بأسره إلى الثنائية في الجنس bisex ، وأنه ليس ... ينشأ عن تَمَمُّص identification هو نتيجة للتنافس rivalry .

والآن فإذا كان تنافس الولد مع أبيه يمكن أن نسقطه من القصة ، فإن وضوحها الدرامى يزول . ولو أن « ازدواج الجنس » قد فهم على أساس من فكرة « واسعة » كهذه للجنس ؛ فإنه يصير إلى استجابة عاطفية لأشخاص من كلا

* ز. فرويد : الأنا والهو (١٩٢٧) صص ٤٢ — ٤٣ .

الجنسين . وميل الطفل التكافؤى ambivalent (إيجابياً كان أو سلبياً ؛ بالحُب أو بالكراهة) نحو كلا أبويه يمكن إذن أن يكون نتيجة أن الطفل يُعامل لا برفق « دائماً » ؛ بل كذلك بشدة أحياناً . وقوى الهُو العمياء سوف لا يلزم أن نُدخلها . والقصة كلها - بينا تبدو صحيحة - قلماً تدخل في سيكولوجيا الأعماق

تلخيص وتقدير :

الدافع الكلى ، وثبات الرغبات الخاصة ، والثنائية أو القطبية ؛ تلك هي الفروض الخفية التي لمناها في استعراض الخطوط الواسعة لسيكولوجيا فرويد . ولو أنك سمحت لي بالتعبير عن الفرض الثاني في ألفاظ أكثر تعميمياً ؛ فإنه يمكننا أن نتكلم عن الرغبات الخاصة وكأنها كائنات ، ونذكر أنفسنا في نفس الوقت بالكائنات الأخرى العديدة التي تلعب دوراً في سيكولوجيا فرويد . فالهُو ، والأنا ، والأنا الأعلى ، والشهوة eros ، وغريزة الموت ؛ هي كائنات اصطليح عليها نهائياً . وخلال هذه توجد كائنات كالليبدو والرقيب . فالرغبة الخاصة المكبوتة والتي مع هذا وبرغم تحولها إلى شيء « آخر » جديد تظل هي هي بعينها ، لها خاصة الكائن . وعندما يفترض فرويد أن كل سلوك فهو مدفوع أو محقق لرغبة ؛ فهو يفترض أيضاً أن الدافع ينشأ من كائنات في داخل الفرد ؛ كائنات ترغب ولها غايات ، وقوى رغبة . وإذن فبينما يمكن تلخيص بناء مذهبه السيكولوجي في الكلمات « الطفولة الجنسية المكبوتة » ؛ فإنه يمكن أن نقترح أساساً : « الكائنات الراجية المستقطبة polarized wishful entities » .

وإذا كنا قد أنصفنا سيكولوجيا فرويد بتركيز انتباهنا - كما رأيت - في المسالك العليا لنظريته بما هي عليه من جاذبية ؛ فإنه تبقى مسألة : فمن الممكن حقاً أن فرويد الأبلغ دلالة هو فرويد في صلة أدنى بالوقائع ؛ فرويد الذي يثبتاته في دراسة الحياة الجنسية قد فعل كل ذلك لكي يفتح باباً للنظر العقلي إلى المشاكل الشخصية ؛ فرويد الذي اصطنعت مناهج تحليله بصورة مُعدلة كثيراً أو قليلاً عيادات إرشاد الطفل والمكاتب الأخرى التي تحاول أن تُهيئ التكيف الحسن بالحياة وأن تستأصل الأمراض العصبية . ف « آليات فرويد العقلية » . أو « آليات الدفاع defense mechanisms » *

* انظر هيل W. Healy وبرونر A.F. Bronner وباروز A.M. Bowers: تركيب التحليل النفسي ومعناه The Structure and Meaning of Psychoanalysis عند Judge Baker Foundation

أو كما تسمى بالأحرى « دِينَامِيَّات » dynamisms حيث أنه لا يوجد فيها شيء آلى (ميكانيكى) — هى أفكار مفيدة فى علم نفس الشخصية . فإخفاء الرغبة بالخوف هو « ديناميكية » ، و « ديناميكا » أخرى هى وضع الرغبة التى هى غير مقبولة فى صورة عقلية . وربما كان أحسن ما عرف هو « الإعلاء » والعتور على مخرج اجتماعى مقبول للرغبة التى لا يمكن أن يتهياً لها تعبير مباشر . والحق أنه كيف ومتى وإلى أى حد يمكن أن يتم الإعلاء يظل « موضع » تساؤل . ولكن « هنا » كما فى أمثلة أخرى ؛ تفيد أفكار فرويد — أقل ما تفيد — فى الإشارة إلى حقائق معينة ؛ منظوراً إليها من أعلى عادةً ؛ وفى إثارة ملاحظة أبعد . وقد حاول التحليل النفسى ، كالسلوكية بل أكثر من السلوكية ، أن يمتد بتأثيره فى ميدان المشاكل الاجتماعية ، واتخذ صورة الحركة الاجتماعية ؛ بل ما يشبه العقيدة الدينية .

إلا أنه — لكى نُقدّر كل أهمية فرويد فى التقدم العلمى والطبى لوقتنا الحاضر — يجب أن نذكر أن جُلَّ مجهوداته الخطيرة قد كانت موجهة على طول الخط لفهم الأمراض العصبية وعلاجها . وأفتراض أن من المتفق عليه أن ما أتى به فى هذا — فى ميدانه المختار — قد كان قوياً وراسخاً ، لقد أحدث ثورة فى الموضوع بإظهار أن المرض العصبى لا يرجع بصفة أساسية إلى صدمة انفعالية أو إصابة من خارج ، بل إلى محاولات المريض السيئة أن يصل إلى شيء من التوفيق بين رغباته هو وظروف حياته ، وأكثر من هذا أن المريض العصبى يجب أن يستبدل بنفسه بتكيفه هذا الهزيل تكيفاً أحسن ؛ بينما يعين الطبيب عن طريق الوسيلة ذات الشكل الغريب فى معظمها — التى يتخذها العصاب تحت تأثير الطبيب — وأغنى بها عصاب التحول .

فرويد لا يسمح لنا أن ننظر بالفرد أنه خاضع كالعجينة putty « لنواحي الضغط من البيئة المحيطة » ، أو على أنه « مشروط » لأى موقف اجتماعى يتأهب كامل . فطالب المجتمع تعوق المطالب المضادة التى للفرد ، ومن هنا ينشأ التعارض والحاجة إلى التكيف وصعوبته . فيقدر ما تظهر تكيفات خاطئة ذات خطر أكبر أو أقل فى كل منا ، وبقدر ما يمكن أن يكون ما اكتشفه فرويد خاصاً بالأمراض العصبية الأكثر خطراً صالحاً للتكيفات الخاطئة الأخف أيضاً ؛ فإن ما ساهم به فى سيكولوجيا الشخصية واضح أنه عظيم جداً .

ولو بحثت عن رأبى الشخصى فى سيكولوجيا فرويد ؛ لكان على أن أقول

إننى لا أومن بأن يكون مذهبه صحيحاً بأى معنى مُطلق، ولأنه يُوضع فى مصاف النظريات العلمية الكبرى التى تربط المعرفة الراهنة، وتقوم دليلاً إلى كشف أبعاد، فإنها بكائناتها وثنائيتها تبدو متمخلفة أكثر منها ناظرة إلى الأمام. أما نظريات فرويد الأكثر تحديداً فتقوم على أساس مُغاير، وهى تبشر بإثارة البحث؛ وإن كان من الممكن - بطبيعة الحال - أن يودى إلى أطراحها هذا البحث الذى تثيره. فعظمة فرويد الحقيقية يبدو أنها لا تقوم فى الصنغ التى ألقى فيها بتفكيره. ولا فى التفكير نفسه أو فى جِدّة تناوله؛ وإنما تقوم بالأحرى فى تأثيره كرائد لا فى نتائجه التى انتهى أخيراً إليها.

تعديلات التحليل النفسى : علم النفس الفردى لألفرد أدلر :

كان ذلك حول سنة ١٩١٢؛ نحو عشر سنوات بعد أن بدأ التحليل النفسى يطوف بالعالم ويحتذب الأتباع؛ حين ظهرت الصدوع فى داخل الجماعة التى تجمعت حول فرويد. قد يكون من الكثير جداً أن نتوقع من هؤلاء الشبان النشطين - مهما كان تحمسهم للمكتشفات الجريئة التى جاء بها فرويد - أن يظلوا حيث وضعهم هو. فإن فلهم اشتيكل Wilhem Stekel وفريتس قتلز Fritz Wittels العضوين البارزين بجماعة فرويد فى قينا - قد خرجا منها بسبب ما يبدو أن يكون خلافاتٍ جزئية فى المنهج أو النظريات، كما انفصل أدلر ويونج - أو فصلاً - عن فرويد؛ لأنهما كانا يُعلمان سيكولوجيا أخرى مُغايرة لسيكولوجياه.

فألفرد أدلر فى قينا (ولد سنة ١٨٧٠) (٩) قد انضم منذ حادثته إلى دائرة فرويد، وربما كان له أثر كبير على أفكار فرويد الأولى فى الأنا. إلا أنه منذ ١٩١٢ ظهر جلياً أن تشبته بالأنا - فى مُقابل اللبدو - لن يؤهله للتبعية الوثيقة لفرويد. وبهذا أنشأ هو مدرسة مُناهضة أسماها «علم النفس الفردى». ويبدو أن أدلر قد اقتنع منذ البدء أن فرويد يؤكد الجنس أكثر مما ينبغى. ومع أن أدلر يعرف شيوعاً مشاكل الجنس فى الأمراض العصابية؛ فإنه ظن أنه رأى شيئاً أكثر جوهرية.

لقد بدا له أن الحقيقة الرئيسية فى الأمراض العصابية إنما هى الشعور بالنقص (الدونية) inferiority. قد يكون ثمة نقص حقيقى من نوع جسمى، إلا أنه يوجد على أى حال الشعور بالنقص. ومثل هذا الشعور لا يمكن أن يُقاسيه أحد، لسبب بسيط: هو أن لكل فرد إرادة قوة، ونزوعاً إلى السيطرة والعلو، فإذا رأى

أحد فى نفسه شيئاً من دُونِيَّة أو نقص ؛ فإنه يندفع لِمَوْت أو لِيَجْعَلَ نفسه أعلى بأية طريقة ، أو لِيَدَعَى - على الأقل - لنفسه ولغيره أنه أعلى . وقد يستطيع بِحَق أن يَعْوِض عن نقصه بِجهدٍ مُجَدِّدٍ مُحَكَّمٍ التوجيه ؛ على نحو ما تَغْلِب ديموستينيس على لُكْنَتِهِ بالكلام على شاطئ البحر والأحجارُ فى فِيهِ ، حتى صار أعظم خطباء اليونان ؛ أو كما تَغْلِب روزفلت على ارتخائه الطبيعي بِحياة المراعى وأصبح « شبه فارس » ومغامراً . وغالباً ما يبدأ التعويض من نقطة النقص ؛ كما يستطيع الولد الضعيف العضلات أن يَجِد أنه يُمْكِنه أن يرتفع نَجْمُهُ فى المدرسة وَيَلْقَى فيها نَجَاحاً ، وكم من رجل يجعلنا نَجَاحُهُ فى الحياة نَظُنُّ به الفِخْر وتَمَام الاعتداد بالنفس ترتد عنه حين نَخْبِرُهُ عن كُتْب - إلى أنه يعانى أحساساً قوية بالنقص لم يتغلب عليها كلها . وبالجملة إذن ؛ فإن أدلر يعتبر أن دافع تقرير الذات - بدلا من الدافع الجنسي - هو القوة الإيجابية المسيطرة فى الحياة ، وأنه الدافع الأ أكثر تعرضاً لأن تعوقه البيئة وحساسية الفرد الخاصة ؛ وهو بهذا مصدر الفعل من ناحية ، وسوء التدبير والتكيف من ناحية أخرى .

فحيث رأى فرويد أن الأنا فى توافق تام مع مبدأ الواقع ، قال أدلر إنه يميل خصوصاً إلى تعريف الواقع ، فخيالات الفرد لا تتكون عنده فى أساسها من إشباعات خيالية للشهوة ؛ بل هى ببساطة - لأنها خيالية - وسائل للهروب من الشعور بالنقص . والفرد الضعيف من المحتمل أن يَخْتَرع « ترتيبات » لنفسه ، وأن يصطنع « أسلوباً للحياة » ونموذجاً للسلوك لِيُمْكِنَهُ أن يتجنب حاجات البيئة ، وأن يُحَرِّزَ نَجَاحاً فى تقديره لنفسه . ومثل هذا الفرد المريض الأعصاب يَضَع لنفسه « هدفاً خيالياً » لم يقصد به إلى غرض حقيقى . وكما يقول أدلر * :

إن مشكلة كل مرض عصبي هى - لدى كل مريض - صعوبة اتخاذ أسلوب للفعل والتفكير والإدراك يَقلِب حاجات الواقع وَيُنكِرُها ... فكما أثبتت عمل علماء النفس الفردى مراراً ؛ هدفُ التعالى الفردى هو العامل المحدد فى كل مرض عصبي . إلا أن الهدف ذاته ينشأ دائماً من ... خبرات النقص الحقيقية . « فلولم أكن بهذا القدر من القلق ، ولولم أكن بهذا القدر من المرض ؛ إذن لاستطعت أن أفعل

* آ . أدلر : مبادئ العصاب Principles of Neurosis - الناشر Cosmopolitan Book Corp

كما يفعل الآخرون . ولولم تكن حياتى حافلةً بالمصاعب الخطيرة ؛ لَكُنْتُ فى الطليعة . وبهذا الاتجاه ما يزال الشخص قادراً على أن يشعر بالعلو... فكل ما يشغله فى الحياة هو البحث عن المصاعب ... وهو يفعل ذلك ليؤثر فى نفسه أولاً من الغير . إلا أنه من الطبيعى أن الآخرين يعملون لأعبائه حساباً و ... هو يشق طريقه إلى حياة أرقى ؛ يحكمها معيار أخف مما للغير . وفى نفس الوقت هو يدفع تكاليفه بمرضه العصائى .

وأسلوب الحياة يصطنعه الطفل فى سنواته القليلة الأولى ، ويظل ثابتاً فى خطوطه الرئيسية . فلكل فرد إذن هدف من نوع خاص يميل نحوه فى كل موقف جديد ؛ وخصوصاً عندما يواجه مشكلات الحياة الكبرى الثلاث : مشكلة حياة الاجتماع والمجتمع ، ومشكلة المهنة ، ومشكلة الحب . فأسلوب الحياة ليس مفروضاً على الفرد بالوراثة ، بل يُحدده إلى حد كبير مركز الأسرة التى يجد الطفل نفسه فيها . وعلى هذا فإن أطفال الناجحين جداً من الرجال يُعطلهم فقدان الأمل فى بلوغ أى شىء يبلغ ما وصل إليه آباؤهم ؛ ويُحتمل أن يصطنعوا أسلوباً من الحياة لا يستدعى مجهودات جديدة ، والطفل الأبوين فقيرين جداً — ولكن مظهره جذاب — ربما اتخذ ميلاً إلى التسول يظل بعد فى كل نوع من مواقفه ، والطفل المدلل يتخذ هدفاً له أن يكون مركز الانتباه ، والطفل المنبوذ له هدف الهروب إلى مسافة آمنة ، والطفل الأكبر يميل إلى حفظ ما يملك ؛ أى يتخذ ميلاً إلى المحافظة ، والطفل الثانى هو منذ البداية فى الخلف من السباق ؛ وهو ينمى ميله إلى محاولة التغلب — ويمكن أن يكون هذا الاتجاه أيضاً للطفل الأصغر وإن كان هو بالأحرى يُحتمل أن ينمى ميل الطفل المدلل ، والطفل الوحيد الذى لم يلق قط تنافساً ؛ يفترض أن الغير سيخدمونه وأنه سيحكم . ولا يعنى أدلر أن مجرد الوضع فى ترتيب الميلاد يحدد أسلوب الطفل فى الحياة ؛ ولكن الطفل يولد خاصة فى موقف معين ، وبالتالي فإذا كان الأكبر أو أصغر ، واتجاهه فى الحياة ، وما يتوقعه من الحياة ... يُحتمل أن يشكّلها منذ البداية موقف التنافس التى تجد نفسها فيه . وبهذا فإن أدلر يؤكد « تأكيداً » لا يقل عن فرويد ولكن بطريقة مغايرة جداً — مركز الأسرة من حيث هو يكوّن الفرد . ولا ينكر أدلر أهمية الدافع الجنسى ، إلا أنه يعتقد أن ليس له هذه الأهمية الشاملة فى حياة الطفل التى علقها فرويد عليه . هو يجد مكانه فى تخطيط أو أسلوب

كلى للحياة يتركب فى الأصل من دافع حاضر أبداً نحو التعالى ، أو على الأقل ضد الدونية . وتحليل حياة الفرد ومشاكله الذى يُركّز كلَّ شيء حول دافع الجنس يُعطى صورة مقلوبة . « فالمقومات الجنسية لا يمكن أن نُقدِّرها حقَّ قدرها إلا فى علاقتها بأسلوب الفرد فى الحياة ... ونستطيع أن نحطى بالنفوذ إلى حياة الشهوة بكل منحرفاتها وحيثها وحدتها الخفية ؛ بقدر ما نستطيع أن نقف على أسلوب الفرد فحسب . »*
ومن بين المشاكل الكبرى الثلاث فى الحياة ، الحياة الجمعية ، والمهنة ، والحُب — المشكلة الاجتماعية هى التى يواجهها الطفل أولاً ، وتكيفه الاجتماعى « بها » كطفل هو النموذج الأول prototype لتناول المشكلتين الآخرين عندما تظهران ، فإذا كان ميل الطفل الاجتماعى ميلاً إلى الشجاعة والاثتناس بالآخرين ، متفائلاً فى أخذه وفى إعطائه ؛ فإنه يمكن بعد أن يترقى بالدافع الجنسى إلى هذا الأسلوب من الحياة وينجح فى الحب والزواج . أما إذا كان ميل الطفل الاجتماعى ميلاً إلى محاولة تتوق إلى سبق أقرانه ؛ فإن الجنس سوف يُستخدَم فيما بعد وسيلةً لهذا الغرض عينه .
وفى دراسة الفرد المريض وتحليله ؛ يكون العمل الرئيسى هو الكشف عن « أسلوب حياته » ، والهدف الغريب للتعالى الذى نصَّب نفسه له طفلاً ، وما يزال يتبعه فى صورة أو أخرى . ومركز الفرد فى أسرته يُعطى الأثر العام . فما يُحِبُّ وما يكره ، و« أبطاله » من التاريخ والحرافة ، وما يختاره أولاً ومن بعد مهنة فى حياته ؛ كل هذه تُعطى أثراً . وطريقته فى الوقوف ، والمشى ، والجلوس ؛ ربما أظهرت ميولاً جوهرية .
ومثل ذلك طريقته فى المصافحة ، بل والوضع الذى يتخذه أثناء النوم . « فعندما نرى شخصاً ينام على ظهره ؛ متمدداً كجندى فى الانتباه ؛ كان ذلك دليلاً على أنه يُريد أن يبدو عظيماً بقدر ما يستطيع . والذى يرقد منحنيًا كالفنجد (أو الدالنج hedgehog) والملاءة ملتفة على رأسه ؛ ليس من المحتمل أن يكون مناضلاً أو متصفاً بشجاعة ... والشخص الذى ينام على معدته (بطنه) يكشف عن العناد والسلبية + » فأسلوب الحياة يظهر فى كل موضع ، وإن كان المرء قد يتصور أن مثل هذه المماثلات اليسيرة ربما تؤدى بالمثل غالباً إلى الشطط . « فعالم النفس الفردى » فى العمل لاشك أنه يُقيم نتائج على نظرة شاملة لألوان كثيرة من السلوك . وعلى هذا فكون الطفل هو الأكبر ليس فى ذاته حقيقة خادعة . « فكل أسرة هى حالة فى

* أ. أدلر : معارك العصاب — ١٩٣٠ — ص ٩٣ .

+ أ. أدلر : نفس المرحح — ص ٢١٥ .

ذاتها ... وليس ثمة في مجموعة الأسرة وضع يكون ملائماً في كل الظروف ، أو وضع ... يجب أن يأتي ظهوره بتطور غير ملائم لا بد منه * .

وتحليل الأحلام يستخدمه أدلر غالباً بنفس طريقة فرويد ، إلا أنه لا يعتبر أن الحلم في جوهره تحقيق رغبات قديمة وهو يعتقد أنه يتصل بالمستقبل أولى منه بالماضى . هو نوع من إعادة فعل هام سوف يحدث سريعاً في الواقع . وأهميته عند عالم النفس هي في أنه يكشف عن أسلوب الفرد في الحياة كما يطبقه في الموقف الحرج القريب . فالرجل المتردد — على وشك الزواج — يحلم بإيقافه عند الحدود بين دولتين وتهديده بالسجن . والحلم يعالج مسائل لم تحل بعد في الحياة الواعية ، ويتجذب بالضرورة إلى اتجاه الفرد الرئيسى نحو هذه المسائل ؛ والاتجاه الذى اتخذ في الطفولة وظلَّ صفةً ثابتة فردية .

والفرد المريض يُعالج بالتأديء به برفق إلى أن يرى مُركَّب نقصه وطريقه الثابت لبلوغ التعالى ؛ حتى يرى بجلاء ماذا يحاول أن يفعل ، وما يحشاه ويتجنبه . فبينما أسلوب الفرد الرئيسى في الحياة لا يمكن أن يتغير بعد الطفولة الأولى ؛ فإنه يمكن أن يُوجَّه إلى صور عملية واجتماعية أكثر .

فسيكولوجيا أدلر — إذا نظرنا إليها كذهب أو نظرية — منسجمة بالتحقيق . ويبدو أن من البساطة جداً أن نُسَميها سيكولوجيا الأعماق . فاللاشعور يلعب دوراً صغيراً نسبياً ، وليس منظوراً إليه على أنه ينفصل عن الحياة الواعية . ويصبح بهذا أسلوب الحياة شيئاً مع الفرد بطبيعة الحال ، ولهذا قلما يفهم ؛ حتى كَرَبَّما سميناه لا شعوراً إلا أنه يصير شعوراً بنسبة ما يفهم . وحققتنا فرويد الأوليتان ، المقاومة والتحول ؛ يُولِجُهُمَا أيضاً أدلر ومدرسته في علاجهم للمصابين بأمراض عصبية ، ولكنهما تُفسَّران على نحو لا فرويدى . والمقاومة ترى — لا بوصفها ممانعة لاشعورية لظهور رغبات مكتوبة قديمة — بل كدفاع ضد العلاج ذاته : المريض يخشى أن يُشنى ، لأنه إذا شنى سيقوم بأعمال ربما فشَل فيها ! ومثل ذلك التحول : فإذا وقع المريض في حُب مع الطبيب ، فليس ذلك حباً حقيقياً ؛ بل مجرد وسيلة للتفوق عليه : وبوجه عام ؛ فالشعور واللاشعور ليسا كائنين منفصلين أو شِطرين متصارعين في الفرد ، ولكنهما يرتبطان معاً بما لهما من رغبات وميول يعينها . ومُركَّب النقص اللاشعورى

* فكسبرج E. Wexberg : علم النفس الفردى — ترجمة ولف W.B. Wolfe ، ١٩٢٩ ،

والشعور الباحثان عن القوة يُكوّنان وحدةً ديناميكية . فلسنا في حاجة إلى « كائنات متحاربة » نفترضها — على حدّ تعبير أدلر .

وإذا ذكرنا العبارة التي صُغنا فيها ما ظننا الوقوف عليه من فروض فرويد الثلاثة الرئيسية : « الكائنات الراغبة المستقطبة » ؛ فإننا نرى أن أدلر قد رفض اثنين من الثلاثة ، فهو يتقدم بغير كائنات ، وبدون أى استقطاب نهائى . هو ما يزال من القائلين بالدوافع ؛ وفي هذا يشبه فرويد ؛ ويأخذ كل الأخذ بمبدأ « العلية الفيزيقية » . والعلل الفيزيقية التي يكتشفها مختلفة عن علل فرويد ، ولكن الشعور بالتقص والهدف إلى التعالى هما بالتحقيق فكرتان سيكولوجيتان أولى منهما فيزيولوجيتين . وفرويد وأدلر — في إصرارهما على أن الطفولة هي مرحلة التكوين — متفقان ؛ رغم اختلافهما حول هذا الذي يحدث في الطفولة بهذه الأهمية في الحياة التالية ..

ومهما تكن سيكولوجيا أدلر صحيحة وكافية ؛ فقد تكون أو لا تكون بمعنى نهائى . هي تصوغ بالتأكيد حقائق كثيرة تقريباً ؛ مما يمكن تطبيقه مباشرة على الحياة . وقد نقول إن أفكاره أيسر من أفكار فرويد ، وأسهل في الفهم ، وأدنى إلى التطبيق . وقد أثبت لون أدلر من الدراسة قيمته خصوصاً في مساعدة الأطفال على ضبط مشاكلهم ؛ حتى إنه قد ظفر من قبل بمكانة ذات شأن في ميدان التربية .

« علم النفس التحليلي » ليونج :

تعرف ك . ج . يونج^(١٢) في زيورخ (ولد سنة ١٨٧٥) بفرويد شخصياً ؛ بعد سنوات عدة من الدراسة والعمل في التحليل النفسى . وفي سنوات قليلة ارتبط الرجلان ارتباطاً وثيقاً ؛ في المؤتمرات وعن طريق المراسلة . وقدّر فرويد إلى حد كبير هذا الشاب القدير الذي تبعه ؛ حتى جعله رئيساً للهيئة الدولية للتحليل النفسى التي أنشئت حديثاً ؛ ظناً منه — وعن خطأ من غير شك — أن استقبال العامة والعلم للحركة الجديدة قد يكون أنسب إذا ظل هو نفسه من خلفها . إلا أنه سرعان ما اتضح أن يونج يرى أن أفكار فرويد قيمة وثورية في الحقيقة ؛ ولكنها متحيزة وغير ناضجة بعض الشيء . وتقدم هوليسط نظرية أكثر كمالاً يسميها « علم النفس التحليلي » .

وتعلقت تعديلات يونج بالأمراض العصبية وبالشهوة . أما فيما يتصل بالأولى ؛ فإن فرويد ، يتتبعه نشأة العصاب في الشباب ، راجعاً إلى عقدة أوديبوس في الطفل

قد بينَ السببَ المهيَّيَّ predisposing causes ولكنه أقامَ قليلَ وزنٍ للسببِ المباشرِ exciting cause. والفرْدُ يمكنُ أن يحملَ معه في داخله عَقْدًا سيئةً مُتخلِّفةً عن تكيفات بائسة في طفولته ، ومع هذا لا يقع فريسة للعصاب حتى يواجه مشكلة عسيرة في الحياة . والسببِ المباشر « المثير » للعُصاب هو مَوْقفٌ ما يتطلب من الفرد تكيفاً جديداً . فهو يحاول أن يواجه هذا الموقفَ الجديد ؛ ولكن ليس لديه قوة كافية ؛ فيخفق في هذا التناسق الجديد ، فينزلق أو يرتد إلى عاداته الأولى في مواجهة المواقف الحرجة ؛ يرتد إلى الخط الذي اتخذه طفلاً في تنسيق نفسه ومركز الأسرة . قد يكون تنسيقه الطفلي هزيباً ، والرجوع إليه لا يفيد شيئاً — فهو كطفل ربما كان يحتّمى بأخيلته — والآن فهو يرتد إلى هذا النوع الخيالي في حل مشكلته ، وهذا الارتداد يبعده به عن مشكلته الحقيقية وحلها . فإذا تصادف أن حُلَّت المشكلة الراهنة نفسها ؛ فإن سلوكه الطفلي يخفى مباشرة . ومن هنا فإن مشكلة التكيف القائمة هي السبب الحقيقي للعصاب :

لنأخذ العقبة التي في مجرى الحياة ؛ فإن هذا البناء كله من الأخيلة الصبائية ينهار مرة واحدة ، ويصبح أيضاً غيرَ فاعلٍ أو مؤثر كما كان من قبل . ولكن لانسى أنه في عمله — إلى حد ما — يؤثر فينا دائماً وفي كل مكان ... من أجل هذا لا أجد بعدُ سببَ العصاب في الماضي ، بل في الحاضر . وأنا أسأل : ما هو العمل الضروري الذي لن يقوم به المريض ؟

وفي علاج الأمراض العصابية ؛ يتبع يونج ما اصطلاح عليه فرويد من التداعي الحر وتحليل الأحلام . فهو يبدأ عادة بدراسة مشكلة المريض الراهنة ، ويحاول أن يكشف عن عناصر الضعف في هجومه عليها . وأحلام المريض هو يفسرها — لا على أنها مجرد إظهار لرغبات جنسية قديمة مكبوتة ؛ كما في عقدة أوديبوس — بل على أنها تبين اتجاه اللاشعور في المريض نحو مشكلته الراهنة . وبالتحليل يصبح المريض شاعراً بهجومه الأول على المشكلة ؛ وبهذا يتمكن من إكمال اللاشعور بالاشعور . وهكذا يهيئ التحليل للمريض فهم حالته القائمة ؛ كما يهيئ له «فهم» ما ضى طفولته ،

* ك. ج. يونج : أوراق مجموعة عن علم النفس التحليلي Collected Papers on Analytical Psychol. ترجمها لونغ C.E. Long وبريري Brilliere وتندل Tindell وكوكس Cox الطبعة الثانية ١٩٢٠ ص ٢٢٢ والورقة الخاصة التي أخذ منها هذا الاقتباس يرجع تاريخها إلى ١٩١٣ .

ويُجيب فيه شخصيةً متكاملةً أحسن . وقد اعترض فرويد على هذا الميل الأخلاقي في عمل يونغ .

أما الشهوة (الليبدو) فإن يونغ قد أعطاها معنىً أوسع حتى من فرويد . ولكنه بهذا العمل قد أنكر أنها جنسية بشكل واضح . لقد حاول أن يجعلها أشمل للشهوة من فرويد ، ونُشدان التعالي وإرادة القوة من أدلر . ويونج الموفق المتوحد قد نظر إلى الشهوة الأولى على أنها حادثة عام ؛ تعادل إرادة الحياة عند شوپنهور ، أو الدفعة الحيوية élan vital عند برجسون . فهي الطاقة الحيوية الكلية الباحثة عن هدف النمو ، وكذلك النشاط والتناسل . ففي الطفل تُجد مُنصرفاً لها في نواحي النشاط الغذائية . ولذة الطفل بالحصول على الغذاء تنشأ من الشهوة ، ولكنها لا تُسمى بأى معنى لذة جنسية ؛ ما دام الدافع الجنسي لم يتمايز بنفسه بعد من الدافع الأولى للحياة . وقد عبر يونغ عن نفسه بقوة كافية من حيث فكرة فرويد عن الجنسية في الطفولة* :

إن التحليل الفرويدي الدقيق ... هو دائماً تحليل جنسى يقوم على القطع بأن العلاقة بين الأم والطفل هي بالضرورة جنسية . وسوف يؤكد لك أى فرويدي - بطبيعة الحال - أنه لا يعنى جنسية غير مُهدّبة ؛ بل « جنسية نفسية » psycho-sexuality وهو توسع غير علمي ، ولا يمكن تحقيقه منطقياً ... وميل الطفل الارتدادى يمكن أن يُصوّر « بالعبارة » : ميل مُحرم نحو الأم incestuous craving for the mother مجازياً فحسب ... وكذلك أيضاً في الكلمة « عقدة أوديبوس » : فهي مجرد مجاز ... وكلمة « محرم » incest لها معنى محدد ... وتطبيق نفس الكلمة على مشاكل الطفل ... يكون سيئاً أكثر منه قبيحاً .

وقد عبر فرويد عن نفسه بمثل هذه الصراحة - فيما يتعلق بتطهير يونغ للشهوة بإبعاد محيطها الجنسي . فعند يونغ أن فرويد قد كان متحيزاً في تشبته بالجنس ؛ بينما الأمر عند فرويد أن يونغ قد ضحى بالانتصارات العظيمة التي أحرزها فرويد نفسه في علم النفس الجنسي .

* ك ج يونغ : أقوال في علم النفس التحليلي . Contributions to Analytical Psychol. ترجمة بينز وبيير H.G. & C.F. Baynes - هاركوث وبريس وشركاه (١٩٢٨) ص ٣٢٩ - ٣٤٠

وقد حاول يونج أن يضع فكرة الشهوة عنده في صف فكرة الطاقة في الفيزيقا . فالطاقة تتحول ؛ ولكنها تظل الطاقة بعينها — سواء هي حرارة أو كهرباء ، أو حركة كتل ، فكما أنها طاقة فيزيقية واحدة ؛ فشهوة واحدة ، هي التي تُظهر نفسها الآن في تقرير الذات ، وأيضا في الرغبة الجنسية . وقد عرّف فرويد واحدة من صور الطاقة هذه ، وأدلى الأخرى ؛ وحاول كل منهما من جانبه أن ينظر إلى الطاقة كآها بحسبانها ذات صورة واحدة . فإذا وجهنا الطاقة خارج النشاط الجنسي ؛ إلى الفن أو نوع من إعلاء آخر ؛ فإنها تتحول ، ولا تبقى بعد رغبة جنسية في الأصل ؛ وإن كانت بعض آثار المصدر المباشر للطاقة قد تظل في النشاط المتعالي .

وجانب آخر مهم من نظرية يونج في الطاقة ؛ هو أن الطاقة يمكن أن يُظن بها الميل إلى حالة نهائية من التعادل . وكان فرويد قد لجأ دائما إلى ماضى الفرد لفهم السلوك الحاضر . وأدلى — بينما كان يتكلم عن الأهداف — قد رجع أيضاً إلى الطفولة ليجد الأهداف التي اصطنعها الفرد نتيجة لموقفه الطفلي . وكلاهما يُقلد هذا النوع « العلي الميكانيكى » من التفسير الذى هو شائع في العلم الطبيعى . فنحن نجد في الفيزيقا فكرة الطاقة التي لم تتوافق قط مع فكرة العلية الميكانيكية ؛ بل التي تبدو أن تكون متعارضة معها من الناحية النظرية . إلا أن فكرة الطاقة أكثر مسايرة للاتجاهات الحديثة في الفيزيقا ؛ وخصوصاً لأنها كمية . والحق أننا لا نستطيع أن نتقدم في علم النفس بطريقة كمية دقيقة ؛ إلا أننا نعى — في علم النفس المرضى على الأقل — بكم هي كمية تقريباً ؛ كأن تكون قيمة أكبر من أخرى . وهنا فإن فكرة الطاقة أكثر كفاء في علم النفس التحليل من التفسير العلي الميكانيكى للسلوك . والمرض العصابى هو محاولة في الحاضر للتكيف بالحياة ؛ محاولة هزيلة في الواقع ، ولكنها على الأقل محاولة تحوّل وتركيب جديد . والعصاب يشفى إذن بمساعدة المحلل طوال هذا التركيب الجديد ؛ لا عن طريق جث أسبابه الخيالية الماضية ؛ وإن كانت العملية الأخيرة ذات فائدة بوصفها مرحلة أولى في العلاج .

وهذا العرض الموجز لمناقشات يونج الواسعة في هذا الموضوع * هو بطبيعة

* انظر مثلاً « ك. ج. يونج » أوراى محررة عن التحليل النفسى — ترجمة لوج C.E. Long الطبعة الثانية (١٩٢٠) ص ٢٩٦ ، ١٠١ ، ١١٧ ، وأقوال في علم النفس التحليلى Contributions to Analytical Psychol. بيتز وبيتز (١٩٢٨) ص ١ — ٧٠ .

الحال غير كافٍ ، وربما فشَل في إظهار فكرة المؤلف . وقد أحبُّ أن أوجِّه نظرك إلى أنه يوجد بعضُ شبه بين فكرة يونج القوية عن العُصاب أو أَى تكيف بوصفه مُركباً جديداً ؛ من ناحية ، ومن ناحية أُخرى : فكرة الجشطلتيين في الاستبصار من حيث هو « سد فراغ » ووصول إلى تعادل .

ووجوه الفرق بين علمائنا الثلاثة الكبار في علم النفس المرضي يمكن أن نُبرِّزها بالرجوع لحظةً إلى مسألة تفسير الحلم . فقد عارض يونج تفسيره بتفسير فرويد في مثال حلم الشاب الذي تخرَّج حديثاً في الجامعة ، والذي لم تكن له القدرة على أن يستقرَّ في وظيفته ، ثم وقع في مرض عُصابي . والحلم هو :

كنتُ صاعداً درجاتِ السَّلم مع أختي وأمي ، فما إن وصلنا إلى أعلى ؛ حتى علمتُ أن أختي ستُصبح في الحال « أمّاً » لطفل .

سيكون ذلك من السهل على أحد تلاميذ فرويد : فرَّقني السلم يُؤخذ دلالة مُطرَّدة على النشاط الجنسي ، والأم والأخت هما الشيطان اللانمان للرجبات الطفلية المحرمة ؛ وسيكون الحلم بهذه البساطة إشباعاً لرغبة طفلية مكبوتة . لم يقتنع يونج بهذا التفسير السهل ، وتقدَّم ليحصل على أنواع من التداوي الحر ؛ بادئاً من كل عنصر في الحلم . فالأم تدل على إهماله لواجباته ؛ لأنه قد أهمل أمه طويلاً ، والأخت هي الحب الحقيقي للمرأة ، وورق الدرج يقترح السعي إلى النجاح في الحياة ، والطفل المرتقب يُؤدِّن بخلق جديد أو ميلاد آخر لنفسه . وانتهى يونج إلى أن الحلم قد كشف عن إثارة قوى اللاشعور إلى مواجهة موقف الشاب الحاضر . أما كيف كان أدلر يفسر هذا الحلم فلا نستطيع أن نقول ، مادام ينقصنا العلم بالحلم : هل كان أكبر طفل ، أو أصغر من أخته . إلا أنه مادام الحلم لم يرتقِ الدرج وحده ؛ فهو يبدو وكأنَّ أسلوبه في الحياة أسلوب اعتماد على مؤازرة الغير له . وهنا فإن إمكان وجود تفسيرات كثيرة متشعبة لحلم بعينه ؛ كل منها له فائده بين يدي المحلل ؛ يجعلنا نقف ونفكر . فالمرء يعجب كيف أنه حول حياة نابليون قد قامت أحلامٌ مختلفة كثيرة ، وتفسيرات حسنة بطرق كثيرة ؛ إلا أنه لا واحد منها على التحقيق يَصوِّر حياة نابليون . لا تفسير يُؤوِّل الحلم حقيقةً . وأنا أحدث نفسي أنِّي شكوكاً غليظة في صحَّة أى تفسير حلم . فما ليحتج وراء حلم

معين هو بالتأكيد أكبر كثيراً من أن يجد مجالاً في أى تفسير . ومن حسن الحظ أننا نضع نُصَبَ أعيننا في تفسير الحلم — لا أن نفهم هذا الحلم الخاص — بل أن نكتشف عقدة ، أو رغبة ، أو أملاً ، أو أسلوب حياة للشخص صاحب الحلم . فإذا اكتشفنا شيئاً جوهرياً يتعلق به ؛ فقد لقينا غرضنا العملي ، حتى ولو أسأنا كثيراً تفسير الحلم ذاته . ومهما يكن من أمر ؛ فمن الناحية العلمية — إن لم يكن من الناحية العملية — الفرقُ جدير بأن يُذكر .

الانطواء والانبساط عند يونج :

وتمنأى عن تحقير عمل فرويد وأدلر ؛ عني يونج عناية أكثر باصطناع نتائج كليهما في مذهبه . ولكن كيف السبيل إلى التوفيق أو التآليف بين نظريتين مُتَشَبِّهَتَيْنِ هكذا تشعباً رئيسياً الواحدة عن الأخرى ؟ ففرويد قد نظر إلى الحلم أو العُصاب على أن الدافع له رغبات جنسية مكبوتة ، أما أدلر فيإرادة القوة . وكل دافع يبدو وحده كافياً ، إلا أنهما معاً لا يمكن الجمع بينهما . وقد حل يونج اللغز بنظريته المشهورة في الأنماط السيكولوجية . فشخص ما قد يندفع بطريقة فرويد ، وآخر بطريقة أدلر . والذي اندفع بإرادة القوة لا بد أن تكون ميوله — كما يقول يونج — مركزة في الذات ؛ بينما الذي دافعه الجنس لا بد أن يركز ميوله في موضوع حبه . وبالإجمال فإن يونج قد اعتقد بإمكان التمييز بين نوعين من الأفراد : أحدهما ميله وانتباهه يتركز بالأولى داخل ذاته ، والآخر ميله واهتمامه قد نفذاً إلى المحيط الاجتماعي والفيزيقي ؛ الانطوائى ينقلب إلى الداخل ، والانبساطى مُنْقَلِبُهُ إلى الخارج ، المنبسط — الذى يندفع بشهوة فرويد — قد سيطر عليه الشعور ؛ والمنطوى — الذى يدفعه أدلر بإرادة القوة — يسيطر عايه الفكر ، ويميل إلى التردد واجترار التفكير . أما يونج فقد استطاع أن يقول — مستعيناً بفكرته الخاصة في الشهوة كطاقة حيوية — إنه في الانبساط تحركت الشهوة إلى الخارج نحو الأشياء ، وفي الانطواء إلى الداخل نحو الفرد ذاته .

ولم تُثر واحدة من نظريات يونج مثل هذا الاهتمام العام « الذى أثارته » نظريته في الانطواء والانبساط . ومن الممتع أن نصِّفَ الناس ؛ ونجد أن بعضهم يتبعون هذا النوع ، والبعض الآخر « يتبعون » هذا الآخر . وقد تعود القدماء أن يصنفوا الناس تحت الأخلاط الأربعة : الدموى sanguine ، والصفراوى choleric ،

والبُلغمى phlegmatic ، والسوداوى melancholic . ومن دراسات جالتون في التصور العقلي نحو نهاية القرن الماضي ، تعود علماء النفس أن يُقسّموا الناس إلى أنماطٍ بَصْرِي ، أو سمعي ، أو حركي ؛ مع أنماطٍ متفرقة قليلة تتعلق بالشَّمسى والأنماط الأخرى . وقيل إن مثل هذا التصنيف له أهميته في التربية ؛ لأنه إذا كان الطفل يتبع النمط السمعي ، فإن التعليم البصري سيخفق معه . وبذا كان يُختبر تصور الأطفال لإلأنه لم تلبث أن ظهرت النتيجة المفاجئة : أنهم يتبعون جميعاً النمط المختلط . ومثل هذه النتيجة توجد دائماً حيث يتسنى لنا أن نقيس صفة طبيعية . فنحن نجد أن الأفراد لا يخضعون لأقسام منفصلة ، بل يتوزعون جميعاً حول وسط واحد أو متوسط ؛ مع وجود أولئك الذين يقربون من الوسط غالباً جداً ، ثم الضيق التدريجي نحو الأطراف .

وقد دَفَعَت مثل هذه الحقائق بعلماء النفس إلى الشك فيما يتعلق بأنواع الناس . وبالتالي فنحن نميل إلى الشك في النَظْمين الانطوائى والانبساطى ؛ إذا كان مضمونهما أن النوع الإنسانى يوجد في هذين الفريقين . ومهما يكن من أمر ؛ فإن يونج قد عرف هذه المشكلة إلى حد ما ، وتحدث أيضاً عن المُتَقَلِّب ambivert الذى تتجه شهوته إلى كلا الخارج والداخل ، والذى مَبُولُهُ ليست تتركز إن في الذات أو في الخارج . وقد أخذ علماء النفس فكرة يونج في الأنماط ، وحاولوا اختباراتٍ لوضع الفرد في درجةٍ تمتد بين الانطواء النهائى والانبساط النهائى . وقد وجد من الممكن أن يفعلوا هذا ؛ وإن يكن مع فهم أن أكثر الأفراد يَقَعُونَ حول مُتَنَصِّف المقياس .

والطريقة التى بها انطلق علماء النفس إلى العمل في قياس الناس بمقياس الانطواء والانبساط ؛ تقوم في التقاط أكبر عدد ممكن من الأعراض أو الدلالات المختلفة للانطواء والانبساط ، ثم حَصَرَ أعراض كل نوع يَقُومُ به الفرد أو يعرفه عن نفسه . فهو يسأل أسئلة كالتالية :

هل تُحِبُّ العزلة كثيراً ؟

هل تَتَّبِقُ بالآخرين ؟

هل تحبُّ أن تتحدث في مجتمع ؟

هل تود أن تكون دائماً هادئاً وحازماً ؟

هل تحب العمل على وتيرة واحدة ؟
 هل تفكر ملياً قبل أن تصل إلى قرار ؟
 هل تحب أن تنغمس في أحلام اليقظة revery ؟
 هل تحتفظ بمذكرات يومية لشخصك ؟
 هل تفضل أن تقرأ عن المغامرات أو أن تغامر ؟

وربما استطعتم أن تقرروا لأنفسكم أىّ إجابة على كل سؤال من هذه الأسئلة هي إجابة المنطوى ؛ وإن لم تكن واضحة تماماً . والرأى عندى فى الحقيقة أنه يوجد على الأقل صنفان مختلفان معاً فى المقياس الانطوائى الانبساطى كما يستعمل الآن وفى صيغة يونج الأصلية أيضاً . فيصنف سيكون ميلا إلى العمل المباشر الصريح — فى مقابل الميل إلى التروى والاجترار ؛ وربما حلم اليقظة . والصنف الثانى سيكون الميل إلى الآخرين من الناس وإلى النشاط الاجتماعى . وكلا الصنفين يبدو لى اعتمادُ بعضه على البعض مُحتملاً . فمثلا أنا متأكد أننا نجد أناساً يميلون إلى أحلام اليقظة والاجترار مع ميلهم الغالب فى الوقت ذاته إلى النشاط الاجتماعى . ومن المهم أيضاً أن نعلم أن العلماء فى ملاحظتهم ، والمخترعين والميكانيكيين ؛ هم عادةً يكونون إلى الانطواء أميل — وإن كانوا بالتحقيق منصرفين إلى الأشياء . ومن الممكن أن يكون ثمة أكثر من صنفين على حدة مختلفين معاً فى التمييز بين المنطوين والمنبسطين .

وقد تقدم يونج بنظريته فى الأنماط فى اتجاهات عدة* . فهو يعرف أساساً آخر للتقسيم يمكن تبعاً له أن ينقسم الأفراد إلى نوع حسى ، ونوع فكرى ، ونوع شعورى ، ونوع عيانى ، وربما كان أكثر طرافة اقتراحه أن الأشخاص الذين هم منبسطون فى حياتهم الواعية هم منطوون فى « حياتهم » اللاشعورية ؛ والعكس صحيح . « فى حالة المنطوى ؛ مثلاً ، يوجد إلى جانب ذلك — أو بالأحرى وراء ميله الشعورى — ميلٌ لا شعورى منبسط يعوض بطريقة أوتوماتيكية عن انحيازها فى الشعور... فللا شعور — بقدر ما نستطيع أن نرى الآن — وظيفة تعويض فيما يختص بالشعور* .

* راجع نماذج سيكولوجية Psychological Types ترجمة بينر H.G. Baynes هار كورث وبريس وشركاها ١٩٢٣ .

* يونج C.G. Jung : أقوال فى علم النفس التحليلى . Contributions to Analytical Psychol . (١٩٢٨) ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

اللاشعور كما يراه يونج وغيره :

اللاشعور فكرة لها عند يونج من الدلالة ما لها عند فرويد . وما عدا هذا ؛ فإن يونج يزيد فيها . فهو قد ميز بين اللاشعور الشخصي واللاشعور الجماعي أو النوعي racial فاللاشعور الشخصي يتكون في جزء منه بالهكيت من الشعور - كما بين فرويد ؛ ولكنه يشمل أيضاً - عند يونج - خبرات ومعرفة أخرى قد نسبت أو تحلّت من الشعور . وكذلك المادة الأخرى التي حصلت بطريق لاشعوري . وأكثر جوهرية اللاشعور الجماعي ؛ الذي عنه تنشأ الحياة الشعورية واللاشعورية للفرد كلاهما . ونادراً ما يظهر هذا اللاشعور الأعمق في الأحلام أو في الأمراض العصبية ؛ ولكن آخيلة الأشخاص المحبولين فعلا تأتي أحياناً بأفكار غريبة ، وطرق للتفكير تبدو شبيهة بآثار التفكير البدائي للنوع .

واللاشعور الجماعي أو النوعي يتوارث . فهو يورث - ككل شيء آخر - عن طريق التركيب العضوي . فتركيب المخ الموروث يجعل الفرد يفكر ويفعل كما كانت عادة النوع أن يفكر ويفعل خلال أجيال لاحصر لها من الحياة البدائية . واللاشعور الجماعي يمكن أن يقال إنه يتركب من غرائز وأفكار بدائية primordial ideas أو « نماذج أصلية archetypes » . فالغرائز طرق بدائية للفعل ، والنماذج طرق أولية للتفكير . إلا أن الاثنين لا يمكن أن ينفصلا تماماً ، لأن التفكير والفعل يسيران معاً ؛ وخصوصاً في صور الحياة البدائية .

ونظرية النماذج الأولى أو الأفكار البدائية لا ينبغي أن تخلط بالنظرية المهجورة من زمن ؛ « نظرية » الأفكار الباطنية ، فاللاشعور الجماعي لا يحتوي أفكاراً بالدقة أو شيئاً مصقولاً كهذا ؛ ولكنه يحتوي طرقاً طبيعية للتفكير ، وخطوطاً لأقل مقاومة ، وميولاً تنجذب في أفكارنا نحو النماذج الأولية للفكر . ففي الأحلام ، وفي مخاوف الطفل من الليل ، وفي هلوسات الجنون وأوهامه ؛ بل وفي الحياة الواعية عند ما ننصرف عن رقبينا إلى شيء لم نكن نتوقعه بالكلية كزلزال مثلاً ؛ فإن أفكارنا المكتسبة حينئذ عن العمليات الطبيعية تسقط منا ، ونفكر بطريقة حيوانية أو تأتينا أفكار أولية غامضة عن سحر نحسه جميعاً وعن الأرواح والجن والسحرة والنين dragons والشياطين . فالأب ، والأم ، والطفل ، والذكر والأنثى ، والنشوء ، والارتقاء والفساد ؛ كلها حقائق أولية قد فرضت نفسها على الفكر النوعي حتى أنها لتظهر دائماً

كرموز في فكر الحاضر . ونحن ننجذب إليها كأفكار سهلة موضحة ، ونتحدث عن « نشأة أمة » و « انقراض قانون » غير ملاحظين -إلا قليلا - صورة الكلام . وبعض النماذج الأولية ؛ كنموذج الطاقة ؛ قد سيطر عليها الفكر العلمي ، ويمكن أن تكون غالباً ذات فائدة لصحة الفرد العقلية ؛ فيصبح في حذر من بعض نماذج النوع الأولية ؛ وكذلك من بعض غرائزه ، ويكمل هذه بفكره وعمله الشعوريين . ودراسة الميثولوجيا والعادات الأولية البدائية ذات قيمة لعلم النفس التحليلي لما تلقى من ضوء على اللاشعور الجمعي .

وبعض ما قال به يونج خاصاً باللاشعور يدعو للعجب - على أقل تقدير . ويبدو أنه يتضمن فكرة أخرى عن اللاشعور غير هذه التي كنا ننبئها . فإذا عسى أن نعمل بفقرات كالتالية ؟ *

« يتركب الشعور فحسب من هذه المركبات القادرة على تكوين الأفكار ideational complexes والتي ترتبط مباشرة بالأنا ... ففي السنوات الأولى من الحياة يندر أن يوجد أي شعور أولاً ؛ وإن كان وجود العمليات النفسية منذ البدء واضحاً . إلا أن هذه العمليات ليست تتركز في أنا منظم ؛ أي ليس لها محور ، وبالتالي ليس لها استمرار ؛ وبدون هذا تكون الشخصية الواعية غير ممكنة ... فأما عندما يبدأ الطفل يقول « أنا » فيمكن أن يكون استمرار إدراكى للشعور ... وهنا فإذا كان لنا أن نسأل : ماذا يحدث لولم يكن ثمة مدارس ، وترك الأطفال لأنفسهم تماماً ؛ لكان علينا أن نجيب : إن الأطفال سوف يظلون إلى حد كبير غير شاعرين ...

إن الطفل ينتقل من حالة لاشعورية - وشبيهة بالحيوان في الأصل - إلى الشعور ؛ شعور بدائي أولاً ، ثم إلى شعور متحضر تدريجاً . والحالة في الستين أو الثلاث الأولى من حياة الطفل - عندما يكون غير شاعر بنفسه - يمكن أن تقارن بالحالة الحيوانية .

فَمَا يُثِيرُ الْعَجَبَ أَنْ يُقَالَ لَنَا إِنْ الْوَلَدَ غَيْرُ شَاعِرٍ حَتَّى يَبْدَأَ الْكَلَامَ عَنْ نَفْسِهِ

* بوج C.G. Jung أقوال في علم النفس التحليلي . Contributions to Analytical Psychol.

بقوله «أنا» فهذا تأريخ للشعور متأخر عن تأريخ وطسون عندما وحد بينه وبين النطق verbalization وأنكره بالتالي على الأطفال الذين لم يتعلموا الكلام بعد . فإذا كان الطفل في شهور قليلة من العمر أو في سنّ سنتين هو «غير شاعر» ؛ فلا يمكن أن يكون ذلك بنفس المعنى الذي به يقال إن المريض المخدر غير واع .

ويشارك «الاشعور» في الاستعمال المتغير «للشعور» الذي قد يدل على «الشعور بشيء» أو «الشعور بالذات» أو مجرد «الشعور» أو الوعي . وتتشتر وإن كان من أتباع التأمل الباطني قد تخلى عن استخدام «الشعور» لأنه وجد أنه لا يمكن أن يُقصر على معنى محدود . واستخدام عام «للشعور» يكاد يقرب من استعمال يونج في المقتبسة «المذكورة» يشير إلى نقص الاستبصار أو الحاجة إلى التدبر التي تُميّز كثيراً من نشاط كل فرد . ونحن نسمى الفعل لاشعورياً إذا لم يكن قد حلّه الفاعل . ربما لا يكون قد حلل الدوافع التي وراء فعله أو عواقبه ؛ وبهذا فقد يُصيب بعض الناس بطريق لا شعوري ، وقد يكون محاولاً أن يُصيهم بغير وعي منه ، وقد يكون بوعي منه محاولاً أن يُساعد أحداً ؛ ولكن مساعدة شخص قد تكون طريقاً للدلالة على نقص هذا الشخص . والدوافع تنتهي إلى مركبات يصعب تحليلها غالباً . والدوافع المنفصلة التي يحللها يونج أو فرويد أو أدلر في فعل ما هي لهذا لا شعورية بهذا المعنى عند فاعل هذا الفعل . وربما يفعل الطفل بهذا المعنى بغير وعي ، مع أنه قد لا يزيد حينئذ عن البالغ . وإلى شيء من هذا القبيل يجب أن يكون مغزى يونج ؛ وإن كان قد يُرضيه أن نفسره بقولنا : إن الطفل يستجيب أول الأمر إلى البيئة بطريقة الدوافع أو الغريزة ؛ وتدرجياً فحسب يُصبح وحدةً مستقلة نسبياً . ويستطرد يونج قائلاً إن حالة الاشعور في الطفل الصغير هي «حالة اختلاط تام بالظروف المحيطة» وإن «نفسية الطفولة الأولى هي إلى درجة كبيرة جزء من نفسية الأم ، وبسرعة جداً ... جزء من نفسية الأب» . فما تعنيه هذه التعبيرات عملياً أن متاعب الأعصاب ومصاعب السلوك في الطفل الصغير هي أعراض عدم التكيف بالحياة من جانب الأبوين ، وهما اللذان يجب تحليلهما وعلاجهما إذا شئنا أن ننقذ الطفل .

والاشعور عند محللي الأمراض النفسية ليس قَط فكرة أكاديمية ، أو مجرد فرض علمي يخضع للاختبار ؛ بل هو أداة يشعرون أن لا غنى لهم عنها . فجانيه ، وپرنس ، وفرويد ، وأدلر ، ويونج ، وكثير غيرهم ؛ كلهم ينجذب إليه ، وكلهم

يُعرفه تعريفاً مختلفاً . فأية فائدة حقيقية لهم فيه ؟ هويلزمهم — كما يقول ماك كودي Mac Curdy* (١١) — لكي يتسنى لهم أن يلصقوا بحدود علم النفس ؛ حتى حين يتجاوزون الحدود الضيقة للشعور . فلم لا نعرف بأن كل العمليات التي تجري خارج الشعور هي فيزيولوجية خالصة ونتكلم عنها بمصطلح الفيزيولوجيا ؛ حسناً ؛ لنحاول ذلك الآن . لنتكلم عن الدافع اللاشعوري في ألفاظ فيزيولوجية . تستطيع ذلك فحسب بأغراض طريق مهما تكن معرفتك بالفيزيولوجيا حسنة . ولو أنك قمت بعملك في الوصف الفيزيولوجي بجد ؛ فإنك ستضطر إلى الكلام في مصطلح وحدات النسيج العصبي (النيورونات) وفي عمليات دقيقة ومنفصلة جداً ؛ ولن تستطيع أن تكرر كل هذا التفصيل متى أردت لكي تشير إلى المسألة من جديد . وبهذا فستضطر عملياً أن ترجع إلى اصطلاحك السيكولوجي ؛ الدافع اللاشعوري . ومثل هذا قد يكون صحيحاً أيضاً في التفكير اللاشعوري ... الخ . إن وصف السلوك بحدود السلوك لا يمنع أي فرد يستطيعه من وصفه بمصطلح الفيزيولوجيا ؛ فالعمليات السيكولوجية كلها هي في نفس الوقت عمليات فيزيولوجية ، والمسألة هي بالضبط أي مجموعة من الحدود الوصفية تأخذها لتطبقها عليها .

ونحن ربما أطلنا في اللاشعور ، وربما أطلنا إلى غير حد مع محمل الأمراض النفسية — ولكن قد يحسن الوقوف عند حد ، والسماح لأنفسنا بفكرة ختامية . فإنه — إلى جانب الأتباع المعروفين لفرويد وأدلر ويونج — توجد كثرة كبيرة من الأطباء العقليين لا ينضمون لمدرسة ، ولا يرون عيباً في اصطناع مناهج الجميع ونظرياتهم ؛ وبهذا ينشئ كل منهم مذهباً لنفسه . إن تأكيد قليل من المحللين النفسيين أربعين سنة للعوامل العقلية في الأمراض العصبية قد ترك أثره في الهيكل العام للأطباء العقليين ؛ حتى أن الفكرة العقلية المتكونة عن الأمراض العصبية قد اتسع الأخذ بها اليوم ، وحتى أنه فيما يتعلق بأمراض نفسية كالجنون المبكر أو الفصام dementia praecox و جنون الهوس والاكتئاب manic-depressive insanity يوجد ميل كبير الآن إلى تأكيد العوامل العقلية . وبهذا فإن فرويد وجانيه وغيرهما قد ساهموا بطرقهم المختلفة في تقوية النوع « النفسي » من الطب العقلي في مقابل « الجسمي » . وهذا التقدم كله قد كان ذا أهمية كبيرة لعلم النفس أيضاً . فعلم

* ماك كودي T.J. Mac Curdy : الصحة العقلية Mental Hygiene (١٩٢١) مجلد ٥

النفس المرضى - كالطبيب العقلي - ينظر في الأفكار العديدة لتحليل النفسى وعلم النفس التحليلى وعلم النفس الفردى من وجهة النظر العملية النفعية ، ويسر إذا نجح أحدها في علاج مشكلة الطفل . أما عالم النفس الأكاديمي - وهو عملي بعض الشيء أيضاً في ميدانه هو - فيتساءل عما إذا كانت فكرة كالهو ؛ التي فيها يبدو أن فرويد قد ترك مجالاً للأشعور الجماعي عند يونج ؛ يمكن أن تلعب دوراً مفيداً كنظرية علمية . والآن ؛ فإن عالم النفس الأكاديمي له نظرة في هذه النظريات والأفكار الجذابة ، يحيط بكل منها هالة تأخذ - يتأملها عن كَثَب - شكل علامة استفهام .

تعليقات

على الفصل الخامس

A. Moll (١٨٨٩) .
هذه الكتب في تاريخ التنويم
المغناطيسي عامة . أما أهم البحوث
التي كتبها أصحاب التنويم المغناطيسي
أنفسهم فهي : تأثير الكواكب
De Planetarum Influxu مسمر
A. Mesmer (١٧٦٦) : وفيه
يعرض لحالات التنويم التي أجراها
بالمغناطيس ، كما تقرأ له : فكرة في
اكتشاف المغناطيسية الحيوانية
Mémoire sur la Découverte
du Magnétisme Animal (١٧٨١) ؛
وفيها يعرض نظريته في المغناطيسية
الحيوانية كقوة ، بعد أن تخلى
عن استعمال المغناطيس في
التنويم ؛ وتقرأ له أخيراً : المسمرية
Mesmerismus الذي كتبه (١٨١٤)
في نظريته التي سميت باسمه - وذلك
قبل وفاته بسنة ، وبعد هجرته عن
باريس بزمن . كما تقرأ لبقية أصحاب
التنويم من المسمرين وغيرهم في كتبهم
التي سنشير إليها مع كل منهم .
(٢) مسمر : (فريدرش أنظن)
F.A. Mesmer (١٧٣٤ - ١٨١٥)
طبيب في فينا تأثر بالفكرة القديمة
المعروفة عن تأثير النجوم في الكائنات

(١) التنويم : ظهرت في تاريخ
التنويم المغناطيسي كتابات كثيرة ،
ذكر منها راند B. Rand في قاموس
الفلسفة وعلم النفس لبولدوين J.M. Baldwin
(قسم ٢ ؛ ٢ - ١٩٠٥ ص ص
١٠٥٩ - ١٠٦٧) قائمة
تحتوي ٤١١ بحثاً . بل ذهب دسوار
M. Dessoir في كتابه : قائمة
كتابات التنويم حديثاً Bibliogra-
phie der modernen Hypnotis-
mus (١٨٨٨) إلى ذكر
١١٨٢ عنواناً كتبها ٧٧٤ كاتباً ، وعاد
فأتبعه بملحق مُتَمِّم له سنة ١٨٩٠ .
وأهم ما تستطيع أن ترجع إليه منها في
الإنجليزية : كتاب برامويل
J.M. Bramwell : التنويم : تاريخه
وتطبيقه ونظريته Hypnotism; its
History, practice and Theory
(١٩٠٣) ، ومقالة : تنويم
Hypnotism في دائرة المعارف
البريطانية لوليم مكدوجل W. McDougall
. وفي الفرنسية : المغناطيسية الحيوانية
Le Magnétisme Animal لبنينه وفري
A. Binet & C. Féré (١٨٨٧) وترجمته
الإنجليزية (١٨٨٨) . وفي الألمانية :
التنويم Der Hypnotismus لمول

مستمر يهـي ظروف المكان والأشخاص بشكل سحري استطاع معه أن يؤثر في كثير من المرضى ، وينتهي بهم إلى الشفاء .

واهتمت الدوائر العلمية والرأى العام بما اكتشفه مسمر ، وبنظريته التي سميت باسمه ؛ فكثر خصومه واشتدت حملات الأطباء عليه — حتى اتهموه بالدجل والسحر — ومات في سويسرا (١٨١٥) .

وقد استطاع أتباع مسمر أن يستمروا بمزاولة مذهبه وتعديله والكتابة فيه ؛ حتى جعلوه أمام العالم حقيقة علمية ، وأسلموه أخيراً إلى فرويد . وأهم هؤلاء الأتباع — في إنجلترا والهند — والمراحل التي مر بها تاريخ التنويم المغناطيسى إلى التنويم الإيحائى ؛ تجد ذلك كله فى مقالنا عن « التنويم والتحليل » بمجلة علم النفس المصرية (مجلد ٤ عدد ٢ نوفمبر ١٩٤٨) .

(٣) شاركو (جان مارتان) J.M. Charcot (١٨٢٥ - ١٨٩٢) هو أبو علم النفس الطبى بفرنسا ، اتصل أول أمره بمدرسة سالپتريير Ecole de Salpêtrière (١٨٦٢) : حيث بدأ مزاولاته للتنويم ، وأخذت نظريته الهامة فيه على أنها نظرية هذه المدرسة ، فأصبح من بعد قائدها ، وظلت صِلته بها طول حياته .

وأول ما نشر شاركو من بحوثه فى التنويم تجده فى نشرة المستشفيات

الإنسانية — كما هو معروف فى علم التنجيم astrology ، وكما قال به وزاوله كثير من العلماء والصوفيين من قبل ؛ ظناً منهم بوجود مبدأ يخرق الكون ويؤثر فيها كالمغناطيسية والكهرباء وغيرها من قوى الطبيعة . وأدى به هذا إلى أن يخبّر بنفسه أثر المغناطيس على الأشخاص ؛ بتمسح أجسامهم أو إمرار المغناطيس عليها . فاكتشف مبدأ ما نسميه اليوم « التنويم » ، ونشر حقائق بحثه هذا فى كتابه الذى أشرنا إليه : تأثير الكواكب De Planetarum Influxu (١٧٦٦) .

وقد ظل يستعمل المغناطيس فى علاج بعض الأمراض ، وبعد عشر سنوات لقي قسماً فى سويسرا يعالج بدون استعماله ويشفى الأمراض بطريقة خاصة به . فتخلّى عن استعمال المغناطيس — لترزعُ إيمانه به — وقال بقوة مغناطيسية حيوانية كالمغناطيسية الطبيعية هى التى يعزى إليها هذا التأثير ، وكتب بذلك إلى الأكاديميات العلمية . ولما كثر خصومه حتى فِينا انتقل إلى باريس (١٧٧٨) ، وفيها أنشأ جهازاً له يسمى baquet هو عبارة عن صندوق من خشب البلوط يحتوى على مواد كيميائية ، ومجهز بزوائد من الصلب قد مغطتها مسمر بما يجعلها تستطيع أن تنقل المغناطيسية إلى حلقة من الأشخاص تجلس حوله فيما يشبه اليوم « الجلسة الروحية » . وكان

هارفرد (١٨٧٥) فمدرسة الطب بهارفرد حيث حصل على درجته في الطب (١٨٧٩) واشتغل طبيباً في مقاطعته ؛ طبيباً للأمراض العصبية (١٨٨١) - (١٨٨٦) قضى منها في مستشفى مدينة بوستن من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٥ طبيباً ، وفي مدرسة الطب بهارفرد من ١٨٨٥ إلى ١٨٨٨ مدرساً للأمراض العصبية . ومنذ ١٩٠٢ صار أستاذاً بكلية تفتس Tufts ، كما أنه منذ ١٩٢٦ حتى ١٩٢٨ قد اشتغل أستاذاً لعلم النفس المرضى والديناميكي بجامعة هارفرد . وكان عضواً بكثير من الجمعيات العلمية والطبية بأمريكا ، ومحرفاً لمجلة علم النفس المرضى والاجتماعي منذ ١٩٠٦

ولبرنس دراسات ومقالات كثيرة في مجلة الطب والجراحة ببوستن ، وصحيفة الأمراض العصبية والعقلية ، وصحيفة علم الطب الأمريكية . . . وغيرها ؛ معظمها في الأمراض العصبية والعقلية ، وفي الطب ودراسة بعض حالاته المختلفة من شلل وهستيريا وصادية sadism وتسلسل imperative idea وفوبيا ونيورستانيا . . . إلخ في مواضع مختلفة من الجهاز العصبي كالمخ والحاء والحبل الشوكي والأنسجة العصبية... كما درس الشعور ، والاشعور ؛ ومُساعد الشعور Co-consciousness والأمراض الجنسية والنفسية ؛ ودرَس الشخصية وتعدُّدها وتحللها

المدينة والحرية Gazette des Hôpitaux Civils et Militaires (٥١ ؛ ١٨٧٨) . إلا أن أهم ما صنّف من كتبه : دروس في أمراض الجهاز العصبي Leçons sur les Maladies du Système Nerveux (١٨٧٣) وظهرت طبعته الرابعة ١٨٨٠ ، وترجمته الإنجليزية (١٨٧٧) . وكذلك فإن أهم ما عُرِف به مذهب مدرسة سالپترير أوراقه الكثيرة المتناثرة التي جمعت في تسع مجلدات سميت : الآثار الكاملة Œuvres Complètes (١٨٨٦ - ١٨٩٠) . وخلاصة رأيه فيها أن ظواهر التنويم هي في جوهرها هستيرية ، وأنها بالتالي أعراض شذوذ وانحراف ؛ وذلك في مقابل ما قالت به مدرسة نانسي Ecole de Nancy وقال به بريد James Braid من قبل ؛ من أن التنويم يجب أن تفسر ظواهره بالإيحاء ، وأنها بالتالي ظاهرة سيكولوجية عادية . وقد تتلمذ على شاركو ألفرد بنيه ، وبيير چانيه ، كما درس فرويد عليه سنة ؛ وتأثر به هؤلاء جميعاً - كما سنرى - فسار فرويد بالتحليل التنويمي إلى نهايته ، وتولى بيير چانيه من بعده مكانه على رأس مدرسة علم النفس المرضى في فرنسا .

(٤) برنس (مورتن) Morton Prince : ولد في بوستن Boston في ديسمبر ١٨٥٤ ، ولحق بكلية

علم النفس الدولي بأكسفورد (١٩٢٣) في : الحذر ، والشعور ، ومساعد الشعور ، وذكاء الحيوان من وجهة نظر حقائق علم النفس المرضى Awareness, Consciousness, Co-consciousness and Animal Intelligence from the Point of View of the Data of Abnormal Psychol. وهو - كما يقول هو - « نظرية بيولوجية في الشعور » ؛ نشره - ومقالين آخرين عن : مشكلة الشخصية ، وثلاثة أخطاء رئيسية للسلوكيين والموفقين بين فكرتي القصدية والآلية - في : سيكولوجيات ١٩٢٥ (مطبعة جامعة كلارك ١٩٢٦) .

(٥) چانیه (پیر ماری فیلکس) Pierre-Marie-Felix Janet : ولد في باريس في ٣٠ مايو ١٨٥٩ ، ولحق بالعلمين العليا (١٨٧٩-١٨٨٢) فحصل على ليسانس الفلسفة (١٨٧٩) وعلى إجازة تدريس الفلسفة L'agrégation (١٨٨٢) وفيما بين ١٨٨٠ ، ١٨٨٢ لحق بكلية الطب بجامعة باريس ، وكذلك فيما بين ١٨٨٩ ، ١٨٩٢ ؛ فحصل على الدكتوراه في الآداب (١٨٨٩) والدكتوراه في الطب (١٨٩٣) .

واشغل چانیه أول أمره مدرساً للفلسفة في مدارس شاتورو وهافر (من ١٨٨٢ حتى ١٨٨٩) وفي مدرسة (ليسيه) لويس الأكبر وكوندورسيه

ووسائل علاجها من تنويم ، وإيحاء ، وكهرباء ، وإعادة الشخصية بالإيحاء Suggestive repersonalization (سجلات الطب العصبي والعقلي . ١٩٢٧ Arch. Neur. & Psychiat. مجلد ١٨ ص ١٥٩ - ١٨٠) . ودرس فوق هذا كثيراً من حالات التخاطر ، والسلوك السيكوباتي ، وتحليل الأحلام ، وما دون الشعور Subconscious في الشخصية المتكثرة . . . كما كتب في العادة ، والتحول الديني المفاجيء ، والمسئولية الأخلاقية والجنائية للمجنون . . . إلخ. وأهم كتبه : طبيعة العقل والآلية الإنسانية The Nature of Mind and Human Automatism (١٨٨٥) ، وأمراض الحبل الشوكي Diseases of the Spinal Cord مع مؤلفين أمريكيين آخرين (١٨٩٥) وتحلل الشخصية Dissociation of Personality (نيويورك لونجمانز جرين ١٩٠٦) ، وخطابه عن : ما دون الشعور Subconscious في مؤتمر علم النفس الدولي بجنيف (١٩٠٩) الذي نشره مع مينستربرج H. Münsterberg وريبو وچانیه وجاسترو وهارت B. Hart (١٩١٠) في بوستن باسم : الظواهر تحت الشعورية Subconscious Phenomena وكتابه اللاشعور The Unconscious (نيويورك مكملان ١٩١٤) ، ومقاله في مؤتمر

Esprits Animaux au XVII Siècle (ألكان بياريس ١٨٨٦) ، ويكون والسميائيون Bacon et les Alchimistes (نفس الناشر ١٨٨٩) وكتابه الهام: الآلية السيكولوجية L'Automatisme Psychologique (١٨٨٩) ، وطبعته السادسة عند نفس الناشر بياريس ١٨٩٣ في ٥٠٠ صفحة) ، وكتابه القيم: الحالة العقلية للمصابين بالمستيريا Etat Mental des Hystériques (١٨٩٢) وطبعته الثانية عند ألكان ١٩١١ في ٧٠٨ صفحة عدا المقدمة . ترجمه إلى الإنجليزية كورسن C.R. Corson ونشره بوتنام Putnam في نيويورك ولندن ١٩٠١ ، وإلى الألمانية كاهاني M. Kahane ، ونشره دويتشه في لبيتسك ١٨٩٤) ، ثم كتابه : مختصر في الفلسفة Manuel de Philosophie نشره فويبير Vuibert (١٨٩٣) ، وكتابه الهام مع ريمون F. Reymond : أنواع من الحصر والسيكاستانيا Les Obsessions et la Psychasthénie في مجلدين : الأول دراسات تجريبية في الأفكار المتسلطة والدوافع والمانيا العقلية وجنون الشك والتهيج والفوبيا والقلق وشعور النقص والنورستانيا .. إلخ . - كيف تنشأ وما علاجها ؛ والثاني مقتطفات من دروس إكلينيكية في هذه الاضطرابات النفسية (نشرهما ألكان بياريس ١٩٠٣ في ٧٦٤ ، ٤٥٢ صفحة) .

وغيرهما (من ١٨٩٠ إلى ١٨٩٧). وعين في هذه الأثناء مديراً لمعمل علم النفس الباثولوجي في عيادة سالپترير (١٨٩٠) ، كما اشتغل (منذ ١٨٩٣) طبيباً للأمراض العقلية والعصبية في باريس . وأخيراً تولى أستاذية علم النفس التجريبي في الكوليج دي فرانس خلفاً لريبو Th. Ribot (من ١٨٩٥ إلى ١٩٠٢) وأستاذية علم النفس في كلية الآداب بجامعة باريس (من ١٨٩٨ إلى ١٩٠٢) . وظل منذ ١٩٠٢ أستاذاً لعلم النفس في الكوليج دي فرانس - فيما عدا أستاذية علم النفس بجامعة هارفرد (١٩٠٦) وجامعة مكسيكو (١٩٢٥) . وكان رئيساً لتحرير مجلة علم النفس السوي والمرضى J. de Psychol. Normale et Pathol. (منذ ١٩٠٦) بمساعدة جورج ديما ، عدا اشتراكه ورياسته لكثير من المجالات العلمية والمؤتمرات والجمعيات والأكاديميات في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا والدانيمرك وأمريكا وفيما عدا كثير من المقالات في مجلة علم النفس (الفرنسية) والصحيفة الفلسفية ، وفي كثير من المجالات الطبية الفرنسية والإنجليزية ؛ نشر چانيه طائفة كبيرة من الكتب من أهمها : دراسة في سيكولوجيا ماالبرانش وفي نظرية الأرواح الحيوانية في القرن السابع عشر Etude sur la Psychol. de Malebranche et sur la Théorie des

مجلدين نشرهما ألن وأنوين في لندن
 ١٩٢٦ في ١٢٦٥ صفحة) ؛ ثم
 كتابه الطب السيكولوجي La Médecine
 Psychologique (فلامريون: بياريس
 ١٩٢٣) ، وكتابه : من القلق إلى
 الشهود De l'angoisse à l'extase
 في مجلدين (ألكان بياريس
 ١٩٢٦) ، ثم : مراحل التطور
 النفسي Les Stades de l'évolution
 Psychologique ؛ والفكر الباطني
 واضطراباته La Pensée Intérieure
 et ses Troubles ، وتطور الذاكرة
 وفكرة الزمن L'évolution de la
 Notion de Temps نشرها شاهين
 بياريس (١٩٢٧) .
 وكذلك كتبه : دروس في الضعف
 والقوة النفسيين Cours sur la
 Faiblesse et la Force Psychologiques ،
 والحب والكراهة L'Amour et la Haine ،
 ونمو الشخصية السيكولوجي L'évolution
 Psychologique de la Personnalité عند
 نفس الناشر بياريس (١٩٣٠) .
 وقد دونَ چانيه تاريخ حياته في
 المجلد الأول من تاريخ علم النفس
 بالتاريخ Hist. of Psychol. in
 Autob. (ص ص ١٢٣ - ١٣٣)
 كما كتب عن : التحليل السيكولوجي
 L'Analyse Psychologique في
 سيكولوجيات ١٩٣٠ (ص ص ٣٦٩ -
 ٣٧٣) ، وعن : الخوف من الفعل

ونشر چانيه وحده كتاباً شبيهاً بهذا
 ومتمماً له باسم : أمراض العُصاب
 والأفكار الثابتة Névroses et Idées
 Fixes في مجلدين أيضاً : الأول
 عن اضطرابات الإرادة والانتباه
 والذاكرة والانفعالات والأمراض المتسلطة
 وعلاجها ؛ والثاني مقتبسات Frage-
 ments من دروس إكلينيكية في
 الأمراض العصبية والأمراض الناشئة عن
 الانفعالات والأفكار المتسلطة وعلاجها
 (نشرهما ألكان بياريس ١٨٩٨) .

وكان چانيه مندوباً في مؤتمر
 علم النفس الدوليين الثالث (١٨٩٧)
 والرابع (١٩٠١) ونشر تسجيلات
 لمحضر جلسات هذا الأخير (عند
 ألكان ١٩٠١ في ٨١٤ صفحة) .
 وأهم ما كتبه بعد هذا : العُصاب
 Les Névroses (نشره فلامريون
 ١٩٠٩) ، وظواهر ما تحت الشعور
 Subconscious Phenomena
 بالاشتراك مع هارت وجاسترو
 ومينستربرج وپرنس وريبو (نشره
 بادجر في بوسطن ١٩١٠) ، وكتابه
 الكبير : العلاج السيكولوجي
 Les Médications Psychologiques
 وهو كما وصفه . دراسات تاريخية
 ونفسية وإكلينيكية في مناهج الطب
 النفسي ؛ في ثلاثة مجلدات ، (نشرها
 ألكان بياريس ١٩١٩) ، وترجمها إلى
 الإنجليزية پول E. & C. Paul
 باسم : Psychological Healing في

ولد في فرايبورج في مورافيا بالنمسا في ٦ مايو ١٨٥٦ ، ولحق بجامعة فيينا (١٨٧٥ - ١٨٨٢) حيث حصل منها على الدكتوراه في الطب (١٨٨١) ، ثم لحق بالمستشفى لدراسة أمراض الجهاز العصبي - بعد إذ اطرح الفيزيولوجيا التي لم تكن تُجدى عليه كسبا وما لبث أن قصد مدرسة سالپترير في باريس Ec. de Salpêtrière - التي كان على رأسها شاركو Charcot - فتأثر بما كانت تقول به هذه المدرسة من تفسير لظواهر التنويم والأمراض العصبية بوصفها هستيرية ، وأن دافعها جنسي أبداً . وبعد سنة عاد فرويد إلى فيينا (١٨٨٦) معيداً لپاثولوجيا الأمراض العصبية (حتى ١٩٠٢) فأستاذاً مساعداً (حتى ١٩٢٠) ؛ فأستاذاً منذ ذلك الحين .

وتدل كتاباته في هذه المرحلة الأولى على تأثره بشاركو الذي ترجم محاضراته الجديدة عن : أمراض الجهاز العصبي وخصوصاً المستيريا Die Krankheiten des Nervensystems insbesondere über Hysterie (١٨٨٧) في صحيفة النيورولوجيا المركزية Neur. Zentbl. (مجلد ٦ ص ٤٢٩) ، كما كتب بتأثيره في طريقة دراسة الجهاز العصبي المركزي (صحيفة العلوم الطبية بقينا ١٨٨٤ ، وسجلات التشريح والتاريخ التطوري Arch. f. Anat. u. Entwickl.-gesch. ١٨٨٤ ص ٥٤٢ - ٤٦٠) ،

كعنصر رئيسي في الشعور بالماليخوليا Fear of Action as an Essential Element in the Sentiment of Melancholia في موسوعة وتبرج في : العواطف والانفعالات Feelings and Emotions (١٩٢٨) ص ص ٢٩٧ - ٣٠٩ ؛ عدا كثير من البحوث والمقالات في مختلف الصحف العلمية والسيكولوجية .

وكان چانيه - كما قدمنا - تلميذاً لشاركو ، فأتاح له هذا - إلى جانب مزاولته للطب في الأقاليم ، وقيامه بتدريس علم النفس في السوربون والكوليج دي فرانس - أن يكون أبا لعلم النفس المرضي في فرنسا ؛ لأن دراسته تعد الخط الفاصل بين دراسة العاديين والشواذ من المرضى ؛ وخصوصاً في ظاهرة المستيريا . كما أن أهم ما يعرف به هو كتابه : الحالة العقلية للمصابين بالمستيريا L'Etat Mental des Hystériques (١٨٩٢) الذي ذكرنا ، والذي ظهرت ترجمته الإنجليزية (١٩٠١) ، وكذلك مختصره الذي ظهر سنة ١٩٠٣

(٦) فرويد (زجموند) Sigmund Freud : هو عالم النفس الذي - على حد ولیم مکدوجل - قد ساهم في تقدم علم النفس بما لم يساهم به أحد منذ أرسطو ، والذي يعد في علم النفس بمثابة نيوتن في الطبيعيات وهارثي في الطب

ثم يأتي الدور الثاني الذي عمل فيه فرويد مع بروير على منهج هذا الأخير في التصريف والتطهير الذي اكتشفه حوالي ١٨٨٠؛ والذي كتب فيه معه : في الآلية النفسية لظواهر الهستيريا Ueber den psychischen Mechanismus hysterischer Phänomene (في : الصحيفة المركزية السنة ١٢ - ١٨٩٣ - ص ٤ - ٤٣) ؛ نشرت في : دراسات في الهستيريا Studien über Hysterie (ص ١ - ١٤) ، وكذلك في : مجموعة أوراق في النظرية العصبية بين سنتي ١٨٩٣ ، ١٩٠٦ (ص ١٤ - ٢٩) ، وكذلك في : كتابات مجموعة (مجلد ١ سنة ١٩٢٥ ص ١ - ٢٥) ترجمها إلى الإنجليزية بريل A.A. Brill باسم : The Psychic Mechanism of Hysterical phenomena في : أوراق مجموعة في الهستيريا والأمراض العصبية والنفسية الأخرى ١٩٠٩ ، ١٩١٢ (ص ١ - ١٣) ، وفي : أوراق مجموعة (مجلد ١ سنة ١٩٢٤ ص ٢٤ - ٤١) . كما نشر معه أيضاً : دراسات في الهستيريا Studien über Hysterie في لبيتسك وفينا (١٨٩٥) في ٢٦٩ صفحة . ظهرت طبعته الرابعة سنة ١٩٢٢ ، كما أعيد نشره في المجلد الأول من : كتابات مجموعة (Gesam. Schr. ١٩٢٥) .

ظهرت ترجمتها الإنجليزية في مجلة Brain (١٨٨٤ ص ٨٦-٨٨) . وكتب كذلك في : نبات الكوكا Cocapflanze (١٨٨٤) وفي : مفعول الكوكاين وآثاره Cocawirkung (أسبوعية الطب بفينا Wien. Med. Woch. ١٨٨٥ ص ١٢٩ - ١٣٥) وأيضاً Allegemienwirkung des Cocains (في مجلة طب الجراحة Med.-chir. Zentbl. ١٨٨٥ ص ٣٧٤) ، ونشر في ذلك رسالة باسم : في الكوكا Ueber Coca (مستخرجة من مجلة الطب العلاجي العام بفينا ١٨٨٥) في ٢٦ صفحة . كما كتب كثيراً في الهستيريا الإنسانية männliche Hysterie (١٨٨٦ - ١٨٨٧) . وأخيراً كتب في شاركو بحثا باسمه : Charcot (في أسبوعية الطب بفينا ١٨٩٣ مجلد ٤٣) وأعيد نشره في : مجموعة أوراق صغيرة في نظرية الأمراض العصبائية فيما بين سنتي ١٨٩٣ ، ١٩٠٦ Sammlung kleiner Schriften zur Neurosenlehre aus den Jahren 1893 - 1906 التي ظهرت سنة ١٩٠٦ (ص ١ - ١٣) ؛ وفي : كتابات مجموعة (Gesammelte Schriften مجلد سنة ١٩٢٥ ص ٢٤٣ - ٢٥٧) . ترجمها إلى الإنجليزية برنيز Bernays في : مجموعة أوراق (مجلد ١ سنة ١٩٢٤ Collected Papers ص ٩ - ٢٣) .

٣٧٥ صفحة) ظهرت طبعته الثامنة المنقحة سنة ١٩٣٢ في ٤٣٥ صفحة عدا المقدمة . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية بريل المذكور ونشرته دار ألن Allen في لندن ومكلان في نيويورك (١٩١٣) في ٥١٠ صفحات كما ترجمه إلى الفرنسية مايرسن L. Meyerson باسم : La Science des Rêves ونشره ألكان بباريس (١٩٢٦) في ٦٤١ صفحة ، وترجم كذلك إلى الروسية (١٩١٣) وإلى الإسبانية (١٩٢٢ - ١٩٢٥) .

ولفرويد رسالة أخرى باسم : في الأحلام (في الحلم Ueber den Traum) ظهرت سنة ١٩٠١ في ٣٧ صفحة ، وطبعها الثالثة (١٩٢٢) . ترجمت إلى الروسية (١٩٠٩) ، وإلى الهولندية (١٩١٣) ، وإلى الإنجليزية باسم : On Dreams (١٩١٤) - ترجمها إيدر M.D. Eder مع مقدمة لماكتري - وإلى الهنغارية (١٩١٥) والإيطالية (١٩١٩) والدانيمركية (١٩٢٠) والإسبانية (١٩٢٢) - (١٩٢٥) والبولونية (١٩٢٣) والسويدية (١٩٢٤) وأخيراً إلى الفرنسية باسم Le Rêve et son Interprétation (باريس ١٩٢٥) ترجمه لوجيرو

H. Legros

وبعد ذلك ظهر كتابه القيم : سيكوباتولوجيا الحياة اليومية Zur Psychopathologie des Alltagslebens

وفي نفس هذه السنة نشر فرويد وحده : في العلاج النفسي للهستيريا Zur Psychotherapie der Hysterie ضمن مجموعة : دراسات في الهستيريا (ص ص ٢٢٢ - ٢٦٩) ، وفي : كتابات مجموعة - الألمانية (مجلد ١ ، ١٩٢٥ ص ص ١٧٨ - ٢٣٨) ؛ ترجمه إلى الإنجليزية بريل أيضاً في : أوراق مجموعة - الإنجليزية (١٩٠٩ - ١٩١٢ ص ص ٧٥ - ١٢٠) . وله كذلك مجموعة دراسة حالات

أمراض باسم : Krankgeschichten في : دراسات في الهستيريا . Stu. ü. Hyst. (١٨٩٥) للسيدة إيمي Frau Emmy والآنسة لوسى Fraul. Lucie وكاتارينا Katharina والآنسة إليزابيث Fraul. Elisabeth . . . نشر كثيراً منها في : كتابات مجموعة (الألمانية) ، وترجم معظمها بريل في : أوراق مجموعة (الإنجليزية) الأولى سنة ١٩٢٥ والثانية ١٩٠٩ - ١٩١٢ ؛ وتجد تلخيصاً لها بالإنجليزية في مقال للدكتور J. Wisdom بمجلة علم النفس المصرية (مجلد ٤ ، عدد ٢ ، ١٩٤٨ ص ص ٢٩٦ - ٣١٦) . . . عدا كتابات أخرى كثيرة لفرويد في هذا الباب .

وانفرد فرويد لنفسه بعد هذا ، وأهم ما كتبه في مذهبه كتابه : تفسير الأحلام Die Traumdeutung (نشره دويتكه في فينا وليبتسك ١٨٩٩ في

ونشرته شركة مطبوعات الأمراض العصبية والعقلية Nerv. & Ment. Dis. Publ. Co. بنيويورك وواشنطن (١٩١٠) ، كما ترجمه إلى الفرنسية دي رفرشون De Reverchon (باريس پايو ، Payot ١٩٢٣) وترجم كذلك إلى الروسية والهنگارية والإيطالية والإسبانية .

أما كتابه في موضوع البديهية وعلاقتها باللاشعور Der Witz und seine Beziehung zum Unbewussten فقد نشره لأول مرة دويتكه في لپيتسك فينا (١٩٠٥) في ٢٠٥ صفحات ، وظهرت طبعته الرابعة سنة ١٩٢٥ في ٢٠٧ صفحات عدا المقدمة . ترجمه إلى الانجليزية بريل ، ونشر في لندن ونيويورك (١٩١٦) في ٣٨٨ صفحة ، كما ترجم إلى الروسية والإسبانية حتى سنة ١٩٢٥

وكتب فرويد بعد هذا مقالات كثيرة في تطبيق منهج التحليل النفسي على نواحي الحياة ، كالتحقق من صدق الشهادة أمام القضاء Tatabstandsdia gnostik (١٩٠٦) - ترجمها إلى الإنجليزية هرфорд E.B. M. Herford في : مجموعة أوراق (الإنجليزية) مجلد ٢ (١٩٢٤) ص ١٣ - ٢٤ ، وكالأفكار المتسلطة obsessive Zwangshandlungen والأفعال الدينية und Religionsübungen (١٩٠٧) - وترجمتها الإنجليزية في مجموعة الأوراق

نشره كارجر في برلين (١٩٠٤) في ٩٢ صفحة - وكان قد نشره من قبل في شهرية الطب العقلي والأمراض العصبية Monatschr. f. Psychiat. u. Neur. (مجلد ١٠ سنة ١٩٠٤ ص ١ - ٣١ ، ٩٥ - ١٤٢) . ترجمه إلى الإنجليزية بريل A.A. Brill ونشره مكملان في نيويورك (١٩٢٤) وألن في لندن (١٩٢٠) في ٣٤١ صفحة عدا المقدمة ، كما ترجمه إلى الفرنسية جانكلفتش S. Jankélévitch ؛ ونشره پايو Payot في باريس (١٩٢٢) في ٣٢١ صفحة ؛ وإلى جميع اللغات التي ذكرنا في سابقه في سنوات مختلفة ؛ وظهرت طبعته الألمانية الحادية عشرة في فينا (١٩٢٩) في ٣١٣ صفحة .

وفيما عدا مقال : منهج فرويد في التحليل النفسي Die Freud'sche Psychoanalytische Methode (١٩٠٤) وقطعة في تحليل حالة هستريا Bruchstück einer Hysteranalyse (١٩٠٥) وفي العلاج النفسي Ueber Psychotherapie (فيينا ١٩٠٥) ؛ ظهر كتابه : ثلاث مقالات في النظرية الجنسية Drei Abhandlungen zur Sexualtheorie (دويتكه فيينا ١٩٠٥) في ٨٣ صفحة وطبعته الخامسة (١٩٢٢) في ١٠١ صفحة . ترجمه إلى الإنجليزية بريل

Sammlung Kleiner Schriften zur Neurosen Lehre نشره دويتكه فى ليبِتسك وفيينا (١٩١٣) فى ٣٢١ صفحة ؛ وكتابه : محاضرات مقدمة للتحليل النفسى Vorlesungen zur Einführung in die Psychoanalyse نشره هاير فى ليبِتسك وفيينا (١٩١٦) فى ٥٥٣ صفحة . وظهرت طبعته الخامسة (١٩٣٠) - ترجمه إلى الإنجليزية ريفيير J. Riviere مع مقدمة لاستانلى هول ، ونشر فى نيويورك (١٩٢٠) وظهرت طبعته السابعة عشرة (١٩٢٧) ، وفى لندن (١٩٢٢) ، كما ترجم إلى بقية اللغات . وكتابه الهام مع بروير : دراسات فى الهستيريا Studien über Hysterie نشره دويتكه فى ليبِتسك (١٩١٦) فى ٢٦٩ صفحة .

وكتابه : ما وراء مبدأ اللذة Jenseits der Lustprinzips نشره فى ليبِتسك وفيينا وزيورخ (١٩٢٠) وطبعته الثالثة (١٩٢٤) ، ترجمه إلى الإنجليزية هاباك Hubback ونشر فى لندن ونيويورك (١٩٢٢) فى ٩٠ صفحة . وكتابه الآخر : علم النفس الجمعى وتحليل الأنا-Massenpsychologie und Ich-Analyse نشر فى ليبِتسك وفيينا وزيورخ (١٩٢١) فى ١٤٠ صفحة ، وطبعته الثانية (١٩٢٤) - ترجمه إلى الفرنسية جانكلقتش (بايو ، باريس

المذكورة مجلد ٢ (١٩٢٤) ص ٢٥ - ٣٥ ، والشاعر وحلم اليقظة Der Dichter und das Phantasieren (١٩٠٨) ، والخبل والأحلام Der Wahn und die Träume فى قصة غرام فلهلم ينسن W. Jensen المسماة جراديفا Gradiva - نشرت فى فيينا (١٩٠٧) والطبعة الثالثة (١٩٢٤) ، ترجمها إلى الإنجليزية داوى H. M. Downey ونشرت بنويورك (١٩١٨) ولندن (١٩٢١) . . . وكثير غير هذه من المقالات فى المشاكل الجنسية Sexprobleme والكتب Die Verdrängung والاشعور Das Unbewusst (١٩١٥) ، وفى الهستيريا والفوبيا (الخاوف) ، وفى التحليل النفسى وعمله وتاريخ حركته ، إلى غير ذلك من موضوعات مذهبه الكثيرة.

وأهم ما كتبه فرويد بعد هذا يتعلق بصميم المذهب : فى التحليل النفسى Ueber Psychoanalyse - وهى خمس محاضرات كان ألقاها فى جامعة كلارك فى سبتمبر ١٩٠٩ ، نشرها فى ليبِتسك وفيينا دويتكه (١٩١٠) فى ٦٢ صفحة ؛ ظهرت طبعتها الثامنة سنة ١٩٣٠ ، وترجمت إلى الإنجليزية (١٩١٠) والبولونية والهنغارية والروسية والهولندية والدانيمركية والإيطالية والفرنسية والإسبانية فى سنوات متتابة حتى ١٩٢٢ ؛ ومجموعة كتابات صغيرة فى النظرية العصابية

وقد بُجعت كتابات فرويد في عشرة مجلدات كبيرة نشرتها هيئة التحليل النفسى الدولية Inter. Psychoanal. Verlag. في ليطسك وينا وزيورخ باسم : كتابات زغونود فرويد مجموعة Gesammelte Schriften von Sigmund Freud (سنتى ١٩٢٤ - ١٩٢٥) كل منها في حوالى خمسمائة صفحة ، نشرت أربعة منها بالإنجليزية في لندن - في هاتين الستين - باسم : Collected Papers by Sigmund Freud . تلك هى أهم كتابات العلامة فرويد كما تجدها في ثبها الكامل بسجل مرتشيزون > ٣ ص ص ٥٩١-٦٠٥ . أما أثر فرويد في علم النفس فيكنى أن تتبينه من تصفح : فهرس التحليل النفسى Index Psychoanalyticus في مكتبة التحليل النفسى الدولية بإشراف إرنست جونز Ernst Jones حيث ذكر مؤلفه جون ريكمان J. Rickman اسم ٤٧٣٩ مؤلفاً بمختلف اللغات في التحليل النفسى فيما بين سنتى ١٨٩٣ ، ١٩٢٦ . وما ظهر قبل هذا التاريخ - وبعده خصوصاً - كثير جداً لا يجمعه حصر .

(٧) اشيكل (فيلهم) W. Stekel :

ولد في بويان Bojan في مارس ١٨٦٨ ، ولحق بجامعة فينا (١٨٨٧ - ١٩٠٣) حيث حصل على الدكتوراه في الطب ، وتولى رئاسة مجلات التحليل النفسى الكبيرة الثلاث : صحيفة

(١٩٢٤) وإلى الإنجليزية استراتشى J. Stratchey لندن (١٩٢٢) ونيويورك (١٩٢٥) ؛ كما ترجم إلى لغات أخرى كثيرة .

وأهم كتب فرويد الأخيرة كتاب له بالإنجليزية في : سيكولوجيا الأحلام للمبتدئين Dream Psychol. for Beginners بنويورك (١٩٢٢) في ٢٣٨ صفحة ؛ والأنا والهو Das Ich und das Es ظهر في ليطسك وينا وزيورخ (١٩٢٣) - ترجمه إلى الإنجليزية ريفير ، وإلى الفرنسية جانكلفتش (١٩٢٧) ، كما ترجم إلى لغات أخرى كثيرة ؛ ومقاتاه في مادتي : تحليل نفسى Psychoanalyse ونظرية اللبى و Libidotheorie في قاموس العلم الجنسى Handwörterbuch der Sexualwissenschaft في بون Bonn (١٩٢٣) ؛ وكتابه : في فن التحليل النفسى وما وراء علم النفس Zur Technik der Psychoanalyse und Metapsychol. ليطسك وينا وزيورخ (١٩٢٤) ؛ وكتابه : دراسات تحليلية نفسية في عمل الشعر والفن Psychoanalytische Studien an Werken der Dichtung und Kunst وعند نفس الناشر وفي نفس السنة ؛ ومقاتاه في دائرة المعارف البريطانية : تقدم التحليل النفسى في هذه السنوات الحصبية Psychoanalytic Exploring in these Eventful Years (١٩٢٤) .

في تفسير الأحلام ، ثم نشر في ذلك كتاباً خاصاً باسم : دلالات الأحلام (أو منطوق الحلم) : عرض لرمز وتفسير الحلم للنفس المريضة والسوية لدى الأطباء وعلماء النفس
Die Sprache des Traumes: Eine Darstellung der Symbolik und Deutung des Traumes in ihrer Beziehung zur Kranken und gesunden Seele für Ärzte und Psychologen نشره برجمن في فيسبادن (١٩١١) وظهرت طبعته الثالثة (١٩٢٧) ؛ وترجم أجزاء منه لند في مجلة التحليل النفسي الإنجليزية (١٩١٧) وكذلك فإن تسلا J.S. Van Teslaar في بوستن بأمريكا (١٩٢٢) .

ولاشتيكل كتب أخرى كثيرة في مختلف مسائل التحليل النفسي :
Nervöse Leute بالعصاب المرضى فينا (١٩١١) ، وأحلام الشعراء Die Traume der Dichter (فيسبادن ١٩١٢) ، والأنا المحبوبة Das Liebe Ich : أسس الدراسة الجديدة للنفس (برلين ١٩١٣) والطبعة الثالثة (١٩٣٠) - ترجمه جابلر إلى الإنجليزية The Beloved Ego لندن (١٩٢١) ؛ والطفولة الجنسية Der Psychosexuelle Infanti- lismus أوربان واشفارتسنبرج وأعماق النفس (بالإنجليزية) (١٩٢١) ؛

التحليل النفسي المركزية Zentralblatt für Psychoanalyse (١٩١١-١٩١٤) - وهي الشهرية الطبية التي أنشأها وتولى رياستها فرويد من قبل (١٩١٠) ، ومجلة : خطوات أبعد في العلم الجنسي والتحليل النفسي Fortschritte der Sexualwissenschaft und Psychoanal. (سنوات ١٩٢٤ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٨ ، ١٩٣٠) ؛ وكذلك : فن التحليل النفسي Psychoanalytische Technik .
واشتيكل من بين أتباع فرويد ، وله طائفة كبيرة من الكتب والبحوث . وقد كتب - أول ما كتب - في الخوف وأثره في الأمراض العصبية والأطفال ، ثم ظهر بعد ذلك كتابه الكبير : اضطرابات حياة الدوافع والانفعالات Störungen des Trieb-und Affekt- lebens وجزؤه الأول في شروط الخوف العصبي وعلاجه Angstzus- اوربان واشفارتسنبرج في فينا وبرلين (١٩٠٨) في ٣١٥ صفحة ، وظهرت طبعته الرابعة (١٩٢٤) في ٦٨٠ صفحة ، وترجمه إلى الإنجليزية جابلر R. Gabler باسم : Disturbances of the Impulses and Emotions - نشره في لندن كيجان پول (١٩٢٢) وفي نيويورك دود وميد (١٩٢٣) .
وكان قد كتب في سنوية بحوث التحليل النفسي Jahrbuch für psychoanal. Forsch. (١٩٠٩)

تسلار (لندن ونيويورك ١٩٢٣) ؛ ودعائم
 الحنسية Masken der Sexualität
 (كنبلر بثينا ١٩٢٤) ؛ وكتابه :
 Peculiarities of Behav. غرائب السلوك.
 في مجلدين نشرهما بوني وليقرت
 بنيويورك (١٩٢٤) ووليمز ونورجيت في
 لندن (١٩٢٥) ؛ وكتابه الكبير :
 السادية والمائزوكسية Sadism and
 Masochism في مجلدين ، نيويورك
 (١٩٢٩) ؛ ثم كتابه : الانحرافات
 الجنسية Sexual Aberrations
 (ظواهر العشق في علاقتها بالجنس)
 في مجلدين ، ترجمها پاركر S. Parker
 ونشرهما ليقرت بنيويورك (١٩٣٠) ؛
 وأخيراً كتاباه الكبيران : أشواط أبعد في
 العلم الجنسي والتحليل النفسي
 Fortschritte der Sexualwissenschaft
 und Psychoanalyse في ثلاثة مجلدات
 نشرها دويتكة في فينا وليبتسك :
 الأول (١٩٢٤) والثاني (١٩٢٦)
 والثالث (١٩٢٨) ؛ والحصر والشك
 Zwang und Zweifel أوربان واشقار -
 تسنبرج في فينا - مجلدان : الأول
 (١٩٢٧) والثاني (١٩٢٩) .

(٨) فِتلز (فريتس) Fritz S. Wittels :
 ولد في فينا في نوفمبر ١٨٨٠ ، ولحق
 بجامعة فينا (١٨٩٨) فحصل على
 الدكتوراه في الطب (١٩٠٤) ، وعُين
 مساعداً في المستشفى العام Allgemeines
 Krankenhaus بثينا (١٩٠٤) -
 (١٩٠٨) ، فمديراً لمستشفيات ماربورج

The Depths of the Soul كيجان
 پول بلندن (١٩٢١) ؛ واثنا عشر مقالا
 في الجنس والتحليل النفسي Twelve
 Essays on Sex and Psychoanalysis
 ترجمة تانباوم S.A. Tannenbaum
 نيويورك (١٩٢٢) ؛ وكتابه الكبير :
 التعشق Der Fetischismus أوربان
 واشقار تسنبرج بثينا (١٩٢٣) في ٦٠٣
 صفحات .

وأتم اشتيكل في ذلك الحين كتابه
 الكبير : اضطرابات الحياة الدافعة
 والانفعالية Störungen des Trieb-
 und Affektlebens المذكور ؛ فظهر
 منه سنة ١٩١٧ عند نفس الناشر في
 فينا المجلد الثاني في : عصاب الجنسية
 المنلية Die homosexuelle Neurose -
 نشر ترجمته الإنجليزية فان تسلار في
 بوستن (بادجر ١٩٢٢) ؛ والمجلد الثالث
 في : البرود الجنسي عند المرأة
 Geschlechtskälte der Frau عند نفس
 الناشر في فينا (١٩٢٠) ، ونشره نفسُ
 المترجم الإنجليزية الأمريكي في
 نيويورك في مجلدين باسم : Frigidity
 in Woman in Relation to her Love
 (بوني وليقرت ١٩٢٦) ؛ والمجلد
 الرابع في : عَمَّةُ الرَّجُل Die
 Impotenz des Mannes عند نفس
 الناشر في فينا (١٩٢١) .

ونشر غير هذا : التحليل النفسي
 والعلاج الإيحائي Psychoanalysis and
 Suggestion Therapy ترجمه فان

وكتابه : تحرير الطفل Die Befreiung
des Kindes نشر في اشتجرت (١٩٢٧) ؛
كما كتب في الحب والجنس والهستريا
والتحليل النفسي ، وعن جيتسه
وفرويد . . . إلخ .

وأهم كتب فتلز - من حيث هذا
الاتجاه - كتابه عن زجموند فرويد :
الرجل ، نظريته ، ومدرسته S. Freud:
Der Mann, die Lehre, die Schule
نشره تال فـرلاج Tal Varlag في
ليبتسك وفيينا وزيورخ (١٩٢٤) -
ترجمه إلى الإنجليزية پول E.C. Paul
ونشره في نفس السنة ألن وأنوين في
لندن ، ودود في نيويورك ؛ كما نقله
إلى الفرنسية دي هرير De Herbert
ونشره في السنة التالية ألكان
بپاريس باسم : Freud : l'Homme,
la Doctrine, l'Ecole .

(٩) أدلر (ألفرد) Alfred
Adler (١٨٧٠ - ١٩٣٧) : .ولد
في فيينا في فبراير ١٨٧٠ ، ودرس في
جامعتها منذ ١٨٨٨ حتى حصل على
درجته في الطب سنة ١٨٩٤ ؛ وألم
حينئذ بالفلسفة وعلم النفس والتشريح
وعلوم الاقتصاد والاجتماع . واشتغل
منذ ١٨٩٨ طبيباً للعيون ، ثم في الطب
الباطني وأخيراً في الأمراض العصبية
حتى انضم لفرويد (١٩٠٩) ثم
انفصل عنه (١٩١١) ليكوّن مذهبه
في علم النفس الفردي . ولم يتولّ
مناصب علمية أو تعليمية إلا حين

والقسطنطينية والقدس وديار بكير في
تركيا (١٩١٥ - ١٩١٩) ؛ ثم
اشتغل مستشاراً نفسياً لمعهد علم النفس
الصناعي في النمسا ، فحاضراً بمعهد
الفيزيولوجيا في جامعة فيينا (١٩٢٦ -
١٩٢٨) فأستأذاً لعلم النفس
والتحليل النفسي بمدرسة نيويورك
الجديدة للبحوث الاجتماعية ، فأستأذاً
لهذه العلوم كذلك في معهد بروكلين
Brooklyn للآداب والعلوم (١٩٣٠) .

ومعظم بحوث فـتلز وكتاباتاه في
التحليل النفسي ؛ فكتابه : العقدة
الجنسية Die sexuelle Not نشره اشترين
في فيينا وليبتسك (١٩٠٩) في ٢٠٦
صفحات ؛ وكتابه : كل
شيء حول الحب Alles um Liebe ،
نشره فيلشيل في برلين (١٩١٣) في
٣١١ صفحة ؛ وكتابه : في الموت
وفي الاعتقاد بالله Ueber den Tod
und über den Glauben an Gott
نشره موريتس پيرلس في فيينا (١٩١٤) ؛
كما كتب كثيراً من المقالات في الجنس
والحياة الجنسية - بالألمانية والإنجليزية
- وأهم كتبه في هذه الأخيرة : حدّ
للفقر An End to Poverty نشره ألن
وأنوين في لندن (١٩٢٤) ؛ وكتابه :
نقد الحب Critique of Love نُشر في
لندن ونيويورك (١٩٢٩) . أما في
الألمانية فله : فن التحليل النفسي
Die Technik der Psychoanalyse
نشره برجمن في ميونخ (١٩٢٦) ؛

Kriegsneurose في : العيادة الطبية
 ١٤ (١٩١٨) Med. Klin. السنة
 ص ٦٦ - ٧٠ ؛ وأخيراً : تقدّم
 علم النفس الفردي Fortschritte der
 Individualpsychol. في مجلة علم
 النفس الفردي الدولية (١٩٢٤) مجلد
 ٢ ص ١ - ٧ ، وبالإنجليزية في
 صحيفة الطب البريطانية Brit. Med. J.
 (١٩٢٤) مجلد ٤ ص ١٢ - ٢١
 ومجلة علم النفس الطبي البريطانية
 Brit. J. Med. Psychol. (١٩٢٤)
 مجلد ٤ ص ٢٢ - ٣١ ، وفي
 الإيطالية Fondamenti e Progressi
 della "Psychologia Individuale"
 في سجلات التحليل النفسي والعصبي
 العامة (١٩٢٥) مجلد ٦ ص ٢٢٧ -
 ٢٣٨ وبالألمانية مرة أخرى في مجلته
 (١٩٢٧) وبالفرنسية Les Idées
 fondamentales de la Psychol.
 Individ. في مجلة علم النفس الواقعي
 Revue de Psychol. Concrète
 (١٩٢٩) ص ٨٩ - ١٠١ .
 أما كتبه فكثيرة جداً ؛ أهمها في
 الألمانية : دراسة تقص عضو
 وتعويضه النفسي Studie über
 Minderwertigkeit von Organen
 نشره برجمن في ميونخ (١٩٠٧)
 والطبعة الثانية (١٩٢٧) في ٩٢
 صفحة ، وترجمه إلى الإنجليزية جليف
 S.E. Geillife وأصدرته منشورات
 الأمراض العصبية والعقلية & Ner.

اشتهر بمذهبه ؛ فكان محاضراً في معهد
 التربية بفيينا ، وأستاذاً زائراً في جامعة
 كولومبيا (١٩٢٩ - ١٩٣٠) ؛ هذا
 عدا جولاته للدعاية لمذهبه في النمسا
 وألمانيا وأمريكا . وقد تولى منذ ١٩٢٢
 تحرير مجلة علم النفس الفردي الدولية
 Intern. Zeitschr. f. Individual-
 psychol.

وقد كتب أدلر مقالات كثيرة في
 موضوعات التحليل النفسي وعلم النفس
 الفردي ؛ أهمها : في الموضوع المادى
 للعمليات النفسية Ueber das
 materielle Substrat der psychis-
 chen Vorgänge في أسبوعية
 الطب العقلي والعصبي (١٩١٠) مجلد
 ١١ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ ؛ ودور
 اللا شعور في العصاب Die Rolle des
 Unbewussten in der Neurose
 في صحيفة التحليل النفسي المركزية
 Zentbl. f. Psychoanal. (١٩١٣)
 مجلد ٣ ص ١٦٩ - ١٧٤ ؛
 والحلم وتفسير الأحلام Traum und
 Traumdeutung في نفس المجلة ونفس
 السنة (ص ٥٧٤ - ٥٨٣) ؛
 ومقالات كثيرة عن علم النفس
 الفردي ، وعلاج المرضى
 بالعصاب ، والتربية وسيكولوجيا
 الأطفال ، ومشكلة الجنسية المثلية
 (الهوموسكس) ؛ ووجهة النظر الجديدة
 في مسألة عصاب الحرب Die neuen
 Gesichtspunkte in der Frage der

في فينا (١٩١٩) . كما نُشر في
مذهبه : تطبيق علم النفس الفردي
ونظريته Praxis und Theorie der
Individualpsycholo. نشره برجمن في
ميونخ (١٩٢٤) وطبعته الرابعة
(١٩٣٠) في حوالي ٢٥٠ صفحة ؛
وظهرت ترجمته الإنجليزية
The Practice and Theory of
Individual Psychology نشره في
نيويورك هاركورت وبريس ، وفي لندن
كيجان پول (١٩٢٤) والطبعة الثانية
(١٩٢٧) ؛ وكتابه : معرفة الإنسان
Menschenkenntnis الذي نشره
هرتسل في لبيتسك (١٩٢٨) والطبعة
الرابعة (١٩٣١) في ٢٣٠ صفحة ،
والذي ظهرت ترجمته الإنجليزية باسم :
Understanding Human Nature
ترجمه ولف W.B. Wolfe ونشره
جرينبرج في نيويورك (١٩٢٧) وألن
وأنون في لسندين (١٩٢٨) ؛
وكتابه : فن علم النفس الفردي
Die Technik der Individ. Psychol.
الذي ظهر جزؤه الأول في : الفن : قراءة
تاريخ الحياة والمرض Die Kunst: eine
Lebens-und -kranken - geschichte
zn lesen (في ١٤٦ صفحة) ،
وجزؤه الثاني في : نفسية تلاميذ
المدارس المشككين Die Seele der
schwererziehbaren Schulkinder
(في ١٨٨ صفحة) - نشرهما سنتي
١٩٢٨ ، ١٩٣٠ برجمن في ميونخ .

Ment. Dis. Publ. Co. (١٩١٧) ؛
وكتابه الكبير : في الشخصية العصبية
Ueber den nervosen Charakter
الذي وصفه بأنه : أساس لعلم
نفس فردي وعلاج نفسي مقارن
Grundzuge einer Vergleichender
Individualpsychol. und Psycho-
therapie نشره برجمن في فيسبادن
(١٩١٢) وطبعته الرابعة في ميونخ
(١٩٢٨) . ترجمه إلى الإنجليزية
جأوليك ولند B. Glueck & J.E. Lind
ونشره موغات في نيويورك (١٩١٧) ،
كما نشر ترجمته الفرنسية پايفي باريس
(١٩٢٦) ، وكتابه مع فورتميلر
G. Furtmüller وغيره : Heilen und
Bilden وهو يشمل أعمال جماعة علم
النفس الفردي الطيبة والتربوية
Ärztlichpädagogische Arbeiten,
des Vereins für Individualpsychol.
نشره راينهارت في ميونخ (١٩١٣)
وطبعته الثالثة نشرها برجمن في ميونخ
أيضاً (١٩٢٨) ، وكتابه : مشكلة
المسوموسكس Das Problem der
Homosexualität نشره راينهارت في
ميونخ (١٩٢٧) وطبعته الثانية
هرتسل في لبيتسك (١٩٣٠) ؛ ثم
كتابه : الجانب الآخر ؛ دراسة
سيكولوجية اجتماعية في خطأ المجتمع
Die andere Seite: Eine
massenpsychologische Studie über
die Schuld des Volkes نشره هيدرش

وأخيراً كتابه : علم النفس الفردى
 فى المدرسة Individualpsychologie in
 der Schule نشره هرتسل فى لپيتسك
 (١٩٢٩) .
 ولأدلر فى الإنجليزية كتب كثيرة —
 منذ ١٩٢٩ خصوصاً — أهمها : مشاكل
 الأعصاب Problems of Neurosis
 الذى جمع وصف تاريخ حالات منها ،
 نشره كوزموپوليتان فى نيويورك وكيجان
 پول فى لندن (١٩٢٩ — ١٩٣٠) ،
 وكتابه : علم الحياة The Science
 of Living نشره جرينبرج فى نيويورك
 (١٩٢٩) وألن وأنوين فى لندن
 (١٩٣٠) فى ٢٦٤ صفحة ؛
 وكتابه : حالة الآنسة ر : تفسير قصة
 حياة The Case of Miss R. The:
 Interpretation of a Life History
 نشره (سنة ١٩٣٠) جرينبرج فى
 نيويورك وألن وأنوين فى لندن فى
 أكثر من ٣٠٠ صفحة ؛ وكتابه :
 تاد الطفل على مبادئ علم النفس
 الفردى Guiding the Child on the
 Principles of Individ. Psychol.
 بالاشتراك مع غيره — نشره جرينبرج
 فى نيويورك وألن وأنوين فى لندن
 (١٩٣٠) فى ٢٦٨ صفحة ؛ وتربية
 الأطفال The Education of
 Children ترجمه له ينسن E. & F.
 Jensen ونشره ألن وأنوين بلندن
 (١٩٣٠) فى ٣١٠ صفحة ؛ وأخيراً
 كتاباه الهامان : أمودج الحياة

والأدلى فى الإنجليزية كتب كثيرة —
 منذ ١٩٢٩ خصوصاً — أهمها : مشاكل
 الأعصاب Problems of Neurosis
 الذى جمع وصف تاريخ حالات منها ،
 نشره كوزموپوليتان فى نيويورك وكيجان
 پول فى لندن (١٩٢٩ — ١٩٣٠) ،
 وكتابه : علم الحياة The Science
 of Living نشره جرينبرج فى نيويورك
 (١٩٢٩) وألن وأنوين فى لندن
 (١٩٣٠) فى ٢٦٤ صفحة ؛
 وكتابه : حالة الآنسة ر : تفسير قصة
 حياة The Case of Miss R. The:
 Interpretation of a Life History
 نشره (سنة ١٩٣٠) جرينبرج فى
 نيويورك وألن وأنوين فى لندن فى
 أكثر من ٣٠٠ صفحة ؛ وكتابه :
 تاد الطفل على مبادئ علم النفس
 الفردى Guiding the Child on the
 Principles of Individ. Psychol.
 بالاشتراك مع غيره — نشره جرينبرج
 فى نيويورك وألن وأنوين فى لندن
 (١٩٣٠) فى ٢٦٨ صفحة ؛ وتربية
 الأطفال The Education of
 Children ترجمه له ينسن E. & F.
 Jensen ونشره ألن وأنوين بلندن
 (١٩٣٠) فى ٣١٠ صفحة ؛ وأخيراً
 كتاباه الهامان : أمودج الحياة

في Die Freudsche Hysterietheorie
شهرية الطب العقلي والعصاب
Monatschr. f. Psychiat. u. Neur.
١٣٩٠٨ (السنة ٢٣ ص ص ٣١٠
- ٢٢ .

وبحث يونج كذلك في : الارتباط :
تحليله وتفسيره ومنهجه وتطبيقه ، ونشر
في ذلك - وحده ومع ركن
F. Peterson و F. Riklin
وغيرهما - مقالات كثيرة معظمها
في : دراسات تشخيصية في الارتباط
«Diagnostische Assoziationsstudien
التي نشرها يونج عند بارت في مجلدين
في حوالى ٥٠٠ صفحة (ليبتسك
١٩٠٦) والطبعة الثانية في مجلد واحد
(١٩١١) ؛ وكذلك في مجلة علمي
النفس والأعصاب (النيورولوجيا)
J. f. Psychol. u. Neur. ؛ وفي
صحيفة الأمراض العصبية والطب العقلي
المركزية u. Centbl. f. Nervenkh.
Psychiat. - التي أنشأها فرويد كما
قدمنا - من أهمها : التحليل النفسى
وتجارب الارتباط Psychoanalyse
und Assoziationsexperiment في
صحيفة عالم النفس والنيورولوجيا
المذكورة (١٩٠٥ - ١٩٠٦)
مجلد ٧ ص ص ١ - ٢٤ ، وفي :
دراسات تشخيصية . في الارتباط
(١٩٠٦) ص ص ٢٥٨ - ٢٨١ ،
وكذلك : التفسير النفسى الپاثولوجى
لتجارب الارتباط Die psychopatho-

العربية كتاب الأستاذ إسحق رمزى :
علم النفس الفردي ، دار المعارف بمصر
١٩٤٦ .

(١٠) يونج (كارل چوستاف)
C.G. Jung : ولد في بازل في يوليو
١٨٧٥ ، ولحق بجامعة بازل (١٨٩٥)
- ١٩٠٠) حيث حصل على درجته
في الطب (١٩٠٢) ؛ واشتغل بعدئذ
طبيباً في زيورخ . وكان عضواً في
جمعية العلاج النفسى الطبية العامة
Allgemeine ärztliche Gesellsch.
für Psychother. وغيرها ، كما حصل على
الدكتوراه في الآداب من جامعة
كلارك (١٩٠٩) . وكانت درجته
(١٩٠٢) في رسالة له عن :
سيكولوجيا وپاثولوجيا ما يسمى بالظواهر
البصرية Zur Psychol. und Pathol.
sogennanter occulter Phänomene
نشرها موتسه في ليبتسك (١٩٠٢) .
وأهم مقالات يونج كتبها في :
الإصابة بالهستيريا Ueber hyster
isches Verlesen - وكانت رداً على
الهرمان Hr. Hahn . نُشر في سجلات
علم النفس العام الألمانية Arch. f. d.
ges. Psychol. (١٩٠٤) مجلد ٣ ص
٣٤٧ - ٣٥٠ ؛ وفي : نظرية
الهستيريا لفرويد Die Hysterielehre
- رداً على ناقدتها - نُشرت
في أسبوعية الطب بميونخ München
Med. Woch. (١٩٠٦) مجلد ٥٣ ص
٢٣٠١ ؛ وكذلك في نفس الموضوع :

von Wittels: Die sexuelle Not
فى : سنوية بحوث التحليل النفسى
Jahrb. f. Psychoanal. und المرضى
Psychopathol. Forsch. (١٩١٠)
مجلد ٢ ص ص ٣١٢ - ٣١٥ ؛
Zur Kritik وفى نقد التحليل النفسى
über Psychoanal. فى نفس المرجع والسنة
ص ص ٨٤٣ - ٨٤٦ ؛ ومورتن
Morton Prince : آليسة
The Mechanism وتفسيرها
and Interpretation of Dreams
نفس المرجع (١٩١١) مجلد ٣ ص
ص ٣٠٩ - ٣٢٨ .

ومنذ حوالى ذلك الحين يتجه يونج
إلى الكتابة فى مذهبه وتحديد معالمة
وتمييزه عن مذهبي فرويد وأدلر وغيرهما
من أتباع التحليل النفسى ، فيكتب فى :
قول فى دراسة الأنماط السيكولوجية
Contribution à l'Etude des Types
psychologiques فى : سجلات علم
النفس (الفرنسية) Arch.de Psychol.

(١٩١٣) السنة ١٣ ص ص
٢٨٩ - ٢٩٩ ؛ وفى : أهمية
اللاشعور فى تحليل المرض النفسى
The Importance of the Uncon-
scious in Psychopathol. ص ص
٩٦٤ - ٩٦٨ ؛ وفى : نظرية التحليل
النفسى The Theory of Psychoana-
lysis فى صحيفة التحليل النفسى
Psychoanal. Rev. (١٩١٤، ١٩١٥)
فى أعداد متفرقة جمعها - فى نشرة

logische Bedeutung des Assozia-
tionsexperimentes فى سجلات
الأثر وپولوجيا الألمانية (١٩٠٦)
مجلد ٢٢ ص ص ١٤٥ - ١٦٢ ،
وكذلك : المقالة الثامنة من « دراسات
تشخيصية فى الارتباط » فى : الارتباط ،
والحلم ، وأعراض الهستيريا
Assoziation, und Hysterisches Symptom
Traum und لپيتسك (١٩١٠) ص ص ٣١-٦٦
ونشرت فى صحيفة علم النفس
والنيورولوجيا (١٩٠٦ - ١٩٠٧)
السنة الثامنة ص ص ٢٥ - ٦٠ ؛
وكذلك : فى موانع الاسترجاع فى
تجربة الارتباط Ueber die Repro-
duktionsstorungen beim Assozia-
tionsexperiment المقالة التاسعة فى
« دراسات تشخيصية » مجلد ٢
لپيتسك ، بارت Barth (١٩١٠)
ص ص ٦٧ - ٧٦ ، وفى مجلة علم
النفس والنيورولوجيا (١٩٠٧) مجلد ٩
ص ص ١٨٨ - ١٩٧ .

وليونج كذلك من المقالات : تحليل
الأحلام L'analyse des Rêves
فى السنة السيكولوجية (الفرنسية)
١٩٠٩ مجلد ١٥ ص ص ١٦٠ وما بعدها ؛
ومنهج الارتباط The Association
Method فى مجلة علم النفس
الأمريكية (١٩١٠) مجلد ٣١ ص ص
٢١٩ - ٢٦٩ ؛ وملاحظات جانبية
على كتاب فستلز فى العقدة الجنسية
Randbemerkungen zu dem Buch

Wandlungen وما يرمزُ إليه und Symbole der Libido الذى كان قد نشره على مرتين فى « سنوية بحوث التحليل النفسى والمرضى » التى ذكرنا : مجلد ٢ (١٩١١) ص ص ١٦٢ - ٢٦٤ ومجلد ٣ (١٩١٢) ص ص ١٢٠ - ٢٢٧ ؛ وعاد فنشره دويتكه فى فينا (١٩١٢) فى ٤٢٢ صفحة ، وطبعته الثانية (١٩٢٥) ؛ ثم كتابه الصغير : خطوط جديدة لعلم النفس Neue Bahnen der Psychol. نشره راشر Rascher فى زيورخ (١٩١٢) فى ٣٧ صفحة ؛ والكتاب الذى نشره بعنوان : مقالات سيكولوجية Psychologische Abhandlungen لمجموعة مقالات ، نشره دويتكه فى فينا (١٩١٤) فى ٢١١ صفحة .

على أن أهم كتب يونج المذهبية : أوراق مجموعة فى علم النفس التحليلي Collected Papers on Analytical Psychol. التى ترجمها إلى الإنجليزية لونج C.E. Long ونشرها باير Baillière فى لندن (١٩١٦) فى ٤١٠ صفحة ، والطبعة الثانية (١٩١٧) فى ٤٩٢ صفحة ؛ وكتابه : سيكولوجيا اللاشعور Die Psychol. der Unbewussten الذى وصفه بأنه : نظرة أخرى فى نظرية ومهج التحليل النفسى الحداثيين Ein Ueberblick über die moderne Theorie und Methode der Analytischen Psychol. نشره

واحدة - سلسلة بحوث الأمراض العصبية والعقلية. Nerv. & Ment. Dis. Monog. Series (١٩١٥) فى ١٣٣ صفحة (برقم ١٩). وعاد يونج فتناول هذا الموضوع وتركيب اللاشعور La Structure de l'inconscient واللاشعور والغريزة Instinct and the Unconscious ، ومسألة القيمة العلاجية للتصريف The therapeutic Value of « Abreaction » وأسس الاعتقاد فى الأرواح The psychol. Foundation of Belief in Spirits ؛ وفى : علاقة علم النفس التحليلي بفن الشعر . . . وغير ذلك من مسائل علم النفس التحليلي فى مجلات علمية كثيرة .

وأهم الكتب التى ألفها وأصدرها يونج هى - عدا رسالته و « دراسات تشخيصية » التى ذكرنا : فى سيكولوجية الخبال العقلى المبكر Ueber die Psychol. der Dementia praecox نشره مارهولد فى هلى (١٩٠٧) وترجمه إلى الإنجليزية برييل وپترسون وأصدرته شركة منشورات الأمراض العصبية والعقلية. Nerv. & Ment. Dis. Publ. Co. بنيويورك (١٩٠٩) ؛ وكتابه : مضمون الذهان der Psychose نشره دويتكه فى لپتسك وفينا (١٩٠٨) فى ٢٦ صفحة ، والطبعة الثانية (١٩١٤) فى ٤٤ صفحة ؛ وكتابه : منبى

ونشره في نيويورك هاركورت وبريس (١٩٢٣) ؛ وكتابه المذهبي الصغير : علم النفس التحليلي والدافع Analytische Psychol. und Erziehung (١٩٢٦) في ٩٥ صفحة ؛ ثم كتابه : العلاقات بين الأنا واللاشعور Die Beziehungen zwischen dem Ich und dem Unbewussten نشره رايشل Reichl في دار مشنات (١٩٢٨) في ٢٠٨ صفحات ؛ وكتابه : أقوال في علم النفس التحليلي Contributions to Analytical Psychol. ترجمه الأستاذان C.F. Beynes & H.G. Beynes بينر ونشره في نيويورك هاركورت وبريس ، وفي لندن كيجان پول (١٩١٠) في ٤١٠ صفحات ؛ ثم الترجمة الفرنسية لكتابه اللاشعور في الحياة النفسية السوية والمریضة — سابق الذكر — L'Inconscient dans la Vie Psychique Normale et Anormale نقلها جرانجان بايار Granjean-Bayard ونشرها پاو في باريس (١٩٢٨) ؛ ثم : مقالتان في علم النفس التحليلي Two Essays on Analytical Psychology هما : في العقل اللاشعوري السوي والمریض ، والعلاقات بين الأنا واللاشعور (سبق ذكرهما بالألمانية) ترجمهما له الأستاذان بينر أيضاً ، ونشرهما پریر في لندن (١٩٢٨) في ٢٩٨ صفحة ؛ وأخيراً كتابه : في النشاط النفسي وموضوعات سيكولوجية

راشر في زيورخ (١٩١٧) ، وطبعته الثالثة المختصرة والمعدلة (١٩٢٦) نشرها باسم : اللاشعور في الحياة النفسية السوية والمریضة Das Unbewusste im normalen und kranken seelenleben (في ١٦٦ صفحة) وقد ترجم له في ذلك هنكل B.M. Hinkle : سيكولوجيا اللاشعور : دراسة لتحويلات الليبدو ورُموزه ، وقول في تاريخ تطور الفكر Psychology of the Unconscious: A Study of the Transformations and Symbolisms of the Libido. A Contribution to the History of the Evolution of Thought نشره موفات وبارد في نيويورك (١٩١٧) في ٥٦٦ صفحة ؛ كما ترجم له إيدر M.D. Eder تجاربه في تشخيص الشروط السيكوباتولوجية التي طبعت في عيادة الطب العقلي بجامعة زيورخ باسم Word Association ونشرها عند نفس الناشر الأمريكي وعند هايمان بلندن (١٩١٩) في ٥٧٥ صفحة .

ثم بعد هذا يأتي كتابه الهام : الأنماط السيكولوجية Psychologische Typen نشره راشر في زيورخ (١٩٢١) ، والطبعة الثانية (١٩٣٠) في أكثر من سبعمائة صفحة — ترجمه إلى الإنجليزية بينر H.G. Beynes باسم : Psychological Types; or the Psychol. of Individuation

جامعة كمبردج بلندن (١٩١٨) في
 ١٣٢ صفحة . كما تناول علم النفس
 الديناميكي في كتابه : مشاكل في علم
 النفس الديناميكي Problems in
 Dynamic Psychol. - وهو كما يقول
 في عنوانه : نقد للتحليل النفسي
 وتعديلات مقترحة - نشرته في لندن
 مطبعة جامعة كمبردج ، وفي نيويورك
 شركة مكملان (١٩٢٣) في ٣٨٣
 صفحة ؛ ثم : سيكولوجيا الانفعال
 The Psychol. of Emotion نشره
 هاركورت وبريس في نيويورك
 (١٩٢٥) في ٥٨٩ صفحة ، وكيجان
 پول بلندن في نفس السنة بنفس
 الحجم ، ثم : تشكل الأحلام
 Metamorphosis of Dreams في
 مجموعة : مشاكل الشخصية Problems
 of Personality نشره في لندن كيجان
 پول ، وفي نيويورك هاركورت
 وبريس (١٩٢٥) في ٤٣٤ صفحة ،
 وأخيراً كتابه : مبادئ علم النفس
 والفيزيولوجيا العامة Common
 Principles in Psychology and
 Physiology نشرته في لندن مطبعة
 جامعة كمبردج ، وفي نيويورك
 شركة مكملان (١٩٢٨) في ٢٨٤
 صفحة عدا المقدمة .

أخرى Ueber die Energetik der
 Seele und andere psychologische
 Abhandlungen نشره راشرفي زيورخ
 (١٩٢٨) في ٢٢٤ صفحة .

(١١) ماك كُردى (جون طومسون)
 J. Th. MacCurdy : ولد في
 تورنتو بكندا (١٨٨٦) ولحق بجامعة
 تورنتو (١٩٠٤ - ١٩٠٨) فحصل
 على درجة الليسانس في الآداب A.B.
 (١٩٠٨) ثم لحق بجامعة جونز
 هوبكنز (١٩٠٨ - ١٩١٢) حيث
 حصل على الدكتوراه في الفلسفة
 (١٩١١) ، ثم عين في مدرسة الطب
 بجامعة كورنل محاضراً في علم النفس
 الطبي (١٩١٣ - ١٩٢٢) فحاضراً
 منذ ذلك الحين لعلم النفس المرضى في
 جامعة كمبردج . وكان عضواً ورئيساً
 لبعض الجمعيات العلمية والطبية
 والمرضية في أمريكا

وقد كتب ماك كُردى - عدا
 مقالات كثيرة - مجموعة من الكتب
 في : سيكولوجيا الحرب Psychology
 of War عند هاينان بلندن (١٩١٧)
 في ٦٨ صفحة ، وداتون بنيويورك
 (١٩٢٦) في ٩١ صفحة ؛ وعُصاب
 الحرب War Neuroses نشرته مطبعة

الفصل السادس

مذهب القصد أو علم النفس الهورمي

كما أن المدرسة الوجودية ترى في الإحساس الحقيقة الأساسية لعلم النفس ، والسلوكية تجدها في الحركات الجسمية ، وعلم النفس الجشطالتي في إدراك الأشكال ؛ كذلك يوجد علم نفس يأخذ نقطة بدئه من حقيقة القصد purpose . والنشاط الإنساني يظهر هذه الوجوه المختلفة إن لم يظهر إلى جانبها أكثر منها . وليس من الغريب أن يجذب هذا أو ذاك في عالم نفس ما ميّله الخاص ، ويؤدى به إلى إنشاء مذهب سيكولوجي على وجه يعينه من النشاط — يسترعيه هو وكأنه أكثر أهمية .

حقيقة القصد :

فحقيقة القصد الإنساني لا يمكن أن تكون موضع جدل (١) . وهؤلاء من علماء النفس الذين يستعدونه من علم النفس هم أنفسهم أفراد مغرضون purposeful . ولا يمكن أن يقرأ تيشير أحد إلا ويدرك أنه بين يدي رجل مقصد . إنه يريد أن يستبعد القصد والمعنى والقيمة ؛ لأنه بهذا الاستبعاد وحده — فيما حسب — يمكن أن يتنزل علم النفس إلى وصف ما هو حقيقي . وهو في نهاية « مقدمته » Prolegomena يبين أن الغرض المباشر لعلم النفس الوجودي يجب أن يكون في إعطاء الحقائق التي هي موجودة : « بل إننا لا نريد أن نفرض طابعاً جديداً على حقائق علم النفس ... وإنما نأمل فقط أن ننسجها كلها بتوافق في شكل سبق تصميمه في جزء منه » . ليس من شك في أن وطسون فرد مقصد ؛ وإن هولم يستعين في سيكولوجياها بالقصد : « في سنة ١٩١٢ صمّم السلوكيون إما أن يتخلوا عن علم النفس أو أن يجعلوا منه علماً طبيعياً ... إن اهتمام السلوكي بأفعال الإنسان هو أكثر من اهتمام المتفرج (الناظر) . هو يريد أن يراقب استجابات الإنسان » . وأنا لا أقتبس من هؤلاء المؤلفين لأرميهم بالتناقض ، فإنهم هنا في هذه الفقرات يسمحون لأنفسهم أن يتحدثوا بوصفهم كائنات إنسانية — لا كعلماء نفس . هم يتحدثون « عن » علم النفس

لا « في » علم النفس . ولكن المرء يستطيع أن يستشهد بهم — كما يستشهد بأى إنسان آخر — لِيَتَبَيَّنَ حقيقة القصد الصائبة أو الظاهرة لأول وهلة . أما أن هذه الحقيقة يجب أن تُبَسِّطَ أو تُجَعَلَ حقيقةً أساسية في علم النفس ، فهذه مسألة أخرى .

ويعتقد الأستاذ كيو Z. Y. Kuo^(٢) — بجامعة فة تان Fuh Tan بالصين ، ومن أتباع طائفة السلوكيين في أمريكا — أن السلوكية قد بلغت حتى ذلك الحين منتصف الطريق في تحريرها نفسها من أفكار العقلية في علم النفس التقليدي . وما يقوله عن القصد جدير بأن نأخذ عنه ؛ بوصفه تقريراً قوياً للاتجاه المقابل نحو أى استخدام لهذه الفكرة في علم النفس * :

« إن فكرة القصد هي بديل خامل lazy substitute للتحليل المفصل الدقيق ... ويفهم أحسن ... للمنبهات الأولية وطابع المنبه ، وبمعرفة أكثر للحقائق السيكلولوجية ، وتبصّر أوضح في تاريخ السلوك بالطريقة عينها التي يصف بها الفيزيقي حركة آلة ما ... فهذه الآلة الإنسانية تسلك على نحو معين ؛ لأن تأثير البيئة قد حدا بها إلى أن تفعل ذلك ...

ورفض فكرة القصد يتضمن نبذ الفكرة الشائعة عن المحاولة والخطأ في تعلم الحيوان ، إذ أن هذه النظرية تقوم على فكرة أن ... للحيوان قصداً ، أو أنه يبذل جهداً لحل مشكلة ... ولو أننا أخذنا بفكرة أن كل حركة للحيوان فهي سلبية ومدفوعة بالتأثيرات المحيطة به ؛ فإنه لا بد أن فكرة المحاولة والخطأ هذه يجب أن تُسْرَك ... فالقصد يُسْتَبَأُ به أو يُخْلَقُه المحرّب ، وليس للحيوان نفسه هدف أو غرض ... وكون الفعل موفقاً أو فاشلاً يتوقف على قصد المحرّب . أما من وجهة النظر الموضوعية فالفعل الواحد له من التوفيق أو الإخفاق ما لأى فعل آخر تماماً . »

ليس من شك في أن كيو يكتب كما يكتب فرد مغرض . بل هو يعترف بأن المحرّب يمكن أن يكون له قصد ، ولكن الحيوان الذي تجرى عليه التجربة لا يمكن أن يكون له قصد ؛ ولا الكائن الإنساني الذي يدرسه علم النفس . وبعبارة أخرى ؛

* ز. ي. كيو : الغلطة الأساسية في فكرة القصد ومغالطة المحاولة والخطأ — مجلة علم النفس (١٩٢٨) مجلد ٣٥ ص ١٤٤ — ٤٣٣

إن القصد يمكن أن يُسَمَّح له بالبقاء في عالمنا العادى ، ولكنه يجب أن يُستبعد من ميدان علم النفس . والأسباب التى تدعو إلى استبعاده هى أنه فكرة عقلية وليس تصوراً موضوعياً (خارجياً) ، وأنه غير ناضج ولا مُتَحَلَّل ؛ وينبغى أن يترك المجال لوصف أكثر تفصيلاً وفيزيولوجية .

فالقصد إذن يُقدِّم نفسه كحقيقة . والمسألة هى كيف نعرض له . قد نرفض أن يكون لنا به شغل ، وقد نُقسِّمه ونبقي على أجزائه ، وقد نعترف به فى مجموعة الحقائق السيكولوجية ونحاول أن نجد له مكاناً ، أو قد نجعله ملكاً على علم النفس ونلحق به كلَّ الحقائق الأخرى ؛ وإذا أخذنا بهذا الدور الأخير فنحن قصديون .
والقصد — كما نستخدم اللفظ بصفة عامة — يشمل حقيقتين ليستا متساويتين دائماً . فهو يشمل التنبؤ بعاقبة فعل معين ، ويشمل الرغبة فى هذه العاقبة . فالطيّار فى مأزق معين ربما تنبأ أنه مُقبِل على الاصطدام بشجرة ؛ ولكن ذلك ليس ما يقصد إليه بالتحديد . والطفل الجائع يصيح ويتخبّط ؛ دون أن يكون لديه بالضرورة أى تنبؤ بالحالة التامة التى يحاولها . فذهب القصد يعنى أسبقية المحاولة أو السعى أولى من أسبقية التنبؤ . وأحياناً فإن الكلمة الأوسع هورم (hor-may) كلمة يونانية بمعنى حاتّ (urge) تُستبدل بها كلمة قصد ؛ وكذلك يُسمّى مذهبُ القصد بعلم النفس الهورمى .

دعوة مكدوجل للقصيدة :

ويشمل علم النفس الهورمى — بالمعنى الواسع — مذاهب فرويد وأدلرو ويونج ، وربما شمل علم النفس الجشطلتى أيضاً . على أن هناك مدرسة — يتركز لديها علم النفس بالتحديد حول حقيقة القصد — هى التى يمكن أن تميّزها بوصفها مدرسة القصد . والمتحدث بلسان هذه المدرسة خصوصاً هو وليم مكدوجل^(٣) (المولود سنة ١٨٧١) بكمبردج ولندن وأكسفورد قديماً ، وجامعات هارفرد ودبوك أخيراً . وأخذ علم النفس الهورمى لمكدوجل شكله فى ١٩٠٨ ؛ فهو بهذا أقدم المدارس التى نعرض لها — باستثناء المدرسة الوجودية وتحليل فرويد النفسى . ولعل مكدوجل لم يتأثر بفرويد أول الأمر ؛ إذ أنه كان يعنى فى ذلك الحين بعلم نفس اجتماعى أولى من علم نفس مرضى . ولكنه حديثاً قد نادى بفرويد زعيماً لعلم النفس الهورمى ، بينما تشبّث هو بمذهب يختلف كثيراً عن مذهب فرويد .

وتعهد مكدوجل - بعد عمَل مُتكرّر فى علم النفس التجريبي والفيزيولوجي بالغ الأهمية - أن يضع فى سنة ١٩٠٨ أساساً للعلوم الاجتماعية . ومقدمته للعلوم الاجتماعية كتابٌ ظاهر الأهمية فى تاريخ عصرنا هذا . فقبل هذا العهد لم يقم علم النفس بمحاولة جدية ليكون فى خدمة العلوم الاجتماعية ، وإنما ترك لكل عالم اجتماعى أو مؤرخ اقتصادى أن يتخذ له علم نفس يختص باستعماله . أما أن هذه السيكلوجيات المرتجلة كانت فجّة فهذا حقاً خطأ علماء النفس المختصين الذين لم يتحملوا مشقة اعتبار كيف أنهم أنفسهم يمكن أن يزودوا "هؤلاء" بعلم نفس قد يلتقى ضوءاً على المشاكل الاجتماعية . لقد كانت السيكلوجية العلمية من الانغاس فى دراسة العمليات العقلية وفى تفاصيل الإحساس والذاكرة وتكوّن العادة حتى أنها نادراً ما مسّت مشاكل الدوافع . على أن العلوم الاجتماعية لم تكن تُعنى بتفاصيل العمليات العقلية أو الحركية ، ولكن ربما شاءت أن تعرف دافع السلوك الإنسانى : هل الناس يعيشون جماعات ويخضعون لحكومة بدافع الخوف من بعضهم البعض ؟ أو بحساب أكبر فائدة لأكبر عدد ؟ أو بمجرد الفُصور الذاتى والتقليد ؟ هل كانت العقيدة من عمل غريزة دينية ، والسياسات نتيجة غريزة سياسية ؟ وهل الضمير ملكة فطرية يتميز بها الصواب من الخطأ ؟ فالذين أرادوا لهذه الأسئلة حلاً قد أخذوا بأحسن إجابة عرضت لهم ، بينما أخذ علم النفس طريقه فى الجانب الآخر . ومن هنا كانت ثورة مكدوجل على النظام القائم ثورة مزدوجة : فهو قد اعترض على علم النفس السابق الموهوس كما وجدته فى العلوم الاجتماعية ؛ كما اعترض على النزعة العقلية ذات الجانب الواحد فى علم النفس التى كانت ، واعترض على الإيمان بأن الاستبطان هو وحده المنهج الصحيح فى علم النفس ؛ « لأن حياة الانفعال والدور الذى تقوم به الدوافع هما الجزء من حياتنا العقلية الذى يُعطى للملاحظة والوصف الباطنيين أقل الميادين فائدة » . أما الدراسات غير الباطنية فى الحيوان والأطفال والشواذ من المراهقين فقد كانت تبشر بكثير فى دراسة الدوافع . والميل إلى النزعة العقلية فى علم النفس قد أدى إلى افتراض أن كل السلوك الإنسانى عقلى وقائم على تدبّر العواقب . ولكن لم كانت عواقب معينة موضع رغبة أكثر من غيرها ما لم تكن هناك رغبات أو حاجات أو دوافع أولية ؟ فكما أنه فى الهندسة يجب أن نُقيم استدلالنا على بديهيات لا يمكن البرهنة عليها ؛ فكذلك السلوك يرجع فى أصله إلى دوافع أولية هى غير عقلية - لمجرد أنها نهائية ، وأنها بيّنة بتفسيها للفرد .

« إنها القوى العقلية ، مصادر النشاط ؛ تلك التي تضع الغايات وتنهض بمجرى كل فعل إنساني — والتي ليست العمليات العقلية لهذه القوى إلا خُداماً أو آلاتٍ ووسائلَ لها — « هذه القوى العقلية » هي التي يجب أن تُحدَّ بوضوح ، والتي يجب أن يُوضَّح تاريخُها في الجنس وفي الفرد ، قبل أن تستطیع العلوم الاجتماعية أن تبنى على أساس سيكولوجي ثابت . والآن . . . فإن علماء النفس . . . قد أغفلوا بوجه عام هذه المسائل الهامة جداً من الناحية الاجتماعية* . »

ومع أن تَشَبُّث مكدوجل بالغرائر كان جديداً ؛ فقد وَجَد له بالفعل أسلافاً جديرين بالاعتبار في مناقشات دارون و . ج . هـ . اشneider G. H. Sehnider ووليم جيمس . فقد كتب جيمس* :

« لم يعد شيءٌ أكثر شيوعاً من ملاحظة أن الإنسان يختلف عن الكائنات الدنيا بحاجته التامة تقريباً للغرائر ، وافترض أنها تعمل فيه « بالعقل » ... يجب بطبيعة الحال أن نتجنب الحصومة حول الألفاظ ، وحقائق الأمر هي في الواقع ظاهرة الوضوح . فلِلإنسان مجموعة من الدوافع أكبر بكثير مما لأي حيوان أدنى ، وأى واحد من هذه الدوافع — إذا أخذ في ذاته — هو من العمى بما يمكن لأقل الغرائر أن تكون . ولكن نظراً لذاكرة الإنسان ، وقدرته على التفكير ، وقدرته على الاستدلال ؛ تأتي كلٌّ من هذه إلى أن تكون مشعوراً بها من جانبه بعد أن يكون قد ... اختبر نتائجها فيما يتعلق بتنبؤ هذه النتائج . »

وبدأ مكدوجل يعمل يَجِد في تنمية علم نفس دوافع السلوك الإنساني . وكدوافع أولية أخذ « غرائر » الإنسان . ولم يُركز انتباهه كله في الحركات الغريزية ، كما أنه لم يقبل قَط تصور هيريت سبنسر للغريزة وكأنها سلسلة أفعال منعكسة . فالغريزة — عند مكدوجل — ليست مجرد فعل حسي حركي آلي ، لأنه لاحظ أن الحس المشترك غالباً ما يربط الغريزة بالانفعال . فالخوف مثلا يمكن أن يُتحدث عنه وكأنه غريزة ؛ أو بوصفه انفعالا ، ويمكن ذلك في الاستطلاع وفي غيره

* ولأم مكدوجل : مقدمة إلى علم النفس الاجتماعي — ميثون وشركاه (١٩٠٨) ، ج ٠ و . لوس وشركاه (١٩٠٩) ص ٣ — ٤ .

* ولیم جيمس : مبادئ علم النفس (١٨٩٠) جز ٢ ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

« من الغرائز » . وقد بدأ له أنه — في الأحوال التي تتعلق بالجماعة — يكون صلب الغريزة هو الانفعال ، وبتميزها بصعوبة عن الانفعال ؛ بواسطة الحس المشترك ؛ يوجد عنصر نازعٍ أو ساعٍ conative or striving element هو الدافع نحو هدف معين . وعلى هذا فالخوف يتضمن دافعاً للهروب ، والغضب دافعاً لتحطيم الخصم فالغريزة إذن عقلية كما هي حركية ، وأبعد من هذا فهي تشمل في الجانب الحسي ؛ ليس مجرد استقبال سلبي للتأثير ؛ بل أفراد الشيء المثير ، والانتباه له وإدراكه . فالغريزة عند مكدوجل إذن هي دافع أول ، وتحتفظ فطري للفاعل . وهي ليست ارتباطاً شير مكتسب بين منبه معين وحركة بعينها . وهو يحللها إلى أجزاء أو وجوه ثلاثة رئيسية :

(١) فمن ناحية الاستقبال receptive side هي استعداد لملاحظة تنبيهات معينة تثير النشاط .

(٢) ومن ناحية الفعل executive side هي استعداد للقيام بحركات معينة أو إحداث تغييرات خاصة في الموقف .

(٣) وبين الناحيتين الاستقبال والفعل . يوجد الانفعال الذي هو صلب الغريزة كلها

وعلى هذا فغريزة الخوف أو غريزة الهروب — مثلاً — تشمل تثبيت الانتباه في الأشياء المرئية ، والانفعال بالخوف ، والنزوع إلى الهرب والحركات المختلفة التي يتحقق بها هذا النزوع .

ولعل من الخير أن تأتي هنا على قائمة مكدوجل في الغرائز ، لنظهر — على الأقل — ما هنالك من فرق بين طراز علم النفس الهورمي عنده وبين طرز فرويد ويونج وأدلر ؛ الذين يقولون عادة بغريزتين ؛ أو طائفتين من الغرائز . وسأعطي القائمة الموسعة كما قدمها مكدوجل في كتابه المحدث : تخطيط علم النفس Outline of Psychology سنة ١٩٢٣ :

غريزة الهروب من الخطر ؛ مع انفعال مصاحب بالخوف ؛

غريزة المقاتلة ، مع انفعال بالغضب ؛

النفور والكرهية « التقزز » ؛

غريزة الولائية في حماية الصغار ، مع الشعور بالحنان ؛

صبيحة الألم الغريزية ، مع الشعور بفقدان المعونة (العجز) ؛

غريزة التزاوج أو الجنس ، مع الانفعال الجنسي ؛
 حب الاستطلاع ؛
 الخضوع مع الشعور بالتواضع ؛
 تقرير الذات ، مع الشعور بالتفوق « أو العلو » ،
 نشدان الصحبة (غريزة التجمع) ، مع الشعور بالعزلة ؛
 البحث عن الطعام ، مع استمرار الطعام ؛
 غريزة الاختزان ، مع الشعور بالملكية ؛
 غريزة الإنشاء « التكوين » ، مع شعور بالإبداع ؛
 الضحك ، مع شعور بالتسلية . « العبث » ؛
 وهناك غرائز أخرى أقل من هذه : كغرائز العطس والسعال والإخراج والتبول ؛
 التي تلعب دوراً غير كبير في الحياة الاجتماعية ؛ وإن كان الشعور والنزوع المصاحبان لها
 أحياناً ما يكونان — بصفة مؤقتة — قويين جداً . ولكن الغرائز الكبرى التي يقول
 بها مكدوجل تلعب بالفعل دوراً كبيراً ؛ وتمتد بكل الدوافع الأولى اللازمة للتمهيد
 للأسرة ، وللمجتمع ، والحرب ، والدين ، وسائر ضروب النشاط الاجتماعي الأخرى .
 والغرائز لا يَحْصُلُها الفرد ، وإنما هي تُسَلَّمُ إليه بالوراثة . وهي الوثبات الأصلية
 في كل نشاطه ، وبغيرها تكون آليته العقلية والحركية أشبه بمعمل نُزَعَتْ منه القوة .
 إذن لكأن الآلة الإنسانية سلبية ، يدفعها مجرد تنبيه يتفق أن يأتي عليها . إن
 الفعل المنعكس يبدو أنه يدفع بهذه الطريقة بتأثير الساعة ، ولكن ما نسميه السلوك
 يختلف عن جملة من الأفعال المنعكسة . فالسلوك يُظهر الخصائص الآتية* :

(١) هو يُظهر درجةً من التلقائية والانفصال عن البيئة المحيطة ؛ في الوقت
 عينه الذي هو فيه استجابة لهذه البيئة .

(٢) وهو يُمثِّلُ استقراراً في لون من النشاط ؛ رُبَّما بدأ بمنبه موقوت ، ولكنه
 يستمر بعد توقف هذا المنبه . والأرنب الذي ما يزال مُندفعاً نحو جحره بعد صوت
 مؤقت هو مثال ذلك .

(٣) وفي كل هذا الاستقرار يوجد كثير من التنوع في السلوك الحركي . فإذا
 عرضت عقبة كان عودٌ ثم وصول إلى نفس الهدف ؛ كأن لم تُقم بإزائه هذه العقبة

* وليم مكدوجل : تخطيط علم النفس — ميثون وشركاه — ص ٤٣ - ٤٦ .

(٤) وينتهى النشاط المتنوع عندما يُوصَل فيه إلى نتيجة بعينها . يأخذ القط حركة قوية نحو شجرة ، وفوق الجذع ؛ ثم يجلس مطمئناً فوق غصن يُطل منه على الكلب .
 (٥) وغالباً ما يتركب الجزء الأول من سلسلة السلوك من حركات تهيئ الحيوان للمرحلة التالية . والرَبْضُ المتحفِّز لِقِطِ الصيد مثل ذلك .
 (٦) فإذا تكرر غالباً الموقفُ المثير لسلسلة السلوك ؛ فإن السلوك المتنوع يأخذ صورة محددة أكثر ، فتستبعد الحركات التي لا فائدة منها ، وتدخل اختصارات وتعديلات . وفى كلمة واحدة ؛ يتعلم الحيوان عن طريق المحاولة والخطأ .

وبالجملة فإن السلوك — إذا نظرنا إليه من ناحية موضوعية خارجية — يدل على نشدان الهدف . وهؤلاء السلوكيون الذين يَعْضُونَ نظرهم عن هذه الخاصة الرئيسية المميّزة لا يمكن أن يَعُدُّوا دارسين للسلوك مُحْلِصِينَ . فنُشدان الهدف goal seeking يتطلب الدوافع ، والدوافع الأولى تقدمها الغرائز .

ومع أن مكدوجل قد تشبَّث إلى هذا الحد بالغرائز الموروثة كدوافع أساسية ؛ فليس من الإنصاف أن نقول إنه قد أغفل أهمية الاكتساب . فالغريزة — كما يَسْتطِرِدُّ هو فى الشرح — قابلة للتحويل عن طريق خبرة الحيوان . فغريزة الغضب أو المقاتلة مثلا تتحور بطريقتين رئيسيتين : فمن الناحية الحسية ؛ تتحور هى بأن تلتصق بالمنبهات الجديدة ؛ بمعنى أنها تصبح مستمرة — كما يقول بافلوف . فالسلوك الغضبي فى الطفل يُثيره الكَبْحُ الفيزيقي أو التدخُلُ الفيزيقي فى حركات الطفل ، ثم بعد هذا ؛ الكَبْحُ أو التدخُلُ بنوع آخر أكثر صِلَة كما يظهر فى الأوامر اللفظية أو نحوها هو الذى يثير الغضب . ومن الناحية الحركية أو التنفيذية ؛ يحدث كثير من التحور والاكتساب أيضاً . فالتجريح والقذف عند الطفل الغاضب تصير إلى العَضِّ ، والحدش ، وشدِّ الشَّعر ، والضرب بجمع اليد ، وبطرق كلامية وغير مباشرة أخرى لإضرار الحَصَم .

وعلى هذا النحو يترك مكدوجل مجالاً كبيراً للاكتساب — سواء فى الناحية الحسية وفى الناحية الحركية ؛ ولكنه ما يزال يقول بأن صُلْبَ الغريزة والانفعال يَتَقَيَّ — من الناحية العملية — هو هو رغم كل اكتساب وخبرة . وهذا الصُّلب الانفعالى (الدافع) هو الذى يجعل للغريزة استمراراً . فالطفل حين يستجيب للإمساك بمرفقيه بالجرح والقذف ، والبالغ حين يستجيب لكلمة إهانة بالبت

في وسائل مُعينة يريد بها إلى إيذاء مُهينته ؛ يبدو واضحاً جداً أنهما يقومان بأفعالٍ جِدَّ مختلفة ، ولكنّ الذي يجمع بين هذه الأفعال المختلفة تحت غريزةٍ بعينها هو انفعالُ الغضبِ والتزوّع إلى الإضرار المشتركين بينهما .

وليس بالطرق التي وصّفنا فحسبُ تتحوّر الغرائز ، وإنما هي ترتبط أيضاً في ميولٍ مُركّبة ؛ أو عواطف . ويتحدث مكدوجل عن الغرائز وكأنها ميولٌ منفصلة من الأصل ؛ ثم هي تُصبح مرتبطة في مجرى خيبرة الفرد . فأكثر من غريزة واحدة تتعلق بنفس الشخص أو الشيء أو الموقف ، وعن طريق هذا النوع من الربط تنمو عواطف الطفل الكبير والبالغ . فالوطنية مثلاً هي عاطفة . الوطنية ليست غريزة ولا انفعالا أولياً . فوطنُ الإنسان يصبح مرتبطاً بأكثر من غريزة واحدة ، وعاطفة الوطنية المركبة هي نتيجة لها . الوطن في حالة الخطر يثير الخوف ، وهو حين تتعدى عليه دولةٌ أخرى يُثير الغضب ، وهو في تناقضه مع الآخرين يُثير تقريرِ الذات ، والدولة - كوطن لنا - تثير انفعالات الكثرة المحبين لها . فدولتنا مرتبطة بانفعالات وغرائزٍ متعددة ، وميلنا المركّب للوطنية ينمو على هذا النحو ؛ ويصبح قوّة دافعة في سلوكنا .

والطفل يُنمّي عواطفه نحو أفرادٍ كأبيه وأمه ، ونحو أنظمةٍ كالمدسة والكنيسة ؛ مما يُثير فيه مختلفَ الانفعالات . وهو يُنمّي عاطفته نحو نفسه ؛ عاطفة احترام الذات التي يُعلق عليها مكدوجل أهميةً كبرى في ضبط النفس والتخلّق والتوفيق . وتقوم عاطفة احترام الذات هذه خصوصاً على غريزتي السيطرة والخضوع : فالمرء بطبيعته رغبة في القوة ، وله أيضاً قدرةٌ مُكافئة لتعرّف السلطة في الآخرين والخضوع لها بلطفٍ قليل أو كثير . وكثيرٌ من الاكتساب يدخل في نموّ اتجاه الفرد نحو نفسه .

وقد راض مكدوجل وغيره كفايتهم في رسم المصادر الغريزية المُتمتلة للعواطف المركبة والميول في حياة البالغ . وهو يرى أن هذه العواطف هي أكثر من مجرد الغرائز ؛ هي العوامل الدافعة المباشرة في سلوك البالغ . وهو لا يقول - كما يُفترض أنه يقول أحياناً - إن كل سلوك إنسانى تدفع إليه الغرائز مباشرة ، وما يقوله بالأحرى هو : إن السلوك مدفوع بعواطف تنشأ عن الغرائز ، وما تزال لها الصفةُ الانفعالية والدافعة التي للغرائز . فالسلوك ليس مدفوعاً باعتبارات عقلية خالصة ؛ بل بأنواع المحبة والكرهه ، والمنفعة والحرأة ، والتنافس والتحمّس ؛ وكل منها

له طابع انفعالى دافع يُشتقُّ أصلاً من الغرائز . ولا يقوم السلوك الاجتماعى فى أساسه على اعتبارات عقلية ، ولا على غريزة اجتماعية واحدة ؛ بل على ارتباط كثير من الغرائز أو كلها . فغريزة التجمُّع بذاتها قد تجعل الناس معاً جماعاتٍ فحسب ، ولكن إذا ما تجمَّعوا ؛ فإن كل غرائزهم الأخرى تتكيف بالمواقف الاجتماعية ، وترتبط فى عواطف هى القوى الدافعة لكل أنواع النشاط الاجتماعى .

ذلك هو النوع من علم النفس الذى قدّمه مكدوجل إلى العالم فى ١٩٠٨ . وقد استقبله بحماسة علماء النفس - كثير منهم وليس جميعهم - وأدى إلى كثير من المناقشات والكتب والمناهج الجامعية فى علم النفس الاجتماعى لدى علماء النفس . لقد خلِّق علم النفس الاجتماعى كفرع من علم النفس ؛ بينما كان يعالجه من قبلُ علاجاً خارجياً فى الغالب علماء الاجتماع . كما تلقاه بميل شديد أيضاً طلاب العلم الاجتماعى ، وبدأ حيناً أنه هو الذى كانوا ينشدونه . وأصبحت الغرائز كأساس للنظم الاجتماعية قضية سلسلة من الكتب لعلماء الاجتماع والاقتصاديين . فجراهام ولاس Graham Wallas (٤) - الاقتصادى الإنجليزى - قد كتب عن « الطبيعة الإنسانية فى السياسة » (١٩٠٨) وعن « المجتمع الكبير » (١٩١٤) مُقتفياً أثر مكدوجل إلى حد كبير ؛ وإن لم يكن على استعداد تام لأن يتابعه فى أن تفكير الإنسان مدفوع كله بهذه الغرائز كما صنفها مكدوجل . وقد تعلق ولاس بفكرة أنه توجد غريزة معقولة ؛ بمعنى أن الإنسان يجب أن يفكر ويقدر المعقولة فى ذاتها الخاصة ؛ وليس فقط إذن أو عندما تنتهى إلى إشباع غريزة أخرى . وعلى أى حال ؛ فإن ولاس قد قبِلَ الغرائز وكأنها حاجات ملازمة للفرد ؛ حاجات على المجتمع أن يواجهها إذا ظلَّ الفرد مكتئباً . وهو يخشى أن مجتمعا الصناعى الحاضر قد تجاوز بعيداً ظروف الحياة الأولية التى تشكلت معها غرائزُه ؛ حتى لم يعد بعد قادراً على أن يواجه حاجات الفرد الغريزية . فبجعل الصناعة آلية هو قد أتاح للعامل دوراً قليلاً فى تقرير ذاته ، وبتأخير سن الزواج قد عطّل من الغريزة الجنسية . وعلى هذا النحو تهياً الفرد فى مجتمعا هذا الحديث لأن تكون له غرائزُ معطّلة ، و« استعدادات معوّقة » ؛ وبالتالي لأن يكون عديم الراحة ومصاباً بالعصاب . فاحتاج المجتمع إلى إعادة تكوينه حتى يستطيع أن يُقدّم مجالاً صحيحاً للغرائز . وهذا اللوُّ من التفكير نفسه قد تبعه عدد من الكتاب

المتأثرين* ، وبدأ أن فيه كثيراً من التنوير .

نقاش حار حول الغرائز :

ونظرية مكدوجل في الغرائز - وإن قُوبلت بحماسة موقوتة - قد ارتدت إلى ما يمكن أن نسميه الأساس الوظيفي لعلماء الاجتماع . فإنهم لما وضعوا نصب أعينهم الجماعة بحسبانها موضوع الدراسة الهام ؛ تأثروا قليلاً بمحاجات الفرد الملازمة أكثر مما تأثروا بأى لون آخر من الحقائق التي لا شك فيها - التي تدل على أن الفرد قد صهره المجتمع . فالفرد يتبرع لغته وعقائده وأخلاقه وعاداته من البيئة الاجتماعية . وليس شك أنه يوجد كثير غير هذه مما يأخذ عن هذا المصدر ؛ يظهر حيث هو معرض في طفولته في الأسرة وعلى الملعب وفي المدرسة ، إلى التأثير بأناس آخرين . فكل ما يسميه علماء الإنسان (الأثرولوجيون) حضارة الجماعة ؛ يبدو أنه مفروض على الفرد ، وليس هو الذي اخترعه أو تطلبه . فبينما قد يبدو من البين لعالم النفس أن المجتمع يتركب من أفراد ، ويجب أن يواجه حاجات الأفراد ؛ إذ الحقيقة الرئيسية عند عالم الاجتماع أن المجتمع موجودٌ ثمة قبل أى فرد معين ، وأنه سابق من حيث الظهور وما بعده ليكون ويهذب الفرد في اتفاق مع حاجاته هو الخاصة ومن هنا فنحن نسلك في تشابه ، ونسلك ككائنات إنسانية ؛ لا بسبب غرائزنا بصفة رئيسية ؛ بل بسبب الحضارة التي يتلقاها بدوره كل واحد منا . تلك هي الفكرة المميزة لعالم الاجتماع .

وفيما بين علماء الاجتماع في ذلك الحين بدأ يظهر استيلاء من نظرية الغرائز استعراطويلاحوالى ١٩٢٠ . وأكثرها في نوعه لمياً كتاب ليرنارد L. L. Bernard^(٥) في ١٩٢٤ ، وعنوانه : الغريزة : دراسة في علم النفس الاجتماعي ؛ وقد وقفه على إثبات عبث كثير من النقاش الجارى عن الغريزة وعدم أهمية الغريزة في المجتمع . وجزء من مهمة المؤلف كان سهلاً حقاً . فإنه لم يعط اثنان من علماء النفس نفس قائمة الغرائز هذه . فقد قال البعض بأكثر من مائة ، بينما رد البعض الآخر هذا العدد - بالتهذيب والربط - إلى واحدة أو اثنتين . ومثل هذا الخلاف

* مثلاً أ . تيد O. Tead : الغرائز في الصناعة Instincts in Industry (هوفتون مغاين وشركاه ١٩١٨) ، ك . پاركر G. Parker : العامل الاتفاقي ومقالات أخرى The Casual Laborer and other Essays . (هاركورت وبريس وشركاهما) ، والأخير لا يصر فقط على قاعة مكدوجل في الغرائز ، بل على تحول الانفعال عند فرويد وعلى مركب النقص والتعويض عند أدلر .

فى التفاصيل كان طَعْنًا فى صحة الفكرة فى مجموعها .
 على أن نقد « برنارد » الأقوى قد كان فى أن ما يُسمّى الغرائز - سواء فى الحديث العادى وفى مختلف السيكلولوجيات - إنما هو إلى حد كبير وُجوهٌ من النشاط مكتسبة . فالصُّحبة ، ورعاية الأبوين ، وتقرير الذات ، والتحصيل أو الاقتناء - كما نراها بين الناس - هى طرائق مُركّبة من النشاط يُحصّلها الفرد خلال صلته بالبيئة الاجتماعية . وليس تبدو عليها علامات الوحدات القابلة للوراثة . فأن نتحدث عن صُلب مَرَكزى انفعالى فى السلوك ؛ موجود فى كل وجوه النشاط المتغيرة التى يُقال إنها تابعة لغريزة ؛ يدّهش له برنارد وكأنه صُوفى أو ميتافيزيقى . حقاً إن هناك غرائز ؛ ورُبما غرائز كثيرة - يؤمن بها برنارد - ولكنها أفعال صغيرة أولية ، لا تشبه فى شىء وجوه النشاط الشاملة التى نسميها عادة بالغرائز . وينبغى ألا ينسى عالمُ الاجتماع والمُصلح الاجتماعى وجودَ هذه الغرائز الضئيلة ؛ بل يلزم أن يُعلّقها عليها قليل أهمية . إنها لا تلعب الدور الذى وضعه مكدوجل للغرائز ، ثم هى لا تحدّد الأهداف ولا تقوم نشاط سلوك الإنسان .

أما الذى يُحدّد الأهداف ويزوّد النشاط بالمنبهات فهو - فى نظر برنارد - البيئة المحيطة وخصوصاً البيئة الاجتماعية . فالبيئة المحيطة تُهيء العوامل المكونة التى تُهيمن على نموّ الذكاء والتدبير . ويجب أن نذكر أن الإنسان - بتعاقب أجيال كثيرة - قد أنشأ حول نفسه بيئةً مُصطنعة إلى حد كبير ؛ سواء فى الأشياء المادية التى يستخدمها ، وفى العادات والنظم التى يضبط بها سلوك كل قادم على المسرح . وليس شك فى أن هذه الترتيبات الاجتماعية عليها أن تلقى بالا إلى حاجات الفرد البيولوجية ؛ ولكن ؛ فى الأغلب ؛ فإن الفرد يتشكّل ويتكيّف بتأثيرات البيئة المحيطة .
 وعبارات قليلة من برنارد سوف تصور وجهة نظره* :

« وهناك وجهتا نظر فى العلوم الاجتماعية مُحدّدتان تحديداً حسناً فيما يتعلق بأهمية نظرية فى الغرائز كأساس لتقدّم نظرية فى الاجتماع . فطائفة من الكتاب والمعلمين قد قنعوا بأن الغرائز ذات أهمية ثانوية فى دفع السلوك الاجتماعى . . . وهم يقولون بأنه مهما تكن الغرائز التى للإنسان جدّ أولية ، وذات طابع بيولوجى مُقرر تماماً ؛ فإنها قبل كل شىء مُحدّدة لتكيفاته الاجتماعية . . . والإنسان المتمدين - فيما

يقولون — هو حيوان مُتَنَوِّرٌ يعيش في بناء أو مجتمع صناعي (مصطنع) . هذا النظام المصطنع ، المجتمع الإنساني ؛ يصبح باستمرار أكثر اصطناعاً واشتقاقاً ؛ حتى إلى حد إبطال الدافع الفطري للإنسان بدرجة كبيرة وتحت « هذا » النظام المصطنع أو المتمدين يختار موضوعاتٍ أخرى لَصَرَفِ المجهود غير هذه التي قد تملئها الدوافع الفطرية وحدها أو الغرائز ؛ إذا ما سُمِحَ لها بأن تَضْبِطَ سلوكه . وهؤلاء الذين يؤيدون وجهة النظر المعارضة يَحْتَجُونَ بأن الإنسان ما يزال هو مخلوق الغريزة ؛ وإن كان قد اكتسب — في القسم الأكبر — أن يقود دوافعه الغريزية في طرق أكثر كفايةً واجتماعاً في إبقاءٍ على حاجاتِ المدينة المتوسعة . . . والغريزيون — ويمثلهم يَحَقِّقُ مكيدوجل — يقولون بأن العناصر المكتسبة في التخلق أو التصرف والتدبير إنما تتكون تحت سيطرة الغرائز . أما القائلون بالبيئة المحيطة فيقولون بعكس ذلك ، وينظرون إلى البيئة — وخصوصاً البيئة السيكو اجتماعية — وكأنها عوامل مُكونة .

وبرنارد يُعد نفسه بصفةٍ مُقرَّرةٍ وكأنه من أنصار البيئة environmentalist . وهو في الأغلب يتحدث عن الدوافع المحيطة وكأنها محددة بسلوك الفرد . وهو يعترف بأن الفرد ليس عجينة « تتشكل » تماماً ، وأن الدوافع المحيطة هي حقاً المنبهات التي تثير استجابات الفرد . وربما يبدو أنه يقف على كثير من الأساس نفسه الذي وقف عليه كيو Kuo الذي قال — كما تذكَّر — أن « الآلة الإنسانية تسلك في طريق معين ؛ لأن تأثير البيئة قد دفع بها إلى أن تفعل ذلك » . إلا أن برنارد يُعنى خصوصاً بتأكيد البيئة الاجتماعية . ويبدو أنه قلما استخدم من الأغراض أو الدوافع أكثر مما استعمل كيو . ولكنك ستجد برنارد يَمْضِي أحياناً في نوع من الكلام يبدو أنه يكشف عن أمره كله . لاحظ ما يقوله تحت عنوان « سيطرة البيئة المحيطة » * :

« المدنية نفسها هي في جزء كبير مذهبٌ إعلاءاتٍ ودوافع . فنحن لا نطلق لدوافعنا الغضبية والجنسية والدوقية والخوف والتجمع كلَّ عنان ؛ بل على العكس من ذلك نُنشئ لها ضوابط لا حصر لها حتى لا نُحطِّمَ عمل الحضارة « بالرجوع إلى الطبيعة » عن طريق التبعُّب الأعمى لدوافعنا وأحسن منهج لهذا الضبط

* ل . ل . برنارد : مقدمة إلى علم النفس الاجتماعي ، هنري هولت وشركاه (١٩٢٦) ص ١٣٨

هو بما نُسَمِيهِ الإِعْلَاء sublimation . وهذا يشمل توجيهِ الدوافع فى طرق اشتقاقية وبديلة . . . ونُظْمُنَا المكوّنة . . . هى دائماً مُشْتغِلَةٌ بهذه المشكلة ؛ مشكلة أكثر وسائل الضبط تأثيراً ، وبالتدرّيج . . . ستكون قادرة على أن تضع نظاماً سوف ينزل بالدوافع الفطرية إلى خدمة المثلّ المحرّدة الكبرى لمذنية حضارية . وإذن فالبيئة - أولى من الغريزة - هى التى تُشكّل الآن سلوكنا فى الأصل . بل إن البيئة تنتفع بالغريزة فى خدمة . . . مُثلها الخاصة .

فإذا كانت هذه المقتبسة الأخيرة تُمثّل بحق وجهة نظر برنارد ؛ فإنه يجب أن أقول إننى لا أرى فارقاً جوهرياً بينه وبين مكدوجل . فكدوجل - والحق يُقال - يأخذ موقف الفرد ومطالبه على المجتمع ؛ بينما برنارد يأخذ موقف المُنظّم أو المُصلح الاجتماعى الذى يريد أن ينتفع بهذه المطالب لمصلحة المجتمع . ولكنّ كليهما يتكلم عن الدوافع الفطرية التى يمكن أن تُوجّه من جديد أو تُجدد مُخرِجاً جديداً . ويحاول مكدوجل أن يُبين فى شىء من التفصيل كيف تعمل الغرائز خارجاً فى الحياة الاجتماعية . فيكتب مثلاً* :

« إن غريزة المقاتلة قد لعبت دوراً ليس ثانياً لشيء فى تطور النظام الاجتماعى وفى العصر الحاضر هى تعمل بقوة أكثر من كلِّ غيرٍ فى إنتاج أدلة للانفعال والفعل الجمعيين بدرجة كبيرة . . . ولكن طرقها فى التعبير قد تغيّرت بِنمو المدنية ، فكما أن نمو القانون والعادة يُقلّل من الصراع البدنى للأفراد ويجعله غير ضرورى ، فهذا يترك مجالاً للصراع الجمعى للجماعات ولأشكالٍ من الصراع بين الجماعات أكثر تهدياً .»

وقد كان برنارد يستطيع أن يقتبس هذه الفقرة ليبيّن ماذا يعنى «بضبط الإِعْلَاء» control of sublimation . وصحيح لا شك أن مكدوجل يفكر فى هذه الطريقة وكأنها أكثر أهمية فى السلوك الاجتماعى مما يفكر برنارد . فإن برنارد يفكر فى السلوك وكأنه نَسَق من العادات يتكون عن الحركات العفوية random movements أو الغرائز الصغيرة للطفولة بعملية إشراطٍ تحت تأثير البيئة ؛ حتى أن سلوك البالغ فى الأصل ينبغى أن لا تكون له صلة بالدوافع الفطرية

* ولم مكدوجل : مقدمة الى علم النفس الاجتماعى (١٩٠٨) ص ٢٧٩ .

وقد كان علماء الاجتماع جِدَّ مُستَعِدِّينَ لأنَّ يَنْبُدُوا صِلَتَهُمَ بنظرية الغرائز . وأنا قد انحرفتُ بِمَجْرَى الحوادثِ بَعْضَ الشَّيْءِ بِوَضْعِ ثورتهم على الغرائز قبل ثورة علماء النفس . فإن علماء النفس لم يَقْبَلُوا قَطُّ طَريقَةً مكدوجل في معالجة الغرائز بما يُشبه الاتحادَ في الرأى . فنورندايك ووطسون كلاهما قد نقد هذه الغرائز الواسعة بوصفها فقيرة في إنشائها ، ولم يُعَلِّقْ كثيرًا من الأمل على فكرة القوى الدافعة الفطرية . إنما كانت المسألة الرئيسية لعلماء النفس هي : إلى أى حَدِّ كانت نماذجُ السلوك المركب موروثَةٌ أكثر منها متكوِّنة بالاكْتساب . وقد بدأتُ الشكوكُ تُثارُ عما إذا كانت الأفعال المركبة تُزوِّدنا بها الطبيعة ؛ فربما كان أن الحركات البسيطة وحدها هي التي تُزوِّدُ بها الطبيعة ، وكل الفاعليات المركبة مكتسبة . وقد عَرَضَ المنعكسُ الشرطى اقتراحاً بأنَّ مثل هذا الاكْتساب ربما استمر عن غير قصد ، وكذلك مُبكرًا جدًّا في سن الطفولة . وحاصل هذه المناقشة جعلُ علماء النفس أكثرَ نقدًا للغرائز مما كانوا .

على أن هذا العود السيكولوجى لنظرية الغرائز لا علاقة له بضرورة بمذهب القصد . وأنتُ تلاحظُ أنه توجد مسألتان تختلطان معاً في هذا الجدل حول الغريزة . إحداهما هي إلى أى حَدِّ تكون نماذج السلوك فطرية وإلى أى حَدِّ يجب أن تكون مكتسبة ؛ وتلك هي المسألة التي عُنِيَ بها علماء النفس أكثر ما عُنُوا ، والتي حوِّلتُ قُوَّوا اتجاههم النقدي ؛ هذا الذى يتطلَّبُ أن يَتَبَيَّنَ - قبل أن يَعْتَرَفَ - أن نموذج سلوكٍ ما فطرى . والمسألة الأخرى هي مسألة الدوافع الفطرية أو البواعث الأولية . ولن يُودى كثيراً بمذهب مكدوجل في علم النفس اضطراره إلى الاعتراف بأن كل نماذج السلوك تقريباً من خوف ، وغضب ، وحب ، واستطلاع ، وسيطرة ؛ والغرائز الأخرى إنما تحَصَّلُ بالاكْتساب والشرط . وما يُريده هو من غريزته في المقاتلة أو الصراع ليسَ القيامَ بأى قتال من نوع راق ؛ بل الميل إلى مقاومة التدخل بقوة الغضب . فإذا كان المرء في تركيبه بحيث يفعل ذلك ؛ مستخدماً من الوسائل ما يعرض له ؛ فهنا إذن يمكن أن نتكلم عن دافع غصبي أولى يعمل في صور كثيرة في مختلف مُستويات السلوك .

وعند كثير جداً من علماء النفس تقريباً أن فكرة دوافع أولية بوصفها « قوى دافعة » أو « مصادر أولى للنشاط » تَهْتَفُ بنوع من الميثولوجيا التي يَأْمَلُونَ هِمَّ أن يتخلصوا منها . فالغرائز ككائنات تُذكِّرهم « بالملكات » القديمة . وهم يشكون في

وجود واحدة من هذه الكائنات أو العوامل المنفصلة . ولذا فإن جملة علماء النفس — الذين يمكن أن نُسَمِّيمَ وَضَعِيَّينَ في اتجاههم — يبدو أنهم قد تأثروا قليلاً بالغرائر كما تصوَّرها مكدوجل ؛ بينما هؤلاء الذين يشتهون الكائنات يسرُّهم في العادة ثنائية فرويد في غريزتيه الكبيرتين ، أو لبيدو يونج الواحد ؛ أكثر « مما تسرهم » قائمة مكدوجل المتعددة في الغرائز ، وأدناهما إلى حقائق السلوك — مع هذا — هي الأخيرة لا شك . أما عند الوجودي فإن مكدوجل يبدو أنه يعالج فروضاً أولى منها حقائق مباشرة للخبرة ، ويبدو — أبعد من هذا — أنه من الانغماس في الفوائد الاجتماعية لعلم النفس بحيث يندر أن يثبت قط في ميدان علم النفس الخالص . أما علماء النفس الجشططيون فيبدو أنه لا اعتراض لهم كبيراً على الغرائز ، ولديهم موضعٌ مُحدَّد في مذهبهم « للبحث عن الهدف » ؛ حيث يبدو في طريقة « ملء الفراغ أو سدَّ الهوة closing the gap » ويرتبط بحركات ديناميكية وفيزيقية . وعلى العموم فإن مذهب القصد — كما يمثله مكدوجل — يشغل مركزاً غير مُتَّعين في الوقت الحاضر ، ومن المحتمل أنه لا يلقي الانتباه الذي يستحقه .

الموقف الحالي لمذهب القصد :

وعلى أي حال فإن مكدوجل يُعبّر عن نفسه* في شجاعة أكثر بانسباق جديد لفكرة اتجاهه فيقول :

« منذ خمسة عشر عاماً أظهر علماء النفس في أمريكا — بغير استثناء تقريباً — إغفالا تاماً لأخصّ وأميز وأهمّ طابع للنشاط الإنساني والحيواني ؛ أعنى بحثه عن الهدف . فكانت جميع الأفعال الجسمية وكل وجوه التجربة استجابات آلية لمنهات ، وكان كلُّ اكتساب هو تحويل هذه الاستجابات بإضافة استجابة إلى أخرى تبعاً لمبادئ الربط الميكانيكي . . . أما الآن فكل شيء لحسن الحظ قد تغير ؛ فإن علماء النفس الحيوانية قد بدءوا يدركون أن أيّ وصف لسلوك الحيوان يُغفل طبيعة بحثه عن الهدف فهو تافه ؛ . . . وهم يشتغلون بدراسة « الدوافع » ، و« الأوضاع » و« البواعث » الداخلية . . . وكثيراً ما تظهر نفس حالة هذه الأمور في الكتابات الأمريكية الجارية عن علم النفس البشري . . . فالدافع — بعد أن كان

* في ك . مرتشيزون C. Murchison ناشر سيكولوجيات ١٩٣٠ (مطبعة جامعة كلارك) ص ٣

مجهولاً تقريباً — قد أصبح مسألة ذات أهمية رئيسية . ومع هذا . . . فنحن في فترة انتقال ؛ وكل هذه المعرفة بالطبيعة القصدية للنشاط الإنساني جزئية وغير مُرضية » .

والذي يعنيه بتسمية المعرفة الحاضرة بالقصدية «جزئية وغير مُرضية» هو أن غالبية علماء النفس يبدون مُصرّين على أن يردّوا القصد إلى شيء أكثر بساطة . فالجوع ، والعطش ، والتعب ، والنوم العميق ، وربما الشهوة الجنسية ؛ يُقال إنها حاجات عضوية ، « حاجات الأنسجة » . أي حالات كيميائية للكائن العضوي تُفرض عليه أنواعاً مُعينة من النشاط (أو الحُمول) . والخوف والغضب مُرتبطان — بالمثل — بالحالة العضوية التي تُنتجها الأعصاب السميّتاوية وإفراز الغدد الأدرينالية* . وعلى هذا فكثير من الدوافع الأولية يبدو أنه تُعنى بها الحالات الفيزيولوجية للكائن الحي . وقد وجد علماء النفس صعوبة أكثر في أن يردّوا إلى حدود أبسط الأغراض أو المقاصد التي هي شائعة في الحياة اليومية والتي لا علاقة لها واضحةً بهذه الحالات الفيزيولوجية . وفي مثال بسيط ؛ أنت تطلب شيئاً ما لغرض خاص ، وتذهب تبحث عنه ؛ فأنت تظّل في هذا النشاط بعض دقائق حتى تجد ما تريد . هذا البقاء ربما لا يشير إلى أي «مطلب للأنسجة» شبيه بالجوع أو العطش ؛ ولكن علماء النفس يقترحون أن نوعاً من الوضع — أو تكيف المخ أو الكائن العضوي كله — يبدأ في النشاط عندما يبدأ نُشْدان الهدف ، ويظل في الداخل حتى يتوصّل إلى الهدف . وقد عرّضت اقتراحات غامضة من هذا النوع بشأن رد القصد إلى شيء فيزيولوجي ، وبصدد تمكين علم نفس استجابة المنبه من أن يعنى بحقيقة القصد من غير أن يزيد أية مقولة رئيسية جديدة على نظامه .

ومكدوجل لا يرضى عن مثل هذا الإدخال «الجزئي وغير المرضي» للقصد في علم النفس . وهو الآن يُعرّف سيكولوجيا القصد عنده في حدود واضحة قوية* :

إن مهمتي هي أشق مهمة لتحقيق علم النفس — الأبعد جوهرية وقصدية —

* قارن « الوظائف الذاتية والشخصية » لكيمف E. J. Kempf — بحوث في المرض العصبي والمقل (١٩١١) رقم ٢٨ .

* سيكولوجيات ١٩٣٠ — ص ٤ .

الموسوم بصفة « الهورمي » ؛ وهو علم نفس . . . يقرر أن السعى القوى نحو هدف ما هو مقولة رئيسية في علم النفس ، وهو عملية من نوع لا يمكن أن يفسر بطريقة آلية أو أن يحلَّ إلى نتائج آلية

وبدلاً من أن يبدأ بالأفعال المنعكسة أو الإحساسات الأولية أو أى شيء آخر بسيط ؛ يرى مكدوجل أن خط الهجوم المعين في علم النفس هو أن تتقدم من المعلوم إلى المجهول . فالذى نعرف أكثر - في ميدان السلوك - يتركب من أفعال قصدية واضحة . فينبغي إذن أن نجعل من السلوك القصدى المحدد أساساً لفهمنا للسلوك الذى لا نفهم جيداً هذه الجودة . فالسلوك الأمثل هو سلوك قصدى . والقصد ليس استثنائياً ، ولا هو خارج الميدان ، ولا يُفسر برده إلى شيء أبسط . إن القصد يمكن خصوصاً أن يُنقل إلى علم النفس المرضى ؛ على نحو ما فعل علماء النفس الهورميون ، وفرويد بصفة خاصة ؛ والقصد يمكن أن يُنقل خصوصاً إلى علم النفس الحيوانى ، وأن يُطبَّق على كل سلوك يكون له - منظوراً إليه من الناحية الموضوعية - خصائص البحث عن الهدف . وفي هذه الناحية النظرية ؛ يفكر مكدوجل في الطبيعيات والكيمياء الهورمية ، وفي إمكان أن يكون العلم النهائى غائياً teleological وليس آلياً ميكانيكياً . فنحن نقف إذن - حسب مكدوجل - عند مفترق الطرق في علم النفس . فعلينا أن نحلَّ مسألة ما إذا كان النشاط العقلى الإنسانى ميكانيكياً أو يرمى إلى غاية . ويجب أن نتخيَّر جواباً ونوجه علم النفس لدينا بمقتضاه . وأعترف - عن نفسى - أنى لا أستطيع أن أرى هذه المسألة وكأنها مُحرَّجة بحق ؛ فإنه يبدو لى أن القصد والتنبؤ ممكنان فحسب عندما تكون لدينا معرفة ما بالعلَّة والمعلول الآليين . والنشاط القصدى الكامل التوى يتطلب استخدام وسائل للتأدى إلى غايات ؛ والوسيلة هى علَّة الغاية معلولة لها . فنحن نقوم بفعل معين . ونتنظر نتائجها التى هى ما نقصد إليه حقيقة . فنلقى دلو ماء على النار لنظفها مُعتمدين على نالٍ علمى معروف . وأبعد من هذا ؛ فإنه يبدو لى أن التنبؤات والمقاصد تنهض كنتاج فى مجرى العمليات الطبيعية ، وأن لها نتائجها فى نفس هذا الحبرى . وببعض علماء النفس بعد أن يحولوا أنفسهم على كثير من المشقة فى إظهار أن المقاصد وما شابهها هى فى الواقع طبيعية وعمليات سلوكية - فإنهم مع هذا يخشون أن يُنكروا عليها أية كفاية عليَّة . ومثل

هذا التردد لا أساس له ؛ لأنه إذا كان القصد يتعلق بعالم العمليات الطبيعية بوصفه معلولاً ؛ فإنه يقوم ثمة أيضاً بوصفه علة

ولست أرى أى خطأ كذلك فى قبول القصد كحقيقة يقينية ، وفى نفس الوقت أسعى إلى رده إلى عمليات فيزيولوجية — إذا أُخِذَتْ هى بمفردها لم تكن قصدية . وهذه بالضبط حالة أخرى لكل له خصائص ليست توجد فى أجزائه . وليس هذا بأقبح من أن ترتد إلى الفيزيولوجى — وقد أُلقيت كُرّة — وتسأله أن يشرح لك أى العضلات اشتركت فى هذه الحركة ؛ وإن لم يمكن أن يقال عن واحدة من هذه العضلات أنها قذفت بالكرة . فالقصد — كما نعلم — يقوم فقط فى الفاعليات المركبة ، وإذا نحن سمحنا لأنفسنا بأى تقسيم لهذه الفاعليات المركبة ، فنحن مضطرون إلى فقد القصد فى هذا النتاج التحليلى .

ومكدوجل — شأنه فى ذلك شأن يونج — يربط النظرية الهورمية بنظرية الفيزيقيين فى الطاقة . « فالنشاط الهورمى . . . يبدو أنه يشمل إطلاق الطاقة الموجودة أو الكامنة بصورة كيميائية فى الأنسجة . . . ولكنه يرفض أن يذهب إلى ما وراء الحقائق ، وأن يرتبط بفروض جارية فى علم الفيزيكا ، كما أنه يرض أن يعمى عن الحقائق الأساسية » فى نشدان الهدف . ومكدوجل لا يبدو إذن أنه يُصَادِر على نشاط هورمى خاص مختلف عن النشاط الفيزيقي .

والنشاط القصدى — كما يُصَرِّحُ مَرَّاراً مكدوجل — نَعْرِفه على أنه نشاط عقلى ؛ مع إدراكٍ للموقف ، وتنبؤ بالنتائج التى سوف تحدث ، وسعى نحو هدف . وارتياح لبلوغ هذا الهدف . تلك هى الحقائق الأساسية التى يَأْتِي علم النفس الهورمى أن يُغْفِلَهَا . فهو يقول بالمعرفة كحقيقة جوهرية ، ولكنه لا يقع فى التزعة العقلية ، ما دامت حقيقته الأولى هى : « حُث على الحياة لتكون فعالاً » . فالقول بالسعى والارتياح يجعل فى مذهبه مجالاً للقيم ، ويُعطى الأساس الحقيقى لمعالجة الأخلاق وعلم الجمال فى الفلسفة

وأكبر قيمة لسيكولوجيا فى القصد — كما يرى مكدوجل — هى أنها تُهيء حقيقة القصد لنظر الفلاسفة الذين يريدون أن يتفهموا مجرى الطبيعة وحدودها الرئيسية : هل عملية الطبيعة ميكانيكية خالصة ، وكل حادثة جديدة يُخْبِر عنها تمام الخبر ما حدث قبلها ؛ أم أنه يوجد أى مجال للغائية فى الطبيعة ؟ فلو أن علم النفس تقدم بحقيقة القصد كحقيقة نهائية ؛ فإن الفلسفة إذن سيكون لها شىء

تستند إليه في تأييد الغائية . وعلى هذا فإن مذهب القصد يمسُّ أكثر الفيزيقيين والبيولوجيين من الفلاسفة ؛ الذين يُعيدون فحص العلاقات بين العلم والدين . وكثير من المشتغلين بالعلم يبدو أنهم يشعرون بأن فلسفة الكون الميكانيكية في القرن التاسع عشر - وخصوصاً فلسفة الحياة - قد حطّمت من غلوائها هي . « والتطور الظاهر » هو أكثر الأعراض المألوفة في هذا التغير . ومن غير أن يقبل هو نفسه هذا التطور الظاهر أو أيّ فلسفة أخرى من الفلسفات الجديدة في الطبيعة ، يُصرُّ مكدوجل * بكل قوته على حقيقة القصد السيكلوجية ، ويعتقد أنها كافية لأن تنشئ حقيقة « علية الغائية » ؛ وهي نوع من العلية يكون السعى فيه نحو هدف متوقع ذا أثر حقيقي على مجرى الحوادث . وهو يقترح معرفة العلية الغائية - ليس فقط في ميدان السلوك الإنساني - بل وأيضاً ، وبغير جدال ؛ في ميدان السلوك الحيواني . وهو يميل بشدة إلى أن يمتد بالفكرة إلى أن تشمل نمو الكائنات العضوية كما تشمل سلوكها . وإذا هي شملت نمو الكائن العضوي الفردي فلم لا تشمل أيضاً تطور كل الكائنات الحية ؟

وعلى هذا فإن قصديّة مكدوجل تذهب إلى ما وراء ميدان علم النفس . فليس علم النفس في عمله ملزماً بأن يُصدِر عنها . فالمرء حر في أن يقبلها ، أو أن يرفضها ، أو أن ينحّيها جانباً ؛ من وجوهها الفلسفية ؛ بينما لا يزال له - بكل ما لحرية عالم النفس الخاصة - أن يعرض عرضاً كاملاً صريحاً للقصد ونشوان الهدف كما يجدهما في ميدانه هو . ففلسفة مكدوجل القصدية هي من الغموض في علم النفس غموض فلسفة فايس Weiss في الإلكترون والبروتون . أما علم النفس ذاك ، فقد أصبح له الحق - بعد جهاد عنيف - في أن يكون غير فلسفي ولنا "بعد هذا" أن نسهر أبداً لكي نبقى على حريتنا . فلكل سيكلوجي بمفرده حرّيته الفردية - بطبيعة الحال - في أن يطبق سيكلوجياه على المشكلات الفلسفية . فليس ثمة ما يمنع الواحد منا - مثله مثل الواحد من إخواننا في العلوم الأخرى - من أن يشعر في حرية أنه ينطلق طائراً بين الحين والحين في ميدان النظر ، وإن كان المرء على يقين من أنه يجد نفسه في موقف الحمل . إلا أننا يجب أن نعزل تأملنا النظري عن علمنا المنظم كسيكلوجيين ، وألا نهيّب خصوصاً بإخواننا من علماء النفس أن يشتركوا في مغامراتنا الخارجية .

تعليقات

على الفصل السادس

منه إلى علم نفس الخبرة (أو البنائي) ؛ شأنه شأن وارد J. Ward واستوت Stout في أمريكا ؛ وإن كان هو أنزع إلى التجريب منهما ؛ لشدة تأثيره ببرتانو ووليم جيمس وبتقاليد دوجالد استيوارت الاسكتلندية ، وبمارسته الطب في كبردج ولندن ، ودراسته مع ميلر G.E. Müller في جتنجن ، فهو بهذا يمثل النزعة الإنجليزية في علم النفس .

وقد كان مكدوجل يشبه استوت في خطوط مذهبه الرئيسية ؛ فهو يعرف علم النفس بأنه « علم العقل الوضعي التجريبي » the positive empirical « science of the mind » ، ويعرف العقل بأنه : « ما يعبر عن نفسه في خبرته وسلوكه that which expresses itself in its experience and in its behavior » . فلما أصر على النشاط القصدى (الغرضي) للكائن العضوي بدأ يتميز عنه وعن السلوكية وغيرها من المذاهب التي تجعل السلوك مجرد حركة وآلية منعكسة ؛ وخصوصاً بعد أن اضطر في أمريكا إلى صوغ معيار يتميز به السلوك السيكولوجي عنده من السلوك الفيزيقي عند غيره في

(١) الغرض أو القصد purpose intention ؛ هو ما يتصوره المرء نتيجة لأفعال يُصمم على القيام بها تحقيقاً لما يتصوره . والغرضية أو القصدية Purposivism وبالفرنسية Intentionnalisme هي النظرية السيكولوجية التي ترى أن الأغراض - مفهومة على نحو ما ؛ علاوة على المنبهات والدوافع - تُعين السلوك تعييناً حاسماً . وهي هنا مدرسة علم النفس الخاصة بمكدوجل . والمورمية جزء منها ؛ فإن مكدوجل يستعمل هذا اللفظ ليصف به الطاقة العقلية ومذهبه في علم النفس . وهو مشتق من الكلمة اليونانية οὐρανὸν بمعنى إثارة الحركة motion أو urge on - ويعرفه مكدوجل بأنه ما يدفع نحو هدف impulse towards a goal (مجلة علم النفس المصرية مجلد ١ عدد ٣ ص ٣٨٣ - ٣٨٤) .

ومكدوجل قد نهض بمذهبه هذا في القصدية خصوصاً بعد أن غادر إنجلترا إلى أمريكا سنة ١٩٢٠ . وهو - بدراسته للعقل من حيث الدور الذي يلعبه الدافع القصدى فيه - أدنى إلى علم نفس الفعل psychol. act (أو الوظيفي)

indeterminateness كخاصة مميزة للعقل وفي هذا يتعارض مع فكرة الجبرية في العلم ، فلم يشاركه في رأيه هذا في أمريكا كثيرون — وخصوصاً لسيطرة فكرة الآلية في السلوكية الأمريكية .

وليس هنا موضع تأييد غرضية مكيدوجل أو نقضها ، ولكننا نقول مع بورنج E. Boring (تاريخ علم النفس التجريبي ص ٤٦١) إن هذه الآلية في السلوك لا تسلم من الهفوة المحتملة probable error أى تخلف العلة عن المعلول بتغيير الظروف اللازمة . وبدلاً من أن نستطرد معه قائلين : « إنه يدولى أن الجدل الذي نشأ ليس أكثر من أن ما يسميه الجبرى هفوة محتملة يسميه مكيدوجل حرية » — فإن هذا في الواقع إساءة لفهم مذهب مكيدوجل ، وذهابٌ بفكرة القصد إلى أن تكون غير مقصودة ؛ بل نقول : إنه توجد هنا الثغرة التي يمكن النفاذ منها إلى فكرة مكيدوجل التي هي أوسع وأشمل وأتم من أن تكون مجرد هفوات الجبرية أو العلية .

(٢) كيو (زنج يانج) Zing Yang Kuo : اشتغل بجامعة فّه تان (١٩١٦ — ١٩١٨) ثم بجامعة كاليفورنيا (١٩١٨ — ١٩٢٢) ، وأخيراً صار وكيلا لجامعة فّه تان ومديراً للمعامل علم النفس وأستاذاً له بها وقد كتب في السلوكية : علم النفس السلوكي Behavioristic Psychology بدائرة

هذه الصفات السبع التي ذكر ودورث ستاً منها ، وهي : (١) تلقائية الحركة . (٢) بقاء النشاط بمعزل عن استمرار المنبه الذي أثاره . (٣) تنوع اتجاه الحركات الثابتة . (٤) انتهاء حركات الحيوان حالماً تؤدي إلى نوع جزئى من التغيير في موقفه (٥) التمهيد للموقف الجديد الذي يساهم الفعل في إنتاجه (٦) التحسن بدرجة ما في نتيجة السلوك عند ما يكرره الحيوان في ظروف بعينها ؛ وأخيراً (٧) الاستجابة الكلية في الكائن العضوى .

ولا شك أن مكيدوجل قد انتهى إلى أن يجعل الحقيقة الأساسية في مذهبه — موضعاً على هذا النحو — في الدافع القصدى للسلوك ؛ نتيجة لدراساته التجريبية على السلوك الحيوانى والإنسانى وبالتأمل الباطنى وخصوصاً في اشتغاله بالعمل الطبى النفسى أثناء الحرب العظمى ، وقبل أن يستجيب لدعوة جامعة هارفرد في أمريكا لأستاذية علم النفس سنة ١٩٢٠ وعندّه أنه يبدو لكل منا جلياً — فيما يتعلق بعقله هو — « ماذا يريد أن يفعل » ، والحال كذلك في عقول الآخرين . وبهذا يدخل مكيدوجل جانباً من الحرية في الفعل الإنسانى بما انتهى إليه من نتيجة سلبية ، في ملاحظته ضرورة عِلل السلوك ومعلولاته . فهو قد أراد أن يبرز فكرة الحرية freedom أو اللاجبرية

J. Philos. صحيفة الفلسفة Psychol. (١٩٢١) مجلد ١٨ ص ص ٦٤٥ - ٦٦٤ ؛ وكيف نتحصّل غرائزنا ؟
 How are our Instincts acquired?
 مجلة علم النفس (١٩٢٢) مجلد ٢٩ ص ص ٣٤٤ - ٣٦٥ ؛ وأخيراً :
 الحركة ضدّ الغريزة وآخر رأى لي في
 المسألة The Anti-instinct Move-
 ment and my Latest View
 on the Question : شهريّة الشرق
 Eastern Misc. (١٩٢٤) السنة
 ٢١ ص ص ١ - ١٠ ؛ ثم : علم
 نفس بلا وراثه Psychol. without
 Heredity مجلة علم النفس (١٩٢٤)
 مجلد ٣١ ص ص ٤٢٧ - ٤٤٨ .
 (٣) ولسيم مكندوجال W.
 McDougall : ولد في لانكشير
 بانجلترا في يونيو ١٨٧١ ودرس في
 منشستر (١٨٨٧ - ١٨٩٠) وكمبردج
 (١٨٩٠ - ١٨٩٤) ومستشفى سانت
 توماس بلندن (حتى ١٨٩٨) حيث كان
 عضواً في بعثة كمبردج الأنثروپولوجية
 إلى توريس ستريتس Torres Straits
 (١٨٩٨ - ١٨٩٩) فاشتغل حينئذ
 بالعمل الأنثروپولوجي ، ودرس سنة
 مع ميلر في جتنجن (١٩٠٠) ثم
 عاد إلى إنجلترا - وقد حصّل على درجته
 في الطب من كمبردج - فعيّن محاضراً
 (قارئاً) Wilde reader لعلم النفس
 التجريبي في يونيفرستي كوليج بلندن ،
 فقارئاً في الفلسفة العقلية بجامعة

المعارف التربوية Educ. Encyclo. (١٩٢٧) ؛ واعتراف سلوكي
 A Confession of a Behaviorist
 بشهرية الشرق Eastern Miscellany
 - ٢٤ (١٩٢٧) ، وله فيها كتابه :
 مبادئ السلوكية Behaviorism
 المطبعة التجارية
 بشنغهاي (١٩٢٧) ، وكتابته :
 متن في علم النفس لمدارس العليا
 A Text-book of Psychology for
 Senior High Schools (في نفس
 السنة ، وعند نفس الناشر) . وله قبل
 ذلك كتابه الكبير : السلوك الأنساني
 Human Behavior المطبعة التجارية
 بشنغهاي (١٩٢٣) عدا مقالاته في
 مجلات علم النفس ، ومنها - عدا ما
 ذكر ودورث : تجربة سلوكية
 للاستدلال الاستقرائي A Behavioris-
 tic Experiment on Inductive
 Inference مجلة علم النفس التجريبي
 (١٩٢٣) مجلد ٦ ص ص ٢٤٧ -
 ٢٩٣ ؛ وطبيعة الأفعال الخاطئة
 وطريقة استبعادها The Nature of
 Unsuccessful Acts and their Order
 of Elimination مجلة علم النفس
 المقارن (١٩٢٢) مجلد ٢ ص ص
 ٢٧ - ١

والأستاذ كيو معروف فوق هذا
 بمعارضته للغريزة والوراثة بوجه عام ،
 وله في ذلك : اتركوا الغرائز في علم
 النفس Give up Instincts in

«pattern-spot» test فيوجد في كتابه : علم النفس- الفيزيولوجي ص ص ١٢٩ - ٢٤٣ .

وقد أثار مكدوجل في هارفر دجلا حول دارون وأتباعه ونظرية الوراثة العقلية mental heredity . فإنه قد قام هناك بدارسة تجريبية لوراثة القدرات العقلية المكتسبة ؛ على الفيران البيضاء ؛ في مجلة علم النفس البريطانية ١٧ (١٩٢٧) ص ص ٢٦٧ - ٣٠٤ ؛ وانتهى منها إلى تأييد فكرة لامارك ومعارضة فايزمان Weismann - الذي ينظر إليه العلم بوصفه باعثاً لمذهب دارون .

ولمكدوجل مقالات كثيرة وبحوث تجدها (حتى ١٩٣١) في سجل مرتشيزون الثالث (١٩٣٢) ص ص ٣٢٦ - ٣٢٨ . أما أهم كتبه - باعتبار تاريخ صدورها - فهي : كتابه مع مايرز G.S. Myers : السمع والشم والذوق والإحساسات الجلدية . الخ . Hearing, Smell, Taste, cutaneous Sensations etc. - وهو الجزء الثاني من المجلد الثاني من تقارير بعثة كمبردج الأنثروبولوجية إلى خطوط توريس Reports of the Camb- ridge Anthropological Expedition to the Torres Straits في الفيزيولوجيا وعلم النفس ، مطبعة جامعة كلارك (١٩٠٣) ص ص ١٤١ - ٢٢٣ ؛ وكتابه : علم النفس

أكسفورد (١٩٠٤ - ١٩٢٠) ؛ وفي كليهما كان له معمل صغير يجري فيه تجاربه ويتوسع به . وأخيراً جاء إلى جامعة هارفر دج - بدعوة منها ؛ أو كما يقول بعض المؤرخين : لأنه يُظن بعلماء النفس أنهم يُعاملون في أمريكا خيراً منهم في إنجلترا - فصار أستاذاً لعلم النفس (١٩٢٠) ، فأستاذاً ورئيساً لهذا القسم بجامعة ديوك في كارولينا الشمالية (منذ ١٩٢٧) .

وقد نشر مكدوجل كثيراً من البحوث التجريبية معظمها في مشكلات البصر Problems of Vision والإحساس البصري - ككثير من البريطانيين غيره - كما نشر رسائل عن الانتباه attention ، وتعرض لمشكلة تحديد مواضع الصوت Localization of Sound . وله نظرية في الكف العصبي بالإخراج drainage . ظهرت أولاً في مجلة Brain ٢٦ (١٩٠٣) ص ص ١٥٣ - ١٩١ ؛ عاد فكتب عنها في Psychol. Rev. ٣٣ (١٩٢٦) ص ص ٣٧٠ - ٣٧٤ . أما عمله في الشبكية on rivalry فنُشر في مجلة Mind مجلد ١٢ (١٩٠٣) ص ص ٤٧٣ - ٤٨٨ . وفي منهجه الذي درّسه في جتنجن مع ميلر لقياس الانتباه measurement of attention راجع مجلة علم النفس البريطانية Brit. J. of Psychol. مجلد ١ (١٩٠٥) . وأما استخبار البقعة

اللفظ الذي خرج عما وُصِّعَهُ هَوَاً لَهُ .
 أما كتابه عن : القبائل الوثنية في
 بورنيو The pagan Tribes of Borneo
 (مع هوز C. Hose) الذي نشره لها
 مكملان بنيويورك (في مجلدين)
 ١٩١٢ - وهو دراسة اجتماعية لهذه
 القبائل التي لا تؤمن بإله ؛ وكتابته :
 الأنثروبولوجيا والتاريخ Anthropology
 and History الذي نشرته مطبعة
 جامعة أكسفورد بلندن (١٩٢٥)
 في ١٢٥ صفحة - وهو محاضرة
 روبرت بويل التي ألقاها ؛ وكتابته الهام :
 العقل الجمعي The Group Mind
 الذي نشره بنتام في نيويورك ولندن
 (١٩٢٠) في ٤١٨ صفحة - ظهرت
 طبعته الثانية (١٩٢٧) ، وقد وصِّفه
 مكدوجل بأنه : تخطيط لمبادئ
 علم النفس الجمعي مع محاولة لتطبيقها
 على تفسير الحياة والطابع القومي ؛
 وكتابته : صلاح الوطن وفساده
 National Welfare and Decay عند
 ميثون بلندن (١٩٢١) في ٢١٤
 صفحة ؛ وكتابته الكبير : تخطيط
 علم النفس Outline of Psychology
 الذي عبَّر فيه عن مذهبه الخاص ،
 وتعارض مع السلوكية الأمريكية ،
 والذي نشره اسكرنر في نيويورك
 (١٩٢٣) في ٤٥٦ صفحة ؛ وكتابته
 الأخلاق وبعض مشاكل العالم الحديث
 Ethics and Some Modern World
 Problems الذي نشره بنتام في

الفيزيولوجي Physiological Psycho-
 logy نشره مكملان في نيويورك
 (١٩٠٥) في ١٧٢ صفحة عدا
 المقدمة . ثم كتابته : مدخل إلى
 علم النفس الاجتماعي An Introduc-
 tion to Social Psychology
 نشره ميثون في لندن ، ولوس في بوستن
 (١٩٠٨) في ٣٢٥ صفحة ومقدمة
 في عشر صفحات ؛ ظهرت طبعته
 الثانية والعشرون معدلة (١٩٣١) ،
 وترجمه إلى الألمانية عن الطبعة الحادية
 والعشرين الإنجليزية كاوتسكي برون
 Kautsky Brunn باسم Grundlagen
 einer Sozialpsychol. نشره فشر
 Fischer في بينا (١٩٢٨) - وهذا
 الكتاب هو الحد الفاصل في مذهب
 مكدوجل ونظرية علم النفس .

وبعد هذا يأتي كتابته : الجسم
 والعقل Body and Mind وفيه
 اختبارات لنظريات العلاقة بين
 الجسم والروح على الطريقة القديمة ،
 نشره مكملان في نيويورك ، وميثون في
 لندن (١٩١١) في أكثر من ٣٨٤
 صفحة ؛ ظهرت طبعته السادسة
 (١٩٢٣) ؛ وكتابته : علم النفس :
 دراسة السلوك Psychology: The Study
 of Behavior نشره في لندن ولينز
 ونورجيت ؛ وفي نيويورك هولت
 (١٩١٢) في ٢٥٤ صفحة - وقد
 حملته نشأة السلوكية في أمريكا في
 ذلك الحين على أن يتخلى عن هذا

مكلمان بلندن (١٩٢٦) ؛ ثم كتابه
 الهام : تخطيط لعلم النفس المرضي
 Outline of Abnormal Psychology
 نشره اسكرينر في نيويورك (١٩٢٦)
 في ٥٦٦ صفحة ؛ ثم كتابه : المادية
 الحديثة والتطور الظاهر Modern
 Materialism and Emergent Evolu-
 tion نشره فان نوتراند في نيويورك
 (١٩٢٩) في ٢٥٠ صفحة ؛
 وكتابه الحديث الهام : طاقات
 الإنسان The Energies of Man
 — الذي عرض فيه دراسات لمبادئ
 علم النفس الديناميكي ، وأتى
 في أوله على إشارة عاجلة لمدارس علم
 النفس — نشره اسكرينر وأولاده في
 نيويورك (١٩٣٣) في ٣٩٥ صفحة ؛
 وأخيراً مقالُه الهام عن الإيحاء : في
 مادة Suggestion مجلد ٢١ من
 دائرة المعارف البريطانية Encyclo.
 Brit. الطبعة الرابعة عشرة (١٩٢٩)
 ص ٧٠٥ وما بعدها .

وقد كتب مكدوجل عن اهلويدي
 مورجن Lliod Morgan وپاقولوف
 ووليم جيمس ولامارك وغيرهم ، كما
 كتب مع وِطسن : معركة السلوكية
 The Battle of Behaviorism نشره
 كيجان پول في لندن (١٩٢٧)
 ونورتن Norton في نيويورك (١٩٢٩)
 في ٩٦ صفحة . كما كتب في السلوكية
 عدا التخطيط Outline السابق الذكر :
 الطبع والنص في الحياة Character

نيويورك (١٩٢٤) في ٢٥١ صفحة ؛
 وكتابه : الاتحاد الذي لا ينفصم
 The indestructible Union الذي
 كتبه عن شعب الولايات المتحدة
 ونشره ليتل وبراون في بوسطن (١٩٢٥)
 في ٢٦٣ صفحة ، ثم نشره ألن وأنوين
 في لندن (١٩٢٦) بنفس الحجم
 وباسم آخر : الشعب الأمريكي :
 The American سيكولوجيا
 Nation: its Problems and
 Psychology — نقول : هذه الكتب
 تمثل اتجاهه إلى علم النفس الاجتماعي
 منذ تحدت معالم مذهبهِ ، وتعالج
 كلها مشاكل ذات طابع سيكولوجي
 كما أن مكدوجل اتجه — منذ
 اشتغاله بالطب النفسي في الجيوش
 البريطانية ، أثناء الحرب العظمى —
 إلى علم النفس المرضي إلى جانب علم
 النفس الاجتماعي ؛ فكتب في ذلك
 — عدا مقالاته عن فرويد وإيحاء
 مدرسته — في : مشاكل الشخصية
 Problems of Personality بالاشتراك
 مع كامبل C.M. Campbell ولانجفيلد
 H.S. Langfield وروباك A.A.
 Roback وتيلور E.W. Taylor نشره
 هاركسورت وبريس في نيويورك
 (١٩٢٥) في ٣٣٤ صفحة ؛ وكتابه :
 التطور العقلي Mental Evolution
 في مجموعة : التطور على ضوء العلم
 الحديث Evolution in the Light
 of Modern Science التي نشرها

راجع في أثر مكدوجل وقيمته في علم النفس وخطوط مذهبه الرئيسية وآرائه مقالنا عنه في باب شخصيات سيكولوجية من مجلة علم النفس المصرية مجلد ٣ عدد ٢ ص ٢١٥-٢٣٢ .

(٤) ولاس (جراهام) G. Wallas ، عالم الاقتصاد الإنجليزي المعروف ، ولد في سندرلاند Sunderland بدرهام في إنجلترا في مايو ١٨٥٨ ، ولحق بكلية المسيح Corpus Christi College بجامعة أكسفورد (١٨٧٧) فحصل على درجة B.A. في (١٨٨١) وإلى M.A. (١٨٨٣) ، ثم اشتغل بمدرسة العلوم الاقتصادية والسياسية بجامعة لندن (منذ ١٨٩٠) محاضراً خارجياً « للمنتسبين » Extention Lecturer (حتى ١٨٩٥) فمحاضراً (حتى ١٩١٥) ، ثم أستاذاً (حتى ١٩٢٣) ثم أستاذاً فخرياً للعلوم السياسية فيما بعد . وقد حصل على الدكتوراه في الآداب من جامعة منشستر ، وكان عضواً بجمعية علم النفس البريطانية Brit. Psychol. Society وكان ولاس باحثاً نفسياً في الاقتصاد والسياسة ، ومن أهم ما كتب في ذلك : الطبيعة الإنسانية في السياسة Human Nature in Politics (١٩٠٨) ، ترجم إلى الألمانية Politik und menschlicher Natur ونشره برنشتين E. Bernstein في بينا (١٩١١) . ثم كتابه الهام الكبير : المجتمع الكبير

and Conduct of Life نشره ميثون في لندن (١٩٢٧) في ٢٨٧ صفحة

أما أهم مقالات مكدوجل وكتاباتة الشخصية والمذهبية فهي : أناس أم آلات ؟ Men or Robots ؟ ، في سيكولوجيات ١٩٢٥ بوستر Worcester ولنسندن (١٩٢٦) ص ص ٢٧٣ - ٣٠٥ ؛ والبحث النفسى كدراسة جامعية The Psychical Research as a University Study - في كتاب : حالة الاعتقاد في النفس ما له وما عليه - The Case for and against psychological Belief الذى نشره في جامعة كلارك بوستر الدكتور كارل مرتشيزون (١٩٢٧) ص ص ١٤٩ - ١٦٢ . ومقالة : الانفعال والعاطفة متميزين Emotion and Feeling Distinguished وهى الفصل ١٥ من موسوعة وتبرج في : العاطفة والانفعال Feeling and Emotion التى نشرها الأستاذ ريمرت في جامعتى كلارك وأكسفورد (١٩٢٨) ص ص ٢٠٠ - ٢٠٥ ؛ ثم : علم النفس الهورمى The Hormic Psychol. وهو فصل مذهبى ممتع طريف في علم النفس القصدى صدر به مرتشيزون سيكولوجيات ١٩٣٠ (فصل ١ ص ص ٣ - ٣٦) ؛ وأخيراً تأريخه لحياته في : تاريخ علم النفس بالتأريخ Hist. of Psychol. in Autobio. وستر ولنسندن (١٩٣٠) ص ص ١٩١ - ٢٢٣ .

(١٩٢٥ - ١٩٢٦) وشيكاغو صيف سنوات ١٩٢٢ ، ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ ، ١٩٢٧ . وكان أستاذاً زائراً ومحاضراً متدرباً في جامعات أخرى ، حتى انتهى بعد زيارته للجامعة واشنطن في صيفي ١٩٢٨ ، ١٩٢٩ إلى أن يستقر بها أستاذاً للاجتماع ورئيساً لقسم الاجتماع والعمل الاجتماعي (١٩٣١) وأن يكون عضواً لكثير من الجمعيات النفسية والاجتماعية ومساعداً في تحرير بعض مجلاتها .

ومن هذا نتبين طبيعة عمل برنارد ولون دراسته وتعاليمه . فإلى جانب مقالاته الكثيرة في الغريزة وسوء استعمالها ، والغريزة والحملون النفسيون ، ونقد نظريتهم في الشهوة (البيدو) وفي العصاب ، وعمّا إذا كان علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي يستغنيان عن الغريزة ، واتجاهات علم النفس الاجتماعي وعلاقته بالسلوك الإنساني وبالجمتمع ، ونشأة الوعي الاجتماعي والعلوم الاجتماعية . . . إلى جانب مقالاته هذه كلها ؛ فإن أهم كتبه : الانتقال إلى معيار موضوعي للضبط الاجتماعي The Transition to an objective Standard of Social Control نشرته مطبعة جامعة شيكاغو (١٩١١) في ٩٦ صفحة . وكتابه مع رودس G. Rhodes وبتار C. Buttar وفولي E.J. Foley : العقل في عمله The Mind at Work وهو كتاب صغير

The Great Society نشره مكلان في لندن ونيويورك (١٩١٤) في ٤٠٦ صفحة ؛ وكتابه : ميراثنا الاجتماعي Our Social Heritage نشره في لندن ألن وأنوين ، وفي مطبعة جامعة ييل (١٩٢١) في ٣٠٧ صفحة ؛ ثم كتابه : فن التفكير The Art of Thought نشره في لندن جوناثان كيب Jonathan Cape وفي نيويورك هاركورت وبريس (١٩٢٦) في ٣١٤ صفحة .

(٥) برنارد (لوثلي) Luther Lee

Bernard : ولد في ركي Ky في أكتوبر ١٨٨١ ولحق بكلية باتست Baptist College في مدينة بيرس Peirce City بمقاطعة مسوري التي التحق بجامعتها (١٩٠٤ - ١٩٠٧) حيث حصل على الليسانس A.B. ثم لحق بجامعة شيكاغو فحصل على الدكتوراه في الفلسفة (١٩١٠) .

واشغل برنارد مساعداً للعلوم الطبيعية في كلية باتست (١٩٠١ - ١٩٠٣) ثم أستاذاً للاتينية واليونانية والأدب الأمريكي في كلية لامار (١٩٠٣ - ١٩٠٥) وبعد حصوله على الدكتوراه اشتغل مُعيداً للاجتماع في جامعة وسترن ريزرف Western Reserve (١٩١٠ - ١٩١١) فأستاذاً للتاريخ والعلوم الاجتماعية في جامعات فلوريدا (١٩١١ - ١٩١٤) ومسوري (١٩١٤-١٩١٧) ومِنْسوتا Minnesota (١٩١٧ - ١٩٢٥) وكورنيل

يؤخذ متناً في علم النفس التطبيقي
 — نشره ميربي Murby في لندن
 (١٩١٤) في ٢٣٥ صفحة . ثم كتابه
 الهام : الغريزة : دراسة في علم النفس
 الاجتماعي Instinct: A Study in
 Social Psychology نشره هولت في
 نيويورك (١٩٢٤) في ٥٥٠ صفحة .
 وكتابه الكبير : مدخل إلى علم النفس
 الاجتماعي An Introduction to
 Social Psychology عند نفس الناشر
 في نيويورك (١٩٢٦) في ٦٥٢
 صفحة .
 وقد شارك برنارد في كثير من الكتب
 الجامعة في علم النفس الاجتماعي
 والاجتماع والإصلاح الاجتماعي ،
 ومن ذلك : الأسس النفسية للمجتمع
 The psychological Foundations
 of Society في الكتاب الثاني من
 القسم الثالث لكتاب : مقدمة إلى علم
 الاجتماع Introduction to Sociology
 الذي نشره ديفز J. Davis وبارنز
 H.E. Barnes عند هيث
 في نيويورك (١٩٢٧) ص ٣٩٥
 — ٤٩١ . ومثل هذا البحث عينه في :
 قراءات في علم الاجتماع Readings in
 Sociology لنفس الناشرين في نفس
 الدار وفي نفس السنة ص ٥١٧
 — ٦٠٣ . وكذلك : الاجتماع وعلم
 النفس Sociology and Psychology
 في : العلوم الاجتماعية وعلاقتها بعضها
 ببعض The Social Sciences and

their Interrelations الذي نشره
 أوجبيرن F. Ogburn وجولدنفيزر
 A. Goldenweiser في بوستن
 (١٩٢٧) ص ٣٤٦ — ٣٦٨
 ثم : العقل Mind في : المعرفة العلمية
 الحديثة بالطبيعة والإنسان والمجتمع
 Modern Scientific Knowledge of
 Nature, Man, and Society الذي نشره
 كليفلاند F.A. Cleveland في مطبعة
 رولاند بنيويورك (١٩٢٩) ص ص
 ٤٠٢ — ٤٦٠ . واتجاهات السلوك
 وتوجهاته Attitudes and the Redire-
 ction of Behavior في : وجهات اجتماعية
 Social Attitudes الذي نشره ينج
 K. Young عند هولت بنيويورك
 (١٩٣١) ص ص ٤٦ — ٧٤ .
 وعالج برنارد — غير هذا — بعض
 مواد دائرة معارف العلوم الاجتماعية
 Encyclo. of the Soc. Scie. التي
 نشرها سليجمن A. Seligman —
 وجونسون A. Johnson عند مكملان
 بنيويورك (١٩٣٠ وما بعدها) ؛ ومنها
 مادة : Social Attitudes (في المجلد
 الأول ص ص ٣٠٥ — ٣٠٧) ،
 والجمع Crowd في المجلد الرابع
 (١٩٣١) ص ص ٦١٢ — ٦١٣ .
 أما مرجع مقالاته ودراساته في
 السلوك والغريزة والاجتماع فهو — في
 الأغلب — مجلة : قوى اجتماعية
 Social Forces التي تولى مساعده
 تحريرها منذ ١٩٢٧ .

وغير هذا — غير هذا — بعض
 مواد دائرة معارف العلوم الاجتماعية
 Encyclo. of the Soc. Scie. التي
 نشرها سليجمن A. Seligman —
 وجونسون A. Johnson عند مكملان
 بنيويورك (١٩٣٠ وما بعدها) ؛ ومنها
 مادة : Social Attitudes (في المجلد
 الأول ص ص ٣٠٥ — ٣٠٧) ،
 والجمع Crowd في المجلد الرابع
 (١٩٣١) ص ص ٦١٢ — ٦١٣ .
 أما مرجع مقالاته ودراساته في
 السلوك والغريزة والاجتماع فهو — في
 الأغلب — مجلة : قوى اجتماعية
 Social Forces التي تولى مساعده
 تحريرها منذ ١٩٢٧ .

الفصل السابع وسَط الطريق

وإلى جانب هذا الأساس التاريخي الذي صَوَّرنا مدارس علم النفس - كُلُّ بدورها - يوجد بطبيعة الحال أساسٌ عَصْرِي عام يقوم في سيكولوجيا اليوم بالمعنى الأوسع ؛ بكل ما لها من تنوع في الاتجاهات وكثرة في نواحي البحث - سواء في المشاكل العلمية والعملية . وبغير إشارة إلى هذا الأساس المعاصر ؛ فإن صورتنا ينقصها المنظور ، وربما أعطت تأثيراً مُبالِغاً فيه عن الدور الذي تقوم به المدارس في النشاط السيكولوجي في هذه العصور . ففي ختام نظرتنا إذن ؛ نستطيع بحق أن نترك المدارس خلفنا ، لنلق نظرة خاطفة على الهيكل العام لعلماء النفس المعاصرين :

لنفرض أننا سننظم سباقاً عالمياً أو مُباراة أولمبية لعلماء النفس ، وأنا سنجمع الألفين أو الثلاثة الآلاف منهم في ميدان كبير ؛ بأعلام تُرفَع هنا وهناك كنقطة جامعة لاتباع هذه المدارس العديدة : فعلم هنا لفرويد ، وعلم هناك لأدلر ؛ واحد ليونج ، وآخر لمكدوجل ، واحد لمدرسة الجشطت ، وواحد للسلوكيين ، ثم واحد للوجوديين ؛ وربما رايتان أو ثلاثة أخرى تخفق لمدارس لم أذكرها . فبعد أن يتجمع الأتباعُ المخلصون لكل مدرسة حول راياتهم الخاصة بهم ؛ سوف يبقى جسمٌ كبير في وسط الميدان - أو على المنصة الكبرى - على استعداد لأن يرقب المباراة . كم هم الذين سيقون هكذا غير مقيدين ؟ أهم أغلبية ؟ أنا مقتنع بأنهم أغلبية كبيرة .

وهذه الأغلبية غير المرتبطة ليست تقوم كذلك في مجرد صغار الأتباع . فليس ينبغي أن نتصور أنه قد كان أمامنا كافة أئمة علماء النفس اليوم ؛ حتى ولو رأينا كثيرين ممن ليسوا أتباعاً لأية مدرسة . ليس شك في أن رائدي كل مدرسة من المدارس إنما هم رجال ذوو مقدرة ظاهرة . ومثل ذلك أيضاً - على عكس ذلك - كثير من علماء النفس الآخرين الذين ترجع زعامتهم إلى اضطلاعهم ببحث هام أولى من أية محاولة من جانبهم لإقامة مذاهب يُحدد فيها ميدان علم النفس وتوضع

أغراضه العامة ومنهاجه . فبعض علماء النفس يتزعمون في دراسة الذكاء ، وآخرون في دراسة الإدراك الحسى ، وآخرون في علم النفس التربوى أو الصناعى أو المرضى أو الحيوانى أو الاجتماعى . ولكن هؤلاء القادة — وإن كان لهم تلاميذ وأتباع — لم يؤسسوا بصفة عامة مدارس من النوع الذى كُنَّا بِسَبِيلِهِ .

وذكرُ « طائفة » قليلة مختارة من بين القادة الكثيرين الذين يستحقون الذكر إذ من الواضح أننا لن نستطيع أن نذكر إلا القليل — قد يبدو بغيضاً ؛ لولا هذه الحقيقة : وهى أننا « بإزاء » مجرد تخطيط فكرة ؛ استدعاء قليلين يمكن أن يمثلوا الأغلبية الكبيرة بحق . فبدلاً من أن أذكر مثلاً أى واحد من زملائى الأمريكين ؛ سأقدم جانباً من الإحصائيات تأييداً لما أقول من أن كثيراً من القادة إنما تجدهم في خارج المدارس . فمُنذ تأسيس هيئة علماء النفس الأمريكية سنة ١٨٩٢ قد اختير سبعة وثلاثون من أعضائها رؤساء بالتعاقب ، دليلاً على الشرف والامتياز . ومن بين هؤلاء السبعة والثلاثين قد أُتيح لى أن أذكر أربعة عشر ؛ من بينهم اثنان فقط أتباع أى من هذه المدارس . ومن بين السبعة والثلاثين جميعاً قد يُذكر حوالى ستة بوصفهم أصحاب مدرسة أو أخرى . وبهذا ؛ فإن نظرة إلى هذه المدارس شىء مختلف كل الاختلاف عن نظرة إلى الحالة الحاضرة لعلم النفس

بعض علماء النفس الأجانب خارج المدارس :

في بريطانيا العظمى — إذا قورنت بالولايات المتحدة أو بألمانيا — عدد علماء النفس المحترفين قليل ؛ إلا أن مستواهم رفيع . فالأستاذ كارل اسپيرمن (١) بجامعة لندن (ولد سنة ١٨٦٣) يمكن أن يعدّ رأس مدرسة ؛ إلا أنها تكون مدرسة من نوع آخر غير التى وصّفنا . والأمريكيون على علم بالجدل الطويل بينه وبين ثورندايك عن طبيعة الذكاء — ثورندايك مُؤيداً وجهة نظر أن الذكاء مجموعة كفايات خاصة متعددة غير مرتبطة بعضها ببعض إلا في أن كلا منها يتوقف على سهولة التعلم ؛ واسپيرمن — مع التسليم بقدره خاصة لكل نوع من الفعل — يُصرّ أيضاً على مقدرة عامة تدخل بدرجة ما في كل نوع من سلوك الذكاء . وهذا العامل المشترك يرمز له بـ (م) . والجدل حول (م) قد استمر بحجارة خمسة وعشرين عاماً ، وانتهى اسپيرمن حديثاً إلى أن هذا العامل المشترك يقوم — إلى حد كبير — في القدرة على رؤية العلاقات والاستفادة بها . واسپيرمن وثورندايك — وإن كان

لكليهما تلاميذٌ ومعاونون كثيرون — فَلَستُ أُسَلِّكُهُمَا في داخل المدارس ؛ لأن المشكلة فيما بينهما هي من العدل بحيث تُحَلُّ بالبيّنة « والحجة » ، والمساجلة بينهما إذن هي مُسَاجلة من النوع العلمى الأمثل أكثر منها جدلاً بين مدرستين متنافستين . أما المسألة بين مدرستين كالسلوكية والوجودية فلا يمكن أن تُفَضَّ بالحجة ؛ بل هي بالأحرى مسألة تفضيل .

ورائد بريطانى آخر ذو تأثير واسع هو الدكتور ش . ص . مايرز (٢) بلندن (ولد سنة ١٨٧٣) الذى يشغل مكاناً خاصاً فى علم النفس البريطانى كأول مدير لمعمل سيكولوجى فى المملكة — معمل كبرديج — والذى قد أصبح أخيراً مديراً لمعهد علم النفس الصناعى القومى ؛ وهو معهد يتفرّد فى الميدان التطبيقى بعمل وبحث فى درجة كبيرة من الأهمية قد أُسِنِدَا إليه .

وننتقل الآن إلى ألمانيا ، فنذكر أولاً الثلاثة القادة الكبار الأصليين لعلم النفس التجريبي آنفى الذكر : فونت ، واشتمف ، وج . إ . ميلر G. E. Müller ، فكل واحد من هؤلاء الرجال قد استعان بكلا المنهجين الاستبطانى والخارجى ، ولا واحد منهم يمكن أن يُعدَّ من المدرسة الوجودية — التى لم تأخذ شكلاً محددًا إلا بعد أن تحدّدت خطوط تفكيرهم . وكان لكل واحد من هؤلاء الرجال تلاميذ عديدون لم يظلوا فى الغالب جسمًا متماسكًا أو مدرسة . فتلاميذ فونت مثلاً يشملون رجالاً ذوى ميولٍ مختلفة أمثال تيشنر وكتل واسبيرمن . وخليفة فونت كمدير لمعمل لىبتسك هو تلميذه فيليكس كريجر Felix Kreuger (٣) (ولد ١٨٧٤) وهو باحث فى الفونتيك (علم الأصوات) وفى سيكولوجيا الشعوب Folk Psychol . وقد نهض بعلم نفس كلى totality psychol ليس مشابها سيكولوجيا الجشطت بحال ؛ لشيء واحد : هو أن كريجر يبين أن الشكل الذى ندرکه فى أية لحظة هو ذاته متضمّن فى شعور كلى . فالشعور عنده حقيقة أكثر جوهرية من الصورة والخلفية . وبعض أعضاء مدرسة الجشطت البارزين هم تلاميذ قدماء لاشتمف . ومن الطريف أن نلاحظ تعليق الأستاذ على مهمتهم * ، فهو يتحدث عن :

الصيغة (جشطت) التى عليها يودُّ بعض علماء نفس محدثون على صلة بي

* فى كارل مرتشيزون (ناشر) تاريخ علم النفس بالتاريخ — مطبعة جامعة كلارك (١٩٣٠) مجلد ١ ص ٤٣٣ — ٤٤١ .

قد قاموا بعمل مشكور في دراسة قوانينها ؛ « عليها يودون » أن يُقيموا — فيما يبدو — ليس فقط علم النفس كله ؛ بل حتى المنطق ذاته .
 أنا لم أحاول قط أن أنشئ مدرسة بالمعنى الدقيق ، بل وجدت أدعى للسرور تقريباً ؛ وأكثر طرافةً على التحقيق ؛ أن أجعل تلاميذي يبلغون نهاياتٍ مختلفة أولى من أن أجعلهم يتعبدون لِقِصَايَا .

والأستاذ ا. اشبرانجر E. Spranger (٤) بجامعة برلين (ولد سنة ١٨٨٢) هو ممثل بارز لما يُسمّى علم النفس الإدراكي understanding Psychol. تمييزاً له عن علم النفس التوضيحي explanatory psychol. أو العِلِّيّ . فأن «تذكر» معناه أن تقف على معنى شيء ما . ومعنى أى شيء إنما يأتي من مساهمته في قيمة كل أكبر ، كما أن معنى الكلمة في جملتها ينشأ من مساهمتها في التعبير عما يريد المتكلم . ولكي نفهم فرداً ؛ ليس علينا أن نقتطعه ولا أن نعتبره كلاً منفصلاً عما يحيط به ، بل أن نراه في علاقاته الاجتماعية ، وأن نرى حاضرَه في صلته بماضيه .
 ومن بين تلاميذ ميلر اثنان ؛ يقرب عملهما بعض الشيء من عمل مدرسة الجشطت ، وإن لم يكونا بالتحديد تابعين لهذه المدرسة . فيينش E. R. Jaensch (المولود في ١٨٨٣) والآن استاذ في ماربورج (٥) ؛ قد عمل يجد في مشكلات الإدراك البصري ، وأثار أخيراً ميلاً خاصاً بدراساته للصور العقلية المنسما eidetic images ، أى الصور الارتسامية ، التي يراها كثير من الأطفال . ودافيد كاتس David Katz (٦) (المولود في ١٨٨٤) الأستاذ في رستوك — إلى جانب عمله في سيكولوجيا الطفل والحيوان — هو جدير بالذكر لإثباته للطرق العجيبة التي يتأثر بها إدراك اللون بالشروط التي يرى فيها اللون .

ومن بين علماء النفس الألمان الشيطيين العديدين الآخرين اليوم وليم اشترين W. Stern (٧) (المولود في ١٨٧١) تلميذ ابنجهاوس — وهو جدير بالذكر للميادين الكثيرة التي كان هو رائداً فيها ، لقد كان رائداً في ألمانيا لدراسة الفروق الفردية ، ولإدخال اختبارات الذكاء والنهوض بها ، وفي دراسة الأطفال والشبان ، وفي ميدان علم النفس التطبيقي . وقد بدأ العمل في سيكولوجيا البيئة أو الشهادة . testimony psychol. ؛ وأكثر من هذا فقد اتخذ سيكولوجيا — على طريقة مكديوجل — حجر البدء في فلسفة أسماها الشخصية personalism . فالشخص

— كما يقول — يُظهر الوحدة في الكثرة ، وبهذا يُوفق في نفسه بين مقولتي الوجود والقيمة .

ويوجد علماء نفس بارزون — غير متّصلين بالمدارس — في دول أخرى عديدة . ففي سويسرا نجد الأستاذ كلاپارد^(٨) E. Claparède في جنيف (ولد سنة ١٨٧٣) الذي نهض — في استقلال عن ديوى وأنجل — بعلم نفس وظيفي يشبه كثيراً علمهما ، وبتطبيقات مشابهة على التربية . وقد أنشأ معهد روسو لدراسة الأطفال ، وهو مركز نشيط لهذه الدراسة . وفيما يتعلق بالارتباطية ؛ يُدلى بملاحظة خصبة : هي أن الارتباط نفسه لا يغني عن ضبط الارتباط — الذي هو واضح جداً في بعض وجوه النشاط العقلي كالقراءة والجمع . والضبط يجب أن يقوم — كما يقول هو — مع عامل الميل . وتصوره للنوم على جانب من الأهمية ، فهو يرى أنه لا يمكن أن يُفسر بأنه مجرد تسمّم بنتائج التعب ؛ بل يجب أن يكون استجابة إيجابية للكائن العضوي وغريزة بالفعل . ويعتقد كلاپارد — كرجل محب للسلام ، وسكرتير دائم لمؤتمر علم النفس الدولي — أن المناقشات بين المدارس تمثل مجهوداً ضائعاً يمكن أن يُصرف في نواح أكثر إنتاجاً .

ولإيطاليا علماء نفس نشيطون كثيرون ؛ لا واحد منهم — على ما أعلم — تابع معين للمدارس ؛ وإن كان فيكتور بنوسي^(٩) Vittorio Benussi (١٨٧٨ — ١٩٢٧) الأستاذ السابق بجامعة بادو قد كان عضواً في مدرسة الجشطالت النموية التي بدأت بليرنفلس Ehrenfels ودراسته لخاصة الصورة . وقد شارك بنوسي مشاركة هامة في دراسة إدراك الصورة ، وله أهمية أيضاً كمكتشف لاختبار التنفس للوصول إلى حقيقة الكذب detection of lying .

ودي سانكتيس^(١٠) S. de Sanctis (المولود في ١٨٦٣) أستاذ الطب العقلي وعلم النفس التجريبي في روما — يسترعى كثيراً انتباه عالم النفس . فإلى جانب عمله الكثير المتنوع في الأمراض العصبية والنفسية ؛ كان باحثاً نشيطاً سابقاً لفرويد في أحلام الأشخاص العاديين والشواذ . وربما كان ميدانه الرئيسي سيكولوجيا الطفل بما فيها دراسة الأطفال الشواذ ودون العاديين . وقد وضع تصميماً لأحد مقاييس الاختبار القديمة البسيطة لبيان درجة النقص العقلي .

والأستاذ كيسو^(١١) F. Kiesow (في تورين (ولد سنة ١٨٥٨) كان تلميذاً قديماً لفونت ، ودرس أيضاً مع عالم النفس الإيطالي موسو Mosso الذي يعرفه علماء النفس

بمقياسه للمجهود ergograph وبتدريساته للتعب في العضلات الإنسانية . ولما كان « كيسو » قوى الاستعداد لهذا العلم الناشئ - علم النفس التجريبي - فإن موسو قد أفرد جزءاً من معمله في سنة ١٨٩٥ وضمّن لكيسو أن يعمل فيه ورأس كيسو هذا العمل السيكولوجي الوليد عشر سنوات ، ثم أُعطي له معملٌ كافٍ خاص به ؛ كان له فيه كثير من التلاميذ ؛ وعنيّ فيه - أخصّ ما عنيّ - بإحساس : الذوق واللمس ، ووضع الجسم ، وكذلك بالمشاعر والصور . وهو في آرائه النظرية يقرب كثيراً من فونت ؛ وبينما يعلم - فيما يتعلق بعلم النفس الجشططي - أنه قد اتخذ لونها هاماً من الدراسة ؛ إذا به يجادل في أنه لم يقض قط على حقيقة الإحساسات الأولية ولا على الحاجة إلى متابعة دراستها .

وفي فرنسا أيضاً يوجد كثير من علماء النفس الشيطيين - ليس بينهم من هو تابع بالتحديد لمدرسة من المدارس ؛ إلا أنّ يكون منهم بعض محلّين نفسيين . ولا يزال الفرنسيون على صلة قوية بعلم النفس الارتباطي ؛ وإن كانوا يدركون الحاجة إلى أن يرتبطوا به شيئاً من المبدأ الهورمي . وقد شارك فلاسفتهم - أمثال بولان F. Paulhan (١٢) وبرجسون - في كثير من التعاليم الرئيسية سواء في علم النفس الهورمي والجشططي . ويميل علماء النفس الفرنسيون إلى الإبقاء على استقلال واختيار واعين .

وخليفة بنيه Binet في معمل السوربون هو هنري بيرون H. Piéron (١٣) (المولود ١٨٨١) الذي لم يجار عمله الرئيسي عمل بنيه في اختبارات الذكاء ؛ بل في علم النفس التجريبي والفيزيولوجي ، وفي دراسة اصابات المخ أثناء الحرب . ومن اليسير أن يُعدّ بيرون سلوكياً ؛ ما دامت دراساته للحيوان قد انتهت به إلى أن يجد علم النفس بأنه دراسة السلوك Study of behavior قبل أن يستخدم وطسون هذه الصيغة . إلا أن بيرون ربما كان أوضح فكرياً من السلوكيين . فهو لا يجد عناءً في أن يشمل في دراسة السلوك دراسة الإحساس ، بل ودراسة الصور ؛ ولا يرى ضرورة لأن ندخل في الأمر شهادة الفرد بشعوره هو . وإنما لكي نصبح الاستبطانات والتأثيرات صحيحة فقط كحقائق علمية ؛ يجب أن تُسجّل على نحو ما في صورة موضوعية ومعقولة من الناحية الاجتماعية - أي في كلمات مثلاً . فكل خبرة مُسجّلة على هذا النحو هي سلوك موضوعي . وعلى هذا ؛ فإن كافة علماء النفس يستخدمون بالفعل حقائق السلوك والمسألة إذن هي في درجة المعقولة

وَالْيَقِينِ الَّتِي لِنَوْعِ بَعِينِهِ مِنَ الْحَقَائِقِ ، وَلَيْسَ تَمَّةَ خَطِّ وَاضِحٍ يُرْسَمُ فِي هَذَا الصَّدَدِ بَيْنَ الْمَهْجَيْنِ الْمَوْضُوعِيِّ وَالذَّائِي فِي عِلْمِ النَّفْسِ .

وعالمُ نفسٍ فرنسي بارز آخر ؛ هو جورج ديماس (George Dumas) (١٤) (المولود في ١٨٦٦) والأستاذ في جامعة باريس ، والذي كان أهم ما شغله في أبحاثه الخاصة هو الانفعالات ، هو أكثر من هذا جدير بالذكر بوصفه رائد جماعة كبيرة اشتركوا في : الرسالة الجديدة في علم النفس Nouveau Traité de psychologie الشاملة ، التي ظهر مجلدتها الأول في سنة ١٩٣٠ . ووجهة نظر هذه الجماعة أن الاستبطان - برغم صعوباته - قد أثبت يَحْصَبَهُ إلى حد معين ، وأنه بِحَقِّ لا غنى عنه في علم النفس ؛ ما دام قد قَدِمَ خصوصاً لفكرة الدراسات الموضوعية التي أخذ بها ؛ و « ما دام » أيضاً يُشْبِعُ اللذة الشخصية التي يجدها المرء في النتائج السيكولوجية . فعلمُ النفس الفرنسي قَوِيَ بِأَسَاسِهِ البيولوجي ، وبما فيه من وضع اجتماعي لوجوه نشاط الفرد ؛ وأكثر من هذا - ووفقاً لتقاليد الطويلة منذ أيام شاركو وما قبلها - هو يَمِيلُ بقوة نحو علم النفس المرضي « أو علم الأمراض النفسية » (السيكوباتولوجيا) . أما مبادئ فرويد الديناميكية فتبدو للفرنسيين أقل ثورة من مبادئ چانیه أكثر مما كنا نظن

وأخيراً ؛ فإنه - وإن أمكننا أن نجد ممثلين ناهين لعلم النفس في ممالك أخرى كثيرة - يمكن أن نختم هذه النظرة العجلى بإثبات علم النفس الرسمي لروسيا السوفيتية ؛ الذي يحاول أن يقيم نفسه على فلسفة كارل ماركس ؛ الفلسفة المعروفة « بالمادية الديالكتيكية » . والقصد - من ناحية - إبراز حقائق علم النفس المعروفة بوضعها إلى جانب الفلسفة ؛ ومن ناحية أخرى - اتخاذ الفلسفة هادياً لبحث وكشف جديدين . وفي النوع الماركسي من المادية مجالٌ للشعور كظاهرة حقيقية ، وخاصة جديدة ؛ تظهر عندما تبلغ العمليات الحسّية درجة معينة من التقدّم . ومن هنا فإن علماء النفس الروسيين هؤلاء يرفضون كلاً النوعين الذائين البحت والموضوعي البحت من علم النفس . فالاستبطان لا ينبغي اطراحه ، ولكن نتائجه يجب دعمها دائماً بالمناهج الموضوعية ؛ فما دامت هذه الأخيرة تقرب كثيراً من العمليات الفيزيائية الرئيسية . ويستطردون قائلين : إن الفرد يجب أن يُدرَسَ من الجانب الاجتماعي كما يُدرَسُ من الناحية البيولوجية ؛ ما دام هو نتيجة بيئته الاجتماعية ؛ هو نتاج طبقته الاقتصادية والعمل الذي يُطلب إليه أن يقوم به في

العالم . وإذن ؛ فالفرد يجب أن يُدرَس كعضو في طبقة اقتصادية أو مهنية . ودراسة سيكولوجيا الطبقات هي دراسة جوهرية كما هي عملية . وكورنيالوف K. N. Kornilov (١٥) (المولود في ١٨٧٩) مدير معهد علم النفس التجريبي في جامعة ولاية موسكو— هو أحد القادة في جامعة الروس .

اتجاه علم النفس :

هذه الأسماء القليلة التي ذكّرتُ ؛ قد وُصِدَ بها أن تعطيك فكرة عن جسم أوسط كبير لعلماء النفس الذين لا يعترفون بالتبعية لواحدة من المدارس ؛ وإن كان البعض يميلون أكثر نحو واحدة ، والآخرون نحو أخرى . فهم يرفضون أن يتعاطوا الدواء الذي تُقدّمه واحدة من هذه المدارس ؛ بمعنى أنهم يرفضون أن يصطنعوا مذهباً أو نظرية لإحدى هذه المدارس . ومثلُ هذا الرفض لا يستلزم أن يحول بيننا وبين تعرّف العمل الحسن أينما وجدناه حين نكون تابعين للجماعة الوسيط . فإذا قدّم لنا الوجودي تحليلاً طيباً للإحساس بالحرارة أو لخبرات اللون ؛ قيلناه منه شاكرين . وإذا بين السلوكي بالتجارب على صغار الأطفال كيف يمكن أن تنشأ حالات الخوف الشرطي ؛ فنحن في حِلٍّ من أن نستفيد بهذا الكشف في علم النفس الخاص بنا . وإذا شاء عالم النفس الجشطالتي أن يبين أن كلَّ تعلّم فهو يعتمد بدرجة ما على الاستبصار ؛ وجب أن نراجع آراءنا في التعلّم وفقاً له . وإذا أقتنعنا عالم النفس القصدى بأن الفرد لا يمكن أن يكون سلبياً عندما يصل إليه منه ؛ فهذه هي الأخرى نقطة هامة يجب أن تُنظر . وإذا فتح عالم التحليل النفسي عيننا لأهمية الدافع الجنسي ؛ فإننا نشكره ذلك . فكل نتيجة إيجابية قيمة هي غذاء لعلم النفس الذي لا يتأثر بالإخلاص لنوع بعينه من علم النفس . وعالم النفس غير المتسبب — الذي لا يتخذ نقطة بدئه من مذهب محدد من قبل ، والذي يأخذ بالآخري طريقه نحو مذهب ما بالتوفيق بين الحقائق كما هي مكتشفة — ” عالم النفس هذا “ ؛ يمكن أن يهزأ به على أنه مجرد مُلقب . ولا عليه أن ينزعج لذلك ؛ لأنه من المحقّق أن أي مذهب يُعرض اليوم يجب أن يُراجع بقدر ما يُلقى البحث ضوءاً جديداً على مشكلاتنا ، إن ثمة آفاقاً جديدة أمام التقدم السيكولوجي غير مكتشفة . وكل واحدة من المدارس — إذ تلمح من نقطة مفيدة شيئاً من أساس المجال أمامها — تُعدُّ خريطة تخطيطية لما عسى

أن تجد ، وتقدمها كدليل لاكتشافاتها . إلا أن هذه اللوحات التخطيطية تختلف وأحدتها عن الأخرى ، ولا يمكن أن تكون كلها صحيحة ؛ بل إن من الممكن أن تكون واحدة منها صحيحة تماماً ، وأن كثيراً من المفاجآت تنتظر الباحث السيكولوجي .

ولا أريد أن يُظن أن هذا الهيكل الضخم لعلماء النفس غير المنتسبين في اتفاق تام حول كل مسائل علم النفس ؛ فإننا إذا قسمنا هيكلنا هذا كله من علماء النفس إلى طوائف - وفقاً لميادين بحثها المفضلة : كعلم النفس الحيواني ، وعلم نفس الطفل ، وعلم النفس المرضى ، وسيكولوجيا الاختبار والفروق الفردية ، وعلم النفس التربوي ، وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس الصناعي ، وسيكولوجيا الإحساس ، والإدراك ، والتعلم ، والانفعال . . . إلخ - فإننا سرعان ما نجد خصومة قائمة في كل من هذه الطوائف الخاصة ؛ سوف نجد مناقشات في طبيعة الذكاء ، وفي الغريزة ، وفي الوراثة في مقابل البيئة ، وفي فروق الأجناس ، وفي الدافع ، واللاشعور ، وفي موضوعات أخرى كذلك ذات أفق أضيق . نحن نجد خصومات كهذه في كل علم ؛ خصومات ترجع في جزء منها إلى طبيعة العلماء البشرية ؛ وفي جزء آخر إلى عدم كمال البيئة في المسائل موضع الجدل . إلا أنه بينا الخصومات ومسائل الجدل مألوفة في العلوم كلها ؛ فإن مدارس كالتي كنا بسبيلها يبدو في الأغلب أنها خاصة بعلم النفس . ربما وُجد بعضها في العلوم الاجتماعية ، إلا أنها في العلوم الطبيعية - اليوم على الأقل - قل أن توجد . فمن حين لآخر نجد رجالاً يظهرن بنظريات جديدة رائعة كمنظريّة مندل Mendel في الوراثة ، وأينشتين في النسبية العامة ؛ ويقوم الجدل مباشرة حول هذه النظريات ، وتميل بعض المصادر إلى الأخذ بها والأخرى إلى رفضها ؛ إلا أن أينشتين مثلاً لم يكون مدرسة بالمعنى الصحيح ، والذي فعله هو استخلاص نتائج نظريته التي يمكن إقرارها بالملاحظة . أما الفيزيقيون وعلماء الفلك - الذين كانوا يبحثون يتهماً لهم القيام بالملاحظات الضرورية - فقد وضعوا النتائج موضع الاختبار ؛ وبهذا ربما كان بعض من اختبروا النظرية يأملون أن يحققوها ، والآخرون أن يوجهوا إليها الضربة القاضية ، إلا أن جميعهم متفقون على أن الذي ينشؤونه هو البيئة : فما إن كانت الحجة التي انتهوا إليها في صالح النظرية ؛ حتى بدأ الميل العام نحوها يجذبها - وإن لم يزل ثمة من الفيزيقيين من يعارضها ،

ومن يقول بأن حُجتها ما تزال غير كافية بحيث تُتيح لنا حتى محاولة الأخذ بها إلا أنه في كل هذا قليلٌ شَبَهَ بمدارسنا في علم النفس ومناقشتها .

ونحن — علماء وسط الطريق — أحياناً ما نُضيق بعض الشيء بوجود المدارس في علمنا ؛ فإنها تُشبه أن تكون دليلاً على أن الحال ليست مُرضية ، وأن علم النفس لم يتبين بعد أين هو ، وماذا يجب أن يفعل . إلا أنه يجب أن نَعترف جميعاً أن نشاط الفرد الإنساني « وفاعليته » في غاية التعقيد ، ومن هذا التعقيد ذاته يمكن أن نجد المدارس أصلاً لها . ومن هذا النشاط المركب جوانب كثيرة تعرض نفسها للدرس ، وعلم النفس الذي يعكف على جانب منها من المحقق أن يؤكد أهميته ؛ وقد ينتهي إلى اعتباره الشيء النهائي ، فالوجودي يُعنى بالإحساس ويَعده نهائياً ، وعالم النفس الجشطالتي يُعنى بالإدراك ويَعِد وضع الصِّغ الذي يجده فيه حقيقة علم النفس النهائية ، والسلوكي يُصبح معنياً بالسلوك الحركي والغدّي ويأخذ به على أنه الغاية ، « وعالم النفس » القصدى يَعِد القصد غايته ؛ وهكذا الأمر مع فرويد والليبدو ، ومع أدلر وإرادة القوة . . . فالمدارس كلها تؤكد شيئاً يتطلب التأكيد وتؤدي وظيفة نافعة في تقدم علم النفس . وبديهي أنه يجب أن نَحُد علمنا على نحو من الاتساع يكفي لتغطية النتائج والتأكيدات الإيجابية للمدارس كلها .

وحينئذ : فإنك إذا سألتني أية مدرسة أختارها لك ؛ فأني أميل إلى النصيح لك بأن تلتزم وسط الطريق . يجب أن نذكر أن جماعة وسط الطريق ليسوا مجرد أكتاف يَهْض عليها left - overs ، أو هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يُعملوا عقولهم . وأحياناً ما يُقال عنا — بتغيير طفيف في صيغة القول — إننا أصحاب وسط الطريق نجلس على السور sitting on the fence ، وأن لنا — في حالات فردية سيئة — ميلاً مألوفاً إلى أن نجلس على السور « متفرجين » . هذا حسن ، ولتأيد هذا المجلس يمكن أن يُقال : إنه هنا أبرد ، ويمكن أن يُشرف المرء على منظر أحسن لكل ما هو جارٍ . إلا أنني أحبُّ عبارة وسط الطريق ، لأنها تحمّل معها استمرار هذه الجماعة . لقد وجدوا في سنة ١٩٠٠ قبل أن تظهر المدارس ، وما زالوا يسرون قدماً منذ ذلك الحين ، وحصلوا زيادةً محسوسة من المعرفة خلال الثلاثين سنة . ولهذا لا أجد داعياً لِحث إخواني الصغار إلى هذه المدرسة أو تلك . أما إذا احتاج أحدهم إلى إثارة ، أو لزمه دافع إخلاصٍ بعينه ؛ فأني أنصح له أن يختار لنفسه على أي نحو .

من المُحَقِّق أن المدارس ليست غير ذات قيمة ، فإن كُلاً منها تؤكد لا شك شيئاً جديداً . وكل منها — لما تلاقيه من معارضة الهيكل العام لعلماء النفس — تندفع في كثير من النشاط لمحاولة إظهار قيمة لونها من الدراسة . ولن يعجز أحد أن يرى أن نشاط البحث الكبير في مدرسة الجشطالت قد كان الدافع عليه في معظمه رغبتهم في أن يستخرجوا حالة طيبة لنظريتهم العامة . وكذلك الحال في محاولة واطسون اللطيفة دراسة انفعالات الأطفال وإشراطهم ؛ دفعته إليها رغبته في إثبات قيمة النوع من المهجوم الذي اختار .

ومن بين الأسباب التي من أجلها لم يتشعب علم النفس خلال العشرين سنة الماضية إلى جماعات متفرقة ؛ حاجة كل مدرسة إلى أن تعرض حالتها أمام الهيئة العامة على أمل أن تلقى تأييداً . وسبب آخر نجد في كثرة عدد أولئك الذين يظنون وسط الطريق . وأخيراً ؛ فالسبب الثالث هو أن كافة علماء النفس يعملون في ميدان عام بعينه : هو قوَى الفرد إنساناً أو حيواناً ، طفلاً أو شاباً ، سويّاً أو منحرفاً . من أجل هذه الأسباب — وربما لأسباب غيرها أخرى — يظهر علماء النفس في العالم تضامناً أكثر مما قد يتوقعة من في خارج جماعتهم ؛ بسبب ما يصل إلى أذنيه من صَوْت التعارض . حقاً إن بعض الأعضاء الأكثر دأباً في المدارس المختلفة قلما عنوا بجماعات علماء النفس العامة ، ومن الحق أيضاً أن علماء النفس الطبي غالباً ما تجمّعوا بمفردهم مُشغولين بمسائلهم العملية ومناقشاتهم الخاصة ؛ إلا أنه على أي حال يمكن أن يقال إن علماء النفس متوادون . وإنك لتجد في أحد اجتماعاتهم أو مؤتمراتهم كثيراً من التآخي والاحترام المتبادل بين أعضاء الجماعات المختلفة ، ترى الأسد والحمل راقدين معاً في اطمئنان حتى لا تستطيع أن تقول أيهما الأسد ومن الحمل .

ولو أنك سألتني أية مدرسة سوف تُثبت قضييتها وتخرج ظافرة — وبهذا ترجو بمحدثك على كرهٍ منه في تحظر موقف المتنبئ — لأجبتك : كلها ، ولا واحدة منها . لا واحدة : لأن آراء كل مدرسة يبدو لي أنها ليست من طبيعة الغرض الذي يقبل البرهان أو النقض بالترجيح أو البيّنة . فكل مدرسة تعرض تفضيل نوع أو آخر من الدراسة ، وتبذل أنواع أخرى بعينها من الدراسة . وما دام من المحتمل أن تُثبت كل مدرسة قضييتها إلى هذا الحد ؛ فيُصبح من المعلوم أن لونها الذي اختارته من الدراسة خصب مثمر . وينتج ألا واحدة منها يمكن إخراجها . وبالتالي لا

واحدة منها يمكن أن تكسيب الميدان كله لنفسها .
 ولو سألتني : كم تستمر مدارس اليوم ؟ فلن يسعني أن أقول إلا أنها تظهر
 كلها كثيراً من قوة الشباب . فلكل منها مجال لكي تذهب لاستطلاع الجزء من
 الميدان الذي اختارته خصوصاً لنفسها . وأكثر من هذا ؛ فإنه طالما بقي من
 الممكن « أن تحدث » تغييرات بعيدة في نظرية كل مدرسة ؛ فمن الممكن أن
 نعتقد أن الأصول الناشئة سوف تستمر في دفع النظرية إلى نهايتها . وفي نفس
 الوقت ؛ فإن عملية الانحلال التي بدأت من قبل — بتأثير جماعة وسط الطريق
 في الأغلب — من المحقق أنها مستمرة ؛ إذ المادة من هذا الجانب أو ذاك
 مضطرة إلى أن تأخذ طريقها في الوسط وتصبح ملكاً عاماً . فعملية التوفيق
 « ومحاولة » الانسجام قائمة . وعلم النفس الرئيسي (المركزي) سيلم بكل ما يستطيع ؛
 بينما تبقى المدارس على مادتها في أقوال منحازة .

ولا أريد أن يفهم أن الاعتدال والوسط الذهبي بين أي طرفين هما اللذان
 سيؤديان بالتحقيق إلى الآراء التي ستكشف عنها الأحداث ؛ فإنه قد يحدث
 أن الآراء التي تبدو اليوم متطرفة تماماً سوف تثبت جدارتها . إلا أنني مقتنع
 تماماً أنهم لن يقحموا آراءً أخرى يبدو الآن أنها لا تغلب — عندما تكون هذه
 الآراء كذلك التي تدلي بها مدارسنا خصوصاً . والذي أعني ؛ أن الفروض التي
 تقترحها واحدة أو أخرى من المدارس ، والتي يبدو أنها تتعلق بالعقائد الكبرى
 لهذه المدرسة سوف يتبين أنها ليست بهذا التعلق ؛ بل هي تقوم بصرف النظر عن
 علاقتها بصيحات المدارس . فأنا أستطيع أن أتصور مثلاً أن البحث عن الهدف ،
 والاستبصار ، والمنعكس الشرطي قد نجد أنه لا غنى عنها جميعاً في عملية التعلم .
 ولا بد أنك قد تمتعت بالجمال الرائع لود كسامونكس Chamonix أو يوزميت
 Yosemite . وإذا علمت قصتهما رأيت أن سحرهما العجيب إنما يأتي من كونهما
 واديين صغيرين بالمعنى الجيولوجي ، نحتتهما ثلاثيات تقهقرت حديثاً فقط ؛
 تاركة وراءها هذه المهوى الجميلة ومساقط الماء المتدفقة . ولم تطل التعرية بهذه
 الوديان بعد ، ولكنها بالتدريج سوف تنحت المهوى إلى منحدرات لطيفة ،
 وتحول مساقط المياه إلى مجرد مجارى جبلية . إلا أنه — لسوء الحظ — قد تعود
 الثلاثيات ثانية !

وعلمنا هذا النفس الجميل ربما يدين بهذا النوع من سحره الرائع إلى هذه

الحقيقة : وهي أنه هو أيضاً ناشئ (صغير) . وثلاجات الفلسفة — وبالطبع لا بد أن تكون الفلسفة — حين انحسرت إلى أعالي الجبال قد تركت لنا مهاويها ومساقطها . إلا أن التعرية قد حلت ، وتعمل عملها لتقلل من قوة هذه المهاوي ، وشدة اندفاع هذه المساقط . وحتى حيث يُقيم الكبابيتان El Capitan الآن خطأ دفاعه الحجري ؛ ربما توقعنا ألا نجد يوماً غير منحدر خشبي لطيف . إلا أنه — يا للأبى ! — ربما عادت الثلاجات ثانية ، وحينئذ ؛ فإن الوادي القديم المنحوت له على التحقيق بعض حسنات .

تعلقات

على الفصل السابع

عن كل واحد منهم ممن لم يسبق ذكره .
(١) اسپيرمن (تشارلز إدوارد)
Ch. Ed. Spearman ولد في لندن في
سبتمبر ١٨٦٣ ولكنه درس في ليطسك
وفيرتسبورج وحتنجن بألمانيا ، وحصل
على الدكتوراه في الفلسفة في ليطسك
(١٩٠٤) ونشر فيها بحثاً كثيرة ،
وعاد إلى انجلترا يمثل فيها النزعة الألمانية
في علم النفس . فعين محاضراً في
يونيفرستي كوليج بجامعة لندن ، (١٩٠٦
— ١٩١١) حيث صار أستاذاً
للمنطق والعلوم العقلية (منذ ١٩١١) .
وقد رأس جمعية علم النفس البريطانية
(١٩٢٣) واشترك في جمعية الفيزيولوجيا
البريطانية ، والجمعية الملكية ، وجمعية
علم النفس البريطانية وتولى منذ ١٩٢٨
مساعدة تحرير صحيفة علم النفس العام .
وليس اسپيرمن عالماً تجريبياً ؛ وإن
يكن قد نشر في ألمانيا بحثاً تجريبية
عن إدراك المكان ؛ عاد فلخصها في
مجلة Mind (مجلد ١٦ سنة ١٩١٠)
باسم : An Economic Theory of
Spatial Perception . إلا أنه منذ
رسالته في ١٩٠٤ قد اتجهت ميوله إلى
الذكاء وطبيعة العمليات العقلية بوجه
عام . ونظريته في العامل المشترك في

يعنى ودورث بوسط الطريق — كما
هو ظاهر من قراءة هذا الفصل —
جماعة متوحدتين من علماء النفس ؛
يأخذ كل منهم طريقه في استقلال
عن التبعية لأي مدرسة ، مُرَكِّزاً
جهوده حول موضوع خاص يدرسه .
وهو مع هذا لا يصنفهم حسب
دراساتهم لموضوعات بعينها من علم
النفس ، ولكنه يدرّهم — أمثلة منهم
لا جميعهم — بحسب بلادهم وميادين
نشاطهم . وهو في هذا الفصل الختامي
يوجز إيجازاً مُخِلّاً ، ويتخذ صورة
المؤرخ الإحصائي بصورة ظاهرة ؛
وإلا فإن أتباع وسط الطريق قد كان
حتمهم عليه — ما دام يُقيم لهم هذه
الأهمية ، ويتوقع على أيديهم من
الكشف أكثر مما يتوقع من المدارس —
نقول كان يجب أن يشغل الكلام عنهم
النصف الثاني من الكتاب . ولسنا
ندري أكان هو يؤثر الوقوف بمحاضراته
عند هذا الحد ، أم أن مدارس علم
النفس كانت تشغل حينئذ أكبر
ميادينه ، وتشغل بأكثر موضوعاته .
قد يكون حقاً هذا أو ذاك ، ولكن من
الحق أيضاً أن لعلماء « وسط الطريق »
مكائهم وشخصيتهم . وسنورد نبذة

الحقيقة — وبمنهجه الخاص — إلى وجود عامل مشترك بين عدد كبير من القوى العقلية ؛ أى عامل يمكن أن يسمّى ذكاء عاماً . وهنا نرى أهمية اسپيرمن في اختبارات الفروق بين الأفراد في القدرات العقلية والذكاء . أما منهجه الإحصائي فقد انتقده طومسون Thomson وأيده جارنت Garnett ولا تزال له قيمة كبيرة . راجع في حياة اسپيرمن وآثاره العلمية : مجلة علم النفس المصرية عدد ٣، فبراير ١٩٤٦ ؛ وثبت بحوثه وكتابه : سجل مرتشيزون ج ٢ ص ٣٣٥ — ٣٣٦ ؛ وفي منهجه ودراساته مقالاته وكتبه التي ذكرنا — وخصوصاً كتابه The Abilities of Man . راجع كذلك تأريخه لحياته ومذهبه في تاريخ علم النفس بالتأريخ لمرتشيزون ج ١ ص ٢٩٩ — ٣٣٤ . توفي في سنة ١٩٤٥ (راجع حياته وآثاره العلمية في مجلة علم النفس المجلد الأول ص ٣٥٠ — ٣٦١) .

(٢) مايرز (تشارلز صموئيل)
Ch. S. Myers : ولد سنة ١٨٧٣ ،
وَدَرَسَ العلوم الطبيعية في جامعة كمبردج
(١٨٩٣ — ١٨٩٦) كما درس
الآداب في كلية جونفيل وكايوس
(Gonville and Caius Coll. ١٨٩١)
(١٨٩٥) فحصل على درجة
B.A. (١٨٩٥) ودرجة M.A. (١٩٠٠)
وأخيراً حصل على الدكتوراه في العلوم

الذكاء والعوامل الخاصة الأخرى ؛ التي
قدمها بتحليل علمي واختبارات عقلية
عملية ؛ هي على جانب كبير من الأهمية .
راجع : نظرية العاملين The Theory
of Two Factors (مجلة علم النفس ،
مجلد ٢١ ، سنة ١٩١٤) وفي مجلد
٢٧ (١٩٢٠) من نفس المجلة :
نظريات فرعية كثيرة في العاملين
Manifold Subtheories of “the Two
Factors” وفي صحيفة علم النفس
البريطانية Brit. J. of Psychol. (ج
٣ ، ١٩٢٣) : فكرة أبعد في نظرية
العاملين Further Note on the
“Theory of Two Factors” .

ومن أهم كتبه : طبيعة الذكاء
ومبادئ المعرفة The Nature of
Intelligence and Principles of
Cognition مكملان بلندن (١٩٢٣)
ومقياس للذكاء A Measure of Intell.
مليون بلندن (١٩٢٥) وقدرات الإنسان
The Abilities of Man مكملان
(١٩٢٧) .

وقد خلف اسپيرمن مكدوجل في
معمل يونيفرستي كوليج ، وفيه طبق
نظريته الهامة جداً في ترابط أو تعلق
الذكاء Correlation of Intelligence
مفسراً هذا التعلق بين صنفين بأنه
يدل على وجود عامل مشترك بينهما
وعامل خاص بكل صنف ؛ كما بيّنت
قياسات القدرات العقلية المختلفة في
الأفراد . وانتهى اسپيرمن من هذه

وكانت معظم كتاباتهما في ذلك الحين تتجه نحو العقل البدائي ، والحضارة الأولية والموسيقى البدائية ، و« إثنولوجيا مصر الحديثة » . . . وغير ذلك ؛ كما ترى من قائمة تآليفه ومقالاته في سجل مرتشيزون ج ٢ ص ٣٢٩ . كما اشترك مايرز في دراسة تحديد الموضع الأدنى للغات مع ولسن H.A. Wilson ؛ ومع فالنتين وفيلديس Fildes وغيرهما في دراسات أخرى كثيرة .

وأهم كتبه في علم النفس في ذلك الحين : متن في علم النفس التجريبي Text-Book of Exper. Psychol. (١٩٠٩) ظهرت طبعته الثانية (١٩١١) والثالثة (١٩٢٥) ؛ وكذلك كتابه الصغير : مقدمة إلى علم النفس التجريبي Introd. to Exper. Psychol. (١٩١١) وطبعته الثالثة (١٩١٤) . أما أهم كتبه بعد اتجاهه إلى الناحية التطبيقية والصناعية فكتابه : التطبيقات الحالية لعلم النفس مع إشارة خاصة إلى الصناعة Presentday Applications to Psychol. with Special Reference to Industry (١٩١٩) ؛ وكتابه : العقل والعمل Mind and Work (١٩٢١) ؛ وعلم النفس الصناعي في بريطانيا Industrial Psychol. in Great Britain (١٩٢٦) . كما أن له في ذلك الحين أيضاً كتباً ومحاضراتٍ أخرى كثيرة مطبوعة في علم النفس التجريبي وعلم النفس العام . توفي في أكتوبر ١٩٤٦ .

Sc.D (١٩٠٩) . وفي ذلك الحين لحق بمسشفى سان برتولوميو (١٨٩٥ - ١٨٩٧) فحصل على درجتي M.B. و B. Ch. (١٨٩٨) وأخيراً على الدكتوراه في الطب M. D. من كمبردج (١٩٠١) .

ومنذ ١٩٠٣ عين مايرز أستاذاً لعلم النفس في كينجز كوليغ Kings College بجامعة لندن (حتى ١٩٠٧) وفي نفس هذا الوقت (١٩٠٤ - ١٩٠٦) كان مُشرفاً على علم النفس التجريبي في جامعة كمبردج ، حيث صار محاضراً وقارئاً في علم النفس التجريبي منذ ١٩٠٦ حتى ١٩٢٢ ما عدا سنوات الحرب العظمى الأولى (١٩١٤ - ١٩١٩) حيث اشترك برتبة « قائمقام » في الجيش البريطاني ، وعمل مُستشاراً نفسياً مع الجيوش في فرنسا . ومنذ ١٩٢٠ صار زميلاً لكليته جونفيل وكايوس بكمبردج . وفي ١٩٢١ صار مديراً للمعهد القوي لعلم النفس الصناعي ، كما كان محرراً لصحيفة علم النفس البريطانية . Brit. J. of Psy. (١٩١١ - ١٩٢٤) — هذا عدا جمعيات ومؤتمرات علم النفس الكبرى التي يرأسها .

وقد قام مايرز مع ريفرز W.H.R. Rivers بدراسات نفسية للبدائيين عن طريق اختبارات الذكاء خصوصاً ، واستمرّاً في دراستهما الأثرولوجية النفسية هذه عشر سنوات تقريباً .

السيكولوجية يمكن ان تُفهم فحسب في الفاظ تاريخ تطورها . وعلى أساس وجهة نظره هذه قام معمل لبيتسك - كما قام معمل برلين - ببحث في مشاكل الإدراك . ولم يكن رأى كريجر هذا قاصراً على المعمل ؛ فهو يقول في سيكولوجياه بإمكان الوصول إلى فهم الظواهر الحضرارية ، كما يرى فيها فرصة لتطبيق علم النفس عملياً على مشاكل الاجتماع .

وبهذا الأفق الواسع ظهرت من لبيتسك مطبوعات كثيرة لكريجر وغيره من تأثروه في رأيه ؛ منها لكريجر نفسه : هل الفلسفة بغير علم نفس ممكنة Ist Philos. ohne Psychol. möglich ميونخ (١٨٩٦) ؛ وفكرة القيمة المطلقة كأساس لفلسفة الأخلاق Der Begriff des absolut Wertvollen als Grundbegriff der Moralphilos. لبيتسك (١٨٩٨) . وله في النغم والأصوات وعلم الفونتيك (الأصوات) Die Theorie der Konsonanz : في : دراسات فلسفية Philo. Stud. > ١٦ (١٩٠٠) ، وعلاقات الفونتيك التجريبي بعلم النفس Beziehungen der Experimentellen Phonetik zur Psychologie فيرستبورج (١٩٠٦) وحركات الغناء والكلام والسمع Mitbewegungen beim Singen, Sprechen und Hören لبيتسك (١٩١٠) .

راجع مرتشيزون : تاريخ علم النفس بالتاريخ > ٣ ص ص ٢١٥ - ٢٣٠ .

(٣) كريجر (فليكس إميل) Felix Emil Krueger : ولد في أغسطس ١٨٧٤ ، ولحق بجامعة اشتراسبورج (١٨٩٣) فجامعة برلين (١٨٩٤) فجامعة ميونخ (١٨٩٥) فجامعة لبيتسك (١٨٩٧) حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة (١٨٩٨) ثم عُيّن مساعداً في معهد علم النفس بجامعة كيل (١٨٩٩) - (١٩٠٢) فمساعداً لمعهد علم النفس بجامعة لبيتسك (١٩٠٢ - ١٩٠٦) وهناك صار معيداً (١٩٠٣) - (١٩٠٩) حيث دُعِيَ فيما بين سنتي ١٩٠٦ - ١٩٠٨ ليكون أستاذاً للفلسفة وعلم النفس ومديراً لمعهده في جامعة بيونس آيرس ، وعاد إلى لبيتسك أستاذاً لعلم النفس (١٩٠٩-١٩١١) فأستاذاً للفلسفة في جامعة هلي (١٩١٠-١٩١٧) حيث انتُدب فيما بين سنتي ١٩١٢ - ١٩١٣ أستاذاً بجامعة كولومبيا ، وأخيراً عاد سنة ١٩١٧ مديراً لمعهد علم النفس بجامعة لبيتسك .

وهنا كان كريجر خليفةً لفونت ، وتركز حوله علم النفس المسمّى بعلم النفس التطوري Entwicklungspsychol. وهو يؤمن بجوهرية « الجشطت » في علم النفس ، ولكنه يزيد أن الحقائق

واشيرانجر قد تقدم في هذا الصدد بنظرية طريفة في النماذج الشخصية لاقت كثيراً من المعجبين والأتباع . ويمكن القول بأنه قد استعان في عمله بمنهج حدسى عياني intuitive method ؛ إذ كانت تحطط المعمل واختبارات الذكاء أبعد ما تكون عن عمله ، وأهم كتبه : صور الحياة : سيكولوجياً علم العقل وأخلاقيات الشخصية Lebensformen : Geisteswissenschaftliche Psychol. und Ethik der Persönlichkeit (١٩١٤) ظهرت طبعته الثانية سنة ١٩٢١ ؛ وترجم إلى الإنجليزية سنة ١٩٢٨ باسم أنماط الأشخاص Types of Men .

(٥) بينش (إيرش رودلف)

Erich Rudolf Jaensch : ولد في برسلاو في فبراير ١٨٨٣ ، ولحق بجامعة ترينينجن وينا وبرسلاو وجتنجن منذ سنة ١٩٠٢ حتى حصل على الدكتوراه في الفلسفة ١٩٠٨ ، ثم اشتغل معيداً بجامعة اشتراسبورج (١٩١٠ - ١٩١٢) فجامعة هلي ف (١٩١٢ - ١٩١٣) حيث ناب عن أستاذه كريجر مدة وجوده في أمريكا . ومنذ ١٩١٣ عين في جامعة ماربورج أستاذاً للفلسفة ومديراً لمعهد علم النفس وهناك نشأت فكرة التصور الخيالي . والنماذج الخيالية eidetic types والصورة الارتسامية eidetic image هي صورة شبيهة بالهلوسة hallucination في كل

وفي فكرته في علم النفس التطوري والحضارى راجع : العوامل السحرية في أول تطور للعمل الإنسانى Magical Factors in the First Development of Human Labor في مجلة علم النفس الأمريكية (١٩١٣) \approx ٢٤ ؛ وفي علم النفس التطوري Ueber Entwicklungspsychol. Stil (١٩١٥) ، والأسلوب والحضارة und Kultur منشورات جمعية الكشافة الألمانية Flugblätter d. Bundes Ringpfadfinder (١٩٢٢) ، والاختلاط : نظرة نفسية أخلاقية Der Verker: Eine psychologisch - moralische Betrachtung همبورج (١٩٢٢) - أما بقية بحوث كريجر ومقالاته فتجد قائمة لها حتى ١٩٢٩ في سجل مرتشيزون \approx ٢ ص ص ٤٤٤ - ٤٤٣ . توفي كريجر في فبراير سنة ١٩٤٨ .

(٤) اشيرانجر (إدوارد)

Ed. Spranger : ولد سنة ١٨٨٢ ، وعرف في برلين بأنه ممثل نزعة علوم الظواهر العقلية في علم النفس Geisteswissenschaftliche Psychol. التي قويت في ألمانيا في ذلك الحين ، والتي قواها هسرل Husserl خصوصاً ، وأخذ بها كريجر أيضاً بوصفها متمماً للعلم الطبيعي ؛ إذ كانت تمت إلى سيكولوجيا الفعل أكثر من أى مذهب سيكولوجي سبقتها

شيء - وإن كان صاحبها يرى فيها صورة . وهي شائعة في الطفولة ؛ وإن كان تكرر حدوثها للأطفال لا يمكن تسجيله عددياً لكثرة درجات وضوحها وصحتها ، ولتوقف إحصاءاتها على المعيار الذي نختاره . ومن الممكن أن تستمر هذه الصور في المراهقة ، ولكنها غالباً ما تختفي . وهذه الصور الخيالية يقسمها بينش إلى نوعين . وقد تعمق مدلول هذه الفكرة فانتهى إلى أن اختلاف التخيل يفترض اختلاف أنماط الأفراد ، وأدى به هذا إلى علم نفس مرضى ، وإلى إنشاء تمطين فيزيولوجيين للأفراد : كمنط ب ومخط ت قائلاً إنه يوجد غيرهما ولكن هذين هما الرئيسيان . وقد كان للحاسة بينش وأصحابه وجرأة أقواله هذه أثرها في علم النفس حينئذ - خصوصاً في مشكلة الفوارق الفردية .

وأهم كتبه : في تركيب عالم الإدراك Ueber den Aufbau der Wahrnehmungswelt (١٩٢٣) ظهرت طبعته الثانية (١٩٢٧) وكتابه الصغير : الصورة الخيالية ومنهج البحث النوعي Die Eidetik und die typologische Forschungsmethode (١٩٢٥) وطبعته الثانية (١٩٢٧) أيضاً .

وتجد كثيراً من دراسات بينش في مجلة علم النفس الألمانية Zsch. f. Psychol. من مجلد ٨٥ سنة ١٩٢٠ فما بعدها ، كما تجد ثبت كتبه ومقالاته حتى

١٩٢٩ في مرتشيزون > ٢ ص ص ٤٣٤ - ٤٣٦ ، وتجد كثيراً من مقالاته وبحوثه ضمن تلخيصات قدمها كليفر Klüver في الصحيفة النفسية Psychol. Bull. مجلد ٢٥ (١٩٢٨) ص ص ٦٩ - ١٠٤ . (وكليفر هذا قد عرض للدراسات الألمانية الحديثة في الفروق الفردية عند بينش وغيره منهم في صحيفة الأمراض العصبية والعقلية J. Nerv. & Ment. Diseases مجلد ٦٢ (١٩٢٥) ص ص ٥٦١ - ٥٩٦ ؛ وله من البحوث الهامة في جتنجن التي نُشرت في Zsch. f. Psychol. : في تحليل المدركات البصرية Zur Analyse der Gesichtswahrnehmung gen des Raumes السنة الرابعة (١٩٠٩) ؛ وفي إدراك المكان Ueber die Wahrnehmungng des Raumes السنة السادسة (١٩١١) .

(٦) كاتس (دافيد) : D. Katz : ولد في كاسل في أكتوبر ١٨٨٤ وحصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة جتنجن (١٩٠٦) وعُين بها (منذ ١٩٠٧ حتى ١٩١٩) مساعداً بمعهد علم النفس ، ثم طُلب في جامعة رستوك أستاذاً لعلم النفس والتربية . وأهم ما نشره في جتنجن بحث له عن : كيفيات ظهور الألوان Die Erscheinungsweisen der Farben (١٩٠٩) الذي ميّز فيه بين

شئ - وإن كان صاحبها يرى فيها صورة . وهي شائعة في الطفولة ؛ وإن كان تكرر حدوثها للأطفال لا يمكن تسجيله عددياً لكثرة درجات وضوحها وصحتها ، ولتوقف إحصاءاتها على المعيار الذي نختاره . ومن الممكن أن تستمر هذه الصور في المراهقة ، ولكنها غالباً ما تختفي . وهذه الصور الخيالية يقسمها بينش إلى نوعين . وقد تعمق مدلول هذه الفكرة فانتهى إلى أن اختلاف التخيل يفترض اختلاف أنماط الأفراد ، وأدى به هذا إلى علم نفس مرضى ، وإلى إنشاء تمطين فيزيولوجيين للأفراد : كمنط ب ومخط ت قائلاً إنه يوجد غيرهما ولكن هذين هما الرئيسيان . وقد كان للحاسة بينش وأصحابه وجرأة أقواله هذه أثرها في علم النفس حينئذ - خصوصاً في مشكلة الفوارق الفردية .

وأهم كتبه : في تركيب عالم الإدراك Ueber den Aufbau der Wahrnehmungswelt (١٩٢٣) ظهرت طبعته الثانية (١٩٢٧) وكتابه الصغير : الصورة الخيالية ومنهج البحث النوعي Die Eidetik und die typologische Forschungsmethode (١٩٢٥) وطبعته الثانية (١٩٢٧) أيضاً .

وتجد كثيراً من دراسات بينش في مجلة علم النفس الألمانية Zsch. f. Psychol. من مجلد ٨٥ سنة ١٩٢٠ فما بعدها ، كما تجد ثبت كتبه ومقالاته حتى

Ueber Psychol. der الفردية Individuendifferenzen
ليبتسك (١٩٠٠) ؛ ومقالاته وكتبه الكثيرة في :
Psychol. (الكلام) der Aussage - وخصوصاً في
الأطفال . على أن أهم كتبه جميعاً :
Person und Sache والشئ والشخص
ظهر جزؤه الأول (١٩٠٦) وطبعته
الثانية (١٩٢٣) ؛ وجزؤه الثاني
(١٩١٨) وطبعته الثالثة (١٩٢٣) ؛
وجزؤه الثالث (١٩٢٤) .

راجع تاريخه لنفسه وفلسفته في
شميت R. Schmidt : فلسفة الحاضر
في تأريخات شخصية Die Philos.
der Gegenwart in Selbstdarstellung
gen ٦ (١٩٢٧) ص ١٦١ -
١٨٢ ؛ وفي مرتشيزون : تاريخ
علم النفس بالتأريخ Hist. of Psychol.
in Autobi. ج ١ ص ٣٣٥ -
٣٨٨ ؛ كما تجد ثبت كتبه ومقالاته
الكامل حتى ١٩٢٩ في سجل مرتشيزون
Psychol. Regis. ج ٢ ص ٤٧٠ - ٤٧٣ .

(٨) كلاپارد (إدوار) :
Edouard Claparède : ولد في
جنيف في مارس ١٨٧٣ ، ولحق
بجامعة جنيف فحصل على درجته في
العلوم (١٨٩٢) وعلى الدكتوراه في
الطب (١٨٩٧) . وبعدئذ رحل إلى
باريس ومدرسة سالپترير (التي أوردنا
ذكرها في الفصل الخامس وتعليقاته)

خصائص ألوان الحجم وألوان السطح
وألوان التصوير الشمسي التي هي أنواع
أولية تخرج منها الألوان الأخرى ؛
فكانت دراسة تجريبية لها قيمتها -
سبق بها فرتيمر ومدرسة الحشطلت .
وبحوثه ومقالاته الهامة الكثيرة أوردتها
مرتشيزون في سجله الثاني (١٩٢٩) ص
٤٣٧ - ٤٣٨ . ونشر عام ١٩٤٨
الأطلس السيكولوجي Psychological
Atlas.

(٨) اشتيرن (لويس فلهلم) Louis
W. Stern : ولد في برلين في إبريل
١٨٧١ ، وحصل على الدكتوراه في
الفلسفة من جامعته (١٨٩٢) ؛
فعين معيداً بجامعة برسلاو (١٨٩٨ -
١٩٠٨) فأستاذاً مساعداً (١٩٠٨ -
١٩١٦) فأستاذاً للفلسفة وعلم النفس
ومديراً للدراسات الفلسفية ومعامل
علم النفس بجامعة هامبورج بعد سنة
١٩١٦ . وهناك في هامبورج نهض
بعلم نفس للشخصية personalistic
psychol. هيأه له اتجاهه منذ البدء
لعلم النفس التربوي والفارقي
(سيكولوجيا الفوارق الفردية) . ومذهبه
هذا في التشخيصية النقدية critical
personalism يأخذ الفرد كصيغة
أولى ، ويتفق في منهجه مع أشد أنواع
علم النفس تجريبية - وإن كان
المؤرخون يرون أن ما قام به من
التجريب أقل من كريبجر وينش .
ومن أهم ما كتب : في علم نفس

de l'Enfant et Pédag. Expér. (١٩٠٥) وطبعته الثالثة (١٩٠٩) والرابعة (١٩١١) عند كيندج Kündig وترجم إلى الإنجليزية والألمانية والروسية (١٩١١) والإيطالية (١٩١٢) والإسبانية (١٩١٠) ؛ وكتابه : التوجيه المهني : مشكلاته ومناهجه P'Orientation Professionnelle: Ses Problèmes et ses Méthodes (١٩٢٢) الذي تُرجم إلى الإنجليزية ؛ وكيفية تشخيص قدرات التلاميذ Comment Diagnostiquer les Aptitudes des Ecoliers باريس (١٩٢٣) . وله أخيراً : المشاعر والانفعالات Feelings and Emotions في الموسوعة المسماة بهذا الاسم التي أصدرتها مطبعة جامعة كلارك (١٩٢٧) ص ص ١٢٤-١٣٩ والتبث الكامل لبحوث كلاپارد ومقالاته حتى ١٩٢٩ في سجل مرتشيزون الثاني ص ص ٥٤٣ - ٥٤٥ .

(٩) بنوبى (فكتور) : Vittorio

Benussi : ولد في تريسته في يناير ١٨٧٨ ودرس بجامعة جراتس ، ثم اشتغل بها حتى صار أستاذاً مساعداً لعلم النفس التجريبي منذ ١٩٠٨ وظل بها حتى الحرب العظمى ؛ فكانت أخصب فترة في حياته ، تمتاز بكثرة دراساته فيها دراسات كلها تجريبية . وفي سنة ١٩١٩ انتقل أستاذاً مساعداً في الجامعة الملكية Regia Università ببادوا حيث صار بعد سنة ١٩٢٢

فيما بين سنتي ١٨٩٨ - ١٨٩٩ ، ثم عاد إلى جنيف حيث صار أستاذاً في كلية العلوم منذ ١٩٠٩ . وفي سنة ١٩١٢ أنشأ معهد جان چاك روسو ، كما تولى تحرير : محفوظات علم النفس Arch. de Psychol. منذ ١٩٠١ ، وحصل على الدكتوراه الفخرية في الفلسفة من كلية وتنبرج Wittenberg College كما اشترك في كثير من الجمعيات والصحف الأمريكية والفرنسية والإيطالية والسويسرية والألمانية وتولى رئاسة بعضها .

وكتب كلاپارد كثيراً من البحوث والمقالات في علم النفس ، ومن الموضوعات التي تناولها : السمع اللوني P'Audition Colorée ، هل الحيوانات واعية ، وتجارب في سرعة رفع الأثقال ، وملكة التوجيه البعيد Faculté d'Orientation Lointaine ونظرية بيولوجية في النوم ، وهل علم النفس علم توضيحي ؟ ، وفي علم النفس القضائي ، وتعريف الهستيريا ، وفي التربية وعلم نفس الطفل ، وفي الذاكرة ، ووظيفة النوم والأحلام ، وفي سيكولوجيا الذكاء والاختبارات العقلية ، وفي الشخصية والإرادة ، وفي سيكولوجيا فرويد وتربية ديوى . وأهم كتبه : تداعى الأفكار L'Association des Idées باريس (١٩٠٣) ؛ وسيكولوجيا الطفل والتربية التجريبية Psychol.

come mezzo di analisi psychia reale التي نشرت في ال Zanichelli ببولونيا (١٩٢٥) وفي المجلة النفسية Riv. Psicol. (١٩٢٥) مجلد ٢١ ص ٢ - ٢٢ ؛ وفي نشرة مؤتمر علم النفسى العربى Atti. del Cong. naz. di Psicol. في فيرننسه (١٩٢٦) ص ٣٦ - ٦٥ . وكتب في هذا الموضوع بالألمانية (في: بحوث سيكولوجية Psychol. Forsch. ١٩٢٧ ج ٩ ص ص ١٩٧ - ٢٧٦) بعنوان : تحليل الأساس التجريبي للمناهج الإيحاء التنويمى النفسية Zur experimentellen Grundlegung hipnosuggestiver Methoden psychischer Analyse . وله كتابات أخرى بغير الألمانية والإيطالية - بالفرنسية . وقد عني كفكه وهلسون بتصنيف مقالات بنوسى وجمعها ؛ وأشملها ما جاء بسجل مرتشيزون > ٢ ص ٤٩٤ ؛ فانظره .

(١٠) دى سانكتس Sante de Sanctis : ولد في پارانو Parrano ولحق بجامعة روما الملكية فحصل على درجته في الطب والجراحة ، ثم عين بعيادة الطب العقلى حيث حصل على إجازة التدريس Abilitazione alla pivata Docenza كما حصل على إجازة التدريس في علم النفس أيضاً من كلية الفلسفة ؛ ثم صار بعد ذلك مساعدا لتدريس علم النفس الفزيولوجى بكلية الطب . ثم أستاذاً

أستاذاً لعلم النفس التجريبي ومديراً لمعمل علم النفس . وقد عمل خصوصاً في : إدراكات الزمن ، والثقل ، والصلابة ، وفي خداع البصر illusioni ottico geometriche والحركة البصرية والحركة اللمسية Tacktierwecker Scheinbewegungen إلخ ، وقد تبع إيرنفلس - كما قدمنا - في العمل على نظرية خاصة الصورة - Gestalt qualitat التي مهدت لسيكولوجيا الجشطت عموماً ، وله في ذلك : حركات البصر الأستروبسكوية وخداعات الصورة البصرية الهندسية Stroboskopische Scheinbewegungen und geometrischoptische Gestalt-täuschungen في سجلات علم النفس العام Arch.f.d. Ges. Psychol. (١٩١٢) ج ٢٤ ص ص ٣٠ - ٦٢ ؛ وإدراكات الصورة Die Gestaltwahrnehmungen مجلة علم النفس الألمانية (١٩١٤) ج ٦٩ ؛ وأهم كتب بنوسى في هذا الصدد : سيكولوجيا الإدراك الزمنى Psychol. der Zeitauffassung هيدلبرج (١٩١٣) ؛ وفي علم النفس الأجنبي Aus der Forensichen Psychol. فينا (١٩١٨) .

وأخيراً فهو قد اتجه إلى الكتابة في التنويم والإيحاء ، وأهم ما كتب فيهما : الإيحاء والتنويم كوسيلة للتحليل النفسى الحقيقى La Suggestione e l'ipnosi

هذا محاضرتان في : الأسس العلمية للسيكوباتولوجيا I Fondamenti Scientifici della Psicopatologia الأولى (١٩٠٠) في الأساس البيولوجي لهذه الظاهرة ، والثانية في الأساس التشريحي الفيزيولوجي لها . وكتب دى سانكتس أيضاً في : Die Träume (١٩٠١) ومشكلة الشعور (١٩٠٤) ، وميمات التفكير La Mimica del Pensiero (١٩٠٦) - تُرجم إلى الألمانية Die Memik des Denkens : كما كتب في التربية Educazione وقيمة الذكاء Intelligenza في السيكواوجيا العملية والتطبيقية ، وفي : تصنيف السيكوباتية Sulla Classificazione delle Psicopati (١٩٠١) ؛ وفي : نقص القدرة العقلية (الخبال) demenza ؛ وفي الطفولة Infantilismo ؛ وفي الهستيريا L'isterismo ... وفي موضوعات أخرى كثيرة تتناول نواحي متشعبة عديدة من الدراسات الطبية والنفسية القيمة .

راجع تأريخ دى سانكتس لحياته وعمله في : مرتشيزون : تاريخ علم النفس بالتأريخ Hist. of Psychol. in Autob. ص ٣ - ص ٨٣ - ١٢٠ ؛ وتصنيف كتبه ومقالاته في : مرتشيزون : سجل علم النفس Psychol. Reg. ص ٢ - ص ٤٩٥ - ٤٩٨ .

مساعداً لعلم النفس التجريبي فأستاذاً لهذا العلم ولتدريس الطب العقلي العصبي Neuropsiciatria ؛ كما كان مستشاراً لكثير من جمعيات الأمراض العصبية ، ومحرراً لمجلات علم النفس الإنجليزية .

ولدى سانكتس بحوث ومؤلفات كثيرة في الطب وعلم النفس بالألمانية والإيطالية ؛ منها ؛ بحوث في تركيب وتكوين الفاصل المخيخي للمخ الإنساني Untersuchungen über den Bau und die Markscheidenbildung des menschlichen Kleinhirns في شهرية الطب العقلي والعصاب Monatschr. f. Psychiat. u. Neur. (١٨٩٨) ؛ وفي مؤتمر الجمعية الإيطالية لعلم النفس Convegno della Soc. Ital. di Psicol. بروما (١٩١٣) تجده له : الظواهر النفسية والجهاز العصبي Fenomeni psichici e sistema nervoso . كما أن له في دراسة الانتباه كتباً ومقالات كثيرة منها : الدراسة التجريبية للانتباه La Studio Sperimentale dell'attenzione روما (١٨٩٥) ؛ والانتباه وعوائقه L'attenzione e i suoi disturbi - وهي دراسة له في الپاثولوجية النفسية بروما (١٨٩٦) ؛ وبحث سيكوفيزيولوجي في انتباه الأسرباء والسيكوباتيين Ricerche psicofisiologiche sull'Attenzione dei normali e dei Psicopatici روما (١٨٩٧) ؛ وله فوق

(١٨٩٥)؛ كما أنه قال في المجلد ١٤ من هذه الصحيفة بجهاز أبسط لتحديد الإدراك الحسى لنقط الحرارة Ein einfacher Apparat zur Bestimmung des Empfindlich von Temperaturpunkten كتَبَ عنه بالفرنسية والإيطالية في نفس السنة ، كما عاد ليتناول هذه الدراسة في المجلات الإيطالية والألمانية سنة ١٩٠١ . وكتَبَ كذلك عن جهاز آخر لتحديد أبسط Apparat für die Bestim. der einfachen .Reaktionzeit der Tastempfind. كذلك كتَبَ عن فونت ، وترجم لموسو ، وكتَبَ في : هاتف سقراط Daimonion di Socrate ودفاعه Apologia ؛ وتناول كثيراً من الموضوعات في علم النفس كالخداع البصرى الهندسى illusione ottico-geometrica وفى علم الطبيعة وعلم النفس التجريبي Scienza della Natura e Psicol. Empirica وموضوعات أخرى كثيرة تجد تصنيفها الكامل حتى ١٩٢٩ بسجل مرتشيزون > ١ ص ص ٥٠٣-٥٠٦ ؛ كما تجد تأريخ حياة كيسو لنفسه وعمله بتاريخ مرتشيزون > ١ (١٩٢٨) ص ص ١٦٣ - ١٩٠ .

(١٢) بولان (فريدرك) : F. Paulhan : فيلسوف فرنسى ولد سنة ١٨٥٦ في نيم Nimes وكان عضواً في جمعية علم النفس الفرنسية وفى

(١١) كيسو (فريدرش) F. Kiesow : ولد بألمانيا في مارس ١٨٥٨ ؛ ولحق بجامعة ليبستك حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة بعد خمس سنوات قضائها فيها ؛ وصار - منذ ١٨٩٥ - أستاذاً ومديراً لمعمل علم النفس التجريبي في الجامعة الملكية بتورينو Regia Università di Torino . وكان كيسو مساعد تحرير مجلة علم النفس العام الإنجليزية ومحرر سجل علم النفس الإيطالى Archivio Italiano di Psicologia كما ساعد في تحرير سجل علم النفس العام الألمانى Archiv für die Ges. Psychol. ومجلة علم النفس الإيطالية Rivista di Psicologia ؛ واشترك في جمعية علم النفس التجريبي الألمانية وجمعية علم النفس الإيطالية والجمعية الألمانية للفلسفة .

ومن أهم ما كتب : أقوال في سيكولوجيا حاسة الذوق الفيزيولوجية Beiträge zur physiologischen Psychol. des Geschmackssinnes : دراسات فلسفية Philos. Stud. (١٨٩٤ ، ١٨٩٦) ؛ وبحوثه في قياس ضغط الدم بمقياس موسو Versuche mit Mossos Sphygmo-manometer ؛ وبحوثه في الإدراك الحسى للحرارة Untersuch. über Temperaturempfindungen - وكلاهما في : دراسات فلسفية > ١١

كما اشتغل - منذ ١٩٢١ - أستاذاً لعلم النفس الفيزيولوجي في جامعة باريس ومعهدا السيكولوجي ، ومنذ ١٩٢٣ أستاذاً لفيزيولوجيا الحواس في الكوليج دي فرانس . واشترك في كثير من الجمعيات العلمية والطبية والبيولوجية والنفسية ، كما ساعد في تحرير كثير من مجلاتها في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا .

ومن أهم بحوث بيرون مقاله في المؤتمر الدولي لعلم النفس بباريس (١٩٠١) عن : تفسير وقائع السرعة غير العادية في عملية ابتكار الصور L'Interprétation des Faits de Rapidité Anormale dans le Processus d'Evocation des Images ؛ وبحوثه مع فاشيد N. Vaschide في كثير من المجالات العلمية عن : الحلم Le Rève ، فن تشخيصه وأعراضه Sa Sémeiologie وقيّمته التنبؤية Sa Valeur Prophétique عند البدائيين وخصوصاً اليونان والرومان والشرق القديم وفي الإنجيل وفي علم النفس والطب الحديثين وعند فلاسفة العرب ... إلخ (١٩٠١ - ١٩٠٢) ؛ كما تناول ظاهرة التخاطر phénomènes de télépathie وتداعي المعاني Associations d'Idées ؛ وعرض مع فاشيد وتولوز E. Toulouse لتصنيف الظواهر النفسية للبحث التجريبي (مجلة الطب العقلي ١٩٠٣) ولمصطلح علم النفس التجريبي

أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية . وله طائفة من الكتب الفلسفية نشرتها له دار النشر ألكان F. Alcan بباريس من أهمها : الظواهر الوجدانية وقوانين ظهورها Les Phenomènes affectifs et les Lois de leur Apparition ؛ والصوفية الجديدة- le Nouveau Mysticisme ؛ والنشاط العقلي وعناصر الفكر L'Activité Mentale et les Elements de l'Esprit ؛ وسيكولوجية الابتكار Psychol. de L'Invention ؛ والنماذج العقلية Les Types Intellectuels ؛ ومنطق التناقض La Logique de la Contradiction ؛ ووظيفة الذاكرة والتذكر الوجداني La Fonction de La Memoire et le Souvenir Affectif ؛ والإرادة La Volonté . . . إلخ فضلاً عن كثير من المقالات .

(١٣) بيرون (هنري) H. Piéron : ولد في باريس في يوليو ١٨٨١ ، وحصل على الليسانس في الفلسفة من جامعة باريس (١٨٩٩) وعلى إجازة التدريس agrégation (١٩٠٣) ؛ وفي السنة التالية حصل على ليسانس العلوم Lic. ès Sci. ثم على الدكتوراه (١٩١٢) . اشتغل محضراً préparateur في مدرسة الدراسات العليا العملية في السوربون (١٩٠١-١٩٠٧) فحاضراً حتى ١٩١٢ حيث صار مديراً لمعمل علم النفس الفيزيولوجي في السوربون ؛

دار النشر كولان on بباريس
(١٩٢٧) ، ونشر سنة ١٩٤٥ كتاب :
الإحساس مرشد الحياة : La Sensation
Guide de Vie. وقد تولى الإشراف على
إصدار السنة السيكولوجية منذ ١٩١٤ .
(١٤) ديما (جورج)
G. Dumas : ولد في لِدِينِيَان
Lédignian في ٦ مارس ١٨٦٦ ولحق
بمدرسة لوى الكبير Louis Le Grand
(١٨٨٤ - ١٨٨٦) فمدرسة المعلمين
العليا (١٨٨٦ - ١٨٨٩) حيث
حصل على الليسانس في الآداب
(١٨٨٧) وإجازة تدريس الفلسفة
Agrég. d. Phil. (١٨٨٩) ثم لحق
بعثد بكلية الطب بجامعة باريس
فحصل على الدكتوراه في الطب
(١٨٩٦) ، وأخيراً نال الدكتوراه
في الآداب (١٩٠٠) .

واشغل ديما منذ ١٩٠٢ أستاذاً
لعلم النفس التجريبي بكلية الآداب
بجامعة باريس ، ثم صار (منذ ١٩٢١)
أستاذاً لعلم النفس الباثولوجي في المعهد
السيكولوجي ، كما أنه (منذ ١٨٩٦)
قد كان مديراً للمعمل النفسى بعيادة
الأمراض العقلية Laborat. de
Psychol. de la clinique des
Maladies Mentales بكلية الطب ،
واشترك في كثير من الجمعيات الطبية
والسيكولوجية وجميعات الطب العقلي
والآداب والعلوم في فرنسا ولشبونة
وبيونس آيرس وريودي چانيرو وغيرها .

Technique de Psychol. Exper.
في مجلدين : الأول (١٩٠٤) والثاني
(١٩١١) .

ثم اتجه بعد هذا إلى علم النفس
الحيوانى ، فكتب في مجلة الفلسفة
Rév. Philos. (١٩٠٤) > ٢٧ عن
مناهج علم النفس الحيوانى
Méthodes de la Psychol. Zoologique
والذباب وتويميته بالكلوروفورم ،
ولغة البيغاء ... إلخ ؛ وأدى به هذا
إلى تناول موضوعات التربية والذكاء
والذاكرة والادراك وغيرها
موضوعات ومقالات لا يحصيها العد
في مختلف المجالات العلمية الفرنسية
والإيطالية والإنجليزية والألمانية ؛ مما
أورده مرتشيزون في سجله الثانى في
عشر صفحات كاملة من ٣٩٠ إلى
٤٠٠ .

على أن أهم كتبه : تطور الذاكرة
L'Evolution de la Mémoire
باريس (١٩١٠) ؛ ومشكلة النوم
الفيزيولوجية Le Problème
Physiologique du Sommeil باريس
(١٩١٢) ؛ والمخ والتفكير
Le Cerveau et la Pensée باريس
(١٩٢٣) نشرته دار النشر ألكان ،
وترجم إلى الإنجليزية (١٩٢٧) باسم :
Thought and Brain ترجمه أوجدن
C. K. Ogden ونشرته دار النشر
هاركورت وبريس وشركاهما بنيويورك ؛
وكتابه : علم النفس التجريبي
Psychologie Expérimentale نشرته

ألكان (١٩١٩). وله مع أربعة وعشرين مؤلفاً آخرين كتابٌ ضخّم من مجلدين كبيرين باسم *Traité de Psychologie* باريس ، ألكان (١٩٢٣ - ١٩٢٤). وله حديثاً الموسوعة الجديدة في علم النفس في عشرة مجلدات ظهر منها ثمانية. كما أنه نشر سنة ١٩٤٦ أى قبل وفاته بقليل كتابٌ : *عالم الارواح والآلهة في ضوء الأمراض العقلية* *Le Surnaturel et les Dieux d'après les Maladies mentales. (Essai de Théogénie pathologique)*

(١٥) كورنيلوف K. H.

Korniloff : ولد في سيبيريا (١٨٧٩) واشتغل بجامعة موسكو (١٩١٠ - ١٩١٥) مساعداً ، فعيداً حتى ١٩٢١ فأستاذاً . وفي سنة ١٩٢٤ صار مديراً لمعمل علم النفس التجريبي ، وكان نائب رئيس جمعية الأمراض النفسية والعصبية الروسية ، ورئيس تحرير مجلة علم النفس .

ومن أهم ما كتب : في مسألة طبيعة نوع الرجوع البسيط *Zur Frage von der Natur der Typen der einfacher Reaktion* في : *Psychol. Forsch.* سيكولوجية ١ - (١٩١٤) ص ص ١ - ٥٤ ؛ ومقاله : المنهج الدينامومتري لبحث الرجوع *Dynamometrische Methode der Untersuchungen der Reaktionen* في : *بحوث سيكولوجية* ج ١ (١٩١٤)

وأهم كتب ديمّا - عدا مقالات كثيرة كتبها في المجلة الفلسفية *Rév. Philos.* وغيرها ؛ ذكرها مرتشيزون في سجله الثاني ص ص ٣٧٢ - ٣٧٣ - أهم كتبه هي : *الحالات العقلية في المزاج السوداوى* *Les Etats intellectuels dans la Mélancolie* ألكان بباريس (١٨٩٤) ؛ وترجمته لكتاب لانجى *Lange* الدانيمركى في الانفعالات *Les Emotions* عن الترجمة الألمانية للدكتور كوربلا *Dr. Kurella* ألكان بباريس (١٨٩٥) ؛ والحزن والفرح *La Tristesse et la Joie* ، باريس ألكان (١٩٠٠) ؛ ونظرية الانفعال *La Théorie de L'Emotion* التي ترجمها عن مقتطفات *وليم جيمس* ، ونشرها نفس الناشر بباريس (١٩٠٣) ؛ والابتسام وتعبير الانفعالات *Le Sourire et L'Expression des Emotions* ألكان بباريس (١٩٠٦) .

وقد اشتغل أثناء الحرب العظمى الماضية ، بالأمراض العصبية والنفسية ، وله فيها مع إيميه *H. Aimé* : *أمراض الحرب العصبية والأذهانية عند الألمان النموسيين* *Névroses et Psychoses de Guerre chez les Austro - allemands* باريس ، ألكان (١٩١٨) ؛ وكتابه : *الاضطرابات العقلية والاضطرابات العصبية أثناء الحرب* *Troubles Mentaux et Troubles Nerveux de Guerre* ، باريس ،

كتاباتة النفسية ؛ فتراه يكتب في :
 علم النفس الحالى والماركسية
 Gegenwärtige Psychol.und Mar-
 xismus موسكو (١٩٢٤) والطبعة الثانية
 (١٩٢٥) ؛ والموقف الحاضر لعلم
 النفس فى روسيا السوفيتية Gegen-
 wärtige Zustand der Psychol. in
 U. d. S.S.R. يعنى تحت النظام
 الماركسى (١٩٢٧) ؛ وكتابه الحام :
 مَن فى علم النفس من وجهة نظر
 المادية التاريخية Lehrbuch der
 Psychol. von der Gesichtpunkte
 des Dialektisches Materialismus
 موسكو : الطبعة الثانية (١٩٢٧) ؛
 وغير هذه من الكتب مما يدرس
 كورنيلوف على ضوء المادية التاريخية
 والماركسية من موضوعات علم النفس .

ص ص ٢٦٩ - ٢٧٣ . وقد كتب
 فى نفس هذا الموضوع فى سجل علم
 النفس العام Arch. f. d. Ges.
 Psychol. > ٤٢ ص ص ٥٩ - ٧٨ .
 وأهم كتب كورنيلوف :
 سيكولوجيا الطفل Psychol. des
 Kindes موسكو (١٩١٥) ، ظهرت
 طبعته الثالثة (١٩٢٧) ؛ وكتابه :
 نظرية الرجوع فى الإنسان
 Die Lehre von der Reaktionen des Menschen
 موسكو (١٩٢١) وطبعته الثالثة
 (١٩٢٧) أيضاً ؛ وكتابه : أبسط
 بحث سيكولوجى Die Einfachsten
 Psychologische Versuche موسكو
 (١٩٢١) والطبعة الثالثة (١٩٢٧) .
 وأخيراً فهو يتجه، الاتجاه القومى فى

دليل المراجع

(١) قراءات مقترحة

ودون الرغبة في إيراد ثَبَت كَتَبُ كامل ؛ فالقائمة التالية من المراجع التي يسهل الحصول عليها يمكن أن تُفيد في تقديم دعائم المدارس المختلفة النشيطين . والأسئلة الملحقة ببعض هذه المراجع تقترح الموضوعات التي تعالجها في فقرات بارزة .

١ - قراءات عامة

- مرتشيزون C. Murchison (ناشر : سيكولوجيات ١٩٣٠ Psychologies of 1930 مطبعة جامعة كلارك (١٩٣٠) : وتحتوى هذه المجموعة على مقالات لمثلى كل واحدة من المدارس ولعلماء النفس الآخرين في العصر الحاضر .
- ميرفي G. Murphy : مقدمة تاريخية لعلم النفس الحديث An Historical Introduction to Modern Psychology هاركورت وبريس وشركاهما (١٩٢٩) : وفيه تصوير لكافة المدارس وأساسها التاريخي .
- بورنج E. G. Boring : تاريخ علم النفس التجريبي A History of Experimental Psychology نشرته شركة القرن The Century Co. (١٩٢٩) : وهذا الكتاب وافٍ تماماً في علم النفس الوجودى وما قبله ، ويحوى معلومات قليلة موجزة عن السلوكية ومدرسة الجشطت .
- مرتشيزون C. Murchison (ناشر) : تاريخ علم النفس بالتاريخ A History of Psychology in Autobiography مطبعة جامعة كلارك (١٩٣٠) مجلد ١ : وهذه التأريخات ممتعة من كِلَا الجانب الشخصى وبسبب العَرَض الموجز الصريح لوجهات نظر أصحابها . ويحوى هذا المجلد تاريخ حياة علماء نفس عديدين مِمَّن وَرَد ذكرهم في النص : چانيه ، ومكدوجل ، واشتمف ، وكلاپارد ، وكيسو ، واسپيرمن ، واشتيرن وآخرين غيرهم كثيرين مِمَّن لم نذكرهم ولكنهم بارزون في عصرنا هذا .

(وقد تبع هذا المجلد مجلدان آخران سنتي ١٩٣٢ ، ١٩٣٦ وإن لم يُشر المؤلف إليهما حتى في أحدث طبعات كتابه ، بحيث تشمل تاريخ نَيْفٍ وأربعين من علماء النفس بأقلامهم هم تأريخاً مُتِعاً طَريفاً هو عمدة كل باحث في هذا السبيل . ومن أهم ما ورد في مجلده الثاني من التَّاريخات : دنلاب K. Dunlap وفرانتس S. I. Franz وكارل جروز K. Groos بجامعة تبينجن إذ ذاك ، وهيفدنج ، وچص Ch. H. Judd ومورجن ، وبلزبري ، وواشبرن ، ومؤلفنا نفسه (ودورث ص ص ٣٥٩ - ٣٨٠) ، ويركس . وفي المجلد الثالث (١٩٣٦) أنجل ، وبارتلت ، وبتلي ، وكار (هارثي) ودي سانكتس ، ومارب ، ومايرز ، واسكرپتشر ، وثورندايك ، ووطن ... المترجم)

— تتشنر E.B. Titchener : علم النفس المذَهَبِي : مقدمة : Systematic Psychol.:Prolegomena شركة مكملان (١٩٢٩) ، وفيه جدل نقدي لأفكار علم النفس الأخرى ينتهي إلى صوغ وتكوين للموقف الوجودي .

— وبلد H. P. Weld : علم النفس كعلم Psychology as Science هنري هولت وشركاه (١٩٢٨) وفيه علم النفس الوجودي في علاقته بعلم النفس الحيواني والاجتماعي والمرضي . إلخ .

— وطسون J.B. Watson : السلوك : مقدمة لعلم النفس المقارن Behavior: An Introduction to Comparative Psychol. هنري وهولت وشركاهما (١٩١٤) والفصل الأول منه هو المنطوق الرئيسي لموقف السلوكيين .

— وطسون J. B. Watson : علم النفس من وجهة نظر السلوكي Psychol. from the Standpoint of a Behaviorist لينكوت وشركاه ، الطبعة الثالثة (١٩٢٩) ، وفيه أكمل وأوفى تقرير للمؤلف عن سيكولوجياها .

— وطسون J.B. Watson : السلوكية Behaviorism نورتن وشركاه (١٩٣٠) وهو تبسيط شعبي .

— هنتر W. S. Hunter : السلوك الإنساني Human Behavior مطبعة جامعة شيكاغو (١٩٢٨) وتحوي الصفحات من ١ - ١٦ تقرير وجهة نظر المؤلف بوجه عام .

— كيلر W. Köhler : سيكولوجيا الجشطالت Gestalt Psychology بوني وليفريت (١٩٢٩) .

— هيلي Healy و H. Bronner و A. F. Bowers و باورز A. M. Bowers :
 مَبْنَى التحليل النفسى ومعناه The Structure and Meaning of Psychoanalysis
 نشره نَوْف A. A. Knopf (١٩٣٠) ويجمع هذا الكتاب من الناحية المذهبية
 آراء فرويد وتلاميذه فيما يتصل بأفكار التحليل النفسى المختلفة .

(المترجم : قبل أن نستطرد مع المؤلف فى ذكر مراجع أخرى يشفع هو كلا
 منها بسؤال يبين أهميته ؛ نورد طائفة من الكتب الحديثة لعلماء النفس البارزين
 التى ظهرت بعد ١٩٣٠ التى لم يشر إليها المؤلف من أجل هذا . وطبيعى أننا
 لا نستوعب كل ما ظهر من الكتب فى مختلف اللغات ؛ بل نذكر أهم ما وصل
 إلى أيدينا أو علمنا منها فى الإنجليزية والفرنسية — والقليل الذى ظهر بالألمانية
 بعد ١٩٣٠ — ونصنف هذه الكتب باعتبار مؤلفيها حيناً ؛ إن كانت تكون
 سلسلة كاملة ، وباعتبار موضوعها حيناً آخر ، إن كانت متفرقة من حيث مؤلفيها
 ومتفقة فى موضوعها . وإليك إذن طائفة من المراجع التى يسهل تناولها :

(١) سيكولوجية الطفل

من أهم وأمتع ما نشر من الدراسات التجريبية الحديثة فى سيكولوجيا الطفل ،
 مجموعة العلامة پياجيه Jean Piaget الأستاذ فى كلية العلوم بجنيف ومدير المكتب
 الدولى للتربية ومعهد چان چاك روسو بمعونة مساعديه الأحد عشر أو مساعداته
 الأربع ، وبالإشتراك مع غيره أحيانا . وتبلغ هذه المجموعة القيمة أربعة عشر
 مجلداً أوتزيد ؛ صدرت منذ سنة ١٩٢٦ حتى الآن فى أكثر من طبعة عند ألكان
 پباريس ودولاشو Delachaux ونيستلى Niestlé بنيوشاتل وپباريس خصوصاً . وهذه
 المجموعة هى :

(١) اللغة والفكر عند الطفل Le Langage et la Pensée chez L'Enfant
 دولاشو ونيستلى ، الطبعة الثانية ١٩٣٠ فى ٣٠٠ صفحة ومقدمة لكلاپارد وترجمته
 الإنجليزية The Language and Thought of the Child نشرها كيجان پول
 بلندن فى طبعة حديثة .

(٢) الحكم والاستدلال عند الطفل Le Jugement et le Raisonnement
 chez L'Enfant دولاشو ونيستلى ، الطبعة الثانية ١٩٣٥ فى ٣٥٠ صفحة ،

والترجمة الإنجليزية *The Judgement and Reasoning in the Child* عند كيجان
بول بلندن .

(٣) تصور الطفل للعالم *La Représentation du Monde chez l'Enfant*
طبعته الثانية عند ألكان بباريس ١٩٢٦ وترجمته الإنجليزية *The Child's*
Conception of the World عند كيجان بول بلندن .

(٤) العلية الفيزيقية عند الطفل *La Causalité Physique chez L'Enfant*
نشره ألكان بباريس ١٩٢٧ ، والترجمة الإنجليزية *The Child's Conception*
of Physical World عند نفس الناشر الانجليزي بلندن .

(٥) الحكم الأخلاقي عند الطفل *Le Jugement Moral chez l'Enfant*
نشره أكثر من مرة منذ ١٩٣٠ ألكان بباريس ، كما نشر ترجمته الانجليزية
The Moral Judgement of the Child كيجان بول أيضاً .

(٦) نشأة الذكاء في الطفل *La Naissance de L'Intelligence chez l'Enfant*
دولاشو ونيستلي بباريس ونيوشاتل ١٩٣٦ .

(٧) تركيب الحقيقة عند الطفل *La Construction du Réal chez l'Enfant*
نفس الناشر بباريس ١٩٣٧ .

(٨) نشأة العدد عند الطفل *La Genèse du Nombre chez l'Enfant*
بالاشتراك مع زيمسكا *Alina Szeminska* عند نفس الناشر بباريس ١٩٤١ .

(٩) نمو الكم عند الطفل *Le Developpement des Quantités chez l'Enfant*
بالاشتراك مع إينهلدر *Barbel Inhelder* المساعدة بمعهد علوم التربية بجامعة
جنيف سابقاً وقد تناول فيه دراسة الحفظ *conservation* والتجزئ *atomisme* ،
نشره نفس الناشر الفرنسي في ديسمبر ١٩٤١ ، في ٣٤٤ صفحة من القطع الكبير .

(١٠) تكون الرمز عند الطفل *La Formation du Symbole chez l'Enfant*
وفيه يعرض لرمزية التقليد واللعب والحكم والتخيل والتصور . ظهر عند نفس
الناشر الفرنسي بباريس .

(١١) الأصناف والعلاقات والأعداد *Classes, Relations et Nombres*
نشره فران *Vrin* .

(١٢) سيكولوجية الذكاء *La Psychologie de l'Intelligence* نشره
كولان *Colin* .

(١٣) نمو فكرة الزمن عند الطفل Le Developpement de la Notion de Temps chez l'Enfant
نشرته شركة المطابع الجامعية الفرنسية (١٩٤٦) في ٢٩٨ صفحة .

(١٤) فكرتنا الحركة والسرعة عند الطفل Les Notions de Mouvement et de Vitesse chez l'Enfant
عند نفس الناشر ، وفي نفس السنة في ٢٨١ صفحة .
وكثير من مجموعة بياجيه هذه قد تولت حق نشرها بعد الحرب الثانية المطابع
الفرنسية الجامعية Presses Universitaires de France ١٠٨ سان جرمان بباريس ،
وتنشرها ضمن مجموعة : مكتبة الفلسفة المعاصرة . Bibl. de Philos. Contemp. التي
أنشأها فليكس ألكان في قسم علم النفس والاجتماع الذي يشرف على إصداره
الأستاذ برادين Mauricé Pradines .

ومن أهم ما وقفت عليه من منشورات هذه المؤسسة الجامعية في باريس المراجع
الآتية في مختلف موضوعات علم النفس ؛ بعضها يعاد نشره ، وبعضها الأكبر
ينشر لأول مرة :

للأستاذ ريبو Th. Ribot الأستاذ الفخرى بالكوليج دى فرانس وعضو المجمع
الفرنسى كتابان : الأول في : الوراثة السيكلوجية L'Hérédité Psychologique
ضمن منشورات مكتبة الفلسفة المعاصرة . Biblio. de Philos. Contemp. والآخر في
سيكلوجية العواطف La Psychol. des Sentiments ضمن هذه المجموعة أيضاً .
والأستاذ برونشفيك L. Brunshwicg كتابان ضمن مجموعة الفلسفة المعاصرة
هذه هما : العقل والدين La Raison et la Religion وتقدم الشعور في الفلسفة
الغربية Le Progrès de la Conscience dans la Philos. Occidentale كما أن
له كتاباً ثالثاً صغيراً ضمن موسوعة الفلسفة الجديدة . Nouvelle Encyclo. Philos.
هو : أعمار الذكاء Les Ages de l'Intelligence .

والأستاذ هنرى دولاكروا H. Delacroix الأستاذ بالسوربون وعميد كلية الآداب
بجامعة باريس كتاب صغير باسم : صور الحياة العقلية الهامة Les Grandes Formes
de la Vie Mentale ضمن موسوعة الفلسفة الجديدة كذلك .

والأستاذ فلسيان شاليه F. Challaye كتاب في سيكلوجية الطفل La Psychol.
de l'Enfant وجزؤه الأول كما يقول في الخصائص الوظيفية للطفولة—Les Caract.
Nouv. Traité éristiques fonctionnelles de l'Enfance يظهر ضمن مجموعة

. de Psychol.

وكذلك كتابا الأستاذين جيوزل A. Gesell وإلج F. L. Ilg الكبيران :
الأول في الطفل من الخامسة إلى العاشرة L'Enfant de 5 à 10 ans والثاني عن
الطفل الصغير في المدنية الحديثة Le Jeune Enfant dans la Civilisation Moderne
وكلاهما ضمن المكتبة العلمية الدولية . Bibl. Scient. Interna.

وفي سيكولوجية الغريزة والدوافع ظهر للأستاذ أوجست لبي A. Ley الأستاذ
بجامعة بروكسل بالاشتراك مع فوثيه M.L. Wauthier كتاب باسم : دراسات
في سيكولوجيا الغريزة والدوافع Etudes de Psychol. Instinctive et Affective
يبحث في الخوف والغضب والحب والكره والانتقام والحسد والمشاركة والاستطلاع
وغيرها من الدوافع . ظهر ضمن مجموعة : مكتبة الفلسفة المعاصرة Biblio. de Phil.
Cont. ؛ وكتاب للأستاذ پول دييل P. Diel باسم سيكولوجية الدوافع Psychol. de
la Motivation ضمن هذه المجموعة أيضاً .

وفي هذه الموضوعات متفرقة توجد كتب كثيرة ؛ منها : حقد الحب La Jalousie
Amoureuse للأستاذ لاجاش أستاذ علم النفس بالسوربون - في مجلدين كبيرين
يبحث أولهما في حالات الحقد ومشكلة الشعور بالبغض ، وثانيهما في بقاء هذه
العاطفة حية ؛ وهما ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة أيضاً .

وللأستاذ پير مندوس P. Mendousse كتابان كذلك في نفس المجموعة عن
نفسية المراهق L'Ame de l'Adolescent ونفسية المراهقة L'Ame de l'Adolescente
وللأستاذ ألفرد اشتيرن A. Stern في نفس المجموعة أيضاً كتاب في فلسفة
الضحك والبكاء Philos. du Rire et des Pleurs ، ومثله كتاب للأستاذ
مارك شاپيرو M. Chapiro باسم : L'Illusion Comique إلى جانب النشرة
الجديدة لكتاب برجسون في الضحك Le Rire - وكلها ضمن نفس المكتبة .
أما كتاب چان پول سارتر الصغير في التخيل L'Imagination فقد نشر ضمن
موسوعة الفلسفة الجديدة . Nouv. Encycl. Philos.

وقد نظرت في مكتبة المطابع الجامعية بپاریس أيضاً ترجمة فرنسية لكتاب
ودورث الكبير : علم النفس التجريبي (١٩٣٨) الذي أشرنا إليه في المقدمة
ص ٤٢) باسم Psychologie Expérimentale في مجلدين كبيرين - نشر
ضمن مجموعة : المكتبة العلمية الدولية . Bibl. Scienti. Inter.

اما في دراسة الشخصية فثمة كتاب للأستاذ شارل بودوان Ch. Baudoin المعيد بجامعة جنيف باسم : اكتشاف الإنسان Découverte de la Personne ضمن موسوعة الفلسفة الجديدة Nouvelle Encyclo. Philos. ، وكتاب الأستاذ بلوندل Ch. Blondel باسم : الشخصية Personalité ضمن مجموعة Nouveau Traité de Psychol. ؛ وكذلك كتاب ثالث جرى طبعه أيضاً بالمطابع الجامعية باسم La Personnalité للأستاذ ديشو M. Deschoux .

وفي أمراض الشخصية والطب العقلي بصفة عامة : أظهرت هذه الدار طائفة كبيرة من الكتب منها : عدم التوازن النفسي أو الاختلال النفسي ، أمراضه النفسية والخلقية Le Déséquilibre psychique, ses psychoses, sa Morale للدكتور بوريل Dr. J. Borel كبير أطباء المستشفيات العقلية ، والطب العقلي الخلق والتجريبي الفردي والاجتماعي Psychiatrie Morale, Expérimentale, Individuelle et Sociale للدكتور باروك H. Baruk كبير أطباء دار شارنتون الوطنية ، وكتاب للدكتور چان دلي J. Delay الأستاذ بكلية الطب بجامعة باريس باسم : تحليل الشخصية Les Dissolutions de la Mémoire ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة مع مقدمة للأستاذ چانيه J. Janet عضو المجمع الفرنسي ؛ وأمراض الذاكرة Nouv. Encyclo. Philos. لنفس المؤلف ؛ وكتابان للأستاذ هرمن رورشاخ H. Rorschach في التشخيص النفسي Psychodiagnostie أحدهما في « مناهج ونتائج تجربة في تشخيص الإدراك » ضمن المكتبة العلمية الدولية Bibl. Scien. Intern. والثاني لوحات تصويرية لهذا التشخيص . وكتاب صغير لچوستاف لوبون G. Le Bon في : سيكولوجيا المجنونات Psychol. des Foules ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة Bibl. de Philos. Contemp. . وكتاب لدوسوى R. Desoille في : الحلم كما يكشف عنه العلاج النفسي Le Rêve éveillé en Psychothérapie - وهو كما يصفه : علاج لوظيفة نظام اللاشعور الجمعي ، ظهر ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة أيضاً ، ومثله في موضوعه تقريباً كتاب ليون ديپوى L. Dupuis عن بعض الأمراض الاجتماعية كالارتباب والحياء والحساسية والسيادة باسم : Les Aboulies Sociales ضمن مجموعة مكتبة الفلسفة المعاصرة .

وثمة كتابان آخران للأستاذ دشي G. Deshaies ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة.

أيضاً أحدهما كبير : سيكولوجية الانتحار Psychol. du Suicide ؛ والآخر صغير
 في حساسية المريض L'Esthétique du Pathologique .
 وكتاب للأستاذ إيتين دو جريف E. De Greef أستاذ القانون الجنائي في
 جامعة لوفان Louvain : مقدمة إلى العلم الجنائي Introd. à la Criminologie ؛ وآخر
 للأستاذ جورج جيزدورف G. Gusdorf : تجربة التضحية الإنسانية L'Expérience
 Humaine du Sacrifice ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة .
 كما تجد من بين منشورات هذه الدار الجامعية طائفة كبيرة من المراجع
 في علم النفس الصناعي والتوجيه المهني ؛ منها كتاب للأستاذ ريمون روييه R. Ruyer
 الأستاذ بكلية الآداب بجامعة نانسي باسم : عناصر السيكيويولوجيا Elements de
 Psycho-Biologie ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة ؛ وكتابان صغيران للأستاذ
 پوييه G. Poyer ضمن موسوعة Nouveau Traité de Psychol. أحدهما في الوراثة
 السيكولوجية L'Hérédité Psychologique والآخر في سيكولوجية الطبائع Psychol.
 des Caractères ؛ وكتابان أكبر قليلا ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة للأستاذ
 جيل پايو J. Payot الأول في تربية الإرادة L'Education de la Volonté والثاني
 في العمل العقلي والإرادة Le Travail Intellectuel et la Volonté ؛ وكتاب
 صغير للأستاذ مايرسون I. Meyerson بالاشتراك مع أربعة آخرين ؛ باسم العمل
 والفنون Le Travail et les Techniques إلى جانب الطبعة الجديدة لكتائيه
 الكبيرين في الفلسفة : الهوية والحقيقة Identité et Réalité وسلوك الفكر le
 Cheminement de la Pensée وكلاهما ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة ؛ وكتاب
 ضمن هذه المكتبة أيضاً للأستاذ موريس ميرلو پونتي M. Merleau-Ponty في :
 تركيب المزاج La Structure du Comportement ؛ وكتاب هام أيضاً للأستاذ رينيه
 لوسين R. le Senne الأستاذ في السوربون وفي المعلمين العليا بسيفر Sèvres :
 دراسة لعلم الطبائع Traité de Caractérologie ظهر ضمن مجموعة لوجوس Logos ؛
 وكتاب للأستاذين لاهي J. M. Lahy وپاكو S. Pacaud في دراسة خاصة لإحدى
 المهن : مهندسي وسائقى القاطرات Mécaniciens et Chauffeurs de Locomotive :
 Etude d'un métier ؛ وكتاب للدكتور دليي J. Delay سابق الذكر (في أمراض
 الشخصية) باسم : فساد المزاج Les Dérèglements de l'Humeur ضمن مكتبة
 الفلسفة المعاصرة ، مع مقدمة للأستاذ روسي G. Roussy عضو الجمع الفرنسي ؛

وكتاب طريف ضمن هذه المجموعة أيضاً في دراسة طابع الشخصية من الكتابة L'écriture et le Caractère للأستاذ كريبيوچامان؛ Crépieux-Jamin؛ وكتاب العلامة كلاپارد Ed. Claparède في التوجيه البعيد L'Orientation Lointaine ضمن الـ Nouveau Traité de Psychol.، ثم كتابان أحدهما ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة : مبادئ سيكولوجيا الميول P.incipes d'une Psychol. des Tendances. والآخر ضمن موسوعة الفلسفة الجديدة. Nouv. Encycl. de Philos. : في الطبع Le Caractère للأستاذ بيرلو A. Burloud؛ وأخيراً كتاب للدكتور بوناردل R. Bonnardel للأستاذ بمعهد علم النفس بجامعة باريس ورئيس الدراسات العليا بها باسم : تكيف الإنسان بمهنته L'Adaptation de l'Homme à son Métier وهو دراسة تجمع بين علمي النفس الاجتماعي والصناعي مع مقدمة للأستاذ لاپيك L. Lapicque عضو الجمع الفرنسي ظهر ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة .

ومن كتابات كبار أساتذة علم النفس الحاليين في فرنسا تجد عدداً كبيراً من المؤلفات التي تولت نشرها هذه الدار أيضاً؛ منها للأستاذ هنري بيرون H. Piéron الأستاذ في الكوليج دي فرانس ومدير معهد علم النفس بجامعة باريس : علم النفس الحيواني Psychologie Zoologique ضمن موسوعة. Nouv. Traité de Psychol.؛ وكتابه : علم النفس التفاضلي Psychol. Différentielle ؛ خصوصاً صحيفة : السنة السيكولوجية L'Année Psychologique التي تصدر هذه الدار مجموعاتها الجديدة ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة. Biblio. de Philos. Contemp. ابتداء من سنة ١٩٤٠ (أي منذ السنة الحادية والأربعين لظهورها) .

وما أصدرته هذه الدار أيضاً من الدوريات السيكولوجية الخالصة والتطبيقية (عدا كثير من المجلات الفلسفية والاجتماعية) : مجلة علم النفس السوي والمرضى Journal de Psychol. Normale et Pathologique التي تصدر أربع مرات في السنة للمشاركين بإشراف الأستاذين جيوم ومايسون ومجلة : الطفولة Enfance التي تصدر منها خمسة أعداد في السنة تتناول مختلف موضوعات علم النفس والتربية والطب العقلي والعصبى والاجتماع بإشراف الأستاذ هنري فالون H. Wallon ومجلة العمل الإنساني Le Travail Humain التي تصدر عشرين مرتين في السنة بإشراف الأساتذة : بوناردل R. Bonnardel ولاهى J.M.Lahy ولوجيه H. Laugier ومجلة التحليل النفسى الفرنسية Revue Française de Psychanalyse التي تصدر أربع مرات

في السنة ، والتي يتولى سكرتيرية تحريرها الدكتور ليوبا Dr. J. Leuba ، هذا إلى جانب : السنة الاجتماعية ، ومجلة الميتافيزيقا ، وعلم الجمال ، ودراسات فلسفية Etudes Philosophiques ، وديالكتيكا ، وصحيفة التاريخ والفلسفة الدينية ، ومجلة تاريخ الأديان وصحف البيولوجيا ، والحراحة ، والاقتصاد والسياسة . . . إلخ . وللأستاذ موريس برادين M. Pradines الأستاذ في السوربون كتابه الكبير الهام : بيان في علم النفس العام Traité de Psychol. Générale في مجلدين كبيرين يتناول الأول المظاهر النفسية الأولية Psychisme Elementaire ويتناول الثاني : المهوبة الإنسانية Le Génie Humain من ناحيتي : آثارها Ses Oeuvres وأدواتها Ses Instruments وهي ضمن مجموعة لوجوس Logos التي تشمل أيضاً كتاب بيرون الكبير Traité de Psychol. وثمة كتاب هام في التقديم لسيكولوجيا موريس برادين ألفه الأستاذ جاك جراب J. Grappe باسم La Genèse Réciproque ظهر ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة .Biblio. de Philos. Contemp.

وللأستاذ جورج ديما G. Dumas الأستاذ الفخرى بالسوربون وعضو المجمع الفرنسي وأكاديمية الطب موسوعته الكبيرة في علم النفس Nouveau Traité بمجلداتها الست التي يجري الآن طبع سابعها : الأول مقدمة في المنهج والأفكار الأولى Notions Préliminaires. Introduction. Méthodologie. العقلية Fondements de la Vie Mentale الحسية الحركية ، والثالث في الروابط العقلية ، والرابع الوظائف والقوانين العامة Les Associations Sensitivo-Motrices ، والخامس في الوظائف الجهازية للحياة العقلية Les Fonctions et les Lois Générales ، والسادس Les Fonctions systématisées de la Vie Intellectuelle في هذه الوظائف عينها للحياة الانفعالية والحياة الفاعلة Fonctions systématisées de la Vie Affective et de la Vie Active أما المجلد السابع الذي يجري طبعه الآن فهو في المركبات العقلية Les Synthèses Mentales . ومما نشرته هذه الدار من كتب العلامة ديما أيضاً الحياة الانفعالية la Vie Affective من وجهة النظر الفيزيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية ، ظهر ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة ، وكتابه : عالم الأرواح والآلهة من وجهة نظر الأمراض العقلية Le Surnaturel et les Dieux, d'après les Maladies Mentales الذي يتناول الأفكار الدينية المتسلطة والباثولوجية ؛ ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة أيضاً ، ثم كتابه الصغير :

سيكولوجيا وفيزيولوجيا الابتسام Le Sourire : Psychol. et Physiologie ضمن هذه المكتبة أيضاً .

أما العلامة بول جيوم P. Guillaume الأستاذ بكلية الآداب بجامعة باريس فقد نشرت له هذا الدار — أو أعادت نشر — ثلاثة من كتبه هي : تكون العادات La Formation des Habitudes (وكان قد نشره ألكان ١٩٣٦ في نفس المكتبة التي أعيد نشره بها) بمكتبة علم نفس الطفل والتربية Biblio. de Psychol. de l'Enfant et de Pédago. وطبعته الجديدة مزيدة ومنقحة وإن كانت شعبية (في ١٦٣ صفحة) وكتابه : مختصر في علم النفس Manuel de Psychologie نشرت هذه الدار طبعته الرابعة في مجلد واحد مزيدة ومنقحة (١٩٤٦) ، وكتابه سيكولوجيا القردة العليا La Psychol. des Singes وهو المجلد الثالث من موسوعة ديما G. Dumas الكبيرة آنفة الذكر Nouv. Traité de Psychol. ظهرت طبعته سنة ١٩٤١ .

وبقية آثار جيوم قد تولت نشرها دور نشر أخرى غير المطابع الجامعية الفرنسية ودار فليكس ألكان قبل أن تستولى عليها المطابع الجامعية ، وأهمها : التقليد عند الطفل L'imitation chez l'Enfant الذي نشره ألكان (١٩٣٥) في مجلد واحد ضمن مكتبة علم نفس الطفل والتربية المذكورة ؛ ثم كتابه الهام : سيكولوجيا الحشطلت Psychol. de la Forme الذي نشره فلاديمير Flammarion بباريس (١٩٣٧) ثم أعاد نشره أخيراً في طبعة حديثة ضمن مكتبة الفلسفة العلمية. Biblic. de Phijos. Scient. التي يشرف على إصدارها الأستاذ پول جولتييه Paul Gaultier ؛ أما كتابه : علم النفس الحيواني La Psychol. Animale فقد نشره أرمان كولان Armand Colin بباريس (١٩٤١) ؛ وكتابه : مقدمة لعلم النفس Introd. à la Psychologie ظهرت طبعته الثالثة عند فران Vrin بباريس (١٩٤٦) ؛ وأخيراً : سيكولوجية الطفل La Psychol. de l'Enfant وهو المجلد السنوي الذي ينشره المعهد الدولي للتعاون الفلسفي. Instit. Intern. de Collabor. Philcs. سنة ١٩٤٠ فقد نشره هرمن Hermann .

وللأستاذ هنري قالون H. Wallon الأستاذ في الكوليج دي فرانس ومدير دراسات مدرسة الدراسات العليا بجامعة باريس كتاباه الهامان جداً : أحدهما الذي ظهر سنة ١٩٤٥ بنزعة تجريبية وعمق وأصالة ، وأعنى به : نشأة الفكر في الطفل Les Origines de la Pensée chez l'Enfant في مجلدين كبيرين : الأول

في : الوسائل العقلية Les Moyens Intellectuels والثاني في : الوظائف العقلية Les Tâches Intellectuelles والآخر عن : الشعور والحياة دون الشعورية La Conscience et la Vie Subconciente تظهر ضمن موسوعة ديما Psychol. أما كتابه المشهور : من الفعل إلى الفكر De l'Acte à la Pensée الذى يعد بحثاً قيماً جداً في علم النفس المقارن ؛ فقد نشره فلاديمير بياريس (١٩٤٢) .

ومما نشرته هذه الدار أيضاً في دراسة الذكاء بعد الحرب الأخيرة كتابان صغيران للأستاذ رنيه زازو R. Zazzo المحاضر في معهد علم النفس بجامعة باريس ورئيس معمل مستشفى هنرى روسل ؛ الأول في : مصير الذكاء Le Devenir de L'Intelligence ؛ والثاني في : الذكاء ومتوسط السن et Quotient d'Agés — وكلاهما دراسة مقارنة ممتعة — ظهر ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة — هذا فضلاً عن كتابه ، سيكولوجية أمريكا وعلمائها Psychologues et Psychologies d'Amérique الذى ظهر ضمن موسوعة الفلسفة الجديدة. Nouv. Encycl. Philoso وأخيراً كتاب بزوغ الذكاء L'Eveil de l'Intellig. الذى نشره ألكان ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة للدكتور يوسف مراد Dr Youssef Mourad (١٩٣٩) في ٤٠٣ صفحة .

ويعد ما نشرته هذه الدار أهم ما ينشر بالفرنسية في علم النفس بعد أن تولت إدارة كثير من دور النشر خصوصاً مكتبتى ألكان (فليكس) وإيرنو Ernest Leroux وتعهدت نشر كثير من آثار هذه الدور ومؤلفاتها بنفس مجموعاتهما ومكتباتهما والإضافة إليها ؛ حتى قيل لى إن هذه المؤسسة التى يشرف عليها كبار أساتذة الجامعة تظهر كل يوم كتابين ، وتتعهد نشر ٢٠ ألف كتاباً في مختلف فروع العلم والأدب والفلسفة والفن .

وإليك بعد هذا ما طلعت به دور النشر الأخرى بباريس من أحدث الكتب :

يعنى لاروس خصوصاً بالنشر فى النواحي اللغوية والفيولوجية والمعاجم والأدب ومع هذا فقد اطلعت فى هذه المكتبة فى أغسطس الماضى على الكتب الآتية فى علم النفس مما نشر فى يوليو .

كتاب هلين دويتش H. Deutsch باسم : سيكولوجية المرأة La Psychologie

des Femmes والذي ظهر منه الجزء الأول في : الطفولة والمراهقة . ويشمل الكتاب كما هو عنوان المكتبة التي ظهر فيها (مكتبة التحليل النفسي وعلم النفس الإكلينيكي) طائفة كبيرة من تحليل نفسيات هذا (Bibl. de Psychanal. et Psych. Clinique) الجنس في مراحل المراهقة والطفولة على غرار ما فعل فرويد في كتابه « سيكوپاثولوجيا الحياة اليومية » ؛ وهو دراسة طريفة ممتعة وتحليل قيم مفيد يقع في حوالي ٣٣٠ صفحة . وكتاب الأستاذ مارسيل ديشو M. Deschoux في الشخصية بعنوان Essai sur la Personalité ونشر ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة ، ويقع في ٣٨٨ صفحة عدا المقدمة . وكتاب صغير للأستاذ جورج بارباران G. Barbarin عن الخوف باسم : La Peur, Maladie No.1 ، وكتاب للأستاذ بيير ماري P. Marbille عن التقليد في المعرفة الإنسانية Imitation à la Connaissance de l'Homme ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة ، في ٢٠٤ صفحات . . . هذه أهم الكتب التي ظهرت حديثاً في علم النفس عدا عدة كتب فلسفية خالصة (عن برونشك وهيجل وأفلاطون . . .) وأخرى منطقية وميتودولوجية خالصة لاتعنيننا كثيراً .

أما فلامريون E. Flammrion فأهم ما ظهر عنده في علم النفس حديثاً عدا كتابي فالون H. Wallon (de l'Acte à la Pensée) وجيوم P. Guillaume (la Psychologie de la Forme) : كتاب لألفرد بينيه A. Binet عن : الآراء الحديثة في الطفولة Les Idées Modernes sur les Enfants ، وكتاب للأستاذ بيير جانيه P. Janet عن بشائر الذكاء Les Débuts de l'Intelligence وكتاب للأستاذ لوي لاپيك L. Lapicque عضو المجمع الفرنسي باسم : الآلة العصبية La Machine Nerveuse وآخر للأستاذ لوي لافيل L. Lavelle باسم : قوى الأنا Les Puissances du Moi وأخيراً كتاب للدكتور شوشار Dr. Paul Chauchard في : النوم وحالات النوم Le Sommeil et les Etats de Sommeil هذا عدا نشرة البراجماتزم لجميس ، وكتاب فيليب فرانك Ph. Frank في العلية وحدودها وكتب بوانكاريه H. Poincaré الثلاثة في مناهج العاوم . . .

ويجوز قسم الفلسفة من مجموعة أرمان كولان Armand Colin التي تصدرها مكتبة أرمان كولان بسان ميشيل بباريس عدداً من الكتب الصغيرة القيمة في علم النفس لأئمة علمائه منها سيكولوجية الذكاء La Psychol. de L'Intelligence للعلامة بيأجيه J. Piaget وهذه طبعته الثانية (١٩٤٩) في ٢١٢ صفحة من القطع (٢٣)

الصغير؛ أما الأصل فكان قد نشره مكس ليكلير M. Leclerc (١٩٤٦) ؛ وبادئ علم النفس التطبيقي H. Wallon للأستاذ هنرى فالون H. Wallon الطبعة الرابعة (١٩٤٦) فى ٢٢٤ صفحة والأصل نشره ليكلير أيضاً (١٩٣٠) ؛ وكتاب علم النفس التجريبي Psychol. Expérimentale للعلامة بيرون H. Piéron (الطبعة السادسة)؛ ومقدمة لعلم النفس الاجتماعى Introd. à la Psychol. Collective للدكتور بلوندل Dr. Ch. Biondel (الطبعة الرابعة) ؛ وعلم النفس الحيوانى La Psychologie Animale لجيوم P. Guillaume (الطبعة الثانية) ؛ ثم تقدم الطفل السيكولوجى L'Evolution Psychologique de l'Enfant لفالون H. Wallon أيضاً (الطبعة الثانية) ؛ والغريزة والسلوك الحيوانى L'Instinct et le Comportement Animal لإيتين رابو E. Rabaud فى مجلدين ؛ والوراثة L'Hérédité لنفس المؤلف (الطبعة الثالثة) والنوم Le Sommeil للدكتور ليرميت J. Lhermitte الأستاذ بكلية الطب بجامعة باريس .

وقد اطلعت بلندن فى الصيف الماضى على الكتب الآتية التى أصدرها أخيراً زوتلج وكيجان پول فى علم النفس : كتاب ضخيم فى التقديم لعلم السلوك الإنسانى كما شاء مؤلفه الأمريكى تريجانت بورو T. Burrow أن يعلق على عنوانه : The Nature of Man . والمؤلف - كما يقال فى إعلان مرفق بالكتاب - أحد تلاميذ فرويد ويونج الذين أدخلوا التحليل النفسى فى أمريكا أول ما دخل ؛ وكتب فيه : الأساس الاجتماعى للشعور The Social Basis of Consciousness وبيولوجية الصراع الإنسانى Biology of Human Conflict . . . وهذا الكتاب الكبير يشمل هذا كله ويدرس السلوك الإنسانى من حيث هو علاقة بين أفراد لكل منهم تحليله النفسى الخاص ؛ وكتاب آخر يعرضه هذا الناشر فى موضوع يقرب من هذا مع إحلال الدراسة الأخلاقية محل التحليل الطبى المرضى ، أى مع ميل إلى يونج أكثر واسمه : الإنسان لنفسه : بحث فى سيكولوجية الأخلاق Man for Himself ؛ للأستاذ إريش فروم Erich Fromm An Enquiry into the Psychol. of Ethics ثم كتاب صغير للأستاذة مارى ماكولى M. Macaulay مؤسسة معهد التربية المعروف فى لندن باسم Iona Adult Education Centre الذى يتولى دراسة طبيعة الحياة الإنسانىة والأبوة والبنوة والتربية عموماً دراسة عملية تطبيقية - واسم الكتاب : فهم أنفسنا Understanding Ourselves وهو صورة لعملها النشط فى هذا الميدان

تتناول فيه بعد عرض لقوانين الحياة والنمو مسائل الزواج والنسل والطفولة والشباب داعية إلى استخدام العيان والبصيرة التي تستند إلى الخبرة لا الذكاء دائماً — ومناذية بسلام وأخوة دائمة .

هذا ما نشرته هذه الدار في علم النفس حتى صيف ١٩٤٩ ، أما قبل ذلك فأهم ما نشرته : الترجمة الإنجليزية لكثير من كتب بياجيه J. Piaget في سيكولوجيا الطفل وقد أشرنا إليها بأسمائها مع أصول هذه الكتب الفرنسية . مضافاً إليها كتاب ليويس M.M. Lewis في : كلام الطفل Infant Speech ، وكتاب همفري G. Humphrey في : طبيعة التعلم The Nature of Learning وكتاب ينش E.R. Jaensch في : التصور الارتساعي وأهميته لنظرية التعلم Eidetic Imagery and its Importance for the Theory of Education والترجمة الإنجليزية لكتاب كنفكة K. Koffka المشهور : نمو العقل The Growth of the Mind ترجمة أوجدن R.M. Odgen (الطبعة الرابعة) .

ومن بين ما نشرته هذه الدار من كتب علم النفس في الشخصية :

كتاب ألپورت G.W. Allport : الشخصية : تفسير سيكولوجي Personality R.G. Gordon (١٩٣٧) ؛ وكتاب جوردون R.G. Gordon في الشخصية العصبية The Neurotic Personality ، وكتاب كرتشمير E. Kretschmer في : الطبيعة والطبع Physique and Character (الطبعة الثانية) وكتاب روباك A.A. Roback في : سيكولوجية الطبع The Psychology of Character ؛ وكتاب آخر لروباك في : مشاكل الشخصية Problems of Personality ؛ وأخيراً كتاب لمتشل T.W. Mitchell في : مشاكل في السيكوباتولوجيا Problems in Psychopathology .

أما الكتب الآتية ففي الحياة العاطفية وتحليل أهراضها :

كتاب هويتلي سميث W. Whately Smith في : قياس الانفعال The Measurement of Emotion ؛ وكتاب للدكتور ثالبترز S. Thalbitzer في : الانفعال والخلل Emotion and Insanity مع مقدمة للأستاذ هيرالد هيفدنج ؛ وكتاب الفيلسوف الفرنسي بولان F. Paulhan في قوانين العاطفة الذي ترجمه أوجدن C.K. Ogden إلى الإنجليزية باسم : The Laws of Feeling ؛ وكتاب لدبلي كنج C. Daly King في : سيكولوجيا الشعور The Psychol. of Consciousness ؛

ثم كتاب مارستون W.M. Marston ومارستون E.H. Marston ودبلي كنج
 C. Daly King المشهور في : علم النفس التكامل Integrative Psychology وأخيراً
 كتاب للأستاذ لينيل لافاستين - M. Laignel Lavastine في : المنهج التركيبي
 في تشخيص المرضى بالعصاب The Concentric Method in the Diagnosis of
 Psychoneurotics هذا عدا ترجمة جودوين بينز H. Godwin Baynes
 الإنجليزية لكتاب يونج الكبيرين : النماذج السيكولوجية Psychological Types
 (الطبعة السادسة) ؛ وأقوال في علم النفس التحليلي Contributions to Analytical
 Psychology وكتاب أدلر الكبير : تطبيق علم النفس الفردي ونظريته The Practice
 and Theory of Individual Psychology .
 وفي علم النفس الحيواني أصدرت هذه الدار الطبعة الثانية المنقحة لترجمة كتاب
 كيلر W. Kohler الإنجليزية (عقلية القردة) The Mentality of Apes وكتاب
 تسوكرمان S. Zuckermann : الحياة الاجتماعية للقردة والقردة العليا The Social
 Life of Monkeys and Apes وكتابا ألفردز F. Alverdes ؛ الحياة الاجتماعية
 في عالم الحيوان Social Life in the Animal World وسيكولوجيا الحيوانات
 (في علاقتها بسيكولوجيا الإنسان) The Psychol. of Animals وأخيراً كتاب
 هويلر W.M. Wheeler في الحشرات : The Social Insects
 وفي علم النفس العام أصدر كيجان بول الكتب الآتية :
 ترجمة أوجدن C.K. Ogden لكتابي العلامة بيرون H. Piéron المذكورين
 من قبل : مبادئ علم النفس التجريبي Principles of Expeim. Psychol. والفكر
 والمخ Thought and the Brain ؛ وكتاب تشاراز فكس Ch. Fox : العقل
 وجسمه The Mind and its Body ؛ وكتاب كهيون G.G. Campion واليوت اسميث
 Sir G. Elliot Smith : الأساس العصبي للتفكير Neural Basis of Thought ؛
 وكتاب برونو پترمان B. Petermann : نظرية الحشطلت ومشكلة الصيغة The
 Gestalt Theory and the Problem of Configuration ؛ ثم كتاب أوجدن
 C.K. Ogden ورتشردز I.A. Richards : معنى المعنى The Meaning of Meaning
 (الطبعة السادسة) الذي يبحث في أثر اللغة في الفكر وفي العلم الرمزي عموماً .
 ومن الكتب الأخرى في هذا الباب من علم النفس : الديالكتيك Dialectic
 لمورتيمر أدلر M.J. Adler واضطرابات الكلام Speech Disorders لاستشفيلد

The Spirit of Language in الحضارة ؛ وروح اللغة في الحضارة S.M. Stinchfield
 The Symbolic Civilisation لفوسلر K. Vossler ؛ وعملية الرمز وتكاملها في الأطفال
 Process and its Integration in Children للماركى J.F. Markey ؛ وأخيراً :
 الاتصال Communication لكارل بریتون K. Britton ؛ ويبحث في اللغة من
 حيث قدرتها على الأداء بحثاً فلسفياً .

هذا عدا كتب أخرى كثيرة ذات جانب سيكولوجى نشرتها هذه الدار في
 الاجتماع والأديان والانتولوجيا والفلسفة والسياسة والاقتصاد ... ضمن المكتبة الدولية
 لعلم النفس والفلسفة والمنهج العلمى Intern. Libr. of Psychol. Philos. and Sc. Meth.
 وخصوصاً في فيزيولوجيا الحواس البصر (العمى اللوى) والسمع (الموسيقى) . الخ .
 أما أن وأنوين فقد نشر في علم النفس الكتب الآتية :

كتابان للأستاذ تشارلز برج Ch. Berg في التحليل والعلاج النفسين أحدهما :
 علم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology ويبحث خصوصاً في الأمراض
 العصبية وعلاجها ، والآخر : تحليل عميق Deep Analysis وهو دراسة إكلينيكية
 أيضاً لحالة فردية على طريقة تحليل فرويد . وفي هذا الموضوع أيضاً نشر ساندور
 لوراند S. Lorand كتاباً كبيراً اشترك في تأليفه ارنست جونز E. Jones
 وبريل A.A. Brill وجولوفر E. Glover وفتلز F. Wittels وكلاين M. Klein
 باسم : التحليل النفسى اليوم Psychoanalysis Today وهو دراسة لمشاكل
 الإنسان الحديثة تعرض عمل تسعة وعشرين من المحللين النفسين والأطباء العقلين
 المحدثين (في ٤٠٠ صفحة كبيرة)

كذلك نشرت هذه الدار في علم النفس هذه الكتب التي تعرضها مكتبتها بإشراف
 ميوزيم Museum St. بلندن : الطبعة الرابعة من كتاب طومسون G.H. Thomson .
 الغريزة والذكاء والطبع Instint, Intelligence and Character ؛ وكتاب صغير
 لماكترى J.G. Mckenzi باسم : الاختلال العصبى والطبع Nervous Disorders
 and Character ؛ وكتاب لچون مارتن J. Martin : من الإخفاق إلى التوفيق
 From Faiilure to Fulfilment والطبعة الثانية من كتاب للدكتور هارولد فنك
 Dr. H. Fink التخلص من التوتر العصبى Release from Nervous Tension ، ومن
 كتاب بيلز F.W. Bailes : يستطيع عقلك أن يشفيك Your Mind can Heal you
 ومن كتاب هارى بروكس Harry C. Brooks : شخصيتك من كتابتك Your

Character from your Handwriting ؛ والطبعة السادسة من كتاب ألفرد أدلر A.Adler المشهور : فهم الطبيعة الإنسانية Understanding Human Nature ؛ ثم الطبعة الثانية المنقحة لكتاب إدوارد جلوفر E. Glover : الحرب والسادية والسلام C. Burt Wra، Sadism and Pacifism ؛ والطبعة الثالثة للكتاب الذي نشره سيريل بيرت C. Burt كيف يعمل العقل How the Mind Works بالاشتراك مع : إرنست جونز E. Jones وعمانوئيل ميلر E. Miller ووليم مودي W. Moodie ؛ والطبعة السابعة لكتاب فرويد S. Freud : محاضرات مقدمة للتحليل النفسى Introductory Lectures on Psycho-Analysis ؛ والطبعة الثانية لكتاب آنا فرويد A. Freud : مقدمة التحليل النفسى للمدرسين Introd. to Psycho-anal. for Teachers ؛ والطبعة الثالثة لكتاب بيكورث فارو E. Pickworth Farrow : طريقة عملية لتحليل النفس A Practical Method of Self-Analysis (مع مقدمة لفرويد) ؛ ثم كتاب إميل كوى E. Coué : ضبط النفس عن طريق الإيحاء الذاتى الواعى Self Mastery through Conscious Auto-suggestion ؛ وكتاب جان إيرنوالد J. Ehrenwald : التخاطر وعلم النفس الطبى Telepathy and Medical Psychol. ؛ وكتاب بازيل كنج B. King : هزيمة الخوف The Conquest of Fear ؛ وكتاب بيرلز F. S. Perls : الأنا والجوع والعدوان Ego, Hunger and Agression الذى يقول عنه صاحبه إنه مراجعة لنظرية فرويد ومنهجه ، وكذلك كتاب فنسنت J. Vincent فى داخل مستشفى الأمراض العقلية Inside the Asylum وأخيراً قاموس وارن C. H. Warren المعروف Dictionary of Psychology . . . عدا كتب كثيرة فى التربية والاجتماع والمشاكل الشخصية ، وكتب أخرى كثيرة فى علم النفس الخالص تحت الطبع تعلن عنها دار ألن وأنوين وأما لونغمانز وجرين وشركاهما بلندن فقد اطلعت لديهم على الكتب الآتية : كتاب وليم جيمس W. James المشهور (الذى أشرنا إليه فى التعليق على جيمس : ص ٦٩) أحاديث إلى المعلمين فى علم النفس Talks to Teachers on Psychology طبعة حديثة (١٩٣٩) مع مقدمة لجون ديوى ووليم كلپاتريك W. Kilpatrick إلى جانب طبعات حديثة أخرى لسائر كتبه المشار إليها فى التعليق (ص ٦٩) وكتاب كبير فى العقيدة والأخلاق باسم Essays on Faith and Morals ؛ والطبعة الثانية من كتاب اسبروت W.J.H. Sprott : علم النفس العام General

Psychology (١٩٤٨) ومن كتاب ودرف A.D. Woodruff فى سيكولوجيا التعلم The Psychol. of Learning (١٩٤٨) ؛ وثلاثة كتب جديدة لشيرمن M. Sherman : الصحة العقلية والتربية Mental Hygiene and Education ضمن مجموعة لونجمانز السيكلوجية Logm. Psychol. Series (١٩٣٤) وللمشكلات الأساسية فى السلوك Basic Problem of Behaviour (الطبعة الأولى ١٩٤١) ثم كتاب علم النفس للممرضات (والمربيات) Psychology for Nurses (الطبعة الأولى ١٩٤٧) مع رسوم توضيحية كثيرة ؛ ثم كتاب كاترين هييوود K. Heywood عن الطفل : تعلمه وحياته The Child: Learning and Living وهو دراسة عملية للمدرسين والآباء ظهر سنة ١٩٣٧ ؛ وكتاب صغير لهمنج J. Hemming وبولز J. Balls باسم : الطفل على حق The Child is Right موجه إلى الآباء والشبان ، ظهر سنة ١٩٤٧ ؛ ثم كتاب هاردنج M.E. Harding : طريق النساء جميعاً The Way of All Women الذى ظهر سنة ١٩٣٣ مع مقدمة ليونج ؛ والطبعة الثالثة من كتاب جاريت H.E. Garrett : إحصاءات فى علم النفس والتربية Statistics in Psychology and Education (١٩٤٧) مع مقدمة لمؤلفنا روبرت ودورث (ضمن مجموعة لونجمانز المذكورة) ؛ وكتاب ليليان دى لىسا L. De Lissa الحياة فى مدارس الحضانة Life n the Nursery School ؛ والترجمة الإنجليزية لكتاب رولاند دالبيز R. Dalbiez منهج التحليل النفسى ونظرية فرويد ؛ باسم : Psycho-analytical Method and the Doctrine of Freud ترجمة لنسدى T.F. Lindsay وتقديم اشتراوس E.B. Strauss الطبعة الأولى (١٩٤١) فى مجلدين كبيرين أولهما عرض للمذهب وثانيهما مناقشة له، وتمنهما فى لندن أربعون شلناً ؛ وكتاب كورتى M.W. Curti : علم نفس الطفل Child Psychology الطبعة الأولى (١٩٣٠) ضمن مجموعة لونجمانز السيكلوجية ؛ عدا كتب أخرى فى التربية وتلاميذ المدارس لهوجز A.G. & E.H. Hughes وهيوم E.G. Hume وغيرهما .

أما أهم ما نشره ميثون Methuen بلندن فى علم النفس فهو :
 جميع كتب وليم مكدوجل فى أحدث طبعاتها وأهمها : تخطيط علم النفس
 An Outline of Psychology (الطبعة الثانية عشرة) وتخطيط علم النفس المرضى
 An Outline of Abnormal Psychology (الطبعة الخامسة) ؛ وطاقات الإنسان
 The Energies of Man (الطبعة السابعة) ؛ والجسم والعقل Body and Mind

(الطبعة الثامنة) ؛ والمادية الحديثة والتطور الظاهر Modern Materialism and Emergent Evolution ؛ والطبع وتدبير الحياة Character and the Conduct of Life (الطبعة السابعة) ؛ ومقدمة إلى علم النفس الاجتماعي An Introduction to Social Psychology (الطبعة الثامنة والعشرون) ؛ وأخيراً كتابه : معضلة الحياة The Riddle of Life ، وكذلك كتب مؤلفنا ودورث الثلاثة المشهورة : علم النفس التجريبي Experimental Psychology ؛ ومدارس علم النفس المعاصرة Contemporary Schools of Psychol. (الطبعة الرابعة) ؛ ثم علم النفس : دراسة الحياة العقلية Psychology: A Study of Mental Life (الطبعة السادسة عشرة) ؛ وكتابا ماري كولنس M. Collins و جيمس دريفر J. Drever ؛ وعلم النفس التجريبي Experimental Psychology (الطبعة السابعة) ومرشد أول لمعمل علم النفس A first Laboratory Guide in Psychol. (الطبعة الثالثة) ؛ وكتاب هولنجورت H.L. Hollingworth علم النفس المرضى : أفكاره ونظرياته Abnormal Psychology: Its Concepts and Theories ؛ وكتاب صغير للأستاذ ويلد H.P. Weld الأستاذ بجامعة كورنيل : علم النفس كعلم Psychology as Science ؛ ويبحث في مشكلات هذا العلم ووجهات نظره ؛ وكتابا كارنيجتون W. Garington عن التخاطر Telepathy وعن المادة والعقل والمعنى Matter, Mind and Meaning ؛ وكتاب فالنتين C.W. Valentine الصغير : علم النفس والصحة العقلية Psychology and Mental Health ؛ وكذلك الطبعة الثالثة لكتابه الكبير في التربية : سيكولوجية الطفولة المبكرة The Psychology of Early Childhood ؛ وكتابه الصغير في : الطفل المشكل ومشكلة النظام The Difficult Child and the Problem of Discipline ؛ ثم كتابه في : اختبارات ذكاء الأطفال Intelligence Tests for Children .

وفي علم النفس التربوي تجد من بين منشورات دار ميثون كذلك : سيكولوجية التربية The Psychol. of Education لدافيد كنيدي فريزر D.K. Frazer (الطبعة الخامسة) وكتاب : السنوات الخمس الأولى في الحياة The first Five Years of Life الذي يعرض لدراسة الطفل قبل المدرسة للدكتور أرنولد جيسل A. Gesell بعيادة رعاية الطفل بيبل Yale في أمريكا ؛ وعلم نفس الطفل Child Psychology للأستاذ بروكس فاولر D. Brooks Fowler ؛ والطفل المراهق The Adolescent Child لول

W.D. Wall ؛ والطبعة الثالثة لكتاب نانسي كاتى N. Catty : نظرية التربية وتطبيقها The Theory and Practice of Education والرابعة لورقة اختبار ذكاء تلاميذ المدارس المعروفة باسم A Measure of Intelligence for Use in Schools للعلامة اسپيرمن C.E. Spearman عدا كتب أخرى كثيرة فى التربية، وخصوصاً مجموعة سوزان إيزاكس S. Isaacs المعروفة باسم Contributions to Modern Education التى تعرض فى كل ما ظهر منها من الكتب لدراسة مختلف نواحى الطفل فى المدرسة واللعب والفن . . . الخ

٢ - فقرات مختارة وسؤال عن كل

— تتشتر E. B. Titchener : علم نفس للمبتدئين A Beginner's Psychology شركة مكملان (١٩١٨) ص ص ١ - ٣٦
بأى الوسائل يجب على علم النفس - لكى يكون علمياً - أن يختلف عن المعرفة العادية ؟

— بإفلوف I. P. Pavlov : الأفعال المنعكسة الشرطية Conditioned Reflexes مطبعة جامعة أكسفورد (١٩٢٧) ص ص ١ - ٣٢ .
ما هى فكرة بإفلوف عن المنعكس الشرطى وعن الطريقة التى يتكون بها ؟
— وطسون J. B. Watson : السلوكية Behaviorism نورتن وشركاه (١٩٣٠) ص ص ١ - ٤٧ .

هل برر وطسون موقفه فى استبعاد الأفكار القديمة فى علم النفس : الشعور، الإحساس ، الإدراك ، الإرادة ... الخ ؟

— فايس A. P. Weiss : أساس نظرى للسلوك الإنسانى A Theoretical Basis of Human Behavior آدمز وشركاه (١٩٢٥) ص ص ٣ - ٢٦ .
ما هى العلاقة التى يؤكدها فايس بين استجابة المنبه وما يسميه استمرار الحركة الكونية ؟ .

— لاشلى K. S. Lashley : آليات المخ والذكاء Brain Mechanisms and Intelligence مطبعة جامعة شيكاغو (١٩٢٩) ص ص ١٥٧ - ١٧٤ .
فى أى الاعترافات تأخذ نظرية لاشلى اتجاهها مضاداً لنظرية المنعكس ؟
— برتراند رسل B. Russel : الفلسفة Philosophy نورتن وشركاه (١٩٢٧)

ص ص ١٢٣ - ١٣٦ ، ١٦١ - ١٧٥ .

ما هي الصعوبة التي تكمن في وجهة النظر السلوكية أن « الملاحظة الموضوعية »
أو الخارجية هي قراءة أو وصف مستقيم تماماً للحقائق ؟

— أوجدن C.K. Ogden : معنى علم النفس The Meaning of Psychology

هاربر وبروس Harper & Bros (١٩٢٦) ص ص ٩٣ - ١٣١ .

كيف تختلف نظرية الاستبصار في تعلم الحيوان عن نظرية المحاولة والخطأ ؟

— أوجدن C. K. Ogden : نفس المرجع ص ص ١٦١ - ٢٠٢ .

ما ينتهي إليه أوجدن في الخصومة بين الاستبصار والسلوكية .

— كيلر W. Köhler : عقلية القردة العليا The Mentality of Apes هاركورث

وبريس وشركاهما (١٩٢٥) ص ص ١ - ٢٥ ، ٢٣٥ - ٢٤٥ ، ٢٧٥ - ٢٧٧ .

ما هو « الاستبصار Insight » من وجهة النظر الجشطلتيية ؟

— كوفكا K. Koffka : نشأة العقل The Growth of the Mind هاركورث

وبريس وشركاهما (١٩٢٥) ص ص ١٢٥ - ١٥٠ .

كيف يبدأ النشاط العقلي للطفل وكيف ينمو ؟ وكيف أنه مرتبط بنشاطه

الحركي ؟

— ألبرت A. Alpert : حل المواقف المشككة عند الأطفال قبل المدارس The

Solving of Problem-Situations by Preschool Children نشرة كلية المعلمين

بجامعة كولومبيا (١٩٢٨) ص ص ١ - ٢٧ ، ٣٦ - ٤٥ .

ما هي نماذج السلوك التي تؤخذ للدلالة على « الاستبصار » في صغار الأطفال ؟

— هويلر R. H. Wheeler : علم السيكولوجيا The Science of Psychol. كراول

وشركاه T. Y. Crowell & Co. (١٩٢٩) ص ص ١٦ - ٢٥ ، ٧٥ - ٨٥ ،

٥٠٣ - ٥٠٢ .

كيف يدعى عالم النفس الجشطلتي أنه يتقدم بعلم النفس إلى مصاف العلم

عموماً ، وأنه يفعل ذلك خيراً من أية مدرسة أخرى ؟

— هويلر R. H. Wheeler : نفس المرجع ص ص ١١ - ١٦ ، ١٣٧ -

١٥٥ ، ١٩٧ - ٢٠٠

أى نوع من الاستبصار يحدث ، وكيف تتصل نتائجه بعلم النفس الجشطلتي ؟

— هويلر R. H. Wheeler : نفس المرجع ص ص ٤٧٠ - ٥٠٠ .

- نقد الحشطلت لفكرة أن السلوك يتركب من مجموع أفعال منعكسة .
- فرويد S. Freud : مقدمة عامة للتحليل النفسى General Introduction to Psychoanalysis بونى وليفريت (١٩٢٠) قسم ٣ .
- كيف تصوغ الفرق بين فرويد وياقلوف من حيث تقاربهما المنهجى ؟ وما دور الخوف فى الحياة العقلية عند فرويد ؟
- أدلر A. Adler : التركيب العصبانى The Neurotic Constitution موافات ويارد وشركاهما (١٩١٧) المقدمة وصص ١ - ١٢٣ .
- كيف تجد الاصطلاحات « إرادة القوة » و « إرادة الظهور » تطبيقاً لها فى مذهب أدلر ؟
- أدلر A. Adler : نفس المرجع ، المقدمة وصص ١ - ١٢٣ ، علم النفس الفردى Individual Psychology هاركورت وبريس وشركاهما (١٩٢٤) ص ص ٢٣ - ٣١ ، ٣١٧ - ٣٢٦ .
- ما الفرق بين فرويد وأدلر فى الدور الذى يعينه كلاهما للجنس ؟
- يونج C. G. Jung : سيكولوجيا اللاشعور The Psychology of the Unconscious موافات ويارد وشركاهما (١٩١٦) ص ص ٨ - ٤١ ، ١٣٩ - ١٥٦ .
- ما وظيفة الفكر التلقائى (غير الموجه) عند يونج ؟
- مكدوجل W. McDougall : تخطيط علم النفس Outline of Psychology اسكرينز وأولاده (١٩٢٣) ص ص ١ - ٧٣ .
- ما هى معايير مكدوجل للسلوك القصدى « الغرضى » ؟ ولماذا يريد مكدوجل أن يستبدل بالنظرية القائمة النظرية الهورمية ؟
- مكدوجل W. McDougall : تخطيط علم النفس المرضى Outline of Abnormal Psychol. اسكرينز وأولاده (١٩٢٦) ص ص ١ - ٢٩ .
- كيف تؤدى أفكار التحليل النفسى إلى آراء مكدوجل ؟
- مكدوجل W. McDougall : نفس المرجع ، ص ص ٥١٨ - ٥٤٠
- كيف يصف مكدوجل تكون الشخصية ؟
- ثيرستون L. L. Thurstone : طبيعة الذكاء The Nature of Intelligence هاركورت وبريس وشركاهما (١٩٢٤) ص ص ١ - ٥٦ .
- ما اعتراض ثيرستون الرئيسى على صيغة استجابة المنبه ؟

- ريفرز W. H. R. Rivers: الغريزة واللاشعور Instinct and the Unconscious
مطبعة جامعة كمبردج (١٩٢٢) الطبعة الثانية ص ٣٤ — ٧٠ .
بين كيف أن فكرة ريفرز في الغريزة تجعله في صنفٍ واحدة أو أخرى
من المدارس .
- براون W. Brown: العقل والشخصية Mind and Personality مطبعة جامعة
لندن (١٩٢٦) ص ١٧ — ٤٧ .
بين كيف أن اتجاه براون إلى المذهب الحيوي Vitalism يربطه بالمدارس .

دليل الأعلام

(١)

- إليزابيث Fl. Elisabeth (في تحليل
فرويد) : ٢٧٠
إليس A. J. Ellis : ٦
أليسون A. Alison : ٦٢
إليوت Ch. W. Eliot : ١٥١ ٦٨
إليوتسن J. Eliotson : ٢١
أنجل J. R. Angell : ٢٠ ١٧ ١١
١٠٦ ١٣٧ ١٥٣ ١٥٤ ٣١٨
أنجل F. Angell : ١٠١ ١٠٠
أنرب G. V. Anrep : ١٢٢ هـ
أوجبيرن F. Ogburn : ٣١٣
أوجدن R. M. Ogden : ١٨٠ ٩٢
٢١٠ - ٢١١ ت ٣٣٩
أوديپوس (بطل يوناني) Oedipus
٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١
أوديپوس (عقدة..) انظر دليل المواد.
أوربان واشفارتسنبرج (ناشر) :
٢٧٥ ٢٧٤
أوربن F. M. Urban : ٩٦
أوفسيانكيننا M. Ovsiankina : ١٩٠ هـ
إيدر M. D. Eder : ٢٨٣ ٢٧٠
إيرنفلس Ch. von Ehrenfels : ١٤
١٧٣ ٢٠٢ - ٢٠٤ ت ٣٠٨
- أبلتون (وشركاه) Appelton & Co.
(ناشر) : ١٢٦
إينجهاوس H. Ebbinghaus : ٧٩ ٢٠
٩٣ - ٩٥ ت ١٠٧ ٩٧
٣١٧ .
أجاسيز L. Agassiz : ٦٨
آخ N. Ach : ٨٥ ٨٣
أدالر A. Adler : ٢٣٢ ٢٢١ ٢٦ ٢٤
٢٤٤ - ٢٥٩ ٢٥٤ ٢٥١ ٢٤٩
٢٦٠ ٢٧٦ - ٢٨٠ ت ٢٨٧ ٢٨١
٢٩٠ ٢٩٥ ٣١٤ ٣٢٣
آدمز R. G. Adams (ناشر) : ١٣٥ هـ
أرسطو Aristoteles : ٢٦٨ ٥٠ ١٢٥
أرنهايم R. Arnheim : ١٧٧
أفلاطون Plato : ٥٠
أفيناريوس R. Avenarius : ٨٦
١٠١ - ١٠٢ ت
ألكان F. Alcan (ناشر سابق) :
٣٣٨ ٢٧٦ ٢٧٠ ٢٦٧ ٢٦٦
٣٤٠ ٣٣٩
ألن وأنوين Allen & Unwin (ناشر) :
٢٧٨ ٢٧٦ ٢٧١ ٢٧٠ ٢٦٧
٢٧٩ ٣١٠ ٣١١

ت = تعليقات ، و = هامش

پتنام (أنظر پوتنام)

- بخترف V. M. Bechtereve : ۱۱۹
 ۱۲۳ ۱۴۴ ۱۴۹ ۱۶۲ ت
 برامویل J. M. Bramwell : ۲۶۲
 براون Th. Brown : ۶۳
 براون W. Brown : ۳۲ ۳۱ ۶
 پرایر W. Preyer : ۲۳
 برت G. S. Brett : ۶۳ ۶۲ ۶۱
 برتولوميو (سان) مستشفی ... : ۳۲۹
 برجسون H. Bergson : ۲۵۶ ۲۵۱
 ۳۱۹
 برجن Bergman : (ناشر) ۲۷۴
 ۲۷۸ ۲۷۷ ۲۷۶
 بردجز J. W. Bridges : ۱۶۰
 پرسن Person (ناشر) : ۴۲
 برنارد L. L. Bernard : ۲۹۶ ۲۹۵
 ۲۹۷ ۲۹۸ ۳۱۲ - ۳۱۳ ت
 برنارد (کلیة ...) : ۱۶۳
 برنتانو F. Brentano : ۱۵ ۱۴ ۱۲
 ۱۶ ۶۶ ۱۵۷ ۱۶۷ ۲۰۲ ۳۰۵
 پرنس M. Prince : ۲۵۹ ۲۱۵
 ۲۶۴ - ۲۶۵ ت ۲۶۷ ۲۸۱
 برنشتین E. Bernstein (ناشر) :
 ۳۱۱
 برنهایم H. Bernheim : ۱۵۱
 برنیز Bernays : ۲۶۹
 بروس (لوکاس) L. Bros (ناشر) :
 ۱۳۳
 بروکلین Brooklyn (معهد) : ۲۷۶
 برون K. Brunn : ۳۰۹
 برونر A. F. Bronner : ۲۴۲

۳۳۵ ۳۱۸

- ایزدیل J. Esdaile : ۲۱
 آیزلر R. Eisler : ۶۶
 ایمی (السیده) F. Emmy (فی تحلیل
 فروید) : ۲۷۰
 ایمی H. Aimé : ۳۴۰
 اینشتین Einstein : ۳۲۲
 (ب)
 باجستر کولنس Bagster-collins
 . ۳۳ :
 بادجر R. G. Badger (ناشر) : ۱۳۳
 ۲۶۷ ۲۷۵
 بارت Barth (ناشر) : ۲۸۱ ۲۸۰
 بارتلت F. C. Bartlett : ۶
 پارسنز J. H. Parsons : ۹۲
 پارکر C. Parker : ۲۹۵
 پارکر S. Parker : ۲۷۵
 بارنز H. E. Barnes : ۳۱۳
 پافلوف I. P. Pavlov : ۱۲۰ ۱۱۹
 ۱۲۱ ۱۲۲ ۱۲۳ ۱۲۴ ۱۴۹
 ۱۶۱ - ۱۶۲ ت ۱۷۹ ۱۹۳
 ۲۰۰ ۲۹۲ ۳۰۰
 باورز A. M. Bowers : ۲۴۲
 پایو Payot (ناشر) : ۲۷۲ ۲۷۱
 ۲۷۸ ۲۸۳
 باییر Baillière (ناشر) : ۲۸۲
 بومی V. Benussi : ۲۰۸ ۲۰۴ ۱۴
 ۳۱۸ ۳۳۴ - ۳۳۵ ت
 بتار C. Buttar : ۳۱۲
 پترسن F. Peterson : ۲۸۲ ۲۸۰
 پترسن J. Peterson : ۹۷ ۲۰

- ۹۱ : C. A. Burow بوروا
 ۲۷۶ ۲۶۷ : C. Paul پول
 ۲۷۶ ۲۶۷ : E. Paul پول
 - ۳۳۷ ۳۱۹ : F. Paulhan پولان
 ۳۳۸ ت
 ۱۵۲ ۶۲ : J. M. Baldwin بولدوین
 ۲۶۲ ۱۵۷ ۱۵۵
 ۹۶ : H. Beaunis بونی
 ۶۳ : C. Bonnet بونیه
 Boni & Liveright بونی ولیشریت
 ۲۷۵ ۱۸۵ : (ناشر)
 ۳۰۹ : R. Boel بویل
 ۹۸ : C. Baumker بویمکر
 ۱۵۰ : H. W. Beecher بیتشر
 ۶۸ ۶۷ : K. Pearson پیرسن
 Judge Baker (مؤسسه ...) بیکر
 ۲۴۲ : (ناشر)
 ۲۶۶ ۲۸ : F. Bacon بیکن
 ۸۸ ۸۳ ۳۵ : K. Bühler بیلر
 ۱۳۴ ۹۹ ۹۸
 ۵۲۵۱ : C. F. Beynes بیترز
 ۲۸۳ ۵۲۵۲
 ۵۲۵۲ ۵۲۵۱ : H.G. Beynes بیترز
 ۲۸۳
 - ۳۳۸ ۳۱۹ : H. Pieron پیرون
 (۳۳۹ ت (أنظر دليل المراجع)

(۱)

تال فلاج Tal Varlag : ۲۷۶

برونر F. G. Brunner : ۳۸

- ۲۱۸ ۲۱۷ ۲۳ : J. Breuer برویر
 ۲۷۲ ۲۶۹ ۲۲۲
 ۲۶۴ ۲۳ ۲۲ : J. Braid برید
 ۶۲ : J. Priestley پریستلی
 ۲۷۰ ۲۶۹ : A.A. Brill بریل
 ۲۸۲ ۲۷۱
 ۲۸۳ ۲۵۰ : Brillière بریر
 ۱۵۶ : J. H. Pestalozzi پستالوتزی
 ۳۱ : A. T. Poffenberger پفنبرجر
 ۳۸ ۳۴
 ۹۳ ۹۲ ۹۱ : Ch. Bell بل
 ۹۳ ۹۲ ۹۱ : J. Bell بل
 ۲۱۲ ۱۸۰ : J. Plateau پلاتو
 ۹۶ : A. Pilzecker پلتسکر
 ۹۸ : W. R. Pillsbury پلزبری
 ۱۴۹ ۱۱۰ ۱۰۹ ۱۰۴ ۱۰۱
 ۱۰۱ : M. Bentley بنتلی
 ۶۶ : R. Pintner پنتر
 ۹۴ ۸۲ ۸۱ : A. Binet پنیه
 ۲۶۴ ۲۶۲ ۱۵۴ ت ۹۷ - ۹۶
 ۳۱۹
 ۶۹ : E. Boutroux بوترو
 ۳۰۹ ۲۶۶ : Putnam (ناشر) پوتنام
 ۳۰ : H. P. Bowditch بودتیش
 ۲۷۹ ۳۰ : A. Porter پورتر
 ۹۱ : J. E. Purkinje پورکینی
 ۳۸ ۲۰ ۱۲ ۶ : E. Boring پورنج
 ۱۰۱ ۹۹ ۹۸ ۹۶ ۶۸ ۶۷ ۶۱
 ۱۶۷ ۱۶۵ ۱۶۴ ۱۶۱ ۱۴۹
 ۲۱۲ ۲۰۳ ۱۷۷ ۱۷۱ ۱۶۸

۱۹۸ ۱۹۹ ۲۹۹ ۳۱۵ ۳۱۶

(ج)

جابلر R. Gabler : ۲۷۴

جاندت J. C. Garnett : ۳۲۸

جاسترو Gastrow : ۱۵۱ ۲۶۷ ۲۶۵

جالتون F. Galton : ۳۱ ۵۳ ۶۶ -

۶۸ ت ۱۰۷ ۱۵۵ ۱۵۶

جانت W. H. Gannt : ۱۲۲ هـ

چانکلفتش S. Jankélévitch : ۲۷۱

۲۷۲ ۲۷۳

چانیه P. M. F. Janet : ۲۳ ۲۱۵

۲۱۶ ۲۱۸ ۲۲۹ ۲۵۹ ۲۶۰

۲۶۴ ۲۶۵ - ۲۶۸ ت

جراسمن H. Grassmann : ۲۱۲

جرانجان بایار Granjean-Bayard

: ۲۸۳

چرمن Ch. E. German : ۲۸

چریفیث G. R. Griffith : ۹۳

چرینبرج (ناشر) : ۲۷۸ ۲۷۹

چض C. H. Judd : ۶۵

جللیو Galileo : ۵۱ ۵۲

جلویک B. Glueck : ۲۷۸

چلیف S. E. Gillife : ۲۷۷

چننجز Gennings : ۲۰

چوپیتز Jupiter : ۱۰۵

جوتری E. R. Guthrie : ۱۲۴ ۱۶۲

ت ۱۶۳

جول F. J. Gall : ۱۴۰ ۱۴۱

ت ۱۷۰

جولد نفیزر A. Goldenweiser : ۳۱۳

تانباوم S. A. Tannenbaum : ۲۷۵

تشنر E. B. Titchener : ۱۱ ۱۳

۱۴ ۲۰ ۳۵ ۳۹ ۵۵ ۶۶ ۶۹

۷۰ ۸۱ ۸۷ ۸۸ ۹۸ ۹۸ ۱۰۰

- ۱۰۱ ت ۱۱۰ ۱۱۵ ۱۱۶

۱۵۳ ۱۵۸ ۱۶۸ ۱۷۷ ۲۰۱

۱۵۹ ۲۸۵ ۳۱۶

ترولانند L. T. Troland : ۹۲

تریفیرانوس G. R. Treviranus : ۹۱

اتست D. Zoth : ۹۲

اتسفارديما کر H. Zwaardemaker : ۹۳

اتسیجارنک B. Zeigarnik : ۱۹۰ هـ

تکر A. Tucker : ۶۲

تندل Tindell : ۲۵۰ هـ

تورتوال C. T. Tourtual : ۹۱

تولوز E. Toulouse : ۳۳۸

توماس (سانت) مستشق ... بلندن

: ۳۰۷

تویمایر E. B. Twitmyer : ۱۱۹ هـ

ت ۱۶۲

تید O. Tead : ۲۹۵

تیلور E. W. Taylor : ۳۱۰

(ث)

ثاتشر J. K. Thatcher : ۱۵۰

ثورسن A. M. Thorson : ۱۲۸

ثورندایک E. L. Thorndike : ۷ ۲۰

۳۰ ۳۱ ۳۲ ۳۳ ۱۱۱ ۱۱۲

۱۱۳ ۱۱۴ ۱۲۳ ۱۲۴ ۱۳۲

۱۴۱ ۱۴۴ ۱۵۸ - ۱۵۹ ت

۱۹۱ ۱۹۴ ۱۹۵ ۱۹۶ ۱۹۷

دود و مید Dod & Mead (ناشر) :
۲۷۶ ۲۷۴

دولا کروا H. Delacroix : ۱۰۲
دولا متری J. O. de la Mettrie : ۶۳
ذویتکه Deutke (ناشر) : ۲۶۶
۲۷۰ ۱۷۱ ۲۷۲ ۲۷۵ ۲۸۲

دی تراسی D. de Tracy : ۶۳
دی جروو D. de Gros (فلپس)
Philips : ۲۲

دیربورن W. F. Dearborn : ۳۲ ۳۱
دی رفرشون De Reverchon : ۲۷۱
دیرکایم E. Durkheim : ۲۴ ۱۸
دی سانکتس S. De Sanctis : ۳۱۸
۳۳۵ - ۳۳۶ ت

دیشز J. Davis : ۳۱۳
دیکارت R. Descartes : ۵۰ ۱۰
۵۱ ۶۱ ۶۲ ت ۱۱۵ ۱۴۸
دی کوندیاک E. B. de Condillac : ۶۳
دیما G. Dumas : ۳۳۹ ۳۲۰ ۲۶۶
۳۴۰

دیموستنیس Demosthenes : ۲۴۵
دی هریر De Herbert : ۲۷۶
دیوی J. Dewey : ۱۵۱ ۱۰۶ ۲۰
۱۵۲ ت ۱۵۳ ۳۱۸

(ر)

راشر Rascher (ناشر) : ۲۸۲
۲۸۴ ۲۸۳

راند B. Rand : ۱۵۷ ۶۳ ۶۲ ۶۱
۲۶۲

راید Th. Reid : ۶۲

جوناثان کیب Jonathan Cape (ناشر)
۳۱۲ :

چونز E. Jones : ۲۷۳
چونسن B. Johnson : ۳۱۳
جیته Goethe : ۲۷۶ ۹۳ ۱۸
جیلندال (ناشر) : ۱۸۵
جیمس W. James : ۲۹ ۲۸ ۱۰
۳۰ ۵۴ ۵۵ ۶۸ وما بعدها (ت)
۱۰۵ ۱۰۶ ۱۱۱ ۱۲۵ ۱۳۰
۱۳۲ ۱۵۰ ۱۵۱ ۱۵۲ ۱۵۳
۱۶۴ ۱۶۵ ۱۶۶ ۱۷۵ ۱۸۵
۲۸۹ ۳۰۱ ۳۱۰ ۳۴۰

(د)

دارون E. Darwin : ۶۲ ۱۸
دارون Ch. Darwin : ۲۰ ۱۹ ۱۸
۵۳ ۶۶ - ۶۷ ت ۱۱۱ ۱۵۳
۲۸۹ ۳۰۸

داونی H. M. Downey : ۲۷۲
دتون Dutton (ناشر) : ۲۸۴
دریات Dorpat : ۹۷
دسرنز C. M. Diserns : ۱۶۲ ۱۴۸
دسوار M. Dessoir : ۲۶۲ ۶۳ ۶۱
دلنباخ K. M. Dallenbach : ۱۰۱
دنت (وآولاده) J. M. Dent & Sons
۱۰۹ : (ناشر)

دندرز F. C. Donders : ۱۱
دنلاب K. Dunlap : ۱۷۷ ۵

دوان Doin (ناشر) : ۳۹

دوبران M. de Biran : ۶۳

دودج Rey. Dodge : ۹۳

- اسپیرمن C. E. Spearman : ۲۰
 ۳۲۷ ۳۱۶ ۳۱۵ ۲۰۱ ۹۶ ۶۸
 — ۳۲۸ ت
- استراتشی J. Stratchey : ۲۷۳
 استرنج E. K. Strong : ۳۲ ۳۱
 استوت G. F. Stout : ۳۰۵ ۱۵۸
 استوارت D. Stuart : ۳۰۵ ۶۳
 سقراط Socrates : ۳۳۷
 اسکریپتشر E. W. Scripture : ۱۱
 ۱۵۰
- اسکرپنر (وأولاده) Scripner & Sons
 (ناشر) : ۳۱۰ ۳۰۹ ۳۹
 سلجمن A. Seligman : ۳۱۳
 اسمیث C. M. Smith : ۳۹
 اسمیث F. A. Smith : ۱۶۲
 اسمیث M. K. Smith : ۱۶۲ ۱۵۷
 اسمیث S. Smith : ۱۶۲ ۱۲۴ —
 ۱۶۳ ت
- اسمیث Smith (کلیه) : ۱۸۰
 ۲۰۸
 ستیانان G. Santiana : ۳۰
 سورلی W. R. Sorley : ۱۵۸
 سیمون Th. Simon : ۹۷ ۹۶
- (ش)
- شارکو J. M. Charcot : ۲۳ ۲۲
 ۲۲۲ ۲۲۰ ۲۱۷ ۲۱۶ ۲۱۵
 ۲۶۸ ت ۲۶۴ — ۲۶۳ ۲۲۷
 ۳۲۰ ۲۶۹
 شافر B. Schafer : ۳۰
 شاهین Chahine (ناشر) : ۲۶۷
- رایشل Reichl (ناشر) : ۲۸۳
 راینهارت Reinhart (ناشر) : ۲۸۷
 رکلن F. Riklin : ۲۸۰
 رمزی (إسحق) : ۲۸۰
 روباک A. A. Roback : ۳۱۰
 روبرت (ودورث) : ۲۷ ۲۶
 روبن E. Rubin : ۲۱۲ ۱۸۵ —
 ۲۱۳ ت
- روتلدج Routledge (ناشر) : ۱۱۲ ۱۰۳
 رودس G. Rhodes : ۳۱۲
 روزفلت F. Roosevelt : ۲۴۵
 روسو (معهد ... لدراسة الأطفال)
 : ۳۳۴ ۳۱۸
- رولاند Roland (ناشر) : ۳۱۳
 رولاندو L. Rolando : ۱۷۱
 رومانس G. J. Romanes : ۶۷ ۲۰
 رونالد Ronald (ناشر) : ۴۶ ۴۰
 رویس J. Royce : ۳۰ ۲۹
- ریبو Th. Ribot : ۲۶۷ ۲۶۶
 ریفرز W. H. R. Rivers : ۳۲۹ ۹۲
 ریویه J. Riviève : ۲۷۳ ۲۷۲
 ریکمن J. Rickman : ۲۷۳
 ریمرت M. L. Reymert : ۴۲ ۶
 ۳۱۱ ۲۷۹
- ریمون F. Raymond : ۲۶۶
- (س)
- ساتفورد E. C. Sanford : ۱۵۱
 اسپنسر H. Spencer : ۶۷ ۱۹
 ۲۸۹ ۱۸۸
 اسپرتسایم G. Spurzheim : ۱۷۰

- ۳۲۹ : C. W. Valentine **قالتین**
 فان تسلاار J. S. Van Teslaar :
 ۲۷۵ ۲۷۴
- ۳۱۰ : فان فوستراند (ناشر)
 ۳۰۸ ۱۹ : A. Weisman **فایزمن**
 ۱۳۶ ۱۳۵ : A. P. Weiss **فایس**
 ۳۰۴ ت ۱۶۸ ۱۳۷
 - ۲۷۵ ۲۴۴ : F. Wittels **فوتلز**
 ۲۸۱ ت ۲۷۶
- ۹۳ ۹۲ ۹۱ : R. Wagner **فجنر**
 ۱۵۶ : J. G. Fichte **فخته**
 ۹۵ ۹۴ ۶۵ : G. T. Fechner **فخنر**
 ۱۶۷ ۱۵۱ ۹۶
- ۳۱ ۲۰ : Sh. L. Franz **فرانتس**
 ۱۷۲ ۱۷۱ ۱۴۲ ۱۴۱ ۱۳۹ ۳۲
 ۲۰۴
- ۱۷۹ ۷ : M. Wertheimer **فرتیمر**
 ۲۰۵ ۱۸۶ ۱۸۲ ۱۸۱ ۱۸۰
 - ۲۰۷ ت ۳۳۳
- ۲۳ ۱۸ ۹ ۷ : S. Freud **فروید**
 ۲۵۴ - ۲۱۶ ۴۱ ۳۰ ۲۷ ۲۴
 ۲۶۳ ۲۶۱ ۲۶۰ ۲۵۹ ۲۵۷
 ۲۷۴ ت ۲۷۳ - ۲۶۸ ۲۶۴
 ۲۹۰ ۲۸۷ ۲۸۱ ۲۸۰ ۲۷۶
 ۳۱۴ ۳۱۰ ۳۰۲ ۳۰۰ ۲۹۵
 ۳۲۳ ۳۲۰ ۳۱۹ ۳۱۸
 ۲۶۲ : C. Fére **فری**
 ۱۷۲ : G. Fritsch **فریتش**
 ۳۲ ۳۱ : C. Wissler **فسلر**
 ۳۰۹ : Fische (ناشر) **فشر**
 ۲۴۸ هـ : E. Wexberg **فکسبرج**
- ۳۱۷ : G. Spranger **اشپرانجر**
 ۳۳۱ ت
 ۲۷۳ ۲۴۴ : W. Stekel **اشتکل**
 - ۲۷۴ ت
- ۱۴ ۱۰ : K. Stumpf **اشتمف**
 ۱۶۶ ۱۵۷ ۱۳۳ ۹۷ ۹۵ ۹۴
 - ۳۸۶ ۲۰۵ ۱۸۰ ت ۱۶۸
 ۳۳۳ ۳۱۷ : L. W. Stern **اشتیرن**
 ۲۷۶ : Stern (ناشر) **اشتیرن**
 ۹۱ : J. G. Steinbuch **اشتینبوخ**
 ۹۳ ۹۲
- ۵۲۱۶ : شرف (دکتور محمد) **قاموس**
 ۳۰ : Ch. S. Sherrington **شرنجتون**
 ۲۰۴ ۱۷۹ ۳۲ ت
 ۹۹ : H. Schrader **شریدر**
 ۳۳۳ ۱۶۸ : R. Schmidt **اشمت**
 ۹۲ : F. Schnek **اشنک**
 ۲۸۹ : G. H. Schneider **اشنیدر**
 ۲۵۱ : A. Schopenhaur **شوپنهور**
 ۲۰۴ ۹۶ : F. Schumann **شومن**
 ۲۰۶
- ۲۰۴ ۹۲ : E. A. Schafer **شیفر**
 ۴۲ : M. R. Sheehan **شیهان**
 (ط)
- ۳۲۸ : G. H. Thomson **طومسون**
 (ع)
- ۹۸ : عینی (أبو العلاء) :
 (ف)
- ۱۵۵ : L. Farrand **فاراند**
 ۳۳۸ : N. Vaschide **فاشید**

- ت ۳۳۳
 کاتارینا Karharina (ی تحلیل
 فروید) : ۲۷۰
 کار H. A. Carr : ۱۳۷ ۱۶۹ ت
 کارپنتر W. B. Carpenter : ۲۸
 کارجر Karger (ناشر) : ۲۷۱
 کارستن A. Karsten : ۱۹۰ ه
 کاهپل C. M. Campbell : ۳۱۰
 کانت E. Kant : ۹۳ ۹۹ ۱۵۶
 کاهانی M. Kahan : ۲۶۶
 کبانیس P. J. G. Cabanis : ۶۳
 کپل Keppel : ۳۳
 کتسفورث T. D. Cutsforth : ۲۱۲
 کپل J. Mc. Cattell : ۱۱ ۹ ۲۰
 ۳۰ ۳۱ ۳۲ ۳۳ ۳۴ ۳۷ ۶۵
 ۹۷ ۱۰۷ ۱۱۱ ۱۱۸ ۱۴۱ ۱۵۱
 ۱۵۴ ت ۱۵۵ ۱۵۶ ۱۵۸ ۳۱۶
 کتلت A. Quetelet : ۶۷
 کرونگر C. H. Kronecker : ۱۵۱
 کریپلین E. Kraepelin : ۱۱
 کریتون J. E. Creighton : ۵۵ ه
 کریجر F. Kreuger : ۳۱۶ ۳۳۰ -
 ۳۳۱ ت ۳۳۳
 کفکه K. Koffka : ۷ ۱۷۹ ۱۸۰
 ۱۸۷ ۱۹۴ ۱۹۵ ۱۹۶ ۱۹۹
 ۲۰۱ ۲۰۶ ۲۰۷ - ۲۰۸ ت
 ۲۳۰ ۳۳۵
 کلپارد E. Claparède : ۹۷ ۳۱۸
 ۳۳۳ - ۳۳۴ ت
 کلم O. Klemm : ۶۱
 کلیفر H. Klüver : ۳۳۲
- فلامریون E. Flammerion (ناشر)
 ۲۶۷ :
 فلرتون G. S. Fullerton : ۱۵۵
 ۱۵۶
 فلورنس P. Flourens : ۱۴۱ ۱۷۰ ت
 ۱۷۱ ۱۷۲
 فلیپس J. P. Philips (دی جرو) : ۲۲
 فلیجل J. G. Flügel : ۶
 فلیشل Fleischl (ناشر) : ۲۷۶
 فورتمیلر G. Furtmuller : ۲۷۸
 فوستر W. S. Foster : ۱۰۱ ۱۵۸
 فولی E. J. Foley : ۳۱۲
 فونت E. Wundt : ۶۶
 فونت W. Wundt : ۹۷ ۱۰ ۱۱ ۱۲
 ۱۳ ۱۴ ۲۰ ۳۴ ۵۳ ۵۴ ۵۵
 ۶۳ ۶۴ ۶۵ ۶۶ ۶۷ ۸۹ ۸۲
 ۸۳ ۸۶ ۸۷ ۸۸ ۹۴ ۹۵ ۹۷ ۹۸
 ۱۰۰ ۱۰۳ ۱۰۷ ۱۱۶ ۱۳۳
 ۱۵۰ ۱۵۱ ۱۵۴ ۱۵۵ ۱۷۳
 ۱۷۴ ۳۱۶ ۳۳۰ ۳۳۷
 فون کریس J. Von Kries : ۹۲ ۹۴
 فون هارتمن E. Von Hartmann : ۹۴
 فویبیر Vuibert : ۲۶۶
 فیبر Weber E. H. : ۹۲ ۵۳ ۱۵۶
 ۱۶۷
 فیتاسیک S. Witasek : ۱۴ ۱۵
 فیلدس Fildes : ۳۲۹
- (ك)
 کانس D. Katz : ۳۱۷ ۳۳۲ -

۸۶ ۸۷ ۹۷ ومابعدها (ت) ۹۸

۹۹ ۱۰۰ ۱۰۷ ۱۳۴ ۱۵۷ ۲۰۵

کیمف E. J. Kempf : ۳۰۱

کینی W. Kühne : ۶۴

کینج A. König : ۹۴

کینج E. König : ۶۶

کیندیج Kündig (ناشر) : ۳۳۴

کیو Z. Y. Kuo : ۲۸۶ ۲۹۷

۳۰۶ - ۳۰۷ ت

(ل)

لاد G. T. Ladd : ۳۹ ۱۰۵ ۱۴۹-

۱۵۰ ت ۱۵۰

لاشلی K.S. Lashley : ۲۰ ۱۳۹

۱۴۱ ۱۴۲ ۱۴۳ ۱۶۹ ت ۱۷۹

لامارک J.B.P.A.M. de Lamarek :

۱۸ ۱۹ ۶۷ ۳۰۸ ۳۱۰

لانجفیلد H.S. Langfield : ۳۱۰

لانجی G.G. Lange : ۶۹ ۱۳۰

۱۶۴ ۱۶۵ ۱۶۶ ۳۴۰

لانڈیس C. Landis : ۱۳۰

لپس T. Lipps : ۱۴ ۹۴ ۱۶۷

لپنکون G.B. Lippincut : ۱۱۶

لتل وبراون (ناشر) : ۲۷۹ ۳۱۰

لدفیج E. Ludwig : ۱۵۱

لسک G. Lusk : ۳۰

لشن K. Lewin : ۱۸۹ ۱۹۰ ۲۱۳ ت

لند J.E. Lind : ۲۷۴ ۲۷۸

لوتسه R.H. Lotze : ۱۵۴ ۱۵۷

۱۶۷

لوجرو H. Legros : ۲۷۰

کلیفلاند F. A. Cleveland : ۳۱۳

کنپلر Kenpler : ۲۷۵

کنکل F. Kenkel : ۲۰۸

کنن W. B. Cannon : ۱۶۵۱۳۰-

۱۶۶ ت

کورتی A. Korte : ۲۰۸

کورسن C. R. Co son : ۲۶۶

کونیلوف K. H. Kornilov : ۳۲۱

۳۴۱ - ۳۴۰ ت

کورنیلیوس H. Cornelius : ۱۴

۲۰۴ ت

کوریرلا Dr. Kurella : ۳۴۰

کوزموپولیتان (ناشر) : ۲۴۵ ۲۴۸

۲۷۹

کوجیل G. E. Coghill : ۱۷۹ هـ

۲۰۵ هـ

کوکس C. M. Cox : ۲۵۰

کولان A. Colin (ناشر) : ۳۳۹

کونت A. Comte : ۱۸ ۲۴

کیجان پول Kegan Paul (ناشر) :

۲۷۴ ۲۷۵ ۲۷۸ ۲۷۹ ۲۸۳

۲۸۴ ۳۱۰

کیسو F. Kiesow : ۳۱۸ ۳۳۷ ت

کیٹیویه J. L. C. E. D. Cuvier : ۱۸

۱۷۱

کیلر W. Kohler : ۱۶۰ ۱۷۹

۱۸۰ ۱۸۵ ۱۹۱ ۱۹۲ ۱۹۴

۲۰۱ ۲۰۶ ۲۰۸ ۲۰۹ ت ۲۱۰

۲۱۱

کیلپه O. Kulpe : ۱۰ ۱۴ ۱۵

۱۶ ۱۷ ۲۰ ۳۲ ۸۲ ۸۴ ۸۵

- میر M.F. Meyer : ۱۳۳ ۱۳۲ : ۱۳۵ ۱۶۶ ت
- میرز Ch. S. Myers : ۳۰۸ ۱۰۱ : ۳۲۸ ۳۳۰ - ت
- میرسن L. Meyerson : ۲۷۰
- میشون Methuen (ناشر) : ۱۰۹
- ۳۱۱ ۳۰۹ ۳۰۴ ۲۹۸ ۲۸۹ ۳۲۸
- مرتشیزون C. Murchison : ۲۶ ۶
- ۱۶۱ ۱۴۹ ۱۰۰ ۹۹ ۹۶ ۴۱
- ۱۶۸ ۱۶۶ ۱۶۴ ۱۶۳ ۱۶۲
- ۲۱۰ ۲۰۸ ۲۰۷ ۲۰۵ ۱۶۹
- ۳۰۰ ۲۷۳ ۲۱۳ ۲۱۲ ۲۱۱
- ۳۳۱ ۳۳۰ ۳۲۹ ۳۱۱ ۳۰۸
- ۳۳۶ ۳۳۵ ۳۳۴ ۳۳۳ ۳۳۲
- ۳۴۰ ۳۳۹ ۳۳۷
- مرجولس S. Morgulis : ۱۶۲
- مسر A. Messer : ۹۹ ۱۶ ۱۵ ۱۴
- مسمر F.A. Mesmer : ۲۱۵ ۲۱ ۱۸
- ۲۶۳ - ۲۶۲ ت
- المعارف (ناشر) : ۲۸۰
- مکدوجل W. McDougall : ۸ ۷
- ۲۶۲ ۲۲۹ ۱۰۹ ۳۹ ۳۰ ۲۵
- ۲۹۰ ۲۸۹ ۲۸۸ ۲۸۷ ۲۶۸
- ۲۹۵ ۲۹۴ ۲۹۳ ۲۹۲ ۲۹۱
- ۳۰۰ ۲۹۹ ۲۹۸ ۲۹۷ ۲۹۶
- ۳۰۵ ۳۰۴ ۳۰۳ ۳۰۲ ۳۰۱
- ۳۱۴ ۳۱۱ - ۳۰۷ ۳۰۶ ت
- ۳۲۸ ۳۱۸ ۳۱۶
- مکسیمیلیان L. Maxmilian : ۹۸
- مکسویل J. C. Maxwell : ۲۱۲
- لوسی (الآنسة) Fl. Lucie (فی) تحلیل فروید) : ۲۷۰
- لوس (چون ... وشركاه) J.W. Luce & Co. (ناشر) : ۲۸۹ ۱۰۹ : ۳۰۹
- لوك J. Locke : ۱۰۸ ۶۲
- لونج C.E. Long : ۲۵۲ ۲۵۰ : ۲۸۲
- لونجمانز (وجرين وشركاهما) Longmans Green & Co. (ناشرون) : ۲۶۵
- لوی الکبیر Louisle G and (لیسیه...): ۳۳۹
- لویب G.J. Loeb : ۲۰
- لویس M. H. Lewis : ۱۹۷
- لینتس Leibnitz : ۱۰
- لینن A. Lehmann : ۱۱
- لیبو A.A. Liébeault : ۲۲
- (م)
- ماخ E. Mach : ۱۰۲ ۹۳ ۸۶ ۱۴ : ۲۰۳
- مارب K. Marbe : ۹۹ ۸۳ ۸۲ : ت
- مارتیوس G. Martius : ۲۰۵
- مارکس C. Marx : ۳۲۰
- مارهولد Marhold (ناشر) : ۲۸۲
- ماک کردی T.J. Mc Cu dy : ۲۶۰ : ۲۸۴ ت
- ماکنزی Mackenzie : ۲۷۰
- مالبرانچ Malebranche : ۲۶۶ ۶۳
- مانهایم C. Mannheim : ۸

- ۲۶۷ ۲۶۵
 مینرفا Minerva : ۱۰۵
 مینونج A. Meinong : ۱۴ ۱۵ ۲۰۲
 ۲۰۸ ۲۰۴ ۲۰۳
 میومن E. Meumann : ۱۱
- (ن)
 نابلیون (بونابرت) : ۲۵۳
 ناچل W.A. Nagel : ۹۲
 نلسون W.A. Nelson (کرسی ...)
 ۲۰۸ :
 نوح : ۱۸
 نورتن (وشرکاه) W.W. Norton & Co.
 ۳۱۰ ۵۱۲۵ : (ناشر)
 نورجیت (ناشر) : أنظر ولینزو ...
 نیوتن I. Newton : ۷۱ ۹۱ ۲۱۲
 ۲۶۸
- (ه)
 هاباک Hubback : ۲۷۲
 هارت B. Hart : ۲۶۷ ۲۶۵
 هارتلی D. Hartly : ۶۲
 هارتشتین C. Hartenstein : ۱۵۷
 هاردویک R.S. Hardwick : ۱۶۰
 هارفي W. Harvey : ۵۱ ۶۸
 هارکورت وبریس (وشرکاهما) ناشرین
 ۱۸۷ ۱۹۱ ۱۹۴ ۲۵۱ ۵ :
 ۲۹۵ ۲۸۴ ۲۸۳ ۲۷۸ ۵ ۲۵۶
 ۳۳۹ ۳۱۰
 هاملتون W. Hamilton : ۶۳
 هاملتون G.V. Hamilton : ۱۶۰
 هات (الهر) Hr. Hahn : ۲۸۰
- مکملان Macmillan (ناشر) : ۳۹
 ۲۶۵ ۱۴۴ ۱۱۲ ۱۱۰ ۵۵۵ ۴۶
 ۳۱۰ ۳۰۹ ۲۸۴ ۲۷۱ ۲۷۰
 ۳۲۸ ۳۱۳ ۳۱۲
 مل J.S. Mill : ۱۶۷ ۱۵۶ ۱۵۰
 ملتوس T.R. Malthus : ۱۹
 مندل Mendel : ۳۲۲
 موتسه (ناشر) : ۲۸۰
 مور A.W. Moore : ۱۵۳
 مورجن C.L. Morgan : ۱۵۸
 ۳۱۰ ۱۵۹
 مورجن J. J. B. Morgan : ۲۰
 ۵۱۲۸
 موریتس پیرلس (ناشر) : ۲۷۶
 موسو A. Mosso : ۲۲۷ ۳۱۹
 موشنبرویک P. Musschenbroek :
 ۲۱۲
 موقات ویارد (ناشر) : ۲۸۳
 مول A. Moll : ۲۶۲
 مولر M. Muller : ۳۶ ۲۹
 میربی Mürby (ناشر) : ۳۱۳
 میرفی G. Murphy : ۶
 میلر J. Müller : ۸۵ ۸۳ ۶۴
 ۱۵۷ ۹۱ ۸۷
 میلر F. Müller : ۶۳
 میلر G.E. Müller : ۸۰ ۷۹ ۱۳
 ۱۰۰ ۹۷ ۹۶ — ۹۵ ۸۲ ۸۱
 ۲۰۶ ۱۹۳ ۱۵۷ ۱۳۳ ۱۰۷
 ۳۰۸ ۳۰۵ ۲۱۳ ۲۱۲ ۲۱۰
 ۳۱۷ ۳۱۶
 مینشتربرج M. Münsterberg : ۶۹

- هوز C. Hose : ۳۰۹
 هوفتون مفلین Houghton Mephlin
 (ناشر) : ۲۹۵ ه
 هول G.S. Hall : ۱۱ ۲۰ ۲۸
 ۲۹ ۱۰۵ ۱۰۷ ۱۵۰ ۱۵۱ ۱۵۲
 ۱۵۴ ۲۷۲
 هولت (هنری) H. Holt (ناشر) :
 ۳۹ ۴۰ ۴۲ ۵۵ ۲۹۶ ۳۰۹
 ۳۱۳
 هویلر R.H. Wheeler : ۱۸۰ ۲۱۱-
 ۲۱۲ ت
 هیث Heath (ناشر) : ۳۱۳
 هیجو V. Hugo : ۱۷۱
 هیدرش Heidrich (ناشر) : ۲۷۸
 هیفدنج H. Hoffding : ۱۰۲ ۶۶
 هیکرافت J.B. Haycraft : ۹۲
 هیلی W. Healy : ۲۴۲
 هیوم D. Hume : ۶۲
- (و)
- وارد J. Ward : ۱۵۷ ۱۰۸ - ۱۵۸
 ۳۰۵ ت
 وارن H.C. Warren : ۱۱ ۶۲ ۶۳
 واشبرن M.F. Washburn : ۲۰ ۱۰۱
 ۱۲۷ ۱۵۹ ۱۶۱ ۱۶۴ ت
 واشبرن (کلیه...) : ۲۸
 واط H.J. Watt : ۸۳ ۸۴ ۸۵
 وتمر L. Witmer : ۱۱
 ودریج Woodbridge : ۳۳ ۳۴
 ودورث R. Woodworth : ۷ ۸ ۱۱
 ۲۰ ۲۶ ۲۸ ۲۹ ۳۰ ۳۱ ۳۲
- هایدنهین R. Heidenhain : ۲۳
 هایمان Heinmann (ناشر) : ۲۸۳
 ۲۸۴
 هتسک E. Hitzig : ۱۷۲
 هربارت J.F. Herbart : ۶۵ ۱۰۸
 ۱۵۶ - ۱۵۷ ت
 هرتمسل (ناشر) : ۲۷۸ ۲۷۹
 هرورد E.B.M. Herford : ۲۷۱
 هرنج E. Hering : ۹۵
 هسرل E.G. Hasserl : ۱۵ ۹۹ ۳۳۱
 هالر Haller (ناشر) : ۲۷۲
 هلسون H. Helson : ۲۰۱ ۳۳۵
 هلمهسیوس C.A. Helvétius : ۶۳
 هلمهولتس H.L.M.V. Helmholtz :
 ۶۴ ۹۱ ۹۲ ۹۴
 هلنجورث H.L. Hollingworth : ۳۱
 ۳۲ ۳۸ ۱۲۶ ۱۶۳ ت
 همدن ساندنی (کلیه) Hampden Sidney
 ۱۶۲
 هنتر W.S. Hunter : ۱۳۷ ۱۳۸
 ۱۶۸ ت ۱۶۹ ۱۸۸
 هنری V. Henri : ۹۶
 هنکل B.M. JHinkle : ۲۸۳
 هنمون V.A.C. Henmon : ۳۲
 هنینج H.K.F. Henning : ۷۳ ۹۳ ت
 هوبز Th. Hobbes : ۵۰ ۵۱ ۶۱ -
 ۶۲ ت
 هوپکنز (کلیه، چونز...) J. Hopkins
 : ۱۰۳ ۱۴۹ ۱۵۱ ۱۵۲ ۱۶۹
 ۲۸۴
 هوجارث Hogarth (ناشر) : ۲۳۷

ولیز Williams (کلیه ...) : ۱۵۰
 ولیز ونورجیت (ناشر) : ۲۷۵
 ۳۰۹

(ی)

یارد Yard (ناشر) : انظر موقات و.
 یرکس R.M. Yerkes : ۱۱۲ ۲۰
 ۱۵۹ ت ۱۶۰ ۱۶۱ ۱۶۲
 ینج K. Young : ۳۱۳
 ینسن W. Jensen : ۲۷۲
 یونج K.J. Jung : ۲۳۲ ۲۱۱ ۲۴
 ۲۵۲ ۲۵۱ ۲۵۰ ۲۴۹ ۲۴۴
 ۲۵۷ ۲۵۶ ۲۵۵ ۲۵۴ ۲۵۳
 — ۲۸۰ ۲۶۴ ۲۶۰ ۲۵۹ ۲۵۸
 ۲۸۴ ت ۲۷۸ ۲۹۰ ۳۰۰ ۳۰۳
 ۳۱۴
 یشن E.R. Jaersch : ۳۳۱ ۳۱۷ —
 ۳۳۳ ت

۳۹ ۳۸ ۳۷ ۳۶ ۳۵ ۳۴ ۳۳
 ۱۶۲ ۱۵۰ ۹۶ ۴۸ ۴۲ ۴۱ ۴۰
 ۳۱۰ ۳۰۷ ۳۰۶ ۲۰۶ ۱۷۹
 ۳۲۷

وزدم J Wisdom : ۲۷۰

وطسون J. Watson : ۳۹ ۲۰ ۷
 ۱۰۸ ۱۰۶ ۱۰۵ ۱۰۴ ۱۰۳
 ۱۱۷ ۱۱۶ ۱۱۵ ۱۱۲ ۱۱۱
 ۱۲۶ ۱۲۵ ۱۲۴ ۱۲۳ ۱۱۸
 ۱۳۲ ۱۳۱ ۱۳۰ ۱۲۹ ۱۲۷
 ۱۴۶ ۱۴۵ ۱۴۳ ۱۴۰ ۱۳۹
 ۲۸۵ ۲۵۹ ۱۷۹ ۱۶۰ ۱۴۹
 ۳۲۴ ۳۱۹ ۲۹۹

ولاس G. Wallas : ۳۱۱ ۲۹۴ —
 ۳۱۲ ت

ولز F.L. Wells : ۳۷ ۳۲ ۳۱۰
 ولسون H.A. Wilson : ۳۲۹
 ولسون L.N. Wilson : ۱۵۲ ۱۵۱
 ولف W..B Wolfe : ۲۷۸ ۵ ۲۴۸



دليل الموضوعات

من ص - إلى ص

٤٣ - ٥

تقديم

هذا الكتاب : فكرته ومزياه : ٥ - ١٠ ؛ النظام القائم كأساس
لمدارس علم النفس : علم النفس التركيبي لقونت : ١٠ - ١٢ ؛
علم النفس الوظيفي المقابل : ١٢ - ١٥ ؛ الموقفون وسيكولوجيا
الازدواج : ١٥ - ١٨ ؛ نظرية التطور والوراثة العقلية : ١٨ -
٢٠ ؛ التنويم والتحليل النفسى : ٢٠ - ٢٤ ؛ علم النفس
الاجتماعى ومكدوجل : ٢٤ - ٢٦ .

روبرت ودورث : حياته وأسرته وبيئته الأولى : ٢٦ - ٢٧ ؛
تطوره الروحى وانتقاله إلى علم النفس : ٢٧ - ٢٨ ؛ أساتذته
ودراساته وأسفاره : ٢٨ - ٣٠ ؛ أثر كتل فيه وفى غيره :
٣٠ - ٣٢ ؛ مناصبه وعمله ومحاضراته : ٣٢ - ٣٤ ؛ مشاكل
علم النفس الديناميكي التى شغلته : ٣٤ - ٣٨ ؛ وجوه نشاطه
العملى والاجتماعى : ٣٨ - ٣٩ ؛ بحوثه وكتبه : ٣٩ - ٤٢ ؛
خاتمة : ٤٢ - ٤٣ .

٤٧ - ٤٨

تصدير

الفصل الأول

٤٩ - ٦٠

ما وراء خلافتنا الحارية
مدخل : ٤٩ - ٥٠ ؛ طلائع جريئة لعلم النفس الحديث :
٥٠ - ٥٢ ؛ سيكولوجيا القرن التاسع عشر الجديدة : ٥٢ - ٥٦ ؛
السيكولوجيا الجديدة فى القرن العشرين : ٥٧ - ٦٠

من ص - إلى ص

- تعليقات ٦٩ - ٦١
- ديكارت : ٦١ ؛ هوبز : ٦١ - ٦٢ ؛ الارتباطية : ٦٢ -
- ٦٣ ؛ فلهلم فونت : ٦٣ - ٦٦ ؛ دارون وجالتون : ٦٦ -
- ٦٨ ؛ وليم جيمس : ٦٨ - ٦٩

الفصل الثاني

سيكولوجيا الاستبطان والمدرسة الوجودية ٩٠ - ٧٠

- مدخل : ٧٠ - ٧١ ؛ نماذج لعلم النفس الاستبطاني : ٧١ -
- ٧٤ ؛ لا تختلف الملاحظة الذاتية جوهريا عن الموضوعية : ٧٤ -
- ٧٨ ؛ اتقدم أوسع لطريقة الاستبطان : ٧٨ ؛ ٨١ ؛ عمليات
- الفكر كما يراها التأمل الباطني : ٨١ - ٨٦ ؛ المدرسة الوجودية
- في علم النفس الاستبطاني : ٨٦ - ٩٠ .

تعليقات ١٠٢ - ٩١

- البصر : ٩١ - ٩٢ ؛ السمع : ٩٢ ؛ الشم : ٩٢ ؛ الذوق :
- ٩٢ ؛ اللمس : ٩٢ - ٩٣ ؛ هانس كارل هنجج : ٩٣ ؛
- هرمن إبنجهاوس : ٩٣ - ٩٥ ؛ جورج إلياس ميلر :
- ٩٥ - ٩٦ ؛ ألفرد بنيه : ٩٦ - ٩٧ ؛ أوزفلد كيلبه : ٩٧ -
- ٩٩ ؛ كارل مارب : ٩٩ ؛ كارل بيلر : ٩٩ - ١٠٠ ؛
- إدوارد برادفورد تشنر : ١٠٠ - ١٠١ ؛ رتشرد أفيناريوس :
- ١٠١ - ١٠٢

الفصل الثالث

السلوكية ١٤٧ - ١٠٣

- مدخل : ١٠٣ ؛ سلوكية وطسون : ١٠٣ - ١٠٧ ؛ التزوع

من ص - إلى ص

ما قبل السلوكي إلى تعريف موضوعي لعلم النفس : ١٠٧ -
 ١١١ ؛ ثورندايك والنمو السريع لعلم النفس الحيواني : ١١١ -
 ١١٤ ؛ لم جاءت السلوكية ثورة ولم تجيء تقدماً سلمياً : ١١٥ - ١١٨ ؛
 الموضوعية الروسية والمنعكس الشرطي : ١١٨ - ١٢٣ ؛ تقدم
 وطسون الأخير : ١٢٣ - ١٢٩ ؛ آراء وطسون في الانفعال
 والغريزة : ١٢٩ - ١٣٢ ؛ بعض مشاهير السلوكية الآخرين :
 ١٣٢ - ١٣٨ ؛ السلوك والمخ كما درسهما فرانتس ولاشلي :
 ١٣٩ - ١٤٤ ؛ مدلول السلوكية : ١٤٤ - ١٤٧ .

تعليقات ١٧٢ - ١٤٨

السلوكية : ١٤٨ - ١٤٩ ؛ جون بردوس وطسون : ١٤٩ ؛
 ولتر باورز بلزيري : ١٤٩ ؛ جورج ترمبول لاد : ١٤٩ - ١٥٠
 جرنيشل استانلي هول : ١٥٠ - ١٥٢ ؛ جون ديوي : ١٥٢ -
 ١٥٣ ؛ جيمس رولاند أنجل : ١٥٣ - ١٥٤ ؛ جيمس ماك
 كين كتل : ١٥٤ - ١٥٦ ؛ يوحنا فريدرش هربارت :
 ١٥٦ - ١٥٧ ؛ جيمس وارد : ١٥٧ - ١٥٨ ؛ إدوارد لي
 ثورندايك : ١٥٨ - ١٥٩ ؛ قانون الأثر : ١٥٩ ؛ روبرت
 يركس : ١٥٩ - ١٦١ ؛ إيثان پتر وقتش بافلوف : ١٦١ - ١٦٢ ؛
 فلاديمير بخترف : ١٦٢ ؛ إدوين بيركت توينباير : ١٦٢ ؛
 استيفنس اسميث : ١٦٢ - ١٦٢ ؛ إدوين راي جوتري :
 ١٦٣ ؛ هاري ليثي هولنجورث : ١٦٣ - ١٦٤ ؛ مرغريت
 فلوي واشبرن : ١٦٤ ؛ نظرية جيمس لانجى : ١٦٤ - ١٦٥ ؛
 ولتر برادفورد كتن : ١٦٥ - ١٦٦ ؛ مكس فريدرش ماير :
 ١٦٦ ؛ كارل اشتمف : ١٦٦ - ١٦٨ ؛ ألبرت پول فايس :
 ١٦٨ ؛ ولتر صمويل هنتر : ١٦٨ - ١٦٩ ؛ كارل اسپنسر
 لاشلي : ١٦٩ ؛ فرانتس جوزيف جول : ١٧٠ ؛ بيير فلورنس :
 ١٧٠ - ١٧١ ؛ شپرد أيشوري فرانتس : ١٧١ - ١٧٢ .

من ص - إلى ص

الفصل الرابع

سيكولوجيا الجشطت أو الشكلية ١٧٣ - ٢٠٠

مدخل : ١٧٣ ؛ جوهرية سيكولوجيا الجشطت : ١٧٣ -
 ١٧٦ ؛ سيكولوجيا الجشطت تؤكد الكل المنظم : ١٧٦ - ١٧٩ ؛
 دراسات جشطتية للإدراك الحسى : ١٧٩ - ١٨٥ ؛ الشكل
 والخلفية فى سيكولوجيا الجشطت : ١٨٥ - ١٨٨ ؛ دراسات
 الجشطتيين للسلوك : ١٨٨ - ١٩٣ ؛ ضرورة الاستبصار
 للتعلم باعتبار علم النفس الجشطتلى : ١٩٣ - ١٩٩ ؛ نظرية
 التعلم أقل يقيناً من ذى قبل : ١٩٩ - ٢٠٠ .

تعليقات ٢٠١ - ٢١٣

الجشطت : ٢٠١ - ٢٠٢ ؛ كرستيان فون إيرنفلس وتلاميذه :
 ٢٠٢ - ٢٠٤ ؛ تشارلز شرنجتون : ٢٠٤ ؛ جورج إليت
 كوجيل : ٢٠٥ ؛ مكس فريمر : ٢٠٥ - ٢٠٧ ؛ كورت
 كفكه : ٢٠٧ - ٢٠٩ ؛ فولفجانج كيلر : ٢٠٩ - ٢١٠ ؛
 روبرت موريس أوجدن : ٢١٠ - ٢١١ ؛ ريموند هولدر
 هويلر : ٢١١ - ٢١٢ ؛ پلاتو : ٢١٢ ؛ إدجر روبن :
 ٢١٢ - ٢١٣ ؛ كورت لفن : ٢١٣ .

الفصل الخامس

التحليل النفسى والمدارس الملحقة ٢١٤ - ٢٦١

مدخل ٢١٤ - ٢١٦ ؛ محاولات فرويد الأولى : ٢١٦ - ٢٢١ ؛
 خطوات أوسع فى فن التحليل النفسى : ٢٢١ - ٢٢٥ ؛
 سيكولوجيا فرويد : ٢٢٥ - ٢٢٨ ؛ دعاوى فرويد الرئيسية :

من ص - إلى ص

الدافع والعقد المستديمة : ٢٢٨ - ٢٣٣ ؛ افتراض فرويد
للشائبة أو القطبية الفطرية في الفرد ٢٣٣ - ٢٣٧ ؛ آراء فرويد
الأولى وآراءه الأخيرة في اللاشعور : ٢٣٨ - ٢٤٢ ؛ تلخيص
وتقدير : ٢٤٢ - ٢٤٤ ؛ تعديلات التحليل النفسي : علم
النفس الفردى لألفرد أدلر : ٢٤٤ - ٢٤٩ ؛ علم النفس
التحليلى ليونج : ٢٤٩ - ٢٥٤ ؛ الانطواء والانبساط عند
يونج : ٢٥٤ - ٢٥٦ ؛ اللاشعور كما يراه يونج وغيره :
٢٥٧ - ٢٦١ .

٢٦٢ - ٢٨٤ تعليقات

التنويم : ٢٦٢ ؛ فريدرش أنظن مسمر : ٢٦٢ - ٢٦٣ ؛ چان
مارتان شاركو : ٢٦٣ - ٢٦٤ ؛ مورتن پرنس : ٢٦٤ - ٢٦٥ ؛
پير چانيه : ٢٦٥ - ٢٦٨ ؛ زهوند فرويد : ٢٦٨ - ٢٧٣ ؛
فلهلم اشتكل : ٢٧٣ - ٢٧٥ ؛ فريتس فتلز : ٢٧٥ - ٢٧٦ ؛
ألفرد أدلر ٢٧٦ - ٢٨٠ ؛ كارل چوستاف يونج : ٢٨٠ -
٢٨٤ ؛ ماك كردى : ٢٨٤ .

الفصل السادس

٢٨٥ - ٣٠٤ مذهب القصد أو علم النفس الهورى

مدخل : ٢٨٥ ؛ حقيقة القصد : ٢٨٥ - ٢٨٧ ؛ دعوة
مكدوجل للقصدية : ٢٨٧ - ٢٩٥ ؛ نقاش حار حول الغرائز
٢٩٥ - ٣٠٠ ؛ الموقف الحالى للمذهب القصد : ٣٠٠ - ٣٠٤ .

٣٠٥ - ٣١٣ تعليقات

الغرض أو القصد : ٣٠٥ - ٣٠٦ ؛ زنج يانج كيو :
٣٠٦ - ٣٠٧ ؛ وليم مكدوجل : ٣٠٧ - ٣١١ ؛ جراهام
ولاس : ٣١١ - ٣١٢ ؛ لوثر لى برنارد : ٣١٢ - ٣١٣ .

من ص - إلى ص

الفصل السابع

وسط الطريق ٣٢٦-٣١٤

مدخل : ٣١٤ - ٣١٥ ؛ بعض علماء النفس الأجانب خارج
المدارس : ٣١٥ - ٣٢١ (في بريطانيا : ٣١٥ - ٣١٦ : في
ألمانيا : ٣١٦ - ٣١٨ ؛ في سويسرا وإيطاليا : ٣١٨ - ٣١٩ ؛
في فرنسا : ٣١٩ - ٣٢٠ ؛ في روسيا السوفيتية ٣٢٠ - ٣٢١) ؛
اتجاه علم النفس : ٣٢١ - ٣٢٦ .

تعليقات

وسط الطريق : ٣٢٧ ؛ تشارلز إدوارد اسبيرمن : ٣٢٧ - ٣٢٨ ؛
تشارلز صموئيل مايرز : ٣٢٨ - ٣٣٠ ؛ فليكس إميل :
كريجر : ٣٣٠ - ٣٣١ ؛ ادوارد اشيرانجر : ٣٣١ ؛ إيرش
رودلف بينش : ٣٣١ - ٣٣٢ ؛ دافيد كاتس : ٣٣٢ -
٣٣٣ ؛ فلهلم اشتيرن : ٣٣٣ ؛ إدوار كلا بارد ٣٣٣ - ٣٣٤ ؛
فكتور بنوبى : ٣٣٤ - ٣٣٥ ؛ سانتى دى سانكتس :
٣٣٥ - ٣٣٦ ؛ فريدش كيسو : ٣٣٦ ؛ فريدكر بولان :
٣٣٧ - ٣٣٨ ؛ هنرى بيرون : ٣٣٨ - ٣٣٩ ؛ جورج
ديما : ٣٣٩ - ٣٤٠ ؛ كورنيلوف : ٣٤٠ - ٣٤١ .

٣٦٥-٣٤٣ دليل المراجع

٣٧٩-٣٦٧ دليل الأعلام

٣٨٦-٣٨١ دليل الموضوعات

عنوان الكتاب في الأصل

Contemporary Schools of Psychology

نشرة لأول مرة في نيويورك ١٩٣١

The Ronald Press Company

وظهرت طبعته السابعة الأمريكية عند

نفس الناشر الأمريكي بنيويورك ١٩٤٤ والثامنة

الإنجليزية عند شركة ميثون Methuen & Co. بلندن ١٩٤٦



الأعمال العلمية في العلوم السلوكية للدكتور كمال دسوقي

مؤلفات :

- ١ - علم النفس العقابي - أصوله وتطبيقاته - دار المعارف بمصر ، ١٩٦١ .
- ٢ - سيكولوجية إدارة الأعمال - مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ .
- ٣ - سيكولوجية الإدارة العامة - الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- ٤ - اختيار الأفراد - الأنجلو المصرية ، ١٩٦٢ .
- ٥ - دينامية الجماعة في الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي ، الجزء الأول ، الأنجلو ، ١٩٦٩ .
- ٦ - الاجتماع ودراسة المجتمع ، الأنجلو ، ١٩٧١ .
- ٧ - علم النفس ودراسة التوافق، النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- ٨ - الطب العقلي والنفسي : الكتاب الأول - علم الأمراض والأعراض ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٤ .
- ٩ - دراسات في المجتمع السوداني - بحوث انثروبولوجية واجتماعية وإدارية - دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
- ١٠ - التعليم والتعلم - الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ .
- ١١ - النمو التربوي للطفل والمراهق - النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩ .

ترجمات :

- ١ - مدارس علم النفس المعاصرة (ودورث) - المعارف بمصر ، ١٩٤٨ .
- ٢ - علم النفس الإداري (ليفيت) ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٣ - وظائف الرؤساء (بارنارد) ، الفكر العربي ، ١٩٦٥ .

إشراف :

- مكتبة الثورة الادارية التي تصدرها دار الفكر العربي بالقاهرة ، ظهر منها :
- ١ - دراسة الادارة العامة - تأليف والدو ، وترجمة الشريف عبود ، ١٩٦٣ .
 - ٢ - عملية تدريب الرؤساء ، كنتور ، علي حامد بكر ، ١٩٦٤ .
 - ٣ - علم النفس الاداري ، ليفيت ، كمال دسوقي ، ١٩٦٤ .
 - ٤ - عناصر الادارة ، أورفيك ، علي حامد بكر ، ١٩٦٥ .
 - ٥ - المشاكل الانسانية للمدنية الصناعية ، التون مايو ، مبارك إدريس ، ١٩٦٥ .
 - ٦ - وظائف الرؤساء ، تشستر بارنارد ، كمال دسوقي ، ١٩٦٥ .
 - ٧ - إدارة المشاريع التجارية ، برانستون ، فاروق غرايه ، ١٩٦٦ .
 - ٨ - أعمال السكرتارية ، هاريسون ، نبيه حمودة ، ١٩٦٦ .
 - ٩ - اقتصاديات التنظيم الصناعي ، بيتشام ووليامز ، نازي سليم ، ١٩٦٩ .
 - ١٠ - إدارة الفنادق ، ويلر ، علي حامد بكر ، ١٩٧١ .
 - ١١ - تمويل المشروعات ، بيش ، محمد توفيق ماضي ١٩٧٢ .
- سلسلة التنمية والافراد التي تصدرها مكتبة الانجلو المصرية :
- مكتبة التنمية والأفراد - الانجلو المصرية - القاهرة .
- ١ - التدريب المهني العاجل للكبار ، مارتن ، شوقي جلال ١٩٦٩ .

